

من النقل إلى الإبداع

(المجلد الثالث) الإبداع

(٢) الحكمة العملية

(الأخلاق - الاجتماع والسياسة - التاريخ)

obeikandi.com

من النقل إلى الأبداع

المجلد الثالث : الإبداع

٣- الحكمة العملية

المؤلف : د / حسن حنفي



المكتبة المصرية للطباعة

الكتاب : المجلد الثالث ، الإبداع

٣- الحكمة العملية

المؤلف : د / حسن حنفي

طبعة / ٢٠٠٨

رقم الإبداع / ٢٠٠٨/١٧١٢

الترقيم الدولي : X-٠٤٧-٠٠٧-٩٧٧

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

حنفي، حسن

من النقل إلى الأبداع / حسن حنفي

القاهرة : المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، ٢٠٠٨

مج ٣ (ج ٣) ب ٢٤ سم

المحتويات : الأبداع

تدمك - ٠٤٧ ٠٠٧ ٩٧٧

تدمك ٨ ٠٤٨ ٠٠٧ ٩٧٧

تدمك ٦ ٠٤٩ ٠٠٧ ٩٧٧

١- الأبداع

١ - العنوان

١٥٣ ، ٣٥

رئيس مجلس الإدارة

محمد حامد راضي

العنوان والتليفون

٥ ش مصطفى طلوم

- المنيل - القاهرة

تليفاكس ، ٢٣٦٥٥٤٨٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikandi.com

الإهداء

❁ إلى حكماء الأمة من جيلنا

❁ قضاء على التغريب في عصرنا

حسن حنفى

oboikeyandi.com



الباب الثالث

الحكمة العملية



obeikandi.com

الفصل الأول

الأخلاق

أولاً: الأخلاق النفسية (الكندى).

١- من الحكمة النظرية إلى الحكمة العملية. إذا كانت الحكمة النظرية تشمل المنطق ثم الطبيعيات والإلهيات ثم النفس فإن الحكمة العملية تضم الأخلاق ثم الاجتماع والسياسة ثم التاريخ. فالعلم يسبق العمل، والعمل مثال للعلم. العلم مقدمة، والعمل نتيجة. العلم بداية، والعمل نهاية.

وترتبط الأخلاق بالنفس، والفضائل بقواها حتى إنه ليصعب الفصل بينهما. ثم تتحول الأخلاق الفردية إلى أخلاق اجتماعية وسياسية كما ضمت الحكمة النظرية الطبيعيات الإلهية أو الإلهيات الطبيعية معاً. أما التاريخ فهي الإضافة الجديدة التى لها جذورها فى الحكمة العملية القديمة من أجل تحويل المحور الرأسى الغالب على علوم الحكمة إلى المحور الأفقى من أجل إعادة صياغة النزوع نحو الله إلى تقدم فى التاريخ. صحيح أن القسمة الثلاثية عند القدماء الأخلاق والسياسة وتبدير المنزل أى الاقتصاد. والحقيقة أن السياسة والاقتصاد والاجتماع علم واحد فى علم الاقتصاد السياسى أو علم الاجتماع السياسى. والناقص هو فلسفة التاريخ.

والحكمة العملية تعبير قديم للإنسانيات كتعبير حديث. وهى ما سماه إخوان الصفا العلوم الإلهية الناموسية والشرعية، والفارابى العلم المدنى، ومسكويه "تهذيب الأخلاق". ويختلف الحكماء فيما بينهم على درجة التركيز عليها، بدرجة أقل عند الكندى والرازى، وبدرجة أكبر عند إخوان الصفا والفارابى وابن سينا ومسكويه. والعلم المدنى عند ابن باجه موضوع للطبيعيات نظراً لوحدة العلوم. الفعل الطبيعى فى الطبيعيات، والفعل الإرادى فى العمليات، الأخلاق والاجتماع. والمنطق رئيسها لأن البرهان رئيس على سائر الصنائع بما هو هيئتها وأن كلها تستتبط منه^(١).

(١) ابن باجه: النفس ص ٢٨٤.

٢- تطهير النفس. يتوجه الكندي بخطابه الأخلاقي إلى النفس. فالشقي المغرور الجاهل من رضى لنفسه بلذات الحس. وكانت هي أكثر أغراضه ومنتهى غايته. فالبكاء على من يهمل نفسه، وبنيهمك في ارتكاب الشهوات التي تنزل به إلى طبع البهائم، وتبعده عن الأمر الشريف. عليه الإخلاص له، وتطهير النفس حسب الطاقة. الطهر طهر النفس. فان الحكيم المتعبد لباريه إذا كان ملطخ البدن فهو أشرف من الجاهل بالمسك والعنبر. يعترف بفضل المتعبد الذي هجر الدنيا وكل الناس بما في ذلك الجهال. فالإنسان عابر سبيل إلى إرادة الباري. لا فرق إذن في الخطاب الأخلاق بين النظر والعمل، بين التحليل النظرى والنصائح العملية، بين الفهم والسلوك^(١).

٣- دفع الأحزان. وإذا كانت الغاية من الأخلاق السعادة فقد عثر الكندي عن هذا التيار في رسالته "الحيلة لدفع الأحزان". واستمر فيه الرازي في "كتاب اللذة"، وابن سينا في "دفع الغم من الموت" ثم تحول إلى علم مستقل عند مسكويه. وبالرغم من الأسس النفسية لهذه الرسائل إلا أنها تتجاوز النفس إلى الأخلاق أى إلى السلوك كما يتجاوز الاجتماع الأخلاق، والسياسة الاجتماع، والتاريخ السياسة. تناولته باقى العلوم مثل التصوف مثل الغزالي في كيمياء السعادة.

يجمع الكندي في الرسالة بين الطب والأخلاق والاشراق. ويستعمل لغة الملوك وأخلاقهم ضرباً للأمثال. أفضل تشبيه للجهاد، جهاد النفس كما يجاهد الملك الأعداء، والحذر والحيلة من العدو والاستعداد له، بصرف النظر عما يعبر هذا المثل عن واقع فعلى، ثقافة الرئيس والمرؤوس.

ويرتبط الحزن بالملكية في تعريفه. فالحزن ألم نفسى يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب. والحيلة تعنى الوسيلة وكما هو معروف فى علم الحيل. ونظراً لثنائية النفس والبدن المتطهرة فان العلاج يكون محاولة ذاتية للاستثناء عن طريق العمل العقلى والتغير الداخلى دون الواقع الخارجى شرب دواء أو بألم حديد ونار أو بانفاق مال، نوع من

(١) "فيأيها الإنسان الجاهل: ألا تعلم أن مقامك فى هذا العلم إنما هو كلمة ثم تصير إلى العالم الحقيقى فتبقى فيه إلى أبد الأبدىين. وإنما أنت عابر سبيل فى هذا الأمر إرادة بارئك عز وجل. فقد علمت جلة الفلاسفة، واختصرناه من قولهم أن النفس جوهر بسيط. فقط افهم ما كتبت به إليك تكن به سعيداً، أسعدك الله فى دنياك وأخرتك"، الكندي: القول فى النفس ص ٢٧٩-٢٨٠.

رياضة النفس الباطنية كما هو الحال في النزعة المثالية في الأخلاق، اعتماداً على النفس والعزيمة بالإضافة إلى العادة، والالتزام بالعادة المحمودة في الأمر الأصغر يسهل الالتزام بها فيما هو أكبر. هناك تشابه بين الطب البدني والطب الروحاني كما هو الحال عند إخوان الصفا والرازي والفارابي وابن سينا في "رسالة الطير". الطب لعلاج الأبدان والحيلة لدفع الأحزان لعلاج النفوس. وإصلاح النفس أولى من إصلاح البدن. فالإنسان بنفسه لا يبدنه. النفس ذات وغاية والبدن موضوع وآلة. وإصلاح الذات سابق على إصلاح الموضوع (١).

ويمكن القضاء على الحزن حتى يمكن تجنب الخداع في الأرض بعد معرفة أقسامه. فالحزن قسمان، من فعلنا ومن فعل غيرنا. والحزن من فعلنا قسمان: ما لا نريد ويكون في مقدورنا، وما نريد فنرضى. والحزن من فعل غيرنا قسمان: ما يمكن مقاومته لأنه يدفعنا إليه، وما يمكن تجنبه لأننا لم ندفع إليه (٢). الحزن هنا فعل حر يرضى به الإنسان، وهو في مقدوره، يمكن مقاومته أو تجنبه إذا كان دفعه إلينا ندفعه ولا نحزن، وإن كان دفعه ليس إلينا فلا نحزن قبل وقوعه. ويمكن تذكر الأحزان القديمة ومحزنات الغير، وسلوتنا وسلوتهم عنا، والتأسي بالماضي عندنا وعند الغير عن طريق الذاكرة الحية. ونذكر أن ما فقدناه أو ما فاتنا حدث لغيرنا. وكلهم قنعوا وانتهى حزنهم أي العبرة بالغير. والمصائب جزء من الموقف الإنساني نظراً للوضع الهش للإنسان (٣). والأشياء مشتركة بيننا وبين الناس، فلا نحزن على ما يؤخذ إلا عنوة. يقع الحسد إذن نظراً لوجود الاشتراك في الأشياء مع الآخرين. والعالم ليس ملكنا وحدنا. والشئ مرة لنا ومرة لغيرنا أي الاحساس بالعدل، والحب لأنفسنا وللآخرين. ولما كانت القنينة المشتركة عارية لمعير

(١) للكندی: رسائل، ص ١-٣٢ خاصة ص ١١/٦-٣١/١٢. وهي نفس النزعة المثالية التي عبر عنها توفيق الطويل في فكرنا المعاصر وقيل ديكرات وكانط وفشته في المثالية الغربية.



(٣) هذا هو أيضاً موقف الوجوديين.

هو مبدعها وهو الله فإن شردها فلا حزن عليها. الله أعطى وهو الذى أخذ. وهنا تبرز أهمية العقائد فى دفع الأحزان. ولما وقع التناقض بين عدم وجوب الحزن على الغائب والمفقود وضرورة الحزن عليه يكون الحزن أمراً مشتبهاً لا حكم ولا أساس له، حال بين الوجود والعدم. وهناك تناقض آخر بين عدم كره ما ليس بردى، وكره الردى مثل الموت ليس بردى والخوف منه ردى. الموت فى الطبع، والوجود من أجل الموت أى عدم كراهية ما ليس بردى وكراهية الردى^(١). وإن عدم الاشتغال بالقنية الحسية الضائعة بل بالوجود يودى إلى السلو عن الضائع. فالوجود دائم لا يضيع. لذلك كان الايمان بالله مخففاً للأحزان ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ﴾. وكل حزن على فائت أو مفقود يسقط عنا بعض المحرمات، ويحمى النفس من الغواية ﴿ عسى أن تکرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾، وكان الوجود محرم من البداية وليس حلالاً مع أن الأشياء فى الأصل على الإباحة.

وهو موضوع قرأنى ﴿ إن يكن أمسکم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾^(٢)، والحمد لله الذى يذهب الحزن ﴿ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾، والمؤمنون ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ عكس الصوفية فى إثبات الحزن كأحد المقامات. ولا يمكن دفع الأحزان عن طريق إثبات التناقض المنطقى فى الحزن. ليس الحزن موضوعاً كمياً، ما دامت المصائب قد وقعت فيمكن التخفيف من دفعها كما وكأن كم المصائب فى تزايد باستمرار. وليس فى الوجود غنى وتعويض عن المفقود. وهل البشر أعداد على البذل؟ قد يودى دفع الأحزان إلى نهاية الغضب والتمرد والثورة، ويصبح "أفيون الشعب" كما هو الحال فى المثل الشعبى "الله جاب، الله خد، الله عليه العوض". ليس الآخر مقياساً للسلوك والعبرة بالآخرين فالأمر ذاتى فردى خالص. وقد لا تكون الطبيعة العربية فى حاجة إلى دفع الأحزان لأنها مرحلة تعرف النكات. ولا يستطيع الإنسان تطبيق هذه الوصايا واحدة وراء الأخرى لأن الحياة تيار جارف ومغامرة لا يمكن التحكم فيها عقلاً. الحزن طبعى فى الإنسان وجزء من نسيج وجوده والتخفيف عنه عملية نفسية ولكن لا يمكن القضاء عليها وإلا فقد الإنسان وجوده. ويمكن طرح نفس التساؤلات حول الفرح وليس حول

(١) وهو ما نقوله ميمون دى بوفوار فى كل البشر فاتون، والوجود من أجل الموت عند هيجر، والوجود الهش عند مارسل، ونفيه كظاهرة موضع اهتمام عند برشتفيج.

(٢) وذلك مثل رهان بمكال وأفضلية حال المؤمن على حال الكافر.

وتكثر طرق دفع الأحزان عن طريق الوصايا المتداخلة واعتماداً على الذات دون العبرة بالغير. إذ يمكن مشاهدة العالم العقلي تعويضاً عن المتغير بالثبات، والفناء بالبقاء، والزوال بالدوام، وعدم الرضا بأن نكون أجهل الجاهلين، وأقظ الأفظين، وأجور الجائزين، ومن ثم يكون العلم طريقاً لدفع الأحزان. ولما كان عدم العقل خسة لزم التخلي عن مرتبة الجهل، فالجهل شفاء. وإذا كان عدم الحزن على المفقود والغائب ممكناً فعدم الحزن على الاطلاق ضرورى. وتذكر الباقي سلوى عن فقدان المعلوم حسياً كان أم عقلياً. وتوقع الخير فى المستقبل خير من التأسى على الماضى. فتتحول العادة إلى خلق مستفاد، والتعود على تربية دائمة، والسرور بالشاهد، والسلوى عما فات. ولا نضع لأنفسنا شيئاً ربيعاً أى تصور العالم على أنه خير، وأن الأفضل عدم وقوع المصائب البتة وهو مستحيل. فالمصائب جزء من الحياة، والحزن أفضل من عدم الحزن. ويتحمل المؤمن فى إصلاح النفس ومن جراء صعوبة العلاج أضعاف ما يتحملة آخر فى علاج البدن. والشر جزء من الخير. ولو لم يكن هناك شر لما كان هناك خير ﴿ عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ (١).

والحقيقة أن هذه ليست وسائل بل تربية نفسية واستعدادات عقلية، تقوم على استدعاء الذكريات، واسترجاع الماضى، واستخراج مكونات النفس أى العلاج عن طريق السيرة الذاتية والتأمل الباطنى، وقلب النظرة من الخارج إلى الداخل. ويستعمل الكندى لغة التقنين والواجب وعبارات "المابنيغيات" مما يدل على التوجه العملى. و"ينبغى" "تتضمن" "لا ينبغى"، والإيجاب يتضمن السلب وكما هو الحال فى الأمر والنهى عند الأصوليين. والحديث بلغة "نحن" أى الجماعة والأمة^(٢). وأسلوب الوصايا والتذكير أسلوب قرآنى، أسلوب لقمان لابنه وهو يعظه والذي ظهر فى الخطاب السياسى إلى أدبيات نصائح الملوك وليس بالضرورة اختفاء أثر وصايا أرسطو لئلا سكندر.

(١) الكندى: الحيلة لدفع الأحزان ص ١٧-١٨.

(٢) "فمثل أيها الأخ المحمود هذه الوصايا مثلاً ثابتاً فى نفسك تتج بها من آفات الحزن، وتبلغ بها إلى أفضل وطن من دار القرار ومحل الأبرار، كمل الله لك السعادة فى داريك، وجلل الاحصان فيها إليك، وجعلك من المقنتين والمتعممين بجنى ثمر العقل وباعدك عن ذل حساسة الجهل، الكندى: الحيلة لدفع الأحزان ص ٧-٨/١٨/٢٢/٣١، النفس ص ٣١.

وواضح أن الباعث وراء كل هذه الوصايا هو الدين المؤول أى الدين المقنع، الدين غير المباشر بفعل التشكل الكاذب. فعالم العقل عالم الثبات والدوام الذى لا يضيع فيه شئ. وهو التصور الفلسفى للملكوت الأعلى كما هو الحال فى الأخلاق المثالية. الثبات والدوام معدومان فى عالم الكون والفساد الذى يعيش فيه الإنسان، وموجودان اضطراراً فى عالم العقل الذى يمكن مشاهدته والذى يبقى فيه كل مفقود ومعدوم ومحسوب ومطلوب. فى عالم العقل لا يفقد ولا يعدم أى شئ. لا يوجد حزن فى عالم العقل بل فى عالم الجهل، عالم الزوال والتغير، يحزن الإنسان للفراق فى عالم الدنيا، ولا يحزن فى عالم الوصال الذى تغيب فيه الآلام النفسية والفنيات الحسية. ولو قيل له أن ترد إلى عالم الدنيا الفسيح لكان جزعه أكثر. فى عالم العقل لا يضيع شئ. كل شئ فى موضعه. وفى عالم الدنيا يضيع الشئ لأنه يصبح فى غير موضعه، فيكون منبع الآلام والردائل والأسقام والغضب والشهوة. ويضرب الكندى المثل بحكاية رمزية، مركب نزل منها الركاب ليحمل كل منهم شيئاً من الجزيرة. وعادوا وغرقت وضاع كل شئ إلا من حمل الحكمة. وهى تشابه حكاية الصوفية عن الخضر والسفينة التى خرقت وغرقت طبقاً لأصل الحكاية فى القرآن، ومثل رسالة الطير لابن سينا والغزالي عن هجرة الروح.

وهناك أيضاً الدين الصريح، الدين المباشر، ذكر الله، المبدع، جل ثناؤه، والحكمة الإلهية فى الكون، وعدم الحزن لمخالفة هيئة الرسول لنا لأنه ليس واجباً أن تكون الصورة كما نهوى فى الزمان والخلق. تكفيه المحبة منا، وهو ما قد يخالف صورة الرسول البشرى فى القرآن الذى يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق.

ثانياً: اللذة والطب الروحاني (الرازي).

ونتركز الأخلاق عند الرازي فى موضوعين: اللذة والطب الروحاني. هل على طرفي نقيض. اللذة لطب الأبدان، والروحاني لطب النفوس أم على التكامل كما يبدو ذلك فى السيرة الذاتية؟

١- اللذة. لم تبق من كتاب "اللذة" للرازي إلا بضعة مقتطفات^(١). ومع ذلك فاللذة

(١) هل سبب ضياع كتاب "اللذة" تدمير كل مؤلفات المعارضة؟ لم يُحفظ الكتاب إلا فى منتخبات مترجمة إلى الفارسية فى "زاد المسافر" لناصر خسرو وردة عليها وربما لاتفاقه مع طبيعة الفرس ولأنهم من المعارضة. سمي ابن النديم "كتاب اللذة"، "مقالة" وسماه البيروني "فى اللذة". وسماه الرازي =

هى الخروج من الحال غير الطبيعية، والألم هو الخروج عن الحالة الطبيعية وكان الطبيعية غير اللذة، واللذة غير الطبيعية. فقد تكون اللذة انتقالاً من حالة الطبيعة الكامنة إلى حالة الطبيعة المزدهرة. والحالة التى ليست فيها لذة ولا ألم هى أيضاً حالة طيعية، ولا تترك بالחס، حالة الخمول قبل ظهور الامكان والتحقيق. واللذة أيضاً هى الراحة من الأمل، تعريفاً لها اعتماداً على الأضداد. ولا توجد لذة إلا بعد ألم. اللذة حس مريح، والألم حس مؤلم واللذة لها وقت معلوم وإلا تحولت إلى ألم. وإذا استمرت صارت ألماً.

وتتحول نظرية الرازى فى اللذة إلى تصور عام للشر، وهو أن الشر فى الوجود أكثر من الخير، وأن مقارنة راحة الإنسان ولذته فى مدة مع ما يصيبه من الألم والوجع والحزن تكشف عن أن الشر أعظم من الخير وذلك لنقد وجود الخير فى العالم اعتماداً على أن الله هو الخير للمحض^(١). وذلك مثل المذاهب المسيحية التى تجعل الألم هو الأساس (الخطيئة) واللذة الفرع. الألم القاعدة، واللذة الاستثناء. وهى أساس أخلاق المتطهر. وقد يقترن مذهب إخوان الصفا وابن الروندى من مذهب الرازى. وقد ظهر فى نفس العصر.

وقد هاجم المتكلمون الرازى وفندوا أقواله بأنه أخذ ما بالعرض على أنه بالذات. كما حمل عليه الفارابى وابن الهيثم وابن ميمون. ورد عليه بعض علماء الشيعة مثل أبو حاتم الرازى والكرمانى وناصر خسرو ربما لدفاعهم عن الثنائية المتطهرة ضد المذهب الواحدى عند أصحاب الطبائع. وبصرف النظر عن صحة ما نسب إلى استدلاله المنطقى فإن مذهب اللذة مثل مذهب أصحاب الطبائع نقد للثنائية المتطهرة التقليدية فى علم الأخلاق. بل قد تساعد على الثورة. والغضب بدلاً من تبرير الشر أو التعويض عنه. ولا

- مقالة فى مائة اللذة. ولخص ابن أبى أصيبعة الموضوع "كتاب فى اللذة غرضه فيها أن يبين أنها دافعة تحت الراحة". وهو موضوع شائع عند الحكماء. فمسكويه له رسالة فى الذات والآلام، ولابن الهيثم "فى طبيعتى الألم واللذة"، فى طبائع الذات الثلاث، والحسية والمنطقية والمعادلة. وللرازى كتاب فيما جرى بينه وبين شهيد البلخى فى اللذة. وسماه ابن النديم والقفطى "كتاب فى نقضه على شهيد البلخى فيما ناقضه فى أمر اللذة". ونقل عنه ابن نوبخت مذهباً فى اللذة. ويرجع الفضل للمستشرقين فى جمع أقواله المتناثرة فى اللذة. الرازى: رسائل الرازى ص ١٣٩-١٦٤.

(١) وبالتالي فهو أقرب إلى سارتر منه إلى برتشفيج، وإلى أوغسطين منه إلى أفلوطين، بين تأكيد الشر ونفيه على المستوى الوجودى.

ضير من تعريف اللذة سلباً بأنها دفع الأكم فهي قاعدة أصولية: درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح.

٢- الطب الروحاني: وهي محاولة للجمع في علم واحد بين الطب البدني للأطباء والطب الروحي للصوفية. البداية بالواقع في الطب والغاية منه إصلاح النفس المفارقة للبدن وهو على خلاف الطب فهو كتاب يجمع بين الأخلاق والنفس والأدب والعلم واللغة.

وهو مشروع الحضارة الإسلامية ذاته في الجمع بين المثالية والواقعية، بين الطبيعية والروح. ولا فرق بين النفس والروح في هذه الحالة. كلاهما مصطلحان قرآنيان. يتحدث القرآن عن الروح من أمر الله في حين أن النفس يمكن معرفتها والتعامل معها وتزكيتها وتطهيرها نظراً لاتصالها بالبدن. والرازي يفضل استعمال لفظ "الروح" على لفظ "النفس". قرن باستمرار بمؤلفات يحيى بن عدى ومسكويه^(١). واستمرار التأليف في الموضوع والاتجاه به نحواً أخلاقياً دينياً صوفياً دليل على التراكم الحضارى. وقد ركز الشيعة أيضاً على النفس والروح المتحدة بالطبيعة والله مثل الصوفية، ويظهر الجانب الانساني أكثر من الطبيعيات والميتافيزيقا المجردة عند أهل السنة^(٢). واستعمله المسلمون والمسيحيون تعبيراً عن روح الحضارة التي شارك فيها الجميع خاصة في مصر عند الجنائزيين. وهو من نوع "الحيلة في دفع الأحران" للكندي و"دفع الغم من الموت" لابن سينا. والسؤال هو: هل صحيح أن الرازي جمع بين الطب البدني والطب الروحاني أم أنه ضحى بالطب البدني في سبيل الطب الروحاني، بالجسم في سبيل النفس؟ كيف تبني الرازي وهو من أنصار التصور الواحدى هذه الأخلاق غير الطبيعية والأقرب إلى الأخلاق الصوفية الاشرافية؟ كيف يمكن للطبيب أن يقع في هذه الهوة والازدواجية بين

(١) كذلك يقرن برسالة هرمس في توبيخ النفس ومرثية تقرأ في تجنيز الأموات.

(٢) ورد عند ابن أبي أصيبعة بعنوان كتاب الطب الروحاني*. ويعرف أيضاً بطب النفوس. وغرضه إصلاح أخلاق النفس. وهو عشرون فصلاً واقتبس منه إيليا النصيبيني مطران نصيبين في رسالة له بين الرازي والرجل المتوغل في علم النحو الواردة في الفصل الخامس من الطب الروحاني. كما اقتبس منه الشيرازي الفيروزبادي (٤٧٦هـ) الطب الروحاني. وهو مؤلف في المواعظ والأخلاق. واقتبس منه أبو الفرج الجوزي (٥١٧ هـ) بالإضافة إلى أحاديث نبوية وأشعار من حكم العرب. ونقده معاصر للرازي، ابن اليمان، والأصح ابن النمار، ورد الرازي عليه. كما رد عليه الداعية الاسماعيلية حميد الدين الكرمانى لتصحيح موقف أبى حاتم الرازي في مناظرته مع الرازي ولنقد الطب الروحاني.

الطب المهني والحياة الشخصية العامة؟ وأين مبدأ العلية الذي يقوم عليه الطب؟ هل هناك علية أكبر تدرج تحتها الأجسام والأرواح، الأبدان والنفوس؟ ربما كان السبب العصر والمخاطر التي كانت تهدد الأخلاق، والأطباء هم الحكماء. وربما كان السبب أن الطب نفسه من العلوم الفلسفية، يقوم على مقولات فلسفية مثل الجوهر والمضاف والأخلاق. كما أنه دراسة للإنسان، فالإنسان نفس وبدن. كما تظهر تشبيهات للجسم الحي وطب الأبدان بطب النفوس وطب المجتمعات كما هو الحال عند الفارابي في "فصول متزعة". هناك وحدة الفكر عند الطبيب الحكيم. فهو طبيب وفيلسوف.

وما الفرق بين الطب الروحاني والطب النبوي؟ هو الفرق بين فهم النظر والتجربة ومنهج النقل والرواية. كما أن الطب النبوي أقرب إلى طب الأبدان منه بطب النفوس. وهل يحض الطب الروحاني على الثورة أم يكبح جماح النفس للسيطرة عليها وإلجامها؟

وبالرغم من أن "الطب الروحاني" عشرون فصلاً إلا أن الفصول الأربعة الأولى تمهيد في بيان فضل العقل، وقمع الهوى وعوارض النفس الرديئة، وتعرف الرجل عيوب نفسه. ثم تأتي الفصول الأربعة عشرة الثانية لتعداد عيوب الرجل: العشق، واللذة، والعجب، والحسد، والغضب، والكذب، والبخل، والفكر، والهمل، والشره، والأنهماك في الشراب، والاستهتار بالجماع، والعيب، وطلب الرتب والمنازل الدنيوية، والاكتماء، والافتقار، والانفاق. وكلها أخلاق تطهيرية تقوم على الإرادة الفردية، والعيوب الفردية والحلول الفردية وكان المجتمع لا وجود له. والخاتمة فصلان تبدأ في الفصل الثامن عشر في الفرق بين ما يرى الهوى وما يرى الفعل، وهو موضوع أول فصلين، وفي السيرة الفاضلة والخوف من الموت، فصلان متضادان مثل تضاد الفصلين الأولين.

فهو رسالة في إصلاح الأخلاق بالرغم من عنوانها الذي يجمع بين الطب والتصوف. وهو العالم المادى الذى يقول بالقنماء الخمسة. يعتمد على تحليل انفعالات النفس من أجل تهذيب الأخلاق مثل يحيى بن عدى ومسكويه، وعلى تحليل التجارب الإنسانية لمعرفة ماهياتها^(١). يسودها أسلوب الماينبيغيات إيجابياً وسلباً لغة الأوامر

(١) وذلك مثل ديكارت واسبينوزا في الفلسفة الغربية في بداية العصور الحديثة تحت تأثير الفلسفة الإسلامية.

والنواهي بمصطلحات الأصوليين. ويعبر عن النتائج بالقصص والأمثال والحكايات بعيداً عن لغة الكندي واضطراب المصطلحات. وهو أسلوب إنشائي انتقائي لا علمي، سلاح ذو حدين بحكايات وأمثال أخرى تفيد الآراء المناقضة ما دام البرهان غائباً.

وتقوم الأخلاق على التوسط ونقد الإفراط والتقريط. وهو مقياس موروث. يصدق على الأخلاق وإن كان في التطبيق أحياناً في حالة الثورات، يزاح جانباً حتى يُرد إلى المجتمع كله تعادله. وفي نفس الوقت تقوم على مقياس المنفعة والضرر. وهو مقياس شرعي أصولي من الموروث وليس من الواقع. كما أنه مقياس عام ينطبق على البشر جميعاً بصرف النظر عن الفروق الفردية والجماعية والحضارية.

والطب الروحاني طب عقلاني بالرغم من العنوان، يبين فضل العقل ويمدحه. فالعقل شرط للأخلاق. أعطاه الله إلى الإنسان وجعله أسماً ما فيه، مشرفاً وقائداً ورئيساً. ويكون السؤال: لماذا لا ينشأ العقل من طبيعة الإنسان ويكون معطى له من الخارج؟ العقل الطبيعي شئ والعقل الديني شئ آخر وهو تقابل العقل والنقل. وظيفته قمع الهوى وردعه كما قال أفلاطون الحكيم. وهنا تبدو الثنائية المتطهرة، الحرب مع النفس ضد النفس، وانقسام النفس على ذاتها، قسم يحارب قسماً، مما يجعل الطب الروحاني، أقرب إلى التصوف منه إلى الفلسفة، رياضة ومجاهدة عقلية وإرادية، تشبهاً بالله لأن الله خال من الشهوة واللذة^(١). وهو قريب من حكمة الإشراق على مستوى الأخلاق وليس على مستوى المنطق والمعرفة^(٢). والسؤال هو: كيف تتفق هذه الأخلاق الثنائية المتطهرة المتصارعة مع الطبيعيات والميتافيزيقا الواحدية؟ وهل الطبيعة هوى أم ميل طبيعي؟ شر أم خير؟ لماذا يكون الهدى مخالفاً للطباع؟ ولماذا تختلف الطباع ولا تكون واحدة؟ وماذا عن القطرة والصيغة التي فطر الله الناس عليها؟ وهل يمكن التشبه بالله الخالي من الشهوة واللذة فيصبح الإنسان ملاكاً لا حيواناً، وهو لا ملاك ولا حيوان؟ ولماذا لا يكون لله لذة الفرح بالمؤمن والنقل ملئ بصفات الانفعال للذات بالرغم من صفة الإرادة القادرة على

(١) وذلك مثل الأخلاق عند الرواقية واسينوزا وكناط. هي أفلاطونية طبيعية تجمع بين الروح والطبيعة أو ماسماه رافيسون الوضعية الروحانية Le Positivisme spirituel ثم برجسون.

(٢) ١- في فضل العقل ومدحه، الطب الروحاني ص ١٧-١٩. ٢- في قمع الهوى وردعه وجملته من رأى أفلاطون الحكيم ص ٢٠-٣٢.

السيطرة على الانفعالات عند علماء أصول الدين؟

مهمة الطب الروحاني إذن التخلي عن عوارض النفس الرديئة على انفرادها وإصلاح عيوبها بعد تعرف الرجل على عيوب نفسه^(١). وهي نظرة تشاؤمية تبدأ بالشر كمبرر للخير. فهل النفس رديئة أمانة بالسوء تحتاج إلى تقويم من الخارج من الله وأخلاق المنع والقهر الديني؟ قد تكون مقدمة لأخلاق الطغيان السياسي. وهو إصلاح فردي «لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» وكان المجتمع خال من المسؤولية. وهل يكفي إصلاح النفس الفردي بأخلاق البطولة أم يلزم أيضاً تغيير المجتمع بفعل الثورة؟ إن عيوب النفس ليست في الطبيعة البشرية بل في الأوضاع الاجتماعية. لا تعرف فقط عن طريق الاستنباط بل أيضاً بتحليل الواقع الاجتماعي.

ويفصل الرازي عيوب النفس دون وضعها في مجموعات متشابهة. منها العشق والعجب وهما يدلان على الفرح بالذات والزجسية والأنانية. وهل العشق والألف واللذة موضوع واحد؟ ألم يركز الصوفية على العشق، والحب إبداع وخلق؟ ولم إدانة اللذة الحلال وهي قيمة شرعية «قل من حرم زينة الله لعباده والطيبات من الرزق»؟ وماذا عن ثقافة الجوارى والأماء وما ملكت الأيمان وتعدد الزوجات وزواج الأبقار وحب الدنيا؟ وهل تتطلب الأخلاق بالضرورة إدانة الطبيعة ورفض الضرورة؟ ويمكن التخلي عن العجب دون أن يؤدي ذلك إلى التواضع المصطنع والاحساس بالدونية أو التملق والمداينة أو الغرور المقلوب، المتخفى المستور^(٢).

فإذا كان العشق والعجب من الانفعالات الفردية فإن الحسد والغضب والكذب والبخل من الانفعالات تجاه الآخرين^(٣). فالحسد عيب. والسؤال هو: عيب ذاتي أم رد فعل على أوضاع اجتماعية مثل سوء توزيع الدخل والاحساس بالحرمان ولا يمكن حسابه رياضياً مثل حساب الذات، جمعاً وطرحاً وضرباً وقسمة وجعل الحسد حاصل مجموع البخل والشر؟ ودفع الغضب نوع من السيطرة على ردود الأفعال تجاه أفعال الآخرين.

(١) جملة ما قدمت من قبل ذكر عوارض النفس الرديئة على انفرادها، السابق ص ٣٢-٣٣، في تعرف الرجل عيوب نفسه ص ٣٣-٣٥.

(٢) وذلك مثل هوبز في التوحيد بين قمع النفس وقمع الشريعة والسلطان السياسي.

(٣) ٥- في العشق والألف وجملة في اللذة، السابق ص ٣٥-٤٦، ٦- في العجب ص ٤٦-٤٧.

واطراح الكذب نوع من المقاومة الايجابية بدلا من التراجع السلبي عن المواجهة بالرغم مما يقال عن الكذب الأبيض وخدع الحرب والتمويه على الأعداء والأعمال بالنيات والتصديق بالقلب دون اللسان وحماية النفس في لحظات الاضطهاد. ومقاومة البخل هو تحرير للذات من الحرص على الأشياء دفاعا عن أولوية الآخر على الشيء^(١).

ويتم التخلص من الهموم الذاتية الضارة، الفضل الضار من الفكر والهم ودفع الغم حتى تتحرر الذات وتشحذ قواها وكما نية على ذلك القرآن مخففا عن الرسول ﴿لعلك باخع نفسك إلا يكونوا مؤمنين﴾، ﴿لعلك باخع نفسك على أثارهم﴾^(٢). كما يتم التخلص من الغم القاتل الذي يؤدي إلى الشاؤم والسلبية، ويؤدي إلى العدم في الوجود وليس الحزن الفعال الذي يدفع على التأمل والتبصر^(٣).

ثم تأتي مجموعة من الأهواء تمنع حرية النفس وتميزها عن البدن مثل الشره، والسكر، والجماع، والولع والعبث والمذهب^(٤). فالشره ربط للنفس بالبدن والتخلص منه اتباعا للحكمة الشرقية القديمة "أنا أكل لأبقى وأنت إنما تريد أن تبقى لتأكل"^(٥). والتخلص من السكر موجهه إلى العرب ومجالس القماء. فقد كانت العادة مجالس اللهو والشراب أو هي نصائح مجانية كرد فعل على ما هو شائع في العادات الاجتماعية. أما الاعتدال في الجماع فلأن كثرت رديئة للنفس، يضعف البصر، ويهدد البدن، ويسرع بالشيخوخة والذبول، ويضر بالدماغ والعصب، ويسقط القوة. والسؤال هو: كيف يتم ذلك في مجتمع الجماع فيه موضوع رئيسي، تعدد الزوجات والاماء وما ملكت الأيمان؟ ألم يؤت الرسول قوة على الجماع تعادل أربعين رجلاً؟ ألا تؤدي النبوة والعمل العقلي إلى ازدهار الجماع وزيادة الشبق؟ هل الجماع مجرد شهوة أم هو تعبير عن الحياة وفورتها، حيوانية أم روحية؟ ربما كانت الدعوة رد فعل على حياة المجون في عصره تبرة للذمة وتنكيراً

(١) ٧- في الحسد، السابق ص ٤٨ - ٥٤. ٨- في دفع الغضب ص ٥٥ - ٥٦، ٩- في اطراح الكذب ص ٥٦ - ٥٩. ١٠- في البخل ص ٥٩ - ٦١.

(٢) ١١- في دفع الفضل الضار من الفكر والهم، السابق ص ٦١ - ٦٣، ١٢- في دفع الغم ص ٦٣ - ٦٩.

(٣) ليس كيركجارد وهيدجر وفلاسفة الوجود إن في الغرب هم أول من تناولوا هذه الموضوعات.

(٤) ١٣- في الشره، السابق ص ٧٠ - ٧٢، ١٤- في السكر ص ٧٢ - ٧٤، ١٥- في الجماع ص ٧٤ - ٧٧،

١٦- في الولع والعبث والمذهب ص ٧٧ - ٨٠.

(٥) وهي عبارة مشهورة منسوبة فيما بعد إلى موليير في "البخيل"، يجب أن نأكل لنعيش لا أن نعيش لنأكل؟.

بالغائب. ولا تقل أضرار عدم الجماع عن أضرار كثرة الجماع. أما الولع والعبث والمذهب (بضم الميم) فإنها عادات عربية قديمة، الولع بالصبيّة، العبث بأجزاء الجسد اللحية والعضو، والمذهب للطهارة، وهى أمور فقهية، وقد كانت عادة العرب العبث بأصابع أرجلهم وأعضائهم فى المجالس العامة بما فى ذلك صلاة الجماعة.

ويتم تحرير النفس من الهولة نحو الاكتساب والاقتناء والانفاق والجري وراء حطام الدنيا أى سلوك الطبقات العليا وحياة البذخ والاسراف وهو ما لا وجود له فى سلوك الطبقات الدنيا وحياة الفقر والضعف وشظف العيش^(١). كما يتم تحرير النفس من طلب الرتب والمنازل الدنيائية جمعاً بين سلطة المال وسلطة السياسة. وتطول قوائم طلاب المناصب فى العصر الحاضر من فقهاء السلطان.

وفى مقابل أهواء النفس وانفعالاتها هناك السيرة الفاضلة، وهى السيرة الفلسفية مع نقد الديانات والمذاهب الأخرى خاصة الديصانية والمحمر والمنانية. فالفلسفة هى تعلم الموت كما قال أفلاطون من قبل وكما هو الحال فى الموروث الأصيل «كل نفس ذائقة الموت». لذلك انشغلت الديانات والمذاهب بأمور المعاد وأحواله وأحوال ما بعد الموت^(٢).

وقد نقد الكرمانى فى "الأقوال الذهبية فى الطب الروحاني" للرازى بأنه ليس طبياً ولا روحانياً نظراً لفساد القسمة الثلاثية عند أفلاطون وتعلق النفس بشخص آخر بعد مفارقتها أى التناسخ وردها إلى الأجسام. فزم الهوى ليس طبياً روحانياً إنما هو وسيلة لاثبات النبوة ومدح العقل. ومع ذلك به بعض المآثر مثل مناسبة النفس للجسم وتحليل علل الجسم الذاتية والمكتسبة، ووصف النفس العليلة لعلاجها وبرئها. وربما أراد الرازى بالطب الروحاني الجمع بين الشائنية المتعارضة، النفس والبدن، طب النفوس وطب الأبدان فى طب واحد أقرب إلى طب النفوس منه إلى طب الأبدان. يكفى الغرض والقصد والنية^(٣).

(١) ١٧- فى الاكتساب والاقتناء والانفاق، السابق ص ٨٠-٨٤، ١٨- فى طلب الرتب والمنازل الدنيائية ص ٨٧٥-٩١.

(٢) وهو ما ساء أحد رسام "الكاريكاتير" المعاصرين "عبده مشتاق".

(٣) ١٩- فى السيرة الفاضلة، السابق ص ٩١-٩٢، ٢٠- فى الخوف من الموت ص ٩٢-٩٦.

ثالثاً: الأخلاق العملية والنظرية (الفارابى):

وإذا كانت الأخلاق العملية قد غلبت على الأخلاق النفسية عند الكندي، وماهية اللذة والطب والطب الروحاني عند الرازي فإن الفارابى قد حاول الانتقال من الأخلاق العملية إلى الأخلاق النظرية، من طب الأبدان وطب النفوس إلى التنبيه على سبيل السعادة وتحصيلها إلى "بستمولوجيا" الأخلاق وميتافيزيقا أو "أنطولوجيا" الأخلاق.

ولا حرج في كثرة تحليلات الأخلاق عند الفارابى. فهو فيلسوف الأخلاق والمدينة الفاضلة بلا منازع، فيلسوف الإنسان. وله نصوص مسهية وطويلة ينقصها التركيز مما جعل أسلوب التذكير أفضل بكثير من الاسهاب، والتأليف المنطقي أفضل من التأليف المبدنى. وتكرر مادة "التنبيه على سبيل السعادة" في "تحصيل السعادة" دون تقسيم للأفكار والمواقف، في فكر سيال مناسب بلا بنية أو نسق.

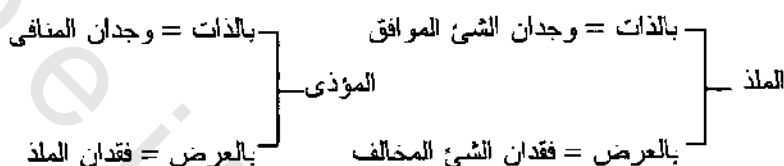
ويبدو أن تحصيل السعادة متقدم في زمان التأليف لأن أسلوبه ومصطلحاته مضطربة مثل الكندي اعتماداً على الحروف قبل تحولها إلى مفاهيم مثل ماء، لم، أى، أن. ويبدو أحياناً أنه متأخر في التأليف لأنه يحيل في الفقرة الأخيرة إلى باقى الكتب. وهذا يضع سؤال دلالة الترتيب الزماني للفيلسوف الإسلامى باستثناء أصحاب السيرة الذاتية كحنين بن اسحق والغزالي. هل يتطور الفيلسوف ويتطور فكره معه أم أنه يعر عن بنية ثابتة للحضارة وعلومها. فالعلوم هى التى تضع نفسها من خلاله وما هو إلا مجرد عارض لها (١).

١- طب الأبدان وطب النفوس. ويستمر التشابه بين صحة النفس وصحة الأبدان، بين مرضى النفوس ومرضى الأبدان، بين علم الأخلاق وعلم الطب مع أن الفارابى ليس طبيباً كالرازي وابن سينا وابن رشد. صحة النفس الأفعال الجميلة، ومرضها الأفعال القبيحة. وصحة البدن ما تفعل بها النفس فعالها على خير وجه. ومرضه عندما لا تفعل النفس أعمالها على غير وجه. دراسة البدن إذن مقدمة لدراسة النفس ودراسة النفس مقدمة لدراسة الأخلاق، والأخلاق مقدمة لدراسة الاجتماع والسياسة ثم التاريخ. والهيئات النفسانية لفعل الخيرات هى الفضائل ولفعل السيئات هى الرذائل. يتم إذن قياس النفس

(١) هذا هو الفرق بين Expose, Pose. انظر: التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم ص ٨٢ - ٩٥.

على البدن ثم قياس المجتمع على النفس. وهو نموذج الفكر التشبيهي القياسي وليس الفكر العلمي التحليلي.

ولكل من البدن والنفس ملذات ومؤذيات. الملذات هي الأشياء الملائمة، والمؤذيات هي المنافرة. ولكل منهما إما بالذات، وجدان الشيء الموافق، أو بالعرض، فقدان المؤذى المخالف. والمؤذى بالذات وجدان النافى. والمؤذى بالعرض فقدان الملذ على النحو الآتى^(١):



وهو أشبه بالقاعدة الفقهية، دفع الضرر وجلب المنفعة أو تعريف الأشاعرة للخير والشر فى علم أصول الدين بالملائم والنافع أو النافع والضار.

وتمرض الأبدان لفساد حسها وتخليها الحلو مرا والمرحلوها، وتصور الملائم غير ملائم، وغير الملائم ملائماً. وتمرض النفوس عندما تصبح شريرة، وتتحيل الشرور خيرات، والخيرات شروراً. أما الفاضل فيشتاق الغايات وهي الخيرات فى الحقيقة غرضاً وقصداً. كما يهوى الشرير الغايات وهي شرور يتخيلها خيرات لمرض نفسه.

وكما يقتنى البدن جميع أصناف الصحة، كذلك النفس لا يمكنها أن تقتنى جميع الفضائل. ويمكن للرئيس بلوغ الأكثر منها والأنفع للمدينة كذلك الطبيب يستطيع أن يبلغ بالبدن أفضل حالاته وبحسب أفعال النفس. فالبدن من أجل النفس، من أجل الكمال الأخير. وهو السعادة والفضيلة. فالنفس من أجل الحكمة والفضيلة^(٢).

واللذة نوعان: لذة تتبع المحسوس، ولذة تتبع المفهوم مثل الرياسة والتسلط والغلبة والعلم، بالرغم من التسائل: هل اللذة مثل الرياسة والتسلط والغلبة والعلم تتبع المفهوم أم أنها أيضاً أشياء حسية مثل السلطة والقوة؟ وهل العلم مثل الرياسة والتسلط والغلبة أم أن

(١) وذلك مثل حساب اللذات الكمى عند بنتام فى الفلسفة الانجليزية المعاصرة فى الغرب.

(٢) الفارابى: فصول المبنى ص ٢٣/٥٦-٢٤/٥٦-٥٧/٥٦-٩٩-١٠٠. الفقرات ٤٠/٢/١-٩٦/٤١.

العلم يتبع العقل والسلطة، والسلطة القلب، والمحسوس الحس، طبقاً لتقسيم قوى النفس الثلاث؟ كما تنقسم إلى فردية مثل التغذية أو جماعية مثل التنازل. وكلاهما يؤديان إلى البقاء، بقاء الفرد وبقاء العالم. كما تنقسم إلى عاجلة وأجله بالنسبة لزمان الفعل. وما قد يتبعه أذى في العاجلة قد تتبعة لذة في الآجلة وما قد تتبعة لذة في العاجلة قد يتبعه ألم في الآجلة تعبير لا شعورياً عن «عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم». يساعد الزمن على اختيار الفعل الأسهل بمعنى الأبقى. لذلك كانت اللذة أو الأذى نوعين: أعرف في العاجل وأخفى في الآجل، مع أنه عند الأبطال يكون الآجل والعاجل واضحين، ولا فرق عندهم بين الأعرف والأخفى.

ويسهل فعل القبيح بسبب اللذة. وقد يمنع عن فعل القبح الألم الناتج عنه فلا يؤدي القبح إلى اللذة وحدها. وسهولة فعل القبيح من أجل اللذة نظرة متطهرة. ولماذا لا يسهل فعل الجميل من أجل اللذة؟ وهل فعل الجميل لابد أن يكون معارضاً للذة مصاحباً للألم؟ وهي ثنائية متطهرة تدين المحسوس، وتعوض عنه بالمعقول. ولماذا يصد المحسوس عن الخيرات؟ ألا يبدأ الحب بالجمال الحسى؟ وهل تتفق ثنائية الخير والشر التقليدية الشرقية الفارسية، مع أخلاق التوحيد الإسلامية؟^(١).

وتربية البهيميين والصبية نحو الجميل بالأذى. فالعقاب الحسى على البهيمى أقسى من العقاب المعنوى. وهل يحدث نفس الشئ بالنسبة للترغيب للعقلاء نحو الجميل وهم قادرون على إدراك جمال الأشياء لذاتها بلا الزام ولا جزاء؟ ولماذا يكون أذى الحس أقوى من الشم، وللذوق وباقي الحواس؟ اللمس كالحرق والشم للروائح الكريهة، والذوق للطعوم النتنة، والسمع للأصوات المتنافرة، والبصر للمناظر القبيحة. قد يكون هذا التحليل تنظيراً لا شعورياً للعقاب والثواب الحسيين في الآخرة والعقاب عن طريق الحرق وتبديل الجلد.

إن الحر هو الحر باستيهال أى الحر باستحقاق، منذ البداية كمعطى طبيعى. والأخلاق هى خروج من العبودية إلى الحرية، على مستوى الفرد والجماعة، الإنسان والشعوب. ويتم العلاج فى طب الأبدان وطب النفوس عن طريق الاستعداد الفطرى

(١) الفارابى: التنبيه على سبيل السعادة، الفقرة الثامنة.

والمداومة على الأفعال التى تكسب الإنسان جودة صناعة. وكلما طالبت المداومة زادت الجودة، وعظم الالتذاذ بالهيات الحاصلة.

وأفعال النفس المقنونة نحو السعادة تقوى جزء النفس المعدة بالفطرة للسعادة. وتصل إلى درجة الاستغناء عن المادة فلا تتلف بتلفها وكأن السعادة وحصولها برهان على خلود النفس.

ولا يفطر الإنسان بالطبع ذا فضيلة ولا ذا رذيلة. كما لا يفطر بالطبع حائكاً ولا كاتباً. بل هو مفلطور بالطبع على الاستعداد لهذا ولذلك حتى يكون التحرك أسهل عليه دون مضادة. فالاستعداد الطبيعى ليس فضيلة ولا صناعة. فإذا ما تكررت الأفعال وأصبحت هيئة للنفس بالعادة تقال فضيلة أو صناعة. فالطبيعة لا اسم لها، لا فضيلة ولا رذيلة. إنما تكون كذلك فقط باشتراك الاسم. الأولى لا تستحق الذم أو المدح فى حين أنه بعد اكتساب العادة توجب المدح أو الذم^(١).

والاستعدادات الطبيعية نحو الفضيلة أو الرذيلة متى انضافت الأخلاق المشاكلة لها، وتمكنت بالعادة أصبح الإنسان تاماً. ويصبح زوالها من الإنسان خيراً أو شراً أمراً عسيراً. ومتى وجد الاستعداد نحو الفضائل كلها استعداداً تاماً وتمكنت بالعادة كان هو الإنسان فى أرفع طبقة، الإنسان الالهى، الزعيم الكامل، الرئيس الأول، النبى والامام، الفيلسوف الحكيم، بالرغم من أنه ليس فى الغالب بل مجرد إمكان وافترض نظرى. وكمضاد له الاستعداد نحو الشرور كلها وتمكنها بالعادة ويصبح أكثر شراً. ومن الاستعدادات نحو الفضيلة أو الرذيلة ما يمكن أن يزال بالعادة تماماً وإيجاد هيات مضادة لها تماماً. ومنها ما يكسر أو يضعف وتنقص قوته دون أن يزول تماماً. ومنها ما لا يمكن أن يزال أو تنقص قوته بل يخالف بالصبر وضبط النفس الجاذبة والدافعة حتى أضدادها.. وكذلك تنقسم الأخلاق الرذيلة نفس القسمة على النحو الآتى:

(١) هنا يخالف الفارابى روسو وهوبز معاً. فالطبيعة لا خير ولا شر بل هى مجرد استعداد واكتساب، وبالرغم من إعجاب الفكر العربى المعاصر مثل محمد حسين هيكل بروسو وكتابه "حياة محمد" من خلاله. الفارابى: فصول المبنى ص ٣٠-٣١، الفقرات ١٠/٨-١١.

الاستعدادات

- ما يمكن أن يزول بالعادة تماماً.
- ما ينقص وتضعف قوته.
- ما لا يمكن أن يزال إلا بالصبر وضبط النفس

الجاذبة والمدافعة حتى تنشأ هينات مضادة.

وهناك فرق بين الضابط لنفسه والفاضل أى بين الأول والثالث. فالأول وإن كان يفعل الخير إلا أنه يهوى الشر ويتأذى بالخير. والفاضل يفعل ما تنهض إليه همته، ويعمل الخير مشتاقاً إليه، ولا يتأذى به بل يستلذه مثل الفرق بين الصبور على الأكم والذي لا يتألم ولا يحس به. والفرق بين العفيف والضابط لنفسه أن الأول يفعل ما توجبه السنة دون شهوة. والثاني يضبط شهواته الزائدة ويفعل أفعال السنة وضدها. إلا أن الضابط لنفسه يقوم مقام الفاضل في كثير من الأمور^(١). وعسير أن يوجد إنسان مقصور على أفعال لا يمكنه فعل أضعادها. يصعب عليه ولكنه قادر. وتسهل عليه العادة. كما أنت العادة بالفعل تزيج الفعل^(٢).

والسؤال هو: أيهما أكثر جزاء، الأول أم الثاني؟ أيهما به صراع وحياة؟ أيهما يعانى، أيهما أكثر وجودية أو إنسانية، وأيهما أكثر معاناة للحرية؟ الضابط لنفسه مجرد آلة، ليس له أن ينتصر ويكون له أجر دون أن يحول حياته إلى جحيم فى ثنائية متعارضة تنتهى إلى كبت، ويمكنه أن يتبع للدافع الأقوى فيلحق بالأول من حيث الطبيعة والسهولة. وقد يكون فى تغلب العادة وحدها قهر لحرية الإنسان والمراجعة والمقدرة على التعبير الواعى أو الفجائى كما يحدث عند الصوقية^(٣). وهذا إثبات للحرية وإنكار لحتمية الطبيعة باسم العادة^(٤).

٢- أخلاق الفطرة والاعتدال: ثم ينتقل الفارابى من "بيولوجيا" الأخلاق إلى "سيكلولوجيا" الأخلاق فى أخلاق الفطرة والاعتدال. وتقال الفطرة على ثلاثة معان: الصراع، والخير الطبيعى دون تعلم، والفضيلة. ولا يوجد إنسان كامل بالفطرة بل هناك

(١) السابق ص ٢٣-٣٦، الفقرات ١٢-١٤/٦٧.

(٢) يمكن إجراء رسالة علمية عن "فلسفة العادة"، مقارنة بين الفارابى ورافيسون ومين دى بيران.

(٣) وهو ما يسمى فى علم النفس الدينى metanoia.

(٤) وهو مخالف لما قاله برجسون من أن الحرية هى اتباع الدافع الأقوى.

ميول ومتضادات. الفطرة مصنوعة. قسرها التأليف والإجماع. إذا زاد التقافر قل الاعتدال، وإذا قل التقافر زاد الاعتدال.

والناس شخصان: الأول من علم كتب أرسطو المنطقية والطبيعية والالهية والمننية وتعاليمه ولكن أفعاله أفضل. والثاني من لم يعلم كتب أرسطو ولكن أفعاله جميلة. وهو أفضل من الأول. فالعلم بالعمل خير من العلم بالنظر. والعلم بالفطرة خير من العلم بالتقليد. والعلم بالتجربة خير من العلم بالتحصيل. والعلم الابداعي الذاتي خير من العلم المنقول الخارجي. وبتعبير القدماء علوم الدراية خير من علوم الرواية^(١).

وبعنى هذا أن الفطرة ليست خيرة بطبيعتها. وهو أقرب إلى التصور الدينى الأصلي. وإن وضع التضاد فى الفطرة أقرب إلى تصور الديانات الثنوية الفارسية الشرقية القديمة، وإن الاعتدال فيها نسبي. فقد يكون التطرف الأولى تعبيراً لا شعورياً عن روح الموروث فى أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأن الإيمان بضعة شعاب، أتناها إمطة الأذى عن الطريق.

وهنا يتجاوز الفارابى هذا التقابل بين الاستعداد والفطرة، بين الكسب والموهبة، بين التعلم والطبيعة بفكرة الاستعداد الطبيعى التى تؤهل إلى حرية الفعل طبقاً لأية ﴿فألهما فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وخاب من دساها﴾.

والسؤال هو: هل الفعل الحر هو فعل العادة أم أن الفعل الحر هو الذى يتجاوز العادة مثل أفعال البطولة والتحول الجذرى؟ أليست العادة نوعاً من الحتمية بعد أن ترسخت حتى ولو كانت فى بدايتها اختياراً حراً؟ وما الفرق بين اكتساب العادة الحسنة والعادة السيئة؟ وما السبب فى ذلك، الظروف الاجتماعية أم القدرات الفردية؟ وإذا كانت الفطرة خيرة كيف يتسارى الخير والشر كاستعدادين؟

والفضائل نوعان: خلقية تقوم على الجزء النزوعى فى الإنسان، ونطقية تقوم على الجزء الناطق فيه. الأولى فطرية، والثانية مكتسبة. الأولى طبيعية والثانية إرادية. الأولى من فعل الضرورة، والثانية من فعل الحرية.

تحدث الخلقية بتكرار الأفعال اعتباراً. ولو كانت خيراً حدثت الفضيلة ولو كانت

(١) الفارابى: فصول المبنى ص ١٠٠-١٠١، الفقرات ٩٧-٩٩.

شرا حدثت الرذيلة كما هو الحال في الصناعات ^(١). وتشمل الخلقية العفة، والشجاعة، والسخاء، والعدالة ولكل منها أصداد. وتشمل النطقية الحكمة، والعقل، والكياسة والذكاء، وجودة الفهم.

ويصعب إيجاد طبع معد في الفضائل كلها والخلقية والنطقية. كما يصعب إعداد طبع نحو الصنائع كلها. ويعسر إعداد طبع نحو الشرور كلها. إلا أن الأمرين ممكنان. والغالب أن الأكثر معد نحو فضيلة ما أو فضائل محدودة أو صناعة ما أو صنائع محدودة. وذلك معد إلى آخر وهكذا. فالطبيعة بها أغلبية وأقلية. الأغلبية محدودة والأقلية غير محدودة. والاستعدادات تكون في الغالب نحو شئ ما، ثم يأتي الخاص بعد العام. هناك الطبيعة البشرية العامة ثم تأتي بعد ذلك الفروق الفردية.

والاجتماع على الفضيلة لا تباين فيه ولا تقاسد لأن الغرض واحد وهو الخير لذاته لا لغيره. يقع التقاسد باختلاف الشهوات وتباين الأغراض. الأول إجماع على طلب الحق وبلوغ السعادة، والثاني إجماع على التمسك بالمصالح وبالتالي التعارض. الأول إجماع على شئ في النفس، والثنى على شئ في الخارج ^(٢).

والأخلاق فطرية. وعلى الفطرة تؤتى الأفعال الثلاثة الجميلة والقيحة. هي قدرة على الفعل ثم يأتي التعود والاكْتِسَاب فيصبح الإنسان مَفْطُوراً على فعل الجميل أو القبيح. والتوحيد بين الأخلاق والجمال ليست نظرية يونانية أرسطية بل تعبر عن نظرة الموروث ﴿لَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ﴾، "أن الله جميل يحب الجمال". والسؤال هو: ماذا لو عارضت الفطرة الاكْتِسَاب لمن تكون الغلبة؟

والأفعال نوعان فطرة واكْتِسَاب. والفطرة جيدة فقط أو سيئة فقط، جيدة الذهن أو ضعيفة الذهن، ذكية أو بليدة. والاكْتِسَاب لعوارض النفس، جميلة فقط أو قبيحة فقط والخلق الجميل وقوة الذهن هما معاً الفضيلة الإنسانية. فالفضيلة هي التي تكسب الجودة والكمال. والأفعال الجميلة نوعان: باتفاق أو باختبار، والسعادة مرتبطة بالاختيار قصداً وليس ما أتى اتفاقاً وعرضاً.

(١) وذلك مثل تحليل رافيسون للعادة في الفكر الفرنسي المعاصر.

(٢) الفارابي: فصول المدينى ص ١٠١ فقرة ٩٩.

ونظرية الفطرة أولاً ثم الاكتساب ثانياً تتطلب الإجابة على عديد من الأسئلة: إلى أى حد يمكن كسر حدة حتمية الاكتساب والعودة إلى الاختيار الأول؟ كيف يصح الاستحقاق بالمدح أو الذم إذا كانت الأخلاق فطرية يتساوى فيها الناس جميعاً ثم اكتساباً بعد ذلك من المجتمع فتتحول إلى عادة؟ هل تظل نقية صافية بعد أن يأتيها الاكتساب؟ وهل يمكن التمييز بينهما في الأفعال الخلقية؟ وهي قسمة ثنائية متعارضة من حيث حرية الأفعال، المبدء الأول في أصل العدل.

وأحياناً يقسم الفارابى الفعل ثلاثة أقسام من حيث الحسن والقبح، المبدء الثانى في أصل العدل: جميل، وهو ما ينبغى أن يكون، وقبيح وهو ما ينبغى أن لا يكون وعلى السواء ولكن أحدهما أشد من الآخر. وهى أفعال فى الزمان كما هو الحال فى علم الأصول. وتشير أيضاً إلى أحكام التكليف الخمسة. ما ينبغى أن يكون هو الواجب أو الفرض، وما ينبغى أن لا يكون هو المحرم وعلى السواء بين الشدة أو الضعف، المندوب والمكروه. ثم بقى المباح.

ويركز الفارابى على الاعتقاد، تحول الأخلاق الجميلة إلى ملكة، وبالتالي تصبح الأخلاق الجميلة أو القبيحة مكتسبة. والاعتبار هو تكرار الفعل وليس الكسب الاجتماعى أى الطبيعة الثانية بالتكرار. الكسب عن طريق الاعتقاد أى تكرار الفعل مرات كثيرة فى أوقات متقاربة زماناً طويلاً. والحال المستفادة من الأخلاق بالاعتقاد مثل حال الصنعة^(١).

وهنا نثار عدة أسئلة: هل تصبح القوة على إدراك الصواب ملكة أم أن كل حكم يتطلب مقدرة خاصة؟ لو حدث ذلك لتحول علم الأخلاق إلى علم التربية، ومثل الأخلاق مثل التربية. ومع ذلك وبالرغم من وجود المعيار العام للسلوك، يظل لكل فعل خلقى خصوصية وفردية حيث تقع الحرية وراءه. وهل يظل الفعل الخلقى خلقياً عندما يتحول إلى عادة ويصبح طبيعة ثانية، ويفقد أساسه فى الاختيار الحر؟ بل أن الفعل الفكرى نفسه، فعل الطبيعة الأولى لو تم عن ضرورة ولم تتوفر فيه عناصر الاختيار لا يكون فعلاً خلقياً يتضمن الحرية والمسئولية. وهل الحال المستفادة من الأخلاق بالاعتقاد مثل حال الصنعة وتصبح الأخلاق مهارة وصنعة وحرفة للبدن وتنفذ خصوصيتها فى الأفعال الحرة العاقلة؟

(١) الفارابى: التنبيه على سبيل السعادة، الفقرة الرابعة.

وهل يستطيع الإنسان أن يكتسب فعلاً ضد الفطرة؟ وما العمل في حالة التضاد بين الفطرة والاكتساب؟ أيهما الأقوى ولأيهما تكون الغلبة؟ وهل يتم الاكتساب بهذه السهولة إذا أراد أن يكون للإنسان اكتساب جميل أو قبيح يكون له ما يريد؟ هل الاكتساب عملية إرادية اختيارية أم ظروف اجتماعية؟ لو كان الاكتساب إرادياً لكان طوعاً واختياراً. وهل تكتسب الأخلاق الحسنة والأخلاق القبيحة بنفس القدر وبنفس السهولة أم أن واحدة أصعب من الأخرى؟ وما مقدار الصعوبة؟ وما مدى عمق الاعتقاد ورسوخه؟ هل تختلف الأفعال الاعتيادية عمقاً بين الفعل الأول والفعل الحيوى والفعل الإرادى؟ وهل يذهب الاعتقاد بعد أن يأتى إذا ما غاب الفعل الاعتيادى؟

والفضيلة وسط بين طرفين. والأفعال الخيرة هى الأفعال المتوسطة بين طرفين كلاهما شر. أحدهما إفراط والآخر نقص. وكذلك الفضائل هيئات نفسية متوسطة بين هئتين كلاهما فضيلة، أحدهما أريد والآخر أنقص^(١).

ويقال المعتدل أو المتوسط على نحوين: المتوسط فى نفسه مثل الموجود لذاته، وهو افتراض نظرى خالص، المتوسط إذن بالاضافة والقياس إلى غيره ومشمئل الوجود لغيره. المتوسط إذن نسبي من الناحية العملية، وهو الفرق بين الحساب الرياضى والممارسات الحياتية. وتقدر كميات الأفعال وكيفياتها بحسب الفاعل والغاية والوقت والمكان. والمتوسط بالاضافة يتغير بين الشدة والضعف، والزيادة والنقص. وبالنسبة للأوقات والأشياء مثل الغذاء بالنسبة للبدن، واختلافه من بدن لآخر. ويستعمل الفارابى طب الأبدان والأغذية كنماذج للمتوسط الإضافى. فالمتوسط بين طرفين فى البدن موضوع الطب، وفى الأفعال موضوع الأخلاق.

فى الأفعال (الأخلاق) —
المتوسط بين طرفين —
فى البدن (الطب)

(٢) العفة وسط بين الشره وعدم الاحساس باللذة. والسخاء وسط بين التقثير والتبذير. والشجاعة وسط بين التهور والجبن. والظرف وسط بين الهزل واللعب والمجون والخلاعة من ناحية والخدمة من ناحية أخرى. والتواضع وسط بين التكبر والتخميس. والحرية والكرم وسط بين البذخ والصلف والطرمة وبين التذلة. والحب وسط بين إفراط الغضب وبين عدم الغضب. والحياة بين الوقاحة والحصر. والتودد وسط بين التمتع والتعلق. وليس هناك اسم لإفراط الشره إلا السبعى.

والتوسط يكون معتدلاً لأكثر الناس فى الأغنية لأكثر الأزمان. وكذلك التوسط فى الأفعال يكون المعتدل منها لأكثر الناس. فالتوسط للأغلبية والاختلاف للأقلية، من بدل إلى بدل، ومن فعل إلى فعل، ومن زمن إلى زمن، ومن وطن إلى وطن^(١). وهو تعريف بعيد عن التعريف اليونانى وإلا كانت الإشارة إلى اليونان واجبة، وليست قرآنية مباشرة وإلا كانت الإشارة أيضاً واجبة. بل هو تعريف يديهى عقلى خالص، يمكن لأى فيلسوف فى أى حضارة الوصول إليه.

ويقس القارابى الأخلاق على الطب وكان الطب علم إنسانى لا طبيعى. وإذا كان الطب علماً مضبوطاً فهو أصل القياس، والأخلاق والسياسة فرعان عليه. ويصعب تجميع التشابه بين 'طب من ناحية والأخلاق والاجتماع والسياسة من ناحية فى باب واحد لأن التشبيه قائم فى كل العلوم. والطب ليس هو الطب التجريبي بل هو الطب العقلى الذى يقوم على الاستنباط والذى يشارك الأخلاق فى فضيلة الاعتدال.

وتقوم الأخلاق النفسية والبدنية على التوسط والاعتدال، لا فرق بين طب الأبدان وطب النفوس^(٢). وبالرغم من أن القارابى ليس طبيباً مثل الرازى وابن سينا وابن رشد إلا أنه يستعمل التشبيه الشائع بين طب الأبدان وطب النفوس. وكلاهما يقوم على التوسط. وهو الفعل المعتدل وليس المتوسط الحسابى بالضرورة^(٣).

والسؤال هو: هل الإنسان قادر على أن يكسب أفعال الصحة وهى مشروطة بالبدن؟ وهل التشابه دقيق بين طب الأبدان وطب النفوس؟ أليس البدن ميدان الحتمية الطبيعية بينما النفس ميدان الحرية الإنسانية؟ وهل علاج الأبدان بالطب مثل علاج النفوس بالأخلاق أم أن علاج النفوس بالأخلاق مثل علاج الأبدان بالطب؟ أيهما أصل وأيهما فرع؟ أيهما شاهد وأيها غائب حتى يقاس الغائب على الشاهد؟ لقد تشغل الحكماء بالكمال الإنسانى، البدنى والنفسى. ووضعوا علماً واحداً لا فرق فيه بين علم الطب للأبدان وعلم الأخلاق للنفوس. كلاهما يهدف إلى الإصلاح وميزان الاعتدال بلا زيادة أو

(١) القارابى: فصول المبنى ص ٣٢-٣٣/٣٦-٣٩، الفقرات ١٨/١٢-٢١.

(٢) وهو ما يقابل الأمثال العامة والمواويل الشعبية عن طبيب النفوس الذى يعالج الحبيب من الهجر ولوعة الفراق.

(٣) القارابى: التنبيه على سبيل السعادة، الفقرات من الخامسة حتى السابعة.

نقصان، وبلا إفراط أو تقريط. وحرارة البدن المعتدلة مثل الفعل الخلقى المتعادل. ويظل السؤال قائماً: هل التوسط مفهوم طبي (الاعتدال) انتقل من طب الابدان إلى طب النفوس أم انه مفهوم أخلاقي انتقل من علم الأخلاق إلى علم الطب؟ وقد يكون ميزانا كونياً «إننا كل شئ خلقناه بقدر» «وأنبتنا فيها من كل شئ موزون». وإذا كان الطب جغرافياً مرتبطاً بالبيئة وارتباط الابدان بأحوال البلدان فكيف تكون النفوس الحرة مرتبطة بالأبدان. وفرق بين الحتمية الطبيعية والحرية الأخلاقية.

ويحاول الفارابي وصف مكونات الفعل الكمي اعتماداً على المقولات العشر وكأنه موضوع منطقي. إذ يمكن ضبط الفعل الخلقى من أعلى بالمنطق، ومن أسفل بالطب. ويختار ست مقولات المتي (الزمان)، والأين (المكان)، وما منه، وما له ولأجل من منه (الغاية)، وما به (الحال)، تجمع بين المقولات المنطقية والعلل الطبيعية. وهو أقرب إلى الموروث الأصلي منه إلى الوافد الأرسطي^(١).

والسؤال هو: هل التوسط وسيلة وليس غاية فما هو الفعل المتوسط للاكتساب الأخلاق الحميدة؟ والتوسط ليس كمياً بالضرورة، زيادة أو نقصان، بل هو كيف أي الاعتدال، الحالة النفسية التي فيها البدن والتي تؤثر فيه الزيادة والنقصان. فالطعام ليس فقط كمياً بل هو إحساس كافٍ ليس عند الوزان بل في النفس، الشبع من رؤية الحبيب الفهم في حالة الفراغ النفسي. وقد يكون التوسط إلى الفاتحة بالطعام بالامتناع عنه كما هو الحال في الزهد. ولا يوجد يزال اعتدال واحد معيارى لكل الناس نظراً للفرق الفردية بين البشر «وكلهم آتية يوم القيامة فرداً». وقد يكون الفعل الخلقى أحياناً خارجاً عن حد الاعتدال، فعلاً متطرفاً في المواقف الجدية مثل قدرة الفقراء على الأغنياء، وقدرة المظلوم على الظالم، وقدرة المحتلين على المحتلين أي أفعال المقاومة للفقير والقهر والتسلط حتى يعود الاعتدال في الكون والعدل بين البشر.

ويرى الفارابي أن الطبيعة أميل إلى الطرفين في حين أن الأخلاق هي الوسط. فإذا كان هذا التقابل صحيحاً فالدعوة إلى الوسطية ليست أخلاقاً طبيعية. وتكون الأخلاق الطبيعية أخلاق لا وسطية مثل التهور مع العدو، والتبذير مع الحبيب. وإذا كانت الفطرة

(١) وهو أشبه بحساب الذات عند بنتام في الفلسفة الانجليزية في القرن الثامنة عشر في الغرب.

أحد مظاهر الطبيعة فهل تميل الفطرة إلى الطرفين وليس إلى الوسط أم إنها الثنائية المتطهرة التي تسقط نفسها على الطبيعة في الصراع بين الخير والشر، يرى الفارابي أن هناك آلة قيادة تقود الطبيعة نحو الوسط وهي الروية. وهي عقل وإرادة بصيرة واختيار.

قد يكون الدليل على استحالة هذا التحليل الحسابي للأخلاق هي استحالة وجود مثل هذا الوسط المناسب، وأنه أقرب إلى أحد الأطراف منه إلى الطرف الآخر. يمكن التعرف على الوسط عن طريق سهولة أداء الفعل. ومع ذلك قد يكون الفعل الأخلاقي صعباً مثل مجاهدة النفس على الفضيلة. ويمكن الاعتماد في ذلك على القياس، وهو عدم التأذي بالفعل أو الانتذاذ به أو الانتذاذ العظيم أو الأذى اليسير، فالأخلاق هي عملية التحرر من "أطراف".

أن الفعل "لا" ليس آلة حاسبة، زيادة ونقصاناً^(١). وليست مصرفاً لحساب المكاسب والمخاسر. وليست عربية ينحرف بها الإنسان يميناً أو يساراً أو دافعاً حيوياً لا يمكن ضبطه أو إيقافه. الفعل الخلقى هو القادر على تحرير الفاعل من مظاهر الجبر الطبيعي والاجتماعي. وما دام يتم في الزمان، فالإحساس بالزمان وباللحظة الراهنة بداية للإبداع الحر الذي هو بداية الفعل الخلقى.

٣- **تحصيل السعادة.** ثم ينتقل الفارابي من سيكولوجية الأخلاق إلى ميتافيزيقا الأخلاق في تحصيل السعادة. فالغاية القصوى للأخلاق تحصيل السعادة والتنبيه عليها. كتب الفارابي التنبيه على سبيل السعادة في الأخلاق عامة وفي السعادة خاصة. وتعني السعادة الكمال. ويعني الكمال الخير. والطريق إليهما شاق. ويدل على الاتجاه نحو غاية صعوداً ثم فيض كل أثر في العالم من الخير نزولاً. الأخلاق صعوداً والفيض نزولاً. وقد يكون هذا هو أضعف جزء في فلسفة الفارابي، الفيض في ميادينه المختلفة، الكون والأخلاق، العالم والاجتماع، الوجود والسياسة.

والغاية نوعان: غاية تؤخذ كوسيلة لغاية أخرى مثل الدواء والرياضة، وغاية لذاتها. والأولى أنقص من الثانية، والثانية أتم من الأولى. فالعلم مثلاً طريق للثروة، والثروة طريق للرياسة. وقد يكون العلم لذاته وليس وسيلة لتحقيق غاية أخرى. فذلك

(١) وهو نفس تصور الفارابي للموسيقى، وتحويل الأنغام والألحان إلى حسابات رياضية وذبذبات طنينية.

السعادة غاية في ذاتها وليست وسيلة لتحقيق غاية أخرى (١).

السعادة غاية في ذاتها وليست وسيلة لغيرها. تنال بالأفعال الفاضلة مثل حصول العلم بالتعلم. ليست السعادة ثواباً على الأفعال التي ينال بها السعادة ولا هي تعويض عما ترك من الأفعال التي تنال بها. كما أن العلم الحاصل عن التعلم ليس ثواباً ولا عوضاً عن الراحة. وليست اللذة الحاصلة عنه جزاء عليه ولا عوضاً عن الكد. وليس الشقاء عقوبات على ترك الأفعال الفاضلة ولا جزاء على فعل النقائص. لذلك كان من يفعل الجزاء أو لتجنب العقاب تكون فضائله ناقصة، ترك شيء إلى شيء آخر أعظم منه. وذلك مثل أخلاق المرابي. الفضائل تقتنى لذاتها، والطبائع تترك لذاتها لأنها كذلك في ذاتها، كما هو الحال عند المعتزلة في الحسن والقبح العقليين وكما هو الحال عند الصوفية في عبادة الله لذاته (٢).

الأخلاق هنا أقرب إلى المعرفة النظرية والأخلاق العقلية، والأخلاق العقلية أقرب إلى الميتافيزيقيا، والميتافيزيقيا منطق وأخلاق وسياسة. كل علم يؤدي إلى العلم الآخر وكان هناك علماً واحداً شاملاً، حياة ونسقاً وفكراً، تنظيراً للموروث الأصلي (٣). وأحياناً ينقد الفارابي أخلاقيات العصر، ولكنه نقد فنان منطقي فيلسوف وليس نقد مصلح اجتماعي لو تأثر سياسياً.

وهي نظرة صوفية متطهرة كما هو الحال عند الصوفية، رابعة العدوية مثلاً. العلم لذاته أكمل من العلم كوسيلة للثروة والرياسة بالرغم من ربط العلم بالمنفعة والأثر، "أعوذ بالله من علم لا ينفع" وكأن الحكمة مجرد تأمل ومعرفة وليست تحقيق مشروع وإكمال نقص. لا توجد أخلاق للأكم والقلق والشقاء. وفلسفة الشقاء في هذا العصر لا تقل أهمية عن فلسفة السعادة عند القدماء. وأخلاق ما هو كائن في هذا العصر لا تقل ضرورة عن أخلاق ما ينبغي أن يكون عند القدماء. هل السعادة هي الخير الأقصى العام الذي لا يختلف من فرد إلى فرد، ومن زمان إلى زمان مثل الثروة؟ وهل الثروة مثال على هذه

(١) وكما هو الحال في الأخلاق الكانطية.

(٢) الفارابي: فصول المننى ص ٨٢-٨٤، الفقرة ٧٦. وهو أيضاً موقف كانط والأخلاق المثالية بوجه عام للفلسفة العربية.

(٣) الفارابي: التنبيه على سبيل السعادة، الفقرة الأولى.

الأخلاق الشاملة؟ وماذا عن أخلاق الزهد؟ هل السعادة مطلب أم تحقيق غاية؟^(١) وإذا كان الكمال هي السعادة فإنها سعادة التحقق والاكتمال. الكمال الانساني نسبي ولكن تحقيقه يعطى السعادة. وهل السعادة في الصعود أم في النزول، في انصعود إلى السماء أم في النزول إلى الأرض، في صحبة الملائكة أم بين البشر؟ الاتجاه نحو الأخلاق الملائكية رد فعل على السقوط. والسعادة لا تتحقق في عالم الأذهان بل في عالم الأعيان وقضاء الحاجات بين الناس، 'خيركم للناس أنفعكم للناس'. ليست السعادة في انغبطة والرضا والسلامة والنفس مطمئنة فالحياة أيضاً صراع. السعادة في التحقق حتى ولو كان بداية بالصراع والألم. الكمال هو الاكتمال أى التحقق العنسي وليس مجرد احساس نظري بالكمال كما هو الحال عند الصوفي الحكيم. والتحقق في الواقع بالتوحيد بين انوافع والمثال. فالحقيقة ليست فقط في برهان العقل بل في حكمة لشعوب. وبهذا المعنى المتحقق تكون السعادة أعلى قمة في سلم القيم^(٢).

وقبل أن يعرض الفارابي في 'تحصيل السعادة' علم الأخلاق يصنفه مع باقي العلوم، واستنباط إحصاء العلوم من علم الأخلاق. فنظراً لأن الفضائل النظرية أربع فالعلوم أربعة. فالجنس الموجه إحصاء العلوم، منظومة العلوم ابتداء من علم الأخلاق.

فالأشياء الانسانية بها الحصول على السعادة في الدنيا والآخرة أربعة من أدنى إلى أعلى: الصناعات العملية، والفضائل نوعان فطرية ومكتسبة، والمكتسبة سبعة: حيرة أو ضلال أو تخيل أو اقناع أو ظن أو بقصد يقين أو يقين موضوع السعادة عملي والمدخل اليه نظري.

والعلوم الفطرية أوائل لاشعورية منذ بداية حياة الإنسان، ولا يعرف من أين أتت، ومتى حصلت. والعلوم المكتسبة تحصل بتأمل واستنباط وتعليم سواء تم ذلك بالحس والتجربة أو بالفعل. وهي قسمة شائعة في علم أصول الدين، قسمة العلم إلى فطري ومكتسب، بديهى ونظري، وكل الطرق إلى العلم صناعية أى ارادية مختارة ثم تأتى الفطرة كأساس لهذه الطرق الصناعية. تضع الفطرة صناعية لوضع الطرق

(١) السعادة عند فشته تحقيق الخائية. انظر كتابنا 'فشته، فيلسوف المقاومة' (تحت الطبع).

(٢) ويمكن مقارنة سلم القيم بين الفارابي وماكس شيلر.

الصناعية وهو المنطق. فالمنطق نظرية العلم أو علم العلم أو الطريق إلى وضع نظرية في العلم. ثم تأتي الطبيعة مباشرة بعد المنطق كما هو الحال في علم أصول الدين، نظرية الوجود بعد نظرية العلم. بعد المنطق تأتي علم الموجودات إما بالفحص المباشر أو بالتعليم من الغير. فالعلم علاقة متبادلة بين العالم والمتعلم كما هو الحال في علاقة الشيخ بالمريد في التصوف.

ما زال الحدس الموجه للفارابي هو إحصاء العلوم أو استنباط الواقع كله منه، ضم كل شيء وترتيب كل شيء في نسق عام للعلم^(١). فإذا كان المنطق يؤدي إلى الأخلاق في (التبنيه) والأخلاق إلى السياسة في (التحصيل)، فكلاهما ينبعان من مصدر واحد ويؤديان إلى غاية واحدة، هو الله في آراء أهل المدينة الفاضلة. ومن ثم يكون النسق كله عرض للتوحيد بما في ذلك العلوم الفطرية وهي أقرب إلى الإلهام تنظيراً للموروث.

وأولوية المنهج على الموضوع تجعل الأمر كله بعيداً عن الموضوع. تبدأ السعادة بنظرية العلم. وتنتهي الأخلاق بنظرية المنطق. ولما كان المنطق هو المدخل إلى نظرية العلم أصبحت نظرية العلم هي المدخل إلى الأخلاق. فالمنطق بطرقه ووسائله يوصل إلى العلم، ويقين العلم ودرجته تتبع من المنطق ومستواه.

ويتحدث الفارابي عن الأشياء الإنسانية أي عن الإنسانيات. كما يتحدث عن الأمم أي عن الإنسانية جمعاء والتوحيد بينها وبين أهل المدن والشعوب. كما يتحدث عن السعادة في الدنيا والآخرة، وعدم التفرقة بين العالمين في بنية الموضوع وكأنه عالم واحد. ومن ثم يعطى الفارابي علم الأخلاق أكبر قدر ممكن من العمومية الشمول.

ومهمة القوة الفكرية استنباط الأشياء النافعة للحصول على غاية ثم بعد ذلك الفحص عن وسائل تحقيقها أي معرفة الغاية ثم الوسيلة إليها. ولما كانت أنواع الخير ثلاثة: خير في الحقيقة، وهو استنباط الأشياء الجميلة والحسنات، وخير مظنون، وشر في الحقيقة وهو استنباط الأشياء القبيحة والسيئات، تكون مهمة القوة الفكرية استنباط ما هو فاضل وخير، وليس استنباط ما هو شر. فأعمال الفكر مرتبطة بالقيمة وليست فكراً خالصاً مجرداً منها. أعمال الفكر والروية في الخير وليست في الشر. للفكر لا يعمل إلا

(١) مثل هيجل ونسق العلم.

فى الخير، والشر طارق عليه من الأهواء والمصالح.

وينقص هذه القسمة النبوية الشر المظنون ليقابل الخير المظنون كما ينقصه الفعل الطبيعى خارج الحكم بالخير والشر، وعندما تكتمل البنية الخماسية تصبح مطابقة لأحكام التكليف الخمسة عند الأصولى، الواجب والمحرم مثل الخير والشر أو المندوب والمكروه مثل الخير والشر المظنونين، والفعل الطبيعى والمباح. ومن ثم تكون أنواع الخير تنظيراً للموروث الأصولى. وفى هذه الحالة يظل سؤال: لماذا استنباط الخير دون الشر؟ ولماذا لا يتم تطبيق نظرية الفيض على مستوى الأفعال الخلقية دون استثناء؟

والسؤال هو: هل استنباط الفضائل الخلقية من الفضيلة الفكرية بالطبع أم بالارادة؟ وإذا مكن الاستنباط بالطبع فهل يمكن بالارادة؟ وهل الارادة موضوع استنباط أم فعل حر؟ هل هى تنزيل أم تأويل؟ هل يمكن استنباط الفعل من الذهن والحرية من العقل، والعمل من النظر؟

ويمكن رد الطبيعة والارادة إلى الفطرة والاكتساب. الطبيعة هى الملكة التى توجد فى الحيوانات غير الناطقة، فطرية فى النفس. الملكة تكرار الطبيعة والفطرة، والارادة تكرار الملكة التى هى تكرار الفطرة والطبيعة. والسؤال هو: ألا يؤدى رد الفطرة والاكتساب إلى الطبيعة والملكة إلى أن يصبح كل شئ عادة وبالتالي يقضى على حرية الاختيار؟

والفضيلة الرئيسية تابعة للفضيلة النظرية. وكل الفضائل الرئيسية، الفكرية والنظرية والصناعية لا تنفصل عن بعضها البعض. تجمعها الرئاسة التى تعطى القيمة للنوع، وتجعلها مختلفة متشابهة فيها. ومع ذلك الفضيلة الفكرية سابقة على الفضائل الخلقية، والخلقية مستتبطة من الفكرية. استنباط الفضائل الخلقية من الفضيلة الفكرية مشابهة للتنزيل فى علوم الحكمة. والفضيلة الفكرية والفضيلة الخلقية صنوان فى القوة،

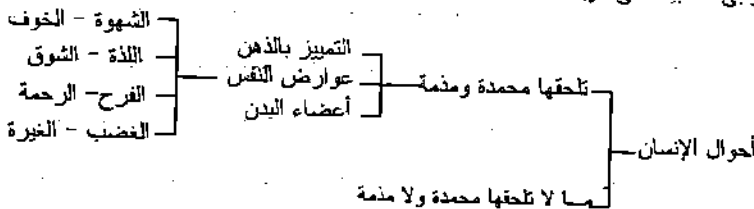
قوة الفكر وقوة الفضيلة، فضيلة العلم وفضيلة الأخلاق^(١).

ثم يعطى الفارابي مدخلاً آخر لتحقيق السعادة شبيهاً بالتصور الاعترالى للحسن والقبح العقليين وقانون الاستحقاق فى أصل العدل^(٢). فأحوال الإنسان نوعان: ما تلحقها محمدة (مزمة)، وما لا تلحقها محمدة ولا مزمة. الأولى بها السعادة والثانية ليست بها سعادة. والأولى ثلاثة أنواع فى مظاهرها: التمييز بالذهن، وعوارض النفس، وأعضاء البدن. وعوارض النفس انفعالاتها وهم أربعة: الغضب (الغيرة)، الفرح (الرحمة)، اللذة (الشوق)، الشهوة (الخوف). الذم للأفعال القبيحة، والمدح للأفعال الحسنة طبقاً للاستحقاق المدح والذم. جيد التميز يستحق الحمد، وسئ التمييز يستحق الذم، ما ينبغي وما لا ينبغي. الجميل والقبيح، وجودة التمييز بين هو الاعتقاد الحق ورداءة التميز عكسه^(٣).

السؤال هو: هل السعادة فى الشقاء أفكار وغايات مطلقة أم أوضاع اجتماعية؟ يبدو أن الفارابي يتعامل مع الأخلاق كما يتعامل مع التصورات العقلية والمقولات المنطقية. كما أن الأخلاق لديه تعاليم وتوجيهات لما ينبغي أن يكون وليست تحليلاً لما هو كائن، أقرب إلى تهذيب الأخلاق وتربية النفس من الفهم والتحليل للظواهر الخلقية كما هو الحال فى مبحث الأمر والنهى فى علم الأصول. وهى أخلاق فردية وليست اجتماعية. تقوم على البطولة الفردية وليست على العمل الجماعى، وتبحث عن الكمال الفردى وليست على التقويم الاجتماعى لما يدل على نوع وأيضاً من البساطة فى التفكير. وهل

(١) الفارابي: تحصيل السعادة: الفقرة الخامسة.

(٢) الفارابي: التنبيه على سبيل السعادة. الفقرة الثانية.



(٣) من العقيدة إلى الثورة المجلد الثالث: العدل ص ٣٩٣-٤٣١، وأيضاً المجلد الرابع: النبوة - المعاد

ص ٤٢٦-٤٢٣.

الأفعال الخلقية تتم طبقاً لهذه الهندسة الرياضية ؟ (١).

والسؤال هو: هل هذه الأحكام الخلقية للمدح والذم أفعال للنفس أم صفات موضوعية للأفعال؟ وهل النظر والسماع من أفعال الجسم أم من أفعال النفس؟

يصوغ الفارابى الأخلاق فى إطار النظرة الغبطوية السعادة ويعبر عنها فى نماذج جامعاً بين النظرية والتطبيق. ويفصل الحيلة التى بها تقتنى الأخلاق الجميلة. فالأخلاق علم عملى، يعطى الوسائل لتحسين الأخلاق مثل علم التربية وكما عبر عن ذلك مسكويه فى "تهذيب الأخلاق". فلا فرق بين الأخلاق والتربية. الأخلاق تربية نظرية، والتربية أخلاق عملية. ويمكن اتباع ذلك بالخطوتين الآتيتين:

أ- إحصاء الأخلاق خلقاً خلقاً، ورصد الأفعال الكائنة عن خلق خلق (٢).

ب- التأصل فى النفس أى الخلق الذى تعود الإنسان عليه وهل هو جميل أو قبيح، أى فعل يؤدي إلى اللذة، وأى فعل لا يؤدي إلى لذة، وهل تصدر الأفعال عن الخلق الجميل أو القبيح؟ تعنى الأخلاق هنا العادات وليس الأخلاق الإرادية والاختيارية أو الأخلاق الحيوية. وواضح التوجه اللاشعورى من إحدى القواعد الفكرية، جلب المصالح ودرء المفاسد، ومتى يجوز تقديم إحداها على الآخر ؟ (٣).

وتحليل الأخلاق الفردية أساس تحليل الأخلاق الاجتماعية. فبعد الاعتقاد كطريقة لاكتساب الأخلاق تكون البرهنة فى السياسة عن طريق صحة البدن انتقالاً من الأخلاق إلى السياسة. فالعلم المدنى أو العلم السياسى ليس له وجود مستقل بل هو انتقال طبيعى من الأخلاق إلى الاجتماع، ومن الاجتماع إلى السياسة. ويشمل العلم المدنى الاجتماع والسياسة والقانون. وهو ما سماه ابن خلدون فيما بعد علم العمران (٤). فعلم الأخلاق هو

(١) الفارابى: التنبيه على سبيل السعادة، الفقرتان الثالثة والرابعة.

(٢) السابق الفقرة السابعة.

(٣) وهو ما سُمى فى الفلسفة الغربية خاصة عند ماكس شيلر ولوى لاول سُمى القيم.

(٤) الفارابى: التنبيه على سبيل السعادة، الفقرتان الخامسة والسادسة.

علم السياسة لذلك تسمى السياسة الفاضلة، الجاهلة، البدالة. وكلها مصطلحات أخلاقية. والناس أربعة أنواع طبقاً لجودة الروية وقوة العزيمة وهى الحرية باستحقاق من أدنى إلى أعلى. الأول دون جودة لروية ولا قوة لعزيمة وهو البهيمى. والثانى جودة الروية مع ضعف العزيمة سواء كان منقاداً وهو البهيمى أو غير منقاد. والثالث دون جودة لروية مع قوة العزيمة وهو العبد بالطبع. والرابع جودة الروية وقوة العزيمة وهو الحر باستحقاق. فالحرية فى حاجة إلى عقل وإرادة كما هو الحال فى أصل العدل عند المعتزلة مع سبق الحرية للعقل من أجل التفرّد بالفعل خارج العقل الإلهى^(١).

وإذا كانت أفعال الفرد واختياراته أساساً بالاعتقاد فهل أصحاب السياسات أى الرؤساء هم الذين يعودون المجتمع على اكتساب الفضائل وتجنب الرذائل؟ وهو ما يعنى لغة العصر دور أجهزة الإعلام فى تربية الجماهير على ما يريده الرؤساء. وما مصدر سلعة الغذاء، السماء أم من الأرض؟ وماذا عن المعارضة التى ترفض التعود على أفعال الرؤساء وتأتى بأفعال بديلة أو مناقضة؟ وهل العامة مجرد مادة بلا صورة ؟ ألا تستطيع العامة فى لحظة الضنك والقهر الثورة على ما عوده عليه الرؤساء من أفعال؟ وهل العادات التى يريد أن يربى عليها أصحاب الرياسات مجتمعاتهم من اختراعهم تعبيراً عن مصلحة عامة وهو ما يعبر عنه بلغة العصر المشروع القومى؟ وماذا لو كان الرؤساء أشراراً وأرادوا أن يعودوا الناس على الشر، فالناس على دين ملوكهم كما يقول ابن خلدون؟ وماذا عن مسئولية الناس وقطر الخير فيهم وفى الرؤساء؟ وكيف يصبح الرؤساء والناس أشرار فى مجتمع خير أو أخيراً فى مجتمع شرير؟

٤- العقل النظرى والعقل العملى: ثم ينتقل الفارابى من ميثافيزيقيا الأخلاق إلى "ايستمولوجيا" الأخلاق، فالجزء الناطق النظرى فضيلة العقل النظرى، العلم والحكمة. والجزء الناطق الفكرى فضيلة العقل العملى، العقل والذهن، وجودة الرأى، وصواب

(١) من العقيدة إلى الثورة، المجلد الثالث، العدل، ص ٥-٨.

الظن. وهو أقرب إلى العقل النظرى العملى (١). وكلاهما يكون "ابستمولوجيا الأخلاق".

العقل النظرى قوة تحصل بالطبع دون بحث أو قياس، علم يقينى للمقدمات الكلية الضرورية التى هى مبادئ العلوم. بعد ذلك يتأسس علم الموجودات النظرية التى لم يصغها إنسان. ويكون بالقوة قبل أن تحصل الأوائل، وبالفعل بعد حصولها. وهى قوة يقينية عارمة عن الخطأ. هو العقل البديهى الذى انتعشت فيه علومه (دون ذكر لعقل فاعله).

والعلم فضيلة الجزء النظرى. هو حصول اليقين فى النفس ووجود الموجودات التى ليست من صنع الإنسان عن براهين مؤتلفة من مقدمات ضرورية صادقة كلية حصل منها علم بالطبع. وهو صنفان: يقين بوجود الشئ وسببه، ويقين بوجود الشئ وأنه ليس بغيره دون معرفة السبب. وهما علمان متشابهان، ووجود الشئ واليقين به. وهو أقرب إلى المنطق أو الميتافيزيقا. والعلم بالحقيقة هو العلم بالصادق واليقين الأبدى الأزلئ الثابت الذى لا يتغير. ولا يسمى ما دون ذلك من العلم إلا استعارة. العلم الالهى هو العلم بالحقيقى، والعلم الانسانى علم بالمجاز (٢).

والحكمة هى العلم بالأسباب البعيدة التى هى سبب وجود الموجودات والأسباب القريبة وارتقاؤها فى السبب الأول وهو الواحد بالحقيقة، قائم بذاته، مكتف بذاته، ليس جسما ولا يشاركه أحد. وهو الجدير بالاسم والموجودات الأخرى باشتراك الاسم، هو الله بالحقيقة والإنسان والعالم بالمجاز حق أول وكمال أول ووجود أتم. الموجودات منه مرتبة أعلى وأسفل وأوسط. والاول يدبر كل شئ أو يعتنى بكل شئ. هذه هى الحكمة بالحقيقة. وتقال مجازاً على من حذق هذا العلم. فالحكيم هو العالم بالله، والحكمة هى العلم بالله، منطقية بطبيعة إلهية. وكلها عبارات إنشائية صوفية وجدانية سلباً وإيجاباً، تستبعد العلم بالمتغيرات.

(١) كما هو الحال عند كانط. وكانط قارئ للعصر الوسيط المسيحى والإسلامى اللاتينى.

(٢) الفارابى: فصول المندى ص ٥٠-٥٢ الفقرات ٣٣-٣٦.

والفضيلة الفكرية هي التي يقدر بها الإنسان جودة الاستنباط لما هو أنفع في غاية فاضلة مشتركة للأمة أو لأمية أو لمدينة، انتقالاً من الكل إلى الجزء. ومن العام إلى الخاص. ومنها ما يستنبط في عدد قصار وتسمى القوة التمييزية على أصناف جزئية. أما القوة الفكرية التي تستنبط ما هو شر ليست فضيلة فكرية. فأعمال الفكر في الخير هو تفضيلة. وأعماله في الفضيلة هو الفكر، توحيداً بين المعرفة والأخلاق. والفاضل والفاضل واحد. كلاهما يتهيان إلى الفساد. ولا يرفع المتفاضل علمه بشئ إذا لم يستعمل. ولا يضر الفاضل في فعله بما لم يفعله. الاتفاق بالاضافة، والتباين في العلم والجهل^(١).

والعقل العملي قوة يحصل بها الإنسان عن كثرة تجارب وطول مشاهدة الأشياء المحسوسة، مقدمات يمكنه بها الوقوف على ما ينبغي أن يفعل ولا يفعل في أمر ما. البعض منها كلية تندرج تحتها أمور أخرى. وبعضها جزئية تستعمل كمثالات لأمر لا تشاهد. وهو عقل بالقوة قبل التجربة، وبالفعل بعدها. يزداد بازدياد السن وتقدم العمر. ومن ثم يمكن رصد صفاته بأنه عقل مرتبط بالتجربة والمشاهدة، يعطى ما ينبغي أن يكون، لا تعارض فيه بين الحس والعقل أو بين الحس والأمر. مقدماته كلية للاستنباط أو جزئية للتعميل. يقوم في حاله التمثيل بقياس الغائب على الشاهد. وهو عقل بالقوة قبل التجربة وبالفعل بعدها، وكأنه عقل مكتسب. يزداد بالنسب والعمر. وقد يتساءل أحد: وماذا عن الخيل والجنون والمراهقة المتأخرة؟

والعقل هي القدرة، جودة الروية والاستنباط للأشياء التي هي أجود وأصلح. هي القوة التي إذا وجدت في الإنسان أصبح عاقلاً وحصل على خير عظيم حقيقي وغاية شريفة فاضلة. والكمياسة هي القدرة على جودة استنباط ما هو أفضل في بلوغ خير يسير. والدهاء هو القدرة على صحة الروية في استنباط ما هو أصلح ليتم به شئ عظيم مظنون على أنه خير كالثروة أو اللذة أو الكرامة والخير والجريذة والخبث. هي جودة الاستنباط لما هو أبلغ وأجود بفعل شئ حسن بظن خيراً من ربح أو لذة وهي وسائل لا غايات.

(١) السابق ص ١٠٢/٩٩، التفكرات ٩٥/١٠٠.

المتعقل فاضل وكذلك الكيس. والداهى والخب شريان من قوى نقانض.

والتعقل على أنواع: التعقل المنزلى وهو جودة الروية لتدبير أمور المنزل، والتعقل المدنى لتدبير أمور المدينة، وجودة الروية فيما هو أفضل وأصلح فى بلوغ جودة المعاش، دليل الخيرات. الإنسانية مثل اليسار والجمال ومنها الخصوصى لمقاومة العدو، والمشورة وهو استنباط لغير وقد يكون كثير أو يسير.

والعقل يتوافر فيه شرطان: جودة التمييز، والاستعمال الأفضل وإلا كان خبيثاً. ويتسم بعدم الغفلة، والفهم أى الارتسام فى النفس. فلا فرق بين العقل والعلم وجودة الروية والاستنباط فيما ينبغى أن يفعل من أفعاله الفضيلة. والعقل الجدلى أى الراى المشترك عند الجميع وهو المعنى المشهور^(١).

وهناك منافع للجزء النظرى فى الفلسفة وضرورة الجزء العملى. فالنظر أساس العمل من عدة وجوه. العمل فضيلة إذا قام على النظر والمعرفة. والمعرفة النظرية عادية، بالدربة واكتساب الهيئة. والمعارف النظرية لبدء من الأعداد (الحساب) ثم الأعظام (الهندسة) ثم المناظر ثم الأعظام المتحركة ثم الموسيقى والأجسام السماوية ثم الانتقال ثم الحبل. ووقفهم بلا مادة. وهناك مبادئ أخرى لإدراك الأشياء التى تسير فى مواد أو تكون منافسة لها مثل العناصر الأربعة. وأخيراً تأتى أسباب وجود الأجسام الطبيعية لنتهاء إلى الأجسام السماوية والنفس الناطقة والعقل الفعال وصولاً إلى الغاية الأولى. فالنظر الالهى غاية الإنسان. ويعطى الجزء العملى بوحى لمعرفة الأولم والنواهى. ويسمى علماً باشتراك الاسم. فإذا كانت المعرفة النظرية مبادئ التعليم (الرياضيات) ومبادئ الوجود (العالم المتوسط بين الطبيعيات والالهيّات) فإن النص يدخل فى شق العلم. وهو الحدس الرئيسى للفاربى فى تصنيف العلوم ومراتب الموجودات.

وهناك آراء خاطئة هى فى الغالب آراء المتكلمين. مثل أن السبب الأول لا يعقل ولا يعلم ذاته أو أن المعقولات الكلية حاصلة له دفعة واحدة بلا زمان، كلها فى ذاته،

(١) السابق ص ٥٤-٥٨، الفقرات ٣٨-٣٩/٤١-٤٢.

معلومة له بالفعل تطهراً من العلم الاستقرائي وأنه لا يعلم الجزيئات المحسوسة كلها ويتصورها وكأن بها الكذب والصدق والاعتقادات المضادة في معقولاته كرد فعل على تصور التغير في العلم الالهي (محمد بن كرام). وهو الموضوع الذي كفر فيه الغزالي الفلاسفة من بعد واتهامهم بانكار علم الله بالجزيئات ودفاع ابن رشد عن الفلاسفة بان الله لا يعلم الجزيئات بعلم يعدى احصائياً بل بعلم فعلى استنباطياً. كل هذه الآراء الخاطئة في موضوع العقل الأول كمقدمة لانشاء الأخلاق الالهية.

ويحدد الفارابي المنطقي معانى عديد من المصطلحات المعرفية^(١). وأحياناً يكون التعريف مجرد تكرار للعرف وليس تعريفاً طبقاً لشروط التعريف. فالظن الصواب أن يكون الإنسان كلما شاهد أمراً صادقاً يظنه الصواب أى معرفة الشخص على ما هو عليه. هو ظن صائب بناء على نوع من المصادفة وليس على يقين أو تطور. ويظل التطابق مقياساً للصدق.

والذهن هو القدرة على مصادفة صواب الحكم في نزاع الكراء والقدرة على تصحيحها. هو جودة استنباط في الصحيح من آراء. هو نوع من التعقل فى أداء وظيفة المعيار. وهو أعلى درجة من الظن الصواب لأنه به جهد أعلى من التعقل والتصحيح وليس مجرد مصادفة.

وجودة الرأي أن يكون الإنسان ذا رأى فاضلاً، جمعاً بين العلم والفضيلة، خيراً فى أفعاله، جمعاً بين النظر والعمل، وأن تكون أقواله وإراداته سديدة التجربة، وتكون شهرته قد صارت ذائعة بحيث لم يعد فى حاجة إلى حجة أو دليل. والأصول التى يستعملها المروى فى الاستنباط اثنان: المشهورة المأخوذة من الجميع، والأكثر وهو التواتر بالرواية قبل ابن سينا، والأشياء الحاصلة بالتجربة والمشاهدة. والغمر هو الذى يتخيل المشهورة فى الفعل أو الترك على نحو سليم غير أنه ليس لديه تجربة لما سيبله أن يُعرف بالتجربة. قد يكون الإنسان غمراً فى أمر دون آخر أى صاحب معرفة نظرية

(١) وهو ما يسمى بلغة الظاهريات المعاصرة أنماط الاعتقاد.

والجنون هو تخيل فى الفعل والترك ضد المشهور وما جرت عليه العامة من كثير الأمور الحسية. والحق هو تخيل المشهور على نحو سليم مع تجارب محفوظة وتخيّل الغايات التى تعشق سليماً. والروية التى تخيل ما لا يؤدى إلى الغاية بل إلى الضد، ويكون الفعل والمشهور حسب تخيل لا يؤدى إلى الفاسد. لذلك يبدو الأحق عقلاً، ويكون مقصود صحيحاً، ولكن رويته توقعه فى الشر دون قصد.

ويدخل منطق الظن مع منطق اليقين فى تحديد المصطلحات. فالخطابة هى القدرة على المخاطبة بالأقوال التى تكون بها جودة الاقتناع بشئ ممكن للفعل أو الترك يستعملها الفاضل فى الخيرات والدهاء فى الشرور. والفعل والترك مقولتان أصوليتان فى مبحث الأمر والنهى من مباحث الألفاظ.

وجودة التخييل غير جودة الاقتناع. فيعد أن يعقل السامع بعد التصديق بالاقتناع تنهض نفسه إلى طلب شئ مخيل والهرب منه أو النزاع إليه أو الكراهة له وإن لم يقع له به تصديق. وتستعمل فيما يسخط ويرضى، ويفزع ويؤمن، وما يلين النفس وما يشد معاً. وكثير من الناس يؤثر فيهم التخييل دون الروية إما لأنهم لا روية لهم بالطبع أو يتركونها فى أمورهم. فالأصل تجربة حسية واقعية ثم يتم تخيل المعنى بشئ حسى مثل «أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه».

والأشعار تهدف إلى تخييل الشئ. والشعر إصلاحى فى كل أنواعه لأن كل شعر له هدف، ويتضمن حكم قيمة كما وصف القرآن فى آية الشعر، والأشعار ستة أصناف ثلاثة ممدوحة وثلاثة مذمومة. الممدوحة هى أولاً: الإصلاح، القوة الناطقة وتوجيهها نحو السعادة وتخييل الهبات والخيرات وتحسين الفضائل وتقبيح الشرور، ثانياً: إصلاح عوارض النفس لتكون أقرب إلى الاعتدال. والعوارض مثل الغضب وعزة النفس والقسوة

(١) وهذا هو معنى البيت الشهير:

لا يعرف الشوق إلا من بكيدة . . . ولا الصبابة إلا من يعانيتها

والنخوة والهمة ومحبة الكرامة والغلبة والشره وتوجيهها نحو الخير دون الشر. ثالثاً: إصلاح العوارض المنسوبة إلى الضعف واللين من عوارض النفس كالشهوات والذات والرفة والرخاوة والرحمة والخوف والجذع والغم والحياء والطرف واللين وتوجيهها أيضاً نحو الخير دون الشر.

لما الثلاثة المنمومة فمضادة للممدوحة. فالشر قلب الخير ونفى له وليس له وجود مستقل. والألحان والأغاني تابعة للأشعار. فالموسيقى تابعة للقلَم، والشعر نفسه موسيقى^(١).

والحقيقة أن هذه المصطلحات بين العقل النظري والعقل العملي لأنها تشمل طرق الاستدلال وأساليب التعبير. وهي أقرب إلى تنظير الموروث منها إلى تمثل الواقع. تضم الوحي والنبوة كتجارب إنسانية معاشة من عمل العقل والخيال. وقد يختلف الحكم على بعض الانفعالات فمثلاً: هل عزة النفس والنخوة وهل رقة النفس والحياء والرحمة تطرف؟

ثم ينتقل الفارابي إلى بعض مصطلحات الأخلاق الإلهية أو "أثولوجيا" الأخلاق مثل الحكمة، والحكمة الإلهية، والعناية الإلهية. بالنسبة للحكمة يسمى المتعقون حكماء عند البعض. وهي أفضل علم لأفضل الموجودات. والتعقل الذي تُدرك به الأشياء الإنسانية لا يكون حكمة إلا إذا كان الإنسان أفضل الموجودات. ولا تعارض بين أن يكون الإنسان أفضل الموجودات وأن يكون الله كذلك. فالأمر حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر^(٢). واضح التفارقة بين الأسماء والمسميات، وأن القضية هي البحث عن ألفاظ للتعبير بها عن حقائق الموجودات. وإذا كانت الحكمة هي تعلم الأسباب القصوى، السعادة بالقسبة للإنسان، فإنها تكون معرفة السعادة الحققة. وإذا كانت الحكمة تعلم الواحد الأول

(١) السابق ص ٦٣ - ٦٥، الفقرات ٥٤ - ٥٦.

(٢) هذا هو موقف ابن الأبيدي من اللغويين المتكلمين على مستوى اللفظ وموقف فيوريخ في الفلسفة الغربية على مستوى اللفظ والمعنى والشئ أي اللغة والتصور والوجود، عالم الأصوات وعالم الأعيان، التعبير والانشاء والخير. من العقيدة إلى الثورة ج٢ التوحيد ص ٦٠٠ - ٦٠٤.

الذى منه استفادت ومقدارها وكأن الإنسان أحد هذه الموجودات فهي إذن تعلم أعظم الكمال الذى استفاده الإنسان من الأول وهو السعادة. الحكمة تعطى السعادة، والتعقل يعطى الوسيلة إليها. فهما متعضدان فى تكميل الإنسان. ولماذا يكون كمال الإنسان مستقداً من غيره؟

وبالنسبة للحكمة الالهية السبب الأول علة كل الموجودات والأسباب، أول بالحقيقة، قائم بذاته، مكتف بذاته، ليس جسماً ولا فى جسم. لا يشاركه أحد من الموجودات إلا فى الاسم فقط. واحد ولا كمال أزيد منه، ومصدر كمال الموجودات، لا يوجد وجود أتم منه، ومصدر تمام الموجودات. لا حقيقة أكبر منها، ومصدر حقيقة الموجودات. فهل يوجد تفاضل بين العلوم من حيث هى علوم أم أن التفاضل فى موضوعات العلم طبقاً لمستوياتها؟ والعناية الالهية تطوير للعدل والجود عند المتكلمين. وبها اعتقادات خاطئة مثل أن عناية الله بخلقه مثل عناية الملك برعيته ومصلحهم من غير مباشرة لأمر واحد ولا توسط بل هناك واحد يقوم بما يوحىه الحق والعدل، لا فرق فى ذلك بين الله والرئيس، والنبى والامام. ومثل أن عناية الله مباشرة، فيتولى واحداً واحداً دون وكالة وإلا كانوا شركاء فى تدبيره، وبالتالي يكون هو المتولى للقبائح، مما يدل على رفض الأشعرية مسؤولية الله عن القبيح. فأفعال الله كلها عدل وليس فيها جور. وفاعل الشئ فى الزمان لا يؤجل إلا لعائق ويكون أصلح أو خيراً وليس بأصلح أو شر^(١). ويصف الفارابى أسباب الخير والشر فى الأفعال. ويكون السؤال: وهل الصانع له القدرة على إزالة الفساد؟ لو كان كذلك فليس وقوعه أولى من عدم وقوعه.

غاية الفارابى من تحديد هذه المصطلحات هو تصحيح الأخطاء الشائعة الموروثة من المتكلمين بعد أن تحول الكلام إلى الفلسفة مع مزيد من التنظير للموروث، من التصور الكلامى لله إلى التصور الفلسفى للموجود الأول.

٥- الخير والشر. ثم ينتقل الفارابى من "لاهوت الأخلاق" إلى "أنطولوجيان"

(١) الفارابى: فصول المبنى ص ٥٤/٦١-٦٢/٨٨-٨٩/٩١-٩٢، الفقرات ٣٧/٥٢-٥٣/٨٤/٨٧.

الأخلاق، ويعرف الواجب والممكن والمستحيل، الوجود (الجوهر) والكمال والنقص، الخير والشر والطبيعي، كما يفعل فلاسفة الوجود. وبلا مقدمات تظهر مجموعة من الفقرات في الالهيات والطبيعات وكأن موضوع الأخلاق لم يتغير مثل أقسام الوجود الثلاثة الواجب والممكن والمستحيل التي يتحد فيها العقل والوجود. فهي أحكام العقل وأقسام الوجود في آن واحد. فالوجود ما يمكن أن يوجد وألا يوجد وهو الممكن، وما لا يمكن أن يوجد أصلاً وهو المستحيل الأصلي، وما لا يمكن إلا أن يوجد، وهو الواجب بصيغة النفس المزدوج. الأساس هو الوجود ثم العدم ثم الامكان أو الحال كواسطة بين الوجود والعدم، وهي المفاهيم الأساسية في علم أصول الدين في المبادئ العامة منذ العقيدة النظامية في القرن الخامس مستقاة من علوم الحكمة. وقد تكون هذه القسمة طرفين ووسط، أساس نظرية الفضيلة كوسط بين طرفين. فالموجودات ثلاثة: ما لا يمكن أن يوجد وألا يوجد وهو النقص (الممكن) وما لا يمكن أن يوجد في حين ما وأن يوجد في حين آخر (المستحيل)، وما لا يمكن أن يوجد أصلاً وهو الكمال (الواجب). فتتحول مقولات العقل والوجود الثلاث، الواجب والممكن والمستحيل، إلى مقولات الأخلاق بين الكمال والنقص. والممكن قد يكون على الأنقص أو على التساوى أو على الأكثر، طرفان ووسط طبقاً لمراتب الكمال في الحياة الخلقية.

ويمكن الانتقال من "أنطولوجيا" الأخلاق إلى "الأنطولوجيا" العامة. فالموجودات ثلاثة أقسام: الأجسام الهيولانية، والأجسام السماوية، والأجسام الروحية البريئة من المادة. كما يمكن قسمة الواجب قسمين، ما يوجد فينا ولا يمكن غير ذلك مثل الموجودات السماوية من الموجودات المادية، وما يوجد لا في وقت أصلاً مثل الموجودات الروحية. وكل قسم تابع لجوهره وطبيعته. وأحياناً تكون القسمة رباعية بقسمة الممكن إلى قسمين على التقابل بعد إدخال أحد القسمين في الزمان كي يصبح واجباً خلقياً: ما لا يمكن أن يوجد وألا يوجد (الممكن)، وما لا يمكن إلا يوجد حيناً ما (الواجب في الزمان)، وما لا

يمكن أن يوجد أصلاً (المستحيل)، ولا يمكن إلا يوجد أصلاً (الواجب) (١).

والعدم نقص في الوجود وكذلك الاحتياج والشبه. وإن كان في الإنسان مثله، فالإنسان يحتاج إلى أكثر من واحد. ومن ثم لا يمكن تصور الله بدون الإنسان عن طريق القلب أو التضاد. وكل ماله ضد فهو ناقص الوجود، وله عدم زائل مفتقر في وجوده. إلى غيره. وما لا عدم له لا ضد له وكان التضاد نقص مع أنه قد يكون كمالاتاً تنظيراً للموروث الأصلي (لولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت السماوات والأرض).

ثم يتم الانتقال من أنطولوجيا الوجود العام إلى أنطولوجيا الأخلاق في تعريف الخير والشر. فالشر غير موجود أصلاً ولا في أي شيء في هذا العالم على عكس أنطولوجيا الأخلاق مثل الخطيئة الأولى والأخلاق البوذية وآلام البدن والنفس والديانات الثنوية في فارس التي جعلت الشر إليها يصارع الخير إليها ثانياً. وكل ما هو خارج إرادة الإنسان خير. والخير في الكون من السبب الأول، نظام وعدل لا شر فيه. فالخير والشر إراديان.

والشر نسبي، كل شيء يبلغ به الشقاء بما في ذلك الأفعال الإرادية، والشقاء في مقابل السعادة. فهو شر ذاتي إنساني عملي إرادي. والخير نسبي كذلك، كل ما ينفع في بلوغ السعادة، والسعادة كفاية في ذاتها وليست كوسيلة لبلوغ غاية أخرى. فهو خير إنساني ومطلب خلقي ورغبة في الكمال. والخيرات ضرورية: ما يقابله شر، وما لا يقابله شر أصلاً، فالخير أعم من الشر، والشر أخص منه. الخير أصل والشر فرع عليه.

لا يوجد خير أو شر في الوجود. وليست اللذة خيراً وليس الألم شراً، فالوجود خير بالنسبة وشر بالنسبة، وكذلك الذات والأذى. أما الوجود واللاوجود كخير أو شر فليسا موجودين في شيء من العوالم الروحانية. كل شيء في العوالم الروحانية والسماوية. أما. الممكنات الطبيعية فهي إرادية إما بالصورة أو بالمادة، إما على الأكثر أو على

(١) السابق ص ٧٨-٨٠، الفقرات ٦٨-٧٣.

الأقل أو على أو على التساوى. وكلها خير. كما هو الاستحقاق والعدل كما هو الحال عند المعتزلة.

كل فعل طبيعي إرادى به خير وشر، أما الأفعال الطبيعية بلا إرادة فهي خارج مقولتى الخير والشر^(١). وقد ظن قوم أن عوارض النفس خاصة النزوعية فيها ضرور. وظن آخرون أنها القوة الشهوانية والغضبية. وظن فريق ثالث أنها القوة التى تكون بها الانفعالات النفسانية مثل الغيرة والقسوة والبخل ومحبة الكرامة. وكلهم غالطون. فالشر ليس من النفس لأن النفس صالحة للخير والشر. وليس الشر أولى من الخير. فاما أن تكون النفس خيراً أو شراً معاً وإما لا تكون شراً أو خيراً. وإذا استعملت فيما ينال السعادة تكون خيراً، وفيما ينال الشقاء تكون شراً^(٢). وهذا نوع من التأمل غير المباشر والتوجه اللاشعورى من الموروث للنفس وما سواها ألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاهما وخاب من دساها^(٣).

رابعاً: الأخلاق الطبيعية والدينية (إخوان الصفا).

وإذا كان الفارابى هو خير فيلسوف الأخلاق والاجتماع فإن إخوان الصفا هم فلاسفة الأخلاق تأسيساً لها من أدنى إلى أعلى، ابتداء من الأخلاق الجغرافية إلى الأخلاق الفردية والاجتماعية إلى الأخلاق الدينية حتى الأخلاق الصوفية. ويبدو ذلك فى الخير. الجزء الرابع من رسائل إخوان الصفا "العلوم الناموسية الإلهية والشرعية". إذ تتضمن أسباب الشرور فى العالم، الطبيعة أم النفس، الموضوع أم الذات، الوجود أم المعرفة، وهى الأخلاق الطبيعية والكونية، وحرية الأفعال وهى الأخلاق الانسانية والرغبة فى الآخرة والثواب والعقاب وهى الأخلاق الدينية، وكيفية الدعوة إلى الله ومخاطبة النفس له وهى الأخلاق الصوفية^(٤).

(١) وذلك مثل الأخلاق عند كانط فى الفلسفة الغربى.

(٢) السابق ص ٨٠-٨٢، الفقرات ٧٤-٧٥.

(٣) الرسائل ج ٤ ص ٤٠-٥٣٨.

وهى فى كل مراحلها أخلاق إنسانية يظهر فيها لفظ الإنسان كما هو الحال عند الفارابى لا تعتمد على العقل وحده أو الذوق وحده بل أيضاً عن الروايات عن الصحابة والأولياء والحكايات عنه واعتراض أحدهم على الله لماذا خلق وعلى الجدل القرأى كما هو فى الحديث الشريف "وحج آدم موسى". وهو أضعف جزء فى الرسائل لأنه صوفى خالص، يضع تقابلاً بين الحقيقة والشرعية، الحقيقة والطريقة.

ونظراً لتداخل كل شئ مع كل شئ تبدو الرسائل كلها أقسام الحكمة كلها المنطق والطبيعات والالهيات قراءة أخلاقية. النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة والتاريخ، بين الحكمة النظرية والحكمة العملية ولو بأسماء مختلفة. فالمنطق يشمل الرياضة. والطبيعات تضم الجسمانيات النفسانيات. والعقليات تعادل الالهيات. والعلوم الناموسية الالهية والشرعية تعادل المقامات والأحوال فى الفلسفة الاشراقية. وهى نفس الأقسام الأربعة فى "الاشارات والتنبيهات" لابن سينا. والرسالة التاسعة من القسم الرياضى تهذيب الأخلاق تبدو فيها الرياضة مقدمة للأخلاق^(١).

١- الأخلاق الطبيعية (الجغرافية). وهى أخلاق البيئة التى تخضع لها الأمزجة الفردية والتكوينية العضوية طبقاً لأحكام النجوم.

فالأمزجة أربعة طبقاً للعناصر الأربعة: الأرضى، والنارى، والمائى، والهوائى. وهى الأخلاق الأرضية التى تتحكم فيها الطبيعة "البيولوجية". يعطى الاخوان تفسيراً مادياً للأخلاق عن طريق الأمزجة وإن كانت حركات الكواكب هى التى تؤثر علة تركيب الأفلاط فتسيطر الخرافة على العلم كما يسيطر الأعلى على الأدنى. وهناك الأخلاق الفلكية أى أثر النجوم والأفلاك فى الاخلاط ثم فى السلوك. فالسماوات تتحكم فى الأرض، والحمية الكونية تحتوى الحرية الإنسانية. الطبيعة المريخية تؤدى إلى التعصب والجدل. والطبيعة المشترية تؤدى إلى الزهد والورع. وماذا عن باقى الأفلاك العشرة؟

(١) السابق جـ ١/٩/٣٥٨/٣٦٤ ٢٧٣.

وتختلف أخلاق الناس طبقاً للطبيعة الأرضية والطبيعة الفلكية من أعلى إلى أدنى على خمسة وجوه: أخلاق الجسام والمزاج وهى الأخلاق البدنية، وأخلاق البلدان وخصبها وهى الأخلاق الجغرافية والنشوء على دين الأبياء والمعلمين، وهى الأخلاق الاجتماعية أو التربوية، وأخلاق النجوم وهى الأصل، وتنقسم إلى أخلاق قدرية سماوية وفلكية، وأخيراً العقائد وهى الأخلاق الدينية^(١).

وتتوالى هذه الثنائيات على كافة المستويات، العضوية مثل الحياة والموت، الشبابة والهرم، النوم واليقظة، المرض والصحة، والنفسية مثل العلم والجهل، التذكر والغفلة، العقل والحماسة، والأخلاقية مثل الفجور والعفة، البخل والسخاء، الجبن والشجاعة، الأم واللذة، والاجتماعية مثل الصداقة والعداوة، الفقر والغناء، الخير والشر، الخوف والرجاء، الصدق والكذب، الحق والباطل، الصواب والخطأ، القبح والحسن.

وبالمثل للحرية الانسانية الأخلاق نوعان: جبلة بسبب الأخلاط والأمزجة أو البيئة أو النجوم، ومكتسبة بالتعليم. والجبلة هى الأخلاق المطبوعة وهى الأصل، والأخلاق المكتسبة هى الفرع.

وهى أخلاق جبرية كونية أو طبيعية أو اجتماعية مثل العقائد الجبرية فى علم الكلام اعتماداً على بعض الأحاديث مثل: "السعيد من سعد فى بطن أمه، والشقى من شقى فى بطن أمه"، فى النحس واللاسعادة، وربط ذلك بالأفلاك تحت تأثير الخرافات الشعبية. تبين أثر الجغرافيا على السلوك أولاً قبل أن تجمع بين الوطنية والروحية، المادية والاشراقية. لا فرق بين الطبع والاكْتساب، بين الحتمية الطبيعية والحتمية الاجتماعية^(٢).

(١) تحليل الرسالة الأولى فى الآراء والديانات إلى هذه الأخلاق الكونية لعدة فصول منها ٢٩ - فصل فى بيان قول القائلين أن أسباب الشرور فى العالم بالعرض لا بالقصد ٣٠ - فصل فى بيان قول كمية أنواع الخيرات والشرور فى هذا العالم. ٣١ - فصل فى بيان القصد الأول والقصد الثانى على قول الحكماء. ٣٢ - فصل فى بيان الشرور التى تنسب إلى النفس الانسانية من جهة أحكام الناموس ص ٤٧١-٤٨٠.

(٢) السابق ج ١/ ٣٣١-٣٣٥.

واختلاف الاخلاق ليس للمزاج ولا للقرانات للأفلاك والمواليد طبقاً لها. فهذه
حتمية كونية تمحى مع المسؤولية الفردية وأفعال الاختيار.

أخلاق الدنيا بالطبيعة، وأخلاق الآخرة بالاكتساب. الأولى بالفطرة والثانية بالجهد.
والسؤال هو: لماذا لا يكون العكس صحيحاً، اختيار الدنيا بالارادة، والذهاب إلى الآخرة
باندماج الروح خاصة إذا كانت الطبيعة خيرة؟ ولماذا لا يكون كلاهما طبيعة أو كلاهما
حرية دون الوقوع فى نظرية تطهيرية متشائمة فى الطبيعة ومتفائلة للروح والتى عندها
تنتفى المسؤولية والجزاء؟ ما دامت الأخلاق فى الجبله فلا مسئولية ولا حساب. لا فرق
بين الحتمية الطبيعية والحتمية الاجتماعية والحتمية الدينية.

وأخلاق الاكتساب منها ما يحكم عليها طبقاً للقاموس وطبقاً للعقل أى وجود معيار
للحكم على أخلاق الارادة الحرة. ومن هذا التقابل الثنائى بين الطبيعة والاكتساب انقسمت
أخلاق النفوس أربعة أقسام: المكتسبة بالعادة، العلوم التعليمية، الآراء المعتمدة، والأعمال
المكتسبة للاختيار والارادة. وهى قسمة غير دقيقة، أطرافها العادة والاختيار، ووسطها
الرياضيات والعقائد. وربما الرابطة بينهما البرهان، حضوراً فى التعاليم وغيباً فى
الاعتقاد. الطرفان عمل والوسط نظر.

والنفوس ليست صفحة بيضاء كما يقول الاخوان لوجود الأفكار الفطرية والنور
الطبيعى وإلا تحولت الطبيعية إلى مجرد انفعال والاكتساب إلى فعل وكما أصبح الإنسان
البالغ العاقل قابلاً على المعارضة والمقاومة لما يكتسبه من المجتمع. وإذا كانت الأخلاق
طبعاً وعادات فإن أعمال الناس فى ظاهر أمورهم تكون بحسب أخلاقهم التى تطبعوا
عليها أو بحسب عاداتهم التى نشأوا فيها أو بحسب آرائهم التى اعتقدوها دون أن يقلل ذلك
من شأن حرية الأفعال.

بل إن الشعائر لها رموز كونية. فالبيت وسط الجرم مثل الأرض وسط العالم،
والطواف دورات الأفلاك، والمصلون الكواكب الثابتة، والحجاج الكواكب السيارة،
ورجوع الحجاج رجوع النفوس. وتطابق الاشخاص الفلكية الثابتة الموجودة الدائمة

الدوران مع الاشخاص السفلية الكائنة. وهى دلالات كونية مثل دلالات الصوفية (١).

ولست الشعائر فقط رموزاً كونية بل هى أيضاً عمليات، الودة بالربح أو الخسارة تحت أثر المجتمع التجارى وأخلاق التجار. وهو كذلك فى كل دين، فى اليهودية قبل أن تحولها المسيحية إلى شعائر روحية خالصة، انتقالاً من ملكوت الأرض إلى ملكوت السماء. وقد حاول أبو حيان ذلك من قبل فى تأويل مناسك الحج العقلى إذا ما ضاق الفضاء عن الحجة الشرعية.

ويمكن تأويل مناسك الحج على نحو اجتماعى. كتونع من الحلول الوسط مع ديانات العرب قبل الإسلام والارتباط بها والتواصل معها قبل أن يحولها إخوان الصفا إلى دين العشق والمحبة اشتقاقاً من لفظ الخليل.

٢- الأخلاق الفردية والاجتماعية. وتشير عديد من الرسائل إلى الأخلاق الفردية والاجتماعية مثل حرية الأفعال وتهذيب النفس وإصلاح الأخلاق والزهد والسعادة والصدقة (٢).

والسعادة أربعة أنواع طبقاً للقسمة العقلية الكاملة للسعداء وهم الأشقياء فى الدنيا والآخرة، السعداء فى الدنيا أشقياء فى الآخرة، والأشقياء فى الدنيا سعداء فى الآخرة. والسعداء فى الدنيا والآخرة طبقاً لأحكام التكليف المحرم والمكروه والمندوب والواجب دون الحلال وكان الأخلاق ليست فى وجود العقل الطبيعى نفسه، أخلاق الوجود (٣). فما يهم الأخلاق هو التطهيرية الثنائيات المتعارضة مثل الواجب

(١) الرسائل ج٢/٦/١٣٨-٢٤٣.

(٢) تضم بعض فصول الرسالة الأولى فى الآراء والبيانات موضوعات الأخلاق الفردية والاجتماعية مثل

٤٠- فصل فى مسألة لخير ص ٤٩٨ - ٥٠٠.

(٣)

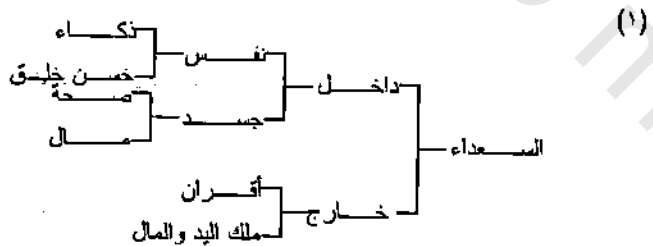
السعداء	الاشقياء فى الدنيا والآخرة	الواجب
	الاشقياء فى الدنيا السعداء فى الآخرة	المندوب
	السعداء فى الدنيا الاشقياء فى الآخرة	المكروه
	الاشقياء فى الدنيا والآخرة	الحرام

الأحكام

والمحرم، والمندوب والمكروه. والسعادة أفضل شئ يرزقه الإنسان وهى فى الخارج أو فى الداخل. والخارج المال أو الأصدقاء. والداخل هو الجسد، المال والصحة، أو النفس، حسن الخلق والذكاء. والأقران مثل الزوجة والصديق والولد والأخ والأستاذ والمعلم والصاحب والسلطان ^(١). المعلم قبل النفس. والمعلم الذكى أحد أسباب السعادة. إلى هذا الحد يتم رفع المعلم والأستاذ والصاحب بمنزلة الأخ والزوجة والولد. والسؤال هو: هل المعلم الرشيد هو بالضرورة العالم بالغيبات، المعاد والآخرة؟ وهل السلطان صديق أم عدو؟

ينقد الاخوان العلماء المزيفين المتشبهين بأهل العلم والموالين لأهل الدين الجاهلين بالفلسفة والشريعة وادعاء النظر فى خفيات الأمور، وهم لا يعرفون أنفسهم التى هى أقرب الأشياء لهم، ولا يميزون الأمور الجلية، ولا يتفكرون فى الموجودات الظاهرة المدركة بالحواس، المشهورة فى العقول، ثم ينظرون فى الطفرة والجزء الذى لا يتجزأ وغيرها من الأمور المتهومة التى لا وجود لها فى الهوى وهم شاكون فى الأشياء الظاهرة الجلية. ويدعون المحالات بالمكابرة والحجاج، كذابون على الأنبياء ينتحلون ولا يتحققون، يدعون ما لا يعرفون، يتكلمون فيما لا يحسنون، ويهيمنون فى أودية ما يتوهمون، ويقولون ما لا يفعلون ترجهاً من وصف القرآن الكريم للشعراء. وهم علماء الكلام والنفوس.

وأخلاق الشياطين ثلاثة: كبر إبليس، خلاق العجب والأنفة، وحرص آدم، أخلاق الهلع والشح، وحسد قابيل، أخلاق الحق والغفل. هذه الخصال الثلاثة هى أصول الشرور

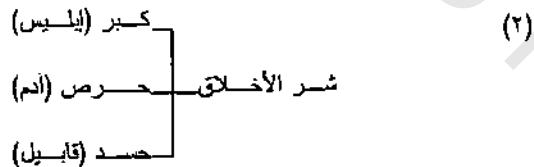
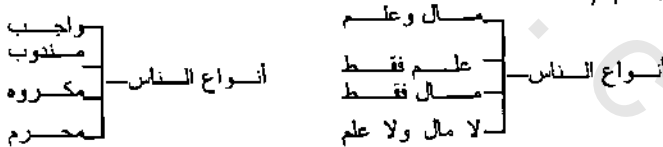


وأمهات المعاصى. لا تجتمع فى شخص واحد بل تتوزع فى عدة أشخاص (١).

وقد نكون أخلاق الطبيعة مواهب من الله. وهى نوعان: جسمانية مثل المال، ونفسية مثل العلم. والناس على أربعة أنواع فى طلب المواهب كما هم فى طلب السعادة: لا مال ولا علم، مال فقط، علم فقط، مال وعلم. وهى علم مع مال ومال مع علم، ومال فقط مع علم فقط، والتوسط بين الأطراف. وهى نفس البنية الرباعية لأحكام التكليف المحرم والواجب والمكروه والمندوب وإسقاط المباح (٢).

وبكل مرتبة طريقة فى الدعوة إليها حتى يمكن الوصول إلى الدعوة الكاملة، تكامل المال والعلم (٣). من ليس له مال ولا علم نفسه زكية، جميلة الأخلاق، سليم القلب من الآراء الفاسدة، محب للخير وأهله، صابر راضى بما قسم الله له. وهو العامى الذى على الفطرة الذى يرى الأخلاق فى ضرورة اتفاق العلم والعمل عند العالم لأنه يأخذ بالقنوة. وقد يوجد أقوام علماء متفلسفون يصنفون الكتب فى تحسين الأخلاق ويأمرون الناس بها وهم أسوء الناس خلقاً. ومن له مال دون علم يضم أحداً ممن رزق العلم حتى يكتمل المال بالعلم. ويجتمع الكمال فى شخصين متعاونين. ومن رزق العلم فقط دون المال يصبر حتى يأتى الفرج. فالعلم مكتف بذاته وليس كالمال الباحث عن العلم. ومن أوتى المال

(١) الرسائل جـ ١/٩/٣٥٠-٣٥٧.



(٣) وهو معنى البيت الشهير لأحمد شوقي

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهموا .: لم يبن ملك على جهل واقلل.

والعلم يبحث عن المحروم منهما ليدله عليهما. ويشكر الأربعة الله على ضم أحد الاخوان إليهم دون أن يمن على المحرومين من أحدهما أو كليهما (١).

وما يحتاجه الأخ أربعين خصلة تجتمع في واحد أو في أربعين شخصاً، في كل منهم خصلة ومجتمعون على قلب رجل واحد. ويمكن جمعها في أربعة مراتب توازي أربع مراحل العمر. الأولى الأبرار الرحماء، ويمتازون بصفاء الجوهر وجودة القبول وسرعة التصور. ولهم القوة العاقلة المميزة لمعاني المحسوسات مثل ذوى الصنائع. ويحصل عليها الإنسان في سن الخامسة عشر. والثانية الأخيار الفضلاء بما لديهم من قوة النفس، ذوو السياسات ومراعاة الاخوان وسخاء النفس وإعطاء الفيض من خلال القوة الحكمية الواردة على القوة الناطقة. ويبلغ الإنسان هذه المرتبة وهو في سن الثلاثين. والثالثة الفضلاء الكرام، وهم الملوك ذوو السلطان والأمر والنهي بما لديهم من قوة ناموسية. ويبلغها الإنسان في سن الأربعين. والرابعة وهم الأنبياء أصحاب التسليم وقبول التأييد لكل الاخوان، أصحاب القوة الملكية، المعاد والمعراج والقيامة والبعث والنشر والحساب والميزان والصراط. ويبلغها الإنسان في سن الخمسين (٢).

ويمكن الاعتراض على هذه الأخلاق بأن الدعوة إلى الفتوح للذى ليس له علم ولا مال دعوة إلى الرضى والاستكانة دون حث على المطالبة والتغير نحو الكمال. ولا يخلو الأمر من تأويل رمزي للأعداد. فالأربعون عدد رمزي «وواعدنا موسى أربعين ليلة». كما أتت النبوة في سن الأربعين في المرتبة الثالثة.

والمطلوب من الموحدين أربعة خصال: الإقرار بحقيقة الأمر، والتصوير له بضروب الأمثال للوضوح والبيان، والتصديق له بالضمير والاعتقاد، والتحقيق له بالاجتهاد والأعمال. وتتدرج هذه المراتب في علم أصول الدين في قضية الإيمان والعمل

(١) الرسائل جـ ٤/٥٦.

(٢) السابق جـ ٤/٥٢-٦٠.

بين الداخل، التصديق والوجدان، والخارج، القول والعمل^(١). وهى تعادل منازل المغربيين بالقرآن وكتب الأنبياء وإخبارها بالغيب. الأول مقر بلسانه غير مصدق بقلبه وهو القول. والثانى مقر بلسان مصدق بقلبه دون معرفة المعانى والبيان، وهو القول والوجدان دون المعرفة والعقل. والثالث المقر باللسان والمصدق بالقلب والمتبين بالعقل دون القيام بحقه وهو الجمع بين اللسان والقلب والعقل دون الفعل. والرابع، المقر باللسان والمصدق بالقلب والمتبين بالعقل والقائم بحقيقة وهو الجمع بين القول والوجدان والعقل والفعل. وهو ما يطابق أربعة مراتب أخرى للمؤمنين. الأولى قوة النفس والنهوض من الجسد. والثانية النشاط فى طلب الخلاص من انهولى، جهنم النفوس. والثالثة الرجاء والأمل بالفوز بالنجاة مفارقة النفس للجسد. والرابعة الثقة بالله واليقين بتمام الأمر.

وأخيراً يركز إخوان الصفا على الصداقة، موانعها وكيفية اكتسابها ومعاشره الاخوان. ما يمنع من الصداقة تراكم الجهالات، ورداءة الأخلاق بحسب الجهالات المتراكمة، فساد الآراء حسب الأخلاق الرديئة منذ الصبا، وسوء الأعمال بحسب الآراء الفاسدة كل مرتبة عليا قائمة على المرتبة الدنيا. وكل مرتبة دنيا تنجى إلى المرتبة العليا. والبدائية بالمعرفة وتصفية النفس من الجهالات.

وهناك أربعة جهالات مانعة من الصداقة: الجهة وكيفية انبعاث النفس، والجهل بسبب ربط النفس بالجسد، والجهل بكيفية ربط النفس، والجهل بالفرق بين النفس والجسد. المانع من الصداقة فى كل الموانع هو الجهل بصلة النفس بالبدن التى يسميها الاخوان "ربط" فى لفظ مادی حسی، وما دامت لا تعرف النفس كيف تفارق فلا خلود ولا فوز.

وتتم معرفة النفس قبل معرفة العالم كما هو الحال فى العبارة الشهيرة للسيد المسيح "ماذا تريح لو كسبت العالم وخسرت نفسك؟".

وكل إنسان مركب من جوهرين: الجسد، وهو لحم وجلد وعظم وعصب وعروق، والنفس وهى جوهره سماوية، روحانية نورانية، علامة إدراكه لصور الأشياء. وهى

(١) من العقيدة إلى الثورة ج ٥ الإيمان والعمل والأمانة ص ١٠ - ١٤.

ثانئة حادة بين النفس والجسم نظراً لوجود عناصر متوسطة بينهما مثل المخ والأعصاب. ليس السؤال كما يرى الاخوان كيف يتم خلاص النفس من هذا الجسد بل كيف يتم بقاء النفس في هذا الجسد. هذا هو تحدى العصر، البقاء وليس الفناء.

والأسباب التى تمنع من الصداقة إما أن تكون سبباً غير مفقود فيقطع أو علة غير موجودة فتوجد. فهى أسباب خاضعة للتغير الاجتماعى وليست ثابتة جوهرية دائمة (١).

وأكبر مصيبة سوء اختيار الاخوان. فمن الناس من لا يصلح للصداقة على الاطلاق. وهم الأصدقاء المزيفون أصحاب الخصال السيئة، الطرف الثانى فى الثنائيات المتضادة، من يتشكل بشكل الصديق، ويدلس بالموافقة، ويظهر المحبة واليغضاء فى صدره وضميره. والسؤال هو: ألا يمكن الحب والصداقة بين الضدين للتكامل. فحب النقيض للنقيض حياة، وحب الشبيه للشبيه ملل.

إنما الأصدقاء هم أصدقاء الخير الذين يؤثرون الصديق على كل شئ، الأهل والولد، طبقاً للتوجيه اللاشعورى للموروث ﴿ يا أيها الذين امنوا لا تنهكم أموالكم وأولادكم عن ذكر الله ﴾. وهؤلاء هم الذين يتم التمسك بهم. ولا تتم الصداقة بين مختلفين بالطبع لعدم اجتماع حفظه حتى لا يتحول إلى عدو. وإذا أحسن الصديق فلا يجب الامتنان عليه حتى لا بصييه الكبر (٢). واكتساب الصديق أصعب من اكتساب المال. فالتعامل مع البشر أصعب من التعامل مع الأشياء.

(١) الرسائل ج٧/١٦٨-١٦٩.

(٢)

خير	مشكور	أمين	حليم	سخى	شجاع
شرير	كفور	غدار	سفيه	بخيل	جبان
ودود	عفيف	صبور	قنوع	سلس	اطيف - رقيق
حسود	فاجر	جزوع	شره	شموس	فظ - غليظ
عاقل	عالم	محب	موافق	مخلص	ناصر
أحمق	جاهل	مبغض	مخالف	منافق	غاش
متواضع	صديق	مؤمن	عارف	مقبل	
متكبر	عدو	زنديق	مفكر	مدبر	

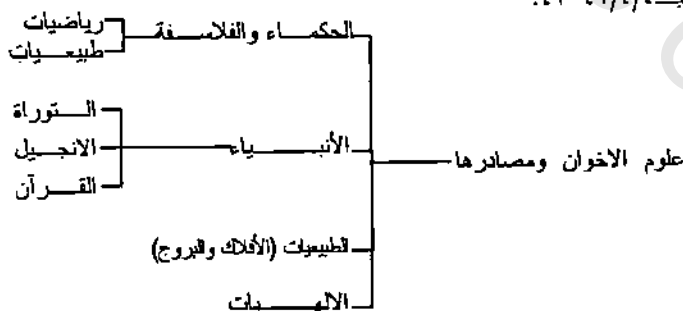
ولابد من معرفة الصديق أو الأخ، اعتبار أحواله، وتعرف أخباره، وتجربة أخلاقه، والسؤال عن مذهبه واعتقاده كما هو الحال في رسائل "الصدقة والصديق" لأبي حيان. الأصدقاء على أنواع في ثلاث وعشرين ثنائية. ويصعب تطبيق هذه البنية الحسابية على الأفراد (١).

وفي رسالة "معاشرة الاخوان" يصف الاخوان كيف يعاشر الاخوان بعضهم بعضاً في مجلسهم للدراسة. وهم أشبه بالخلية أو الجماعة المغلقة في أماكن وأوقات معلومة لا يخالطهم غيرهم. وللكتب النفسية الأولوية على باقي الكتب في الحس والمحسوس، العقل والمعقول، وأسرار الكتب الالهية والتزيلات النبوية والمعاني الشريفة والعلوم الرياضية الأربعة. وباختصار ضرورة معرفة العلوم وعدم هجر أى كتاب أو التعصب إلى أى مذهب لأن الفلسفة شاملة حساً وعقلاً، ظاهراً وباطناً، جلياً وخفياً. وكلاهما تجليان للوحدانية (٢). ويلاحظ على علوم الاخوان ومصادرها جعل الكتب الطبيعية والالهية مصدرين مستقلين مع انهما قسمان من علوم الحكمة، ووضع الحكماء والفلاسفة، ومرة كعلم مستقل، وجعل موضوعات رسالات الأنبياء غيبية، أسرار وملائكة وأساطير وقرانات وأدوار وحسابات، وميزان وصراط وبرزخ وليس مصالح الناس وأمور معاشهم.

والاخوان لا يكفرون أحداً على عكس الخوارج. والناس كثيرون التلون إلا الاخوان. صداقتهم قرابة رحم. يعيشون معاً، ويرثون بعضهم لأنهم نفس واحدة وأجسام

(١) السابق جـ ٤/٤٤-٥٢.

(٢) السابق جـ ٤/٤١-٤٢.



متفرقة. وهم الأعوان على أمور الدنيا، أعز من الكبريت الأحمر.

٣- الأخلاق العقائدية. وتضم الأخلاق الدينية، الأخلاق العقائدية وأثر العقائد الصحيحة على الأخلاق الحسنة، والعقائد السيئة على الأخلاق القبيحة، كما تضم الأخلاق الدينية وهى مجموعة القيم الدينية الشبيهة بمقامات الصوفية مثلاً الإيمان بالقضاء والقدر والصبر والتوكل والإخلاص والطاعة. وأخيراً تضم أيضاً الأخلاق الشرعية أخلاق العبادات. والآراء الفاسدة نوعان من شياطين الجن، الآراء السرية، وشياطين الأنس، ألفة الآراء العلنية. هناك صلة بين الأخلاق والعقائد. فالعقائد ضمن خمسة أسباب لاختلاف الناس فى الأخلاق مع أحكام النجوم، والتربية والأخلاق والبيئة الجغرافية. وهى أقل عمومية من الأخلاق الإنسانية العامة التى تتجاوز العقائد والديانات وأكثر خصوصية من الأخلاق الدينية التى تشمل الفلسفة والتصوف والأصول. الاعتقاد يمثل النظر، والأخلاق العمل. ويقوم العمل على النظر كما يؤثر النظر فى العمل. والمقال المشهور على ذلك قصة المجوسى مع اليهودى الذى يؤمن بالأخلاق المليية فى مقابل الأخلاق الإسلامية من نوع الأخلاق العامة التى تتجاوز الأخلاق الطائفية (١).

للعقائد أثر حسن أو سيئ على النفس وبالتالي فى السلوك. ولا يخصص الاخوان لذلك فصولاً خاصة أو أقساماً أو فواصل. ويقدمون عدة نماذج لذلك مع أنها كثيرة لا يمكن إحصائها. تتعلق بوجود الله والإمامة، ذات وصفات وأفعال، والنبوة والمعاد والحشر، والإيمان والعمل.

فإذا كان صاحب القول يقدم العالم دون صانع أو مدير سعيداً فلماذا يخاف الموت ويندم فى الآخرة ويشهد الحسرة والندامة والخسران؟ وإن كان شقيماً وأساء حالاً وشقاء فى الدنيا والآخرة. ولا يدري المؤمن الذى يقول بصانعين أين الخير لفعله وأين الشر

(١) وهى قصة صديقين، مجوسى ويهودى وراحلة واحدة تنازل عنها المجوسى لليهودى حباً فى الإنسانية وأستأثر بها اليهودى تمسكاً بالأخلاق الطائفية حتى كاد المجوسى أن يهلك لولا الدعاء والاستجداء بالإرادة خارجية، الرسائل جـ ١/٩/٣٠٧-٣١١.

لتجنبه فيعيش حيراناً. والقول بأن النارى والاله والروح القدس مختلفة اليهود، وصلت ناسوته فذهب لاهوته، وترك مخز، ولا يثير فى النفس الغليظة القاتل والحقن على المقتول، وحزنأ وغماً يبقى طول العمر معذباً مؤلماً مشتتياً الانتقام فيموت بحسرتة.

ويمكن للملحد الرد على ذلك والانتهاى إلى العند. صحيح أن هناك أثراً نفسياً للاعتقادات الفاسدة وأخرى حسنة للاعتقادات الصحيحة ولكنها ليست عقاباً أو ثواباً بل هى مجرد نتائج طبيعية للعمل فى أسس النظر. ويستعملها الاخوان فى خطاب إنشائى ترغيبى أو ترهيبى ينقصه الدليل فى أغلب الأحيان ^(١).

فقد يعطى القول بقدّم الحالة الإحساس بالأبدية، فلا انقطاع قبل الخلق ولا بعد الموت. هذا العالم باق، ومن ثم ضرورة العمل فيه والالتزام به. هذا ما قد تسببه نظرية الخلق من الإحساس بالعممية والفناء وأن الإنسان فى هذا العالم مجرد عابر سبيل ^(٢). والقول بالهين هو إقرار واقع الإيمان الشعبي بصراع قوى الخير والشر فى الإنسان. والعقل قادر على التميز بين الخير والشر. ولماذا لا يكون البقاء فى الدنيا من خلال الأثر الحسن والعمل الصالح دون خوف من الموت ما دام الإنسان قد أبدع وأدى الأمانة وحقق الرسالة التى تستأنفها الأجيال التالية؟ وموت الاله هو رمز للعممية وقلب القيم والقضاء على المشاكل فى النفس الإنسانية والذى ينتهى إلى تحليل مثل البشر كما تفعل اليهود الآن، وإياحة كل شئ بلا قانون إلا القوة كما يفعل الغرب الحديث ^(٣).

أما إنكار البحث والنشور والقيامة والحساب ولقاء الرب ورجاء الآخرة وخوف العاقبة يجعل الإنسان طول عمره فى طلب الدنيا ^(٤). وأفكار المجازاة بعد الموت والآخرة

(١) انظر: من النقل إلى الإبداع. المجلد الثالث: الإبداع، الجزء الثانى الحكمة النظرية. الفصل الثانى، الطبيعيات والالهيّات.

(٢) وهذا ما فعله كانط فى "الدين فى حدود العقل وحده" انظر: قضايا معاصرة جـ ٢ فى الفكر الغربى المعاصر، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦ ص ١٣١-١٧٠.

(٣) وهذا هو معنى قول نيتشة "إن الله قد مات".

(٤) السابق جـ ٤/٢/٥١٩-٥٢٧.

بعد خراب السماوات والأرض، وأفكار الترغيب والترهيب وقد ركبها الله فى طبيعة البشر، فالمرغوب مرهوب، عاجل حاضر فى الحواس، وأجل غائب فى الوهم يقلل الرغبة فى الثواب على الأعمال والرغبة والخوف من العقاب على السيئات. ومن ثم فلا رغبة ولا استحقاق. فمن لا يؤمن بالحساب فى الآخرة يكون شرها فى الدنيا. ويمكن لغير المؤمن بهذه الطريق القول بأخلاق بلا الزام ولا جزاء وإلا أصبح الإنسان أجيراً كعبد السوء^(١). ويمكن الحصول على الكمال فى الدنيا، وهو كمال إنسانى فى حدود القدرة الإنسانية وليس خارجها. والأمل والإحساس به هو المستقبل كعبد شعورى^(٢). هناك جزاء فى الدنيا حتى ولو كان نهاية الإيمان من علامات الساعة، ويمكن للإنسان أن يعيش فاضلاً دون ترغيب أو ترهيب. والحواس أصدق من الوهم الذى ما هو إلا قياس الغائب على الشاهد. ومع ذلك يمكن الاشتياق إلى عالم آخر يسوده العدل إن لم يحدث فى الدنيا فإنه يعطى أملاً كبيراً فى حدوثه فى عالم آخر. فالحياة ممتدة، والتاريخ أوسع من الماضى والحاضر ويمتد إلى المستقبل.

ومن الاعتقادات الفاسدة الاعتقاد بأن عذاب الكفار غيظ وضيق، كلما احترقت أجسادهم عادت الرطوبة لتحرق مرة أخرى تشقياً. وهو إساءة الظن بالله وجعله خالياً من الرحمة والشفعة ومملوءة بالشدة والقسوة مثل الصادى. وأهل الجنة أجسادهم لحمية، أجسام طبيعية قابلة للتغير والاستحالة والآفات فينتظرون النعيم الحسى. وهى اعتقادات النساء والجهال والصبيان فى مقابل العقلاء والحكماء وبالرغم من الإجماع بأن العقل والنقل شئ واحد. لذلك مسموح للعقلاء بالتأويل. وهذه عقائد شعبية، تصور عذاب الله تشقياً وحنقا والتذاذاً بالآلام البشر. كل ذلك خيال شعبى وتفسير حرفى وتشبيه إنسانى يستلزم تفسيراً معنوياً كما يفعل الفلاسفة وعودا إلى أصلها فى التجربة البشرية كما يفعل علماء النفس والصوفية. وهذا يطبق على أهل الجنة وأهل النار على السواء، وربما بقايا من عقائد مصرية قديمة فى ضرورة الجسد بعد الموت للنعيم والعذاب. ويرى الإخوان أن

(١) هذه هى الأفلاك عند كاتط وجويو.

(٢) من العقيدة إلى الثورة، المجلد الرابع: النبوة والمعاد ص ٣٢١-٣٤٤.

الحكمة فى عذاب النفوس كفارة لذنوبهم أو رياضة لنفوسهم أو بياناً لفضل الله ونعمته وهو تبرير لآلام وقبولها لا يختلف عن الإيمان الشعبى.

وهناك عقائد أخرى تتعلق بالعمل مثل عداوة إبليس للناس فيفعلون دون أمر الله. يخلق فى الإنسان حقداً على جزء من خلقه، ويناصبهم العداوة والبغضاء. وإن لم يستطع النيل منه بقى طول عمره مغتاظاً متألماً معذباً بل كافراً بالخلق وتنصيب إبليس عدواً له. وذلك يعنى إغفال الحرية الإنسانية والشمولية على فعل الخير والشر وتطبيق ذلك على "شماعة" إبليس. وإذا كانت هذه الزريعة صحيحة فلماذا لا يحقد الإنسان على إبليس وجنوده ويعاديه ويأخذ زمام المبادرة منه؟ أليس هذا هو الهدف من قصة آدم وإبليس ودلالاتها النهائية، تحذير البشر من الغواية ؟

والترخيص فى الشبهات والإباحة فى المحظورات والمحرمات يكسب جرأة على الله وتعدياً لحدوده وارتكاباً لمحارمه، ومخالفة للأنبيا، ونفاقاً ورياء لا أمانة له، وتوسيع "اللمم" لاقالة نوى العثرات. وينقد الأخوان عقيدة المهدي المنتظر كما يفعل ابن تيمية مما يبعدهم عن عقائد الشيعة. وإن اختفاء الامام الفاضل المنتظر الهادي خوفاً من المخالفين يجعل الإنسان طول العمر منتظراً خروج الامام متمنياً مجيئه، مستعجلاً ظهوره ثم يفنى عمره ويموت حسرة وغصة فى النفس، وفى العقلية الذات والصفت والأفعال، والسمعيات النبوة والمعاد، ثم الإيمان والعمل والامامة^(١).

وكما أن للاعتقادات الفاسدة آثاراً سيئة على الأخلاق فإن للاعتقادات الحسنة آثاراً قيمة على الأخلاق. الأولى أخلاق الشياطين والثانية أخلاق الملائكة. بعضها معزوز فى النفس وبعضها بالعادة، ينشأ عليها الصبغة من الصغر. وعلى العاقل أن ينفق أمواله وسيرته، ولا يحتج بالطبع المركز بل يجتهد وينظر ويبحث. البدلية بإصلاح النفس قبل الغير، وبوصايا الله، وبالعودة إلى الوحدة، والتنبيه على شر الفرقة، والآراء الحسنة لأولياء الله وعباده الصالحين ومذهب الربانيين من لهم طهارة اللسان والقلب وعدم

(١) الرسائل جـ ٤/١/٥٢٧-٥٢٩.

الاعتراض على الله، على الأرض بأجسامهم، وفي الملاء الأعلى بأرواحهم. لهم نور اليقين في النفس، وتطهروا من الآراء الفاسدة عن قلوب الأولياء بعد ما عرفوا من الحق.

ولا توجد موضوعات محددة كما هو الحال في الاعتقادات الفاسدة بل مجرد أحاديث عامة عن بعض الموضوعات المتفرقة مثل بعض الأحكام الشرعية عن المأكولات والمشروبات، الصنائع والتجارات والأعمال والحرف وتصاريح الأمور، جمع المال والأثاث والأمتعة والادخار، إنفاق المال واتخاذ المنازل وإنشاء العقار وعمارة الأرض، والحرث والنسل، وتربية الدواب، وعشق النساء والغلمان واللهم والغناء والنرد والقمار والعصية والحرب والقتال، وأخيراً الصوم والصلاة والصدقات والقراءة والتسبيح والخشوع والبر ومساعدة. وهذه ليست اعتقادات بل فقهيات، وليست نظريات بل عمليات تتعلق بثتى النواحي الممرية التى تصور حياة المجتمع الإسلامى التجارى الحرفى القديم بما فى ذلك عشق النساء والغلمان ثم تغطية ذلك كله بالصوم والصلاة والصدقة والقراءة والتسبيح والخشوع والبر ومظاهر العبادة، إشباعاً لحاجات البدن ومطالب الروح، لمقتضيات الدنيا وحيثيات الآخرة. وهو أقرب إلى النفاق الدينى والتعمية والتستر والتخفى وراء الدين لتشريع الانغماس فى الدنيا.

والموضوعات الأخرى تتعلق بالمعارف والعلوم ولقاء أهل العلم، النحو والشعر والخطابة والفصاحة، والهندسة والحساب والنجوم والطب والفلك والحكمة، وعلم العزائم والرقى والسحر والكيمياء والحيل، والطبيعات والالهيات وأحكام النجوم، جمعاً بين فنون الأدب والعلوم الرياضية والطبيعية وعلوم الحكمة دون المنطق واستبدال العزائم والرقى والسحر والكيمياء والحيل به ^(١). وشهوة العلم مثل باقى الشهوات فى ثنائية متطهرة، شهوة البدن وشهوة العقل. والموضوعات بلا عناوين وفصول، مجرد خطابة وعظية وحماسات، قلب الآراء السيئة، بلا برهان أو تصورات، وخالية من الاقتناع العقلى. تعتمد على الحجج النقلية والآيات والأحاديث.

(١) السابق جـ ٤/١/٥٢٩-٥٣٨.

ليس موضوع الإيمان بالضرورة موضوع غيبي بعيدا عن الحواس بل الواقع الاجتماعي وتناقضاته من أجل تغييره بالإصلاح أو بالثورة. وهل أول عقيدة الملائكة وقد آمن عمر بمحمد الثوري وأبو بكر بالنبي وليس بالملائكة أولاً؟ لقد انتشر الإسلام في آسيا بالنظام الاجتماعي. وكيف يمكن إصدار أحكام على الملائكة بأنهم محتاجون إلى الإيمان لتفاوتهم فيه وما هو المقياس؟ وأشرف الملائكة حملة العرش تصور إنساني خدم، عمل دون نظر، وقربهم من الله قرب مكاني وليس قرباً روحياً. وإذا كانوا متفاوتين فليسوا ملائكة لأن الملاك هو الكامل المطيع.

٤- ماهية القيم الدينية. وفي إطار الصلة بين الأخلاق والدين يعرض الاخوان بالتفصيل عدة قيم دينية كواسطة بين العقيدة والأخلاق واضعين ماهياتها مثل ماهية الإيمان، و ماهية التوكل، و ماهية الاخلاص، و ماهية الصبر، و ماهية القضاء والقدر، و ماهية الخوف والرجاء، و ماهية الزهد، و ماهية النفس باعتبارها قيمة، وذلك تحت عنوان "ماهية الإيمان وخصال المؤمنين". فالإيمان هو الجامع لكل هذه المقامات المفردة أو الأحوال المزوجة كما هو الحال عند الصوفية. وكلها أقرب إلى المواعظ الدينية والحث على الفضائل منها إلى التحليلات النفسية والاجتماعية. وهي رسالة تجمع بين بعض الموضوعات الكلامية مثل الأسماء والأحكام أو الإيمان والعمل وبعض المقامات والأحوال الصوفية لتأسيس علم أخلاق ديني^(١).

أ- ماهية الإيمان. ويرفض الاخوان رأى المتكلمين بأن الإيمان علم عن طريق السمع في مقابل العلم العقلي عن طريق القياس من أجل الدفاع عن العلم الاشرافي ووضع موضوع الإقرار والتصديق والعمل في صيغة إشرافية. فالوحي مجرد إقرار وتصديق وإيمان. وتبدأ الرسالة بنظرية العلم، ورفض تعريف الحكم في تحديد العلم بأنه تصور النفس للمعلومات لأن ما يأتي عن طريق السمع لا يمكن تصوره. فالأخوان مع الحكماء عندما يكونون إشرافيين صوفية وضدهم عندما يكونون علماء منطقة. الغرض منها

(١) ماهية الإيمان وخصال المؤمنين، الرسائل ج٤/٥/٦١-١٢٣.

معرفة شرائط الإيمان حتى يعلم كل إنسان هل هو مؤمن حقاً أم شاك مرتاب. فالمؤمنون ورثة الأنبياء. البداية من القرآن ومدح المؤمنين وذم الكافرين وبيان الفرق بين المؤمن والكافر^(١). لذلك كانت الرسالة أقرب إلى تنظير الموروث وتطوير علم الكلام منها إلى تمثيل الوافد. ولا ينكر من الوافد إلا الرضا بالقضاء والقدر من سقراط وأفلاطون وفيثاغورس قراءة لهم من خلال الموروث. وأكثر الألفاظ تردداً آيات القرآن ثم لفظ القرآن ثم موسى.

والحقيقة أنه لا يوجد إيمان وكفر مجردان عن السياق الاجتماعي. لا يوجد إيمان وكفر نظريان بل عمليان فيما يفعل الناس وليس فيما يؤمنون به «وقل أعملوا»، خيركم للناس أنفعكم للناس". ليس المؤمنون وحدهم هم ورثة الأنبياء بل العلماء. والآخران يجعلون المؤمنين العلماء دون تخصيص العلماء عن المؤمنين^(٢).

والعلم مجرد صورة المعلوم في النفس، والصورة في نفس العالم وليس لها وجود في الهيولى، ولا في الموجودات المفارقة بل العلم المجرد. والماهية مضمون غيبي في الشعور، الفضل الإلهي. فنعم الله على الإنسان خارجية للجسد، المال والقرين والولد ومتاع الدنيا، وداخلية أما للجسد، الصحة وحسن الصورة وكمال البنية والقوة أو للنفس، ذكاء النفس وحسن الخلق. فالعلم موهبة من الله وفضل منه.

والعلم مجرد إقرار أولاً وتصديق ثانياً وطلب المعارف ثالثاً. وهو موقف المرجئة التقليدي الذي يخرج العلم من الإيمان أى الإيمان مرتان، إقرار باللسان وتصديق بالجنان. ويعنى التصديق التسليم أى الاستسلام، التصديق لمن هو أعلم بما يخبر ما لا يعلم. هو التصديق للمخبر بما قال وأخبر عنه دون برهان أو دليل^(٣). وكيف يتم التصديق

(١) وهو ما ساد في عصرنا من أجل استعمال سلاح التكفير ضد الخصوم السياسيين، السابق جـ ٤/٥/ ٦٥-٦٦.

(٢) في عصرنا يتهم العلماء بأنهم غير مؤمنين. لذلك رفع شعار "العلم والإيمان" انظر: الدين والثورة في مصر (١٩٥٢-١٩٨١) جـ ٣ الدين والتنمية القومية، مديولى، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٥٧-١٩٢.

(٣) وهو أقرب إلى الموقف المسيحي الشهير في العصر الوسيط، 'أو من كى عقل'. لذلك أسس

والإيمان الباطنى من الإقرار باللسان مباشرة دون المرور بالمعلم؟ وهل الإقرار هو مقياس التمييز بين المسلمين واليهود والنصارى والصابئة والمجوس دون المرور بالعلم؟ هل الإقرار باللسان أساس الشعائر؟ أليس الطريق إلى الإيمان الباطنى بالتفكير والاعتبار بالبرهان والتصديق ثم العمل والشهادة؟ وهل يمكن الانتقال من الإقرار إلى التصديق حتى يصبح المؤمن من الصديقين بلا عمل وكد وكدح فى الأرض؟

واضح عند الاخوان أن الإيمان مقدم على العلم كما أن العلم مقدم على العمل. فالإيمان يورث العلم بلا برهان. الإيمان من خصال الملائكة، والكفر من خصال الشياطين، أقرب إلى حكم القيمة منه إلى حكم الواقع، فالشيطان يعمل العقل والقياس ويعترض على الله والملائكة لا فكر ولا قياس ولا اعتراض. ومن ثم يحاصر الإنسان مرتين، مرة لحساب الشيطان، ومرة لحساب الملائكة. تبدو الملائكة خدماً وعبيد الله، والله مخدوم وسيد، وأحياناً تبدو آلات ليس لا قوة التفكير أو الاعتراض والرفض. وأحياناً تبدو شركاء مع الله، والله ليس فى حاجة إلى مساعدين أو تقسيم عمل وظيفى.

والإيمان قسمان: ظاهر وباطن. ويفصل الاخوان الظاهر دون الباطن مع أنهم أهل الباطن. الإيمان الظاهر إقرار باللسان بخمس عقائد: للعالم صانع واحد حى قادر حكيم خالق مدبر، له ملائكته وصفوته، وصفوة بنى آدم كواسطة وهم الأنبياء، والالهام والوحى، وأخيراً القيامة. ومقارنة بنسق العقائد، البداية بالتوحيد، وغياب العدل والامامة، والعمل قرين الإيمان، والإيمان بالملائكة والغيبيات والقيامة والمعاد، والتركيز على الأنبياء مع أنهم ليسوا صفوة ولا واسطة بل مجرد رسل يقومون بوظيفة الابلاغ للناس كما أبلغوا عن طريق الوحى الملائكة، ومن الملائكة إلى البشر عن طريق الرسل دون تخصيص لأسباب النزول، الوحى نداء للواقع وإجابات على أسئلته، والناسخ والمنسوخ، الوحى مواكبة لتطور الواقع وقدرات البشر^(١). وهل دعت الأنبياء إلى الإيمان بالظاهر

جورج شحاته قنواتى جماعة "إخوان الصفا" جمعية للاحاء الدينى للحوار بين الأديان، مسيحية أكثر منها إسلامية.

(١) السابق جـ ٤/٥/٦٨-٦٨.

الذى تنكره الأمم أم إلى التغير الاجتماعى وتكوين المجتمع الفاضل؟

ويتم الإيمان الظاهر عن طريق التلقين، تلقين الأنبياء، ومن الكبار إلى الصغار، ومن العلماء إلى الجهال للاقرار به مع أن التقليد ليس مصدراً من مصادر العلم. وهل دعت الأنبياء الناس إلى الاقرار أولاً إلى التصديق ثانياً دون علم؟ وماذا عن دعوة القرآن للتأمل والنظر؟ ليس هذا عكس "حى بن يقظان" وطريق الفلاسفة بل وعلى النقيض من موقف الفقهاء أن العقل أساس النقل، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، وأن من قدح فى العقل فقد قدح فى النقل، وموقف المتكلمين أن النظر أول الواجبات ^(١). وكل تصديق هو تصديق بشئ وإلا كان مجرد استسلام. والإنسان فى حاجة إلى علم وبرهان وليس فقط إلى إيمان وتصديق. العلم من الواقع وليس فقط من المخبر، من الطبيعة وليس فقط من النص، من الحوار والتجارب المشتركة وليس فقط من أعلى وحياً وإلهاماً. ليس التصديق مرتبطاً بصدق المخبر بل بالتصورات والتصديقات كما هو الحال فى المنطق وصدق القضايا، وليس فقط فى صحة السند بل فى صدق المتن طبقاً لوسائل المعرفة البشرية ^(٢). ليس البرهان مجرد تبرير المعطيات بل البرهنة عليها. البرهان أول العلم وليس بعد المعلوم. وما لا دليل عليه يجب نفيه فى منطق الفقهاء. «قل هاتوا برهانكم أن كنتم صادقين» ^(٣). يبدو أن الاخوان جعلوا الاقرار باللسان أولاً لمجرد الاعلان والبدائية حتى يبدأ اجتماعياً وجماعياً دخول الأخ البار الرحيم حظيرة المؤمنين، مجرد هوية وعلامة على الطريق.

ومع ذلك يرفض الاخوان آراء بعض المتكلمين الذين يجعلون الإيمان مجرد علم فقط، نبوة وإلهام، وإقرار وتصديق وتسليم. وأغلب الظن أنهم المرجنة. مع أن الاخوان

(١) من العقيدة إلى الثورة جـ ١ المقدمات النظرية، الفصل الثالث، نظرية العلم ص ٣٤٩-٣٦١.

(٢) انظر دراستنا: "من نقد السند إلى نقد المتن"، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، العدد الخامس، القاهرة ١٩٩٦ ص ١٣١-٢٤٣.

(٣) انظر دراستنا: "مخاطر فى فكرنا القومى"، الدين والثورة فى مصر، ١٩٥٢-١٩٨١، جـ ١ فى الثقافة الوطنية ص ٥٩-٩٦.

أنفسهم يجعلون التفاوت بين الناس في العلم وليس في العمل. فمنازل الناس في المعارف ومقرنين العلم بالإيمان أربع. لا علم ولا إيمان بل الترف في الحياة الدنيا، علم فقط مثل الحكماء والفلاسفة، إيمان فقط وهو الإقرار بكتب الأنبياء وأخبار البعث والمعاد وأحوال الملة، والعلم والإيمان وهم الأخوان المذكورون في القرآن. وهي قسمة رباعية مثل قسمة العلم والمال. ولا تستبعد هذه القسمة العمل. فالمنزلة الأولى بلا علم ولا إيمان منزلة ترف الحياة الدنيا وهو عمل وممارسة. ولا يمثل الحكماء والفلاسفة للعلم دون الإيمان وهم من كبار المؤمنين. يؤولون النبوات ولا ينكرونها أو يشكون فيها أو يتجاهلون بها. والإيمان لا يعنى بالضرورة العلم بالغيبات، بالبعث والقيامة، أشرف العلوم. وهي غيبات محسوسة لا يمكن فهمها أو تصورها أو التحقق من صدقها إلا بالخيال والوهم إلا إذا كان المقصود علوم المستقبل. لا يوجد في الإيمان أى شرعيات أو عقليات أو عمليات، مجرد إيمان دون علم، يعطى النفس الطمأنينة والسكينة مثل إيمان العوام^(١). ويضع الأخوان أنفسهم في مرتبة العلم والإيمان دعاية للنفس.

كما يتفاوت العلماء في العلوم، ويحتاج العالم إلى الإقرار بمن هو أعلم منه مع أن التقليد ليس مصدراً من مصادر العلم. معرفة السابقين جزء من التراكم العلمى لتطويره وليس لتقليده، لتجاوزه وليس لنقله وإلا وقع الخلط بين المعلومات والعلم^(٢).

وربما أحرز الأخوان العمل عن العلم لأن أخلاق العمل لديهم هى الأخلاق الشرعية. والزيادة في العلم تعنى الزيادة في العمل. هذا ما ينبغى أن يكون. أما ما هو كائن فقد تكون العلاقة عكسية وليست طردية، زيادة في العلم ونقصان في العمل كالمناقض، وزيادة في العمل ونقصان في العلم كالمجاهد^(٣).

ب- ماهية التوكل والإخلاص: أما ماهية التوكل فهو الاعتماد على الغير عند

(١) السابق، الرسائل جـ ٣/١٤٧/٩١، جـ ٤/٥/٦٤-٦٤.

(٢) وضع العلم في مقابل الإيمان نظرة مسيحية لأن الإيمان تصديق بلا برهان.

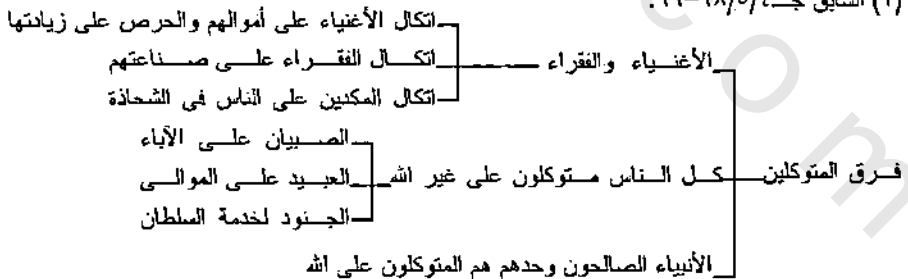
(٣) انظر دراستنا: ثورة المعلومات، السياسية الدولية، القاهرة ١٩٩٨.

الحاجة بالنيابة عن الإنسان. ويعطى الهدوء والراحة في النفس. وهو أحد خصال الإيمان وسمات المؤمنين.

والمتوكلون نوعان: متوكلون على غير الله مثل الأغنياء والفقراء، اتكال الأغنياء على أموالهم والحرص على زيادتها، واتكال الفقراء على صناعتهم، واتكال المكدين أى المتسولين على الناس. وهو الاتكال الاقتصادي لا فرق بين الأغنياء والفقراء والشحاذين. وهناك اتكال الصبيان على الآباء، والعبيد على الموالى، والجنود لخدمة السلطان وهو الاتكال التربوى أو السياسى، بمعنى الاعتماد المؤقت. فاتكال الصبيان على الآباء حتى يشيخوا ويستقلوا عنهم. واتكال العبيد على الموالى انتهى بانتهاى العبودية. واتكال الجنود لخدمة السلطان انتهى بانتهاى المرتقة. والجنود يدافعون عن الأوطان وولاؤهم للشعوب. الأنبياء الصالحون وحدهم هم المتوكلون على الله. ويبدو أن الاخوان يفهمون التوكل هنا بمعنى الاتكال وهو غير صحيح طبقاً للحديث المشهور عن الطير التى تذهب خماصاً وتعود بطاناً^(١).

والحقيقة أنه لا فرق بين الاعتماد على غير الله والاعتماد على الله. الاعتماد واحد من جانب الذات، ويتغير المعتمد عليه من جانب الموضوع. وكلاهما نظرية فى الاعتماد وليس نظرية فى الاستقلال^(٢). قد يعطى الاتكال نوعاً من الهدوء النفسى والسكينة الناتجة عن التوكل. وقد يراه البعض نوعاً من الاستكانة والخمول والكسل. بل إن الأنبياء كانوا

(١) السابق جـ ٤/٥٨-٦٩.



(٢) وهى نظرية مشهورة فى أمريكا اللاتينية Dependency Theory. لذلك ينقد محمد إقبال فلسفة السؤال أى الشحادة. كما حاول معظم المصلحين التفريق بين التوكل والتوكل.

يأكلون من عمل أيديهم، النجار والراعى والتاجر. وترك العمل والعيش من النبوة بداية التفرغ السياسى، داء العصر فى الدول المذهبية. خدمة الأمة ليست وظيفة. وكان للرسول من بيت المال الخمس. فالنبي لا يتوكل على الله فى طلب المعاش بل يسعى ويكد.

ويكون الاخلاص فى الدعاء وفى العمل. الاخلاص فى الدعاء تطهير القلب عند انقطاع الحيلة والتبرى من الحول والقوة، وسيلة الضعفاء للتقوية المعنوية، فانه يعرف فى الشدائد. إذا استعصى الخارج تم اللجوء إلى الداخل. والعمل ليس هو الشعانثر، العمل الصورى، بل هو العمل المنتج. والاخلاص فى العمل والدعاء يقوم على تحليل نفسى اجتماعى لصدق القول ونية العمل وليس فقط على أدائه كأمر الهى والنفس والسعد كنوع من الاخلاص شرك بالله مثل الشرك بالنجوم. فالاخلاص فى القول والعمل صدق وليس شركاً. ليس الاخلاص عدم طلب الشكر أو الجزاء لأنه فى الطبيعة الإنسانية. فالأخلاق بلا الزام ولا جزاء وإلا كان الإنسان كأجير السوء يقوم سلوكه على الترهيب والترغيب، الرجاء والخوف. وهلاك الناس فى البر والبحر والاخلاص لله من أجل الخلاص نوع من الدين الشعبى، الاعتماد على الله وعلى أحكام النجوم ومناحي الأفلاك مجرد الاستجداء بقوة معنوية، وصرخة الحياة، وغريزة حب البقاء^(١).

ج- ماهية الصبر والرضا القضاء والقدر. ويعتمد الاخوان فى تحليل ماهية الصبر على قول مأثور "الصبر رأس الإيمان" قبل تحليل آيات القرآن. وهو ما يعادل المثل الشعبى "الصبر مفتاح الفرج". وهو لا يعنى أكثر من الثبات فى حالة الشدائد بلا جزع. والصلابة كما صبر الأنبياء نماذج النضال ضد الطغيان الفكرى والسياسى. فحلوة النضال أفضل من مرارة الصبر. والصبر على الشدائد تقوية للعزائم وليس تبرير المصائب وقبولها والاستسلام لها والرضا بها. ويقدم الاخوان ثلاثة حلول أمام المصائب. فهى أما من الله، وقضاء منه مما يودى إلى القدرية أو نصفها من الله ونصفها من الإنسان وهو شرك بالله أو تنازل عن المسؤولية البشرية أو أنها ليست من الله بل من الإنسان

(١) السابق جـ ٧٠/٥-٧١.

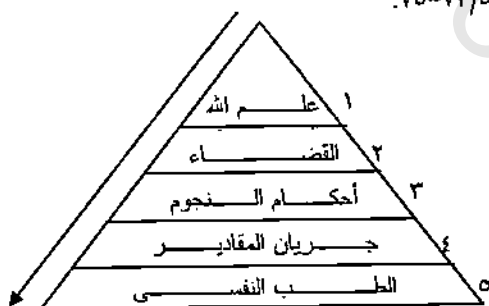
والمجتمع وهو ما يمكن اتهامه بأنه إلحاد. والخطأ ناتج من جعل الله طرفاً في الفعل الإنساني وليس العالم. فالمصائب تحدث في الواقع الاجتماعي وتفاعله مع الإرادات الإنسانية. فإذا حدث نقص في تحليل العوامل أو عدم فهم لها نسب ذلك اختصاراً، طبقاً لمبدأ اقتصاد الفكر، إلى الله. الصبر هو أشجع المقامات وأكثرها كراهية وسوءا للاستعمال. وكما تؤول بعض الآيات القرآنية لصالح الصبر بهذا المعنى السلبي، هناك أيضاً آيات قرآنية تنقد الصبر ﴿فما أصبرهم على النار﴾^(١). فالصبر على الأذى والجور ليس صبراً. والثورة ضد الظلم والاضطهاد أقرب إلى الطبيعة البشرية من الصبر على الضيم، صبر الأذلاء^(٢).

ويرتبط الصبر بالقضاء والقدر أو بتعبير أدق الرضا به أي الجانب السلوكي فيه، ليس الموضوع بل الذات. ويتم الاعتماد على المشهور في الثقافة الشعبية في صيغة المبنى للمجهول "يقال". وينزل القضاء والقدر من أعلى إلى أدنى في خمسة مستويات، من علم الله السبق إلى القضاء إلى أحكام النجوم إلى جريان المقادير إلى الطب النفسي^(٣). فالعارفون بالله أول من يعرف المقادير ولكن الثوار الغاضبين هو أول من يفهمونه بأنه لا يمنع من الثورة على الظلم. فالثورة قدر تاريخي مثل الظلم. وفي علم الله المسبق لا يوجد قبول الأمر الواقع بل يوجد أيضاً الحث على الثورة على فرعون. والرضا بالقضاء من

(١) وفي الأغاني الشعبية في المعاناة من طول الهجران ﴿لصبر حدود﴾. وكان من ضمن هتافات مظاهرات مارس ١٩٦٨ بعد هزيمة ١٩٦٧ يا جمال، للصبر حدود.

(٢) السابق جـ ٥/٧٠-٧٣.

(٣) السابق جـ ٥/٧٣-٧٥.



أجل السعادة بعد المفارقة تعويض عن العجز وقلة الحيلة وطلب لراحة النفس وطمأنينتها.
وهو ما يتفق مع الثقافة الشعبية^(١).

ويفسر الاخوان الناموس كله أى تاريخ الأنبياء وقوانين التاريخ على أنه رضا بالناموس مثل استشهاد سقراط، واستشهاد المسيح أمام اليهود، والمؤمنين أمام فرعون، وفضلاء المهاجرين والأنصار يوم أحد، والحسين فى كربلاء. فالشهادة عمل وليست قضاء. وقد طلب البعض من الرسول الدعوة على المشركين فى هزيمة أحد فرفض من أجل الاستعداد لهم فى الجولة القادمة.

والخوف والرجاء حالان عند الصوفية وليسا من المقامات. يصفها الاخوان دون الاعلان عنهما. كموضوعين مستقلين، وفى عبارات مقتضبة. يعبران عن نفس الموقف النفسى للمؤمنين، أجبر السوء. ومثاله خوف الأولاد من الآباء والأمهات، والصبيان من المؤدب، والتلاميذ من الأستاذين، والجند من صاحب الجيش^(٢). فهل العلاقة بالله مثل هذه العلاقة السلطوية، الله والسلطان؟ وهلى الترغيب والترهيب وسائل تربوية ناجعة أكثر من إدراك الخير والشرقى ذاتهما، وفعل الأول وترك الثانى بمحض الإرادة الحرة؟

د- ماهية الطاعة. والطاعة قيمة خلقية تتبع الخوف والرجاء لأنها تقوم أيضاً على الترغيب والترهيب. وهى طاعة الناموس. والنواميس الالهية أعلى النواميس رتبة. لا يضعها البشر بل يطيعونها. ليست الطاعة فقط بالارادة الإنسانية بل بالطبيعة. فهناك تماهى بين اتباع الإنسان النواميس الالهية واتباع الطبيعة النواميس الكونية. وهو ما سماه الشيعة علم الميزان (الكرمانى)، وما سماه الاخوان التقابل بين العالم الأصغر والعالم الأكبر. وينبت العلم فى العلم فى القلب كما ينبت العشب فى الأكمة. وهو نوع من التأويل الشعورى يتحد فيه النص بالطبيعة.

والطاعة هى أساس الخوف والرجاء، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، طاعة أجبر السوء وليس طاعة المحبين "إن المحب لمن يحب يطيع". فهى نوع من الأشعرية الصوفية. والأمور التى يخشى منها أما دنيوية كالرئاسة أو حسن الثناء والعز

(١) مثل مقطع الأغنية الشعبية ترمينى المجادير.

(٢) السابق جـ ٧٥/٤-٧٦.

والمال والدنيا والحب أو أخروية مثل نجاة النفس. والغرض من استعمال الناموس إما عمل الخير وتجنب الزور والبهتان، وهو غرض عملي أو بلوغ الحق وحكم الصواب، وهو غرض نظري. وهي كلها قيم متشابهة، الوعد والوعيد، الترغيب والترهيب، الخوف والرجاء، الأمر والنهي.

والحق متشابه نظراً لاحتتمال دلالة الألفاظ على عدة معاني. الحق له ظاهر وباطن، لفظ ومعنى. وطاعة القانون تتطلب تأويلاً له وفهماً لغرضه وغايته. والناموس يراعى الكل لا الجزء، ويقوم على نظرة شاملة وليس على وجهة نظر جزئية مثل قصة موسى والخضر^(١).

أما الأمر والنهي فيعرفان إما بالسمع كما هو الحال عند الأماعة أو بالعقل مثل المعتزلة أو بالأخلاق وهو رأي الاخوان. وبالأخلاق تُعرف أمور الدين الشرعية والعقائدية. ولا يذكر المتكلمون لعداء الاخوان لهم لاتباعهم طرق الجدل والخصومة والفرقة في الدين. والمعاد من أجل المفارقة حتى تصبح النفس من الملائكة. البداية بالظاهر أى بالفقه ثم ينكشف الباطن أى الأخلاق. تفارق النفس الجسد مسلوقة للحواس. ويجد الإنسان نفسه أمام التاريخ الفردى أى الجسد، والتاريخ النفسى أى علاقة النفس بالبدن. وينتقل الإنسان من الدنيا إلى الآخرة، ومن الماضى إلى المستقبل، ومن حتمية الطبيعة والجيلة والعادة إلى رحابة الارادة والمسؤولية^(٢).

الدين القانونى دين الأوامر والنواهى. فالدين فى لغة العرب الطاعة. وتتطلب الطاعة الأمر والنهى والأحكام والحدود والشروط. لذلك سميت شريعة الدين وسنته وأحكامه^(٣). وقد يفيد الدين أيضاً عند المجددين معنى الالتزام. كما أن الطاعة للأوامر والنواهى طاعة الضمير والقدرة على الحكم بالحسن والقبح على الأفعال والاختيار الحر بينهما إيجاباً وسلباً. وكل من أحدث فى الشريعة من تغيير فى الأحكام وتبديل فى الحدود يريد بذلك عرض الدنيا فان صاحب الناموس خصمه يوم القيامة. ومن فعل ذلك لإصلاح

(١) السابق جـ ٤/٥٦-٨١. كما يعطى إخوان الصفا مثلاً من قانون المواريث «لأنك من حفظ الانثيين» وأنه إذا جمع النصيبان قبل الزواج وبعد الزواج يكونان متساويين.

(٢) السابق جـ ٤/٥٦-١١٢.

(٣) السابق جـ ٤/٨٦.

ذات البين ثم دخلت عليه شبهة من غير عناد ونفى أو طلب للدنيا يغفر له ولا يؤاخذ به. للمخطئ أجر وللمصيب أجران.

٥- الأخلاق الصوفية. ثم ينتقل الاخوان من ماهية القيم الدينية إلى الأخلاق الصوفية. فالدين دينان، دين الجسم ودين الروح، دين الظاهر ودين الباطن، دين أعمال الجوارح ودين أعمال القلوب، الاعتقادات والضمائر. ويمكن الاستمرار في هذه الثنائيات إلى ما لا نهاية، دين العامة، ودين الخاصة، دين الفقهاء ودين الصوفية، دين التنزيل ودين التأويل. الدين الثاني أصل الدين الأول. فالداخل أصل الخارج، والقلب أساس الجوارح.

لذلك كانت الدنيا معبر الآخرة. فالدين دنيا وآخرة، ظاهر وباطن. وصلاح الدين في الدنيا والآخرة. ومن الناس من لا يريد من التمسك بالدين الإصلاح في الدنيا فيحرص على الدين، الصلاة والصوم في الشريعة، ويرأى الناس. فيطلب ما ينفع الدنيا. فحفظ الدين له أقوم. وآخرون يريدون الدنيا لطلب الآخرة وصلاح المعاد فيزهدون في الدنيا ويتركون الشرور، ويؤدون الأمانات سرأً وعلانية. ويعاملون الناس بالصدق والورع وفي ذلك صلاح الدنيا والآخرة. فالتصوف صدق، والشريعة نفاق. ويفسر الاخوان معجزات السيد المسيح على هذا الأساس تفسيراً روحانياً. أيراً الأكمة باكتمال الجواهر الروحانية، وتأليف الأسرار الربانية، وبذر البذورات المفردات الهيولانية.

ومن عنوان "إخوان الصفا وخلان الوفا" تتضح الأخلاق الإشرافية التي تقوم على تصفية القلوب والاجتماع على الوفاء. فهي أخلاق صوفية إشرافية تتم من خلال الجماعة الطاهرة. لذلك اتسم فكر الاخوان بالطابع الثنائي كما هو الحال في الديانات الثنائية، ثنائية الجسد والروح، البدن والنفس، الدنيا والآخرة، كما هو الحال في ثنائيات الكلام والفلسفة الصورية كنوع من التوحيد الحركي، والانتقال من طرف إلى طرف. وهي أخلاق ثنائية مضادة لا يمكن الجمع بين الطرفين في أن واحد، بل الانتقال من طرف نقيض إلى طرف نقيض آخر بعد صراع ومجاهدة^(١). وهو صراع نفس فردي في الداخل وليس صراعاً اجتماعياً سياسياً في الخارج وناشئ من ثنائية النفس والبدن^(٢).

(١) السابق جـ ٤/١/٤٨٥-٤٨٧/٤٩١-٤٩٢.

(٢) فصل في مثوية الإنسان، السابق جـ ١/٧/٢٥٩-٢٦١.

الجسد جسمانى طبيعى، والنفس روحانى سماوى. الإنسان طين وروح، بدن ونفس، سياسات مدنية، وعلوم رياضية، ومعارف ربانية.

لذلك احتاجت الأخلاق إلى عدو. والعدو اثنان عدو ظاهر وهو عدو الأوطان وطريق مقاومة هو الجهاد الأصغر. وعدو خفى، وهو الشيطان وطريقة مقاومة الجهاد الأكبر، مجاهدة النفس اعتماداً على الحديث الشهير الذى يشكك فى صحته بعض المصلحين المحدثين "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر" (١).

أ- الخلاص بالزهد. إذا كان الدين هو هذه الهوة السحيقة التى يغوص فيها كل شئ وفيها تضيق الأزمة يبدو الخلاص بعيداً عن الدنيا، فيتم الانتقال من الخارج إلى الداخل ثم من الداخل إلى أعلى. كل شئ يصب فى الدين، هذه الهوة السحيقة التى ليس لها قرار حتى يتم الانتقال إلى الله، من الدنيا إلى الآخرة. فكل شئ يرد إلى الله، وكل شئ يتوجه نحوه.

لقد وقع سقوط فى أول الخلق، خروج آدم من الجنة. ومهمة الفلسفة العودة إلى حالة البراءة الأولى قبل الخطيئة. الدنيا عالم الكون والفساد عالم الغواية والخطيئة. ومن ثم وجب الخلاص منها والفرار إلى الآخرة. ومن أجل زيادة المأساة فى الدنيا، يتم التخويف بالجن والشياطين وجنود إبليس. كلما اشتدت الغواية قويت الرغبة فى الخلاص.

ويتم الخلاص بالزهد فى الدنيا من أجل الرغبة فى الآخرة، وذلك لأن الإنسان مطبوع على أخذ النفع فى العاجل وترك الأجل إلا إذا رأى فضل الأجل على العاجل. فالطريق إلى الآخرة التفكير والاعتبار فى أمور الدنيا. والدنيا ليست من الدنوة بل هى مفهوم إضافة لا يفهم أحدهم إلا عن طريق القلب. وهذا هو طريق المؤمنين والحكماء، مشاهدة الآخرة أولاً والزهد فى الدنيا ثانياً. وقد يقال إن الزهد فى الدنيا بعد مشاهدة الآخرة طمع، أخذ الكثير وترك القليل، وعدم إدراك أن الدنيا بلا قيمة أو ربما إدراك قيمتها لو كان قد بدأ بها. وماذا عن الذى لم يشاهد الآخرة؟ أليس معذوراً فى حب للدنيا وشغفه بها (٢)؟

(١) انظر: حسن البناء، سيد قطب، أبو الأعلى المودودى: الجهاد فى سبيل الله، وأيضاً الامام الخمينى: جهاد النفس أو الجهاد الأكبر، القاهرة ١٩٨٠.

(٢) السابق جـ ٨١/٥-٨٢.

ومع ذلك، الناس فى الدنيا نوعان: أخيار يعملون بالناموس وبموجب العقل دون عوض من منفعة أو ضرر، وأشرار لا يعملون بالناموس ولا بموجب العقل ولا يحركهم إلا مقياس المنفعة والضرر والعوض. وهى قسمة تقليدية دون سياق اجتماعى. قد تكون الأخيرة ضرورة طبيعية لقانون العدل. فالعدل نتيجة طبيعية للتوحيد، توحيد بلا عدل صورة بلا مضمون، وعدل بلا توحيد مضمون بلا صورة. ويقوم على تجربة إنسانية فى العوض عند الموت. وهو فهم إخوان الصفا فى تأسيس الفكر على مجموعة من التجارب الإنسانية العامة، تأويلاً للنصوص وفهماً للحقائق.

ويذكر الإخوان درجات للناس فى الحرص والزهد، فى نهاية الرسالة التاسعة من القسم الرياضى فى الأخلاق والأخلاق الصوفية، الزهد والولاية. الناس قسمان: عامة وخاصة. والخاصة خمسة أقسام من أدنى إلى أعلى، من الفقهاء إلى الأولياء. العقلاء المكلفون والمؤمنون الموقرون بالأوامر والنواهي، والعلماء والفقهاء، والغائبون العائنون الصالحون الوراعون المتقون المحسنون، والزاهدون العارفون الراغبون الراسخون المتحققون الأولياء، وكلها أقسام للخاصة. أما العامة فليس بها مستويات. والسؤال هو: هل الارتقاء من مرتبة بجهد الإنسان كما هو الحال فى مقامات الصوفية أم موهبة من الله كما هو الحال فى الأحوال؟ ويفصل الإخوان أفات الشيع وكثرة الأكل وإخصال الزهاد وعلامات الأولياء والأبدان. علامات الولاية ثلاث: حفظ الجوارح كما يفعل الطب، ومعرفة الفرق بين الأشياء المتشابهة كما هو الحال فى المنطق، ومعرفة البعث والقيامة والحشر والحساب ميزان والصراط والجواز وهو موضوع علم العقائد. والأبدال قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم. لا يموت أحد إلا قام مكانه آخر. وهم سبعون وأربعون بالشام، وثلاثون بغيرها. هل لأن الشام موطن طغيان بنى أمية؟ وماذا عن المستقبل؟^(١). والسؤال هو: كيف يكون العقلاء هم المكلفون وليس الحكماء؟ كيف يكونون فى أول المراتب الخمس والزاهدون فى أعلاها؟ هنا تبدو قيم التصوف أعلى من قيم الحكمة. وقد يتساءل بعض المعاصرين: الدعوة للزهد والفقر موجبة لمن؟ للأغنياء أم للفقراء؟ لو كانت موجبة للفقراء ألا يعطى ذلك حجة للقائلين بأن الدين أفيون الشعوب؟ وماذا عن

(١) السابق ج ١/ ٩/ ٣٥٦-٣٦٦.

أحوال المسلمين اليوم وبهما أغنى أغنياء العالم الذى تتوجه إليهم الدعوة للزهد، وأفقر فقراء العالم وليس لديهم ما يزهدون فيه إلا حياتهم بالموت جوعاً وعطشاً؟ وهل الأولى التحليل الطبقي للمجتمع أم تحليل مراتب العلماء؟

ب- العشق. هو موضوع بين النفس والأخلاق فى الرسالة السادسة من القسم الثالث. النفسانيات والعقليات بعد تحول العقل إلى النفس فى آخر رسالة "الأدوار والأكوار" وهو بحث عن الماهيات "ماهية العشق" مثل ماهية القيم الدينية. وطالما أنه تجربة بشرية يمكن معرفة ماهيته عن طريق تحليل التجارب الحية. لذلك يحلل الشعر العربى مع التحقق من آراء السابقين مثل الصوفية، ورفض القليل والقال عند الأطباء اعتماداً على الثقافة الشعبية عند الجمهور.

وهناك ثلاثة آراء فى العشق، الأول أنه من فعل البطالين ولا يحكم إلا بظاهر الحس، فالعشق هنا بمعنى المنى واللذة الجنسية. والثانى أنه مرض نفسى نظراً لزيادة النبض وتوتر النفس وضيق النفس مثل "المالوخوليا". والثالث أنه مرض إلهى ولا علاج له إلا بالدعاء والصلاة والصدقة والقرابين فى الهياكل ووحى الكهنة. وتقوم هذه الآراء التى يتبناها بعض الحكماء على الجهل بعلله. فهو أما من فعل البطالين فارغى الهمم أو أنه مرض نفسى أو أنه هم نفس فارغة أو أنه جنون إلهى. وبعض الحكماء يعتبرونه رذيلة، وفريق ثالث يعتبره فضيلة. والمسافة بين الجنون الإلهى والمرض النفسى ليست كبيرة. فكل جنون إلهى مرض نفسى فى البداية وهو رأى علماء النفس^(١). الجنون الإلهى خداع عن العجز عن الحب الإنسانى.

ويمكن دراسة العشق من ستة أوجه: النشأة لمعرفة كيفية نشوئه، والعلل الموجهة لكونه، والأسباب الداعية له، وكمية أنواعه، وكيفية، والغرض الأقصى منه، وتتراوح بين العلل الأربعة الشهيرة مع التفرقة بين العلة والسبب كما هو الحال عند الأصوليين، والكيف والكم كما هو الحال عند الحكماء^(٢). وهو أكبر رد فعل على التهمة القائلة بأن

(١) رابعة العدوية وعمر الخيام نموذجاً.

(٢) السابق ج ٣/ ٢٦٩-٢٧٨.

العرب لم يعرفوا الحب لذاته بل عرفه الغرب وحده^(١).

ويستعمل الاخوان لفظ الحب والعشق على التبادل. فالحب ليس فقط للأشياء الحسنة بل هو على مستويات الحب البيولوجى بمعنى الحفاظ على النسل، حفظ الصورة فى الهيولى فى الحيوان والإنسان على حد سواء، وهو من الرجل ولم يقل الاخوان من النساء وكأنه فعل الذكر أكثر من فعل الأنثى مع أنه لا صورة بلا هيولى ولا محوى بلا حاوى، وهو الذى يفسر تفسيراً فزيولوجياً بالأبخرة والأنفاس^(٢)، فالنفس تتبع مزاج البدن فى إظهار أفعالها وأخلاقها لأن مزاج الجسد وأعضائه للنفس بمنزلة آلات وأدوات الصانع الحكيم يظهر بها، ومنها أفعاله.

وهناك المستوى الجسمى النفسى فى تعريف العشق بالاتفاق بين الأجزاء. وهو أقرب إلى الفزيولوجيا الرياضية. والاتفاق بين العشق والمعشوق بحسب المناسبات بين أجزاء المركبات، بين كل حاسة ومحسوسها هو الرباط بين الأشياء بعضها ببعض الأولاد والأمهات، الكبار والصغار، الأقوياء والضعفاء، وإذا استغنى الأطفال عن الآباء والأمهات فأنهم لا يستنون عن الأساتذة والمعلمين. فرباط العلم هو رباط العشق. وقد يكون الاتفاق فى المواليد، فى برج واحد، فيتغير العشق بتغير الأخلاق. فإذا غاب العلم حضرت الخرافة، والحقيقة إذا كان الحب هو الاتفاق فكيف يظهر فيه التناقص والخلاف والتعارض إلى حد القتل والانتحار؟ هل التضاد تناسب أعلى؟ كما أن تغير الحب بتغير الأفلاك إنكار للعلل المباشرة فى تفسير الحب. كما أنه مناقض للحب الأبدى الذى خلده الآداب العالمية^(٣).

وقد يتحول تعليل الحب إلى المستوى النفسى الخالص فيكون الحب إفراطاً فى المحبة وشدة الميل إلى نوع أو شخص أو شئ أى لفرد متعين. وفى نفس الوقت هو عام

(١) هو رأى أدونيس فى "الثابت والمتحول" باستثناء الحب العذرى عند كثير عزة، وجميل بثينة، وقيس ليلى. وهو أيضاً رأى Denis de Rougemont: L'amour et L'Occident, Paris 196

(٢) وقد استمر ذلك التفسير فى نظرية الانفعالات حتى القرن السابع عشر فى الغرب.

(٣) الرسائل جـ ٢٦٩/٦/٣-٢٧٨.

جداً يوجد عند كل إنسان بكثرة الذكر له والاهتمام به. الحب هنا انجذاب متبادل أو تعاطف. وهو ما سماه الصوفية اتحاد. وهو رأى الحكماء أيضاً عندما قسموه إلى نوعين. الأول هو فى النفس نحو طبع مشاكل الجسد أو صورة مماثلة فى الجنس. والثانى شوق إلى الاتحاد نحو النفس. العلة فى النفس لسبب خارج عنها.

والناس نوعان: عامة تحب الصنعة وحدها، وخاصة مثل الحكماء، وينتقلون من الصنعة إلى الصانع. والنفوس نوعان: ناقصة، قصيرة الهمة لا تحب إلا زينة الدنيا، ولا تتمنى إلا الخلود فيها، وشريفة مرتاضة، تأنف من الرغبة فى الدنيا، وتزهد فيها، وتريد الآخرة، وتلحق بأبناء جنسها من الملائكة. وهذا لا يتم إلا بعد فراق الجسد.

وهناك مستويات فى النفس ومعشوقتها. النفس النباتية الشهوانية تعشق المأكولات والمشروبات والمناخ. والنفس الغضبية الحيوانية وتعشق القهر والغلبة وحب الرياسة، والنفس الناطقة وتعشق المعارف واكتساب الفضائل.

ومحبيات النفس ومعشوقاتها بحسب درجاتها فى العلوم. والذى يليق بالنفس الملكية محبة فراق الأجساد والارتقاء إلى الملأ الأعلى والسحابة فى سعة فضاء الأفلاك والتسم بريحان المذكور فى القرآن ولا يحصيها إلا الله. ومع ذلك يمكن تصنيفها على نحو تقريبي بالمثال والقياس أو الاستقرار المعنوى كما يقول الأصوليون. محبة الحيوانات الأزواج النكاح والسفاد وبقاء النسل، ومحبة الأمهات الآباء والأولاد للحنان، ومحبة الرؤساء للرياسة محبة المدح والثناء، ومحبة الصناع فى إطار صناعتهم، ومحبة التجار لتجاريتهم ورغبة الراغبين فى الدنيا وعمارة الأرض، ومحبة العلماء والحكماء للعلوم والآداب والرياضيات وتدوينها، ونقلها من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن إحياء للنفوس وإصلاحاً للأخلاق فى الدين والدنيا، ومحبة البر والإحسان طلب للثناء والمدح، وأخيراً محبة أبناء الجنس وهو العشق، هموم وأحزان، أفراح ومسررات، وليست غايته النسل بالضرورة^(١).

وتتفاضل هذه الأنواع قيمة وشرفاً من الأول إلى الأخير، من الأدنى إلى الأعلى.

(١) السابق جـ ٣/٦/١٧٨-٢٧٩، ولإقبال شعر فى العشق بهذه المراتب.

وكلها مغروزة فى الطباع وفى النفوس. وواضح أن العشق حالة من حالات المحبة العامة، الجسمية والنفسية والعلمية والسياسية والصناعية والتجارية والأخلاقية أو العذرية، المحبة لذاتها. وهى حالات يمكن التساؤل حولها وإضافة حالات أخرى مثل "المومس الفاضلة" التى صورها الأدباء عندما لا يكون الجنس للجنس بل الجنس للعيش، وهناك حب الجنس لذاته، للذة أو الوحدة أو الحب الطبيعى. وقد يكره الأولاد الآباء أو العكس^(١). وقد نكره الرياسات. كره الرئيس للمرعوسين والمرعوسين للرئيس كما هو الحال فى أنظمة القهر. وقد لا تكون محبة الثناء والشكر فى الطبيعة كما هو الحال فى الأمثال العامة "لا شكر على واجب". وقد لا يكون حب الصناع لصناعتهم فى الطبيعة فكثير من الناس يعملون لكسب القوت وليس حباً لحرفهم. وقد لا تكون محبة التجارة وعمارة الأرض مرتبة دنيوية لأن رسالة الإنسان فى الحياة إعمار الأرض «وإستعمركم فيها». وقد تكون محبة العلماء للعلم لذاته مثل العشق لذاته. وهل المحبة البر والإحسان ومحبة الأخلاق أعلى من محبة العلماء للعلم؟ ومحبة الجنس البشرى، حب الإنسانية، حب للعام وليس للخاص.

والعشق على درجات، من أول نظرة كالبذرة قبل الشجرة، إلى الدنو والقرب، إلى الخلوة والمجاورة، إلى المعانق والقبلة، إلى الدخول فى ثوب واحد وقمته النكاح، وطبقاً للعقل الشعبى، نظرة فسلام فمحبة فعشوق فلقاء.

ويشبه الاخوان العشق بالكاثرين الحى. فالعشق حياة. ولو لم يكن العشق فى الخليقة لخفيت الفضائل، ولم تظهر، ولم تعرف الرذائل. المحبة والعشق فضيلة فى الخليقة وحكمة جليلة وخصلة نفسية عجيبة من فضل الله على خلقه، وعنايته بمصالحهم، ودلالة عليهم، وترغيب لهم فى ما أمر به. العشق أساس الفضائل والرذائل فى الوجود. الوجود عشق.

وهناك راحة نفسية يجدها العاشق برؤية صورة الحبيب فى النفس حتى لو فسدت الصورة الجزئية وهرمت وبلت. إذ يجدها العاشق باقية فى الصورة الكلية. ولا تعشق

(١) وذلك مثل رواية الاخوة "كرامازوف" لستوفسكى.

النفس إلا أبناء جنسها. ويمكن الارتقاء من نفس إلى نفس بالرياضة الروحية كما هو الحال في التصوف. ونظراً لجهل الناس بالصور الروحانية تمنوا الخلود مع الصور الجسمانية لأنه محبة البقاء والدوام والخلود في كل نفس مع محبوبه (١).

وغاية العشق يقظة الوعي. فالحب وسيلة وليس غاية. الغرض الأقصى من وجود العشق في وجود العشق في جيلة النفوس، ومحبتها للأجساد وزينة الأبدان تنبيه لها من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وترقية لها من الأمور الجسمانية المحسوسة إلى الأمور النفسانية المعقولة، ومن الرتبة الجرمانية إلى المحاسن الروحانية. فكل المحاسن رسوم صورتها، النفس الكلية في الهيولى الأولى. المعشوق والمحبوب بالحقيقة تلك الرسوم والصور. وهذا ما تؤكدته التجربة البشرية من فقدان شخص عزيز نرسم له صورة منقوشة لتذكرها على الدوام. الحب الإنساني مجرد صورة للحب الإلهي. الحب للصورة الكلية أو الصور الجزئية مناسبات لها (٢). ومن لا يفقه ولا يعي فإنه يكون جاهلاً. ولا خلاص له إلا بالعشق.

والغاية من ذلك كله هو المعشوق الأول وهو الله وكل نفس تتجه نحو معشوقها. ومتى نالت الغرض ملت إلى حب الله فإنه لا ملل فيه. وتتم رؤية الله بالنفس حسب الصورة الخالصة، رؤية نور بنور لنور في نور من نور، في ذات كاملة مكتفية بذاتها، هي الذات والموضوع، الأنا والآخر.

والله هو الصورة المحضة طبقاً لظاهرة التشكل الكاذب. ولا يحتاج الإخوان إلى أرسطو كي يصبح الله هو المعشوق الأول والله كذلك في القرآن. والسؤال هو: هل هذه الصورة البديلة حقيقة أم وهم؟ دافع على الفعل أم عزاء وسلوى وتكليف النفس مع المفقود لاستمرار الأمل؟

(١) السابق ج٣/٦/٢٧٢-٢٨٢.

(٢) كما حدث لابن الفارض عندما بدأ يغنى الحب الإلهي بعد رؤيته جمال فتاة على سطح منزل تنتشر الصل، وقد يعطى هذا حجة للأيقونات والتماثيل والصور الحسية في المسيحية في معركة الأيقونات بين الكنيسة والشرقية والكنيسة الغربية في القرن الخامس الميلادي.

د- الطريق إلى الله. وفي معظم الرسائل الأخلاقية يبين إخوان الصفا الطريق إلى الله^(١). وبعد التحليل الأفقى للدين، والتاريخ النسبى الوصفى الاجتماعى يبدأ التحليل الرأسى المطلق الصوفى كطريق إلى الله. لا يبحث عن المعانى المتغيرة للدين طبقاً للمراحل التاريخية والناسخ والمنسوخ ولكن يبحث عن الماهيات المستقلة.

والطريق إلى الله اصطفاء واختيار. فقد خلق الله الخلق واصطفى المؤمنين والأولياء لاطلاعهم على الأسرار. ليس الاصطفاء لشعب خاص كما هو الحال فى اليهودية الربانية التى جسدتها الصهيونية السياسية بل الاصطفاء لجماعة المؤمنين والأولياء لمجتمع الأقطاب والابدال كما هو الحال عند الصوفية وما سماه الحكماء الخاصة فى مقابل العامة. الطريق إلى الله اذن هبة من الله إلى الإنسان وليس كسباً للإنسان إلى الله مما قد يثير عدة تساؤلات عن مقاييس الاصطفاء وشروطه ودور الإنسان فيه، واحتمال اعتراض غير المصطفى على تركه رافضاً التحيز والانتحياز.

والاصطفاء بالعلم والعمل. فالعلم ليس فقط العلم النظرى بل العلم العملى، التوحيد والعدل، المعرفة والسعادة. ويأتى العلم إما باستبطاط الأنبياء مثل الحديث أو بالهام من الله مثل القرآن. وهو علم يتعلق أساساً بأمور المعاد، الملائكة والسجود والحشر والصراط والصور.

والعمل بسنتين: الأولى صفاء النفس بالرسائل الرياضية وأمثال للإيضاح. والثانية استقامة الطريق. فالإنسان نفس وبدن. البدن هو الجسد، والنفس جوهر سماوى روحانى، حسى ربانى، حقيقة متحركة. وهى نفس عالمة دون جهالات حجابها عن ربها بجهالاتها لجوهرها وآرائها الفاسدة وأخلاقها الرديئة.

والطريق إلى الله أقصر الطرق. وهو طريق تهذيب النفس يعرفه الجميع. ولا يمكن وصف هذا الطريق إلا بكلام موزون، وآيات فى الآفاق أى بالادراك الفنى للعالم،

(١) الرسالة الثانية: ماهية الطريق إلى الله عز وجل جـ ١/٢/٥-١٣. الرسالة السابعة: فى كيفية الدعوة إلى الله جـ ١/٢/١٤٥-١٩٧.

اللغة تصوير للوجود (١).

وبالرغم من أن الفكر واضح بسيط إلا أنه أقرب إلى الوعظ والخطابة. وقد يختلف الناس في وصف ماهية الطريق. وقد يرى البعض أن غاية الطريق ليست بالضرورة أمور المعاد والآخرة، الجنة والنعيم والسلام، طريقاً رأسياً إلى أعلى بل أمور الدنيا من فقر وقهر وتجزئه وتخلف وتبعية، طريقاً أفقياً إلى الأمام، داخل العالم وليس خارجه، التنزيل دون التأويل، طريق الفقهاء وليس طريق الصوفية (٢).

ومعارف البشر على مراتب ست متدرجة من أدنى إلى أعلى. الأولى معارف المتكلمين واختلافاتهم ويمكن حلها بصورة الإنسان وصور البرهان أى إرجاعها إلى التجارب الإنسانية الحية التى يحاول الكلام تشخيصها وتثبيتها فى جواهر ثابتة فى عالم الأعيان وإخراجها من عالم الذهان. والثانية تطلع الهمم إليها والرغبة فى معرفتها تقليداً ثم تحويلها إلى برهان تدريجياً، وهم أنصاف المتكلمين الذى يسيئون تأويل النقل وإعمال العقل. والثالثة النفور والاشمئزاز من العلم وهم الجهال الذين ما زالوا يعيشون على الطبيعة. وهؤلاء يستحقون الرأفة وحسن المعاملة. فالجاهل أفضل من نصف المتعلم كالمتكلم. والرابعة التقليد المحض سواء إيمان العوام أو تقليد العلماء، والتقليد ليس مصدراً من مصادر العلم. والخامسة، الإيمان بالحق دون الوصول إلى مرتبة الحكمة مثل إيمان الأولياء والأنقياء. وأخيراً السادسة مرتبة الحكمة التى تشفع الإيمان بالتصديق والبرهان فيستحيل الإنكار.

وصورة الإنسان أى البرهان الذى يصنق به الإنسان تختلف أيضاً مراتبه. وهى موازين تبدأ من النص إلى العالم الحسى والعالم الغيبى. فالنص هو الكتاب الذى كتبه الله

(١) ماهية الطريق- فى الحث على تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق، الرسائل جـ ١٣-٥/٢-١٣.

(٢) السابق، الرسالة الأولى فى الآراء والديانات، ٣٤- فى طبائع الناس فى الرغبة فى الدنيا والآخرة ص

٤٨١-٤٨٣، فى أنه لا يمكن وصول الأنفس الجزئية إلى الآخرة إلا بعد الورود على الدنيا ص ٤٩١-

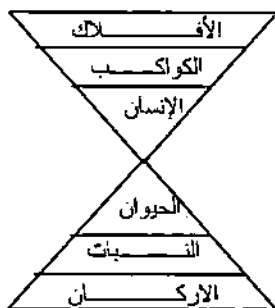
٤٩٢، فى جزاء المحسنين ص ٥٠٤-٥٠٩.

بيده. وهو تشيئ للكتاب، وتحويله من مقروء إلى مسطور. والهيكل الذى بناه الله بحكمته هو الكعبة قياساً على هيكل سليمان أو العرش الذى يستوى عليه الرب. وهو تقديس شيئى للمكان. والميزان الذى وضعه الله بين خلقه هو عود إلى القرآن من جديد باعتباره ميزان العدل. والعدل هو ميزان العلم أيضاً. والمكيال هو يوم الدين الذى يكال فيه لكل إنسان ما يستحقه من ثواب وجزاء وهو قانون الاستحقاق. والمجموع هو جماع النفس والبدن لصور العالمين، فالإنسان عالم أصغر، والعالم إنسان أكبر. فالإنسان الكلى مقياس نفسه وحقيقته. والمختصر هو العلوم فى اللوح المحفوظ أم الكتاب عوداً إلى النص الكونى. والشاهد على كل جاحد هو اللجوء إلى التجربة. وعالم الحس أحد مقاييس الصدق. والطريق إلى كل خير هى الأخلاق طريقاً إلى المعرفة. كما أن المعرفة طريقاً إلى السعادة. والصراط المحدود بين الجنة والنار، التفرقة الدقيقة بين الخير والشر، الصواب والخطأ القدرة على التمييز والإيضاح^(١).

وكل هذه الصور للإنسان قياس على أصل واحد بين صور الموجودات من الأفلاك والكواكب والأركان والحيوان والنبات. وإذا اتفق الجميع على صور الإنسان تم حل اختلافات المتكلمين والنظار. والحقيقة أن هذه الصور أيضاً تعود إلى أصل لها فى التجربة الإنسانية مثل عجز التأويل العقلى، استحالة المعنى الحرفى، الشك وطول الحيرة، الإنكار السرى خشية السيف^(٢).

(١) السابق جـ ١١/٢-١٢.

(٢) السابق جـ ١١/٢-١٢.



ولما كانت دعوة الاخوان تجمع بين العلم والعمل، الفكر والممارسة فإنها تقوم على كيفية الدعوة إلى الله وتجنيّد الناس واستقطاب الأعضاء. وهى من القضايا الرئيسية لهذا العصر، حشد الناس وتجنيّد الجماهير ضد السلبية واللامبالاة^(١).

والاخوان على مراتب ثلاث: الأولى أغنياء وأشرار وأردياء وهم المطلوب تجنيدهم لنقلهم إلى المراتب العليا. والثانية المتوسطون بين الأشرار والأخيار والمطلوب نقلهم إلى مرتبة الأخيار. والثالثة الخواص العقلاء المتدينون، وهم الأخيار الفضلاء الذين وصلوا إلى سدرة المنتهى.

ولكل طائفة آراء وأفعال، ومذاهب وأعمال. والاخوان هم الخواص الفضلاء العلماء بأمور النيات والحكماء. هم هذه الجماعة الفاضلة "إخوان الصفا وخلان الوفا" التى يتم من خلالها تطهير النفس. يساعدون على الصعود إلى عالم الأفلاك وسعة السموات ويمكن العليين بجوار ملائكة الرحمن المقربين، ومعاونة الاخوان النصحاء والأصدقاء من أجل الوصول إلى النجاة من الورطة التى وقع فيها البشر بجناية آدم مع أنه قد تاب وغفر الله له، وأصبح كل إنسان مسؤولاً عن نفسه، طائره فى عنقه، لا يتحمل وزراً لم يرتكبه ولا يخلصه إلا عمله وكده واجتهاده. فلا أحم يخطئ نيابة عنه ولا مخلص ينقذه بدلاً عنه^(٢).

والناس المطلوب تجنيدهم على أنواع أيضاً. الأول المقرون بفضل الاخوان ولكن جاهلون بعلومهم لتسترهم بالتشيع. والثانى الشاكون المتحيرون وهم أفضل لأنهم يبحثون وإن لم يصلوا بعد إلى مرتبة اليقين. والثالث الموقنون بالدعوة ووقتها وهم الأسهل انقياداً. ومن ضرورات التربية الفلسفية الرفق بالجهال خاصة وأن فى دياناتها وكتبهم تأويلات حرفية أيضاً.

(١) وهى التى سماها الكواكبي "التقور" وكتب فيها "لم القرى".

(٢) السابق جـ ٢٤٦/٧-٢٤٨، جـ ١١٢/٢. وكما هو الحال فى لاهوت التحرير عند بلولو فريزى وتربية المضطهدين وثورة الجماهير عند أورتيجا.

ويعتمد الاخوان فى ذلك على "سيكولوجية" الدعوة والداعية، والوضع الاجتماعى وجهل الناس، وإيقاع القارئ فى هوة سحيقة، يتحد فيها كل شئ بكل شئ حتى يتوه، ويغترب عن العالم حتى تبدو الحاجة إلى الخلاص، وتنبهه على أنه غافل فى حاجة إلى نقطة اعتماداً على حجة الاحراج إرهاباً من أجل الدعوة وجر الإنسان بعيداً عن الناس إلى جماعة الاخوان يجد فيها ذاته، ويثبت فيها وجوده، ويحقق ما يبتغى.

ويتدرج الاخوان فى أربع مراتب تبين قوة نفوسهم. الأولى ذوى الصنائع أصحاب القوة العاقلة المميزة لمعانى المحسوسات الواردة على القوة الناطقة، وهم فى سن الخامسة عشرة. والثانية ذوى السياسات، أصحاب الفيض والشفقة ومراعاة الاخوان والقوة الحكمية وهم فى سن الثلاثين. والثالثة ذوى السلطان والأمر والنهى، والرأفة واللطف، والقوة الناموسية، وهم فى سن الأربعين. والرابعة أصحاب التسليم والقبول والمشاهدة، والقوة الملكية وهم فى سن الخمسين^(١). والسؤال هو كيف تفيض كل قوة من أعلى إلى أسفل وهى لم تظهر بعد؟ والفيض هبوط، والنمو صعود. يبدو أن الفيض مازال هو الغالب على الارتقاء.

البداية يعلم النفس ومعرفة جوهرها، بل إن كل رسائل الاخوان الاحدى والخمسين فى علم النفس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. تنقل الأقسام الأربعة، الرياضى والمنطقى والطبيعى الجسمانى والالهى الناموسى الشرعى على مستوى النفس مثل النفسانيات والعقليات وهو ما يمكن نقله فى عصرنا على مستوى العلوم الاجتماعية، الاجتماع والسياسة والقانون، وكما فعل الاخوان أنفسهم فى القسم الرابع، العلوم الالهية الناموسية والشرعية، والفارابى بعد ذلك فى "إحصاء العلوم" ووضع علم الفقه وعلم الكلام والعلم المدنى فى قسم واحد^(٢).

(١) السابق ج١/٨/٤٩٥، ج٤/٧/١٧٣-١٧٤.

(٢) فى مهمة النفوس وعشقها للأجسام ج٤/٧/١٨٣-١٨٤، فى مهمة النفوس وإخراجها من عالم الأرواح لجنائية كانت فيها ج٤/٧/١٨٤-١٨٦.

ويتضمن النوع الأول اعترافاً صريحاً بالتشيع بالإضافة إلى الاتجاه الامامى الاشراقى العام. وينقد الاخوان من جعل التشيع عدم قبول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدعوى التستر والتخفى أو الغيبة والاختفاء فيركبون المحذور. ويتبرأ الاخوان من التستر باسم العلويين المخالفين للشريعة مثل تبرؤ الصوفية من الأدعياء الذين يقولون باسقاط التدبير. فالأخوان يمثلون المعارضة الشيعية التي تمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل أهل السنة في العلن وليس في الخفاء.

وينقد الاخوان ممارسات الشيعة الرسمية بأنهم قوم من الأشرار، تستروا بالتشيع ضد الأمرين لهم بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل المحظورات وترك الأوامر. ومن الاخوان قوم يسمون أنفسهم بالعلوية ولكن ليس لهم من الدين إلا هذا الاسم، لا صلاة ولا صيام ولا زكاة ولا جهاد. ويرتكبون كل الموبقات. وطائفة جعلت التشيع مكسباً الناحون والقصاصون للتبري والشتم والطعن والبكاء وترك العلم^(١). ومن الشيعة من تقول أن الأئمة تسمع النداء، وتجيب الدعاء، وهماً وتخيلاً وتعبيراً عن العجز عن الفعل، والمقاومة الفعلية. وفهم من يقول إن الامام المنتظر مختف خفاً من المخالفين مع أنه ظاهر وهم ينكرونه. واللبعض يقر بالأنبياء والخلفاء والأئمة الوارثين لعلم النبوات ولكن لا يدرون حقيقة ما يقرون ولا تصديق ما يعتقدون.

يمثل الاخوان حركة إصلاحية داخل الفكر الشيعي. وينقدون اختلاف الإيمان عن العمل، والتكسب بالدين وتحويله إلى تجارة، وحضور الامام أو اختفائه، والجهل وعدم التصديق. والنصيحة من التناك أي من الدين. فإخوان الصفا لقاء التصوف والحكمة الاشراقية لحساب التصوف على عكس لقاء التصوف مع الفلسفة عند ابن عربي وابن سبعين لحساب الفلسفة الالهية. والتحليلات كلها أقرب إلى الأخلاق منها إلى الاجتماع أو السياسة^(٢).

(١) وهذا مثل نقد الخميني لممارسات عاشوراء السوداء الحزينة بعد انتصار الثورة، الامام الخميني: جهاد النفس والجهاد الأكبر، القاهرة ١٩٨٠.

(٢) الرسائل ج٤-١٤٦/٧-١٤٨/١٥٣.

والمطلوب من المدعويين التحول تدريجياً من الإقرار باللسان إلى التصور بالأمثال للوضوح والبيان إلى التصديق بالضمير والاعتقاد إلى التحقيق بالاجتهاد فى الأعمال. فالإقرار دون التصور تقليد، والتصور دون تصديق شك، والتصديق دون تحقيق نقصير، والتكذيب باللسان والقلب جحود وكفر.

والمقر باللسان والتصور بالقلب على حقيقته يجد أربع خصال فى نفسه لم يعرفها من قبل: الثقة بالله واليقين التام بهذا الأمر، الرجاء والأمل للفوز عند مفارقة الجسد، النشاط فى طلب الخلاص من الهوى، جهنم الجسد. وأخيراً قوة النفس. للنهوض من الجسد.

وكل مقر بالقرآن وكتب الأنبياء والأخبار عن الغيب على أربع منازل: مقر باللسان غير مصدق بالقلب، ومقر باللسان مصدق بالقلب غير عارف بمعانيه وبيانه، مصدق ومقر ومتيقن ولكن غير قائم بواجب حقه، وأخيراً من وجد العون من الاخوان على مساعدته على التحقق، وأقلهم أربعون، وهو عدد رمزى، مواعدة الله موسى أربعين ليلة، أربعون خصلة فى شخص واحد أو فى أربعين شخصاً. فأعلى المراتب التعاون مع الاخوان (١).

وفى "الدعوة إلى الله" يتوجه الاخوان إلى خمس مجموعات بالنداء كما هو الحال فى رسائل بولس إلى الكنائس السبع. الأول خطاب إلى المتفلسفين الشاكين فى أمر الشريعة الغافلين عن أسرار الكتب النبوة. فالشريعة أسرار، لا يمسه إلا المطهرون، مقدسة لا يجوز تناولها بالعقل. مضمونها غيبى وقصصى بعيداً عن مصالح الناس وشؤون الدنيا. كلها سمعيات ولا عقليات فيها، وبالتالي فهى ظنيات وليست يقينيات طبقاً للنسق الأشعرى. فى حين يدافع المعتزلة عن العقل، والفقهاء عن

(١) السابق جـ ٤/٧/١٧٥-١٧٧. انظر دراستنا: "التفكير الدينى وازدواجية الشخصية"، قضايا معاصرة،

جـ ١ فى فكرنا المعاصر، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، ص ١١-١٢٧، وأيضاً من العقيدة إلى

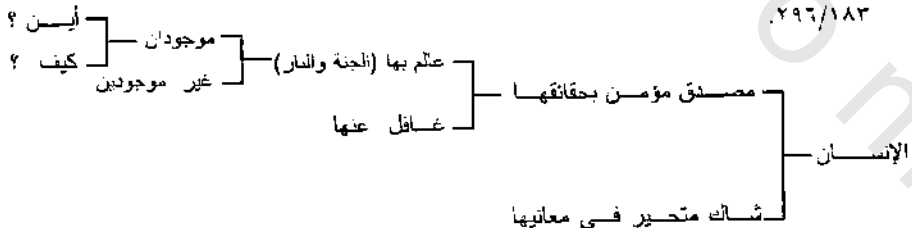
الثورة جـ ٥ الإيمان والعمل والامامة ص ١٠-١٤.

المصلحة. ولا توجد فروق نوعية بين التوراة والانجيل والفرقان فى نسبة العقليات إلى السمعيات بالرغم من تطور الوحي طبقاً لقانون تناقص السمعيات وتزايد العقليات اتجاهاً نحو استقلال العقل والإرادة.

والإنسان نوعان: شاك ومتحير فى معانيها، ومصديق متيقن بحقائقها. وهذا المصدق إما غافل عنها أو عالم بها مثل الجنة والنار، موجودين أو غير موجودين لعدم معرفة أين وكيف. وتشمل الجنة والنار المعراج وخازن الجنة وخازن النار (رضوان ومالك) ^(١). والغيبيات يؤمن بها أهل التقليد مثل العامة، ويشاهدها أهل البصيرة مثل الخاصة. ولا يوجد وسط بين التقليد والملاحظة وهو البرهان العقلى أو التأويل.

ومن ثم ينقد الاخوان تعددية الفلسفة لصالح وحدانية الدين بالرغم مما فى التعددية والاختلاف من مآثر، وما فى الوجدانية من مخاسر من حيث شرعية الاختلاف فى الأولى، وتكفير المخالفين فى الثانية ^(٢). وهل يمكن الرد على الشاك بالاعتقاد والنص أم بالرأى والبرهان؟ إن النص مجرد إعلان عن وجود الغيبيات دون إثبات لها بالبرهان. فالنقل وحده دليل ظنى، ولا يتحول إلى دليل عقلى إلا بقرائن الحس والعقل ^(٣). هذا بالإضافة إلى أن هناك إجماعاً بين العقلاء. فهناك وحدة فى التعدد، وتعدد فى الوحدة نظراً لاختلاف مستويات الفهم. وكيف يتفق الإسلام مع أرسطو ولا يوجد برهان طبقاً لحديث "لو عاش حتى يعرف ما جئْتُ به لاتبعتنى على ديني" نظراً

(١) فى خطاب الشاكين فى أمر النفس المتحيرين فى اختلاف أقاويل العلماء فيها، السابق ج ٤/١٧٧-٢٩٦/١٨٣.



(٢) من العقيدة إلى الثورة، ج ١ المقدمات النظرية، الفصل الثالث، نظرية العلم ص ٣٩٠-٤٠٣.

(٣) من النقل إلى الإبداع ج ١ الأول النقل، الباب الأول، التكوين، الفصل الثالث: الانتحال.

لاتفاق العقل والنقل بصرف النظر عن صحة الحديث أو انتحاله. فالانتحال إبداع فلسفى يعبر عن روح الحضارة^(١).

ومع هؤلاء المتفلسفين الشاكين يخاطب الاخوان المتشيعين فهل هم المسلمون عامة حتى الملتزمون المتيقنون بأحكام الشريعة أو هم الشيعة خاصة المتمسكون بالشريعة السياسية والدينية؟ هل هو نقد لمدعى التسيع مثل النقد الغالب على باقى الخطابات أن مدح فى مقابل المتفلسفين الشاكين كفرقة بديلة؟ فالإسلام مودة بين الأصدقاء، وقدوة بالنبي وبآله كما يفعل الاخوان. وهو أقرب إلى الخطابة السطحية وكأنه موجه إلى العامة أو الطوائف.

ويجمع الاخوان الخطابات الأربعة الأخرى فى خطاب واحد أولاً على أولاد الصناع والمطرفين وأمناء الناس، وثانياً إلى أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين، وثالثاً إلى أولاد الأشراف والدهاقين والنساء والتجار، ورابعاً إلى أولاد الملوك والأمراء والوزراء والكتاب والعمال.

وينتدب أحياناً لكل طائفة، ينصحهم بالرفق، ويعاونهم فى إفهامهم التنزيل والتأويل وزوال الدنيا والتغير وتنظير للموروث الأصيل «لوتك الأيام نداولها بين الناس» بالنسبة إلى الرؤساء من أجل زعزعة الثقة بهم، وعدم الخوف منهم، والخروج على طاعتهم، ونبذ المجتمع القائم إلى مجتمع آخر منذ الجاهلية إلى الإسلام. فرسالة الاخوان القيادة الثورية، وزعزعة الحكم، واستمرار حركة التاريخ.

وفى مخاطبة الملوك والسلطين يستعمل الاخوان الرفق والملاطفة حتى ملاقاتهم على خلوة وقراءة السلام من أصدقاء نصحاء من أولاد العلماء وحملة الدين وأولاد التجار العالمين بأحوال الأمور من باقى الطوائف، فالعلم مشاع بين جميع الطوائف، وتبشيرهم بما يبشر به الاخوان من نصرة الدين، وفتح البلاد. هم إخوان نصحاء، لهم مجلس

(١) الرسائل ج٤/٧/١٩٥-١٩٦.

يجتمعون فيه. وتكرر الأيام والأزمان ويتكرر الاخوان مسار التاريخ^(١). وهل يعرف التاريخ بالزجر والفأل والكهانة والفراسة؟ فان لم يصدق فلنتم محاجته بالرغم من رفض الاخوان مناهج الجدل والحاجة في الدين من علماء الكلام.

خامساً: الأخلاق الإنسانية (أبو حيان):

تبدو الأخلاق الإنسانية عند أبي حيان في موضوعات متناثرة تجمع بين الفلسفة والأدب، ومنسوبة إلى أقوال الآخرين خاصة أبي سليمان السجستاني وأبي الحسن العامري. والإنسانيات عند أبي حيان لها الألفية على الطبيعيات والالهيات. فالإنسان حاضر عند أبي حيان حضوره عند إخوان الصفا. ومعظمها تجارب إنسانية وانفعالات بشرية وحدوس فلسفية يصعب تحويلها إلى تصورات فلسفية وبراهين منطقية. ومنها تجربة الحكمة.

وتبدأ بتحليل الألفاظ حتى لتبدو التحليلات أشبه بالتحليلات المعجمية مثل تحليل الصداقة في قاموس يشمل خمسة وثلاثين مصطلحاً، كلها متداخلة ومتكررة مثل المحبة. وتهدف كلها إلى إثبات غاية واحدة كما هو الحال عند إخوان الصفا وهو التعالي أو المفارقة.

وقليل من هذه المصطلحات مصطلحات فلسفية مثل العلة الأولى. فالعقل خليفة العلة الأولى ليس بمعنى التقييد كما يوحي بذلك المعنى الاشتقاقي للفظ "عقل" بل معنى آخر نقيض وهو الأخلاق وهو ما يتفق أيضاً مع المعنى الاشتقاقي أى الالتزام بالأخلاق

(١) "يذكرونهم بحوادث الأيام، وتغيرات الزمان والخطوب والحدثان، وما تكل عليه دلائل القرآن من تغييرات شرائع الدين والمال، وتنقل الملك والدول من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن أهل بيت إلى أهل بيت، فاجتمع رأيهم، وانتقت كلمتهم على أنه لابد من كائن في العالم قريب وحادث عجيب فيه صلاح الدين والدنيا، وهو تجديد ملك في المملكة وانتقال الدولة من أمة إلى أمة، وإن لذلك دلائل واضحة، عرفت بفراغ العقول وتجارب الأمور، واعتبار تصاريح الزمان فيما مضى من الحدثان، وما يعرف منها بالزجر والفأل والكهانة والفراسة وبدلائل المتحركات من النجوم والمقامات مما تكل عليه من الكائنات قيل أن تكون"، السابق جـ ٤/٧-١٨٩-١٩١.

والحرية والسلوك وبالله. كما تظهر بعض المصطلحات الطبيعية المعربة مثل "الأسطقسات" في تعريف الروح^(١).

كما يعتمد أبو حيان على القسمة. وقد تكون ثنائية أو ثلاثية أو رباعية. مثل الإيمان بالله كعادة بالطبيعة أو كادب للنفس أو لتقبل العقل أو إثباتاً لوجود الله. وتساعد القسمة على سرعة التحديد.

ويعتمد أبو حيان على التجارب الشعرية باعتبارها رصيد الثقافة العربية الأول وتجارب إنسانية عامة تغنى عن البراهين المنطقية مثل الخير والشر ومتى تكون غلبة أحدهما على الآخر، ومثل العلاقة بين الحسب والأدب، وأن الحسيب بلا أدب أظعن من الأديب بلا حسب^(٢).

وتبدو عناصر الاضطهاد في فكر أبي حيان ربما نظراً للتشيع.

١- الإنسانية أفق. ويظهر مفهوم "الإنسان" كأفق، والإنسانية كأفق. الإنسان متحرك نحو أفقه بالطبع. وهو أفق أخلاقي^(٣).

الإنسان كشخص بالطبيعة، ذات بالروح، جوهر بالنفس، إله بالكل، حى بالاستكمال، ناقص بالحاجة، نام بالطلب، صغير في النظر، خطير في المخبر، لب العالم. فيه من كل شئ شئ، وله بكل شئ تعلق، صحيح بالنسب إلى من نقله من العدم. قوى النسب لمن يستفيد عن أمم. أخبار الإنسان كثيرة، وأسراره عجيبة. من عرفه فقد عرف سلالة العالم ومصاحنه. وقد حوى جوهره شبها من كل ما يعرف ويرى. فهو مثال لكل غائب، وبيان لكل شاهد. هيوب عجيب الشأن، شريف البرهان، غريب الخبر والعيان^(٤).

(١) أبو حيان: المقابسات ص ٢٦٥/٢٧٢.

(٢) السابق، ص ١٦٨-١٦٩، الامتاع والموانسة ج١/٤٦.

(٣) "في أن الإنسانية أفق، والإنسان متحرك نحو أفقه بالطبع"، المقابسات ص ١٩٧-١٩٨.

(٤) السابق ص ١٩٧-١٩٨/٣٧٤، الامتاع ج٥/٣٩-٤٠.

وتركيب الإنسان طبقاً للعامري نزولاً حسب تصور الطبيعة من الأجناس إلى الأنواع الطبيعية لا المنطقية. هو قوة لكل بدن بالإضافة إلى قوة الجميع. ولا يشرف إنسان على آخر إلا من جهة الاختيار والاكتساب. وشرف الزمان والمكان إسقاط من الإنسان ووضع الأخلاق فى الطبيعة، والسعادة والفلك فى الزمان.

ولا فرق بين الإنسان والطبيعة فى الأخلاق إلا الفرق بين الحقيقة والمجاز. فالطرفان والوسط ليسا فقط فى الأخلاق بل أيضاً فى الطبيعة. والأخلاق حركة طبيعية، الغضب من الداخل إلى الخارج والحزن من الخارج إلى الداخل. ولا فرق بين ملئ العين والنفس. والطبيعة هى الله، ومن ثم لا مكان للمعجزات وأصحاب التنسك الذين يحولون الطبيعة إلى صناعة. فالطبيعة فوق الصناعة، والصناعة دون الطبيعة. مهما تشبهت بها فإنها لا تكتمل. والطبيعة لا تشبه الصناعة بل قوة إلهية سارية فى الأشياء.

وتأخذ الصداقة حظاً وافراً فى تحليل الأخلاق الإنسانية مثل رسالة "الصداقة والصديق". وهى أطول الموضوعات الخلفية على الإطلاق بناء على تجربة أبى حيان الشخصية^(١).

ويجمع الإنسان أخلاقاً متباينة على مستويات عدة. رأس ويدان ورجلان على مستوى الشكل الخارجى. ولحم وعظم وعصب وشریان على مستوى المضمون الداخلى^(٢). ودم وبلغم ومريان على مستوى الأخلط الأربعة^(٣).

(١) فلان ملئ العين والنفس، المقابسات ص ٤٣٧-٤٣٨ فى شرف الزمان والمكان وتفاوت الناس فى الفضيلة ص ١٤٣-١٤٤. فى أن الوسط فيه الطرفان ص ٢٦٧-٢٧٠. فى الصديق وحقيقة الصداقة وفلسفة الشوق والحب وفى تعريفات فلسفية صالحة ص ٣٥٩-٣٧٨. فى أن الخير على الحقيقة هو المراد لذاته، والخير بالاستفادة هو المراد لغيره ص ٢٨٦.

(٢) هذا هو أيضاً تصور الإتمان عند ديكارت فى بداية العصور الحديثة الغربية فى "مقال فى الإنسان"، أبو حيان: الامتاع والمؤاتسة ج٢/ ٨٧. انظر أيضاً دراستنا: "لماذا غاب مبحث الإنسان فى تراثا القيم؟"، دراسات إسلامية، ص ٣٩٢-٤١٥.

(٣) ومن الموضوعات الطبيعية: العنصر، الهوى، الجوهر، القادر، انفعال للحيز، النفس، الحس، =

ويتلمس أبو حيان بعض الموضوعات الإنسانية، فيجدها في التصوف والعفة. مصطلحات الصوفية مثل العشق، والمحبة، والكلف، والشفقة، والصداقة والمحبة، والعلم، والتوحيد، والفتوة، والمروءة، والعقل، كلها موضوعات إنسانية يغلب عليها الجانب الشعوري الإنساني الحيوي كما هو الحال عند إخوان الصفا. وتأخذ بعض الموضوعات حيزاً أوسع مثل السكينة حيث تظهر فلسفة الأخلاق بوضوح. وهى من القيم الصوفية وهى على درجات بين الزيادة والنقصان. أنقصها للناس ثم لخلقاء الأنبياء ثم للأنبياء وأعلاها لأشخاص فوق الأنبياء وهم الملائكة. وهى على أربعة أنواع: طبيعية، ونفسية، وعقلية، وإلهية. وقد تكون مفعولة أو فاعلة ^(١). ويصعب فصل المصطلحات الصوفية عن الفلسفة الطبيعية ^(٢).

وأحياناً تظهر بعض الموضوعات الكلامية الإنسانية مثل الإنسان والوعد والوعيد والتوحيد بل والقدم والحدث ^(٣). وبعضها مستقى من الفقه وأصوله مثل الاجتهاد والرخصة والمشورة ^(٤).

وترتبط أخلاق الإنسان بقوى النفس وهى ثلاث: شهوانية مذمومة، وغضبية محمودة ومذمومة، وناطقة محمودة. وتتعرف النفس الناطقة على الله. وهى التى تقود القوتين الآخرين، وتعمل على إصلاحهما منعاً للإفراط والتفريط. ولا يمكن تغيير الخلق ولكن يمكن إصلاحه. فالعمل يتم من خلال الطبيعة.

= الحركة، الفرح، النوم، الإرادة، اللذة.

(١) من أهم الموضوعات الأخرى: العلم بالحق، العمل بالحق، الروح، الرأى، السعادة، الجودة، النظم، الدنيا، الخير بالحقيقة، الشر، الاختيار، النفع، الشجاعة، القسرح، العجول، الركيز، الحسود، الذحل، الحقد، الغضب، العجب، الرضا، الحيار، الاستطاعة، الشهوة، المحبوب، المقابسات ص ٣٠٨/٢٥٠-٣١٩/٣٤٧-٣٦٣-٢٠٦/٢١٦، الامتاع ج ١/٢٠٦-٢١١.

(٢) مثل الرطوبة واليوسه، الحس والعقل، النفس والطبيعة، أحكام الفلك، فناء الزمان، المعرفة والعلم، إرواة الخير والجود على الناس، السابق ص ٣٧٢-٣٧٣.

(٣) أبو حيان: المقابسات ص ٣٧٣-٣٧٨.

(٤) السابق ص ٣٢٩.

ونظراً لأهمية الأدب كمصدر للأخلاق الإنسانية الواقعية ذكرت فضائل كثيرة أقرب إلى الفضائل الأدبية والذوقية الإنسانية العامة مثل حضور البديهة في الردود. ومعروف مآثر القريحة العربية والتراشق بالآداب^(١). ويرجع ذلك إلى سحر العقول. وهو إما صناعي مثل خفة الحركات أو طبيعي مثل آثار الطبيعة أو عقلي مثل الكلام الغريب المعنى أو الهى مثل الأنفس الكريمة قولاً وعملاً^(٢).

ويأخذ الشعر مكان الصدارة كمادة لتحليل الأخلاق الإنسانية الواقعية. كما أنه يعبر عن التجربة القرآنية. فكلاهما تجربتان شعريتان. وظهر الملوك والأمراء شعراء مثل سيف الدولة وعبد الملك بن مروان. وكانوا في صحبة الشعراء والأدباء وليس التجار والسفراء. والمأمون الأديب الملك الفيلسوف. الشعر له الأولوية على كل المصادر الموروثة أو الوافدة. وهو "موروث الثقافى الذى يعرفه الجميع. ويتضح المصدر الشيعى من كثرة الاقتباس من أبى حاتم السجستاني وأبى سليمان السجستاني ومحمد بن على بن الحسين الباقر دون أن يغفل المصدر السنى مثل عمر بن الخطاب.

كما يعتمد على الشروح اللغوية الخالصة دون التحلق والغربة اللغوية وكُننا فى الشعر الجاهلى، ويطول الشرح للغوى دون جمالية من ذلك. من النقص فى النسخة السجستاني^(٣).

(١) الليلة التاسعة والثلاثون، السابق جـ ١٦٢/١٨٥.

(٢) مثل: اللغيف = الصديق. العلق = النفس من المتاع. السحت = هنية أهل الخير، الوضائع = الخسائر. المسترسلون = إذا انبسط إليه وأمتأنس.

(٣) أبو حاتم السجستاني: إذا مات لى صديق سقط لى عضو، الصداقة والصديق ص ١٧. على بن أبى طالب: قليل للصديق الوقوف على قبره، السابق: ص ٢٢. الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كالعين بلا شمال، السابق ص ٢٨. ومن أقوال الشعراء:

- بينى وبين لئام الناس معتهب : ما تتقضى وكرام الناس إخوائى
- إذا لقيتم لئيم القوم عنفنى : وإن لقيت كريم القوم حيائى
- وكنت إذا الصديق أراد غيظى : واشرقنى على حلق بروقى
- عفوت ذنوبه وصفحته عنه : مخافة أن أعيش بلا صديق
- لله فى الأرض أجناد مجتدة : لأرواحها بيننا بالصدق تعترف

ويبرز أبو حيان تجربة الصداقة والصدق. فالصداقة فضيلة إيجابية تغنى بها البلغاء والأدباء. وهى تجربة إنسانية عامة يصدقها الوحي والشعر^(١). وإذا اقتصر البعض على جعل الصداقة لفظاً بلا معنى بناء على تحليل اللغة فإن البعض الآخر يجعل الصداقة والصدق المعنى وحامل المعنى^(٢). ويجمع أبو حيان أقوال السابقين. فالرواية أيضاً فى الأنبى وليست فقط فى الحديث. لا فرق بين موروث ووافد، بين محسوس ومعقول، ما دامت تجارب إنسانية حية. الكتابة بمثابة مرجع عام فى الوضوح، والتأليف فيه طبقاً لرغبة الجمهور. ويبدو الفقه ومذاهبه رافداً رئيسياً فى الثقافة خاصة أبى حنيفة. وتظهر شخصية أبى سليمان الفذة شخصية محورية ومصدر الكثير من الروايات والآراء.

والصداقة نادرة مشوبة بالحسد والحقد والخيانة كما ظهر ذلك فى قصة يوسف مع إخوته، وهابيل وقابيل مما يدفع أبى حيان لأن يشكر من الناس، ويكون أقرب إلى التساؤم منه إلى التفاؤل. وهو نفس عصر أبى العلاء. وقد تكون الصداقة بالدين وبالجوار وبالمالحة وبالصناعة وبالمنشأ وبالمعاقرة وبالتجربة وبالألفة وبالميلاد أو بانتظام هذه كلها.

ومكارم الأخلاق للإنسان عشرة: صدق الحديث، وصدق البأس، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وبذل المعروف، والتقدم للجار، والتقدم للصاحب، والمكافأة للصانع، وقرى الضيف. ورأسها الحياء^(٣).

٢- أخلاق البدن. وتعنى الأخلاق المادية، طبائع الحيوان، وحاجات الطعام والشراب، وممارسات الجنس، وبعض الموضوعات الأخلاقية النفسية مثل الإرادة والاختيار والصداقة والصدق وأخيراً تحليل الأخلاق الاجتماعية مثل أخلاق التجار. وهى

- والأمثلة كثيرة من الوزير، وأبى سليمان، وعمر بن عبد العزيز، السابق ص ١٢١/٣٧.
(١) الاقتصاد على تحليل اللفظ مثل المدرسة التحليلية المعاصرة فى الغرب. والمعنى وحامل المعنى هما عند هوسرل Noëse, Noëme.

(٢) أبو حيان: الصداقة والصدق ص ٣-١٤/١٧-١٨/٣٤/١١٩-١٢٠.

(٣) هو قول مأثور عن عائشة، أبو حيان: الامتاع والمواثقة ج ٣/٢٠٠.

ما يسمى بمصطلحات العصر الأخلاق المادية أو الوضعية أو الوصفية أو التقريرية.

للحيوان أخلاق ما دامت له نفس وقوى وطبع. إذا أمكن الحديث عن الإنسان فإنه يمكن الحديث أيضاً عن طبائع الحيوان. ومن الطبيعي أن يهتم العرب بالحيوان، أدباء علماء وفلاسفة. فالحيوان جزء من البيئة العربية. ولا يوجد مغزى سياسى للحيوان عند أبى حيان كما هو الحال فى "رسالة الحيوان" عند الاخوان. عرف أبو حيان الأديب أن الحيوان للإنسان مداواة، رؤية إنسانية للحيوان. كما أدرك الحكمة والعناية فى الحيوان كما يفعل المعاصرون (١).

والإنسان أشرف من الحيوان ومسخرأ له. وقد كان الأمر هكذا دائماً لأنه حاز جميع قوى الحيوان ثم زاد عليه بما ليس لشيئ منه فصار رباً له سائساً ومصرفاً وحارساً. والملائكة أكمل بداية وليس بالجهد. خلقت كاملة. ولم تكلف بأن تكمل وتتكامل وتستكمل. لذلك لا يقال عنها إنها حرمت الفضيلة. وبطبيعة الحال لا تخلو النظرة الإنسانية للحيوان من إسقاط إنسانى.

ويتعرض أبو حيان إلى أخلاق الجوع والشبع واختلاف معانيها حسب المواقف الفكرية، عند الصوفى والمتكلم والمواقف الحياتية مثل الطقلى والمهنية كالطبيب والقاضى والجمال كالجندى والمكار والجمال، والمزاحية مثل للملاح والبخيل، والشعبية مثل المذنبى واليمنى والتركى والسمرقندى والهندي. وهى من أطول الرسائل (٢). وهو موضوع عصرى يحصد مئات الألوف يومياً خاصة فى إفريقيا. وتظهر بعض المصطلحات الدينية فى التحليل مثل الفرائض والنوافل.

(١) أبو حيان: الامتاع والمواثبة، جـ ٢/١٥٨، طباع الحيوان جـ ١/١٩٥-١٩٧، وقد تختلف معرفتنا الآن عن الحيوان عما عرفه القدماء. وأصبحنا ننقل "عالم الحيوان" من الشرائط الغربية إلى لادهاش الأطفال واستعمالها كأكلة على وجود الله دون علم أو أدب بل من أجل الدين. فالطبيعة ليست باعثاً فى فكرنا الحديث.

(٢) الليلة الثانية والثلاثون أبو حيان: الامتاع والمواثبة جـ ٣/١-٦٦، وموضوعات "الامتاع" الطعام، والدين، والجنس، والملوك، والأدب، والأمثال.

وبعد الجوع والشبع يأتي الجنس اعتماداً على التجارب الشعرية والأدبية^(١). ولا حرج في الإشارة إلى الشذوذ الجنسي، السحاق واللواط كعادات عربية وممارسات المجون في بلاط الأمراء وقصور الأغنياء والتي أُلحح القرآن لها. يتحول السحاق إلى إبداع أدبي في وصف الجسدين المتلاقين، وحرارة اللقاء، صور الجنس في صور الحرب، بداية بالجنس ونهاية بالنفس^(٢). وإذا تخاصم رجل وامرأة على تسمية الولد حكم القاضي دون حرج بسماع الشهود واستقصاء الأدلة. وكان القرائق بين الرجل والمرأة بالشعر الذي يرمز إلى الجنس شيئاً شائعاً بصرف النظر عن الرتبة الاجتماعية، لا فرق بين سيد وجارية^(٣). ويتم ذلك بروح الفكاهة واللمحة والبداهة وهو ما لا يستطيعه أحد اليوم بعد أن تحول الجنس والسياسة والدين إلى محرمات أو مقدسات لا يجوز الاقتراب منها^(٤). ولا حرج عن الحديث عن ضيق الفرج ووسعه، والزواج بالمرأة لصيقها

(١) قالت ماجنة: ليلة عرسى : تقبوا بالأيركسى، الامتناع والموانسة جـ ٥٧/٢.

(٢) قالت ماجنة: الحق أخفى، والنيك أشفى، السابق. نفس الصفحة.

وقال مخنث: لما تدانست الأشخاص. ورق الكلام، والتقت الساق بالساق، ولطخ باطنها بالبراق، وقرع البعض بالذكور، وجعلت الزمراح تمور صد الكريم فلم يجزع، وسلم طائعاً فلم يذع. ثم انصرف القوم على سلم بأفضل غنم، وشفيت الصدور، وسكنت حرارة النفوس، وما شاكل وجد، وأطيب مقتل كل هجر، واتصل الحبل، وأنشد الوصل، السابق جـ ٥٢/٢-٥٣.

(٣) قدم رجل مع امرأة إلى القاضي ومعهما طفل فقالت: هذا ابنه، فقال الرجل: أعز الله القاضي ما أعرفه. فقال القاضي: اتق الله فان النبي صلى الله عليه وسلم يقول "الولد للفراش وللعاهر الحجر"، فهذا وأمه على فراشه. قال الرجل: ما نتايكنا إلا في الاست فمن أين لى ولداً؟ فقالت المرأة: أعز الله القاضي قل له ما رأيت يُعرفه. فكف الرجل، وأخذ بيد ولده وانصرف، السابق جـ ٥٤/٢-٥٥. ودخل أبو نواس على يمان جارية الناطقى فقال لها:

لو رأى فى البيت حجراً لنزأ حتى يموتاً
أو رأى فى البيت تقباً لنحول عنك بيوتاً
فأجابته: زوجوا هذا بألف وأظن الألف نوناً
قبل أن يغلب الدا فلا يأتى ويؤتى ، السابق ج ٦٠/٢.

(٤) انظروا دراستنا: "المحرمات الثلاث"، الدين والثورة في مصر ١٩٥٢-١٩٨١، ج١ في الثقافة-

وتطليقها لوسعها. والرجال يشتاقون إلى الجماع في الشتاء والنساء في الصيف. فالزواج جنس، والحب إشباع. إلى هذا الحد وضع المرأة قديماً وقد يشابهه وضع المرأة حديثاً في أدبيات الجنس في الحضارة الغربية^(١).

أخلاق الجنس والمجون من مظاهر الأخلاق الإنسانية دون حرج في مجتمع مفتوح في السلوك والتعبير. وهي غير أخلاق الحب. الأولى بدنية خالصة والثانية نفسية. ولا حياة في الدين. ولم يتحرج الرسول ولا أزواجه ولا الصحابة في تناوله والتصريح به. ويعتمد أبو حيان هلى أقوال الشعر في وصف أخلاق الجنس. فالشيخ أقرب الناس إلى الجنس وإن بدا متعففاً وقوراً، زاهداً تقياً عفيفاً ورعاً مؤمناً. يصلى قاعداً وبنيك قائماً. يعاف الغانيات ويشتهي الغلام. ويأنف من شهر الصيام الذي يمنعه من ممارسة الجنس وارتياح دور اللهو^(٢). بل أن النداء إلى الجماع لحظة إبداع أنبي^(٣). ولم يكن هناك خجل في جلسات الأمراء من الحديث عن الجنس أو ممارسته والجاريات تعنى بإشباع القدمات^(٤). وفي نفس الوقت يصف أبو حيان انهيار الحب من الشعر إلى الجنس، ومن الألب إلى الجسد، ومن الرومانسية إلى الحسية، ومن العلى إلى الستر— ومن الحق إلى

= الوطنية ص ٢٦٧-٢٦٩.

(١) تزوجها أربعة يتلقونها كالسكر ثم يطلقونها فسالوها فقالت: يريدو. حيق ضيق الله عليهم، الامتاع

والمزانية جـ ١٤٦/٣.

(٢)

شيخ يصلى قاعداً : وينيك عشرا من قيام
ويعاف نيك الغانيات : ت ويشتهى نيك الغلام
وتراه يرعد حين يحد : كر عنده شهر الصيام
خوقاً من الشهر المعذ : ب نفسه فى كل عام
مسلس التقياد إلى التصا : بى والملاهى والحرام

(٣) قالت ماجنة تدعو رجلاً: ضر وضر، وقد وارقد، وأطرح واقترح، السابق جـ ٥٥/٢.

(٤) دعا مرة قوماً وأمر جاريته أن تبخرهم فأدخلت يدها في ثوب بعضهم فوجدت إبرة قائما فجعلت غرسه وتلعب به وأطالت. فقال مولاهما: إيش آخر هذا العود، أما احترق؟ فقالت: يا مولاي هو عقدة!

السرقه كما هو الحال فى هذه الأيام^(١).

ويتعرض أبو حيان لأخلاق التجار كحلقة وصل بين أخلاق البدن الفردى وأخلاق البدن الاجتماعى ولكن بلغة الأدب، واستعمال بعض ألفاظ غير مألوفة إلا على الأدياء فى عصره. وتشمل أخلاق المحبة والثناء، أخلاق الدهاقين ورؤساء الفرس والصالحين وأهل العلم أى أخلاق المهنة. وتقوم على المداينة، والنفاق، والكذب، والبهتان، والغش فى الموازين، والتحايل. هنا تتحول الأخلاق إلى نقد اجتماعى لممارسات العصر. فالأخلاق وصف لما هو كائن وليس لما ينبغى أن يكون الذى لا يوجد إلا عند الخاصة والسلطان^(٢).

وتقوم أخلاق البدن على تحليل نفسى فكرى وجودى للفضائل مع استعمال المأثورات من تاريخ الحضارات السابقة بالإضافة إلى المصادر السلفية الخاصة كالصوفية والشعراء والأدياء والصحابه. والغالب هو الشعر، يقرضه السادة والعبيد، الأحرار والجواري، العرب والروميات. ويجمع أبو حيان عدة أشعار فى مناسبات مختلفة حتى الملك وصاحب الدولة. وقد تحتوى الأشعار على بعض النظريات النفسية الحديثة^(٣). ومعظم الليالى مناقشات أدبية وأقلها مناقشات فلسفية، وأحاديث للظرفاء من الشعراء

(١) قال مزيد: كان الرجل فيما مضى إذا عشق الجارية راسلها سنة. ثم رضى أن يعضغ العلل الذى تمضغه. ثم إذا تلاها تحدثا وتناشدا الأشعار. فصار اليوم إذا عشق الجارية لم يكن له هم إلا أن يرفع رجلها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة، السابق جـ ٥٥/٢. وعن ابن سيرين كانوا يعشقون من غير ريبه. فكان لا يستكر من الرجل أن يجئ فيحدث أهل البيت ثم يذهب، قال هشام: ولكنهم لا يرضون اليوم إلا بالمواقعة، السابق جـ ٥٦/٢. وعن الأصمعي: قلت لأعرابي: هل تعرفون العشق بالبادية؟ قال: نعم، أكون أحد لا يعرفه؟ قلت فما هو عنكم؟ قال: القيلة والضمه والشمه. قلت: ليس هو هكذا عندنا. قال: وكيف هو؟ قلت: أن يتخذ الرجل المرأة فيياضعها. فقال خرج إلى طلب الولد، السابق جـ ٥٦/٢. يمكن أن يصبح هذا موضوع لاحدى الرسائل الجامعية، أخلاق المجون عند بعض الفئات الاجتماعية مثل الشعراء والصيادين والشطار والملامنية والقوايين والجواري بالتعاون مع أقسام الاجتماع.

(٢) أبو حيان: الامتاع والمواتسة جـ ٦٢/٢، جـ ٦٤/٣.

(٣) مثل عقده لوديب عندما أخبرت امرأة أن فيها قد اغتر (شعر). فقال للزوج: قَبْتَمَر تعنى بحو الخبز جـ ٥٠.

والتابعين والمحدثين والبخلاء والمقاليج والنحويين والضعفاء والعرج والمعلمين. البيئة أدبية والفلسفة أحد عناصر الأدب. والصوفية مع الأدباء من أصحاب الأقوال. فالأدب هو الثقافة الأولى التى فيها يصب باقى العلوم، الدين العلم والفلسفة والتاريخ. فالشعر ديوان العرب فى جاهليتهم، كما أن القرآن ديوانهم فى إسلاميتهم، فى ثقافة مركزية. ويستعمل القرآن الكريم كمصدر أدبى مع باقى الكتب المقدسة السابقة. ويبدو الأدب والثقافة سلوكاً شعبياً عاماً وثقافة شعبية عامة مثل تحليل كلمة «عم» لمؤانسة صاحب وإسباغة اللقمة والاقبال على الشأن. وفى معظم الأحوال هناك اتجاه إنسانى عام للمساواة والعدالة الاجتماعية، الأخلاق المختلفة بالأمزجة المتباينة والطبائع المتناقضة. وتكثر أسماء الاعلام المحلية. ويرسم أبو حيان عديداً من شخصيات النساك المحليين^(١).

وتفسر الأخلاق أحياناً تفسيراً فزيولوجياً حسب الطبائع الأربعة. فأخلاق الحرارة الشجاعة والبذل والغضب والذكاء. وأخلاق اليبوسة الصبر والثبات والبخل. وأخلاق الرطوبة اللين والسماحة والنسيان. وأخلاق البرودة البرودة والبلاهة والغلظة والنقل. وأساس الأخلاق خمسة: الشهوة، والطبيعة، والعادة، والشرع، والعقل جمعاً بين الجسم والعقل.

والحركة والسكون خلقان. الحركة أنواع: طبيعية، وبدنية، ونفسية، وعقلية، وفلكية كوكبية، والهيئة. ويدرك السكون بالحس والحركة والعقل^(٢).

٣- أخلاق للروح. وهى أخلاق الثنائية المتطهرة، أخلاق التضاد مثل أحوال الصوفية وتضاد "الإشارات الإلهية". ومثل أخلاق مسكويه وثنائياته والاخوان وثنائياتهم. كل أخلاق علوم الحكمة تعبر عن هذا الجانب فى الحضارة الإسلامية، الصوفى الإشرافى المخترب الذى يقوم على الثنائيات المثالية العقلية اليونانية. فالمثالية العقلية الوافدة هى الأساس النظرى الثنائية الصوفية الموروثة.

(١) مثل عاد، ومالك، وعمار، وحمة، وقزعة، وطفيل، وشمز، وقيق، ونشقى، السابق جـ ٣/٣٦

(٢) أبو حيان: الامتاع والمؤانسة جـ ٣/٢٠٠.

وبلاحظ توزيع هذه الثنائيات بين ثنائيات الجسم، والمعرفة، والقيم الفردية، والقيم الاجتماعية^(١). أكبرها الأخلاق الفردية ثم ثنائيات المعرفة ثم الأخلاق الفردية ثم ثنائيات الجسم. ويشرح ثنائية الإرادة والاختيار بالتضاييف. فكل مراد مختار وليس كل مختار مراد لأن الاختيار أوسع نطاقاً من الإرادة^(٢). الاختيار جولان وفوران، والإرادة فجأة ومباغطة. الاختيار سعة للتمكن، والإرادة تضيق. الاختيار بالحب والروية، والإرادة بالكره الشديد. الاختيار محبة، والإرادة شهوة. الاختيار إيجاب، والإرادة سلب. ويعتمد أبو حيان على التحليل اللغوي للمصطلح. الإراغة من راغ يروغ، والإرادة من راد يرود. والشهوة من شهى أشهى. والمحبة من حب أحب. فاللغة جارية على الوسع والتضييق. التوسع للاقتدار والاختيار، والتضييق للتحديد والتشبيه. واللغة بين الإيجاز والاطناب، بين

(١) ثنائيات الجسم		الحياة	١	اليقظة	٢	الصحة	٣	الاعتدال	٤	الحركة	٥
		الموت	١	النوم	٢	المرض	٣	الانحراف	٤	السكون	٥
		الحسن	١	الصواب	٢	الخير	٣	المعرفة	٤	العلم	٥
		القبح	١	الخطأ	٢	الشر	٣	النكرة	٤	الجهل	٥
		العقل	٦	النتبية	٧	الذكر	٨	الذكاء	٩	الحق	١٠
		الحمق	٦	الغفلة	٧	النسيان	٨	البلاهة	٩	الباطل	١٠
		اليقين	١١	الصدق	١٢						
		الشك	١١	الكذب	١٢						
		الرجاء	١	الشجاعة	٢	الحلم	٣	الوقار	٤	العفة	٥
		الخوف	١	الجبن	٢	السفة	٣	الطيش	٤	الفجور	٥
		الغبطة	٦	الصفاء	٧	الرشد	٨	البوار	٩	الثقة	١٠
		الحسادة	٦	الكرازة	٧	الغى	٨	الحصر	٩	الارتباب	١٠
		الطمعانية	١١	الوقار	١٢	التوقي	١٣	الطمع	١٤		
		التهمة	١١	الخلاعة	١٢	التهور	١٣	اليأس	١٤		
		العدل	١	السخاء	٢	الألف	٣	الاخلاص	٤	الاحسان	٥
		للجور	١	البخل	٢	الملل	٣	النفاق	٤	الامساء	٥
		النصح	٦	المدح	٧	الحب	٨	الهجر	٩		
		العش	٦	الذم	٧	البغض	٨	المسلو	٩		

أبو حيان: الامتاع والمؤانسة جـ ١٤٧/١-١٥١.

(٢) وهذا عكس ديكرت، أن الإرادة أوسع نطاقاً من الذهن طبقاً للخطيئة الأولى والنظرة الارادية.

الكناية والتصريح، بين الانجاز والابطاء ^(١). ومعرفة خصائص اللغة العربية ووقائعها وأساليبها في معرفة المصطلحات إبداع خالص.

ويشرح أبو حيان كل ثنائية بصرف النظر عن مستواها البدني أو النفسي أو الفردي أو الاجتماعي. ثنائيات الجسم الطبيعي وهو ما سماه الاخوان "الجسمانيات الطبيعية" ليست من الأخلاق مثل الحياة والموت، والصحة والمرض بل ويعتبر من العقل والحمق من أخلاق الجسم. والخلق ابن الخلق في الأخلاق الطبيعية. لذلك قيل "الخلق ابن الخلق". والبعض مرتبط بالبدن والنفس، ولا يوجدان على الإطلاق بل بالاضافة مثل الاعتدال والانحراف. والبعض الآخر يجمع بين الخلق الطبيعي مثل الخلق ولكن الأطراف تكون مكتسبة مثل الشجاعة والجبن، وهى من الأخلاق الفردية.

أما الثنائيات النفسية فغالبيتها ثنائيات معرفية منطقية مثل الصواب والخطأ، وهما حكمان للأقوال والأفعال. وليساً باطلاق بل اعتماداً على العقل. أما الاحسان والاساءة وهما من الأخلاق الاجتماعية، فلأفعال والأقوال معاً. والخير والشر حكمان عقليان. والخلق التابع للمزاج لا خلقان ولا خلقان مثل الحلم والسفة والطيش والوقار، والدمائة والكراسة، مزاجاً بالمران. وهى من الأخلاق الفردية. أما الجهل والعلم، والحق والباطل، والمعرفة والنكرة، والبيان والحصر فهى من الأخلاق المعرفية. وقد تتعلق المعرفة والنكرة بالقوى الغضبية والشهوية. ومنها ما يجمع الخلق والمزاج مثل الذكر والنسيان. وهما متعلقان بالقوى العالمة والبهيمية من قوى النفس. والغى والرشد ليسا خلقين بل من صفات الأفعال الحميدة والذميمة والرأى للعقل. وبعضها من صفات النفس الناطقة مثل الشك واليقين، والصدق والكذب للنفس الكاملة أو الناقصة.

أما ثنائيات الأخلاق الفردية فهى أحوال للقلب كما هو الحال عند الصوفية مثل الخوف والرجاء، والتوقى والتهور، والغبطة والحسد، والطمأنينة والتهمة. والبعض خلقان فقط مثل العفة والفجور، وطرفاها العصمة والعدوان، والتبعية والغفلة، وهما معرفيان،

(١) أبو حيان: الامتاع والمؤانسة ج ٣/ ١٠٥-١٣٧.

وطرفاهما الوحي والبهيمية. ومثل الذكاء والبلادة، والثقة والارتياب وهما معرفيان، والحركة والسكون وهما بدنيان.

وثنائيات الأخلاق الاجتماعية مثل الألف والملل، والنصيحة والغش. وبعضها خلق يستحق المدح والذم مثل السخاء والبخل. وبعضها خلقان بالفطرة، وبعضها صفات للفعل بالاكْتِسَاب مثل العدل والجور. ولا يشرحها أبو حيان كلها نظراً لبداهة بعضها مثل الحسن والقبح، والخلاعة والوقار، والمدح والذم، والطمع واليأس، والحب والبغض، واللهجة والسلو. والبعض رسمه أفضل من حدة مثل الغبطة والحسد^(١).

وتتكرر بعض الثنائيات ثم تظهر ثنائيات أخرى مما يدل على إمكانية الاسترسال إلى ما لا نهاية مثل العقل والحمق، العلم والجهل، التنبيه والغفلة، الذكاء والبلادة. وقد تتكرر أحد طرفي الثنائية دون الأخرى مما يدل على غياب التضاد الدقيق مثل الحلم والسخف، والحلم والسفة، واليقظ والغفلة، واليقظة والنوم، أو الجرأة والجبن، والشجاعة والجبن. وتتداخل الثنائيات الطبيعية مثل الحركة والصورة مع باقى الثنائيات الأخلاقية. ويحدث تراكم فلسفى إذ يحيل أبو حيان إلى الكندى وليس إلى الفارابى أو ابن سينا. وكلها منقولة على لسان عيسى بن زرة وليس أبى سليمان. ولا يهم أصحاب الأقوال بل الأقوال نفسها. لا يهم الشخص بل الموضوع. لا يهم السند بل المتن.

وتتكرر هذه الثنائيات من جديد فى معرض تحديد الألفاظ من لغوى أديب أكثر منها من حكيم فيلسوف. والشرح لا يتبع العرض ثنائياً. فلا يحتاج كل لفظ بالضرورة إلى تعريف. لذلك التعريفات للمعانى على اللغة مثل تحليل السيرافى للفظ الحلم، ولا فرق بين الحلم والتحلم^(٢). وتظهر بعد التعريفات مثل أن الأخلاق فى الخلق أعراض، والأعراض منها لازم ومنها لاصق. فالأخلاق أعراض على الطبيعة أى أنها مكتسبة، والمكتسبة منها ما يكون عارضاً ومنها ما يتحول إلى طبيعة نظراً لصعوبة

(١) السابق جـ ١٥٢/١-١٥٧.

(٢) السلسلة جـ ١٢٩/٣.

تحديد جامع مانع لها نظراً لتداخلها. فالفكر نفسه روية وظن ووهم وتذكر وتخيل. والبدية مرتبطة بالحس والاستبطاء^(١).

وتختلط الأخلاق مع الخلق إما بشدة أو بضعف أو بتوسط مما يسهل أو يصعب تغييرها. كما تختلف بحسب المزاج. ومع ذلك فالتحديد نافع ومثمر. والعادة حال يأخذ بها المرأ نفسه من غير أن تسرى عليها ما هو مألوف طبيعي. والطبيعة أشد رسوخاً وأثبت عرفاً وأبعد عن الانتقال. وأما العادة فجائزة وغير ضرورية الوقوع. الطبيعة هي الأصل، والعادة الفرع^(٢).

ويحاول أبو حيان تعريف أحد طرفي الثنائية اعتماداً على أبي سليمان أو عيسى بن زرعة عن طريق القسمة مما يدل على أن المترجمين حكماء وليسوا فقط نقلة. فالشجاعة مثلاً عند أبي سليمان إما شهوة للتخلي بالعفة أو غضبية شفاء من الغيظ أو منطقية للحكمة. وبالرغم مما يوحى ذلك بالقسمة الأفلاطونية إلا أن المصدر الداخلي أيضاً واضح في ظهور بعض مصطلحات الشيعة مثل العصمة. والرغبة إما بهيمية أو سبعية أو نطقية. والنطقية إما بالصفة أو المفارقة أو العصمة بشرية أو ملكية. وأحياناً يكون التعريف بنفى الضد مثل الحلم ضبط الفكر بكف الغضب. والعجب وزن النفس بأكثر من مثقالها، النظر في النفس بعين ترى القبيح جميلاً. والمعجب يدعى أن ما ينبغي أن العجب منه قد حصل له من غير أن يكون كذلك. والوفاء قضاء حق واجب، وإيجاب حق غير واجب مع رقة إنسية وحفيظة مرعية. والرغبة حركة تكون من شهوة يُرجى بها منفعة. وأحياناً يكون التعريف عن طريق تحديد الوسط بين طرفين. فالعدل هو القسط القائم على التساوى. والكآبة إفراط في الحزن. والعفة واسطة بين المفارقة والعصمة. والعصمة واسطة بين البشرية والملكية. والعجب وزن النفس بأكثر من مثقالها. والوسط أقرب إلى أحد الطرفين. والمهنة صناعة ولكنها إلى الذل أقرب. والصناعة مهنة ولكنها ترتفع عن توابع المهنة.

(١) السابق جـ ٢/١٢٧-١٤٧/٣٧٠.

(٢) السابق جـ ٣/١٢٨-١٢٩/١٣٣.

وأحياناً يتم وضع عديد من الفضائل والردائل فى مجموعة واحدة. كما اعتبر أبو سليمان الحزن والغم والهمل والأسى والأسى والجزع والخور من شجرة واحدة. ومن الأخلاق المذمومة الغضب والكذب والجهل والجور والدناءة. وقد تحدد المواقف الأخلاق فضيلة أم رذيلة. قد تكون فى بعض الردائل فضائل إذا وضعت مكانها الصحيح، وبعض الفضائل رذائل إذا وضعت فى غير مكانها. فالغضب لا يكون مذموماً إلا إذا أعمل فى غير أوانه وعلى غير ما يأذن الناموس. ولما الكذب ففيه أيضاً مصالح. كما أن الصدق ربما أفضى إلى كثير من المفاسد. فأخلاق المواقف هى التى تحدد الرذيلة أم الفضيلة (١).

سادساً: الأخلاق الاشرافية (ابن سينا).

وهى الأخلاق التى تقوم على إشراق الفضائل فى النفس، فضيلة المعرفة بالفطرة فى "حى بن يقطان"، والخلص من البدن فى "رسالة الطير"، والأخلاق النفسية فى "دفع الغم عند الموت" و"الحث على الذكر"، والفضائل الباطنية التى تذهب إلى ما وراء الشعائر مثل "الصلاة" و"الزيارة" وأخيراً الأخلاق العقلية فى "علم الأخلاق" و"العهد".

١- أخلاق الطبيعة والفطرة. وهى الأخلاق الطبيعية الفطرية التى صورها ابن سينا فى "حى بن يقطان". والمعنى الرمزى للعنوان أن الحياة ابنة اللقطة، وأن الحياة حياة الوعى الداخلى والضمير الخلقى. لذلك تظهر لغة البواعث "وانبعث من ذات نفسى". ونظراً لأهمية لفظ الحياة فإن الابن "حى" وأبوه "حى". هو اسم الشيخ وليس اسم ابن سينا. ودون تدخل المريد هى أقرب إلى "تكبير المتوحد"

وبالرواية شخصيتان، حى والشيخ الحكيم وحوار بين الاثنين، أقرب إلى الحوار مع الذات (المونولوج) منه إلى الحوار مع الآخر (الديالوج). وهو حوار بين العقل والغرائز. وبدأ الشيخ بالسلام يعنى الكرم والجد والاقبال على الآخرين. وهى سيرة ذاتية لحياة ابن سينا. فقد اشتغل أولاً بالعلوم الدينية ثم بحساب الهند والجبر والمقابلة ثم المنطق ثم العلوم الطبيعية والالهية. فالدين ليس طارئاً عليه، والحكمة الطبيعية والالهية متأخرة.

(١) السابق جـ ١٢٩/٣-١٣٢.

ربما كان اتجاهه إلى الاشتراق رد فعل على انخراطه في الحياة الدنيا وإفراطه في الشهوات والملذات. فالقصة أقرب إلى التجربة الشخصية والأزمة الروحية وكأنه الغزالي في "المنقذ من الضلال".

يهدف التأويل إلى تحويل العالم الخارجى إلى العالم الداخلى. وتتكرر نفس المعانى بصور مختلفة. ويأخذ المعنى رموزاً عديدة مثل قوى النفس مرة برموز المكان والاتجاهات فيه، ومرة بلغة الحيوان، ومرة بلغة الأفلاك. وأحياناً تتضارب الدلالات. فالمشرق مهد النور والصورة فى مقابل المغرب مهد الظلمة والمادة. وفى نفس الوقت شياطين المشرق هى القوة المتخيلة. وهى أقرب إلى السلب منها إلى الإيجاب.

ويرمز إلى العقل الذى اكتسب التجارب من السنين والرحلات. والرفقة ليست اشخاصاً بل الشهوات والغرائز وسائر القوى الانسانية. فالقصة نظرية فى التحرر والخلاص الفردى. والسؤال هو: والآن يكون التحرر من أى قيد؟ من الشهوات والغرائز أم من القهر والفقر والتخلف والجهل وعدم الولاء واللامبالاة؟

والرمز أكثر قدرة على التعبير من التصور، أقل قدر ممكن من اللفظ مع أكبر قدر ممكن من المعنى. ومن شدة التقابل تخرج بعض العبارات اللاذعة مثل القوة التى على اليسار، وهى القوة الشهوية القذرة.

وأحياناً يكثر الرمز ويتكرر ويغيب عنه الوضوح فلا يحقق الهدف منه. ولم كل هذا الرمز وقد عبر ابن سينا من قبل عن مضمون الفلسفة الاشراقية فى عديد من الرسائل دون صعوبة أو ألغاز للتعبير عنها مرة ثانية رمزاً دون ما حاجة للتخفى من القهر السياسى؟

وهل يجوز تأويل الرمز أم الابقاء عليه بلا تأويل فى وقائع محددة بتغير من عصر إلى عصر من أجل إعادة القراءة؟ فقد يكون القيد الآن ليس للشهوات والغرائز بل الفقر والقهر والاستعمار والتخلف والجهل والتبعية والتفكك واللامبالاة.

وموضوع القصة الاشراق والتجرد والتخلي عن الحواس وليس اتفاق الدين والفلسفة كما هو الحال عند ابن طفيل. ففي الفلسفة بعض الجوانب الصوفية، وفي التصوف بعض الجوانب الفلسفية. إشراق الحكمة عند ابن سينا فى مقابل حكمة الاشراق عند السهرودى، وبهذا المعنى سمي ابن سينا فيلسوف الاشراق حقيقة أو صاحب الحكمة المشرقية مجازاً.

وتظهر بعض العبارات المسيحية مثل "وجهى إلى أبى" وبها الصور الحيوانية والسر فى الكتاب المطوى المختوم مثل رؤيا يوحنا. فهل هناك اتصال تاريخى أم أنه أنبيات معروفة فى تاريخ الأديان كما هو واضح عند إخوان الصفا. كما توجد بعض الأجواء اليهودية مثل العلاقة الخاصة بين الله وبنى إسرائيل كما عبر عنها نشيد الانشاد^(١).

والقصة رمزية تقوم على الثنائية المتقابلة المعروفة فى الاشراق بين النفس والبدن، والروح والمادة، والنور والظلمة، والرى والعطش، والستر والكشف، والحجاب والسفور. هى معركة بين الحس والعقل، بين القوى النفسية والقوى الناطقة التى تنتهى بانتصار أحدهما على الآخر. والرفاق هى الغرائز والعقل، والامام قوة التخيل، واليمين القوة الغضبية، واليسار القوة الشهوانية، والمموه القوة الخيالية، والهدى طريق العقل. والإنسان مع رفاقه أى قواه للسياحة والمنتزهات. ويظهر الشيخ حى بن يقطان رمز التجارب والعقل كالشيخ مع المريد عند الصوفية. ويبدأ الحوار بعد بداية الشيخ بالتحية. اسمه حى بن يقطان من بيت المقدس. حرفته السياحة. وجهته إلى أبيه. أخذ منه مفاتيح العلوم. وانتهى إلى علم الفراسة، علم الظاهر والباطن، وينقد الشيخ الخيال والوهم والحس والقوى الغضبية والشهوية. ويؤثر الابتعاد عن هذه الصحبة رفاق السوء وعدم ترك الزمام لهم.

وقد أسس ابن سينا علم الفراسة لمعرفة أثر النفس فى الجسم وهو موضوع رسالة "الفعل والانفعال". ويعنى هذا العلم الظاهر الذى يكشف الباطن، ذريعة لابن سينا لشرح

(١) ابن سينا: حى بن يقطان، تحقيق وتعليق أحمد أمين، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٠، المقدمة ص ٣.

للفراسة التى أسسها والتى لم يكتب فيها رسالة كما فعل الرازى والتى يعطيها تأويلا صوفيا. والفطرة والفراسة ليسا فى حاجة إلى تأويل.

وحدود الأرض الخافقان، وهما السماء والأرض. والصورة والهيولى هما المشرق والمغرب أى الجهات الأربع. والأقاليم هى الأنواع المعدنية والنباتية والحيوانية والانسانية. والأفلاك العشرة لكل فلك قوم ولهم صفات. وتسطع الشمس بين قرنى شيطان. وهى القوى المدركة والقوى المحركة. والأمة قبيلتان، بهائم شهوية وسباع غضبية. والشياطين التى تطير هو الخيال. والإنسان يطير. والأفعوان له رأس خنزير، ونصف إنسان، رجل إنسان وكف إنسان وكأنها إحدى التماثيل أو الصور (١).

وتأخذ الجغرافيا الطبيعية معانى الأقاليم الروحية. وأسماء الأماكن والاعلام رموز تربوية. فالتقابل بين المشرق والمغرب تقابل بين الهيولى والصورة. والمشرق لا يسكنه أحد. والعين وحدها ربع المعمورة. إنما يعنى دار الهجرة والعزلة والتوحد. والسياحة الجولان الروحي. بلده بيت المقدس أى المعراج إلى السماء. وبلاذ برزة هى الأعضاء والبدن وعمل قواه. والبرزة تعنى النهضة والتيقظ وراء البدن. والمنترهات هى الأمور البعيدة أى المقولات. ولكل فلك مدن وسكان. والأرقام تدل على الأفلاك. فأحيانا يكون الرمز بين الأفاق مثل الأفلاك أو من النفس مثل القوى أو من الحرث مثل المموه والهدى واللمعة. وأحيانا من الحيوان. ويجمع ابن سينا بين علم الفلك وعلم التنجيم كما يفعل إخوان الصفا. فالتنجيم هو الدلالة الباطنية للنجوم.

والسدود استحالة العقل التخلص من الخيال والحس. والخافقان عالم المركبات المحسوسة فى الأرض وفى السماء. والمدان القريبان الهيولى والصورة، الأولى من الغرب والثانية من الشرق. والبرزخ مدد للعقل الهولانى فى المعارف. واللمعة نور الكائنات الفاسدة المستمدة من أقوال الصورة والأقاليم الأنواع المعدنية والنباتية والحيوانية والانسانية. والأمور الجرام السماوية وأقربها القمر، وهو أولها. وآخرها الفلك التاسع.

(١) ابن سينا: حى بن يقطان ص ١٠١٧/٨ - ٤٠/١٨.

وفوقه إقليم آخر، علة العلل، وهو الله الذى لا يكون ولا يفسد. والمدن الثمان القمر، صغار الجثث، حثات الحركات. والمدن التسع عطارد، الكتابة، والنجوم والثيرنجيات والطلسمات والمصانع الدقيقة والحركة الثقيلة.

والمدن الثمان الزهرى والصحابية والمرأ والخير والقصف والطرب. والمدن الخمس الشمس، بسيطة فى الجسم. والمدن السبع المريخ، الافساد فى الأرض، والمشترى المغالاة فى العفن، وزحل السر، وفلك البروج اثنا عشر قسما. والفلك التاسع الروحانيون والملائكة.

والملك النفس الانسانية، والخازن الآخر القوة الوهمية، والقرن الأول (الظلم والغشم) القوة الغضبية. والقرن الثانى (الفحشاء) القوة الشهوانية. والقرن الطيار القوة المتخيلة. والجن القوى المتعلقة بالحواس. والحفظة الكرام الكاتبين قوى النفوس الانسانية. والملوك العظام النفوس الفلكية. والقرن الذى يطير القوة المدركة فى الإنسان. والقرن الذى يسير القوى المحركة. وقبيلة البهائم الشهوية. وشياطين المشرق القوة المتخيلة، والغالب النفس الانسانية. وسكك البرية الخمس الحواس الخمس. والأنبياء فى كتاب مطوى مختوم. وهناك طوائف من الملائكة الأرضية ميمنة وميسرة كالجن والانس، والحفظة كرام كاتبون. اليمن إمارة واليسار عمالة. وهناك هبوط إلى الأرض ورقى إلى السماء فى حركتى الذهاب والاياب. والاشراق النهائى فى الفناء والصوفية، مجوهرات وشباب وبهجة.

ومن ثم يتراوح الرمز بين الإنسان والدولة. الدولة لها رموزها مثل البريد وسككه الخمس والملك والقواد والموظفون. والاعلام له خازن يعرض على الملك الأسرى. والإنسان مثل الدولة من حيث الرئاسة والأعوان. الإنسان دولة صغيرة. والدولة إنسان كبير. فالرمز له مدلول سياسى بالاضافة إلى المدلول الاشراقى مثل القرن الأول الذى يدل على الظلم والغشم سياسيا والقوة الغضبية إشراقيا.

وفى "رسالة الطير"، وهى قصة رمزية أخرى، يبدو ابن سينا صوفياً رمزياً خالصاً يفوق الغزالي الذى له أيضاً رسالة بنفس العنوان. هى رسالة صوفية خالصة يعبر فيها ابن سينا عن إطلاق سراح النفس من القفص، من السجن إلى الحرية، وفك رباط الأرجل والطير حتى الملك والرئاسة. فقد نصب قوم الشراك للطيور فسقطت فيها. إلا أن بعض الطير أخرجت رؤوسها وأجنحتها من الشراك وبرزت تطير وفى أرجلها بقايا الحبال. لقد فتح باب القفص ولكن الأرجل ما زالت فى الحلقة، وطارت الطيور فوق الجبال، جبل الاله. وله ثمان شواهد. ووصلت حتى السابع. فوجدت مدينة عليها ملك عظيم يكشف الضر عن المظلوم. ويسكن فى قصر به صحن فسيح. وللملك جمال يوقع فى حبه. جماله يصعق الإنسان. ولا يفوق إلا بالأدوية. ولا يقدر على حل الحبال من الأرجل إلا رسول. ويستريح الطير فى المروج.

يبدو ابن سينا هنا غير صاحب الشفاء. فقد تحول من الخطاب الفلسفى الصورى المجرى إلى القصص الصوفى الرمزى^(١). ويبدو ابن سينا الطبيب الذى يفوق الإنسان المصعوق بجمال الملك بالأدوية. ومع ذلك فتجربة السجن والخلص تجربة فعلية يؤيدها الواقع السياسى والاجتماعى. وقد سجن ابن سينا وعاش تجربة السجن. سجن النفس فى البدن مثل سجن المواطن فى الدولة. وليس الخلاص إطلاق النفس خارج البدن فهذا هو الخلاص بالموت الطبيعى أو الاعدام القسرى بل بتحرير البدن وإطلاق سراحه. وسفر الطير هو إطلاق حريته من السجن إلى العالم الفسيح. والملك فى النهاية صورة الدولة والأمير الله والسلطان يكشف عن البنية السياسية المرسله. والكل يسعى إلى الملك ولا أحد يسعى إلى الشعب. الكل يبغي القمة ولا أحد يتوجه إلى القاعدة. الكل يتوق إلى الجمال ولا أحد ينظر إلى القبح. الكل يهرع إلى داخل القصور ولا أحد يبحث عن سكان القبور^(٢).

(١) ابن سينا: رسالة الطير: تحقيق المهرنى، ص ٤٢-٤٨.

(٢) وذلك مثل التقابل فى توما الاكوينى بين "الخلاصة اللاهوتية" و"الرد على الأمم" من ناحية وحياته الشخصية كصوفى من ناحية أخرى.

ورسالة "العشق" بنية محكمة، مقدمة وسبعة فصول طبقاً للعدد الرمزي. تبدأ من العشق الطبيعي الحيوى مروراً بالعشق الانسانى حتى العشق الالهى. يبدو العشق أولاً قوة كونية فى كل الهويات. وهو أقرب إلى العشق الميتافيزيقى. ثم يتجلى فى الجواهر البسيطة غير الحية وهو العشق الكونى. ثم يبدو فى الصور أى النفوس النباتية ثم فى الجواهر أى القوى الحيوانية. وهو العشق الحيوى. ثم يأتى عشق الظرفاء والقيان والأوجه الحسان، وهو العشق الانسانى. ويبلغ العشق الذروة فى النفوس الالهية فى العشق الالهى، وهو الاختيار الأعظم.

العشق الميتافيزيقى ناتج عن التراتيب فى الوجود. فكل مرتبة إما فائقة بخاص الكمال أو محققة بغاية النقص أو متفاوتة بين الاثنين. والصفات الالهية لا تفاوت بينها فى الذات. والعشق الكونى للبساتن غير الحية، وهى الهوى والصورة والأعراض عشق لا إنسانى. والعشق النباتى الحيوانى نظراً لوجود النفس النباتية والحيوانية. والعشق الانسانى طبيعى للوجه الحسان، واختيارى نظراً لوجود الحرية الانسانية. والعشق الالهى بين العبد والمولى، وعشق المعقولات والنزاع إلى المهمات، وحب الآخرة وجوار الرحمن. وفى كل واحد منها خيرية أى المثل الأعلى. وفيها يدخل الفن والموسيقى والشعر. ولا تستحق النفوس الالهية البشرية والملكية أخلاق التآله ما لم تقس بالخير المطلق. تعشق النفوس المتألّهة العلة الأولى. وكما لاتها تصور المعقولات على ما هى عليها. والنفوس البشرية أقل من الملكية. الملكية تحرك الجواهر العلوية. والخير الأقصى هو المعشوق لكليهما معا^(١).

العشق ارتقاء من العيى إلى المجرّد، ومن الهوايات إلى الكون، ومن النبات إلى الحيوان إلى الإنسان إلى الله. ومباضعة الأنثى المحرمة بالشرع قبيح ولا يستحسن إلا الرجل مع امرأته أو مملوكته. إذ يتفق الشرع مع الجمال. وماذا الآن وقد انتهى عصر المملوكات وبدأ عصر الصداقات عن رضى متبادل؟ يتم عشق الصور الحسنة، معانقتها

(١) ابن سينا: رسالة العشق ص ٢٧-٢٨.

أو تقبيلها أو مباضعتها، وليس المقصود هنا توليد المثل. وقد يكون العشق الإنساني لقبيح الصورة، حسن الشمائل أو لحسن الصورة قبيح الشمائل^(١). والعشق الإلهي أيضا محدد للعشق الميتافيزيقي عن طريق النفي إذ لا يوجد تراتب في الوجود في الذات الإلهية. ويستعمل لفظ الإلهي مجازيا في الإنسان والملاك أو في حالة الصفا والتجرد. ويحال إلى الصوفية وحديثهم عن الاتحاد. وهو عشق النفوس البشرية وملكية الخير الأقصى الذي لا يتجلى في ذاته. سماه الفلاسفة صورة العقل أو تجلياته في الملك الإلهي. تعشقه النفوس الإلهية بلا توسط، وتحرك تشبها به. يرضى الملك الأعظم على من يتشبه به ويسخط ملوك الدنيا على من يتشبه بهم. ويمكن معرفة ذلك بالاستقراء أى بالتجارب الصوفية ثم بالبرهان الكلى كما هو الحال في حكمة الاشراف.

ابن سينا هو واضع التفسير الرمزي صراحة من الحكماء بعد أن مارس الكندي التفسير العقلي كما هو الحال عند المتكلمين لاثبات خلق العالم، سجود الجرم الأقصى أو حشر الاجساد. وكتب ابن سينا في ذلك "رسالة في اثبات النبوات وتأويل رموزهم" ورسالة "الحروف". والآيات في "الاشارات والتنبهات" علامة وليست نصوص للغة. ويؤول اللمس والمعانقة تأويلا روحيا وتعنى التقارب والاتحاد والشعور بالنسيم المشترك بعيداً عن الشهود الحسى.، والصلاة والصيام رموز في حاجة إلى تأويل. والنعيم الحسى كالحور العين مرتبة متوسطة بين النعيم الدنيوى والنعيم الأخرى. والبرزخ وأمور المعاد كلها أمور مغلقة، لها دلالات كثيرة في شرحها النجاة، وفي تخويفها الهلاك.

وبطبيعة الحال، يفرق ابن سينا العامة والخاصة. فلا يجب انكار ما تنبته العامة. العامة قائمة على الخوف، وفي حاجة إلى تعويض. ولا يجب اثبات ما ينفيه الخاصة قبولاً للدليل العقلي. يجب اذن رفض التكذيب والتصديق، والتوقف عن الحكم كخطوة للمراجعة والتأمل والنظر، ومقارنة الحجج بالحجج المقابلة، رفض ملاحدة الفلاسفة وفي نفس الوقت عدم اذاعة العلم للعامة. كما يبدو الرمز في الأسلوب في آخر "الاشارات

(١) وقد صور ابن سينا حب قبيح الصورة حسن الشمائل في رواية "سيرانو دى برجراك" في شخصية سيرانو، وحب حسن الصورة قبيح الشمائل في شخصية كرسيتيان.

والتنبيهات" وطريقة مخاطبة القراء، الاستكاف من العامة، والخوف منها، والدعوة لنقاء السرية، وترك المجتمع لخلاص الفرد، والبعد عن العالم للقرب من الله. أقوال الحكماء مسلمين أو غير مسلمين الغاز ورموز طبقا لفهم العامة من أجل دفعهم إلى الفضيلة وإبعادهم عن الرذيلة^(١).

وقد أتى الشرع لمخاطبة العامة (الجمهور) لأنها لا تقدر على التوحيد الفعلى الخالص. لذلك أتى التوحيد تشبها للبعض، وتنزيها للبعض الآخر. عاماً للبعض وخصوصاً للبعض الآخر. وإذا كان التوحيد تشبها فالأولى أن تكون كذلك باقى العقائد. ويتصور الجمهور الملائكة وإن لم يجرؤ على التصريح به. فهم بالنسبة له أشقياء لا لذة لهم ولا راحة، لا يأكلون ولا يشربون ولا يتكلمون، ويسيمون أثناء الليل وأطراف النهار. لا يفترقون ولا يثابون. وإن اعتقدوا خلاف ذلك كرها طوعا للشرعية وهو أنهم معذبون لأن السعادة الحقيقية واللذة الروحانية غير مفهومة أصلا وإن اعترف بعضهم بها قولا^(٢).

٢- الأخلاق النفسية. والهدف منها السيطرة على الانفعالات مثل الخوف من الموت، والحث على الذكر، ونيل السعادة. كتب ابن سينا رسالة "دفع الغم من الموت" وهي تجربة إنسانية خالصة فى الوافد والموروث على حد سواء، سواء موت سقراط أو لكل أجل كتاب^(٣)، وليس بناء على مجرد سؤال.

والخوف من الموت إحدى حالات الخوف. والفلسفة هى التحرر من الخوف أو تعلم الموت بعبارة أفلاطون. هو خوف عام من النهاية والمصير وليس خوفا خاصا من شئ معين، ولكنه أشد من الخوف الخاص لأنه خوف ميتافيزيقي، خوف وجودي^(٤).

(١) ابن سينا: معرفة النفس ص ١٨٧، المبدأ أو المعاد ص ٢٥٤، الاشارات والتنبيهات، النمط العاشر ص ٢٤١-٢٤٢/٢٥٥-٢٥٦، الأضحوية ص ٤٢-٤٣.

(٢) ابن سينا: الأضحوية ص ٤٤-٤٥/٦١-٦٦، العشق ص ١٧.

(٣) فى إحدى اجتماعات الجمعية الفلسفية الفرنسية عبر جابريل مارسل عن خوفه من الموت بطريقة الوجوديين. فرد عليه ليون برنشتيغ آخر المثاليين "الموت خبر ينشر فى آخر صفحة فى الجريدة ولا أقروه".

ويعرض ابن سينا للأسباب المحتملة للخوف من الموت لا فرق بين واد وموروث. وهى سبعة. الأول الجهل بمعنى الموت على الحقيقة. فالموت هو ترك النفس استعمال أعضاء البدن. والنفس جوهر غير جسماني، يبقى بعد فناء البدن لأنها أشرف وهو أحسن طبقاً للتائية التقليدية. الثاني الجهل بمصير النفس. وهو ليس خوفاً من الجهل. وهى حجة جدلية منطقية نفسية لا تنفي وجود المشكلة ومن ثم لزمت ضرورة المعرفة لأن المعرفة تذهب الخوف. لا خوف من الموت لأنه تمام حد الإنسان. فالإنسان حى ناطق مائت. والموت تمامه وكماله^(١). ويستحيل الحد إلى الجنس والفصل لأنه مركب. وهى حجة منطقية صورية. لذلك حزم الحكماء أن الموت موتان: إرادى وطبيعى. والحياة حياتان: إرادية وطبيعية. الموت الإرادى إماتة الشهوات، والحياة الإرادية ما يسعى له الإنسان فى الدنيا. والحياة الطبيعية بقاء النفس. والثالث انحلال النفس بانحلال البدن وبقاء العالم بعده أى الجهل ببقاء النفس ومعادها. وهو خوف من الجهل وليس من العلم، من المجهول وليس من المعلوم. فالعلم ببقاء النفس يبدد الخوف. والرابع ألم عظيم أشد من ألم الأمراض وإن كانت تؤدى إليه. والألم للادراك، والادراك للحى. والحى هو القابل لأثر النفس. والجسم الذى ليس به أثر النفس لا يألم ولا يحس بالموت. وهى حجة ضعيفة لأن الألم قبل الموت وليس بعد الموت. والخامس العقوبة التى تحل بالإنسان بعد الموت، وهو ليس خوفاً من الموت بل من العقاب. وهى حجة جدلية بأن الخوف من العقاب يأتى من الايمان بالحياة بعد الموت والاعتراف بالحاكم العدل. الخوف من الذنوب لا من الموت، والقضاء على ذلك هو تمثل الأفعال الحسنة فى الدنيا. والسادس للمصير بعد الموت. وهو ليس خوفاً من الموت بل من المجهول والعدم المطلق. ويبدد بمعرفة أمور المعاد وخلود النفس. والسابع والأخير الأسف على ما يترك الإنسان من مال وفتيان. والحزن لا طائل منه. والإنسان فاسد فان. ومن أحب ألا يفسد فقد أحب ألا يكون^(٢).

(١) وكما عبرت عن ذلك سيمون دى بوفوار فى "كل البشر فانون".

(٢) وهذا هو الذى سماه الوجوديون الوجود من أجل الموت (هيدجر) أو الوجود الهش (مارسل). =

والنتيجة إذن أن الموت ليس يردئ. إنما هو الخوف من الموت، ويكشف الوصف عن فلسفة ظاهرية وجودية بلغة العصر وإبعاد الفكر من السلطة وحياة الناس. وفي نفس الوقت يقوم على الاستدلال والاتساق ورفض التناقض. والدليل المقابل إثبات بقاء النفس بعد تجردها من البدن. لذلك يجوز التصديق على الميت لأن النفس واحدة. وبالتالي يتحول للشرع إلى فلسفة، والنص إلى عقل، والوحي إلى تجربة. الموت ضرورة وإلا لما اتسعت الأرض للبشر. وضرب المثل بأولاد على حجة شيعية تبرر الشهادة. كما أنها حجة كمية. والأرض تتسع لأضعاف أضعاف الخلق.

"والحث على الذكر" بين علم النفس وعلم الأخلاق في الطريق إلى الدين من أجل بلوغ مرتبة الواصلين. والبشر لا ملائكة ولا حيوانات بل إن أكثر الحكماء والأنبياء الذين لا يعترفهم خطأ أو سهو هم أيضا بشر. والذكر المقصود هو الذكر باللسان. والغاية منه قمع هواجس النفس وإيقاظها من سباتها. الفكر على الذكر استخلاص النية من المداجلين. والذكر على الفكر تخليص للتخييل من الهائمين. والتخلي عن الذكر والفكر للانابة إلى الله، والاستسلام الكلي له. وهو معنى آية ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا سَنُهْدِيهِمْ سُبُلَنَا﴾، ونسيان الخلاف والاستغراق في الله.

ويصح الذكر بزم الحواس، وضغط صولح النفس، والرقاية على حديثها والقبضة على السر. فإذا حدث الذكر نبت في السر، وبرزت عروقه في القلب، وطلعت أعصابه في الغيب، وأعترت المعارف في النفس، وطالع كل غصن وعرق في اللسان والسمع والبصر واليد والرجل وهو ما يسمى هداية السبيل. فالذكر يجعل الله سار في باقى البدن والأعضاء، في الحواس والقلب، في العقل والنفس. وتكون النتيجة خروج العبد عن حراسته ودخوله في حراسة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. والترقى في درجات ست حتى الوصول إلى الله، من المجاهدة إلى الاستغراق إلى التصلع إلى التجلى إلى المشاهدة إلى المراقبة. وتعادل المجاهدة أول الدرجات المشاهدة خامسها في طريق السكينة (١).

= ابن سينا: رسالة في دفع الغم من الموت، تحقيق مهتر، ص ٥٧-٤٩.

(١) ابن سينا: في الحث على الذكر ص ٢-٣. وقد وضع الناشر الهندي آية ﴿إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾-

والسؤال هو: هل هناك تعارض بين الفكر والذكر ليتسلط أحدهما على الآخر أم أنهما شيء واحد. فالذكر لا يكون إلا بالتفكير وإلا كان مجرد تمتمة باللسان وعدا بالأصابع كما يفعل ما سكوا السباحات؟ وهل الحواس مدانة لارتباطها بالشهوات؟ أين الموقف الطبيعي للإنسان؟ وهل وظيفة الذكر قمع هواجس النفس أم تحرير الطبيعة؟ أليس هذا استبعادا وتخليصا للنفس وتسكينها للغير وإعطائها الرضا الزائف والاطمئنان الخادع؟ وهل الذكر باللسان أم بعمل يحقق الشريعة؟ ومن ثم يكون السؤال: هل سلاح ذكر الله حقيقة أم وهم؟ كل ذلك صور فنية لهداية السبيل في صوره العضوية، بروز العروق في القلب، طلوع الأغصان من الخيش. وهل موضوع العلم الوصايا والحث على الخير أم المنهج والشرح والتحليل والتفسير؟

وتتحول الأخلاق النفسية إلى أخلاق دينية عن طريق أثر العقائد في البناء النفسي للإنسان. ومقدار الخوض في العقائد هو الدعوة المجملة للتوحيد والعدل. فالعدل هو الأساس الأخلاقي للتوحيد، والتوحيد هو الأساس العقائدي للعدل. وفضيلة الشريعة مذهبها في المعاد.

والشيء الأول بالشيء يفيد كمالات إن كان بالحقيقة فحقيقى وإن كان بالظن فظنى مثل استحقاق المدح والقدرة وبقاء الذكر. فهذه كمالات ظنية. أما الربح والسلامة ورضا الله وحسن معاد الآخرة فهي كالأشارات حقيقية لا تتم بالقصد وحده. وهنا تبدو أشعرية ابن سينا في جعل قانون الاستحقاق ظنيا وأمور المعاد يقينية. وهو تناقض لأن قانون الاستحقاق إنما يتم في المعاد. فإذا كان المعاد نموذج اليقين فإن الاستحقاق يحدث فيه. وتظهر بعض قيم المجتمع التجارى في تصور الربح والسلامة والخير العميم باعتبارها أخلاقا دينية. ويستعمل لفظ الشريعة كلفظ مجمل يشمل العقيدة والشريعة معا كما يفعل ابن رشد.

= إحصاءاً بأن الموضوع تنظير للموروث وليس تمثلاً للوافت. وأيضاً: الشفاء: الآلهيات جـ ٥١/٢. ويمكن إجراء رسالة جامعية عن "التأويل عند ابن سينا".

ولما جعل ابن سينا الأخلاق الدينية كلها مركزة في أمور المعاد جعل العلوم تشترك كلها في منفعة واحدة هي تحصيل الكمالات الانسانية بالفعل مهينة إياها إلى السعادة الأخروية. فالعلم أيضاً طريق إلى الله. وتشترك الفلسفة والدين في معرفة الفرق بين الخير والشر، الضار والنافع. وكانت رغبة الحكماء في السعادة الأخروية وليست في السعادة الدنيوية، في سعادة الروح وليست في سعادة البدن.

وقد تمت صياغة أمور المعاد بطريقة يستحسنها الجمهور، والثواب والعقاب بالطريقة المستحسنة عند العامة، والترغيب والترهيب دون المعانى العقلية المحصنة والسمات الروحانية التي لا يدركها إلا الحكماء. وصورت للذات طبقاً للحواس الخمسة. فالنكاح جزء من حاسة اللمس. وهور عين، وولدان مخلصون وفاكهة مما يشتهون، وكأس معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وجنات تجري من تحتها الأنهار، من لبن وعسل وخمر وماء زلال، وسرر وأرائك، وخيام وقباب فرشها من سندس واستبرق، وجنة عرضها السموات والأرض، والراحة الروحانية، والخلو من الأحزان والمخاوف، والدوام على الفرح والسرور والنشاط. وإن العام من البشر إذا دعوا إلى الخير والعدل الإنسانيين فكأنهم دعوا إلى أمر خلاف طبائعهم البشرية وحركات نفوسهم الحيوانية الغالبة على النفس النطقية فلم يستجيبوا لها إلا قهراً ورعباً. وكما استحال أن يقوم بذلك فرد واحد استعمل الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب. للمسي السعير والزمهرير والزبانية والسلاسل والأغلال، وأكل الضرير، وشرب الصديد، وتكميغ مقامع الحديد إياهم، وتبديل جلودهم حتى لا يفنى عقابهم؟ كذلك وجب تعزيز الثواب والعقاب على هذا الوجه كما فعل الرسول (١). ورؤية الله شرعية كما هو الحال عند الأشعرية وكشف الحجاب وكما هي

(١) "وتصوير الملائكة في أحسن صورة يتخيلها الجمهور دون المعانى العقلية المحصنة للسمات الروحانية المسيحية التي لا يتخطى إليها دون عقول الحكماء. ثم ترغيب الجمهور وترهيبهم بالإشارة بالثواب والانداز والعقاب، وتصوير السعادة الثوابية لا بالصورة الالهية الجائلة الفارقة التي هي عليها بل بالصورة المفهومة عندهم المستحسنة لديهم وهي اللذة والراحة وتصوير الشقاء على مقابلة ذلك. وتقسيم اللذة إلى المبصرة والمسموعة والمشمومة والملموسة والمطعمومة والنكاحية من الملموسة، وإشباع القول في أسباب كل واحد منها من هور عين، وولدان مخلصين، وفاكهة مما يشتهون، وكأس من =

ثابتة في الكتاب^(١). يبدو أن ابن سينا ينقد الجهمية التي تنفي الرؤية والمعتزلة التي تؤولها. وإذا كان ابن سينا يؤول المعاد فلماذا لا يؤول الرؤية؟ والغريب أن ابن سينا يجعل النكاح لذة اللمس وحده دون البصر أو الشم أو الذوق أو السماع، رؤية الحبيب، وشم عطره، وتذوق شفتيه، وسماع صوته. وهو معروف في تحليل الكيفيات الحسية في نظرية الوجود في علم الكلام^(٢).

ومن العقائد الدينية الداعية إلى الراحة النفسية العناية وقبول الشر كجزء من القضاء الإلهي. وتعني العناية كون الأول عالما لذاته بما عليه الوجود في نظام الخير، إرادة الخيرات الكائنة عن هذه الأشياء إرادة أولية لأنه ليس من الحكمة ترك الخيرات الفائقة الدائمة. العناية إذن إدراك الذات قبل أن تكون عناية بالآخر، من ضرورة الذات قبل أن تكون من احتياج الموضوع. العناية أقرب إلى الفيض منها إلى التدبير، وإلى الواجب أكثر منها إلى الحق.

وتظهر العناية الإلهية أولا في الأجرام العلوية ابتداء من الجرم الأقصى الذي يسميه أصحاب الشرائع العرش طبقا لظاهرة التشكل الكاذب. فهي أكثر الأشياء قبولا. وقد جرى على لسان أكثر الأمم أن الله على السماء وعلى العرش، وإليه ترفع الأيدي للدعاء.

لذلك لا تؤخذ الأمور الواردة في المعاد في الشرائع على ما هي عليه وإلا لزم منها أمور شنيعة نظرا لخطورة التفسير الحرفي للمعاد مما قد يؤدي إلى إنكار التوحيد والمصدر الإلهي للوحي. ومن مصلحة الجاهل ألا تكشف له الأمور وإلا نظر إلى الشرائع الإلهية بعين الاستخفاف، وهي مقدسة عن ذلك. ويتم الحديث عن العلية الإلهية

= معين، لا يصعدون عنها ولا ينزفون، وجنات تجري من تحتها الأنهار من لبن وعسل وخمر وماء زلال، وسرر وأرائك، وخيام وقباب، فرشها من سندس واستبرق، وجنة عرضها السموات والأرض، وتصوير ذلك بصورة يفهمونها ويتمثلونها الأضحوية ص ١١٢ - ١٢٥.

(١) ابن سينا: الشفاء، الإلهيات ج١- ١٧/٣٩٤-٤٢٤، النجاة ص ٢٩١-٢٩٢، الأضحوية ص ٥٩-٦١.

(٢) من العقيدة إلى الثورة ج١، الفصل الرابع: نظرية الوجود ص ٥١٤-٥٢٧.

بالجليل دون الدقيق ووضعها بما يستحسن الجمهور^(١). ويستعمل ابن سينا مثل الاخوان الديانات المقارنة دون تفصيلها وكأن الفكر الدينى له بنية واحدة، ويقوم على تجربة إنسانية واحدة. وتلك ميزة الشريعة الاسلامية على باقى الشرائع المجوسية والمانوية^(٢).

وينتج عن العناية سؤال "كيفية دخول الشر فى القضاء الالهى"^(٣). فعناية البارى لكل على سبيل عناية كل علة بمعلولها مباشرة أو عن طريق الأسباب المتوسطة. وأحوال العالم بقياس بعضها إلى بعض تحدث فى النفس صورة اعتقاد ردى أو كفر أو شر فى نفس أو بدن فى إطار النظام الكلى الضرورى. الشر إذن رؤية واعتقاد وليس له وجود فعلى، رؤية من أجل النسق الكلى للعالم، الجزئى داخل الكلى. فليس من الحكمة الالهية ترك الخيرات الثابتة الدائمة والأكثرية لأجل شرور فى أمور شخصية زائلة.

٣- الأخلاق الباطنية: وهى الأخلاق التى تدل على الجانب الباطنى للشرائع. وتعتمد على التأويل فى مقابل التنزيل. وهى قضية الكم والكيف. الصلاة الشرعية أعداد وأوقات وهيئات وأركان كالقراءة والركوع . وكلها مربوطة بالبدن المكون من العناصر الأربعة. وهى خطاب التكليف، للثواب والعقاب، لتمييز الإنسان عن الحيوان. أما الأخلاق الباطنية فمرتبطة بسياسة العالم، تمهيدا لقسمة الناس إلى عامة وخاصة، الشرعية للعامة والباطنية للخاصة. وهى القسمة التى أجمع عليها المتكلمون والحكماء والصوفية بل والأصوليون فى تفرقتهم بين المقتى والمستقتى، الغاية من الصلاة الشرعية الأخلاق، النهى عن الفحشاء والمنكر أى الأخلاق الاجتماعية وليس الأنواع الربانية. بينما الغاية من

(١) "وعرف أن الأمور الواردة عن هذا الموضوع فى الشرائع إذا أخذت على ما هى عليها لزمها أمور محالة وشنيعة. وأما المعرفة الرابعة فإن العالم مطلع عليها بلا اطلاع. والجادل صلاحه أن لا يكشف له ذلك فيلاحظ الديانات الالهية والشرائع الحقيقية يعين الاستخفاف وهى مقدمة عن ذلك... وأما من أوتى الدراية ونزه جوهر نفسه عن البدار إلى انكارها لا يستحسنه ظاهرا وتهجين ما لا يستوضح الغرض المكنون فيه صانف فى الشريعة إذا وردت على هذه الصورة أحد عظام شرائطها، ورأى ورودها على صورة الحق أو مثال لا بشاكل المألوف والمعروف - على ما فى شرائع المجوس والمانوية - أعظم أشراف فسادها وخلوها من التأييد السماوى"، ابن سينا: السعادة ص ١٩-٢٠.

(٢) ابن سينا: للشفاء، الالهيات ج١/٣٩٨/٤١٤-٤٢٢، اللجاء، ص ٢٨٤-٢٩١.

(٣) وهو الفصل السادس من المقالة التاسعة من إلهيات الشفاء.

الصلاة الباطنية المعرفة وهي غاية الحكيم. الصلاة الباطنية هي الصلاة الحقيقية، مشاهدة الحق بالقلب الصافي والنفس المجردة المطهرة، لا شأن لها بالابداء والحركات بل بالخواطر الصافية والنفوس الباطنية، لا قصر فيها ولا طول.

والإنسان نوعان: الأول من غلب عليه الطابع الحيوانى. يعشق البدن والنظام والترتيب والصحة والطعام والشراب والمنفعة والمصلحة، غافل عن المألوف، جاهل بالحق. يؤدي الصلاة كواجب شرعى طمعا أو خوفا حتى يعود نفسه بالسياسات، وحق التصرع والاشتياق والاستعاذة إلى العقل الفعال والفلك النوار ليفيض عليه بجوده، وينجيه من عذاب وجوده، ويخلصه من آمال بدنه، ويوصله إلى منتهى أمله. والثانى من غلبت عليه قواه الروحانية وتسلطت عليه قوة النفس الناطقة وتجرده عن نفسه (١).

وبنية رسالة "ماهية الصلاة" ثلاثية: ماهية الصلاة، ظاهر الصلاة وباطنها، على من تجب وعلى من لا تجب، ومن المصلى المناجى لربه؟ ليست الصلاة فقط الشعائر بل هي التوجه للشعور، والحركة فى الكون. فالإنسان عالم أصغر، والعالم إنسان أكبر كما هو الحال عند إخوان الصفا. الصلاة نظرية فى المعرفة والسعادة أى بحث عن الحقيقة. للصلاة ظاهر وباطن. الظاهر غير حقيقى، والباطن حقيقى. الظاهر هو البدنى، والباطن هو النفسى. الظاهر حركة البدن، والباطن حركة النفس. الظاهر المأمور شرعا والمعلوم وصفا. أعدداه معلومة، وأوقاته محدودة. وهي من جملة السياسات الشرعية. كل مكلف يرتقى بجسمه إلى روحه وطريقة التصرع إلى خالقه ليفارق البهائم. فالإنسان معاقب مثاب لامنتال الأوامر والنواهي الشرعية والعقلية. والشرع يتبع العقل (٢). فلما لزم العقل نفسه بالصلاة الحقيقية، معرفة الله ألزمه الشرع بالصلاة الظاهرية حتى يتبع الجسم الروح فى التعبد وإن اختلفت المرتبتان. ونظرا لأن الشرع يعلمه أن الناس متفاوتون فى العقل

(١) ابن سينا: ماهية الصلاة ص ٤٠-٤١.

(٢) "الشرع يتبع أثر العقل. فلما رأى الشارع أن العقل لزم النفس الناطقة بالصلاة الحقيقية المجردة وهي عرفان الله وعلمه كلفه الشارع صلاة على يده"، السابق ص ٢٥-٣٧.

نظم لهم هذه السياسة من الرياضة البدنية، وكلفهم بها للسيطرة على أهوائهم الطبيعية. فنظم طريقة تميزهم عن سائر البهائم.

تكشف الرسالة عن البعد الرأسى مباشرة، وتحويل الحكمة إلى تصوف بعد تحويل الشريعة إلى حكمة. فالصلاة طريق الاتصال بالله مثل العشق، الاتصال بالخلود من خلال الزمان. وهى تجربة سرية لا يجوز الاطلاع عليها. والحر تكفية الإشارة. فلذة الجماع لا تتصور للعينين، ولذة النظر لا يدركها الأعمى. وقد كتب ابن سينا الرسالة فى نصف ساعة. ويدعو القارئ إلى المشاركة فى هذا السر^(١). وهى تجربة شخصية لكل حكيم قديم أو معاصر^(٢).

وفى "معنى الزيارة" يترك ابن سينا الموضوع غامضاً عن قصد، زيارة من؟ صديق أم مريض؟ إنسان أو ملاك كما هو الحال فى التراث المسيحى، زيارة الملاك لاليصبات أم مريم تنبؤها بحملها العذرى وتسمى أيضاً "الزيارة". والمقصود هى زيارة المساجد وهى جزء من الأفعال الشرعية. والرسالة إجابة على سؤال للشيخ سعيد بن أبى الخير الصوفى. فصورة ابن سينا الحكيم هنا أيضاً انه صوفى. والزيارة المقصودة أقرب إلى المعنى الصوفى المسيحى وتأثيرها فى النفوس والأبدان. المطلوب من الزيارة التأثير فى العالم عن طريق الدعاء فى الزيارة.

وهى جزء من العلوم السرية. مقدمتها الضرورية مبادئ نظرية الفيض وتراتب الموجودات ابتداءً من العلة الأولى وواجب الوجود ثم الحديث عن الملائكة المقربين المسماة عند الحكماء العقول الفعالة طبقاً لظاهرة التشكل الكائى، الجواهر الثمانية المفارقة للمواد. حركة الوجود طبقاً لنظرية الفيض من أعلى إلى أدنى. وحركة المعرفة

(١) السابق ص ٤٢-٤٣.

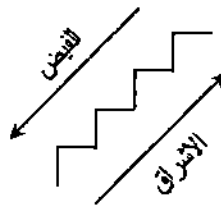
(٢) ويقتدر المستشرق ذلك حتى يفرق التراث كله فى التصوف ويبعده عن عالم الفقه والعقل، ويقترب من الشعبية وثنية لمطلب خاص فى مجتمعه الباحث عن الروح كرد فعل على الاغراق فى المادة.

طبقاً للاشراق من أدنى إلى أعلى (١).

والأحوال إما جسمانية فى الفيض أو نفسانية فى الاشراق. يجمع ابن سينا بين التفسير الفيزيولوجى والتفسير الروحى، تحويف الدماغ. فالإنسان بدن ونفس، وأماكن الزيارة أى اجتماع المكان والروح مما يؤدى إلى قدسية المكان كما هو الحال فى كل دين (القدس، بيت لحم، مكة، .. الخ). الغرض من الدعاء والزيارة أن النفوس الزائرة المتصلة بالبدن غير المفارقة تريد جلب المنفعة ودفع الضرر وتستعد لجلب الصور. والنفوس إما جسمانية مثل مزاج البدن إن كان معتدلاً تحدث الروح التى تؤثر فى الدماغ فيتم الاستعداد. زيارة بيت الله مكان الازدلاف على الحضرة الالهية، خلاص النفوس من العذاب. وإما نفسانية مثل الأعراض عن الدنيا وانصراف الفكر إلى قدس الجبروت، وشروق النور الالهى فى السر لاكتشاف الغم (٢).

فهل دخل ابن سينا الحكمة ليضربها بالتصوف، مؤامرة شيعية على العقل الإسلامى السنى؟ لم تنجح مؤامرة الاخوان لأنها لم تكن ذكية بل مكشوفة نقلياً شعبية. ثم أتى العبقري ابن سينا لاستئناف نفس المشروع أكثر ذكاء دون نقل كثير إلا فى الرسائل الصوفية وفى موسوعات أضخم وأكبر. وربما كانت بنية الرسالة خروجاً على الموضوع أو تمهيداً لخرافة الزيارة بخرافة أخرى، الفيض.

وترتبط الأخلاق بالفقه والشريعة نظراً لقيام الشريعة على أسس أخلاقية كما لاحظ أبو حيان بشرط فهم الشريعة فهماً باطنياً. إذ ترتبط الشريعة بالجزء العملى من أفعال الإنسان حتى يفعل الخير مع نفسه ومع جنسه. ويستعمل ابن سينا لفظ السنة. وهو لفظ



(١)

(٢) ابن سينا: معنى الزيارة، تحقيق مهرن، ص ٤٤-٤٨.

شرعى من علم الحديث وفى الفقه بمعنى فلسفى أى طريق وشريعة. وليس الناموس هو الحيلة والخديعة على ما تضمنه العامة بل السنة والمثال القائم الثابت ونزول الوحي. وتسمى العرب الملك النازل بالوحي ناموساً. هذا الجزء من الحكمة هو النبوة لحاجة الإنسان إلى الشريعة. وهى عملية وليست نظرية. والشرائع متغيرة حسب الزمان. وهناك شرائع إلهية ودعاوى باطلة. والمطلب إثبات السعادة والسنة المؤدية إليها ^(١). والمطلوب من الشريعة إخلاص النية كما يفهم الحكماء لا كما يفهم العامة ^(٢).

مثال ذلك الأمر والنهى اللذان يقومان على الترغيب والترهيب أى على البواعث والدوافع. وأفعال التكليف فى الأمر والنهى أحد حالات الخير والشر فى العالم من خلال الأفعال. والحدود المشروعة للمعاصى مثل النهى ردع عن المعصية. ولولاه لوقعت منفعتها فى المنع عن فساد آخر. والناس ينبغى أن يكونوا مقيدين بقيد الشرع ليتم نظام العالم أو بقيد العقل. والتحلل من القيد يوقع فى الفساد فيختل نظام العالم. وإذا كان لا بد فى بقاء العالم من استعمال القوى الشهوانية وفى الذب عن المدن الفاضلة القوة الغضبية فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له دور فى إبقاء الشريعة فى المجتمع. والمدح والذم هما الحث على المعاودة إيجاباً وسلباً، حثاً على الخير، وزجراً على الشر مما يدل على أن المقصود بالثواب والعقاب ليس التثكيل كما يصور بعض المتكلمين. فالحكماء أكثر رحمة وأقل "صادية" من المتكلمين ^(٣).

والحقيقة أن الأمر والنهى لا يقوم على الترغيب والترهيب إلا للعامة. ويقومان على جلب المصالح ودرأ المفساد عند الفقهاء. وكذلك ليس المقصود من الحدود الردع والتخويف إلا للعامة. أما الخاصة فانهم يفعلون الخير لذاته ويتجنبون الشر لذاته. والشرع والعقل قيدان للعامة، وتحرر للخاصة، تحرر من الأهواء والانفعالات.

(١) ابن سينا: أقسام العلوم ص ١٠٨، السعادة ص ٤.

(٢) "يجب ألا يتوانى الحكيم عن استعمال الأوضاع الشرعية، وأما الجهال فلن يحصل لهم باستعمال الأوراد الشرعية إخلاص نية وهو المقصود منها، السعادة ص ٢٠.

(٣) ابن سينا: سر القدر ص ٢٤٨-٢٤٩، الأضحوية ص ٥٩-٦١، السعادة ص ١٩.

٤- الأخلاق العقلية. ولأول مرة يكتب ابن سينا في "علم الأخلاق" باعتباره علماً مستقلاً. وهي أخلاق عقلية مثالية تضع ما ينبغي أن يكون. ويتم ذلك عن طريق رصد الفضائل ونقيضها الرذائل قلباً. يرصد منها حوالي ثلاثاً وعشرين فضيلة وكأننا مع أسماء الله الحسنى. وهو فضائل التوحيد. وكل مجموعة تتعلق بأحدى القوى النفسية، العفة بالشهوانية، والشجاعة بالغضبية، والحكمة بالتمييزية أى الناطقة. والعدالة إليها كلها بصرف النظر عن مصدرها. والغاية منها عملية، تطهير النفس لنيل السعادة الدنيوية والأخروية. الأخلاق وسيلة والدين غاية. والفضائل أنواع ومركبات. وكل مجموعة مرتبطة بأحدى القوى النفسانية، الشهوانية أو الغضبية أو التمييزية^(١). وهي مثل القيم الصدفية وفي مقدمتها الصبر. ويعطى ابن سينا مجرد تعريفات نظرية دون تحليلها فى سلوك اجتماعي^(٢).

ويشير ابن سينا إلى كتب "إحصاء العلوم" دون الإشارة إلى الفارابى خاصة نظراً لضعف التراكم الفلسفى الظاهر عنده نظراً لصمته عن مصادره. يحصى الفضائل أولاً ثم يحدد القوى النفسانية والأخلاق التى تعد منها فضائل أو رذائل، وتحصيل الفضائل وتجنب الرذائل ويتم تعريف الفضيلة بأنها وسط بين الاقراط والتفريط كزديلتين، والأمثلة على ذلك كثيرة^(٣).

ثم يحصى ابن سينا الرذائل أى الفضائل المضادة كما هو الحال فى إحصاء

(١) وأهم الفضائل: السخاء، القناعة، الصبر، العفة، التجاوز، رجب الباع، كتمان المرء، الحكمة، البيان، الفطنة، أصالة الراى، الحزم، الصدق، الوفاء، الود، الحرمة، الحياء، عظم الهمة، حسن العهد، التواضع.

والفضائل المرتبطة بالغضبية: الصبر، الحلم، العفو، الصفح، التجاوز، رجب الباع، كتمان السر. والفضائل المرتبطة بالتمييزية: الحكمة، البيان، الفطنة، أصالة الراى، الحزم، للصدق، الوفاء، الود، الرحمة، الحياء، عظم الهم، حسن العهد، التواضع.

(٢) ابن سينا: فى علم الأخلاق ص ١٢٥-١٥٤/١٤٣-١٥١.

(٣) مثل: العفة وسط بين الشره وخمود الشهوة، السخاء وسط بين البخل والتبذير، العدالة وسط بين الظلم والانظلام، القناعة وسط بين الحرص والاستهانة، الشجاعة بين الجبن والتهور.

الصفات الايجابية والسلبية فى التوحيد، بادنا بالايجاب ثم السلب^(١). ثم يبين وجه التدبير فى تحصيل الفضائل وتجنب الرذائل والصلة بين الفطرة والاعتقاد وأثر الأفعال ثم الانتقال من الأخلاق الفردية إلى الأخلاق الاجتماعية.

والعهد لفظ صوفى، عهد لما عهد الله به نفسه. ثم تحول إلى عهد فردى إشراقى، تخلص النفس من البدن استعداداً للإشراق، وتركيز النفس الناطقة وتخليصها من الشهوانية والغضبوية. وأحياناً تكون القسمة ثنائية للقوى الإنسانية: حيوانية تجمع الشهوانية والغضبوية، وناطقية. تبدأ الأخلاق على المستوى العضوى البدنى اعتماداً على نظريات الحرارة والبرودة واعتدال البدن لتفسير السلوك الخلقى كطبيب. وهو ما يمكن تسميته بالأخلاق الطبيعية. فالأخلاق ثلاثة أنواع طبية بدنية، فحصة البدن مثل صحة النفس، واجتماعية تقوم على التوسط بين النفس والبدن، وروحية تقوم على تصفية النفس. وأفعال البدن مثل القوى البدنية والتعلل والتروية فى الأمور الجزئية فيما ينبغى أن يفعل وألا يفعل بحسب الاختيار ومثل استنباط الصناعات العملية والتصرف فيها كالملاحة والفلاحة والصياغة والتجارة. فهى أخلاق تصف ما ينبغى أن يكون وليس ما هو كائن. وتحصل الأخلاق من اعتياد الأفعال كما هو الحال عند أصحاب السياسات الجيدة وأفاضل الناس. فأنهم يجعلون أهل المدن اختياراً بما يعودونهم من أفعال الخير، وكذلك أصحاب السياسات الروية والمتغلبون على المدن يجعلون أهلها أشرار بما يعودونهم من أفعال الشر. الرسالة فى الأخلاق الفردية وقليل منها فى الأخلاق الاجتماعية، وأقرب إلى المواعظ الشعبية وخطب المساجد بالرغم من أثر العادة على الاكتساب للأخلاق والحديث عن المدن مثل الفارابى. ومع ذلك يلزم ستر الباطن عن الناس كما هو الحال فى أخلاق الشيعة فى ثنائية متعارضة تتعارض مع وحدة الشرع

(١) مثل: الحلم ضد الحسد والحقد وسرعة الانتقام. الصبر ضد اليذاء والخناء والرفث والشتمة والغيبة والنميمة والكذب والجزع. ربح الباع ضد ضيق الذرع وإذاعة السر. العلم ضد الجهل. اللطنة ضد الغباوة. البيان ضد العى. احزم ضد جودة الحس والعجز. الرحمة ضد الغدر والخيانة والقساوة. العدالة ضد الوقاحة وصغر الهمة وسوء العهد وسوء الرعاية والصلف والجور والكبر.

بين الظاهر والباطن، والسر والعلن، والنظر والعمل^(١).

وتنتهى رسالة "العهد" ببيان عن الأخلاق الاجتماعية، نصائح للفرد فى حسن المعاشرة، معاشرة كل فرقة بعادتها ورسمها، معاشرة الرزين بالرزانة، والماجن بالمجون للتستر على الباطن من الناس دون الاتيان بفاحشة أو الغلط بهجران، وأن يسمح بالمقدر والتقدير من المنال أن تقع له حاجة من الشركاء إذا لم يظهر خلل فى الشريعة، وأن يحفظ سر كل أخ وود المتصلين به حتى يقوم فى غيبتهم بجميع ما يحتاجون إليه بمقدار الوسع، وأن يفى بما يعد، ويعد بما يفى دون خلف، وأن يساعد الناس وإن خالف طبعه. ولا يقصر فى الأوضاع الشرعية والسنن الالهية، وأن يواظب على التعبدات البدنية. فاذا خلص من المعاشرة زين النفس والفكرة فى الملك الأول وخلص النفس من غيار الناس بحيث لا يشعر الناس بذلك^(٢). وهذه أشبه بأخلاق التكيف الاجتماعى كخطوة أولى حتى يألفهم ويضمهم إلى الجماعة ثم يعود إلى نفسه ويتخلص من الناس ويتحد بخالقه^(٣).

سابعاً: الإنسان موجود أخلاقى (مسكويه)

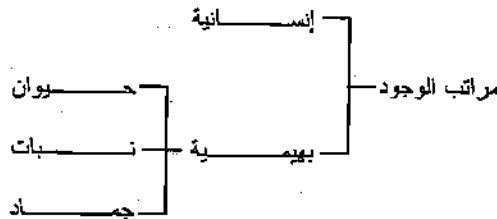
الإنسان هو الموجود الوحيد الأخلاقى. إذ تتفاوت مراتب الوجود بين مرتبتين طبقاً للتثاوية المتطهرة والتصور المثالى للعالم: البهيمية والانسانية، الأدنى والأفضل أو الأعلى وتشمل البهيمية. الأدنى ثلاث مراتب: الجماد والنبات والحيوان^(٤). فالإنسان هو

(١) ابن سينا: فى العهد ص ١٤٢-١٤٣/١٥٦-١٤٨، الطبيعيات من عيون الحكمة ص ٣١.

(٢) ابن سينا: فى العهد ص ١٥٥-١٥٦.

(٣) السابق ص ١٥٥-١٥٦.

(٤) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ١١.



الوحيد الموجود الأخلاقي الحر^(١).

وتتفاوت مراتب الصناعات شرفاً حسب تفاوت راتب الموجودات وأشرف الصناعات ما اعتنت بتجويد الأفعال حتى تصدر كاملة بحسب جوهره أى الأخلاق. ووجود الإنسان متعلق بقدره فاعلة وخالفه. أما تجويد جوهره فمفوض إلى الإنسان ومعلق بارادته. الوجود من الله، والتحسين من الإنسان. النشأ من الله والتكوين من الإنسان. الأخلاق هى الحرص على الخيرات التى هى كمال الإنسان ولأجلها خلق. وأن لم يستطع الارتقاء إلى كماله فإنه ينمط لى مرتبته البهيمية. وكمال الإنسان كمالان نظرى وعملى، علوم ومعارف من ناحية وأخلاق وتربية من ناحية أخرى. وقد يرى البعض أنه من الأفضل أن يكون الإنسان أصل وجوده لا يغترب ويعلق التحسين على غيره.

ومن أين يأتى لفظ أخلاق؟ أم الخلق أم الخلق؟ هى حالة للنفس تكون بها داعية على أفعالها من غير فكر ولا روية أى أنه استعداد. وقد يكون الخلق طبيعياً فطرياً مزاجياً وقد يكون عادياً مكتسباً، تعليمياً تدريجياً. فالخلق به فضل زائد على الطبيعة بالفعل الإرادى والاختيار الحر والتدريب والتهذيب. وقد اختلفت القدماء فى الخلق بين أن يكون خاصاً بالنفس غير الناطقة وأن يكون خاصاً بالنفس الناطقة. كما اختلف الناس فيه أن يكون طبيعياً لا ينقل وأن يكون لا طبيعياً ولا غير طبيعى بل يتم الانتقال إليه بتأديب والمواعظ على نحو سريع أم بطيء. وقد اختار مسكويه أن يكون خاصاً بالنفس الناطقة وأن يكون منقلاً بالتأديب والتهذيب لأنه أقرب إلى المشاهدة العيانية وتصدقه التجربة. وعيوب رأى الآخر إبطال قوة التمييز والعقل، ورفض السياسات وترك الناس هجماً، وترك الأحداث والصبيان بلا تعليم. والناس إما أخيار بالطبع، أو أشرار بالطبع أو خيار وأشرار^(٢). وواضح اتساق البنية، الوسط بين الطرفين الذى به إمكانية

(١) كما هو الحال عند كانط وفشته، السابق ص ٦-١٠، وهذا تنظير غير مباشر لآية «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان».

(٢) الناس أخيار بالطبع عند الرواقيين، وأشرار بالطبع عند من قبلهم، وأخيار وأشرار عند جالينوس وأرسطو سواء كان التعليم بطيئاً أم سريعاً، وهو رأى مسكويه.

الحركة والاكتمال والرقى. وعلى هذا النحو تبدو الأخلاق عند مسكويه أكثر تنظيراً وتحليلاً للتصورات عن طريق القسمة وإقلها إنشائيات ومواظ. ويقوم بعض الآراء وتقبيحها ونقدها، ويرفض ما يرفض، ويقبل ما يقبل. يجمع بين الوافد والموروث، ومن الوافد يجمع بين أفلاطون وأرسطو. والعبارة سليمة وواضحة باستثناء بعض الألفاظ هنا وهناك^(١).

١- اللذة والخير والعادة. وكمال الإنسان فى الذات المعنوية وفى الخير وفى السعادة. فالذات نوعان حسية ومعنوية. وسعادة الإنسان ليست فى الذات الحسية. ولا تجند كل قوى النفس للناطقة والذاكرة والحافظة لخدمة الذات الحسية، وتحويل النفس الشريفة إلى عبد مهين أجير. الإنسان موجود وسط بين الحيوان والملائكة، يهبط إلى مرتبة الحيوان بالذات الحسية، ويصعد إلى مرتبة الملاك بالذات المعنوية. وينشأ حب الذات الحسية بسبب اللذات الحسية. فالضد يؤدي إلى الضد. وهو السبب الذى يؤدي إلى تصور الجنة تصوراً حسياً استمراراً لها وتمساً بها. إذا كانت غاية الإنسان الذات الحسية فإنه يتصور الجنة كذلك، إسقاط ما بالنفس فى الخارج بحثاً عنها ثم إلى أعلى جرياً وراءها، إلى الله والعالم العلوى من الإنسان والعالم السفلى، وتأويل الأعلى بالأنكى. وهذا هو رأى الجمهور من العامة والرعاع وجهال الناس السقاط أى الطبقة الدنيا، من يريد الدخول مع الله متاجرة مثل الطبقة الوسطى أو الصوفية، زهاداً فى الظاهر، وفى الباطن يرغبون المزيد مثل الطبقة العيا^(٢).

واللذة نوعان: انفعالية وفعلية، انثى ونكر، عرضية وذاتية، ناقصة وتامة. ولذة السعادة من الطرف الثانى. وترجع ثنائيات الحمى والمعنوى إلى ثنائيات فلسفية مثل عملى ونظرى، مادة وصورة، جزئى وكلى، العالم والله، فناء وبقاء، بدن ونفس، شك ويقين، إلحاد وإيمان، كمال ثان وكمال أول. واختيار أحد طرفى الثنائية يؤدي بالضرورة

(١) مسكويه: تهذيب الأخلاق: ص ٣٠-٣٢.

(٢) السابق ص ٣٢-٣٤/٨٢-٨٦.

إلى اختيار نفس الطرف في باقي الثنائيات (١).

والسؤال هو: هل هذه الثنائيات مقولات معرفية أم وجودية طبيعية، ذاتية أم موضوعية أم أنها ضيق نفسى واغتراب عن العالم؟ وأحياناً تغيب هذه الثنائية المتطهرة، ويتم التوحيد بين إيجابيين مثل الكمال والغاية كما هو الحال عند أرسطو في التوحيد بينهما.

والخير هو الغاية الأخيرة المقصود من الكل مثل الشيء النافع، توحيداً بين الخير والنافع. إنما تنقسم الخيرات قسمان الأول ليست غايات مثل العلاج والتعليم والرياضة والثاني غايات تامة مثل السعادة. السعادة خير بالإضافة إلى صاحبها وهي كمال له. وقد تكون لغير الناطقين حين قبول كمالها. الخير عام للكل والسعادة مختلفة بحسب الوجود والخير لا خلاف عليه. والسعادة عليها خلاف. ما يأتى للحيوان بخت واتفاق وليس سعادة. فالسعادة مقولة إنسانية مرتبطة بالروية والارادة (٢).

ولما ارتبط الخير بالغاية فإن الغاية طبقاً لأرسطو ورواية عن فرغوريوس تنقسم أربعة أقسام. الأول نافعة لا لذاتها بل للتوصل بها إلى الخير. والثانية بالقوة كذلك بمعنى التهيئة والاستعداد لنيل ما نعدم؟ والثالثة ممدوحة وهي الأفعال الجميلة الارادية توحيداً بين الجمال والخير. والرابعة شريفة في ذاتها مثل الحكمة والعقل.

والخير بالنسبة لتأثيره أربع أنواع: خارج عن التأثير لغيره ولذاته، ومؤثر لغيره

(١) وهذا هو رأى الجمهور من العامة الرعاع وجهال الناس السقاط. وإذا خلوا بالعبارات وتركوا الدنيا وزهدوا فيها فإنما ذاك فيهم على سبيل المتجر والمراحة في هذه بعينها كأنهم تركوا قليلاً ليصلوا إلى كثيرها، وأعرضوا عن الفانيات منها لينلوا إلى الباقيات مسكويه: السابق ص ٣٥-٣٦.

(٢) السابق ص ٦٢-٦٤.

ذاتى	سعادة	كمال
موضوعى	خير	فضيلة

ولذاته، ومؤثر لغيره، ومؤثر لذاته. فالخير كما عملى^(١).

والخير بالنسبة للضرورة والاطلاق نوعان: الأول خير عند الضرورة والاتفاق للبعض دون البعض وفي بعض الأوقات دون البعض. وهو نوعان: ليس لجميع الناس ولا من جميع الوجوه ولا في جميع الأوقات، وخير لجميع الناس من جميع الوجوه وفي جميع الأوقات. ولاتنى خير إلى الاطلاق.

والخيريات إما أفعال أو أحوال. والأحوال إما مواد أو آلات. وأحوال الخير أفضل من أفعال لأنها تعبر عن طبيعة ثابتة وليس عن أفعال متغيرة.

كما ينقسم الخير باعتباره جوهرًا إلى أعراض تسع. الجوهر هو الله. والكيفية الذات. والكمية القوى والملكات والعدد والمقدار. والإضافة الصداقات والرياسات. والأين والتمنى المكان المعتدل في الزمان الأنيق. والموضوع العقود. والملك الحوال. والفعل الأمر. والانفعال السماع.

ويمكن قسمة كل خير إلى ذاتي وعرضي. فالاحسان العرضي ينقطع ويلحق بعدم. والاحسان الذاتي يبقى ولا ينقطع، ويزيد ولا ينقص مثل الشعر. والمعروف العرضي من أجل الرياء أو الذكر الجميل. والمعروف الذاتي من أجل الخير لنفسه.

والسعادة على ثلاث مراتب: الأولى في الدنيا مثل البدن أو البخت (الرواقيون والطبيعيون). والثانية في الدنيا وفي النفس (الحكماء وأرسطو ومسكويه والاسلام). والثالثة في النفس وحدها. في الآخر بعد المفارقة (فيثاغورس، أبقراط، أفلاطون، المسيحية، الدين الاشرقي). وهي قسمة تقوم على ثنائيات الدنيا والآخرة وإيثار أحدهما على الآخر أو الجمع بينهما. والسعادة عند مسكويه هي الأخلاق الدينية. وهي أول رتب الفضائل وآخرها. فالفضيلة ثلاثة أنواع. الأول العالم المحسوس، عالم البدن. والثاني صلاح النفس دون أهواء وشهوات. والثالث الفضيلة الالهية المحضة. والشهوات على

(١) المقالة الثالثة معظمها في الخير والسعادة، السابق ص ٦٢-٨٢.

أنواع: إما حسب اختلاف طبائع الناس أو حسب العادات أو حسب منازلهم من الفضل على خمس مراتب: صحة البدن ولطف الحواس مثل اعتدال المازج والثروة والأعوان، وحسن الأحداثوثة والذكر بين الناس وأهل الفضل، وللتجيم في الأمور مع التكتّم والعزيمة، وأخيراً جودة الرأي وصحة الفكر وسلامة الاعتقاد أى السعادة فى الدين ^(١). فإذا تحولت الغايات إلى سير ظهرت سير ثلاث: سيرة اللذة، وسيرة الكرامة وسيرة الحكمة. وسعادة الإنسان على مراتب حسب تميزه ورويته، بحسب الروية والمروى فيه. وأفضل الروية ما كان أفضل مروى ثم نزولاً لا تدريجياً حتى النظر فى العالم الحسى. فالراحة البدنية ليست من أسباب السعادة أو هى أدنى درجاتها ^(٢). وربما اختلف العصر الآن وأصبحت الراحة البدنية وإشباع الحاجات الأساسية أحد المطالب الرئيسية للعصر. مشاكل العصر من متاعب البدن، الغذاء والمواصلات والاسكان والنظافة. أما النفس فما زالت متميزة عن البدن تسعى للبقاء وأحياناً تخضع لمتطلبات البدن والضرورات تبيح المحظورات بدلا من البكاء على أخلاقيات العصر.

ويلاحظ قدرة مسكويه على التقسيم والتنظير والترتيب والتقييم والنقد وإدخال الوافد والموروث ضمن قسمة عقلية واحدة حتى ولو بدت بعض الألفاظ المعربة مثل الأرتماطيقى استمرار للاخوان.

ويظهر الدين فى قسمة أخرى لمراتب السعادة فى خمس، من البدن إلى الثروة إلى السيرة إلى العلم إلى الاعتقاد. وتحتاج السعادة الالهية إلى غيرها للظهور مثل حاجة الحق إلى الباطل عن طريق الاضداد أو حاجة أسال (الوحي) إلى يقين حى بن يقظان (العقل والطبيعة) تمثلاً للوافد فى منظور الموروث. كما يحتاج الإنسان إلى الوالدين وكلاهما عنصران للتربية.

٢- معرفة النفس: وبعد تأسيس علم الأخلاق الإنسانى العام، فالإنسان هو الوحيد

(١) السابق ص ٣٢/١٢-٣٢/٣٣.

(٢) السابق ص ٦٥-٦٦.

الموجود الأخلاقي الحر، يتم تأسيس علم الأخلاق النفسى أو علم النفس الأخلاقى. ويتم ذلك طبقاً لاحصاء العلوم وترتيب مكل صناعة على مبادئها. فالأخلاق علم عملى، صناعة وعلم النفس مبادؤه نظرية.

وتحليل النفس يؤدى إلى معرفة قواها. ومعرفة قواها تؤدى إلى معرفة فضيلة كل قوة وفضائلها جميعاً. لذلك لزمّت معرفة النفس ماهيتها وهى استقلالها عن البدن، وغايتها وهى كمالها فى الخير والسعادة، وقواها الثلاث، الشهوانية والغضبية والناطقة، وعوانقها من البدن، وما يزكيها من الفضائل، وما يفسدها من الرذائل. البداية بمعرفة النفس لا بمعرفة الدنيا والجاه والسلطان، اتجاه إلى الدالخل وليس اتجاهاً إلى الخارج. وماهية النفس ليست جسماً ولا جزءاً من جسم، ولا عرضاً، ولا تحتاج فى وجودها إلى قوة جسمية بل هو جوهر بسيط غير محسوس. تعريف النفس فى البداية الجذرية لاثباتها. هناك براهين طبيعية على استقلال النفس وتمايزها عن البدن مثل براهين الفلاسفة وكأنها مستقاه من الفلسفة، وإثبات أنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم، وليست كماء، ولا أبعاد لها كما هو الحال فى اللاهوت السلبى فى نفى صفات النقص عن الله (١).

وواضح أهمية النفس فى علوم الحكمة. فهى ليست فقط أحد موضوعات الحكمة النظرية بل هى أساس الأخلاق فى الحكمة العملية. والسؤال هو: هل تقوم الأخلاق على أسس نفسية، والنفس متميزة عن البدن أن أنها تقوم على البدن، والبدن فى مجتمع والمجتمع فى العالم؟ هل يمكن إعادة بناء الأخلاق بعيداً عن ثنائية النفس والبدن القديمة، نفس وبدن، جوهر وعرض، صورة ومادة، عقل وحس، أعلى وأدنى، أشرف وأخس، فضائل ورذائل، خيرات شرور، دوافع ومعوقات، إنسان وحيوان، إلى وحدة الإنسان الحديثة (٢)؟

(١) وهنا يبدو ديكرت تلميذاً للمسلمين فى "مبادئ الفلسفة" وفى التأملين الخامس والسادس فى "الفلسفة الأولى" عن استقلال النفس عن البدن. مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ٢-٨.

(٢) السابق من ٥.

ولا تقوم الأخلاق النفسية على برهان بل على مقدمات مطلوب إثباتها مثل استقلال النفس عن البدن لبيان سعادتها ومفارقتها. والغاية الإلهية كنتيجة هي التي فرضت هذه المقدمة (١). والتحليل أقرب إلى العواطف الدينية منها إلى التحليل العقلي. وهي بداية الذاتيات الفارغة مثل "فان تشوقها أى ما ليس من طباع البدن"، وترك الخير إلى الانشاء. إن رئاسة البدن للدماغ والقلب أشرف موضوعين فيه حكم شرف وقيمة. لذلك يتسم الفكر النفسى الاخلاقى بالتطهر وأحكام القيمة والتشخيص العاطفى، والاغتراب، والايمان والتعويض.

وتقوم الأخلاق على علم النفس الخالص السابق على التجربة، علم النفس العلوى، مصدر القياسات الصحيحة. ونظراً لخطأ الحواس لا يعتمد العقل على الحس. ومن ثم نشأت ضرورة وجود علم أولانى وإلا تسلسلت العلوم إلى ما لا نهاية. وهو على عقلى خالص، العقل والعقل والمعقول فيه شئ واحد لا فرق فيه بين الذات والموضوع، بين المعرفة والوجود، بين الذات الانسانية والذات الالهية. فكلاهما خالص. ومثال مصادرات هذا العلم الأولانى تعريف بانها وسط بين طرفين (٢).

ومعرفة النفس نظرياً شرط كمالها العملى. فلا تحصل الفضائل إلا بعد تطهر النفوس من الرذائل، وهى أصدادها، الشهوات الرديئة الجسمانية، والنزوات الفاحشة البهيمية. وهذا لا يتم إلا بعد المعرفة (٣). وهناك قوة واستعداد وتهيؤ فى النفس قد تكون خيراً أو شراً طبقاً للإرادة والرديئة.

والسؤال هو: هل وظيفة النفس الهرب حتى من أفعال الجسم أن التعاون معه والاتحاد به؟ لماذا اعتبار البدن سلباً واتهامه بالذات والفواحش والنزوات والمآكل والمشارب والمناكح وكأننا نقائص وكان الناس لديهم فائض منها؟ ثم تعود مشاكل البدن

(١) يعتمد مسكويه على رأى أرسطوطاليس فى بقاء النفس، السابق ص ٨٠-٨٣.

(٢) وهو أشبه بما يسمى فى الغرب الحديث علم المصادرات Axiomatics.

(٣) مسكويه: تهذيب النفس ص ٦-١٠.

ونفرض نفسها بالضرورة تحت صفاء النفس فينشأ النفاق، وفي أحسن الأحوال الازدواجية^(١). ولماذا تكون المعارف والعلوم أفضل من العمليات والأفعال؟ هل هذا يوناني وافد أم تطهر واغتراب عن واقع معاش وثقافة مغتربة؟

وتستمر الانشائيات والانفعاليات والذاتيات في مزاحمة القسمة العقلية مثل "شوق النفس إلى أفعالها الخاصة". وهو نوع من النرجسية مثل العقل والعقل والمعقول بناء على تشخيص انفعالي^(٢). ويسهل إعطاء النصائح وصياغة الخطب لدرجة الخطاب الساذج، وفرق بين عالم التمنيات وعالم الواقع.

وبالرغم من أن الطبيعيات مستقلة عن الأخلاق إلا أنها مستعملة أيضاً فيه للتنبيه كان الأخلاق هو الأساس. والعلم الطبيعي يشارك فيه الإنسان من حيث هو بجن سائر الموجودات، الجمال والحيوان والإنسان، ولكنه يتفرد بعلم الأخلاق.

لذلك تنقسم قوى النفس قسمة ثلاثية شهيرة بصرف النظر عن مصدرها، الوافد أم الموروث، أفلاطون أم القرآن. وربما يعتمد كلاهما على العقل البديهي وعلى القسمة العقلية^(٣). لكل منها مكان في البدن، وفضيلة في النفس. وهى من أسفل إلى أعلى القوة الشهوية أو البهيمية ومكانها الكبد، وفضيلتها العفة أو السخاء ضد الشره. وأحيانا يكون الجود بها نفاقاً. والقوة الغضبية أو السبعية ومكانها القلب وفضيلتها الشجاعة أو الحلم أنفاً. والقوة الملكية، قوة النظر والفكر والتمييز. ومكانه الدماغ وفضيلتها الحكمة، والعلم استبصار. وتدل التشبيهات مثل ملكية وسبعية وبهيمية على أن الإنسان وسط بين الملاك والحيوان^(٤). وأحيانا تسمى القوى الثلاث البهيمية مثل الخنزير، والسبعية مثل السبع، والناطقية مثل الملك.

(١) انظر دراستا: التفكير الدينى ولزولوجية الشخصية، قضايا معاصرة ج ١ ف فكرنا المعاصر ص ١١١-١٢٧.

(٢) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ٨-١١.

(٣) وهى القسمة البهيمية التى قوم عليها مشروع "التراث والتجديد" فى جبهات الثلاث: الموقف من التراث القديم (الموروث)، الموقف من التراث الغربى (الوافد)، الموقف من الواقع ٨ أو نظرية التفسير (العقل البديهي).

(٤) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ١٤-٢٢.

وتظهر هذه القوى النفسية على نحو ارتقائى كما هو الحال فى علم النفس الارتقائى المعاصر، ابتداء من الغذاء إلى الاشباع العاطفى إلى النطق وهو مناط التكليف. وهو آخرها ظهوراً. وبالرغم من تعددها إلا أنها نفس واحدة. ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة كما هو الحال فى تصور الألوهية فى المسيحية فى علاقة الوحدة بالكثرة.

وتنقسم الآراء طبقاً لقسمة قوى النفس. فهناك آراء مهينة عادمة للأدب بالطبع وهى آراء النفس البهيمية. وهناك آراء عادمة للأدب وتتقاد له فى نفس الوقت. وهى آراء النفس الغضبية. وهناك آراء كريمة أدبية بالطبع وهى آراء النفس الناطقة.

والواجب على العاقل تكميل النفس العاقلة وإكمال نقائص السبعية والبهيمية. ومن واجباته أن يعرف ما ابتلى به الإنسان من نقائص جسمية ونفسية لاكماله بالغذاء واللباس والجماع ثم يلتمس الفضيلة فى النفس العاقلة التى صار بها إنساناً.

وتظهر الأخلاق الدينية فى تقسيم العدالة قسمة ثلاثية. فالعدالة بالنسبة للأسلاف وأداء الديون وتنفيذ الوصايا أقرب إلى النفس الشهوية. والعدالة بالنسبة إلى الإنسان وأداء الحقوق والأمانة والنصفة فى المعاملات وتعظيم الرؤساء أقرب إلى النفس الغضبية. والعدالة بالنسبة لله شكر المنعم ومعرفته أقرب إلى النفس الناطقة (١).

ولكل قوة من قوى النفس الثلاث آدابها. وهى آداب جميلة للفقراء والأغنياء على السواء، جميلة للفقراء واجمل للأغنياء. إذ تخترق الفضائل الطبقات الاجتماعية. وهنا يتم الانتقال من الأخلاق الفردية إلى الأخلاق الاجتماعية بمعنى العادات والسلوك والملابس وآداب المطاعم، والآداب المتنوعة (٢).

وتختلط آداب النفس البهيمية الشهوانية مع آداب النفس الغضبية السبعية. فالتنبيه

(١) السابق ص ٩٨-١٠٠.

(٢) وهو التحول من Ethics إلى Morals، Ethiquete sociale، Moeurs، السابق ص ٣٨-٤٤/

على مضار النبيذ والأشربة والمسكرة للبدن لأنها تحمل النفس على سرعة الغضب والتهور والاقدام على القبائح والقمة وسائر الخصال المذمومة. وهو تنظير للموروث لأسباب تحريم الخمر فى الشريعة.

وآداب المطاعم ليست فقط تمثلاً للوافد بل تنظيراً للموروث فى الطب النبوى ^(١). فالغذاء للصحة لا للذة، دواء ضد الجوع ^(٢). وتختلف عادات الشعوب فى ذلك ^(٣).

والآداب المتنوعة تجمع بين فضائل النفس البهيمية والنفس الغضبية. فبعد الغذاء الحركة، والبحث عن اللين والتماسه بالصوت، ثم التحرك بالآلات التى تخلق الشوق على الأفعال ثم الحواس والتخيل ثم الغضب ثم العقل والتمييز حتى الانتهاء إلى الغاية الأخيرة وهى الخير المطلق. وأول ما يظهر فى العقل الحياء مثل الصبى الذى يجب تربيته على حب الكرامة ^(٤).

(١) وهى العبارة الشهيرة لمولير "يجب أن نأكل لنعيش لا نعيش لنأكل". ويمطى مسكويه أربع عشرة نصيحة: لون واحد من الطعام، عدم المبادرة إلى الطعام فى حالة المجالسة، عدم النظر إلى ألوانه، عدم الإسراع والبلع، عدم تكبير النعمة، عدم تلطخ اليد، عدم النظر إلى الآخرين، أدنى الطعام الخبز بلا أم، العشاء دون الغذاء حتى لا يكمل الناس بالنهار، منع اللحم، منع الحلوى والفاكهة، عدم الشرب أثناء الطعام، تحريم النبيذ.

(٢) آداب المطاعم، السابق ص ٤٩-٥٠.

(٣) عادة الأوروبيين العشاء دون الغذاء على عكس عادة المسلمين اليوم. واليابانيون يأكلون بالعين، النظر إلى جمال الألوان والتنسيق.

(٤) آداب متنوعة، السابق ص ٥٠-٥٤.



وأولى الناس بالملايس النساء ثم الرجال ثم العبيد ثم الخول. ويلبس أهل الشرف البياض كما و الحال عند اليونان والرومان ومصر القديمة والعرب^(١). وكلها عادات متغيرة طبقاً للمجتمعات وأمزجة شخصية وميراث تاريخي لا يمكن تعميمه على كل الشعوب. هي أدواق أو عادات شعبية تختلف من فرد إلى فرد، ومن شعب إلى شعب، ومن لحظة تاريخية إلى لحظة تاريخية أخرى. وقد لا تكون صحيحة علمياً طبقاً لعلم أصول التغذية، ولا يمكن فرضها بقوانين أو نصائح أو حتى في دروس الصحة النفسية التي قد تضعها الدولة ضمن المقررات الدراسية. وكلها نصائح سلبية، نواهي وزواجر ممنوعات. وقد تضاد السلوك الفطري والاحساس التلقائي.

وكل فضيلة رئيسية من الفضائل الثلاث، السخاء أو العفة، والشجاعة، والحكمة تحوى فضائل فرعية مستتبطة منها^(٢). ويلاحظ على هذا التفرع عدم الدقة في إحصاء الفضائل الفرعية وتشابه بعضها مثل صفاء الذهن وجودة الذهن. كما أن تعريفات الفضائل الفرعية يفر دقيق مثل جعل العفة متصلة بالمال والدنيا مثل الحرية فضيلة يتكسب بها المال من وجه ويعطى منوجه ثان وتمنع من اكتسابه من وجه ثالث. فهي حرية مشروطة. وهو معنى غريب في هذا السياق. والقناعة تساهل في المأكّل والمشارب والزينة. والصبر فرع لأكثر من فضيلة مثل العفة والشجاعة. وتوضع فضيلة فرعية تحت فضيلة فرعية أخرى مثل السخاء، ولا توضع فضائل فرعية تحت أخرى مشابهة مثل الحكم مع الحكمة، والحلم مع الشجاعة، والسخاء مع العفة. ومعظمها يدخل تحت العدالة. وتبدو الفضائل الفرعية أشبه باستتباط عن طريق حاسب آلي يمكن أن يستتبط

(١) الملايس، السابق ص ٤٨-٤٩، وربما يكون أيضاً تمثلاً، لوأفد كتاب بروش في تأديب الأحداث والصبيان.

(٢) يتضمن السخاء: الكرم، الايثار، النبل، المساواة، المماحة، وتحتوى الشجاعة: كبر النفس، النجدة، عظمة الهمة، الثبات، الصبر، الحلم، عدم الطيش، الشهامة، احتمال الكدر، وتفرع من العفة: الحياء، الدعة، الصبر، السخاء، الحرية، القناعة، الدمثة، الانتظام، حسن الهدى، المسالمة، الوقار، الورع. وتضم الحكمة: الذكاء، الذكر، التعقل، سرعة الفهم وقوته، صفاء الذهن، جودة الذهن، سهولة التحليم، مسكويه، تهذيب الخلاق ص ١٤-٢٢.

أخرى بحساب آخر. إذا تعددت المداخلات تعددت المخرجات. هو تنظير رياضي للفضائل في جداول حسابية من أجل وضع أخلاق عامة شاملة تقوم على العقل الخالص وليس على الفخر بالآباء والأسلاف. وقد تتغير أسماء الفضائل إذا تعدت الأنا والآخر. وكلا وصف لما ينبغي أن يكون طبقاً للعقل دون تحليل للأوضاع الاجتماعية وديناميات الأفعال الخلقية. والردائل أيضاً ثنائية ولكنها ثنائية متشابهة وليست متضادة. وكلها في مضادات الشجاعة وليست الحكمة أو العفة أو العدالة^(١). وكلها لها وسائل للعلاج^(٢).

أ- العدالة وسط بين طرفين. والعدالة مجموع الفضائل الرئيسية الثلاث: العفة والشجاعة والحكمة. وتتضمن بدورها فضائل فرعية^(٣). ويلاحظ عليها أنها من حيث الصياغة والشكل تتراوح بين المفرد لفظاً والمثنى والعبارة الشارحة. كما تتراوح بين الإثبات والنفي أى الأمر والنهى عند الأصوليين. وتظهر الفضائل والألفاظ الدينية مثل الحد والقذف والقتل والقطع والدين والله مما يدل على أن الفضائل في مجموعها تحويل للشرعية إلى أخلاق. ويُعرف ما ليس بعدل دون تفضيل أنواع الظلم أى الحد سلباً. ويرتبط ما ليس بعدل بالواقع الاجتماعي والاقتصادي، وصف ما هو كائن في حين يقوم

(١) أهم الردائل: العجب والافتخار، المزاح والتهية، الاستهزاء، الضرر والضيم، المقتنيات والجواهر النفيس، الغضب، الجبن والخوف، الخوف، الحزن.

(٢) يحيل مسكويه إلى رسالة ابن سينا قى دفع النعم من الموت بالخرم مما بينهما من تنافس. ولا يشير إلى الكندي في رسالته قى دفع الأحزان، السابق ص ١٧٢-١٧٩.

(٣) هي واحد وعشرون فضيلة هي: الصداقة، الألفة، صلة الرحم، المكافأة، حسن الشركة، حسن القضاء، التوحد، العبادة، ترك الحقد، مكافأة الشر بالخير، استعمال اللطف، ثوب المروءة في جميع الأحوال، ترك المعاداة، ترك الحكاية عما ليس بعدل مرضى، البحث عن سيرة من يحكى عنه العدل، ترك لفظ واحد لا خير فيها لمسلم وفضلاً عن حكاية توجب حداً أو قذفاً أو قتلاً أو قطعاً، ترك السكون إلى قول سفة الناس وسقطهم، ترك قول من يكدى بين الناس ظاهراً باطناً أو يلحف في مسألة أو يلح بالسؤال فان هؤلاء يرضيهم الشيء اليسير فيقولون لأجله قبيحاً، ترك السترة في كسب الحلال وترك ركوب الدناءة في الكسب لأجل العيال، الرجوع إلى الله وإلى عهد وميثاقه عند كل قول يتلفظ به أو لفظ يلحظه أو فطرة في أعدائه وأصدقائه، ترك اليمين بالله وبشيء من أسمائه وصفاته رأساً، السابق ص ١٩.

العدل على وضع ما ينبغي أن يكون. ويدخل كل شيء فى العدالة. فهى الفضيلة الشاملة. ومن ثم يغيب الحد الجامع المانع لهاز وكثير منها يغلب عليه أخلاق التسامح مثل ترك الحق، مكافأة الشر بالخير، ترك المعادة. والبعض منها أخلاق المثال والتأسى والقوة كما هو الحال فى سنة الرسول وهو فى النهاية تقليد^(١). وهى فى النهاية مجرد نصائح إنسانية عامة لا تحتاج إلى تقنين أخلاقى فى وصايا ومواعظ^(٢).

وتنقسم العدالة ثلاث أقسام: الأولى بالنسبة للأسلاف، أداء الديون وإنفاذ الوصايا. والثانية بالنسبة للإنسان، أداء الحقوق، وتأدية الأمانة والنصفة فى المعاملات، وتعظيم الرؤساء. والثالثة بالنسبة لله مثل شكر المنعم ومعرفة. يجمع مسكويه هنا بين الوافد (أرسطو) والموروث. ومع ذلك صلب العدالة فى النوع الثالث مما يدل على أولوية الموروث على الوافد ليس فقط من حيث المضمون الذى قد يكون مغتربا بل من حيث التعبيرات مثل رب العالمين، الخالق عز وجل، بالإضافة إلى التصورات الدينية مثل العناية والخلق والشكر والعبادة فى مقابل المحرك الأول والعلة الأولى. وتظهر مصطلحات الوافد طبقاً لظاهرة التشكل الكائب. وتظهر العدالة بالنسبة للخالق فى الأخذ والعطاء أى المعرفة وشكر المنعم. وقد يتساءل البعض. أليس بالعدالة الإلهية بعض لجوانب التجارية والربحية كما هو الحال عند الصوفية؟ ولماذا لا تكون الأخلاق ذاتية، قيمتها فى ذاتها لا فى غيرها، دخلها وليس خارجها؟^(٣).

وتشبه الأخلاق الإلهية بالأخلاق الملكية. فهل الله ملك أم الملك اله؟ أيهما أصل وأيهما فرع؟ العائل أم العائلة، الملك أم المدينة، الراعى أم الرعية؟ الله أم البشر؟ ولماذا

(١) يرفض كانتط أخلاق الأمثلة التقاليد.

(٢) مثل: إكرام الزوجة والأهل والشيرة والجار والصديق والحيب وأصحاب المعرفة الباطنة، وعدم الاقراط فى حب المال لما قد يصد عنه استعمال الرافة وامتناء الحق ويضطره إلى الخيانة والكذب والاختلاف والزور ومنع الواجب وبيع الدين والمروءة دون إرادة وجه الله الذى لا يشترى بمال.

(٣) السابق ص ٩٨-١٠٠. ويشير مسكويه إلى كتابى جالينوس، التشريح، ومنافع الأعضاء لينشى داخل الشرح إلهيات أرسطو، الله كملك العدل.

لا يكون الأعلى والأدنى على مستوى واحد أمام قانون الاستحقاق أحد قوانين العدل؟ وأيهما أفضل تصوير الله على أنه ملك الملوك أو أنه أقرب إلى البشر من حبل الوريد؟ وما الضامن لصلاح الملك؟ وكيف ينشأ هذا التصور في مجتمعات تنور ضد الملكية وتفضل أن تتصور الله في صورة قائد المقاومة؟

ولما كانت الفضيلة بين طرفين تقابل الفضائل الأربع رذائل ثمان^(١). صحة النفس الفضائل الأربع وحرص النفس الرذائل الأربع، ومرض النفس الرذائل الأربع. والعدالة في مقابل الجور. والأمراض النفسانية مثل الخوف والحزن والغضب وأنواع العشق الشهواني ضروب من سوء الخلق.

والعدالة أساس الكون، وقيام السموات والأرض. فالعدالة ليست فقط في النفس بل في العالم، في الفعل بل في الكون. والأرض وسط السماء لا تميل ولا تميد. والإنسان وسط بين الحيوان والملاك، بين الأنعام والملائكة.

وفضيلة الاعتدال هو الذي يرد إليه الوحدة بعد الكثرة. العدل في الاجمال. والاعتدال في الأتقال، والعدالة في الأفعال. وكلها مشتقة من معنى المساواة، وهي أشرف النسب في صناعة الحساب. لا تنقسم وليس بها أنواع. إذا لم توجد الوحدة وجدت النسبة. والنسبة تتضمن الوسط وقد يكون منفصلاً أو متصلاً طبقاً للنسبة العددية أو المساحية أو التآلفية. فالعدل فضيلة في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية وفي العلوم الإنسانية على حد سواء^(٢). والسؤال هو: هل الخلاق نسبة رياضية وهل تقاس الأخلاق على الرياضيات أم أن الفعل الخلقى له منطقة الخاص الذي قد يكون أحياناً خارج النسبة^(٣)؟

(١) الحكمة وسط بين السفة والبلة. والشجاعة وسط بين التهور والجبن. والعفة وسط بين الشرة والخمود،

والعدالة بين الجور والمهانة، الظلم والانتظام، معرفة المرأ عيوب نفسه، السابق ص ١٥٥-١٥٧.

(٢) السابق ص ١٠٣.

(٣) السابق ص ١٢/٩٣. ويحيل مسكويه إلى مختصر له في صناعة العدد.

والحقيقة أن الوسط حالة افتراضية، أمنية وتمنى، لا وجود لها. فالوسط باستمرار أقرب إلى أحد الطرفين، الإفراط أو التفريط. الوسط هو ما بين الأطراف، مساحة كبيرة لا يمكن تثبيتها كوسط حسابى. لذلك كان تعريفه عبارة شارحة أو تصويراً أو تشبيهاً أكثر منه تحديداً عقلياً. كما يصعب إيجاد أسماء له لأنه يدل على معانى عديدة نظراً للمساحة الواسعة التى يشغلها بين الأطراف. فيصعب وجود الوسط ثم التمسك به وإلا كان قيداً على الفعل وليس طبيعة له؟

كما يصعب إيجاد الأطراف لكل فضيلة، فرداً فرداً. فالفضائل فى حاجة إلى قانون عام لأن الأشخاص تتعدى إلى مالا نهاية. وهذا هو السبب فى وجود القياس الشرعى. هناك فروق فردية للوسط والأطراف. ما قد يكون وسطاً عند البعض قد يكون طرفاً عند البعض الآخر. وما قد يكون طرفاً عند واحد قد يكون وسطاً عند آخر. والأطراف أكثر من الوسائط، والوسائط وأكثر من الأطراف. إذ أن لكل وسط أكثر من طرفين، ولكل طرفين أكثر من وسط. وبالتالي تكون الشرور أكثر من الخيرات، والردائل أكثر من الفضائل. الأواسط لا نهاية لها والأطراف محدودة.

والطرفان يلتقيان. فهما طرف واحد فى دائرة واحدة وسطها المركز. وقد يكون أحد الطرفين أقرب إلى الفضيلة من الطرف الآخر. فالتبذير أقرب إلى الكرم منه إلى البخل. والتهور أقرب إلى الشجاعة منه إلى الجبن. وليس للوسط ميزة على الإطلاق وللأطراف عيوب على الإطلاق. بل كان كبار المبدعين والعابرة أقرب إلى الأطراف منهم إلى الوسط. ويفرض الواقع أحياناً سلوكاً يتجاوز أخلاق الوسط المتناسب إلى سلوك أقرب إلى الأطراف مثل حالات الثورة والغضب والمقاومة والهبات الشعبية.

ب- التربية وتهذيب النفس. ونظراً لأن الأخلاق تجمع بين النظر والعمل تحولت من علم الأخلاق إلى علم التربية وتهذيب النفس. والتربية ليست للإنسان وحده بل للطبيعة كلها وهى متجه نحو الكمال. تحدث للنبات والحيوان بمعنى الشوق، وهو المعنى العام. كما تحدث للطبيعة كلها وهذا هو المعنى الخاص. وتعطى الإنسان كماله الأخير. وهو

طريق طبيعي وبشئيه فيه بفضل الطبيعة وهذا هو المعنى الأخص. ويكون الشوق طبقاً لقوى النفس الثلاث: الغذاء للشهوية، والمحبة والكرامة للعنصرية، والمعارف والعلوم للنطقية^(١).

وكما ترتبط الأخلاق بالفربية ترتبط التربية بالطبيعة. فالفاضل في القيمة يعكس أيضاً في التفاضل بين صور الموجودات، مثل التفاضل بين الجماد والنبات والحيوان. يزيد النبات على الجماد والتغذى والنمو والتؤيد، جذب الغذاء وطرده الفضلات. وكل مرتبة عليها أشرف من المرتبة السفلى.

ثم تظهر العواطف والإنفعالات والأحاساس مثل اللذة والأذى والمنافع والمضار. وهنا يظهر الدين، ميدان العواطف والأنفعالات، (الإيمان والعقيدة)، والمنفعة والضرر (الشريعة). لذلك كانت انفعالات النفس أحد الموضوعات الطبيعية. وقد سلحت الطبيعة الحيوان بالفرون والأنياب والمخالب والحوافر للدفاع. كما سلحت البعض الآخر بالمراغمة والذهاء. وذلك يكشف عن حكمة الله في الطبيعة. والشوق إلى المعارف والعلوم هو أيضاً كمال للتحليل الطبيعي وكأن الشوق مقونة طبيعية للحركة^(٢). ثم يتم الانتقال إلى الواجب على الحاكم بطريقة تبدو غير طبيعية مع أن "الدافع الحيوي" يستمر من الطبيعة إلى النفس إلى الأخلاق إلى الدين إلى السياسة. فواجب الحاكم واجب طبيعي بهذا المعنى^(٣). وإذا وصل الحيوان إلى الإنسان بعد التطور من الجماد إلى النبات إلى الحيوان، وظهرت الأنفعالات والأحاساس باللذة والأذى، والمنفعة والضرر يظهر الدين. فالدين مرتبط بالانفعالات والمنافع^(٤). فالدين لا يظهر إلا في التطور. وهو تنظير

(١) السابق ص ٣٢ - ٣٨.

(٢) كما هو الحال عند أرسطو.

(٣) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ٤٦ - ٥٤.

(٤) الشوق إلى المعارف والعلوم، السابق ص ٥٤ - ٥٧/٦٠ - ٦١، والاختلاف في التطور بين الأحياء عند دارون اختلاف في الدرجة وليس في النوع، وعند برجسون في النوع وليس فقط في الدرجة. فالتطور عند دارون يقوم على الاتصال، وعند برجسون على الانفصال.

للموروث «أمن يجب المضطر إذا دعاه»، «فلما كشفنا عنه الضر كان لم يدعنا بالأمس». وصفا لواقع وليس تشريعاً لمثال. وبالوصول إلى العقل تظهر النبوة.

والسؤال هو: هل لو استمر التطور يختفى الدين كما ظهر في التطور بعد أن يكتمل الوعي الإنساني عقلاً وإرادة وتحقق العناية الإلهية في الطبيعة؟ هل يتطور الدين بمعنى الشعائر والطقوس والعقائد إلى المنطق ثم من الحكمة إلى الدين من جديد، من تاريخ النبوة إلى خاتم الأنبياء إلى الدين من جديد بالمعنى الإشراقي، من الإيمان باحثاً عن العقل، إلى العقل باحثاً عن الإيمان إلى التوحيد بين العقل والإيمان، من الدين إلى الفلسفة ومن الفيلسوف إلى الفيلسوف إلى النبي إلى وحدة النبي والفيلسوف^(١).

ووسيلة الارتقاء الخلقي ضبط النفس، والانعزال عن الناس خوفاً من ردائهم في تدبير المتوحد، الثوابت بمصطلح ابن باجه. ويتم ذلك عن معرفة المرء عيوب نفسه، تمثلاً للواقف وتراكماً للموروث^(٢). ويبدأ ذلك بالمحافظة على الصحة، صحة الجسد، فالأخلاق ليست علماً نظرياً يقتن ما ينبغي أن يكون أو يقرر ما هو كائن بل هو علم عملي يهدف إلى تغيير سلوك الناس. مثله مثل الطب الذي به تبرا الأجساد. والأخلاق أيضاً علم تصح به الأبدان والنفس معاً. والأخلاق الفزيولوجية تقابل الأخلاق الرياضية. الأولى تفسير مادي والثانية علاج عقلي رياضي. فالغضب حركة للنفس يحدث به غليان دم القلب شهوة الانتقام. وينقد مسكويه الخطأ الشائع في تسمية الغضب رجولية.

والسؤال هو: هل للفضائل والردائل تفسير فزيولوجي أم أن لهما تفسير نفسي روحي معياري؟ هناك تصور هندسي للوسط في الفضائل وفزيولوجي مادي للردائل.

(١) السابق ص ٥٦-٥٩. عند جريو إذا تطور الدين وصل إلى العلوم الإنسانية والفن. فالدين لا مستقبل له كما عرض في كتاب "لا دينية المستقبل" ورد عليه إواردفون هارتمان في "مستقبل الدين"، وهو الاشكال الرئيسي في فلسفة الدين، اليهودية والمسيحية والإسلام والذي عرضه هيجل في آخر "ظاهريات الروح". انظر كتابنا: نماذج من الفلسفة المسيحية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٦٨.

(٢) تمثل الواقف من جالينوس في حفاظ الصحة على النفس ومن الكندي في علاج الخوف من الموت.

معرفة المرأ عيوب نفسه، السابق ص ١٧٢-١٧٩/١٥٧-١٦٧.

الفضائل أخلاق رياضية والردائل أخلاق فزيولوجية. الأولى للأوساط والثانية للأطراف. الوسائط عقل والأطراف حس. فهناك نوعان من الأخلاق. وعلاج الردائل مجرد دعوات ومواعظ. والذين قليل في علاج الردائل كثير في الدعوة إلى الفضائل، كثير في التشخيص قليل في العلاج (١).

وأحياناً تظهر الأخلاق الطبقيّة. فأولاد الأغنياء أكثر حاجة إلى التأديب من أولاد الفقراء، وهو ما يخرج من الأخلاق النفسية إلى الأخلاق الاجتماعيّة، ومن الأخلاق المعياريّة إلى الأخلاق الوضعيّة. والفقراء أقرب إلى الفضائل من الأغنياء، والأغنياء أقرب إلى الردائل من الفقراء (٢). فالأخلاق وظيفيّة طبقيّة يتحايّل عليها الفقراء من أجل البقاء، والأغنياء من أجل الثروة، والطبقة والوسطى من أجل المحافظة على القانون والنظام.

وأحياناً تكون الطبقة طبقتين. فكل فضيحة ينظر إليها من جانب الملك أو المملوك، للحاكم أو المحكوم، الحر أو العبد، الرجل أو المرأة. فالأخلاق تعرف بالأضداد. وخطورتها في تأديب الأحداث بها، أخلاق القاهر وأخلاق المقهور. هل كان مسكويه خائفاً من تحليل الواقع الاجتماعيّ حتّى النهاية لا يصطدم بالسلطة أم أن الموضوع كان هامشياً في "تهذيب الأخلاق" ولم يصل إلى بؤرة الشعور؟ وربما كان متوسط الذكاء، غيباً بين أغنياء، غيباً بين أدعياء كما يصفه أبو حيان (٣).

وتتحول الأخلاق إلى تأديب عن طريق المعلم. فتبدو العلاقة النفسية بين المعلم والتلميذ في استعمال الضرب للتأديب دون صراخ من ضرب المعلم، وإعطاء المعلم أجره فضة وذهباً، وطاعة الوالدين والمعلمين دون اعتراض أو تساؤل مع أن التقليد ليس مصدرأ من مصادر العلم، وتعود ضبط النفس وعدم تعبير أحد بالقبح بل مكافأته على

(١) السابق ص ١٦٢/١٧٢-١٧٦/١٧٧-١٨١/١٧٩.

(٢) لذلك جعل ماركس الدين أفيون الشعب، ونقد نيشه أخلاق العبيد.

(٣) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ٥٠-٤٠.

الجميل. ثم يعطى مسكويه تفصيلات هذه الآداب فى صف آداب ومواعظ ووصايا، أوامر ونواهي، تقنيناً لما ينبغى أن يكون. مهمة التربية التخلص من الآلام وهى الغاية الرئيسية للأخلاق الشرقية خاصة الهندية. ومعظمها أفعال طبيعية لا تحتاج إلى وصايا. يكفى فى ذلك الذوق الطبيعى. وبعضها ينم عن أخلاق الخاصة مثل الأدباء الذين يسمح لهم بالشراب وحدهم دون العامة^(١). والبعض منها أدواق شخصية لا تتفق مع وصايا القرآن مثل العمل ليلاً والنوم نهاراً! والبعض الآخر مضاد للفلسفة الطبيعية أساس التهذيب مثل تأجيل الوطء للشباب مع أن وصايا الرسول الاسراع به. وهى أخلاق تقليدية شائعة فى معظم المجتمعات الشرقية. وما زال الكثير منها سائداً فى اليابان المعاصرة.

٣- الأخلاق الإلهية. ويظهر الله من ثانيا الفضائل ومن قلب الأخلاق متربعا على عرشها دون إثبات وأدلة كما يفعل المتكلمون، إستباقاً للحوادث وقفراً على المقدمات. لذلك تبدو الأخلاق الإنسانية أخلاقاً إلهية. ومن ضمن الفضائل الفرعية للعدالة الرجوع إلى الله وإلى عهده وميثاقه. وبعد الحديث عن الإنسان، وأنه أشرف الموجودات يتم اكتشاف الله من خلاله كعلامة على الشرف. فالإنسان وسيلة والله غاية. وفى تصنيف الخيرات طبقاً للمقولات يظهر الله فى مقولة الجوهر مما يدل على العلاقة الوثيقة بين الدين من ناحية

(١) وذلك مثل: عدم حضور مجالس الشراب إلا أن يكون فيها أدباء، عدم الطعام قبل تعلم الأديب، منع خفاء الأفعال أى العمل العلنى ضد العمل السرى، منع النوم الكثير ليلاً، والنوم بالنهار وهو ما يناقض «وجعلنا الليل لباساً والنهار معاشاً»، منه الوطء حتى يصلب العود مع أن الشباب فى حاجة إلى الوطء أكثر من الشيخ، تعليم المشى والرياضة من أخلاق البدن، عدم الكشف الأطراف حياء طبقاً لفضيلة، الحجاب، عدم الاسراع فى المشى مع أن الرسول وعمر كانا يهرولان، عدم إرخاء اليدين بل ضمهما إلى الصدر مع أنه مباح فى الصلاة، عدم تربية الشعر وقد كان تقليداً عربياً حماية للرأس من وهج الشمس، عدم التنزين بملابس النساء طبقاً لحديث «لئن الله المشبهين بالنساء من الرجال»، تحريم الخاتم إلا وقت الحاجة (مثل الخطبة)، عدم افتخار الإنسان بما يملك، رفض القراية والوساطة، عدم البصق والتمخط والتثائب، عدم وضع رجل على رجل ولا ضرب تحت الذنن بالساعد ولا استقاء الرأس على اليد ربما علامة على الخيلاء والحزن، وعدم الكذب والحلف إلا صدقاً، ولا حاجة إلى جلوس الصبى على اليمين، مع قلة الكلام فى الإجابة، والاستماع إلى الكبير فى السن. آداب متنوعة، تهذيب الأخلاق ص ٥٠-٥٤.

والمنطق والطبيعة والميتافيزيقيا من ناحية أخرى. السؤال هو: أيهما أصل وإيهما فرع أم أن كليهما بنية للذهن البشرى؟ ومن ثم يتفق الواقد والموروث بصرف النظر عن مصدرهما فى بنية واحدة. والنفس إلهية، قوة غير جسمانية، مستعملة لمزاج خاص ومربوطة به رباطاً طبيعياً وإلهياً. فترى مشاهدة وعباناً. ويلحقها ضروب التغير المشاهد بالحس. والنعم الموجودة فى ذواتنا هيات من الله^(١).

وتظهر الأخلاق الدينية فى الفضائل وتختفى فى الرذائل. وتظهر فى كل فقرة وفى كل مقال لدرجة التكرار. يبدو أن الأخلاق المعيارية كلها فكر دينى، وجود الله، وخلق العالم، وخلود النفس^(٢). فمن السهل تحويل الأخلاق الدينية إلى ممارسات عملية. كما تظهر الأخلاق الدينية فى ترتيب الفضائل. فالأخلاق إما اتجاه إلى العالم المحسوس أو تخلص النفس من الهواء والانفعالات أو اتجاهها نحو الله. ويختلف التوجه نحو الله بحسب الشوق والمعاناة، وبحسب الطبائع والعادات والمنازل والمواقع والهم. وليس من العدل حب المال الذى قد يودى إلى بيع الدين. والأخلاق الإلهية لا تعتمد على آلات ولا شوق إلى الماضى، ولا تشيع لحال، ولا خوف أو فرح، ولا شغف بحال، ولا طلب لحظ، ولا حاجة للبدن أو النفس بل الخير العقلى المحض. وتختلف بحسب الهمم والشوق والمعاناة وقوة التمييز وصحة الثقة والمنزلة من الفضيلة والتشبيه بالعلة الأولى، المبدأ الأول، خالق الكل. وطلب الرياسة ومحبة الكرامة ضد الغاية لذاتها. فالدين أعلى من المنطق والسياسة. وأعلى نصيحة الهناء بنعمة الله والاستعداد للآخرة^(٣). ويعنى الاتحاد عند مسكويه الخروج عن سمة الحكمة وسنة الشريعة وإنكار الحياة الأخرى. فى حين يرى الأخلاقى أى المؤمن عالم الفضائل عالم البقاء، وعالم الرذائل عالم الفناء. فماذا تعنى الأخلاق الإلهية؟ هى تعبير عن تمن ومطلب الكمال كما هو الحال فى علم الكلام

(١) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ٦/١٥/١٩/٣١/٣٨-٣٩/٤٣-٥٤/٦٤.

(٢) وهذه هى المذاهب اليونانية الثلاثة، أفلاطون وأرسطو وسقراط. وقد لاحظ ذلك رويس فى فلسفة

الدين، تفسير الدين فلسفياً وتأويل الفلسفة دينياً، السابق ص ٤٧/١٩ - ٤٨.

(٣) السياق ص ٧٢ - ٧٤/٤٥ - ٤٨.

ون الاحالة إلى شئ فى العالم الخارجى، وقد يكون نوعا من الاغتراب خروج الإنسان عن ذاته واغترابه فى غيره، وبالتالي يمكن القضاء على الاغتراب والعودة إلى الموقف الشرعى. ولا يهم نشأة العالم الطبيعى بل التوقف عن الحكم. الله تعبير أدبى انشائى يكشف عن البعد المثالى فى الشعور.

والأخلاق الالهية هى الغالبة على الأخلاق الجغرافية والإنسانية والنفسية والاجتماعية والسياسية وكأنها مشروطة باغتراب وترك العالم. وهى أقرب إلى التصوف العقلى أو التصوف الخالص، مثالية وتظهر. غايتها العناية والتبشير على القصد الثانى وكان الغاية المادية أقل من الغاية فى ذاتها.

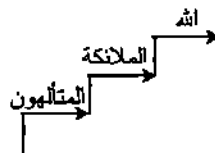
ويمكن التحول من الأخلاق الالهية إلى الأخلاق الإنسانية انساقا مع روح العصر وكشفا لغاية الوحى، وتحقيقاً للقصد الالهى ^(١). بعد ذلك يمكن التحول من الإنسان العام إلى الإنسان الخاص، ومن الإنسان المثالى إلى الإنسان فى سياقه الاجتماعى، ومن الكمال النظرى الأول، العلم بأمور الموجودات على الترتيب الالهى إلى الكمال النظرى الثانى، العلم بالأوضاع الاجتماعية على الوضع الإنسانى ^(٢).

أ- أخلاق الملائكة. وتبدو أخلاق الملائكة نموذجاً للخلق الالهية وأخلاق المتألهين، معياراً للأخلاق، ورمزاً لعالم القيمة. وبالرغم من تفاوتهم فى المراتب، يصل المتألهون إلى درجة الملائكة ^(٣). والكل سعداء فى سعادة تامة وعلى مستوى المطلق لا فرق بين الوافد والموروث، بين أرسطو الذى يتحدث عن الله والملائكة والقرآن. فانه

(١) وقد تم تحقيق ذلك القصد فى من العقيدة إلى الثورة*.

(٢) وقد قام فيورباخ بذلك من قبل.

(٣) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ١٤٠ - ١٤٢.



هو القاسم المشترك بينهما كموضوع، والعقل قاسم مشترك بينهما كذات. وقد استعمل الواصل للفظ ليس بمعنى المطلق بل مجرد تشبيه، فمن أحب الله وعاهده كما يتعاقد الأصدقاء أحسن إليه. لذلك جعل الحكيم يفرح بلذة الحكمة دون غيرها. الحكيم السعيد التام الحكمة هو الله ولا يحبه إلا السعيد الحكيم بالحقيقة. فالشبيه يسر بالشبيه. لذلك صارت هذه السعادة أعلى من السعادة الإنسانية مبرأة من القوى النفسانية بل موهبة من الله لمن اصطفى من عباده.

ولا يضاف إلى هذا المعيار الملانكي عالم آخر نسبي، رد الودائع، وعدالة التجار، ونجدة المحتاجين، ونفقات المعوزين، وضبط النفس الشهوية، وفضيلة العفة، والغذاء المكون للاستقسات الأربعة. ولا يحتاج الأبرار المطهرون إلى الفضائل الأنسية، والملائكة منزهة عنها. والله خير بسيط يدركه العقل الخالص. يتقرب إليه الإنسان ويطلب مرضاته بقدر الكافة، ويتقبل أوامره قد المستطاع. ومن أحب الله على هذا النحو أحب الله حقاً، واستحق لقب خليل الله.

وتظهر أخلاق الملائكة من قسمة قوى النفس الثلاثية، من جانب النفس الناطقة، نفس عالم الملائكة. فالملائكة معيار خلقى للبشر، وكما يظهر في التعبيرات الشعبية الأدبية والتي تعنى استحسان الكمال الأقصى. والملك الحقيقي ليس الملك فى الدنيا نعيما بل هو ملك الحياة الأبدية سواء كان ذلك اغتراباً أو تعويضاً أو تمنياً.

وتعتبر هذه الأخلاق الملانكية عن الرغبة فى عالم أفضل، وأمل فى معيار واحد عام وشامل للأخلاق. وهو تمنى عن طريق السلب. هو رمز للنشئ فى ذاته والتي يبغيها السعيد الكريم. ليس هذا اغتراب وتطهيراً وهما للمجتمع وهو ما ينفده مسكويه نفس بنفده الزهد؟ وهل يفرح الله بالحكيم فى برجه العاجى متأملاً الخير فى ذاته أم بالعامل الذى يكذب ويكدح ويسعى فى الأرض دون أن يجف عرقه ويأخذ أجره؟ وهل يعتنى الله بالسعداء أم بالأشقياء؟ أليس هذا قلباً، التفكير فى الله بدلاً من التفكير فى العالم كما هو الحال فى علم الكلام؟ هو إذن مجرد خطاب إنشائى، تشبيه صداقة الإنسان لله بصداقته للآخرين، ثم قلب

الأفقى رأسياً بسبب الاغتراب والضيق واليأس والفشل واستسهال المعارك. وماذا عن لذة الشهادة والعمل والكفاح تنفيذاً للأمر الإلهي ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾؟ وتظهر المقولات الإنسانية في وصف الله بالسعيد التام الحكمة والخير مثل علم الكلام وهي ألفاظ خلقية وليست ألفاظاً طبيعية أو من ما بعد الطبيعة. وبعد استعمال المقولات الإنسانية للوصول إلى الله تتم إزاحتها، ويتحول الله إلى شخص، إلى جوهر عقلي خالص بعيداً عن العالم لبعد أن نشأ منه. هل المر مجرد لياقة واستحسان عقلي وذوق وإحسان أم عمل وكفاح وكد وعرق؟ هل هي علاقة خاصة بين الحكيم والله أم علاقة عامة بين الله والأمة والتاريخ؟^(١) ولم الفصل بين المطلق والنسبي؟ هل هو من آثار التنزيه المجرد؟ هنا الحلول أوقع أو التنزيه الحال، التنزيه الفعال.

وتقوم الأخلاق غير الإلهية على الخداع والمزايدة لعدم اتخاذ الله والملائكة معياراً للأخلاق يحمي السلوك والأخلاق من النفاق والتستر بالملائكة على أفعال الشياطين أو للمزايدة والبحث عن الحد القصي لدرجة الاغتراب والخروج من العالم كلية واسقاطه من الحساب، وهو ميدان العمل الأول وتحقيق الكمال^(٢).

ولما كانت الموجودات ثلاثة: حيوان إنسان وملاك كانت الطبقات ثلاثاً: دنيا ومتوسطة وعليا. وكان الناس عامة وفقهاء وصوفية^(٣). وهذه الأخلاق للراعي والرعية، نموذجاً للشجاعة الحققة قولاً وعملاً، سلوكاً وتجربة، وهي أخلاق البطولة والتضحية^(٤). وتظهر الأشعرية كمنة فيها كأساس للتصوف مثل العون والتوفيق والهداية^(٥).

(١) وقد ركز على ذلك للشاعر الفيلسوف محمد اقبال.

(٢) السابق ص ٣٥ - ٣٨.

(٣)

علـيا	} المـوجود	مـلاك
متوسطة		إنسان
دنـيا		حيوان

صوفية }
فقهاء }
عامّة }

(٤) "ولذلك يجب أن يعظم الشجاع ويشج بنفسه. وحقيق على السلطان خاصة والقيم بامر الدين والمال أن ينافس فيه ويجل قدره، ويعلى خطره، ويميزه عن سائر من يتشبه به"، السابق ص ٨٩.

(٥) من العقيدة إلى الثورة، ج ٣، الحل، أفعال الشعور الداخلية ص ١٨ - ٧٤.

ب- العبادة. والعبادة طريق الوصول إلى الله. وهى ما يجب على الإنسان لخالفه، وسبب الاتصال به. وأشكالها متغيرة طبقاً للزمان والمكان، وهى على أربعة مراتب. الأولى صلوات وصيام، وخدمة هياكل ومصليات وقرابين كما يقنن الفقه. والثانية الإقرار بالربوبية والاعتراف بأحسنه وتمجيده بحسب استطاعته كما ينظر المتكلمون، الثالثة التقرب إليه بالاحسان إلى المستحقين بالمواساة والحكمة والموعظة كما يريد علماء الأخلاق. والرابعة التفكير فى الالهيات وزيادة معرفة الله حتى تتكامل الوجدانية الخاصة كما يفعل الحكماء. والخامسة والأخيرة التفرد بها والاختلاف فيها حسب طبقات الناس ومراتبهم فى العلم، وهو الصوفية خاصة الخاصة. وهذا تنظير للموروث وليس تمثلاً للوافتد، العقل الذى يكشف هويته مع الطبيعة والوحي.

والحدث من الفلاسفة أيضاً على ثلاث مراتب. الأولى ما يجب له علم الأبدان، الصلاة والصيام والسعى أى الشعائر. والثانية ما يجب له عند مشاركات الناس فى المدن، المعاملات المزروعات والمناكح وتأدية الأمانات والنصيحة والجهاد أى السياسة المدنية. والثالثة ما يجب له على النفوس، الاعتقادات الصحيحة والعلم بتوحيده أى الحكمة والكلام. ما يجب على الحدث من الفلاسفة إذن سياسة الأبدان وسياسة المجتمعات وسياسة الديانات. وهذا أيضاً تنظير للموروث وليس تمثلاً للوافتد.

ومقامات الإنسان فى الطريق أربعة. الأول الموقنون وهو العلماء والحكماء. والثانى المحسنون فى العلم والعمل. والثالث الأبرار وهم المصلحون، خلفاء الله فى إصلاح العباد. والرابع الفائزون وهم المخلصون فى المحبة والاتحاد بالله. وإذا ما تحقق الإنسان بهذه المقامات تحققت له أربع خصال: الحرص والنشاط، والعلوم الحقيقية والمعارف اليقينية، والحياء من الجهل ونقصان العزيمة سبب الإهمال، وأخيراً لزوم الفضائل والترقى فيها بحسب الاستطاعة^(١).

(١) ما يجب على الإنسان لخالفه السابق ص ١٠٠ - ١٠٢.

لم ينص أرسطو على العبادة تجاه الخالق ولحظ فقط اختلاف النا سفيها تجاه الخالق وتمثلاً للوafd لا تكون همم الإنسان إنسية أو حيوانية بل أن يحيا حياة إلهية. فان الإنسان صغير الجسم عظيم الحكمة شريف العقل. والعقل هو الرئيس. هل هذا هو الوafd التاريخي؟ هل هو أرسطو الأفلاطوني الأفلوطيني؟ هل هو أرسطو الإسلامي المنحول أم قراءة إسلامية لأرسطو؟ إلى هذا الحد كان أرسطو متدينًا، رسول هذه الأمة (١).

وبعد الايجاب السلب. وبعد اثبات النفي. وأسباب الانقطاع عن الله أربعة وكلها نتيجة السقوط. الاعراض وما يتبعه من استهانة وزيف، والحجاب وما يتبعه من استخفاف وهو الدين، والطرء وما يتبعه من سخط ومقت وهو الغشاوة، والخساة ومقت يتبعه من بغض وهو الختم. وهذا تنظير للموروث وليس تمثلاً للوafd معتمداً على مصطلحات الصوفية مما يدل على القرب بين الأخلاق الالهية والتصوف، من الأخلاق إلى التصوف في الأخلاق، ومن التصوف إلى الأخلاق في التصوف. التصوف علم لبواطن القلوب في مرحلته النفسية، وعلم للأخلاق في مرحلته الأخلاقية.

وشقاء العبد بأربع خلال: الكسل والبطالة وضياح الزمتم وفناء العمر بغير فائدة وهو الزيف، والغباوة والجهل المتولدان عن ترك النظر ورياضة النفس بالتعاليم وهو الدين، والوقاحة من اهمال النفس ولتباعها الشهوات وهو الغشاوة، والانهماك من الاستمرار في القبايح وترك الإنابة وهو الختم. وهنا يبدو تنظير الموروث لاكمال تمثّل الوafd عن طريق التضاد جمعاً بين مصطلحات التأويل (التصوف) مصطلحات التنزيل (الفقه). بل هي ألفاظ قرآنية وليست فقط شرعية، ونفسية شعورية مثل القلب. لا اختلاف إذن بين الشرائع والحكام بما في ذلك الوafd إلا في الألفاظ والعبارات والاشارات حسب اللغات. بل إن بعض المصطلحات الوafd مثل العاشق والمعشوق، والعلة الأولى، والغاية القصوى يسهل تركيبها وتبادلها مع الموروث (٢).

(١) السابق ص ١٤٢ - ١٤٤.

(٢) السابق ص ١٠٢ - ١٠٤..

جـ - للمحبة. إذا كان العدل صفة موضوعية في الكون فإن المحبة صفة ذاتية. ولا تتم المحبة إلا بالأراء الصحيحة من العقول السليمة والاعتقادات القوية التي لا تحصل إلا بالديانات التي يقصد بها وجه الله. والفرق بين المحبة والعشق أن العشق إفراط في المحبة لدرجة العلة. وما أسهل بعد ذلك من الجمع بين تمثل الوافد وتنظير الموروث نظراً للقاسم المشترك بينهما.

والمحبة الالهية وحدها هي الدائمة دون غيرها. وهما لا يجتمعان معا ولا ينحلان معا. بل تثبت الدائمة وتتحل المتغيرة. وهو دليل أشبه بدليل التمانع لاثبات الوحدانية. المحبة الالهية لذة تصير عشقاً تاماً خالصاً مثل الوله. وتحدث إذا صفا الجوهر الالهى الذى فلا الإنسان عن دورته الناشئة من ملابسه الطبيعية وأنواع الشهوات وأصناف محبات الكرامات. فلم ير الخير الأول المحض الذى لا تشويه مادة فيفيض نوره عليه فيلتذ ويتحد به بعد مفارقتة الطبيعية. وهى محبة لا تقبل للنقصان، ولا يعترض عليها الملك، ولا تكون إلا بين الأخيار. هذا التدبير الالهى بالسياسة الطبيعية هى سياسة الله التى عاونت الإنسان على إنشاء الولد وجعله السبب الثانى فى إيجاداه ونقل صورته الإنسانية له. فالسياسة الالهية أساس السياسة الإنسانية، والصورة الالهية تتعكس فى الصورة الإنسانية من خلال الأعقاب^(١).

والمحبة السالبة التى تطرأ عليها الآفات محبة الوالدين، ومحبة التلميذ لمعلمه، ومحبة العبد لخالفه. ومحبة الحكماء أشرف من محبة لوالدين. فالولادة ولادة فكرية^(٢). وتقرب محبة الحكماء من محبة الله الأعلى ومن محبة الوالدين الأدنى لأن تربية الوالدين للنفس مثل تربية الحكماء للأبدان. ومن كان خيراً بالطبع فاضلاً فذلك لمحبة الله له وليس الأمر له بل لله وعنايته. وهو وحده السعيد الكامل المقرب لله. وهذه المحبة لا تطرأ عليها الآفات، ولا تشوبها الانفعالات. ليست محبة اللذة، ولا محبة المنفعة أو الكرامة بل محبة الخير بالذات، المحبة الالهية الباقية. محبة الحكمة والانصراف إلى التصور العقلى،

(١) السابق ص ١١٤/١١ - ١١٧/١١٥ - ١١٨/١٢٨ - ١٢٩/١٤٠ - ١٤٣.

(٢) وهو نفس رأى أفلاطون فى "المأدبة" وبرشت فى "دائرة الطبائير القوقازية".

واستعمال الآراء الالهية خاصة بالجزر الالهى من الناس لا تعرض لها الآفات. لا تقبل النعمة ولا الشرور لأنها الخير المحض، وسببها الخير الأول الخالى من المادة. وما دام الإنسان يستعمل الأخلاق والفضائل الإنسانية فانها تعوقه عن الخير الأول، والسعادة الالهية هى الأساس. ومن أصل الفضائل بنفسه ثم اشتغل عنها بالفضيلة الالهية فقد اشتغل بذاته ونجا من مجاهدات الطبيعة والامها، من مجاهدات النفس وقواها، وصار مع الأرواح الطيبة، واختلط بالملائكة المقربين. فاذا انتقل من وجوده الأول إلى الثانى حصل على النعيم والسرور الأبدى.

واضح من الأخلاق الدينية أو الالهية أنها بعيدة عن الأخلاق الاجتماعية ومتجهة نحو نوع من الاغتراب الصوفى. ولماذا لا تقبل المحبة الالهية النقصان وهى مشروطة بالعمل الصالح؟ لو كانت مطلقة من طرف واحد لكانت صوفية أو يهودية. هو تصور متظاهر للمحبة لا تكون خالصة إلا اغتراباً أو فى أكثر الأحوال خطأ أو تبريراً أو نفاقاً. ومن ثم تقسد المحبة الالهية بالتبرير وبالغطية والتعمية والتستر وبالازدواجية والنفاق.

محبة الخيار هى المحبة الخالصة لا لذة خارجية، ولا لنفع، ولا لعرض، محبة الجوهر، قصداً لخير والتماساً لفضيلة. هى المحبة المجردة. وهى غير محبة السلاطين، ومحبة الولد للوالد لأن الله خلق والوالد ربه، لا محبة الاخوة لأنهم جميعاً من مصدر واحد. لم يوص الدين بمحبة الوالد للعشير، الصديق للسلطان، والوالد للرئيس الأجنبى. والحقيقة أنها كلها ليست طيبعية خاصة محبة الرجل للرئيس الأجنبى. فالطبيعى كراهته للتحرر منه.

والمحبة مشروطة بالكرامة وليس غير مشروطة كما هو الحال عند الصوفية بين الشيخ والمريد أو بين الله والإنسان. المحبة علاقة متبادلة، بين المحبة والكرامة، بين الحب والعدل أو بين المحبة والصدقة. المحبة متبادلة بين طرفين وليست من طرف واحد على عكس الصوفى أو اليهودى، محبة الله للشعب المختار ومحبة المسيح للجار دون انتظار مقابل. وهناك محبة تطراً عليها الآفات. ومن أجلها يقترب الأخيار ويتعد

الأشرار. وقد أمرت الشريعة بمحبة الله مثل إبراهيم الخليل (١). ومع ذلك العاقل يريد الخير لذاته، ويعامل غيره كما يعامل نفسه.

واضح أن المحبة على هذا النحو فضيلة تطهيرية، إغتراب وتطهر أو ترك الأهل لأخذ الأعظم. لها جوانبها الطبيعية والاجتماعية، الرياضية والصوفية ولكن الواقع يقدم نموذج قابيل وهابيل، ويوسف وإخوته بالرغم من محبة الأخوة. وإذا كان الأخيار أيضاً يقتربون من الخير والأشرار يبتعدون عنه بفعل المحبة كان الأشرار أيضاً يقتربون من الشرير ويبتعد عنه الأخيار لدوافع أخرى. والمحبة مثل الصداقة بداية التحول من الأخلاق النفسية إلى الأخلاق الاجتماعية لأنها تتعلق بصلة الفرد بالآخر، الحبيب ولصديق. فهل إذا صلحت المحبة الفردية قوى الترابط الاجتماعي؟

د - الصداقة والفتانة. والمحبة أساس الصداقة. والصداقة أحد جوانب المحبة. علاقة المحبة بالصداقة مثل علاقة العام بالخاص. الكلي بالجزئى. فكل محبة صداقة، وليست كل صداقة محبة. المحبة طريق إلى التوحيد أى تحويل الكثرة إلى وحدة. وكلاهما فى المجتمع، ليلتذ الحكيم أكثر مما يسعد المجتمع، قيمة صوفية، حب الله، أكثر منها قيمة اجتماعية، التضامن الاجتماعى. المحبة وسط بين الصداقة والعشق، بين التفریط والافراط.

وأأنواع الاتحاد أربعة، بنية محكمة، موضوعان واحتمالان. ما ينعقد سريعاً وينحل سريعاً مثل اللذة، ما ينعقد سريعاً وينحل بطيئاً مثل الخير، ما ينعقد بطيئاً وينحل سريعاً مثل المنافع، وأخيراً ما ينعقد بطيئاً وينحل بطيئاً مثل الخير. ومقاصد الناس إما اللذة أو النافع أو ما يتركب منهما أو الخير الخالص، وكل منها لإرادية وعن روية أو مجازية ومكافأة (٢).

وما بين الحيوانات ألفة لا محبة. وفى الجماد ميل طبيعى أو منافرة ومشاكلة حسب الأمزجة، حسب التأليف والنسب التأليفية أو العددية أو المساحية طبقاً للنسب وإلا حدثت منافرة. والخواص أفعال بديعى تسمى أسرار الطبائع. وهى أشرف النسب. وهى

(١) السابق ص ١١٩ - ١٢١ / ١٢٤ - ١٢٥.

(٢) السابق ص ١١١ - ١٤٤ / ١١٧ - ١١٩.

موجودة فى علم صناعة الأثرمطابقى وصناعة التأليف. وقد تكون الأمزجة خفية. سببها الأثر من الإنسان وليس من النسيان. فالأثر طبعى فى الإنسان.

والمحبة على أنواع. اللذة المشتركة بين الرجل والمرأة سببها اللذة أو المنافع المشتركة. والحب اللوامة التى يشتكى فيه العاشق من المعشوق وهو يتظلم منه وهو ظالم لتعجله بلذة النظر. وهى أيضاً بين الرئيس المرووس، ولأولى والمملوك، والسيد والعبد. وتحديث الملامات لأن كل واحد يتوقع عند الآخر ما لا يجده. وتزول بالعدالة والرضا. واللوامة لفظ موروث.

والسؤال هو: هل فى الجماد محبة إلا إسقاطاً كما يقال على التأليف والتركيب فى المغناطيس أو التفاعلات الكيميائية؟ هل هناك سر فى العلم يدرس أسرار الأمزجة فى الطبائع؟ وهل فى الأخلاق الصوفية صلاح البشر مثل المحبة والصدقة؟ وهل يصلح حال المدينة بالمحبة أم أن ذلك يكون تعمية على الأوضاع السياسية والاجتماعية؟ والعلاقة الطبيعية بين الظالم والمظلوم، والقاهر والمقهور، والغنى والفقر هى علاقة صراع وليست علاقة محبة.

والصدقة قد تأتى بسرعة إلا بين الأصدقاء الحقيقيين. الصديق هو هو إلى أنه غيره بالشخص مما يدل على أن الصدقة وحدة بين الصديقين. وهناك صلة بين الصدقة والسعادة. فالسعيد من اكتسب الأصدقاء. والصدقة بين الأحداث للذة، وبين المشايخ للمنفعة. وتظل باقية طالما بقيت المنافع، وبين الأخيار من أجل الخير، ويبرز موضوع الصدقة والسياسة. هل يساعد الأصدقاء السلطان، وأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر دون ذكر للمؤسسات حتى يتحول النصيح إلى تشريعات وقوانين مثل الحسبة وهى الوظيفة الرئيسية للحكومة الإسلامية دون أن يبقى عملاً فردياً أخلاقياً؟ فالصديق بهذا المعنى شريك فى السلطة وكان السلطة مجموع من الأصدقاء يتناصرون فيما بينهم مع إظهار الاحترام للسلطان. الأصدقاء يساعدون السلطان فى تدبير شؤون الرعية أعواناً أم عيوناً^(١). ومع ذلك من أراد التراس فقط بفرط فى المودة. ويفصل مسكويه الصلة بين

(١) "ولا تكن بالمستحقر لأيدى الاخوان واحسان السلطان" السابق ص ١٣٢.

الصداقة والسلطان. وهو موضع يعبر عن البيئة الإسلامية ونظم الحكم وعاداته القديمة. فالصداقة نعمة عظيمة. والصديق خلو من السلطان، وأعظم نعمه وبيده السلطان. فالصديق هو الذى يبصر بأمور الرعية. هو أذناه وعينه وقلبه. إن كان السلطان محباً للرياسة والغلبة والتروؤس والتفريط لا ينصف فى المودة ولا يقابل الصداقة بصدقة بل يتعالى ويصاب بالخيلاء والاستهانة بالأصدقاء والترفع عليهم فتتحول الصداقة إلى عداوة وبغضاء واحتقار للغير. وإذا بلغ الصديق مرتبة السلطان فليغمس إخوانه فيها دون امتنان وتطاول. ويدخل أهل النميمة على الملوك فى صورة الناصحين حتى يفسدوا نيتهم على الوزراء المجتهدين فى تثبيت الملك إلى أن بغضوا عليهم فيبطشون بهم وهم لا يستحقون إلا الكرامة والاحسان، وهؤلاء أصدقاء السوء منصبون السانس فى البلاط تعبيراً عن الواقع السياسى عند القدماء. وقد يكون فى ذلك تضارب بين السعادة والخير فى ذاتهما والنسبة الرياضية من ناحية وتأديب الأحداث ونصائح الملوك من ناحية أخرى (١).

ويضع مسكويه مقاييس عشرة لاختيار الصديق، صباه، سيرته، وميوله، وطباعه (٢). ثم يفضل آداب الصداقة فى أطول الفقرات. ومعظمها آداب اجتماعية مثل البشاشة، والحذر، والكرم، وعدم الترخص، وعدم النميمة، وعدم فساد المحبة الإلهية (٣). وهى مجرد إحصاء نصائح دون تحليل المواقف مع ضرب المثل بسلوك الحيوان كاخلاق طبيعية. والبعض منها يمكن الاستدراك حوله. والبعض الآخر مثل النفاق والازدواجية

(١) السابق ص ١١٣ - ١١٥ / ١٢٤ - ١٢٥ / ١٣٥.

(٢) كيف يختار الصديق: صباه مع والديه وإخوته وعشيرته، سيرته مع أصدقائه، سيرته مع من يحب شكره، ميله إلى الراحة وتباطؤه عن الحركة، محبة للذهب والفضة، محبة للرياسة، الاستهزاء بالفناء واللحون وضروب اللهو واللعب وسماع المجون والمضاحك، عدم كثرة الأصدقاء، عدم تتبع صفار عيوبه، الحذر من عداوة الصديق والاستشهاد بالشعر، السابق ص ١٣١ - ١٣٣.

(٣) آداب الصداقة: كثرة مراعاته فى دقة الرخاء بالبشاشة دون ملق، ومشاركته فى السراء والضراء، والتقرب لمن ينيغى، والمداومة على الصداقة، وحذر المراء مع الصديق، وعدم البخل على الصديق بالعلم أو الآداب لقيحها أو لفتها أو أنانية أو حسداً أو منع الكذب، وعدم الترخص مع الأصدقاء لدرجة ذكر الأشياء فى النفس وعدم التبسط، وعدم النميمة والإيقاع بين الملك ووزارته، وعدم فساد المحبة الإلهية، السابق ص ١٣٣ - ١٤٠.

والخيانة غير مذكورة. قليل منها له أسس دينية مثل شكر النعم والحذر من المرء والألفة التي دعت إليها الشريعة.

وبالرغم من أن القناعة ملحقة بالزهد عند الصوفية إلا أنها قرينة بالصدقة عند مسكويه. هي إمضاء مشيئة الله وإتمام سياسته، واستخدام النفس للناطقة لذلك دون غيرها وألا تجاوز حدودها. ولا أعدل ولا أشرف من تنبيره وتقديره وتربيته. وكل من غيرها خالفه فقد جار ^(١). فمن وجد الكفاية والقصد من السعادة الخارجية لا يشتغل بفضول العيش فإنه بلا نهاية ومن طلبها فإنه يهلك ^(٢). الغرض منها مداواة الآلام والوقاية منها وليس التمتع وطلب اللذة، ومعالجة الجوع والعطش، وهما عرضان مؤلمان صادان. ليس القصد منها لذة البدن بل صحته. فطلب العلاج باللذة لا يؤدي إلى الصحة بل تغنى اللذة. ومن ليس له كفاية وسعد في تحصيلها فإنه يكون بالقصد وعلى قدر الحاجة دون السعى الخبيث والعرض الشديد والتعرض لقبيح المكاسب أو ضرور المهلك. والعامل المحب لنفسه والساعي لخلاصها مكن آلامها ونجاتها من مهالكها تصفح أمراض النفوس ومداواتها وعلاجها الراغبة في الله، والتوفيق بعد الاجتهاد ^(٣).

القناعة بهذا المعنى أقرب إلى التسليم بالقضاء، والاستسلام للقدر. كيف يمكن في هذه الحالة إذن أن تنشأ المعارضة وتقوم الثورة مطالبة الفقراء بحقوقهم في أموال الأغنياء إذا كانت مخالفة لتقدير الله وظلماً له؟ ولماذا النفور من إشباع الحاجات باسم الله والضروريات أحد مقاصد الشريعة؟ إن القناعة موضوع صوفي من موضوعات "الرسالة القسيرية" تدل على اغتراب وعجز وحرمان وتعويض وتشير إلى ما سماه بلغة العصر "أفيون الشعوب".

٤- الأخلاق الشرعية. وفي الأخلاق الشرعية يجتمع الوافد والموروث، أرسطو والقرآن، الشريعة لفظ إسلامي للتعبير عن القانون بدلاً من اللفظ المعرب ناموس الذي يبدو

(١) وكل من خالفه، وعدل عنه فهو أعظم جائر على ذاته وأكبر ظالم لنفسه، السابق ص ١٥٣.

(٢) وذلك مثل قول غاندي: في العلم ما يكفي لكل الناس. وما في كل العالم ما لا يكفي لطمع إنسان واحد.

(٣) مسكويه: تهذيب النفس ص ١٥١ - ١٥٣ / ١٨٣.

أنه كان موجوداً قبل عصر الترجمة كالألفاظ الفارسية المستعملة في القرآن. وربما كان هناك مصدر واحد للغات شبة الجزيرة العربية وامتدادها شمالاً في صحراء الشام وما بين الوافدين. فقد كانت منطقة تدخل بين اللغات الهندية الأوروبية واللغات السامية. الاستبدال اللغوي أحد مظاهر التشكل الكاذب المعكوس أى التعبير عن اللفظ اليوناني بلفظ إسلامي، والتعبير عن الناموس بالشرعية دون المضمون الإسلامي. فأرسطو محمد اليونان، ومحمد أرسطو المسلمين. ومن السهولة تركيب أرسطو على الشريعة لأنهما بنيتان متشابهتان ينتهيان إلى نفس الشيء. فنص أرسطو به "الله تبارك وتعالى"، مصدر الناموس الأكبر.

يدخل أرسطو بعد عرض مسكويه استشهداً به. أرسطو هو الشارح ومسكويه هو النص. وإذا ظهر أرسطو قبل مسكويه فلنتمثل الوافد. التشكل الصاق صراحة في شرح مسكويه لعبارة أرسطو. ومعنى الناموس في لغته السياسة والتدبير أى إكمال أرسطو وعدله وتصحيحه. والتشكل الكاذب استعمال اللفظ اليوناني للتعبير به عن مضمون إسلامي مثل العقل الفعال، والعلة الأولى، والمحرك الأول. والتشكل الصاق استعمال اللفظ الإسلامي للتعبير عن مضمون يوناني مثل الشريعة بدل الناموس.

أرسطو متفق مع العقل والطبيعة والوحي وكأنه مسكويه. ذكره مسكويه من قبيل الاعتراف بفضل السابقين كاعتراف الإسلام بالمسيحية واليهودية السابقتين عليه وإن كانت له شريعته الخاصة فهي متصلة بباقي الشرائع كاتصال الشرعة الإسلامية بالشرائع السابقة عليه. أسس الشريعة واحدة، العقل والطبيعة سواء كان مصدرهما واحد في الوحي أو في التاريخ^(١).

ولما كانت الشريعة تقدر الأفعال الإرادية التي تقع بالروية وبالوضع الإلهي صار المتمسك في معاملاته عدلاً والمخلف لها جائراً نظراً لوحدة الوحي والعقل والطبيعة. العدالة تسمى التمسك بالشرعية هيئة نفسانية ينقاد لها الإنسان طوعاً ولا يضادها. فإذا تعود الإنسان أن تكون سيرته فاضلة ولم يقدم على شيء من الأفعال إلا بعد مطابقتها للعقل

(١) استعمل مسكويه نصوص جيدة من أرسطو للتعبير عن الآخر المشابه كما فعلت أنا مع إسبينوزا أو فيورباخ والتأليف غير المباشر واستعمال الفلسفة الغربية ما استعمل القدماء الفلسفة اليونانية.

الصريح ومراعاة الشريعة القديمة كانت أفعاله كلها عادلة نظراً لتطابق الإدارة والعقل والشريعة. فالسعيد هو من اتفق في صباه على أن يأتى بالشريعة ويستسلم لها حتى يشب ويعقل ويعرف الأسباب والعلل والحكمة فوقع التطابق في نفسه بين الشريعة والعقل والطبيعة مثل وجود اليقين عند حى بن يقطان^(١).

والشريعة تأمر بالعدل على نحو كلى. وعلى الإنسان أن يجتهد في تطبيقه في الجزئيات كما هو الحال في القياس الشرعى. وينقسم الجور ثلاثة أقسام: غصب الأموال وعدم الاكتساب والعمل، وهو الجور الاقتصادى، وعدم قبول رأى الحاكم وهو الجور السياسى، وعدم قبول الشريعة وهو الجور الأعظم، الجور الدينى. ويعنى عدم قبول رأى الحاكم أى الخلاف فى رأى بين الحاكم والمحكوم وتسلب كل منهما على الآخر.

وبعض الناس أخيار بالطبع. بعضهم بالشرع، وبعضهم بالتعليم أى بالطبيعة والوحى والعقل، الشريعة مثل الماء للإنسان. ومن لا ينقاد لها يشرق ويهلك. ويكون الاكراه إما بالتأديب الشرعى أو التعليم الحكيم. والثانى أفضل لأن الوراثة، الإنسان منذ مولده، خارج التعليم والاجتهاد^(٢). فالشريعة لا تعنى فقط القانون بل التربية. والتربية مهمة الشرائع. الشريعة هى التى تقوم الأحداث، وتعود الأفعال الحسنة وتهيب النفوس لقبول الحكمة، وطلب الفضائل وبلوغ السعادة الإنسانية بالفكر الصحيح والقياس السليم. ويعد التعود يمكن المعرفة بالبرهان ما تعلمه الصبية تقليداً. البرهان بعد التقليد وليس قبله، كالعقل بعد الايمان، والحب بعد الزواج، والعمل بعد النظر.

وتتحول الشريعة إلى التربية على مراحل. الأولى التربية على أدب الشريعة والأخذ بوظائفها وشرائعها. والثانية الأخلاق تأكيداً للشريعة والوحى، فالوحى أخلاق، والأخلاق برهان عملى. والثالثة الحساب والهندسة لصدق البرهان. والرابعة تمام ذلك بمن من الله وموهبة منه. والخامسة الفارئ الغائب. فالفكر مشروع نظرى وعملى مشترك.

ويمكن التربية على أخلاق الشريعة. فقد قامت الشريعة القديمة ليس على المراء.

(١) السابق ص ١٠٣ - ١٠٨ / ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) السابق ص ١٢ / ٢٠ - ٢٧ / ٢٩ - ٣٥ / ٥٢ - ١٠٩ - ١١١ / ١١٦ / ١٤١ / ١٤٦.

كما حثت الشريعة على المحبة والتقرب إلى الله طاعة كما فعل إبراهيم الخليل. والشريعة تأمر بالعدالة على نحو كلي كما هو الحال في الأصول. الواجب هو العدل، والندب هو الحرمة (التفضل واللطف)، الواجب في الكل، والفاضل في الجزء، محاولة للجمع بين العدل والرحمة بين المعتزلة والأشاعرة. فقراءة النص تحتاج إلى معرفة شاملة بالحضارة وعلومها حتى يمكن معرفة بنيتها ومحاورها التي تتخلل العلوم عرضاً. واللذة التي تطلبها الشريعة هي اللذة المعتدلة العاقلة دون إسراف أو تقتير، المزاج المستعذب، الحديث المستطاب، الفاكهة المحبوبة. ومن الشرائع الصادقة سياسة الله في خلقه، والتربية على الدين من أجل الجمع بين الدين والدنيا.

والعبادة أحد الفضائل الفرعية تحت العدالة. ويمكن تفسير الشعائر أخلاقياً واجتماعياً. فالصلاة خمس مرات في اليوم. والجماعة أفضل من الفرد، ومرة كل أسبوع لتأكيد دور الجماعة في صلاة الجمعة، ومرتين في العام في صلاة العيدين، ومرة كل سنة في جماهير الأمة في الحج. وذلك من أجل تربية الأمة على الأُس والمحبة والخير والسعادة. فالشريعة تعطى العادات الجميلة لأن الجمال والخير والحق واحد.

وتتم التربية عن طريق الدين بما في ذلك استعمال الضرب إذا دعت الحاجة أو الاكتفاء بالتوبيخ. فالتأديب نافع ومؤثر في الأحداث والصبيان. وقد يكون العقاب ذاتياً، معاقبة النفس بصوم أكثر وبصلاة أكثر. فإذا ما بادر إلى طعام ضار أو حمية استشعرها أو فاكهة محرمة عاقب نفسه بصوم. ومن شعر بالكسل أو التواني في المصلحة فالعقاب بالصلاة والمشقة. والحقيقة أن الغاية من الشريعة ليست العقوبة وإلا صار العبد كأجر السوء لا يسير إلا بالعصا. فالأخلاق بلا الزام ولا جزاء. أخلاق الطبيعة والعقل والارادة والروية للخاصة، وأخلاق المنفعة وتحقيق المصالح للعامة. ويستطيع الحكيم الوصول إلى غايات الشريعة بوسائل أخرى^(١).

الأخلاق الشرعية هي جزء من الأخلاق الالهية. وكلاهما أخلاق وتربية يعتمدان على العقل والطبيعة اكماً للأخلاق الوافدة وتطويراً للأخلاق الموروثة، وجمعاً بين النظر والعمل في حضارة واحدة شاملة تعبر عن الإنسانية كلها.

(١) السابق ص ٢٨ - ٢٩ / ١٥٤.

obeikandi.com

الفصل الثانى

الاجتماع والسياسة

أولاً: من الأخلاق إلى الاجتماع:

إذا كانت الحكمة العملية تنقسم إلى أخلاق واجتماع وسياسة عند القدماء فإنه لا يوجد حد فاصل بينها. هناك الأخلاق الاجتماعية، علاقة الفرد بالآخرين، والأخلاق الدينية، علاقة الفرد بالله، الآخر المطلق. ثم تنحصر الأخلاق الاجتماعية تدريجياً من أجل تأسيس علم الاجتماع الخالص أو العلم المدنى كما يقول الفارابى فى تقسيم أنواع المدن وكما يبين ابن سينا فى العلاقة بين النبوة والمجتمع. وقد يتساءل البعض: ما سبب اهتمام الفارابى بالإنسان والأخلاق والاجتماع والسياسة حتى لو تحدث عن الإنسان ابتداء من النفس الإنسانية والأخلاق تحت تأثير الأجسام السماوية، مزاج شخصى يرتبط باشراقيات النفس أم ظروف اجتماعية وهو رجل بلاط، أم مصائدات وقرارات وهو رجل منطقى أو أغراض ومشاريع للأمة لتحويل دولة بنى حمدان إلى نموذج للأمة كلها؟

وبالرغم من أهمية التطور التاريخى فى كل موضوع خاصة من المشرق عند الرازى والفارابى وابن سينا إلى المغرب عند ابن باجه وابن طفيل وابن رشد إلا أن له بنية واحدة ساهم فيها كل حكيم، وركز على أحد جوانبه. ركز الفارابى على الأخلاق الاجتماعية والعلم المدنى وأنواع المدن. بينما ركز الرازى وابن سينا وابن باجه على النبوة ودورها فى المجتمع أى على السياسة والرياسة والإمامة.

وفى "إحصاء العلوم" للفارابى يظهر العلم المدنى بعد الإلهيات كما تظهر الإلهيات بعد العلم المدنى ثم يعود العلم المدنى للظهور بعد الإلهيات من أجل تكوين علم شامل يكون تنظيراً للموروث. فهل يجد العلم المدنى كماله فى الإلهيات أم تجده الإلهيات كمالها فى العلم المدنى؟ أم أن العلم المدنى أصل والإلهيات فرع؟ السياسة أصل والدين فرع. فى "أراء أهل المدينة الفاضلة" تبدأ الإلهيات كأصل ويظهر العلم المدنى كفرع، وفى "إحصاء

العلوم" الإلهيات والطبيعات علم واحد، وعلم الكلام والفقه والعلم المدني أى العقيدة والشرعية علم واحد.

والقسم الرابع من رسائل إخوان الصفا "العلوم الناموسية الإلهية والشرعية" يتعلق بالناموس أى بالقانون. وهو نوعان إلهى وشرعى، أخلاقى واجتماعى. يتراوح بين الأخلاق الفردية الدينية والأخلاق القانونية الاجتماعية^(١).

والقسمة القديمة للحكمة العملية الأخلاق والسياسة وتبدير المنزل أى الاقتصاد. وهى فى الحقيقة متداخلة فيما بينها. فهناك الأخلاق الاجتماعية، والأخلاق السياسية، والأخلاق الاقتصادية. وكلها تقوم على تحليل المجتمع. ومن ثم يبدو الاجتماع قاسماً مشتركاً بين علوم الحكمة العملية، الأخلاق الاجتماعية، والاجتماع السياسى، والاقتصاد السياسى. لذلك ضم كله فى الاجتماع والسياسة أى بمصطلحات العصر علم الاجتماع السياسى، من أجل إفساح المجال فى القسم الثالث لعلم التاريخ، إضافة من المحدثين على القدماء.

١- الأخلاق الاجتماعية. وتدل على انبثاق الاجتماع من الأخلاق كما انبثقت الأخلاق من الدين. وتكون إما خرافية تعتمد على الطوابع والبروج وإما دينية فى علاقة الفرد بالله كنموذج لعلاقته بنفسه وبالأخرين، الرئيس أو المرووس أو الند وإما عقلية خالصة فى قوى الإنسان العقلية والارادية.

أ- أخلاق السحر. ويبدأ التحول من الأخلاق إلى الاجتماع عند إخوان الصفا فى "رسالة السحر" التى تبين أثر الكواكب والطوابع والأفلاك فى سلوك الأفراد والجماعات ابتداء من إشباع الحاجات الأساسية، الطعام والشراب والنكاح والحاجات الاجتماعية، الزيارة والحمل والغياب وحماية الملكية والحاجات السياسية للأمن فى وقت الحرب

(١) الرسائل جـ ٤٨١/١-٤٨٦. والرسائل أشبه بقضايا معاصرة، فلسفة للجميع وليست مهنية متخصصة. وابن سينا هو الذى أعطاها درجة عالية من الصورية لتعطيتها.

والحاجات الدينية فى معرفة الرسول والكتاب وصدق الأخبار^(١). إذ تتحكم الطوابع فى كل مظاهر النشاط الانسانى الضرورى والاجتماعى، تحكم السماء فى الأرض وكأن الإنسان لا اختيار ولا فعل إرادى له. وكلها أفعال إشباع حاجات أساسية دون ثورة أو غضب أو تمرد أو اعتراض من العبيد أو الأحرار، أشبه بعالم "ألف ليلة وليلة"، الحكم والدين والجنس والسلطان.

والحقيقة أن علم الفلك علم رياضى فى حين أن علم أحكام النجوم خرافة. يكشف عن هموم المجتمع وقضايا وأوضاعه مثل أهمية السرقة فى مجتمع رأسمالى.

ب- الأخلاق الطبيعية. وتحليل قوى النفس هو أساس الأخلاق الطبيعية. فلكل إنسان قوتان عند الفارابى: بهيمية وناطقة. ولكل واحد منها إرادة واختيار وهو كالمواقف بينهما. ولكل واحدة نزاع غالب. نزاع البهيمية نحو مصادقة الذات العاجلة الشهوانية. ونزاع المنطقية نحو الأمور المحمودة العواقب مثل العلوم والأفعال الفاضلة. ولا يكتفى الفارابى ببيان بنية قوى النفس بل يفسر تاريخها. إذ تنشأ القوة البهيمية أولاً قبل بزوغ العقل والقوة الناطقية فكانت الأغلب، والحاجة إلى الاستعداد لها أشد. والفضيلة فى يقظة القوة الناطقة ومغالبة البهيمية. وكل إنسان يلقى أمراً محموداً وآخر مذموماً له فى كل منها فائدة إما احتيالا وتمسكا بالأمر المحمود أو مجادلة للتمسك به قدر الطاقة أو أن يحسن الأمر عند نفسه وينبها على فضله. هناك إذن ثلاث درجات للتمسك بالأمر المحمود التحايل أو الطاقة أو الطبيعة. أفضلها الطبيعة. وأقلها قيمة التحايل، وأوسطها إفراغ الوسع وبذل المجهود. وهناك ثلاث درجات أيضاً لتجنب الأمر المذموم: الاجتهاد، والمبالغة فى نفيه عن النفس، والعزم على التخلص منهو وعقد النية على عدم العودة إلى مثله، ارتقاء من الأقل كمالات إلى الأكثر كمالاتاً، من بذل الجهد فى حده الأدنى إلى حده الأعلى إلى عقد

(١) هى حاجات تسع: ١- الطعام والشراب والنساء ومظاهر الدنيا وملذاتها. وهى صفات الجلساء. ٢- زيارة القوم والمبيت عندهم وما ينتج عن ذلك من فحش! ٣- الحمل والولادة لطفل واحد أو توأم. ٤- معرفة حياة الغائب ومرضه وموته. ٥- السرقة. ٦- معرفة الحرب فى أوقاتها. ٧- الرسول. ٨- معرفة ما فى الكتاب قبل أن تفض أختامه. ٩- صدق الأخبار وكذبها، الرسائل ج- ٤/١١/٣٥-٤٠٦.

العزم والنية على تجنبه بالإرادة الدائمة وليس بالفعل الوقتى.

ثم يفصل الفارابى القوة الناطقة فى جودة التمييز وهو اسم آخر للرؤية أو العقل وهى نوعان: علم دون فعل مثل علوم التوحيد والطبيعة، وعلم وفعل مثل الطب والأخلاق. والفلسفة نفسها نظر، معرفة الموجودات خارج الفعل النافع، مثل علم التعاليم، العدد والهندسة والمناظر، والعلم الطبيعى والعلم الالهى، وعمل فى تحصيل المنافع الفردية فى الأخلاق والاجتماعية فى السياسة. ثم يتم استنباط الطبقات الاجتماعية من أنواع التعقل. وهى ثلاثة: الأول جودة الرؤية فيما هو أفضل وأصلح فى بلوغ جودة المعاش ونيل الخيرات الإنسانية مثل اليسار والجلالة. والثانى التعقل المدنى وهى جودة الرؤية لتدبير أمور المدينة. والثالث التعقل المنزلى وهى جودة الرؤية لتدبير أمور المنزل. ومن ثم يقتضى التعقل تأسيس ثلاثة علوم: الأخلاق، والاجتماع، وتدبير المنزل.^(١)

كما يتم استنباط الصنائع من الصلة بين العلم والعمل. فهناك صنائع تقوم على العلم دون العمل، وأخرى تقوم على العمل والعلم. وهى نوعان السير الجميلة والمدن أى حياة الأفراد. وحياة المجتمعات وما ينفع المدن حرفها: الصناعة والفلاحة والتجارة والطب. فالأخلاق التطبيقية تعنى الأخلاق الحرفية والمهنية. الطبقة هى الحرفة أو المهنة التى قد تؤدى على نحو غير مباشر إلى الطبقة بالمعنى الاقتصادى. وتهدف الصنائع إلى تحصيل النافع ونيل الجميل لأن المقصود الإنسانى يهدف إلى اللذيق أو النافع أو الجميل. وقد تكون فى المشهور أو فى الملة أو فى الحقيقة. والحقيقة أعلى من الملة. والملة أعلى من المشهور. المشهور ظاهر يختلف عن الحقيقة. والملة متعددة أما الحقيقة فواحدة.

واستنباط العلم المدنى من قوى النفس صورى خالص لا ينطبق على العلوم. فى حين أن التوحيد ليس علماً نظرياً خالصاً بل هو علم وعمل. فالعلم بأن العالم محدث وأن الله واحد والعلم بأسباب كثيرة من الأشياء المحسوسة ليست فقط علوماً نظرية بل هى

(١) الفارابى: فصول المدنى ص ٥٧ - ٥٨ الفقرة ٤٢.

أسس نظرية للعمل سواء فى العلم الانسانى، الذاتية، أو العلم الطبيعى، العلية للسيطرة على قوانين الطبيعة. وإذا كانت الفلسفة طريقاً للسعادة فإنها لا تعنى فقط مجرد الفعل التأملى بل الأخلاق العملية.

ليس الطب وحده هو نموذج العلم النظرى العلمى بل كل العلوم العملية كذلك مثل الفلاحة والتجارة. يظهر نموذج الطب لأنه علم صحة الأبدان كما أن الحكمة علم صحة النفوس من أجل تحقيق الكمال الانسانى. صحة الأبدان مثل صحة المدن، ومرض الأبدان مثل مرض المدن. فالطب مقياس الأخلاق والاجتماع فى آن واحد ربما تنظيراً للموروث فى تشيية الأمة بالجسد الواحد. وكما يستخرج الطبيب المتوسط المعتدل فى الأغذية والأدوية فكذلك مدير المدن يستخرج ويستنبط المتوسط والمعتدل فى الأخلاق والأفعال. صناعة الطب مثل الصناعة المدنية. ولا تذكر الصناعة. كما يعطى نموذج العلم والعمل البر بالوالدين، قبح الخيانة، جمال العدل. وهى أشياء تعرف بالذوق الأخلاقى وليس النضال أو التحرر أو الثورة وهى من قيم العصر^(١).

أما اللذيق والنافع والجميل فهى مقصود إنسانى من قيم الطبقة العليا. أما الطبقة الدنيا فمقصودها إشباع الحاجات الأساسية. فالجائع والعطش والعارى لا يتذوق الجميل. والمقصود فى هذا العصر هو التحرر ضد الاحتلال، والحرية ضد القهر، والعدالة ضد الفقر، والوحدة ضد التجزئة، والتنمية ضد التخلف، والهوية ضد الاغتراب، والالتزام والمبادرة التاريخية ضد اللامبالاة وضياح الولاء. أما السيرة الجميلة فهى القدوة التقليدية القديمة أو سيرة الأبطال الوطنيين المحدثين، والانسان قدوة نفسه ويعتبر بسيرة الفضلاء الأقدمين كوعى تاريخى بمسار الشعوب.

ولما كان الإنسان لا يقدر على بلوغ الكمال بمفرده دون باقى الناس نشأة العلم المدنى بعد العلم الانسانى. موضوع العلم الانسانى الأخلاقى الفردية، وموضوع العلم المدنى السياسة الاجتماعية. وهو ما يتفق مع التصور القديم أن المجتمع هو مجموع

(١) السابق: ص ٥٦/٢١، (النفقات ١٥-١٦/٢١).

الأفراد دون أن تكون للظواهر الاجتماعية كيانات مستقلة. وينتقل الفارابي من الفرد إلى الجماعة، ومن الأخلاق إلى السياسة وكأنه في نفس العلم، تواسلاً لا انقطاعاً.

ومن المحتمل وجود معقولات مفارقة للأشياء الطبيعية. أما الأشياء الإنسانية الإرادية فمعقولاتها مقترنة بها، مفارقة في الطبيعة وحلول في الإنسان، ولا تعلم الأمور الإرادية مسبقاً قبل الفعل على عكس الأمور الطبيعية. العلم الإنساني علم بعدى بالضرورة نظراً لارتباط الإرادة بالحرية. فالأفعال نوعان طبيعية وإرادية. الأولى ضرورية. والثانية حرة.

وليست العوائق أمام الإرادة الإنسانية من الأمور الطبيعية خارج دائرة الحرية الإنسانية بل صراع الإرادة مع إرادات الآخرين ومن ثم لزم العلم المدنى لصياغة إرادة اجتماعية كلية^(١). المعقولات والكليات لا تتبدل بل الأحوال والعوارض والجزئيات. والقوة الفكرية هي التي تستنبط المعقولات وتميزها عن الأعراض. والأعراض والأحوال متبدلة على الإرادة لأنها ليست واحدة بالجنس، تزداد وتنقص، يتركب بعضها من بعض دون الإحاطة بقوانين حركتها. بعضها يخضع لقانون وبعضها لا يخضع لقانون. ما يخضع لقانون يتبدل في مدة يسيرة لأنه تحت السيطرة، وما لا يخضع لقانون يتبدل في مدة طويلة لأنه قانون التاريخ الموضوعي خارج السيطرة. القانون يعنى اطراد، والسيطرة في الأفعال الإرادية. أما الأفعال اللاإرادية فأنها انبثاقية لا تخضع لقانون، تسيرها الطفرة بعد الكمون^(٢). الخير ينال بالاختيار والإرادة. في البدأ كانت حرية الإرادة واختيار الفعل الأخلاقي ويكون هذا الاختيار إما للخير أو للشر.

والسؤال هو: هل يعطى العلم المدنى معانى ودلالات إنسانية عامة أم يحل ظواهر اجتماعية موجودة؟ هل المجتمعات معانى أم ظواهر، حقائق أم أشياء، بنى أم تاريخ؟

(١) وهي ما سماه العرب الحديث "العقد الاجتماعي" الذي يمثل المجموع الكلى للإرادات الفردية الحرة في إرادة كلية واحدة شاملة.

(٢) وهذا يشبه ما قاله برجسون في الدافع الحيوى والطفرة والانبثاق والحرية والتطور الخالق.

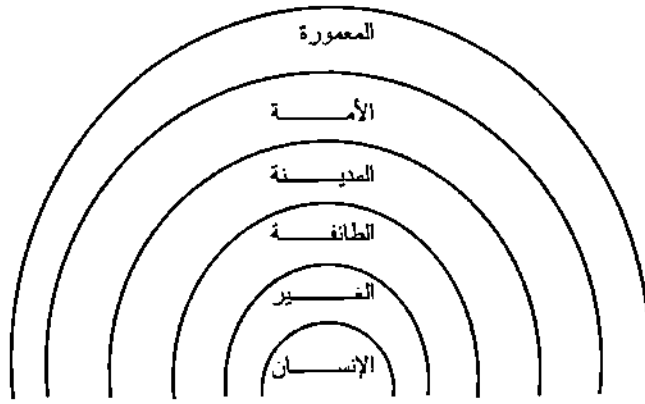
ج- الفضائل المهنية: وهى الفضائل الفكرية الذاتية عندما تتحول إلى ممارسات عملية فى مهن وحرف وصناعات . فالمهن فضائل . والفضائل الفكرية هى التى يقدر بها الإنسان جودة الاستنباط لما هو أنفع فى غاية فاضلة مشتركة للأمم أو لأمة أو لمدينة بداية من الكل إلى الجزء، ومن العام إلى الخاص. فالغايات مشتركة عامة وليست فقط فردية خاصة .

إذ تنقسم الفضيلة إلى أجزاء صغار لاستنباط ما هو الأنفع والأجمل فى عرض صناعة أو حادث أو فى وقت إلى عدد أقسام الصنائع والحرف. الفضائل بهذا المعنى التجزيئى الكمى هى الفضائل الحرفية.

وتنقسم أيضاً طبقاً للفرد والجماعة، استنباط الأنفع والأجمل فى غاية تخصص الإنسان أو تخصص غيره وهى الفضيلة الفكرية المشورية. وقد تجتمع الفضيلتان معا فى إنسان واحد، علاقته بنفسه وعلاقته بغيره. فالخير ليس فقط للنفس بل أيضاً للغير.

ثم تتسع الأخلاق من الإنسان إلى الغير إلى الطائفة إلى المدينة إلى الأمة وأخيراً إلى التاريخ طبقاً للجزء والكل والمراتب المتوسطة بينهما. فالإنسان يتجه نحو الآخر أولاً قبل أن يتجه نحو الطائفة ثانياً أى الجماعة الصغيرة المتفقة فى الأهداف والغايات والآراء المقاصد. وقد يوضع مع الإنسان الأهل أو المنزل وهى الأسرة مع الصبيان والأحداث ودور المنزل فى تأديبهم ثم ينتقل إلى المدينة ثالثاً متعددة الطوائف والمشارب والغايات وفى تعددية اجتماعية شرعية. ثم ينتقل إلى الأمة رابعاً وهى مجموع المدن عندما تبلغ التعددية أقصى مداها على مستوى البشرية. ثم ينتقل خامساً إلى المعمورة ومجموع الأمم أى البشرية جمعاء. وقد تتوقف الفضائل فى إحدى هذه المراتب دون أن تنتقل بالضرورة إلى باقى الدوائر (١).

(١) الفارابى: السياسة المدنية ص ٩٩ (الفقرة ٩٥)، تحصيل السعادة (الفقرة التاسعة).



وقد تختلف الفضائل حسب الزمان بين الساعة واليوم والشهر والسنة والحقبة والأحقاب. وهى أخلاق المواقف. وقد تكون أقل من ساعة فى دقيقة أو ثانية مثل الالهامات والأعمال البطولية الخارقة بنت وقتها. تتغير الأخلاق مع إيقاع الزمن السريع أو البطيء، المتغير أو الثابت، المتجدد أو الدائم. ولما كان الزمان هو مناط التغير تتغير الفضائل بتغير المجتمعات. وبالتالي يصبح التحول من الأخلاق الفردية إلى الأخلاق الاجتماعية تفسيراً للأمر الازدياد طبقاً للزمان والمكان وانتقال المجتمعات من العفة إلى اليسار أو من اليسار إلى العفة^(١).

ونظراً لتفاوت زمان القيمة بين القصر والطول كلما طالّت المدة كانت أقدر على وضع النواميس أى أن بقاء القيمة يحولها إلى قانون. أما المدة القصيرة فإنها تساعد على تبدل الفضائل وتغيرها لأنها جزئية. الفضائل فى المدة القصيرة جزئية وفى المدة الطويلة كلية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأمم، فى المعمورة كلية وفى الأسرة جزئية وتتفاوت المراتب بينها بين الكل والجزء. عموم الفضائل إذن هى فضائل الإنسانية جمعاء فى مدة طويلة وهى الحقائق الإنسانية العامة. وتكون قمة الفضائل اجتماع عموم الفضائل فى أطول مدة لمجموع الأمم أى الاجتماع الانساني العام^(٢).

(١) وبلغت العصر من الاشتراكية إلى الرأسمالية أو من الرأسمالية إلى الاشتراكية. الفارابى: تحصيل السعادة (الفقرة التاسعة).

(٢) وهى بلغة العصر عصبية الأمم أو الأمم المتحدة وما شابها من المنظمات الدولية وموائيقها.

ولكل طائفة فضيلة مثل أن تكون للأسرة فضيلة منزلية وللطائفة فضيلة جهادية، ربما تأكيداً لخصوصية الملة الإسلامية وقمة فضائلها في الجهاد وفي مواجهة باقي الطوائف والملل. فالفضائل الفكرية والجهادية النظرية والعملية تنقسم أيضاً إلى ما لا يتبدل إلا في مدد طوال وما يتبدل في مدد قصار. الشعائر تتغير من طائفة إلى طائفة أما التصوف فباقي إلى الأبد عند كل الطوائف. والغزو والسيطرة والهيمنة وقتى. أما الجهاد والمقاومة فباقية إلى الأبد.

ولا ينبغي لفاضل استعجال الموت. بل ينبغي أن يقدم على الموت إذا كان فيه نفع للمدينة مثل الاستشهاد. لا ينزعج من الموت إلا أهل المدينة الجاهلة والفاسقة، الجاهلة التي تفوتها الخيرات ولا تظن إلا أنها اللذات أو الأموال أو الكرامات، والفاسقة لما يفوتها في الدنيا ولما تظنه أنه لا سعادة بعد الموت. فهي أشد جزعا من الجاهلية ولما تظنه أنه لا سعادة بعد الموت أصلاً. فلا تنزعج لفوانها. أما الفلاسفة فتعلم وتندم وتموت مغتمة.

المجاهد الفاضل إذا خاطر بنفسه فانه يعلم أنه سيموت وإلا كان أحقاً مع أنه يبالي إن مات أو عاش وإلا كان متهوراً. بل أنه يتمنى ألا يموت ولكنه لا يفزع من الموت ولا يخاطر بنفسه إذا كان ما يناله بلا مخاطرة. ولا يخاطر إذا علم أن ما يناله لا ينال إلا بمخاطرة له أو لأهل المدينة.

ولا ينبغي أن يباح على الفاضل إذا قتل بل يباح على أهل المدينة بمقدار إذا غاب فيهم الشهيد. ويغبط بالحال التي صار إليها بمقدار سعادته وكأنه الفارابي يحلل التجربة الإنسانية التي وصفها الآية ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ والتي تعمل كموجه لا شعورى. ولا يشير إلى الحجة الثقيلة بل يكفي بوصف التجربة الإنسانية العامة (١).

د- الأخلاق الاقتصادية والتشريعية. وينتقل تهذيب الأخلاق من الأخلاق المعيارية إلى الأخلاق الاجتماعية إلى الاقتصادية والتشريعية. من "حي بنى يقظان" وتبدير

(١) الفارابي: فصول المبنى ص ٨٥ (فقرات ٧٨- ٨٠)

المتوحد" إلى المدن الفاضلة وأضدادها فالأخلاق نظرية وعملية، كلية وجزئية، علم وصناعة، نظام وتعليم مع غلبة الأوامر والنصائح والتعليمات والقوانين أى الجانب العملى على الجانب النظرى.

الفضائل الأخلاقية فضائل اجتماعية مثل المحبة والصداقة. فالإنسان مدنى بالطبع. والعزلة والتوحد عرض منتشر من أجل المحافظة على الفضائل وخوفاً من الفساد مع أن الفضائل وضعت من أجل المعاملات والمعاملات التى لا يتم وجود الإنسان إلا بها. العدل تصحيح للمعاملات وإزالة الجور فى التعامل. والعفة فضيلة تحمى من اللذات الرديئة التى تؤدى إلى الخيانات العظيمة للنفس والبدن. والشجاعة فضيلة للدفاع عن الشعوب.

الفضائل سبب الاجتماع لأنها كثيرة لا يقوم بها إنسان واحد. لابد إذن من الجماعة حتى تكتمل بالتعاون مثل أعضاء البدن والبدن الواحد تنظيراً للموروث الأصلى بتشبيه المجتمع بالبدن والأفراد بالأعضاء. الأفراد ناقصون والمجتمع كامل. فالكمال لا يكون فردياً بل جماعياً بالتعاون. وبناء الصوامع مثل بناء المغارات فى الجبال تخلف بدائى أو الهيمن فى الأرض كالصوفية. الفضائل ضرورة اجتماعية وسياسية واقتصادية. وحى بن يقطان حالة مستحيلة. بناء الصوامع والمغارات التصاق الأرض بنحتها، والهيمن والسياحة بلا أرض بدعوى الارتباط بالسماء. وكلاهما هروب من الأرض والسعى والكد والكفاح. والإنسان أكثر من الحيوان مدعاة للتعاون. يحتاج إلى المدينة لمصادقة الناس ومعاشرتهم. العزلة ضد الطبيعة والضرورة. كانت العزلة فى البداية فى تطور الدين قبل أن يتحول إلى نظام اجتماعى^(١). والأخلاق الاجتماعية ضرورة وجودية^(٢).

وتقسم الفضائل الخلقية طبقاً للطبقات الاجتماعية. يفرح التاجر بتجارته، والجندى بشجاعته، والمقامر بقماره، والشاطر بشطارته، والمخنت بتخنثه لقوة استشعار كل طائفة

(١) مسكوية: تهذيب الأخلاق ص ١٢-١٣/ ٢٣-٢٤ / ١١١/ ١٢٨.

(٢) وهو نفس موقف نيقولاى هارتمان وماكس شيلر.

بحسن مذهبها تنظير للمورث ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾.

وتحتاج كل هذه الفضائل إلى أسباب خارجة من الأموال واكتسابها من وجوها حتى يستطيع أن يفعل بها كالأحرار والعاذل ليجازى من عاشره. فالسعادات الإنسانية لا تتم إلا بالأفعال البدنية والأحوال المعرفية والأعوان والصالحين والأصدقاء المخلصين. فالكل والراحة من أعظم الرذائل لأنها يحولان بين المرء وجميع الخيرات، ويسلخان الإنسان من الإنسانية. ومن ثم يخطى المتوسمون بالزهد بانعزالهم عن الناس وسكون الجبال والمغارات واختيار التوحش الذى هو ضد التمدن لانسلاخهم عن الفضائل وتحولهم إلى منزلة الجماد والموتى (١).

والمال ضرورى للحياة. وهو نافع لإظهار الحكمة والفضيلة. والمكاسب الجميلة قليلة. وهى موجودة عند الرجل العادل الحر. وهو قليل يذم البخت. والظالم لا يبالي من جهة الكسب لأنه يكتسبه من وجوه الخيانات. حظه كبير ونفقته أكثر ويشكر البخت. تحسده العامة مما يسبب الحقد الطبيعى ويتجنب الفضائح والخداع. ويروج سلعه للملوك، ويساعده على الفواحش وتحسين القبايح وفقاً لهواهم.

والعاقل من ابتعد عن كل ذلك، وبرأ نفسه من الشهوات. ومارس العدالة والخيرية فى المعاملات، الأخذ والعطاء. العدل فى اكتساب الأموال والخير فى الإنفاق. ومن ثم كانت محبة الناس للخير أكثر من محبتهم للعدل لأن الفضيلة فى فعل الخير لا فى ترك الشر، فى محبة الناس وحدهم لا فى جمع المال. الخير لا يكرم المال ولا يجمعه لذاته بل لإنفاقه فى وجوه الخير التى تكسب المحبات. ومن خاصة الخير ألا يكون كثير المال لأنه منافق ولا فقيراً لأنه كسوب وغير متكاسل لانه عن طريق المال يتم الوصول إلى الخيرية. لا يستعمل فى المال التبذير ولا الشح. كل خير عاقل، وليس كل عام خيراً (٢).

(١) مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) السلق، الحاجة إلى المال واكتسابه بالطرق الشريفة العادلة، السلق ص ٩١-٩٢/١٠٤-١٠٥/١٠٨-١٠٩.

الاجتماع والاقتصاد إذن تجليان للأخلاق. فهل الأخلاق أساس الاقتصاد أم أن الاقتصاد أساس الأخلاق، أم أن العلاقة جدلية بينهما، بقدر ما توجد الأخلاق قبل الاقتصاد تتأثر به وتتكيف معه؟. وهى أخلاق معيارية بالضرورة مع أن الاقتصاد نفعى يقوم على الربح. لذلك كان حب الخير للنفس أعظم من حب العدل للآخرين.

والشريعة تجمع بين الأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد. هى نموذج العلم الاجتماعى الشامل. تلزم فى المعاملات، وترسم فى كل منها التوسط والاعتدال لأن الناس مدنيون بالطبع. ولا يتم لهم عيش إلا بالتعاون. يخدم بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم من بعض، ويعطى بعضهم بعضاً، مع طلب المكافأة المناسبة. وقد يكون الأمر معاوضة أى مقايضة إذا أخذ الاسكافى من النجار شيئاً مساوياً منه فى القيمة. وإن لم يتساويا استعمل الدينار أى النقود، قاسماً مشتركاً بينهما^(١). وهو ساكت والإنسان ناطق. يستعمله الإنسان ويقوم به جميع المعاملات كى تجرى على استقامة ونظام ومناسبة صحيحة وعادلة. لذلك يستعان بالحاكم الذى هو عدل ناطق فى حالة المتخاصمين. السياسة حكم فى الاقتصاد وحل صراعاته. والدينار هو الذى يساوى بين المختلفات. يزيد فى شئ وينقص فى شئ آخر حتى يحصل الاعتدال، العدل المدنى. وبه تعمر المدن. وبالجور تخرب المدن. وقد يساوى العمل اليسير العمل الكثير مثل المهندس والعامل وقائد الجيش والجندى. والجور هو إبطال التساوى فى القيمة. وهو على ثلاثة أنواع. فى الاقتصاد غصب الأموال وعدم الاكتساب فى رأس المال الطفيلى. وفى السياسة عدم قبول رأى الحاكم وبالتالي استحالة المعارضة والخروج. وفى الدين هو الجور الأعظم مثل عدم قبول الشريعة. الجور الدينى رفض الشريعة، والجور السياسى رفض قول الحاكم، والجور الاقتصادى غصب الأموال وعدم الاكتساب من العمل والمضاربات والكسب السريع. أما ما يسمى حالياً برأس المال الطفيلى فانه يعطى لنفسه أكثر مما يستحق، والآخر أقل مما يستحق. ويقسم الجور أيضاً ثلاثة أقسام. ظاهر ينتقل بالإرادة مثل البيع والشراء والكفالات والفروض والعوارض، وخضفى بالإرادة مثل السرقة والفجور والقيادة وخداع

(١) هو قول منسوب لأرسطو.

المماليك وشهادة الزور، وغش على سبيل النقلب مثل التعذيب بالقيود والأغلال^(١).

ويتم تمثيل الوافد "أن الدنيا ناموس عادل"^(٢). ومعنى الناموس فى لغة الوافد السياسة والتبدير وليس القانون. كما يتم اقتباس من "نيقوماخيا"، "أن الناموس الأكبر هو عند الله تبارك وتعالى. والحاكم ناموس ثان من قبله. والدينار ناموس ثالث. فناموس الله تعالى قدوة النواميس كلها". فى الدين الله ناموس أول. وفى السياسة الحاكم ناموس ثان. وفى الاقتصاد الدينار ناموس ثالث. ومن ثم الدين والسياسة والاقتصاد فى الناموس. لم يطرح أحد من القدماء علاقة الموالى بالعبيد إلا من الجانب الخلقى وليس من الجانب الاجتماعى. فاذ بلى العبيد وأشباههم بموالى سوء يسفونهم هان عليهم الخطب فلا يؤثر فيهم^(٣).

٢- التكوين والبنية الاجتماعية. ثم تتحول الأخلاق الاجتماعية إلى علم الاجتماع ودراسة نشأة الدين كظاهرة اجتماعية وتحليل الطبقات الاجتماعية باعتبارها طبقات حرفية.

أ- الدين ظاهرة اجتماعية. فى الرسالة الأولى "فى الآراء والديانات من القسم الرابع" "العلوم الناموسية الالهية والشرعية" يعرض إخوان الصفا إلى الدين كظاهرة اجتماعية واختلافه باختلاف الفرق والمجتمعات ومراحل التاريخ. فالأساس فى الدين الاختلاف وليس الاتفاق، لا فرق فى ذلك بين دين موحى ودين تاريخى. ويعتبر إخوان الصفا بحق من مؤسسى علم تاريخ الأديان مع مؤرخى الفرق، إسلامية وغير إسلامية.

يبين الاخوان نشأة الدين على المستوى النفسى كما هو الحال فى علم النفس الدينى المعاصر، الرغبة فى الخلود. فالناس مطبوعة على الرغبة فى الدنيا وفى الآخرة فى آن واحد. ويؤكد الأنبياء على ما فى رغبة البشر من نزوع. فالدين لا يأتى بجديد بل ينبع من

(١) مسكويه: تهذيب الأخلاق: تهذيب الأخلاق، لزوم الشريعة فى المعاملات ص ٩٥-٩٧.

(٢) السابق ص ١٤١/١٣٥.

(٣) السابق ص ١٥٥.

النفس البشرية. والسؤال هو: هل يتساوى النزوعان؟ وإيهما أقوى؟ ولماذا يتغلب نزوع على آخر وفي أى ظروف؟ هل النزوع نحو الدنيا للأكثرية والنزوع نحو الآخرة للأقلية طبقاً لقسمة الناس إلى عامة وخاصة؟ هل يصبح الدين اغتراباً إذا كان نزوعاً نحو الآخرة أكثر من نزوعه نحو الدنيا؟ وهل الدين بالضرورة مجرد نزوع، أقل من العقل وطلب البرهان؟ ربما يكون هذا تنظيراً للموروث ﴿وخلقناكم أطواراً﴾.

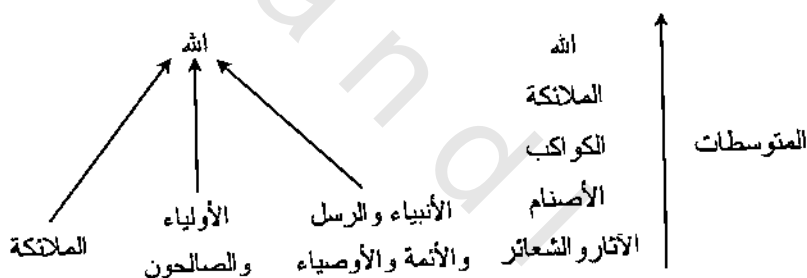
ثم تبدأ الشعائر بعبادة الأصنام أو ما يسمى فى علم الكلام بالتجسيم. كانت وظيفة الدين تحرير الشعور من أسر الطبيعة ووتوجيه العقل نحو التنزيه واللاتهاى والغائب والمجرد والصورى. وظيفة الصورى فى الشعور تقدم العلم باستمرار، والبحث عما هو أعل وأبعد، والسيطرة على الطبيعة من أعلى. كلما ازداد العقل علواً ازداد رؤية. عبادة الأصنام أقدم الديانات وأغلبها على الكل. وكل دين فيه قدر من التجسيم يكثر أو يقل. إن قل فهو تشبيه وإن انعدم فهو تنزيه. والمسيحية عودة إلى الوثنية فى مرحلة الحكماء الموحدين. كانت الأصنام على صورة البشر أو ما تصوره على أنها آلهة وهى على صورة البشر كما فعلت النصارى فى صور وتمائيل المسيح والروح القدس وجبريل ومريم. النصرانية ردة عن الحكمة والتنزيه، ووقع فى التجسيم وعبادة الأصنام^(١). والمساجد والكنائس بقايا المعابد الوثنية فى حين أن فى الإسلام انتهت الوثنية، وجعلت الأرض مسجداً طهوراً. وبقايا شعائر إبراهيم للربط بين الماضى والحاضر وكنوع من المشاركة فى الدين الشعبى. وصلاة الجماعة الآن هى الوسيط الاجتماعى للمشاركة بين الناس، بالرغم مما قد يشوب الصلاة من مظاهر نفاق وادعاء ودعاية. لذلك طالب محمد أقبال أن تكون الصلاة فى العالم الخارجى لقيادة الناس وليس فى المكان المغلق لامامة المصلين.

يا إماماً لركعة فى الورى .: ما تدرى ما إمامة الأقوام؟

كانت وظيفة الأصنام التقرب إلى الله والتزلف إليه. ولم تكن مقصودة بذاتها. وإذا

(١) السابق جـ ٤٨٠/١ - ٤٨٣.

كانت الأصنام زلفى وقربى فانها تقوم أيضاً على أساس نفسى حسى خيالى لتحقيق الغاية والقصد الإنسانى. وتشير إلى أن الدين مجموعة من المقاصد والغايات، وأن الله فى الأعماق الإنسانى وليس شخصاً، وأن طريق الدين إلى أعلى أى إلى الامام. وقد استمر التقرب إلى الله حتى بعد تطور الدين عن طريق الأنبياء والرسل والأئمة والأوصياء والأولياء والصالحين والملائكة. ومن لا يعرف الله فلا حاجة إلى التقرب. ومن لا يعرف الله يتقرب إليه بالأنبياء. فان لم يجد فبالأئمة والأوصياء والصالحين. فان لم يجد فبآثرهم أى الشعائر والسنن. وكان الشعائر للجهلاء الذين لا يعرفون الله. وهو ما قاله ابن سينا بعد ذلك أيضاً فى ماهية الصلاة^(١). الهدف من الشرائع تصفية النفس. وهو الهدف من سنن النواميس الالهية، الصوم والصلاة والقرايين والدعاء والتضرع. وغاية الأنبياء منه ليس إصلاح الدنيا فقط بل إصلاح الدين أيضاً، نجاة النفوس من محن الدنيا وشقاوة أهلها وإيصالها إلى سعادة الآخرة ونعيم أهلها.



ويرفض الأخوان من لا يعبد الأصنام أو يتقرب إلى الله ومن لا يعرف الله على الإطلاق أى الأمر الوسط وهو الجهل بالله. فلا هو استفاد من القربى ولا يعرف الله. وقد رزق من الفهم والتمييز فخرج من جملة العامة ولم يصل إلى مرحلة الخاصة. فلا يعرف الله حق المعرفة، الوحدانية والمعاد، ولا يرضى الدين تقليداً. والشعائر ضرورة. وهى الوظيفة التى تقوم بها الصلاة الآن.

(١) السابق جـ ٤٨٤/١ - ٤٨٥.

الدين ظاهرة اجتماعية متطورة. ومن ثم لا يمكن الرجوع إلى مراحل سابقة للدين وتطور الوحي بدليل نسخ المرحلة التالية المرحلة اللاحقة. لا نسخ في العقائد بل للنسخ في الشرائع. والعبادة من الشرائع. بل لبقد تطورت الشرائع في آخر مرحلة بدليل الناسخ والمنسوخ^(١).

ب- الطبقات الاجتماعية. يقسم إخوان الصنا المجتمع إلى طبقات أقرب إلى طبقات العلماء والحرفيين، فالعلم صناعة منها إلى الطبقات الاجتماعية بالمعنى الاقتصادي. ولكل طبقة مرتبتها بين العمل والنظر، بين النقل والعقل، بين الحرف والتأويل. وتنقسم الطبقات قسمة رباعية أو سباعية أو ثمانية، ثقل أو تكثر. ويمكن ضم أكثر من طبقة في طبقة واحدة وبالتالي تنتهي القسمة كلها إلى ثلاثية. ولكل طبقة طريقة في مخاطبتها^(٢)، وقد تكون هذه البنية التراتبية في النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة والتاريخ ما هي إلا تطبيقات على مستويات عدة لنظرية الفيض، بالرغم من قول البعض أن نظرية الفيض ما هي إلا انعكاس للتراتبية الاجتماعية الموجودة في المجتمع.

وقد تنقسم الطبقات قسمة رباعية. وهي من أعلى إلى أدنى: المتشيعون وهم الاخوان، وأهل العلم الغافلون عن النفس، والعمال والكتاب، وأخيراً السلاطين. ومعاشره الاخوان نموذج الحياة الاجتماعية الاشرافية. ويتضح من هذه القسمة أن الملوك والسلاطين أعلى طبقة يتلوهم العمال والكتاب أي الوزراء وكتاب الدولة. يتلوهم أهل العلم الغافلون عن النفس وهي العلوم المهنية الحرفية غير الحكمية. ويأتي في نهاية المطاف الاخوان المتشيعون قبل أن يَنخرطوا في الطريق. وربما تكون القسمة الرباعية نقلاً للوافد

(١) السابق جـ ٤٨٤/١ - ٤٨٥.

(٢) تشير بعض الرسائل إلى الطبقات الحرفية مثل الرسالة الأولى في الآراء والذاتيات ١٤ - فصل في بيان فضل الفقراء والمساكين وأهل البلوى جـ ٤٢٩/١ - ٤٣٢. ١٥ - فصل في الفرق بين أصول الصنائع والعلوم وفروعها ص ٤٣٢ - ٤٣٨. الرسالة الرابعة: في كيفية معاشره إخوان الصفا وتعاون بعضهم مع بعض وصدق الشفقة والمودة في الدين معاً جـ ٤١/٤ - ٦٠. الرسالة السابعة: في كيفية الدعوة إلى الله جـ ١٤٥/٧ - ١٩٧. الرسالة التاسعة: في كيفية أنواع السياسات وكيفية جـ ٢٥٠/٩ - ٢٧٢.

الرياضى فى الشكل الذهبى، الأحاج والعشرات والمئات والألف (١).

وقد تكون القسمة سباعية لمزيد من التفصيل للطبقات المتوسطة بين الملك والسلطان من ناحية والبطالة من ناحية أخرى. ففي القمة يأتى الملك والسلطان والأطباء وأرباب السياسات أى كل مظاهر القوة السياسية والعسكرية والإدارية، أصحاب السلطة والقرار فى المجتمع. يتلوها طبقة العلماء والأدباء ورجال الدين والفقهاء. يتلوها الصناع والحرفيون والعمال. يتلوها التجار والذين يقومون بعمليات البيع والشراء ورجال الأعمال وأصحاب الأموال. فالصناعة قبل التجارة، والصناع أعلى قيمة من التجار. يتلوها عمال البناء، عمال التراحيل وهم أقرب إلى الخدمات والعمال العضلية دون المهنية. يتلوها المتصوفة والخداعون والمتعيشون يوماً بيوم، أجراء اليوم الواحد. وأخيراً يأتى للعاطلون الذين لا عمل لهم إما لمرض أو بطالة، ومعهم الزهاد والأولياء والخدم. ويتضح هنا وضع إخوان الصفا للمتصوفة والمكشعودة فى أدنى الدرجات. كما يتضح غياب الفلاحين والزراع. وقد ترد الطبقات السبع إلى طبقتين: الأولى واضع النواميس الإلهية، والثانية الملوك خلفاء الأنبياء. الأولى مخدومة والثانية خادمة. تأكيداً لخلافة الملوك للأنبياء. وكلاهما طبقة الرئاسة دون طبقات المرووسين. وتنتهى الكثرة إلى وحدة. فالكثرة من سمات الدنيا والوحدة من سمات الآخرة (٢).

(١)	الملوك والسلاطين	آحاد
كيفية مخاطبة الناس	العمال والكتاب	عشرات
	أهل العلم العاطلون عن النفس	مئات
	المتعيشون (الإخوان)	ألف

(٢) الرسائل ج ١/ ١١٣، ج ١/ ٣١٥/ ٩ - ٣٢١ - ٣٢٠.

أنواع الناس	الملوك والسلاطين والأجناد وأرباب السياسات.
	العلماء والأدباء وأرباب الديانات المستخدمون فى الناموس.
	الصناع والحرفيون.
	التجار وأرباب المعاملات فى الأموال.
	عمال البناء وأرباب العمارات والأعمال.
	المتصوفون والخدامون والمتعيشون يوماً بيوم.
العاطلون وأرباب الفـ	زراع.

ولكل طبقة أخلاقها وطباعتها وسجاياها. فالطبقات الاجتماعية هي طبقات حرفية طبقاً للقدرات الأخلاقية وقوى النفس. فالحرفة هي التي تخلق الطبقة سواء من حيث قيمتها الخارجية في المجتمع أو قدرتها الداخلية وما تطلبه من قوى النفس.

ثم ينقسم الناس طبقاً لمراتب الناموس. والناموس مملكة روحانية تقوم على أركان غائية. وله معنيان. معنى دقيق هو هذا المعنى، ومعنى عام وهي كل مراتب العلم. فالناموس رمز للعلم.

ومراتب الناموس ثمان. أعلاها المؤلفون وهم الأئمة. يتلوها الصوفية ثم الأصوليون ثم المجاهدون ثم المفسرون ثم الفقهاء ثم الرواة والمحدثون، وأخيراً القراء والحفاظ. الفروق بينها دقيقة مثل الطبقة السابعة الرواة المحدثون، والثانية القراء والحفاظ. كما أن الطبقة الخامسة المفسرون لا تختلف كثيراً عن السادسة الفقهاء، فالتفسير والفقهاء من العلوم النقلية. والطبقة الثانية الصوفية والثالثة الأصوليون واجهتان لعملة واحدة، التأويل والتزويل. كما تجمع التطبيقات بين العلم والعمل. لذلك يدخل المجاهدون كطبقة رابعة تسبق طبقات العلوم النقلية: المفسرون والفقهاء، والرواة والمحدثون، والقراء والحفاظ. الطبقات الأربعة الأولى أقرب إلى الإبداع والطبقات الأربع الثانية أقرب إلى النقل. وتغيب طبقة الحكماء والمتكلمين إلا إذا كانوا من المتأولين مع الأئمة.

وقد تنقسم طبقات الناس سبعة. وهو نفس التقسيم السابق مع إسقاط الأصوليين، وقسمة المتأولين وتغيير اسمهم إلى خلفاء واضعى الناموس وقسمتهم إلى أئمة مهديين وملوك وروساء سياسيين أى السلطتين الدينية والسياسية. الطبقة الأولى خلفاء واضعوا الناموس وهم قسمان: خلفاء فى أسرار الناموس وهم الأئمة المهديون، والملوك والرؤساء

واضعوا النواميس الالهية.

أنواع الناس

الملوك خلفاء الأنبياء.

فى أمور الدنيا والتبشير والسياسة فى حفظ ظاهر أحكام الناموس. والثانية الزهاد والعباد والمذكرون بأحوال الآخرة والمعاد مثل القناعة والرضا، من مقامات الصوفية. والثالثة أنصار واضع الناموس وغزاة أعدائه المحافظون على الثغور لتعصيد الدين والحقن على الأعداء، والشجاعة واليقظة وذكر الله وترك الفساد عند هزيمة العدو. والرابعة المفسرون لألفاظ التنزيل الألفاظ المشتركة وأسباب النزول. والخامسة الفقهاء والقضاة والمقنون لترتيب الناموس من الأوامر والنواهي والفرائض والسنن والنواقل والحجالات والحرامك والحدود والأحكام، والقياس والتأني فى الفتيا وقلة الترخيص. والسادسة أصحاب الأخبار وحملة الأحاديث. ويتمتعون بفصاحة الألفاظ وتقويم اللسان وطيب النعمة وجودة العبارة وسرعة الحفظ وجودة الفهم ودوام الدرس مع التواضع والرفق^(١).

والسؤال هو: هل الناموس هو الشريعة كما يدافع عنها الفقهاء أم القاموس الكونى؟ وهل استعمال الرسول فى حديثه هذه الكلمة الناموس التى قد يونانية الأصل قد تم تعريبها من قبل^(٢).

ويتم الانتقال من الأخلاق إلى الاجتماع عن طريق البحث عن خلاص النفس من الجسد، ليس عن طريق الجهد الفردى، الطريق إلى الله، والتحول من الدنيا إلى الآخرة،

(١)	
المراتب الناموس	المأولون
المراتب الناموس	الصوفية
المراتب الناموس	الأصوليون
المراتب الناموس	المجاهدون
المراتب الناموس	المفسرون
المراتب الناموس	الفقهاء
المراتب الناموس	الرواة والمحدثون
المراتب الناموس	القراء والحفاظ

الرسائل ج ١/ ١٨٦/ ٥، ج ١/ ٣٢٢/ ٩ - ٣٢٤ / ٣٢٨ / ٣٣٠، ج ١/ ٨/ ٢٩٥.

(٢) ربما هى تعريب للفظ Nomos اليونانى بالرغم من أنها عربية الأصل عند البعض الآخر اسم حشرة مثل هاموش!

ولكن عن طريق بناء مدينة روحانية، المدينة الفاضلة، مدينة الصوفية، انتقالاً من علم النفس إلى العلم المذنى، مما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون. وهى ليست مدينة فى الأرض بل "يوتوبيا" لا مكان لها. لا تبنى على الأرض إلا الدولة الجائرة، لا تبنى على الماء بسبب الأمواج، ولا فى الهواء بسبب الخلل، ولكنها تبنى على تقوى الله فى الملاء الأعلى وتشرف على سائر المدن. وكلها رموز وتشبيهات. لا تبنى على الماء للأمواج تعنى العنصرية والطائفية والشعبوية، ولا على الهواء للخلل بسبب كدر الأفعال، وإشراقها على سائر المدن أى للسيطرة عليها. ثم يتم بناء مركب للنجاة كما فعل نوح لانقاذ الخاصة من العامة.

وتتضمن هذه المدينة أربع مراتب أى طبقات. الأولى مرتبة الالهيين ذوى المشيئة والارادة، أرباب العقل والمعقولات، والقوة الملكية فى الناطقة. والثانية مرتبة الملوك ذوى الأمر والنهى، القوة الباصرة فى الألوان، والناطقية فى الحيوان. والثالثة مرتبة ذوى الرياسة، الألوان فى الضياء، والقوة الحيوانية فى النامية. والرابعة مرتبة الأركان الأربعة ذوى الصنائع، الضوء فى الهواء، القوة النامية فى الأركان. كل مرتبة لها صورتها الطبيعية وصورتها الالهية. والعليا تسرى فى الدنيا^(١). رئاسة المدينة الروحية لكل المدن تنظير لآية «فكيف إذا جننا من كل أمة بشهيد، وجننا بك على هؤلاء شهداء». وهى مدنية لا يدخل عليها إلا من كان منها^(٢). حولها أربعة أسوار وهى الجهالات. وما بين كل سورين خندق وهى سوء الأعمال وفساد الآراء ورداءة الأخلاق.

(١) السابق ج ٤/ ٧/ ١٦٩ - ١٧٣. الالهيين ذوى المشيئة والارادة، العقل والمعقولات، والملكية فى الناطقة. الملوك ذوى الأمر والنهى، القوة الباصرة فى الألوان، والناطقية فى الحيوانية. تعاون أهل المراتب ذوى الرياسة، الألوان فى الضياء، والقوة الحيوانية فى النامية. أرباب الأركان الأربعة ذوى الصنائع، الضوء فى الهواء، القوة النامية فى الأركان.

(٢) تمثلاً قول أفلاطون: من لم يكن مهنساً فلا يدخل علينا.

ويتم الخلاص بالتعاون طالما وجد شينان، اجتماع قوة الجسد في واحدة، وقوى النفس في واحدة حتى تصبحا جسدا واحدا ونفسا واحدة دون أن يفهر أحدهما الآخر بل تقهر هي من يحاول قهرها ^(١). وحدة النفوس مع تفرق الأجساد تحقق الصداقة والأخوة بينهم. ولما كان الاجتماع لعة وسبب، فاجتماع الاخوان لصالح الدنيا وفوز الآخرة، والسبب المحبة والرحمة والشفقة والرفق والمساواة وهي أقرب إلى أخلاق الضعفاء منها إلى أخلاق الأقوياء.

والكثير من هذه التحليلات عبارات خطابية انشائية جمالية، مجرد التعبير عن أمنيات في ملكوت السموات ربما تعويضاً عن فشل سياسة الدنيا وسيادة دولة الظلم والانعزال عنها وإعطاء البديل كحل وخيال كما فعل الصوفية.

وقد تنقسم الطبقات إلى خمس. الأولى الأفاضل وهم الحكماء المتعقلون ذوو الآراء في الأمور العظام وهم الفلاسفة والعلماء. وهم أهل البرهان. والثانية ذوو الألسنة، وهم حملة الدين والخطباء والبلغاء والشرعاء والملحنون والكتاب، اللغويون والأدباء. والثالثة المقدرين وهم الحساب والمهندسون والأطباء والمنجمون أهل الصنائع والحرفيون. والرابعة المجاهدون، وهم المقاتلة الحفظة، الجنود والقواد، الجيوش والعساكر. والخامسة المالليون، وهم مكتسبوا الأموال ويضم إليهم الفلاحون والرعاة والباعة. وهم أيضاً التجار والصيارفة من أهل الزرع والرعى ^(٢). وبلاحظ الترتيب في الفضل من أعلى إلى أدنى،

(١) وهو ما سماه نيتشه أخلاق السادة في مقابل أخلاق العبيد وما سمي في هذا العصر أخلاق المدينة في مقابل أخلاق القرية.

(٢) الفارابي: فصول المدينى ص ٦٥ - ٦٧.



وأفضلية العمل العقلى على العمل اليدوى، وأولوية العلماء على الصناع. أعلاها العلماء وأدناها التجار والفلاحون نظرا لعدم وجود الصناعة بعد. وللعلماء الأولوية على الخطباء، وللعقل الأولوية على اللسان والخيال. ثم تأتى الحرف العليا أو المهن مثل الهندسة والطب بعد الخطباء والشعراء. ثم يأتى الجنود فى المرتبة قبل الأخيرة قبل أن يصبح للجيش فى السلطة المرتبة الأولى بعد الثوار العربىة الأخيرة.

ج- الترابط الاجتماعى. والانسان فى حاجة إلى التعاون من أجل تحقيق الضرورى والأفضل. بل أن التعاون سمة الأحياء، الإنسان والحيوان والنبات. الاجتماع لا يعوق بل يعين. ومن الاجتماع ما يعوق. الاجتماع فى الحيوان والحشرات مثل النمل والنحل والفز وبعض حيوانات البحر. والانسان لا تتم أموره إلا بالاجتماع فى مسكن واحد.

وتنشأ الحاجة إلى التعاون بناء على تقسيم العمل وليس لأن الإنسان مجرد حيوان اجتماعى مفطور بطبعه على التعاون. ويقوم تقسيم العمل على التخصص. إذ يفوض لكل واحد من المدينة الفاضلة عمل واحد وصناعة واحدة، خدمة أو رئاسة لا يتعدها. ولا يترك لواحد مزاوله أعمال كثيرة من صناعة واحدة إذ لا يتفق لكل إنسان أن يصلح لكل عمل وصناعة بل يصلح لعمل دون عمل. ويكون الإنسان أكمل متى أحقق صناعة وأكملها منذ صباه ولم ينشغل بسواها. وكثير من الأعمال أوقات لا تتأخر وبالتالي يصعب القيام بعملين فى نفس الوقت مثل السائق والمحصل. ولما كان لا يستطيع إنسان واحد أن يقوم بكل المهن لزم تقسيم العمل وتوزيع المهن فى جماعة ويتعاون الجميع على أداء جميع المهن. والمشروع الواحد فى حاجة إلى تعاون المهن من فلاحه ونجارة وحدادة. التعاون إذن هو موضوع العلم المدنى. وهو تقسيم العمل وتكامله. والتعاون فى المجتمع على أداء الخدمات على المستويين الأفقى بين الجماعات وليس على المستوى الرأسى بين الخادم والمخدوم.^(١)

(١) السابق: ص ٧٤-٧٥، السياسات ص ٤١. أراء ص ٧١-٧٢، الملة ص ٥٣.

وشرط التعاون التجاور فى مسكن واحد. فهو تعاون محلى بين الجيران، وليس تعاوناً عن بعد بين بيوت أو قرى أو أُمم متباعدة فى عصر قديم لم يصبح العالم فيه قرية واحدة كما هو الحال بفضل ثورة الاتصالات. وقد يكون التجاور بين جماعة أمية وجماعة مدنية فيحدث التعاون. لا يتطلب التعاون إذن التكافؤ فى المستويات المدنية كالتعاون بين الشمال والجنوب أو بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة بلغة هذا العصر.

والتعاون على الخير ينشئ المدينة الفاضلة، والتعاون على الشر ينشئ المدينة الجاهلة. وهو اختيار مطلق لا صلة له بالظروف الموضوعية التى يتم الاختيار فيها خيراً أم شراً. وفى الأمم ملة مشتركة تدفعهم إلى التعاون وبلوغ السعادة القصوى (١).

لذلك كان موضوع العلم المدنى السعادة أى الأخلاق وليس المجتمع المباشر. والسعادة ضريان مظنونة فى الدنيا وهى التى لأجلها يعظم الإنسان، كرامة أو لذة أو ثروة، وحقائقية وهى السعادة القصوى فى الآخرة. وتطلب لذتها. ويسمىها الجمهور الخيرات طبقاً للتشائية التقليدية بين الخير والشر. المجتمع طريق الأخلاق. والأخلاق طريق السعادة. وإذا استعملت السير والأخلاق والملكات فى المدن أو الأمم عمرت بها مساكنهم، ونال أهلها الخيرات فى الدنيا والسعادة القصوى فى الآخرة. وما ينال به السعادة القصوى هى الفاضلة وحدها. وما سواها من الملكات والأفعال فهى مظنونة على أنها خيرات وهى فى الحقيقة شرور.

موضوع العلم المدنى هو فحص الأفعال والسير والأخلاق والقيم والملكات الإرادية. التى تكون فى الأمم فاضلة وجاهلة. هو علم السلوك العملى وليس فقط علم الأخلاق النظرية. هو جزء من الفلسفة يفحص الكليات ويقدر الجزئيات كماً وكيفاً. ويترك التقدير الفعلى لقوة أخرى غير الفلسفة. هى النبوة والجزاء الأخروى. العلم المدنى إذن جزاءان، الأول تعريف السعادة مظنونة أو حقيقة، والثانى تعريف الأفعال التى بها يمكن للأفعال الفاضلة أن يحافظ عليها.

(١) الفارابى: الملة ص ٦٤-٦٦

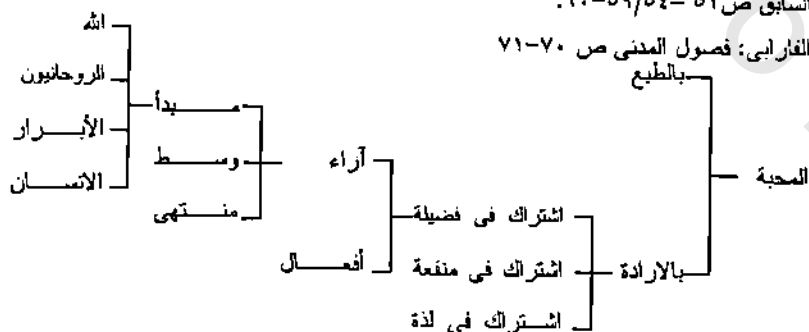
ومن مهام العلم المدنى إحصاء المهن الملكية غير الفاضلة والرئاسات ورسوم الأفعال لكل منها وأغراض كل مدينة. وهى أمراض المدينة الفاضلة وإحصاء الأسباب لتحول الرئاسات والمدن والسير الفاضلة. فالعلم المدنى يدرس التحول من الإيجاب والسلب، الثبات الاجتماعى والحراك الاجتماعى بلغة المعاصرين (١).

وترتبط أجزاء المدينة بالمحبة، وتتماسك وتحفظ بالعدل. المحبة ترابط داخلى والعدل ترابط خارجى. المحبة ذاتية والعدل موضوعى. المحبة أولاً والعدل ثانياً، ربما من بقايا علم الكلام جمعاً بين الأشاعرة والمعتزلة. وقد تكون المحبة بالطبع مثل محبة الوالدين أو بالارادة اشتراكاً فى لذة أو منفعة أو فضيلة. والاشتراك فى الفضيلة فى الأفعال أو الآراء. والاشتراك فى الآراء منتهى ووسطاً ومبدأ. والمبدأ إما خلق العالم أى الإنسان أو الأبرار وهم الأئمة القدوة أو الروحانيون وهم الملائكة أو الله (٢). فإذا ما انتقلت السعادة مع الأفعال الموصلة إليها نشأت المحبة. ونظراً للتجاور فى السكن تنشأ المحبة من أجل المنفعة. ولأجل المنفعة تنشأ المحبة من أجل اللذة. فالمحبة دائرة تجمع بين المكان والزمان، الأثناء الآخر، المنفعة واللذة.

وتحقق عدالة التوزيع فى قسمة الخيرات المشتركة على أهل المدينة وحفظها مثل السلامة والأموال والمراتب وسائر الخيرات. فالعدالة ليست فقط فى الرزق والكسب بل أيضاً فى الأمن والاستقرار. ولكل فرد قسط مساو للآخر لاستهلاكه له. ونقصه جور عليه. وزيادته جور على المدينة. ويتم الحفاظ على قسط كل فرد بالأى يخرج من يده أو

(١) السابق ص ٥٢ - ٥٩/٦٠.

(٢) الفارابى: فصول المدنى ص ٧٠-٧١



يخرج بشرائط وأموال بحيث لا يلحق ضرر بنفسه أو بالمدينة. وما يخرج بيده إما بارادته مثل البيع والهبة والقرض أو بدون إرادته مثل السرقة والاعتصاب. والعدل أن يعود إليه خير مساو للذى خرج منه إما من نوعه أو من نوع آخر لنفسه أو للمدينة، وبلغة العصر أن يكون قدر الرزق والكسب قدر المصاريف أو تحقيق ميزان المدفوعات، والجور أن يخرج من يده من غير أن يعود إليه خير مساو لنفسه أو للمدينة أى زيادة الاستهلاك على الانتاج وبالتالي العجز على ميزان المدفوعات. ومن ثم يأخذ مفهوم العدل والجور الاعتزاليان دلالات إقتصادية صرفة. وهى أقرب إلى عدالة التوزيع والمقايضة بشئ مساو له والأحتفاظ بالأموال دون استثمارها كما هو الحال فى المجتمع القبلى. والعدل أن يأتى الانسان أفعال الفضيلة، وهو العدل الأعم، والعدل فى الأخلاق فى مقابل العدل فى التوزيع، العدل الأخلاقى والعدل الاقتصادى.

وماذا عن البطالة ووضع من لا يكسب المال؟ هناك ثلاثة آراء فى ذلك. الأول قيام المدينة بامداد الطوائف التى لا تقوم بكسب المال بالأموال اللازمة مثل حملة العلم والدين لأن العلم رسالة وليس وسيلة للكسب، والكتاب والأدباء لأن الأدب قضية وليس تجارة، والأطباء فالطب خدمة لا سلعة، ورسالة لحرقة، والزمن القعيد لأن له حق فى الضمان الاجتماعى، وهو دور الدولة الاشتراكية بلغة العصر. والثانى ضرورة أن يعمل الكل عملاً نافعاً. ومن لا يعمل لا يأكل. وهو ما قد يعادل الدولة الرأسمالية بلغة العصر. والثالث قيام المدينة بكفاية من لا يكسبون الأموال والزمن وما شابهه أى المعوق. وربما هى الدولة الاسلامية أو الدولة الانسانية العامة^(١).

وتقدر العقوبات على حجم الشرور ومساويه لها. فمن العدل جزاء الشر شراً. وإذا زيد كان جوراً على نفسه. وإذا نقص أو انعدم كان جوراً على المدينة. لذلك لا يعفى عن الجانى، وإن عفى الذى وقع عليه الجور. وهناك حق الدولة إن تتنازل الفرد عن حقه ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ واليعض الآخر يرى العفو عن

(١) السابق ص ٧٦.

الحقّين في حين أن العفو عن الجاني قد يشجعه على الاستمرار. فالعقاب باسم المدينة رادع له. ولكن السؤال: هل يعفى عن البعض دون البعض الآخر؟ وما المقياس الموضوعي لذلك حتّى لا يطبق القانون على الضعيف دون القوى؟ وهل لولى المجنى عليه حق في ذلك؟ والجور نوعان: جور خاص يعم أهل المدينة. وجور خاص لا يعم أحداً. والسؤال هو: هل يقع الجور على من يقع عليه الجور وحده أم على أهل المدينة كلهم؟ العدوان على الفرد عدوان على الجماعة تنظيراً عقلياً شعورياً أو لا شعورياً لآية ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ودون أى تضارب مع ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١).

والحرب نوعان: عادلة وجائرة: تقع الحرب العادلة لوقوع عدوان من الخارج يقتضى الدفاع وهى حروب التحرير. وقد تقع لاكتساب خير تسأله المدينة من الخارج أو يساء إلى ذلك مثل الحروب لاسترداد ثروات الشعوب من النهب الاستعماري. وقد تقع لأكراه قوم على الأجود والأحظى إذا لم يعرفوه من تلقاء أنفسهم وانقادوا له بطليهم مثل الفتوحات والجهاد فى سبيل الله فى مرحلة تاريخية ونظم عالمية وعلاقات دولية تسمح بذلك. وقد يعتبر البعض ذلك عدواناً على الآخرين. وهو تنظير للفقهاء القديم: الإسلام أو الجزية أو القتال، وهو ما يستحيل الآن فى عصر الهزيمة والانكسار. ومن هو غير المسلم الآن؟ الكتابى، الشرقى، الغربى، الوثنى الملحد؟ وقد تقع الحرب لمن لا ينقاد للعبودية والمتعة من الرتبة الدنيا إلى الرتبة العليا. وهى حروب الاستعلاء مما قد بشرع للحروب العنصرية والاستعمارية لصالح الجنس الأرقى والقوة الأعظم. ومن ثم يكون السؤال: كيف تكون هذه الحروب عادلة والحرب للتحرير أيضاً عادلة. وقد تقع الحرب لمحاربة قوم لمنعهم حق لأهل المدينة أو لحملهم على العدل والنصفة وهى الحرب التى تنشأ نتيجة للحصار الظالم والاستيلاء على الثروات. وقد تقع الحرب لمعاقبة قوم على جنائية لئلا يعودوا إلى مثلها مثل صد العدوان ومنع الجرائم ضد الإنسانية. وقد تقع الحرب أخيراً للقضاء كلية على مصدر العدوان لأن وجوده ضرر على المدينة مثل

(١) السابق ص ٧١-٧٤.

القضاء على الصهيونية والاستعمار اللذين يمثلان خطراً على حرية الشعوب واستقلالها.

أما الحرب الجائرة فقد تقع عندما يحارب رئيس قوم قوماً ليزلوا له وينقادوا ليكرموه من أجل نفاذ طاعته أو إكرام رئاسته واتباع رأيه أياً كان مثل الحروب النازية والفاشية والصهيونية والاستعمارية وكل حروب العدوان، وحروب الاسكندر ونابليون بالرغم من تبريرها بتبشير أفكار الحرية والمساواة. وتقع الحرب الجائرة بالغلبة وللغلبة وحدها مثل حروب التتار وحروب التدمير من أجل التدمير وإظهار القوة. وقد تقع أيضاً شفاء لغيظ ما أو لذة لعدوان. وفيها يؤخذ الحابل بالنابل، والبريء بالمذنب، والمحسن بالمسيء. (١).

د- الدوائر الاجتماعية: وتختلف الأمم فيما بينها، فالإنسانية ليست واحدة بل مكونة من مجموعة من الأمم. والسبب الطبيعي في اختلاف الأمم هو اختلاف الأجسام انسمائية التي تسامتهم من الكرة الأولى ثم من كرة الثوابت أى الموقع الجغرافى من الشمس، واختلاف أوضاع الأكر المائلة من أجزاء الأرض أى الاختلاف طبقاً لأجزاء الكرة الأرضية شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً. وتبعاً لاختلاف أجزاء الأرض يأتى اختلاف البخارات التى تتصاعد منها والذى يشاكلها. ومن اختلاف البخار ينشأ اختلاف الهواء والمياه، ومنه ينشأ اختلاف النبات والحيوان غير الناطق فتختلف أغذية الأمم. ومن اختلاف الأغذية من اختلاف الواد والزرع التى منها يتكون الناس. ومن اختلاف الناس يتبع اختلاف الخلق والشيم وربما بتأثير مباشر أو غير مباشر من كل العوامل السابقة. كل عامل لاحق يفيض عن العامل السابق. فالإنسان حصيلة موقعه الجغرافى وخلقته حصيلة غذائه. وهو تفسير علمى طبيعى لاختلاف البشر تنظيراً لآية ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم﴾. واختلاف الأمم بداية التاريخ. (٢).

(١) السابق ص ٧٦-٧٨.

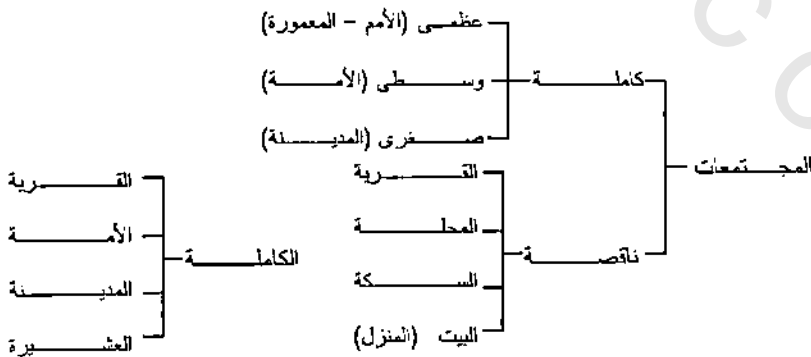
(٢) الفارابى: السياميات المدنية ص ٤٢-٤٤.

وللمساكن أثرها على الأخلاق. تولد مساكن الشعر والجلود فى الصحارى فى أهلها ملكات التيقظ والحزم أو الشجاعة والاقدام. وتولد المساكن الحصينة فى أهلها ملكات الجبن والأمان والتفرغ وهو ما لاحظته ابن خلدون فيما بعد من الفرق بين أخلاق البدو وأخلاق الحضرة. وربما كان هناك توجه لاشعورى من القرآن فى وصف أخلاق بنى اسرائيل بالقتال من داخل الحصون وأن الموت يدركهم ولو كانوا فى بروج مشيدة فى مقابل الفضائل العربية قبل الاسلام وبعده. فقيم الصحراء أكثر قدرة على الصمود من قيم المدن (١).

وتتطبق نظرية الفيض على أنواع المجتمعات. فتتقسم فى دوائر متداخلة فى أقسام ثنائية وثلاثية ورباعية. تنقسم ثنائيا إلى كاملة وناقصة ثم تنقسم الكاملة إلى كبرى وهى الأمم أو المعمورة كلها، ووسطى وهى الأمة، وصغرى وهى المدينة. وتنقسم الناقصة أو غير الكاملة رباعيا إلى القرية والمحلة والسكة والبيت أو المنزل. والعلاقة بينهما علاقة خادم بمخدوم. كل مجتمع أدنى خادم للمجتمع الأعلى. البيت خادم للسكة، والسكة خادم للمحلة، والمحلة خادم للقرية، والقرية خادم للمدينة، والمدينة خادم للأمة، والأمة خادم لمجموع الأمم أى للمعمورة أو الإنسانية كلها (٢).

(١) القرآن ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها متاعا إلى حين﴾، ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾.

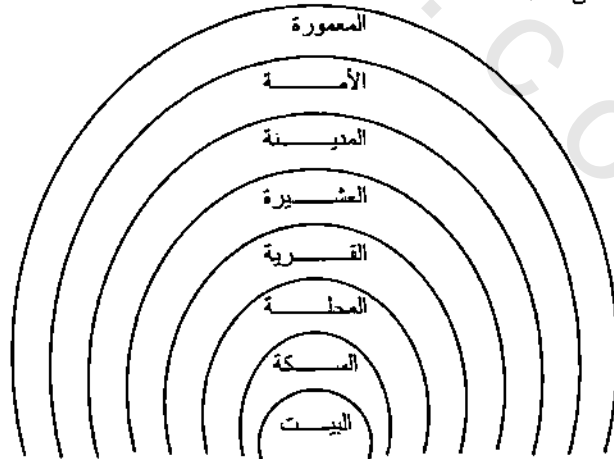
(٢) الفارابى: السياسات المدنية ص ٤٢ آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٧١.



وهي قسمة كمية في الظاهر. المعمورة أكبر من الأمة، والأمة أكبر من المدينة، والمدينة أكبر من القرية، والقرية أكبر من المحلة، والمحلة أكبر من السكة، والسكة أكبر من البيت. بل يختلف كل مجتمع عن الآخر كما أيضا. فهناك أمة كبرى وأمة صغرى، ومدينة كبرى ومدينة صغرى، وقرية كبرى وقرية صغرى، ومحلة كبرى ومحلة صغرى، وسكة كبرى وسكة صغرى، وبيت كبير وبيت صغير. ولكنها أيضا قسمة كيفية في مدى عظم الغاية واتساعها أو القصد الإرادي من المجتمع. والهدف هو التعاون. يزداد التعاون على المستوى الإنساني العام كما هو الحال في العلاقات والمنظمات الدولية ويقل في السكة وهو المجتمع العرضي إلا إذا كان القصد من الهدف حسن السير وحسن النظام. والمحل مجموعة من المنازل أكبر من البيت وأقل من القرية، منازل متناثرة لارابط بينها كما هو الحال في المناطق العشوائية. وأحيانا تكون القسمة رباعية في المجتمع الكامل باضافة العشيرة بعد المدينة التي هي أقل من المدينة وأكبر من القرية في مضارب القبيلة. والعلاقة بينهما أيضا علاقة الكل بالجزء في دوائر متداخلة^(١).

المعمورة هي مجموعة الأمم أي الإنسانية أو البشرية بصرف النظر عن زمانها ومكانها وأخلاقها، فاضلة أو جاهلة. هي مجموع أمم متباينة في عصور مختلفة لا يجمع مدنها وبيوتها سلوك أخلاقي واحد.

(١) الفارابي: الملة ص ٤٢.



وتتميز الأمة عن غيرها بثلاثة أشياء، الخلق الطبيعي، والشيم الطبيعية، واللسان أى اللغة. والخلق أقرب إلى الصفات البيولوجية فى حين أن الشيم أقرب إلى سمات الشخصية النفسية والمزاجية والثقافية. الأولى أقرب إلى الطبيعة، والثانية أقرب إلى الاكتساب.

ويعنى لفظ المدينة التجمع البشرى أو الجماعة أو المجتمع بلغة العصر. وكلها مرادفات عند الفارابى. وهى نموذج الاجتماع الانسانى وليس الأمة، مثل مدن حلب وبخارى وسمرقند، وأثينا واسبرطة وروما قديما. ولا تعنى المدينة أو المنزل ما عناه القدماء بأنه السكن أى المكان بل السكان أى البشر. فالجغرافيا بلغة العصر هى الجغرافيا البشرية أو علم السكان. وتخطيط المدن يعنى السكان وليس السكن. وهو ما يتفق مع التجربة البشرية فى القرآن والشعر. فالسكن ليس فقط المسكن والبناء، شكله وصورته بل الناس القاطنين فيه^(١). ويلتئم المنزل من أربعة: زوج وزوجة، مولى وعبد، والد وولد، قنية ومقتنى.بقى الزوج والزوجة والوالد والولد وانقضى عهد المولى والعبد والقنية والمقتنى بفضل الزمن. والرئيس هو رب المنزل مثل مدير المدينة^(٢).

ثانيا: أنواع المدن.

وتكرر كتابات الفارابى فى "السياسات المدنية" و"فصول المدن" و"آراء أهل المدينة الفاضلة". فهل يتطور الفيلسوف أم أنه حدس واحد وتصور واحد وتحليل واحد؟ فى كل مرة يبدأ التأليف من الألف إلى الياء، خطاب واحد فى تصور شمولى واحد، بداية جذرية بفعل فلسفى متجدد. ويمكن رؤية علاقة جدلية بين هذه المؤلفات الثلاثة. "السياسات المدنية" سلب ونفى، و"آراء أهل المدينة الفاضلة"، إيجاب ووضع،

(١) وهو ما يتفق مع القرآن فى بعض آياته مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقُرْآنَ﴾. ومن الشعر

أمر على الديارديار ليلا .: أقبل ذا الجدار وذو الجدارا

وما حب الجدار شغف قلبى .: ولكن حب من سكن الديارا

(٢) هناك فرق بين المولى والعبد من ناحية والفق من ناحية أخرى. المولى حر دخل فى حلف مع حر. والعبد يمكن أن يكون حرا. والفق هو الذى مازال مملوكا كالمالك.

و"قصول المدنى" جمع بين السلب والايجاب. أما الملة فانها كشف عن حقيقة الجدل فى الاجتهاد والتقليد، والموروث كمصدر للتظير الخالص. الفاضلة فى الأول نوابت أى ماهو كائن، بينما الفاضلة فى الثانى ما ينبغى أن يكون. لم يعرض الفارابى المدينة الفاضلة قدر عرض المدن الجاهلة والفاسقة والضالة ونوابت الفاضلة فى "السياسات" بل فى "الآراء". لم تذكر "السياسات" المدينة الفاضلة بل ذكرت نوابتها أى المجتمعات الهامشية والطفيلية. ومع ذلك عرض آراء أهل المدينة الفاضلة أقصر بكثير فى الآراء منه فى "السياسات المدنية" يضيف كل عمل فى العلم المدنى شيئا جديدا. فتركيب المدينة وتشبيهاها بالبدن مادة جديدة فى "الآراء" ولا توجد فى "السياسات"، وأقرب إلى "قصول المدنى" أو "الفصول المنتزعة". والعضو الرئيسى لا يوجد فى السياسات^(١). والمدينة المبذلة فى "الآراء" فقط وليست فى "السياسات".

ومعيار تصنيف المدن الآراء أو الأهداف والغايات، وبلغة العصر الأيديولوجيات. ماهية المدينة بفكرها وليس بنظامها السياسى أو إنتاجها الإقتصادى، وبلغة العصر بتقافتها وحضارتها وقيمتها. تحدد نوعية المدينة بأخلاقية الهدف^(٢).

وتطلق صفتا الفاضل والجاهل على المدن والسياسات والرئاسات والاجتماعات والآراء والأفعال والملل مما يدل على ارتباط الأخلاق والاجتماع والسياسة. واستعمال لفظ الجاهلة بدلا من لفظ الجاهلية من بقايا الموروث القديم، الجاهلية قبل الاسلام بعد أن تم تنظير الاسلام فى الفاضلة طبقا لظاهرة التشكل الكاذب. والسياسة ليست جنسا لسائر أصناف السياسات بل هم اسم مشترك لأشياء كثيرة تتفق وتختلف فى طبائعها، ولكن لا شركة بين السياسة الفاضلة والسياسة الجاهلة. السياسة الفاضلة هى التى ينال بها السائس الفضيلة فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا أن يكون البدن على أفضل الهيئات

(١) الفارابى: الآراء ص ٧٢ - ٧٥.

(٢) مضادات المدينة الفاضلة، آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٨٣ - ٨٧، القول فى أهل هذه المدن ص ٩١ - ٩٤، القول فى الأشياء المشتركة لأهل المدينة الفاضلة ص ٩٤ - ٩٨، القول فى آراء أهل المدن الجاهلة والضالة ص ٩٨ - ١٠٣، القول فى المدن الجاهلية ص ١١٠ - ١١٧.

وأنفسهم على أفضل الحالات، ويكون ذلك سبب السعادة فى الآخرة شرط أحوال الآخرة. والسياسة الجاهلية تختلط أصنافها ويصعب التمايز بينها فى أفعال الرئيس الجاهلى لأن أفعال كل واحد تصدر من ظنونه وآرائه دون علم أو صناعة متقنة. وقد قنن الأقدمون السياسات الجاهلة لأن العلم يُحفظ ويُضبط بالقوانين الكلية. وإن كانت السياسات الجاهلية مركبة يعرف كل منها على حدة وبحسب طبيعتها، كذلك الحال فى جميع الأشياء العملية مثل الخطابة والسفسطة والجدل والشعر فانها ليست علومًا إلا بحسب البرهان. ويشتمل كل صنف من السياسات الجاهلية على أصناف مختلفة ومتفاوتة بين غاية الرداءة وما ضرره يسير ومنفعة كثيرة بحسب قوم بعينهم. والسؤال هو: هل السعادة مطلقة على هذا النحو دون وضع اجتماعى؟ هل يمكن الحصول عليها على هذا النحو الفردى دون واقع وملابسات؟

ونسبة السياسات بالنسبة إلى الأنفس كنسبة الأزمان بالنسبة إلى الأبدان وذوات الأمزجة المختلفة. وكما تصلح الأبدان فى مزاجها وحالها فى الخريف والبعض فى الصيف وبعضها فى الشتاء وبعضها فى الربيع كذلك حال الأنفس ونسبتها إلى السياسات. إلا أن أصول الأبدان أشد انحصارا من الهيئات والسير لأن هذه تتألف من أشياء طبيعية وإرادية بلا نهاية، بعضها بالقصد وبعضها بالاتفاق. وكثير من أهل السنن يتقلب فى الشقاء وهو لا يعلم.

وتتفاوت عروض الفارابى لأنواع المدن من مدينة إلى أخرى. إذ يبحث عن الأصول الفاسدة التى تفرعت منها الآراء والاجتماعات والمدن والرئاسات الجاهلة والضالة ولا يفعل نفس الشئ مع المدينة الفاضلة. فأصل الفساد فى المدينة الجاهلة فى الموجودات الطبيعية واعتماد باقى الموجودات عليها. والظنون فى الموجودات الطبيعية، والارادية سواء كانت ظنون الآراء الجاهلية أو إحصاؤها وكيفية حدوثها من الاجتماعات والمدن والرئاسات والعلل أو ظنون الآراء الضالة حتى التأممت منها الملل التى قد تبعتها

الرياسات والسياسات الضالة. فالآراء تحدث بعد الاجتماع وليست قبله^(١). والاجتماع الطبيعي ينشأ أولا ثم بعد ذلك يتحول إلى اجتماع إرادى فتظهر الأخلاق الاجتماعية. كما يستعمل الفارابى لفظا واحدا للمدينة الفاضلة ولا يصنفها إلى تصنيفات جزئية فى حين أنه يستعمل ألفاظا عديدة للمدينة الجاهلة مثل الضالة والفاسقة ويصنفها إلى أنواع ويصف آراءها المشتركة بينها.

وأحيانا يكون الوصف لصالح المدينة الفاضلة ويكون القياس عليها عن طريق القلب لوصف المدينة الفاضلة. فالفاضلة هى الأساس. وفى غيابها واندثارها تظهر الجاهلية. يعرض موضوعات المدينة الفاضلة، ارتباطها وأجزاءها ومراتبها ورئاستها ونظامها وملوكها ورئيسها الأول^(٢). وشروط رئاسته وعلاقتها منذ ولادته وصباه وحدائقه وكأن الرئيس يولد رئيسا بالطبع وليس بالكسب وتأديبه ثم الرئاسات التالية له أى دراسة المدينة من حيث الرئاسة. وبالمثل يستعرض أصناف الاجتماعات فى المدن الجاهلية والضالة والفاسقة وملوكها ورئاسة كل واحد وأغراضها أى دراسة الرئاسة أيضا. ويصف أصناف السعادات التى تصير إليها أنفس المدن الفاضلة فى الحياة الأخرى وأصناف الشقاء لأنفس المدن الجاهلية وهلاكها أى العقائد مثل النبوة والمعاد، تحولا من علم الكلام إلى علوم الحكمة فى مزيد من التنظير. فالعقائد أساس أيديولوجيات المجتمع وتصوراته الأخلاقية والاجتماعية والسياسية. وبين وسائل الحصول على أهل المدينة الفاضلة وحدها دون الجاهلية، والعلامات التى تميزهم إذا وجدوا غرباء فى مدن جاهلية، أقلية وسط أغلبية، تنظيرا لبعض الآيات «وإذ قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه» ، «إنهم فتنة آمنوا بربهم وزدناهم هدى». ثم يقارن بين المدينتين فى التأويل. إذ يختلف

(١) كنت أظنها قبل ذلك فى مقتبل العمر لاغراقى فى المثالية وأولوية الفكر على الواقع قبل أن أتحوّل إلى جدل الفكر والواقع. وهو نفس السؤال للفارابى: هل يعرض أنماطا مثالية من صنع الذهن أم يصف مدنا موجودة بالفعل. وهو نفس السؤال المطروح على العصر فى وصف الأيديولوجيات كاختيارات فكرية وأنماط مثالية أم وصف النظم السياسية الموجودة بالفعل.

(٢) السابق ص ٨٥ - ٨٦.

أهل المدينة في الأشياء التي تخيل لهم مثالات الحق دون ذاتها. وهو اختلاف يتجه نحو شئ واحد، ولا يوجب التعادى بل التصافى مثل اختلاف أهل الصنائع. وهو موضوع التأويل وشرعية الاختلاف. ويصف وضع من ينشؤون في المدن الفاضلة ويكون أغفالهم سببا لبوارها، ويبين أمثلتهم، وكيف تتم مناظرتهم. وهم الأولياء والحكماء والأئمة والعلماء الذين يتهاونون في همتهم ويتقاصعون عن القيام بأدوارهم.

وقد يسكن إنسان فاضل بارادته أو بغير إرادته في مدينة جاهلية فيكون جزءا طبيعيا منها أو غريبا عنها. وهو نفس حال الجاهل في مدينة فاضلة. وهذا هو سبب الهجرات، الجاهل إلى الجاهلية، والفاضل إلى الفاضلة، فالطيور على أشكالها تقع. المدن إذن نظم سياسة ثابتة، والحركات بين أفرادها. والتجانس في المدينة فاضلة أو جاهلة ضرورى حتى لا يحدث انشقاق فيها أو معارضة أو تحول إلى أفضل أو إلى أسوأ. ولا توجد امكانيات لتغير اجتماعى. أثر الفاضل في الجاهلية إيجاب وأثر الجاهل في الفاضلة سلب. سبب الهجرة العلة الغائية وليست العلة المادية. عكس ما تنتهى إليه أسباب الهجرة عند علماء الاجتماع المعاصرين^(١).

١- المدينة الفاضلة. يركز الفارابى على آراء الملة الفاضلة أكثر مما يبين أنواعها. فالمدينة الفاضلة واحدة. وهى ملة أكثر منها مدينة وهى بطبيعة الحال ملة الاسلام.

وآراء الملة الفاضلة نوعان: نظرية وعملية أو إرادية. وتتعلق النظرية بأوصاف الله وصفاته، وصفات الروحانيين ومراتبهم ومنازلهم من الله وفعلهم سواء كانوا أشخاصا أم ملائكة ثوانى أو صورا مفارقة، والعالم وأجزاؤه ومراتبه وحوادث الأجسام من الفيض، والعقل في العالم وامتتاع الجور، والإنسان والنفس، والعقل ومرتبته في العالم ومنزله من الله، والنبوة والروحى والمعاد. وتتضح مصطلحات علم الكلام دون أية محاولة للتشكل الكاذب المعروف في الخطاب الفلسفى أو حتى لتعقيل السمعيات. كما تتضمن السياسة والامامة ووصف الأنبياء والملوك والرؤساء والأئمة في الزمان السابق وأوصاف الملوك

(١) الفارابى: الملة ص ٥٦.

الأراذل الرؤساء والفجار المتسلطون من أهل الجاهلية والضلال فى الماضى، مع وصف الحاضر، رؤساء أفاضل أم أراذل. فالغاية من الماضى الحاضر، وموضوعات التخيل فى مثالات الحقيقة. والسياسة والإمامة من الأمور النظرية.

أما العملية فهى الأفعال. وكلها تعظيم أيضا لله والملائكة والرئيس. وتضم تعظيم الله، والروحانيين والملائكة والأنبياء والملوك والأفاضل والرؤساء الأبرار وأئمة الهدى فى الماضى، وتخصيس الملوك الأراذل ورؤساء الفجار وأئمة الضلال، وتعظيم الملوك الأفاضل والرؤساء الأبرار وأئمة الهدى فى الحاضر وتخصيس أضعادهم، ومعاملات أهل المدن مع النفس ومع الغير من أجل تعريف العدل^(١).

ولما كانت الأفعال تكسب الإنسان هيئة نفسانية جيدة فاضلة كلما دام عليها الشخص صارت هذه الهيئات أقوى وأفضل. وكلما تكررت ازدادت جودة، وزاد الالتئاذ والسرور بها. فالأفعال على الدوام وعلى التكرار دون حاجة إلى أمر متجدد كما هو الحال فى علم أصول الفقه^(٢). فإذا ما وصفت النفس إلى حد الكمال فإنها تستغنى عن المادة ولا تتلف بتلفها، وتفارقها وترتفع عنها الأغراض. لا تتحرك ولا تسكن بعد أن كانت تتبع أمزجة الأبدان، وتتغير بتغيرها.

وإذا خلصت طائفة أنفسهم وسعدت، وخلفهم آخرون فى مرتبتهم قاموا مقامها، واتصلوا بأشباههم فى النوع والكمية والكيفية. ويسهل إقناعهم لأتباعهم بلا أجسام، يلتذ كل منهم بالآخر، يتصل اللاحق بالسابق، ويعقل مثل ذاته مرارا فى تراث روحى متصل، وتاريخ روحى صاعد، سلف صالح يتواصل بالرواح، ويتراسلون فيما بينهم. يسر الخلف بالسلف، كما يسر السلف بالخلق لاتصاله به، ويظل التراث الفكرى حيا بينهم بأفعالهم وأرواحهم أى بأفكارهم وآثارهم وكائناتنا فى عالم الأقطاب والأبدال عند الصوفية. للتقدم إلى أعلى فى الارتقاء بالروح، وإلى الخلف بالرجوع إلى السلف الصالح، وليس إلى

(١) السابق ص ٤٤ - ٤٦.

(٢) وقد وضع بننام قوانين مشابهة للذة بناء على دوام الفعل وتكراره وشدة فى حساب اللذات.

أسفل لرعاية المصالح العامة أو إلى الأمام من أجل تحقيق التقدم المادى والمعنوى. وهكذا ينتقل الفارابى من الاجتماع إلى الأخلاق، ومن الأخلاق إلى الدين، ومن الدين إلى التصوف^(١). وفى هذه الحالة من الذى يقوم برعاية الأبدان والمصالح العامة والأحوال المعيشية إذا كانت الغاية من المدينة تخليص النفوس من الأبدان؟ كيف ينشأ الصراع الاجتماعى إذن فى هذه المدينة المتجانسة المتألقة روحيا؟

ولأهل المدن الفاضلة أشياء مشتركة يعلمونها ويفعلونها وأشياء أخرى من علم وعمل تخص كل رتبة وكل واحد منهم. وتحصل لهم السعادة بالمشترك بينهم وبالخاص لكل فرد منهم. والأفعال فى المدينة الفاضلة ليست فقط أفعالا فردية بل أيضا أفعالا جماعية مشتركة. فالأفعال نوعان: فردية تخص كل شخص، وجماعية يشترك فيها المجموع علما وعملا. وتحصل السعادة لأهل المدن الفاضلة بالأفعال الشخصية والأفعال المشتركة وهى: معرفة السبب الأول وصفاته أى التوحيد بلغة علم الكلام، ومعرفة كل منها أى الفيض والموجودات المتوسطة الثوانى بلغة الفلسفة، ومعرفة الجواهر السماوية وصفاتها والأجسام الطبيعية التى تحتها، كونها وفسادها، إحكامها وتفاوتها، والعناية والعدل والحكمة فيها، لا إهمال ولا جور ولا نقص، والخلق عدل بلغة المعتزلة، ومعرفة كون الإنسان وحدوث قوى النفس وفيض العقل الفعال عليها كالضوء حتى تحصل المعقولات الأول والإرادة والاختيار عودا إلى نظرية الفيض على مستوى المعرفة، ومعرفة الرئيس الأول وكيف يكون الوحي توحيدا بين الرئيس والنبى، ومعرفة الرؤساء الذين ينبغى أن يخلفوه إذا لم يكن هو فى وقت من الأوقات أى الخلفاء والحكماء، ومعرفة المدينة الفاضلة وأهلها والسعادة والمدن الضالة والمعاد، إما العدم أو البقاء، وأخيرا معرفة الأمم الفاضلة والأمم الجاهلية أى مجموعة الإنسانية خيرها وشرها. فمجموع ما يعرفه أهل المدينة الفاضلة تدور حول الله والعالم والإنسان والمجتمع وهى تقنين لما ينبغى أن يكون وليس وصفا لما هو كائن. وكلها أشياء معرفية صوفية إلهية ولا شئ

(١) الفارابى: الملة ص ٨٦ - ٨٨.

يتعلق فيها بالصالح العام^(١).

وتتفاضل الصناعات والعادات في المدن الفاضلة من ثلاثة أنحاء: النوع والكمية والكيفية مثل تفاضل الصنائع. التفاضل بالنوع هو أن تكون الصناعات مختلفة بالنوع واحدة أفضل من الأخرى مثل صناعة العطر والكناسة والحياكة، وصناعة الرقص والفقه، والحكمة والخطابة. ولا حرج من ضرب المثل بصناعة الرقص مع صنعة الفقه والحكمة والخطابة وصناعة العطر. وتتفاضل بالكمية مثل العلم بنفس النوع مع تفاضل في الزيادة والنقصان. والتفاضل بالكيفية هو العلم بنفس الموضوع مع تفاضل في الاتقان والاحكام.

وتعرف هذه المبادئ بطريقتين. الأولى أن ترسم في نفوسهم كما هي موجودة أي العلم بالوجود بما هو موجود. يعرف الحكماء بالبرهان ومن يلهم يعرف ببصائر الحكماء اتباعا لهم وتصديقا وثقة بهم. والحكيم أفضل من تقليده أو ممن يحاكي الأشياء مما يوحي بأن الفلسفة أعلى من النبوة. وهو نوع من التبعية والتقليد. وما الداعي لتصور طبقة متوسطة من الحكماء والأنبياء، وهل يجوز تقليد الحكماء، وما الضامن لصدقهم؟ والثانية أن ترسم فيهم بالمناسبة والتمثيل أي حصول مثالاتها التي تحاكيها أي بالصور الفنية المتوسطة بين الذهن والشئ، والمعرفة بمحاكاة المثالات لأن الأذهان لا تقوى على تفهم الموجودات سواء بالطبع أو بالعادة.

(١) الفارابي: آراء ص ٩٤ - ٩٥.

السيب الأول وصفاته	الاشياء المشتركة لأهل المدينة الفاضلة
الأشياء المفارقة للمادة	
الجواهر السماوية وصفاتها	
كون الإنسان وحدث قوى النفس وفيض العقل الفعال	
الرئيس الأول وكيف يكون الوحي	
الرؤساء الخلفاء أو الحكماء	
المدينة الفاضلة وأهلها والمدن الضالة	
الأمم الفاضلة والأمم الجاهلية	

والمعرفة بالمثالات تكون على أربع درجات بناء على القرب والبعد من الممثل،
مثالات بعيدة جدا، ومثالات أبعد، ومثالات بعيدا ومثالات قريبة، وكان الصفة الغالبة
عليها هو البعد نظرا لتفاوته بين ثلاث درجات التفضيل الأبعد، وأبعد، وبعيد، في حين أن
القرب درجة واحدة.

وتبدأ المحاكاة طبقا لقانون الأعراف فالأعراف. وهو نفس القانون المنطقي
للتعريف. كما تختلف من أمة إلى أخرى طبقا لمزاجها وشخصيتها وثقافتها وتكوينها
وشخصيات الشعوب كما هو الحال في علم اجتماع المعرفة المعاصر. قد تختلف أمة
فاضلة عن غيرها في الملة بالرغم من اتفاقهما في السعادة والقصد. الفلسفة إذن سبب
وحدة الأمم، والدين أحد أسباب اختلافها. العقل يوحد والخيال يفرق^(١).

وإذا كانت الأشياء معلومة ببراهينها لا يكون فيها عناد بقول أصلا على جهة
المغالطة ولا على جهة سوء الفهم. فلا معاندة للحقيقة في نفسها، وبالتالي يكون فهم
المعانَد هو المسؤول عن المعاندة. الحقيقة موضوعية بصرف النظر عن رواها وفهمها
وتفسيراتها وتأويلاتها والاجتهادات في التعبير عنها. أما إذا كانت معلومة بمثالاتها فقد
تكون مواضع العناد أقل، وبعضها يكون أكثر. بعضها يكون العناد فيه ظاهرا وبعضها
يكون أخفى. وقد يعرف البعض مواطن العناد للمثالات ويتوقف عنده. وهم صنفان.
الأول مسترشدون، إذا تزيف عندهم شيء رفعوه إلى مثال آخر أقرب إلى الحق بحيث
ينتفى العناد. وإن تزيف رفعوه إلى درجة أخرى. فإن تزيف المثالات كلها توقف عن
معرفة الحق وأصبح من المقلدين الحكماء. فإن لم يقتنع استزاد علما وأصبح حكيما.
والثاني جاهليون يسميهم الفارابي "آخرين بهم أعراض الجاهلين من كرامة ويسار أو
لذة في المال". يرون أن شرائع المدينة الفاضلة تمنعه منها فيزيها عمدا سواء كانت
مثالات للحق أو الحق نفسه.

(١) السابق ص ٩٥ - ٩٦ / ٨٩ - ٩٠.

ويتم تزيف المثالات بثلاثة طرق: الأول بما فيها من مواضع العناد أى عدم تطابق المثال مع الممثل. الثانى بمغالطة وتمويه المعايير أى السفطة. يزيف الحق نفسه بالمغالطة والتمويه حتى يحقق غرض الجاهلى. وهؤلاء ليسوا من المدينة الفاضلة. والثالث بمواضع العناد التى فيهم وتزيف المثالات كلها لأنهم سيؤوا الأفهام، يغلطون فى مواقع الحق على غير ما هو عليه. فإذا تزيف ذلك ظنوا انه الحق وليس سوء فهمهم له فيقع لهم اللحاق. ومن يظن أنه وصل إلى الحق مغرور. إذا ادعى أنه مرشد إلى الحق كان مخادعا ممهوها طالبا الرياسة. يتحير البعض منهم، ويلوح الشئ من بعيد للبعض الآخر ويتخيله فى النوم. الحق موجود، ويبين ما يدركونه منه لأسباب لا يعرفها، فيقصد إلى تزيف ما يدركه. ولا يحسبه حقا بل يعلم أو يظن أنه أدرك الحق^(١).

ولهذا السبب تظهر ثوابت المدينة الفاضلة. بل يعرضها الفارابى قبل المدينة الفاضلة ذاتها وكان آراء أهل المدينة الفاضلة مكملة ولاحقة على ثوابتها. السلب قبل الايجاب، والتقص قبل الكمال. وهم أصناف كثيرة، أحيانا باسم وأحيانا بوصف. الأول المتمسكون بالأفعال التى ينال بها السعادة دون القصد من ذلك بل لنيل شئ آخر بالفضيلة مثل الكرامة أو اليسار. تنقصهم النية طبقا للحديث الشهير "إنما الأعمال بالنيات"، واعتمادا على العقل الخالص والتجربة الإنسانية دون وحى أو نبوة تراجع وتصحح وتصوب اعتمادا على الوحدة الأولية بين الوحى والعقل والطبيعة. والثانى المحرفة وهم أصحاب الهوى من غايات الجاهلية. يمنعون شرائع المدينة وملتها ويعمدون إلى ألفاظ واضع السنة ويؤولونها على ما يوافق هواهم. ويحسنون الشئ بالتأويل. فهم المؤولون الذين يقيمون تأويلهم على سوء النية. والثالثة المارقة وهم لا يقصدون تحريفا. ونظرا لسوء فهمهم ونقصان تصورهم للسنة يفهمون أمور التشريع على غير مقصدها، فتصير أفعالهم خارجة عن مقصد الشرع الأول فيضلون ولا يشعرون. هم المخطئون فى التأويل النظري فيضلون فى السلوك العملى. رابعاً المزيفون عند أنفسهم وعند غيرهم دون معاندة

(١) السابق : الآراء ص ٩٧ - ٩٨.

للمدينة الفاضلة ولكنهم مسترشدون وطالبون للحق. يحتاجون فقط إلى رفع طبقهم للتخيل دون تزييف حتى يقتنعوا ثم يرفعون إلى طبقة أخرى حتى يصلوا إلى الحق. يحتاجون إلى الانتقال من الخيال إلى العقل ثم إلى الفهم والتفسير. خامسا المزيفون لما يتخيلون، كلما رفعوا مرتبة زيفها حتى رتبة الحقيقة طلبا للغلبة أو لتحسين شيء يملون إليه من أغراض الجاهلية. يكرهون سماع شيء يقوى السعادة والحق في النفوس، ويتلقونها من الأقاويل المموهة. هم السوفسطائيون المزيفون للخيال والعقل. والتمويه على الحقيقة إيمانا بأغراض الجاهلية. سادسا وأخيرا المتخيلون للسعادة والمبادئ ولا يستطيعون تصور ما فيزيفون ما يتخيلون ويعاندونه. وكلما رفعوا طبقة إلى الحقيقة زيفوها ولا يستطيعون الوصول إليها لعجز أذهانهم. تخيلهم ناقص فيتزييف لسوء فهمهم لا لأنه به موضعا للعناد إذ لم يستطع أحد منهم تخيل الشيء على الكفاية أو يقف على مواطن العناد بالحقيقة أو لا يمكنه فهم الحقيقة وظن أن كل من أدرك الحقيقة فانه يكذب عمدا طلبا للكرامة أو الغلبة، وأنه معذور مجتهد ويحسن أمر من أدركها. وهو يهدف إلى تزييف الحقيقة وأن الناس مغرورون بزعمهم أنهم أدركوها. ويعترف البعض أنهم لا يعرفون شيئا أصلا. وهم الشكاك نفاة الحقيقة^(١). المدينة الفاضلة ما ينبغي أن يكون، والنايبة ما هو كائن تقابل المثال والواقع. النوايت هي الطبقة الطفيلية مثل الشبلم في الحنطة أو الشوك في الزرع والحشائش الضارة به المغروسة فيه.

وواضح أن نوايت المدينة الفاضلة بداية انهيارها ثم نشوء المدينة الجاهلة. ومن الصعب التعرف عليهم في الفرق. هل هم الشيعة أو الباطنية أو المؤولون من المعتزلة والحكماء أم السوفسطائيون أو الشكاك؟ هل هو حديث الفرقة الناجية في تأويل فلسفي جديد أو وصف المجتمعات المنهارة في قصص الأنبياء في القرآن الكريم؟ واضح ارتباط المدينة الفاضلة بالملة والشريعة والسنن والتأويل أي بالدين ومع ذلك تخلو "السياسات المدينة" من البسملات والحمدلات في الخاتمة.

(١) الفارابي: السياسات المدينة ص ٨١ - ٨٤.

٢- المدينة الجاهلية. عندما تتكاثر النوايت فى المدينة الفاضلة ويكون لها السيطرة تنهار المدينة الفاضلة وتتحول إلى مدينة جاهلة. وهى المدينة التى لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم مهما أرشدوا إليها بل عرفوا فقط بعض الخيرات المظنونة مثل سلامة الأبدان واليسار والتمتع بالذات تابعا لهواهم، وأن يكونوا مكرمين معظمين. وكلها جوانب من السعادة العظمى وضدها الشقاء مثل آفات الأبدان والفقر والتمتع بالذات، واتباع الأهواء. الاستيهالات أى الحاجات عند أهل الجاهلية ليست الفضيلة بل اليسار مثل مجتمع النذالة أو اللذة واللعب مثل المجتمع الخسيس أو الضرورى مثل مجتمع الضرورة أو المنفعة أى حسن الفعال التى تعود إلى إحدى الكرامات السابقة أو العلبة، فالكرامة للغالب. تعريف المدينة الجاهلية هو نفى المدينة الفاضلة كما هو الحال فى اللاهوت السلبى مما يدل على نقص فى القدرة على صياغة خطاب إيجابى اكتفاء بالنفى أى التنزيه والتطهر الذى قد يكون أقرب إلى تحصيل الحاصل، تحديد الإيجاب عن طريق نفى السلب.

وتبقى أنفس أهل المدن الجاهلة غير مستكملة بل محتاجة إلى المادة ضرورة إذ لم يرسم فيها شئ من المعقولات الأول أصلا، وكأن قسمة المدن مازالت تقوم على أساس معرفى وليس اجتماعيا. إذا بطلت المادة التى بها قوامها بطلت القوى التى كان يمكن أن تقوم بها، وبقيت القوى التى كان من شأنها قوام مابقى. فان بطل هذا أيضا وانحل إلى شئ آخر صار الذى بقى صورة لذلك الشئ الذى إليه انحلت المادة إلى أن ينحل الاسطفسات فيصير الباقي صورتها. فتتخلط الأسطفسات لتكون إنسانا أو حيوانا. وهؤلاء هم الهالكون والصائرون إلى العدم مثل البهائم.

والهينات المستفادة من أفعال الجاهلية يتبعها أذى عظيم فى الجزء الناطق من النفس. ولا يشعر بذلك لتشاغله بما تورد عليه الحواس. فإذا تخلص منها شعر بالأذى، ويخلصها من المادة ويفردها عن الحواس وعن جميع ما يرد عليها من الخارج مثل عدم احساس المغتم لما يرد عليه من الحواس أى أذى وكذلك المريض الذى يقل أذاه بالم

المرض إذا تشاغل الجزء الناطق بما تورده عليه الحواس لم يشعر بأى أذى إلا إذا انفرد
انفراداً تاماً عن الحواس حينئذ يشعر بالأذى. فبقى الدهر كله فى أذى عظيم. إذا ألحق به
من هو فى مرتبته من أهل المدينة ازداد أذى كل واحد وصاحبه. فزيادة أذاهم فى غابر
الزمان بلا نهاية. هذا هو الشقاء المضاد للسعادة. يتراكم إذن الأذى فى التاريخ. ويتجمع
المتأذى والمتأذون الجاهلون. فالطبقة ليست طبقة اجتماعية فقط بل أيضاً طبقة تاريخية،
وبالتالى فالاجتماع وسيلة للتاريخ. والوعى التاريخى تراكم الوعى الاجتماعى عبر
الزمان^(١).

ولما كانت أفعال أهل المدينة الجاهلة رديئة أكسبتهم هيات نفسانية رديئة. فالفعل
بتكراره يتحول إلى عادة^(٢). وكلما تمت المواظبة على الأفعال الناقصة ازدادت الهيات
النفسانية نقصاً فتصير أنفسهم مرضى. وربما يلتذون بها التذاذ المريض بالأشياء الرديئة
وتأذيه من الأشياء الحسنة. كذلك يستلذ مرضى الأنفس بفساد تخيلهم الذى اكتسبوه
بالإرادة أولاً ثم بالعادة ثانياً. ويتأذون بالأشياء الجميلة الفاضلة أو لا يتخيلونها أصلاً.
وكما أن من المرضى من لا يشعر بعلته ويظن أنه صحيح ولا يصغى لقول طبيب كذلك
مرضى الأنفس لا يشعرون بأنهم مرضى، ولا يصغون إلى قول مرشد أو معلوم أو
مقوم. هناك إذن تشابه بين طب الأبدان وطب النفوس، بين البدن والمجتمع. وترجع كثرة
التشبيهات الطبية عند الفارابى مع أنه لم يكن طبيباً إلى أن الطب كان ثقافة شائعة
ومشتركة عند الجميع، كان ثقافة العصر داخل علوم الحكمة. فالحكمة نوعان، طب
النفوس وطب الأبدان.

وتنقسم المدينة الجاهلة إلى أربعة أنواع: الجاهلة والفاسقة والصالة والبهيميون
بالطبع^(٣). ثم تنقسم الجاهلية إلى ستة أنواع: الضرورية، والنذالة، والخسيسة، والكرامة،

(١) السابق: السياسات ص ٦٣-٦٦، الآراء ص ٨٣-٨٤ / ٩١-٩٣.

(٢) وهو ملاحظه رافيسون أيضاً فى كتابه "فى العادة". De L'habitude.

(٣) الفارابى: السياسات ص ٦٢-٦٤، الملة ص ٤٣-٤٤، ٥٤-٥٦، الآراء ص ٨٣-٨٤.

والتغلب والجماعية. فالمدينة الجاهلة أكبرها. ويتم التركيز على الثلاثة الأولى منها: الضرورية والنذالة، والخسيسة أكثر من الثلاثة الأخيرة منها: الكرامة، والتغلب، والجماعية^(١). وأحيانا توضع نوابت المدينة الفاضلة مع المدينة الجاهلة فتكون القسمة الكلية محاسبة خماسية مع أن النوابت هو الجانب السلبي في المدينة الفاضلة. هي المدينة الفاضلة سلبا في لحظة الضعف والانهيار قبل أن تتحول إلى مدينة جاهلة.

وتضطرب القسمة أحيانا وهي في طريق التشكل النهائي. إذ يكون التقابل أحيانا بين المدينة الفاضلة والمدينة الضرورية مع أن الضرورية أول نوع من المدينة الجاهلة. وتجمع الفاضلة بين اليسار والذات مع أنهما أغراض المدينة الجاهلة. وقد تقتصر قسمة المدينة الجاهلة إلى خمسة أقسام مع إسقاط السادسة وهي الجماعية. وقد تكون القسمة الرباعية الكلية للفاضلة والجاهلة والضالة والتمويه بدلا عن الفاسقة وإسقاط "البيهيون بالطبع". وهم لا يذكرون بالفعل في تحصيل المدن. وهم أكلة لحوم البشر، مدينة موجودة بالفعل أم موجودة بالخيال تشير إلى حالة افتراضية. وقد تعارض الفطرة الخيرة. هي



(١) النسبة بين الثلاثة الأولى والثلاثة الأخيرة ١:٦. وهناك تفاوت في عرض المدن. النذالة، والخسيسة أصغرهما، والضرورية أوسطها، والكرامة والتغلب والجماعية أكبرها.

حالة التوحش الانسية الأولى الأنشبه بالحالة الحيوانية فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب. وهم متفرقون لا يجتمعون، يتسافدون كالوحوش.

وكلها مصطلحات اجتماعية لها دلالات أخلاقية مثل المدن الفاضلة والجاهلة والنذلة والخسيسة والفاسقة والضالة. وهى تحويل لمصطلحات الإيمان والكفر والفسوق والعصيان من موضوع الأسماء والأحكام فى علم أصول الدين من المصطلحات الشرعية إلى المصطلحات الأخلاقية الاجتماعية، ومن الكلام إلى الفلسفة، ومن الأفراد إلى الجماعات.

وتضطرب المصطلحات والمفاهيم فى أسماء المدن بالرغم من الاتفاق على وصف مضمونها. فمدينة المنفعة مثلا هى مدينة الكرامة. والنذالة هى مدينة اليسار. والخسيسة هى مدينة اللذة واللعب. ومع ذلك فقسمه المدن إلى فاضلة وجاهلية بالرغم من اضطرابها إنما تتم طبقا للرئيس. إذا كان الرئيس فاضلا كانت المدينة كذلك. فالناس على دين ملوكهم. والله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. يفرض الرئيس سعادته وفضله على كل المدينة. إن كان جاهلا فالمدينة جاهلة. وقد تكون الملوك على ديانات شعوبهم طبقا للقول المأثور "كما تكونوا يولى عليكم". والنتيجة واحدة هى اتفاق الحاكم والمحكوم فى رأى والغرض وال قصد. وهو ما لا يفسر الثورات والانقلابات، ثورات الشعوب على الحكام، وانقلاب الحكام على الشعوب^(١). والسؤال هو: ألا توجد مدينة فاضلة رئيسها جاهل أو مدينة جاهلة رئيسها فاضل؟^(٢). الرئيس فى المدينة الفاضلة يفوز بالسعادة دون الناس ويستعلمهم له آلات ليصل إلى غرضه أو ينالوا هم غرضهم دونه. لا يوجد اتفاق بين الرئيس والمدينة مما يناقص مبدأ التجانس بينهما.

وصلة الرئيس الفاضل بالمدينة الجاهلة صلة المخدوم بالخادم، الرئيس بالمرؤوس،

(١) ثورات الشعوب على الحكام مثل الثورات الكبرى فى التاريخ الفرنسية والأمريكية والروسية والإسلامية فى إيران. وثورات الحكام على الشعوب مثل ثورة أخناتون وثورات الأنبياء.

(٢) من النوع الأول ربما الحاكم بأمر الله قديما، ومن النوع الثانى لوممبا حديثا.

الصورة بالمادة، الغاية بالآلة. وهى نفس بنية الفيض، فالرئيس هو الوهاب المعطاء. والسؤال هو: هل يؤيد الملك نفسه فى المدينة الفاضلة بالسعادة الحقيقية أم أنه خادم الشعب وراعى مصالحه؟

والرئاسة الضالة هى ظن الفضيلة والحكمة دون أن تكون كذلك. ورئاسة التمويه هى التى تعتمد التمويه من غير أن تشعر المدينة بذلك. فى الظاهر ينال السعادة، وفى الباطن ينال الخيرات الجاهلية، مدينة النفاق.

غاية الملك عند قوم الكرامة والجلالة والغلبة ونفاذ الأمر والنهى والطاعة والتمجيد والحصول عليها بالفضيلة أو اليسار أو بالحب أو بالقهر. فغاية المدن هى غاية الرؤساء. غاية الكرامة لأفضل الرؤساء وغاية اليسار وغاية اللذات لأفضل الخسة منهم^(١).

أ- المدينة الجاهلة. المدن الجاهلية أعم من المدينة الجاهلة. فالجاهلية تشمل ست مدن أولها الجاهلة. الجاهلية لفظ موروث يطلق على العرب قبل الاسلام. والجاهلة من الجهل فى مقابل عالمة من العلم. وقد يكون التقابل مع الفاضلة المرذولة أو الرذائل طبقا للتقابل بين الفضيلة والرذيلة إلا أن اسم الفاعل "فاضل" لا يوجد ما يطابقه من اسم الفاعل من "رذيلة". فالأصل الفضيلة والرذيلة غيابها. وتضم ستة أنواع يطلق عليها صفات مثل الضرورية والخسيسة والكرامة والجماعية، وأحيانا أسماء مثل النذالة والتغلب.

وكل واحدة من هذه المجتمعات إما مخاتلة أو مجاهرة، سرا أو علنا. فالدخل إما أن يأتى سرا أم علنا، بالطرق الملتوية أو بالطرق المباشرة. الكسب السريع بالمضاربات فى الأسواق، والكسب البطئ بالانتاج. والمجتمعات السرية مجتمعات المعارضة ووسائل إنتاجها السرية، ومجتمعات السلطة العلنية لها وسائل إنتاجها العلنية مثل الشيعة والسنة^(٢).

(١) الفارابى: أراء ص ٨٣ / ١١٠، فصول ٤٥ / ٤٨ - ٤٩، الملة، ص ٤٣ - ٤٤ / ٥٤ - ٥٦.

(٢) ومثل المجتمع الاسرائيلى والمجتمع الفلسطينى فى فلسطين المحتلة.

وقد توجد هذه المجتمعات فى مجتمع واحد كما هو الحال فى القطاع الرابع فى الانتاج غير المباشر فى مقابل قطاعات الانتاج المباشرة، الزراعة والصناعة والتجارة. وهى سمة من سمات المجتمع المتخلف خاصة لو زاد حجم التبادل فى القطاع الرابع وأصبح موردا رئيسيا للدخل فى الطبقات الاجتماعية الدنيا^(١).

أولا المدينة الضرورية. وهى التى يقصد أهلها على الاختصار على الضرورى مما به قوام الأبدان من المأكول والمشروب والمنكوح والملبوس والمسكون، والتعاون على الاستفادة منها. الاجتماع فيها ضرورى من أجل التعاون على اكتساب ما هو ضرورى فى قوام الأبدان وإحرازه مثل الفلاحة فى المجتمع الزراعى والرعاية فى مجتمع الخدمات والحاجات الأولية، والصيد فى مجتمع القنص، واللصوصية فى مجتمع القرصنة. وهى أفضل المجتمعات من حيث إشباع الحاجات الضرورية والتى لها مكاسب أهل المدينة^(٢).

وثانيها مدينة الفذالة. وهى المدينة أو المجتمع الذى يتعاون على نيل الثروة واليسار، والاستكثار من اقتناء الضروريات وما قام مقامهما من الدرهم والدينار، وجمعها فوق الحاجة إليها لا لهدف إلا محبة اليسار والشح عليها وعدم الاتفاق إلا الضرورى مما به قوام الأبدان. وهى بلغة العصر أقرب إلى وصف مجتمع الوفرة والرفاهية، المجتمع الرأسمالى الغربى أو النفطى العربى. وتأتى الثروة إما عن جميع وجوه المكاسب أو من الوجوه فى هذا البلد وحده بما فى ذلك نهب ثروات الآخرين فى الخارج وفى الداخل ما دامت الغاية هى الثروة. ومصادر اليسار من الفلاحة والرعاية والصيد واللصوصية مثل المدينة الضرورية بالإضافة إلى المعاملات الارادية مثل التجارة والاجارة وغيرها^(٣).

وثالثها المدينة الخسيسة: وهى المدينة التى يتعاون أهلها على التمتع باللذة من

(١) الفارابى: السياسات ص ٦٣-٦٤، آراء ص ٨٣-٨٤.

(٢) الفارابى: الآراء ص ٨٢-٨٤.

(٣) وهو المجتمع التجارى وبلغة العصر الحديث Mercantile ، الفارابى: السياسات ص ٦٤، آراء ص ٨٤.

المأكل والمشروب والمنكوح. والسعى وراء الأذى ليس طلبا لما به قوام الأبدان وما ينفعها بل ما يلذ فقط من اللعب والهزل. وهى المدينة السعيدة والمضبوطة عند أهل الجاهلية لأن غرض المدينة يتحقق بعد تحصيل الضرورة واليسار والنفقات الكثيرة. وأفضلهم من نال أسباب اللعب واللذة أكثر. وهو بلغة العصر مجتمع القصور والجنس والقمار والملاهى، مجتمع بعض مشايخ النفط وأمرائه وحياة الأغنياء الجدد. وقد لا يكون لفظ الخسيصة أفضل التسميات^(١).

ورابعها المدينة الكرامية. وهى المدينة التى يتعاون أهلها على أن يصلوا إلى التكريم بالقول والفعل إما بتكريم أهل المدن لهم أو بتكريم بعضهم البعض. هو مجتمع التقدير والاحترام أو مجتمع المدح والثناء. وكرامة البعض للبعض إما على التساوى أو على التفاضل. الكرامة بالتساوى هو الفرض المتبادل لأنواع متساوية أو نوع له قوة النوع المفروض من الطرف الأول. والكرامة بالتفاضل هو أن يعطى طرف طرفا كرامة، ويعطى الآخر كرامة أعظم طبقا للاستيهالات أى الحاجات والرغبات^(٢). كما تعنى الكرامة المعونات المادية التى تهبها المجتمعات بعضها إلى بعض إما على التبادل مثل التبادل التجارى أو على التفاضل أى الدول الأكثر رعاية أو فى صورة منح وهبات لا ترد أو فى صورة قروض قصيرة الأجل بفوائد كبيرة أو طويلة الأجل بفوائد صغيرة. أما الكرامة بالمدح بالقول والفعل فانها لا تؤثر فى العلاقات الدولية. الكرامة من الكرم المادى وليس من التكريم المعنوى. وقد يكون فى محبى الكرامة من لا يحبها لذاتها بل لليسار. يريدون إكرام الغير لهم لينالوا اليسار إما منه أو من غيره. يريدون الرياسة ومطابقة أهل المدينة للحصول على اليسار من أجل اللعب واللذة. ومدينة الكرامة خير المدن الجاهلة إلا أن الكرامة إذا أفرط فيها صارت مدينة الجلادين، وتنقلب إلى مدينة التغلب^(٣).

(١) الفارابى: السياسات ص ٦٤ - ٦٥، آراء ص ٨٤.

(٢) وهذا مثل المنفعة المتبادلة عند هوبز.

(٣) الفارابى: السياسات ص ٦٥ - ٦٩ / ٧٥ - ٧٦، آراء ص ٨٤.

ويبدو ان المدينة الكرامية هو الطابع العام لكل المجتمعات نظرا للعلاقات الدولية والتبادل التجاري والعلمى بين الدول. فلا يوجد مجتمع مستقل بذاته نظرا لأن التعاون بين الأمم أحد أنواع التجمعات البشرية. وهو مجتمع المعمورة بلغة القارايى أو الإنسانية بلغة الفلاسفة أو التعاون الدولي بلغة العصر. وقد يكون المدح للمجتمعات والنظم السياسية مثل الرأسمالية أو الاشتراكية، تساويا أو تفاضلا وكما هو الحال فى الغرب المعاصر. وقد يكون المدح للرؤساء بأشخاصهم تساويا أو تفاضلا كما هو الحال فى المجتمعات الحالية. قد لا يكفى لفظ الكرامة بل يضاف اليه لفظ المدح خاصة وأنه لفظ من علوم الحديث وأصول الدين وأصول الفقه. وله فى الثقافة العربية المعاصرة معنى إيجابى مثل معركة الكرامة^(١).

وخامسها مدينة التغلب. وتتداخل مع مدينة الكرامة لا من الكرامة للغالب. والقائز فى الغلبة مغبوط. وتكون الغلبة بالنفس أى بالقوى الذاتية، وبكثرة الأنصار وقوتهم، وبالأثنين معا. والغالب لا يناله مكروه بل هو الذى يسبب المكروه لغيره. وهذا حال الغبطة والثناء والمدح له. والأكثر غلبة هو الأكثر فضلا.

والآلات الغلبة متعددة أهمها الحسب والنسب من الأسلاف، أن يكون الآباء والأجداد موسرين أو وانتهم أسباب اللذة أو غلبوا من أشياء كثيرة أو نافعين لغيرهم، لجماعة أو لأهل مدينة أو يتمتعون بجمال أو جلد واستهانة بالموت. وهى أقرب إلى صفات الزعامة الطبيعية الوراثية أو التنظير العقلى لآية «وأتاه الله بسطة فى العلم والجسم». ومن صفات أهل التغلب الجفاء والقسوة وشدة الغضب والبذخ وشدة الزهم من التحلى بالمأكول والمشروب والمنكوح، والتغالب على جميع الخيرات بالقهر.

وتقوم مدينة التغلب على التعاون على أن تكون الغلبة لأهلها. فإذا عمتهم محبة الغلبة فانهم قد يتفاوتون فيما بين الأقل والأكثر فى عدة نواحى مثل التفاوت فى الدم

(١) وهى المعركة التى صمدت فيها المقاومة الفلسطينية فى أغوار الاردن ضد العدوان الاسرائيلى بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

والروح لازهاقها واستئصالها كما هو الحال فى الاستعمار الصهيونى الذى يقوم على استئصال الشعوب ومثل استعمار الغرب الحديث للنصف الغربى من العالم، الأمريكيتين، الشمالية والجنوبية، ومثل التفاوت فى النفس لاستعبادها كالأستعمار الغربى خاصة الفرنسى، ومثل التفاوت فى المال لانتزاعه مثل النهب الاستعماري خاصة البريطانى لثروات الامم.

والغرض من الكل الغلبة والقهر والاذلال حتى لا يملك المقهور من نفسه شيئا، ويكون تحت طاعة القاهر، ويتعود المقهور على القهر حتى أنه لا يتصور أن يعطى شيئا بالمجاملة طوعا دون القهر. فالقهر إما ان يكون بالمجاملة أو بالمصالبة والمجاهدة أى المقاومة. لذلك لا يقتل الإنسان نائما ولا يؤخذ ماله حتى ينتبه. الكل يحب الغلبة. وهو أشبه بتظهير فقه الاجتهاد فى تحريم قتل الطفل والمرأة والشيخ والعجز عن المقاومة.

وأهل التغلب أعداء لكل من سواهم. يسنون سننا للغلبة على غيرهم طبقا لقانون القاهر. يتنافسون فى كثرة الغلبة أو عظمتها أو بعد الغلبة وآلاتها. فالغلبة قد تكون فى الرأى وجودته على غيره أو فى البدن وصلابة الجلد أو فيما هو خارج عن البدن مثل السلاح.

وقد تكون غلبة المدينة لمن ليس من أهلها لحاجتهم إلى الاجتماع فتتسأ سيطرة مجتمع من الخارج على المجتمع الداخلى. وقد يأتى القهر من بعض أهلها أو من نصفه أو منهم كلهم. وقد لا يفسدون القهر والنكال لذاته بل لشيء آخر. وقد يغلب واحد غيره من أهل المدينة ويمتتع من سواهم عن المغالبة لحاجة بعضهم إلى بعض. لا يغلبون غيرهم وإن غلبهم غيرهم، النساء والمستضعفون فى الشريعة. وقد يتجاوز المغلوبون الغالبون فى مدينة واحدة، سيطرة طبقة على طبقة. هنا تكون الغلبة للطبقة وليس للفرد^(١).

وتحصل الغلبة إما للضروريات أو لليسار أو للمجتمع بالذات أو الكرامات. فالمدن كلها وسائل للتغلب. والأخرى بالاسم من يريدتها جميعا بالقهر. وتقصد مدن أخرى

(١) لفغرابى: السياسات ص ٦٦ / ٧٠ - ٧١، الأراء ص ٨٤.

لذلك بالاضافة إلى الغلبة. وقد تحدث الغلبة لثلاثة أسباب. الأول الغلبة كيفما كانت وفى أى شئ هى، والاضرار بالغير بلا نفع سوى لذه القهر. وقد تكون الغلبة على أشياء خسيسة مثل ما يحكى عن بعض الأعراب. والثانى الغلبة لأجل أشياء ممدوحة عالية حتى إذا نالوها لم يستعملوا القهر. والثالث الغلبة والقتل وإيقاع الضرر للنفع فقط من أحد الأشياء الشريفة. فإذا واثته بلا غلبة إما بوجود كثير أو بمساعدة الغير أو ببذل إنسان آخر له ذلك الشئ طوعا لم يردده ولم يلتفت اليه، ولم يأخذه منه. وهؤلاء هم كبيرو الهمم وذوو الآراء الجليلة. وكيف لا يأخذه وقد أتى الناس طائعين، ولديه رغبة فى المدح من الناس. وأهل المدينة الذين يقتصرون على الضرورى متى حصلت لهم الغلبة ربما كالحوا وجاهدوا على مال أو نفس بحيث ينفذ حكمهم ودت أن يأخذوا شيئا. فهؤلاء يمدحون لأن غايتهم نبيلة مثل العفو عند المقدرة.

والمدن المتغلبة هى مدن الجبارين أكثر من مدن الكرامة. فقد يعرض لأهل مدن اليسار واللعب والهزل أن يظنوا أنهم الأفضل من سائر المدن ظنا بأنفسهم، فيعرض لهم صلف وبذخ وافتخار ومحبة للمدح مثل المجتمع الأمريكى الحالى أوبلغة القرآن من أخذتهم العزة بالآثم، وأن من سواهم لا يهتدون إلى مثل ما اهتموا اليه. ولأنهم لا يحتاجون إلى هاتين السعادتين، اليسار واللعب، يخترعون لأنفسهم أسماء يحسنون بها سيرتهم مثل "المطبوعون" "والظرفاء"، المجتمع الحر بلغة الغرب الحديث، وغيرهم الجفاة الأغلاظ وبلغة العصر المتخلف الشمولى أو القهرى. فيظن أنهم ذوو نخوة وتسلط وهمة. وإذا كانوا من محبى اليسار واللعب، ولم تحدث لهم الصناعات التى يكتسبون بها اليسار إلا القوى إلى بها الغلبة مثل الخليج النفطى، ويصلون إلى اليسار واللعب بالقهر والغلبة كانت نخوتهم أشد، ودخلوا فى جملة الجبارين. وهؤلاء هم الحمقى مثل الولايات المتحدة الامريكية الآن^(١). مدينة التغلب إذن أشبه بمجتمع الصراع والبقاء للأصلح والمجتمع الاستعمارى الحديث^(٢).

(١) الفارابى: السياسات ص ٧٣ - ٧٥.

(٢) وهو ما أشار اليه دارون ونيثشه.

والسؤال هو: ما هي المادة العلمية التي حللها الفارابي؟ هل هي الدراسات التجريبية على أحوال العرب أم أنها مجرد تأملات شيخ حكيم؟ هل لديه مادة تاريخية مثل ابن خلدون أو مشاهدات مثل ابن بطوطة أم هي مجرد افتراضات نظرية؟ هل هي قراءات في كتب التاريخ والسياسة؟ هل هو تنظير لمادة فقهية معروفة؟ هل هو عرض عقلي لقصاص الأنبياء وأسباب قيام المجتمعات وسقوطها؟

وسادسها المدنية الجماعية. وهي لا تختلف كثيراً عن مدينة التغلب في حب أهليهما للكرامة. هي التي كل واحد من أهلها مطلق مخلي بنفسه يعمل ما يشاء، أقرب إلي مجتمع الحرية والمساواة. أهلها متساوون، وسنتهم تقوم على أنه لا فضل للإنسان على آخر في شيء، ربما تنظيراً لحديث "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح". أهلها أحرار يعملون ما يشاؤون ليس لأحد منهم على غيره سلطان. بل يعلمون لزيادة حريتهم. لهم أخلاقهم، وشهوات كثيرة، والتأذ بأشياء لا تحصى. يتكونون من طوائف كثيرة مثل المجتمع التعددي بلغة العصر. يجتمع في المدينة الخسيس والشريف. وهو وصف أشبه بالمجتمع الليبرالي الحديث بما فيه من نزعات فوضوية ووجودية.

وهي مدينة عجيبة، مدينة سعيدة، مدينة مثلى مزرکشة لإشباع الشهوات فيهرع الأمن لها كما هو الحال في أحياء اللهو في العواصم الكبرى. تعظم وتكبر، ويتوالد فيها الناس. ويختلط الزواج والنكاح. ويولد أولاد مختلفوا الفطر والتربية فيحدث اختلاط الأجناس والطوائف لافرق بين غريب وقاطن. تجتمع فيها الأهواء والسير كما يقال في المجتمع المتعدد الجنسيات الذي أصبح كقدر الانصهار^(١). ويتمادي الزمان قد ينشأ فيها الأفضل فيتنق وجود الحكماء والخطباء والشعراء. وبالتالي تقترب من المدينة الفاضلة. فالطرفان يلتقيان. والفضل في الحرية والطبيعة كما هو فضل في العقل والقيمة. ولذلك صارت أكثر المدن شراً وخيراً معاً. ويقل التصنيف الحاد بين المدن وأسسها المطلق بين الخير المطلق والشر المطلق. وكلما صارت أكبر وأعم وأكثر أهلاً وأرحب وأكمل صارت أعظم. وتقترب من الدولة المعاصرة المستتيرة، الدولة الحديثة، مثل دمشق وبغداد قديماً عاصمتي الخلافة. وحلب عاصمة دولة بني حمدان^(٢).

Melting pot.(١)

(٢) الفارابي: السياسات ص ٧٦ - ٨٤/٧٨.

ب- المدينة الفاسقة. وهي المدينة التي عرفت السعادة وتصورت المبادئ واعتفتها وأرشدت إلى الأفعال التي بها تنال السعادة إلا أن أهلها لم يتمسكوا بها في الأفعال، ومالوا بهواهم وإرادتهم نحو أغراض الجاهلية، ضرورية أو نذالة أو خساسة أو كرامة أو غلبة أو جماعية. فأقسام المدينة الفاسقة هي نفسها أقسام المدينة الجاهلية.

ويشير الفارابي إلى المضطرين المقهورين أهل المدينة الفاضلة على أفعال الجاهلية ويتحولون إلى فاسقة دون تحديد لمصادر القهر وأسبابه ودون تحديد هل هم جزء من المدينة الفاضلة أو الجاهلية أو نوابت المدينة الفاضلة^(١).

وأفعال المدينة الفاسقة هي البيئات النفسانية التي اكتسبها من آراء أسلافهم تخلص أنفسهم من المادة والهيئات النفسانية الرديئة التي اكتسبها من الأفعال الرديئة تقتزن إلى الأولى فتكررها وتضادها فيلحق النفس من هذه المضادة أذى عظيم. فالمعرفة الصحيحة تأتي من السلف والأفعال الرديئة من الخلف تنظيراً لأية^(٢) وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات^(٣) والذي تحول إلى مثل شعبي "بئس الخلف لخير سلف"^(٤). ويذكر الفارابي الله عز وجل صراحة مما يدل على ارتباط فكره الاجتماعي بالفكر الديني دون أن يبلغ التنظير العقلي مداه. والسؤال هو: هل تشير المدينة الفاسقة بلغة العصر إلى المعسكر الرأسمالي الذي يدعى أنه العالم الحر وهو يقهر الشعوب المنهوبة، الصريح نظرياً، المناقق عملياً؟

ج- المدينة المبدلة. وهي المدينة التي كانت آراؤها وأفعالها فاضلة ثم تبدلت واستحالت إلى نقائضها. ومن بدل عليهم آراءهم وأفعالهم شقى وحده. ويهلك الآخرون مثل أهل الجاهلية. ويهلك كل من بدل السعادة بسهو أو غلط. الغاوى عليه غوايته فيكون من الأشقياء. أما المقلدون له فانهم يهلكون سواء كان ذلك عن قصد وإرادة أو عن سهو وغلط. فهل يقصد الفارابي الثورة المضادة بلغة العصر؟ وهل يكون التبديل بفعل خارجي

(١) الفارابي: آراء ص ٩٣ - ٩٤.

(٢) الفارابي: السياسات ص ٩٨١، آراء ص ٨٤ - ٩٢/٨٥.

وليس يفعل داخلي، بفعل فاعل وليس من تلقاء النفس؟ وهل هناك من يبدل آراءه وأفعاله سهواً وغلطاً؟ وهل يتساوى مع الذى ينقلب على عقبيه عن قصد وإرادة خاصة وإن الأعمال بالنيات؟ واضح أن مضادات المدينة الفاضلة كلها تقوم على التقليد، يفسد بعضها بعضاً. كما أن الفارابى يجعلها مدينة واحدة مفردة وليست جمعا تنقسم إلى مدن جزئية فرعية. هل هى تنظير لآيات قرآنية عن ﴿ومن ينقلب على عقبيه﴾ ومن يتحول من الإيمان إلى الكفر والمخلفين من الأعراب والمنافقين؟^(١).

د- المدينة الضالة. وهى التى وقعت فى الضلال النظرى والخطأ فى التصورات إيهاماً، ولم تصل إلى السعادة. ويقوم الضلال العملى على الضلال النظرى. قد يكون الضلال من النفس، الظن فى الله والثوانى والعقل الفعال، آراء فاسدة وتخيلات وتمثيلات أو من الخارج بأن يحكى لها من رئيسها أنه يوحى إليه وهو ليس كذلك أو أن يكذب عليهم وهى عدة مدن فرعية دون ذكرها. والسؤال هو: ما هى هذه المدن؟ هل هم النصارى فى التفسير المشهورة لآية الفاتحة ﴿ولا الضالين﴾ فى مقابل الفاضلة ﴿الذين أنعمت عليهم﴾، المعسكر الاشتراكى بلغة العصر؟^(٢).

٣- آراء أهل المدن الجاهلة والضالة. ويجعل الفارابى آراء أهل المدن الجاهلة والضالة معا فى قسم واحد وكأن الخلاف بينهما فى الدرجة وليس فى النوع. وتتأسس المدن الجاهلة والضالة متى كانت الملة مبنية على بعض الآراء القديمة الفاسدة. تقصد المدن إذن بفساد الملة وتقصد الملة بفساد الآراء فيها. وسبب الفساد هو الرأى الخاطئ الذى يدخل على الملة فتفسد المدينة لأن الملة عماد المدينة. والدين أساس المجتمع. ومن ضمن هذه الآراء الفاسدة آراء المدن الجاهلة والضالة.

أ- الصراع والتآلف. والصراع بين الأحفاد من ضمنها ويسميه الفارابى الرأى السبعى من السبع وهو المذهب الذى يعتمد على القوة والصراع بين الاضداد على كل

(١) الفارابى: آراء ص ٩٣/٨٥.

(٢) الفارابى: السياسات ص ٨١، آراء ص ٩٣/٨٥.

المستويات الطبيعية والإنسانية^(١) ويقوم الصراع بين الاضداد على مبادئ ثلاثة. الأول الموجودات متضادة، كل منها يبطل الآخر. إذا وجد أحدهما عدم الآخر. الدفاع عن الذات يتطلب الهجوم على الآخر، والدفاع عن الآخر يتطلب الهجوم على الذات. يقوم الوجود على التضاد العام الذى لا جمع فيه بين الشيء ونقيضه^(٢) التضاد والتعارض والتناقض مقياس الكمال. وهو أقرب إلى الصراع من أجل البقاء لأنه يقوم على إبقاء الأنفع وإسقاط الأقل نفعاً، وإلا كان الصراع مجرد عبث لا يحكمه قانون^(٣). يتحكم القوى فى الضعيف ويستولى عليه. الموجودات تتغالب وتتهارب، والأقهر هو الأتم وجوداً. والغالب إما أن يبطل بعضه لأنه فى طباعه أى أن وجود ذلك الشيء نقص ومضرة فى وجوده، أو أن يستخدم بضعا يستعبده لأن الأشياء على غير نظام وترتيب وجدت لأجله^(٤). والثانى الموجودات متضادة ليس فقط على مستوى الطبيعة بل أيضاً على مستوى الإنسان، الإرادة والاختيار والرؤية. فالمدن متغالبية متهاجرة، لا مراتب فيها ولا نظام ولا استئصال يختص به أحد دون أحد لكرامة أو فضل بل يطلب كل إنسان الخير بمغالبية غيره. والأقهر هو الأسعد. والثالث الموجودات متضادة دون تجانب ولا ارتباط لا بالطبع ولا بالإرادة. ويستمر التناقض والتناقض دون رباط إلا عند الحاجة. فيكون أحدها قاهراً والآخر مقهوراً. فالحاجة أساس الاجتماع والتآلف والارتباط. وهذا هو رأى السبعى من آراء الإنسانية^(٥).

(١) وذلك مثل ما كتب تارد عظم الاجتماع فى "التعارض الشامل".

G. Tarde: L'Opposition Universelle

(٢) وذلك مثل الجدل الصينى القديم بين الين واليان، والجدل عند كيركجارد حديثاً بين الشيء ونقيضه دون

جميعهما فى مركب ثالث G. Tarde: L'Opposition Universelle

(٣) وذلك مثل قوانين الصراع والبقاء للأصلح عند دارون.

(٤) وهذه هى العلاقة بين إسرائيل وفلسطين إذ تعتبر إسرائيل وجود فلسطين طعناً فى وجودها، والفلسطينيين مجرد أداة لخدمتها.

(٥) الفارابى: آراء ص ٩٨-١٠٠.

والتآلف والانسجام والترابط لأن المتوحد، وعلى عكس ابن باجه، لا يمكن أن يقوم بكل ما يحتاج إليه البدن دون معاونيه^(١). ومن هنا كانت ضرورة الإجماع بطريقتين. الأول القهر والاستعباد لقوم لقهر قوم آخرين. والموازر للقاهر ليس مسلويا له بل هو مقهور فيه. والأقوى بدنا وسلاحا هو الذى يكون قاهرا والأضعف هو الذى يكون مقهورا يستعمله القاهر لقهر آخرين. القهر كالفيض أيضا على مراتب. وهكذا تنشأ العصبية أو الموازنة كالألات للاستعمال حسب الهوى. والثانى الخلاف فى كيفية الارتباط والاتحاد والائتلاف والتحاب أى قبول المبدأ ثم الاختلاف فى التطبيق. وبحلل الفارابى آليات الترابط الجزئى بين الجماعات الحزبية بين نفرين من الناس^(٢). وكلها نظريات فى الترابط الاجتماعى كما هو الحال فى علم الاجتماع الحديث. والسؤال هو: كيف يكون التآلف والانسجام والترابط ضمن آراء المدن الجاهلة والضالة؟ يبدو أن المقصود ليس التعاون والترابط بل وسائله مثل القهر والاستعباد، وفى كفيته أى موضوعاته مثل التماسك والتعاهد والرياسة واللغة والاجتماع. والتآلف نقيض الصراع. التآلف صراع سلبى والصراع تآلف إيجابى.

- (١) وذلك مثل: ١- الاشتراك فى الولادة من والد واحد هو الأصل. فإذا غاب الأصل وحدث تباين فى الآباء نشأ التنفك بين الأبناء وانفراط عصبية الدم. ويحتاج الأمر بعد ذلك إلى جماعة لمواجهة الخطر الخارجى. ٢- الاشتراك فى التماسك ذكورا وإناثا ثم المصاهرة من أجل توسيع قاعدة الجماعة. ٣- الاشتراك فى الرئيس الأول أى فى السلطة السياسية مما يجعل السيادة جماعية. ٤- الإيمان والتحالف والتعاهد على النصر المتبادل وعدم الخذلان كما كان الحال فى الحياة العربية وعقد الأحلاف والمواثيق بين القبائل والطوائف والممل. ٥- التشابه فى الخلق والشيم الطبيعية، والاشتراك فى اللغة واللسان إذ تتوحد الأمم وتتباين بينها. ٦- الاشتراك فى المنزل ثم فى السكن ثم فى الحي ثم فى المدينة ثم فى الصقع الذى فيه المدينة. فالجوار أساس التعاون. ويشمل الصقع عدة مدن مثل الحلتا والصعيد. ويتوقف الفارابى عند الصقع ولا يذهب أبعد من ذلك إلى المعمورة آخر الإنسانية جمعاء، الفارابى: إراء ص ١٠٠-١٠٣.
- (٢) وهى ستة: ١- طول التلاقي أى الصداقات. ٢- الاشتراك فى طعام وشراب أى الدعوات. ٣- الاشتراك فى الصنائع أى الجماعات المهنية والحرفية. ٤- الاشتراك فى شر داهم أى المصالح المشتركة. ٥- الاشتراك فى لذة ما أى الهوايات. ٦- الاشتراك فى الأمكنة للامتنان المتبادل أى السفر الجماعى والجيرة.

ب- العدل والخشوع. العدل أساس الغلبة وحيلة الضعيف. فإذا تميزت الطوائف بإحدى الارتباطات السابقة، قبيلة عن قبيلة أو مدينة عن مدينة أو أحلاف عن أحلاف أو أمة عن أمة مثل تميز فرد عن آخر فانهم يتغالبون ويتهاجون على السلامة والكرامة واليسار والذات. كل طائفة تود الهيمنة على الأخرى وقهرها. والقاهر هو الفائز السعيد. وهو سلوك في الطبع، طبع كل إنسان وطائفة. ويكون معنى العدل في هذه الحالة التغالب والقهر. ويكون المقهور إما في سلامة بدنه أو هلاك وجوده وتلقه من أجل انفراد القاهر بالوجود أو يكون القهر على كراهية منه، ويبقى ذليلاً مستعبداً من القاهر خاضعاً له. وبلغت العصر مثل حالي الاستئصال الصهيوني الأمريكي للشعوب الأصلية أو الاستعمار الغربى الذى يحول الشعوب إلى خدم أذلاء له وكما فعل تجار الرقيق الأوربى فى استرقاق الشعوب الأفريقية نحو القارة الجديدة. استعباد القاهر للمقهور عدل مبنى على غلبة القوى. وخدمة المقهور للقاهر عدل بمعنى إذلال الضعيف. هذا هو العدل الطبيعى أى الفضيلة. وكلما زاد القهر زاد العدل فى الكرامة أو فى المال^(١).

والعدل أيضا حيلة الضعيف، العدل فى البيع والشراء ورد الودائع، وعدم الغضب والجوار خوفاً وإحساساً بالضعف أمام الضرورة الواحدة من الخارج. فالاثنتان، فردان أو طائفتان، عندما يتساويان فى القوة، يتداولان القهر مدة، ويذوق كل منهما الأمرين، القاهر والمقهور. ويصيران إلى حالين غير محتملين فيجتمعان ويتناصفان ويصطلحان ويتساويان ويعدلان، فتحدث الشروط الموضوعية فى البيع والشراء ضعفاً وخوفاً. ومادامت القوتان متساويتين فالمشاركة والتناصف. ومتى قوى أحدهما على الآخر نقض الشروط ودام القهر. وإذا وفد من الخارج خطر قد لا يكون هناك سبيل إلى دفعه إلا بالمشاركة وترك التغالب فيقع التعاون. وكلما طالت المدة حسب الناس أن العدل قد استتب مع أنه خوف وضعف. وبلغت العصر تلك كانت الحجة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ لعقد الصلح بين العرب وإسرائيل لا غالب ولا مغلوب أو بين فلسطين وإسرائيل، سلام الشجعان. وهو حال الشركات المتساوية فى القوة فى المجتمع الرأسمالى فى التوحيد

(١) وهو أقرب إلى آراء هوبز ونيتشة فى الفلسفة الغربية.

بينهما بدلا من التنافس المدمر لكليهما^(١).

والسؤال الآن: هل القهر كعدل طبيعي حكمة أم دين أم واقع؟ هل التجمعات الإنسانية مثل التجمع الحيوانى وقانون الغاب؟ هذا الحد يصل تعريف العدل والفضيلة والسعادة واعتبار ذلك حكم الطبيعة؟ هل الطبيعة شر إلى هذا الحد؟ أليس هذا تبريرا للظلم والقهر باعتبارهما فضائل طبيعية؟ ولماذا يكون ذلك من نصيب المدن الجاهلة الضالة مع أن الطبيعية أيضا خيرة، ومنها تبدأ المدينة الفاضلة؟

أما الخشوع فهو "أفيون الشعب" وخداع البسطاء. الخشوع أن يقال إن إلها يدبر العالم وأن الروحانيين مديرون كل الأفعال، واستعمال تعظيم الله والصلوات والتسابيح والتقاديس، وأن الإنسان إذا فعل ذلك عوض عن خيرات الدنيا، وكوفىء بخيرات عظيمة بعد الموت. وإن غرف من نعيم الدنيا حرم فى الآخرة منها، وعوقب بعد موته بشرور عظيمة. وهى كلها من أبواب الحيل والمكايد من قوم على قوم يعجزون عن المغالبة على خيرات الدنيا بالمصاهرة والمجاهرة والمكايدة، وتخويف الناس بترك خيرات الدنيا ليفوز بها الآخرون. فمن يعجز عن الغلبة يظن أنه غير حريص عليها، ويظن به الخير فيركن إليه وتوصف سيرته بأنها إلهية، ويقبح زيه وصورته كمن لا يريد خيرات الدنيا لنفسه فيكرم ويعظم ويؤمل خيرات أعظم. تنقاد النفوس له وتحبه، ولا تتكر عليه ارتكاب شئ يحسن عند الجميع قبيل ما يعمل فيصير قادرا على غلبة الجميع على الكرامات والرياسات والأموال واللذات.

وكما أن صيد الوحوش يقوم على المغالبة والمجاهرة والمخاتلة والمكايدة كذلك الغلبة على الخيرات تكون بالمطالبة والمجاهدة. الإنسان يظهر غير ما يبطن فى طلبه، يوهم بالمظاهر مع أنه يقصد شيئا آخر، وينال بسهولة ما يريد عن طريق التخفى. والمتمسك بالشعائر إنما يهدف إلى نيل هدف آخر، يفوز بإحدى الخيرات أو يجمعها ويكون عند الناس مغبوطا، ويظل مكرما ممدوحا عندهم. أما إذا فعل ذلك لذاته لا من

(١) الفارابى: أراء ص ١٠٣ - ١٠٥.

أجل الخيرات كان عند الناس مخدوعا مغرورا شقيا أحقق عديم العقل، جاهلا بحظ نفسه، مهانا عاجزا منموما. قد يمدحه الناس هزواً وسخرية به. والبعض يقويه فى نفسه، ويدعوه إلى عدم المزاحمة فى الخيرات بل يتركها ليأخذها هو أو غيره. والبعض يمدح طريقته ومذهبه خشية أن يأخذ ما عندهم ويسلبهم ما لديهم. وقوم آخر يمدحونه لأنهم مغرورون مثله^(١).

يبدو أن الفارابى يصف استغلال الدين الذى يطلق عليه الخشوع أى الدين القلبي الباطنى، الزهد فى الدنيا، والترفع عن حاجات الجسد كما هو الحال فى التصوف، تعويضاً عن العجز، والأمل فى الآخرة تعويضاً عن سلب الدنيا. هو تواضع الصوفى والولى الظاهرى، زهده فى القليل لنيل خير أعظم فى الدنيا والآخرة عند الناس وعند الله، على عكس المتكالب على الدنيا الذى يخسر الناس فى الدنيا بفقرهم منه. ولئن ينال جزاء فى الآخرة على حسن أفعاله فى الدنيا. يبدو أن الفارابى، الفيلسوف الإشراقى، هو أول من هاجم نفاق الصوفية باسم الخشوع والإيمان والزهد الذى يدل على طمع مقنع مع أنه من المعروف ارتباط الفلسفة بالتصوف كما هو الحال فى حكمة الإشراق. ومن المعروف نقد الفلسفة للكلام منذ الكندى حتى ابن رشد الذى هو أيضاً فيه، فى نظرية الاتصال بالعقل الفعال.

جـ- الآراء والأفعال. وللمدن الجاهلة والضالة آراء وأفعال خمس: الأولى الغلبة فى الحرب والسلام. فالمدن الجاهلة تقوم كلها فيما يبدو على الجماعية أى على النوع الآخر منها فى قسمتها السداسية. فهى ذات همم كبيرة، همم جميع المدن الخمس السابقة بالمغالبة والمدافعة التى تضطر إليها المدن المسالمة إما أن تكون فى جماعتهم أو فى طائفة بعينها فيصبح أهل المدينة طائفتين، واحدة فيها القوة على الغلبة والمدافعة، والأخرى ليس فيها شئ منها. وعلى هذا النحو تستديم الخيرات الثمانية سليمة النفوس. الأولى رديئة لأنها ترى المغالبة وسيلة الخير، مجاهرة أو مختلطة. فمن قدر على

(١) السابق: آراء ص ١٠٦-١٠٨.

المجاهرة فعل. ومن قدر بالغش والدجل والمراعاة والتمويه والمغالطة فعل.

والثانية الاعتقاد بأن هناك سعادة وكمالا يصل إليهما الإنسان بعد موته، وأن غرض الأفعال الفاضلة في الدنيا نيل السعادة بعد الموت. وبعد النظر في الموجودات الطبيعية كان لابد من إبطال الوجود الطبيعي ليحدث الكمال لأن الموجودات الطبيعية عائق عن الكمال. وهذا هو الموقف الصوفي الذي يعتبره الفارابي من المدينة الجاهلة مع أنه لا هم له إلا إثباته عن طريق تخليص النفس من شوائب البدن.

والثالثة حصول الموجودات مختلطة بأشياء أخرى أفسدتها وعاقبتها عن أفعالها، وجعلت كثيرا منها على غير صورتها حتى ظن أن الإنسان غير إنسان، وأن فعله ليس فعله حتى صار الإنسان يفعل ما لا يفعل، ولا يفعل ما يفعل. ويصدق أشياء غير قابلة للتصديق، ويرى أشياء كثيرة محالة وهي ممكنة. يبطل هذا الوجود الشاهد ليحصل وجود آخر غير مرئي. ولما كان وجود الإنسان وجودا طبيعيا فإن وجوده الآن ليس له بل هو مضاد لوجوده وعائق عليه. وهو وصف الاغتراب الديني الناشئ عن التصوف وتدمير العالم. وهو الموقف الذي يرى اقتران النفس بالبدن ليس طبيعيا وأن الإنسان هو النفس، واقتران البدن مفسد لها مغير لأفعالها، وتصور الرذائل عنها لمقارنتها للبدن، وأن كمالها في التخلص منه، وأنها في سعادتها لا تحتاج إلى بدن أو الأشياء الخارجة مثل الأموال والمجاورين والأصدقاء وأهل المدينة، وأن البدن هو الذي يحوج إلى الصناعات المدنية. لذلك ينبغي طرح الوجود البدني. التصوف إذن فكرة جاهلة ضالة مع أن الفلسفة الاشرافية تؤسس الفلسفة على التصوف^(١).

والرابعة البدن طبيعي، وعوارض النفس غير طبيعية. والفضيلة التامة التي بها تتال السعادة هو إبطال العوارض وإماتتها على نحوين. الأول إماتة جميع العوارض مثل الغضب والشهوة لأنها السبب حتى إثارة خيرات مظنونة كالكرامة واليسار والذات والغلبة والتباين والتناظر أو في الشهوة والغضب وما جانسهما، وأن الفضيلة والكمال في

(١) السابق ص ١١٠-١١٢.

أبطالهما. والثاني إيمانه عوارض أخرى مثل الغيرة والشح وأشباهها. لذلك رأى قوم أن الوجود الطبيعي ليس هو الوجود الذي لنا الآن. والسبب الذي جعل الشهوة والغضب وعوارض النفس مضادة للجزء الناطق قد يكون تضاد القاعلين أو تضاد المواد وغير ذلك مما أفاض فيه الطبائعيون القدماء كما قيل "مت بالإرادة تحيا بالطبيعة". فالموت موتتان: موت طبيعي وموت إرادي. والإرادي هو إبطال عوارض النفس من الشهوة والغضب. والطبيعي مفارقة النفس للبدن. والحياة الطبيعية هي الكمال والسعادة. لذلك قامت عوارض النفس من الشهوة والغضب قسرا في الإنسان. وهي آراء فاسدة من القدماء تنتمي إلى المدن الضالة.

والخامسة لما كانت الموجودات الطبيعية المحسوسة والمعقولة مختلفة متضادة، توجد حيناً ولا توجد حيناً آخر كانت دون جواهر محدودة، ولا لشيء منها طبيعة تخصه تكون جوهره. لكل واحد منها جوهر غير متناه مثل الإنسان. وهو مفهوم غير محدد الجوهر ولكن تفهم منه أشياء لا متناهية. ويجوز أن يكون شيئا آخر غير المحسوس والمعقول منه. وكل شيء ليس موجودا لأن جوهره ليس المعقول منه لفظه فقط بل هذا وشئ آخر لم نعقله أو نحسه. ولو كان مكان الشيء الموجود لأحسنناه وعقلناه. ليس المعقول من كل لفظ أشياء غير متناهية فقط بل قد تكون أشياء لم نعقلها بعد. والوجود هو مالم يلزم منه محال، ولا يجوز أن يكون غيره لا نحسه ولا نعقله أو محسوسا معقولا بلا نهاية. فكل لازم من شيء ليس كذلك لأن جوهر ذلك الشيء لا لأنه جوهر ذلك الشيء بل لأنه هكذا اتفق أو لا بفاعل من الخارج جعله كذلك. وبالتالي كان يمكن للآزم أن يكون غير ما نعقله أو نحسه منه الآن.

وتقترب هذه المثالية المطلقة من الشك. فكل ما يمكن عقله من شيء يمكن أن يكون ضده أو نقيضه هو الحق أو التوهم بأنه الحق والصدق هو ما نعقله الآن. المعقول من اللفظ أغنى بكثير منه بل من المفهوم منه. فاسم الإنسان يقال باشتراك الاسم. قد توجد المعاني وقد تتضاد وتتقابل إلى ما لانهاية. وليس في الكون محال أصلا. فطبيعة شيء في الماضي قد تكون على خلاف ما هي عليه اليوم على مستوى الفهم والعقل.

وعلى هذا النحو تبطل الحكمة. ويكون ما يرسم فى النفس أشياء محالة ويصبح كل شئ ممكنا بلانهاية، وتخفى التفرقة بين الممكن والواجب والمستحيل. وإذا كان لكل شئ نقيض فقد تنكأ الأدة وتستحيل المعرفة، ويصعب إصدار الحكم. يدخل الفارابى عنصر التطور والزمان دون أن يحدد بوضوح مكانه فى الشئ أم فى معناه أم فى ألفاظه. وإذا كان فى اللفظ فهى حجة لغوية لبيان حدود المعرفة. ومن ثم يرفض الفارابى هذه المثالية المطلقة التى تجعل العالم كليات لامتناهية تتجاوز الموجودات الحسية، وتدمر الوجود باسم العشوائية الداخلية أو الفاعل الخارجى، وتقضى على اللغة، صلة اللفظ بالمعنى، وعلى المنطق، تطابق المفهوم والماصدق والحقائق الرياضية من أجل إفساح المجال للكليات المتناهية. وتنتهى "الآراء" بطريقة غير طبيعية دون حمدة أو بسملة ولا بيان لغرض الرسالة ولا أنها إجابة على السؤال فى موضوع، تجريد عقلى خالص ودرجة عالية من التنظير^(١).

د- وسائل حفظ الثروة. ثم ينتقل الفارابى من الأخلاق إلى الاجتماع إلى السياسة إلى الاقتصاد. وينقض طرق حفظ الثروة فى المدن الجاهلة واستدامتها وتتميتها وزيادتها وإلا نفدت وضاعت أى التنمية المستدامة بلغة العصر. وأهم هذه الطرق ست: الأولى المغالبة المسخرة للآخرين. كلما غلبوا طائفة ساروا إلى الأخرى أى النهب الاستعمارى المستمر. والثانية تدبير ما عندهم بالبيع والشراء والتعاوض وغير ذلك بالغلبة من غيرهم مثل قوانين التجارة العالمية المفروضة على الشعوب والشركات المتعددة الجنسيات، ورأس المال الدولى والأسواق المفتوحة فى عصر العولمة. والثالثة الزيادة بالوجهين معا بالغلبة والاستثمار بالنهب الاستعمارى المباشر للذوات أو باستغلالها عن طريق الشركات الأجنبية ورأس المال الخارجى. والرابعة قسمة الطائفة قسمتين الأولى للغلبة والثانية بالمعاملات الإرادية أى سياسة العصى والجزرة، التهيب والترغيب. ويدخل فى ذلك استغلال الذكور للأنثى، والتجارة بالجنس، تجارة الرقيق الأبيض، كما هو الحال فى استغلال النساء والأطفال فى دول جنوب شرق آسيا وفى أفريقيا وأمريكا اللاتينية.

(١) السابق ص ١١٢-١١٧.

والخامسة المعاملة لقوم والغلبة لقوم آخرين فيتولون أمور الطائفة الأولى مثل قهر البيض للملونين الآسيويين ثم قيام الملونين بقهر الأفارقة في جنوب أفريقيا إبان النظام العنصرى، ومثل استعمال الاستعمار الأجانب المتمصرين الأروام والأرمن والنصارى أدوات قهر للمسلمين إبان الاستعمار البريطانى لمصر. والسادسة التغالب بين الأنواع المختلفة. أما الداخلة تحت نوع واحد فالنوع رابطها والدافع إلى التسالم مثل الانسية للناس. ثم يغالبون غيرهم للانتفاع وترك ما لا ينتفع. الضار يغلب وغير الضار يترك. والخيرات من نفس النوع بالمعاملات الإرادية ومن نوع آخر بالغلبة. وكل طائفة بها قوتان: قوة تغالب وتدافع، وقوة تعامل بها. الأولى اضطرار لمواجهة خطر خارجى والثانية إرادة للعمل الداخلى. الأولى للحرب والثانية للسلم^(١).

٤- تدبير المتوحد. ويجمع ابن باجه فى "تدبير المتوحد" بين النفس والأخلاق والاجتماع والسياسة، بين الحكمة النظرية والحكمة العملية، بين الفرد والمجتمع. والقصد من التحليل النظرى هو العمل. وبالرغم من جمال العنوان الذى يكشف عن موضوعه إلا أنه يغلب عليه التوحيد أكثر من التدبير مثل رسائله الأخرى فى العلم المدنى فى أنواع المدن فى التدبير. والموضوع أقرب إلى الجزء الأول من "آراء أهل المدينة الفاضلة"، الفيض فى العالم والنفس، منها إلى الجزء الثانى فى المجتمع والسياسة. الأولوية للتوحيد على المدينة. فالفرد سابق على المجتمع خاصة لو كان مجتمعا غير كامل. فالتوحد برتبته الجسمانية والروحانية ليس جزءا من المدينة وغايتها، ولا هو فاعلها وحافظها. وبالرتبة الثالثة قد لا يكون جزءا من المدينة بل يكون غايتها. إذا لا يمكن أن يكون حاقظها وفاعلها وهو متوحد. البداية بتحليل المجتمعات مباشرة باستثناء فقرة عن تدبير الله للعالم فى معانى التدبير قبل الاتجاه نحو الاشرافيات واتصال الفرد بالصور الروحانية.

ومع ذلك يبدو بعض التفكك فى العمل مما يضطر ابن باجه إلى الربط الاصطناعى، التنكير بما فات، والإعلان عما هو آت، والإحالة إلى علوم أخرى أو إلى

(١) السابق ص ١٠٨-١١٠.

مواقع أخرى^(١). لذلك كان ردء التأليف بالرغم من جمال العنوان به موضوعات متفرقة منقطعة مثل الكندي. يترك الموضوع بعد بدايته وكما هو الحال في "رسالة الوداع"، البداية بالرياسة ثم تركها إلى اللذة ثم الحديث عن التناسب والنسبة، زيد للدار، والدار لزيد، والرسول للعمامة، والعمامة للرسول^(٢).

أ- معنى للتدبير. يدل لفظ "التدبير" في تدبير المتوحد على معاني نفسية وأخلاقية واجتماعية وسياسية بل وكونية. الأخلاق تدبير النفس، والسياسة تدبير المجتمع. الأول موضوع علم الأخلاق والثاني موضوع العلم المدني. بل يتسع المفهوم ليشمل البدن والكون. فالنفس مدبرة للبدن كما أن الله مدبر للعالم. وتقوم كل هذه المعاني على تصور الرئيس والمرؤوس، المخدوم والخادم، السيد والعبد. الثاني موجود للأول، والأول موجود للثاني في دورة مستمرة بين السيد والعبد. يبدأ التدبير بالبدن ثم إلى الإنسان ثم إلى المدينة ثم إلى الكون، مدينة الله ثم تتم العودة إلى المدينة وإلى الإنسان من جديد في دورة على التبادل من البدن إلى الكون ومن الكون إلى البدن، من الفرد إلى المجتمع ومن المجتمع إلى الفرد، من الإنسان إلى الله ومن الله إلى الإنسان^(٣).

لذلك أخذ معنى التدبير ثلاثة مستويات: الأول نظام الكون. فانه مدبر العالم. والتدبير لا يقتصر فقط على تدبير الإنسان لبدنه ونفسه ومدينته بل أيضا يمتد إلى العالم. فالبنية واحدة. والمفاهيم المستعملة واحدة مثل القوة والفعل. فإذا كان الترتيب بالقوة فانه يكون بالفكر. فالفكرة قوة، ومن ثم فالتدبير للإنسان وحده لأنه صاحب فكر^(٤). وتدبير الله للعالم بالمعنى المجازي وليس بالمعنى المطلق. ففي التدبير يظهر

(١) أفعال الماضي للاستقصاء والبيان والقصد والكلام. وأفعال المضارع للترك والعروج والعرض والقول والاقتصار. وأفعال المستقبل للتخصيص والارجاء. ابن باجة: تنوير التوحيد ص ٤٢/٤٣-٥٦/٥٨-٦٤/٦٥-٧٠/٧١-٧٨/٨٣-٨٨/٩٠-١٢١/١٢٥.

(٢) ابن باجة: رسالة الوداع ص ١٣/١٣-١٣٢.

(٣) ابن باجة: تنوير المتوحد ص ٦٣-٦٥.

(٤) وهو التيار الذي يمثله فوييه Fouillée في مذهبه "الأفكار - القوة" Idees - Forces.

الشرف والكمال والتصور الهرمي للعالم، بذاية الإنشائيات في الخطاب والاعتراب في الموقف. فهو من الأسماء المشككة أو المشتركة. التشكك اشتراك، والاشتراك تشكك. التشكيك من الجمهور، والاشتراك من الفلاسفة. وهذا يفرض سؤال: هل الإلهيات سياسيات مقلوبة إلى أعلى أم أن السياسيات إلهيات مقلوبة إلى أسفل؟ هل الله مدبر على الحقيقة والإنسان كذلك بالمجاز أم أن الإنسان مدبر بالحقيقة والله كذلك بالمجاز؟ وهو ما يسمى التقديم والتأخير في القول، أيهما أولى بالتقديم أي حقيقة وأيهما أولى بالتأخير أي مجازاً؟ وفي كلتا الحالتين يضع العلم المدنى من أجل نظرية الاتصال، ويضع التدبير الإنسانى لصالح التدبير الالهى، وتنتهى السياسة لصالح التصوف. هناك إذن علتان للاعتراب، مراتب الشرف والكمال فى المدينة والطبقات من ناحية، والتوحيد والاتصال والفيض من ناحية أخرى.

والثانى تدبير الأفعال وليس الأقوال أو الآراء، وبالجمع وليس بالمفرد. فالتدبير به عموم وخصوص، الخصوص تدبير البدن، والعموم تدبير كل أفعال الإنسان في المنزل والمدينة. وتدبير الحرب يشمل العموم والخصوص لأنه التدبير الشامل. وتدبير المنزل بتعقيب أى بالمعنى الخاص وليس بالمعنى العام. وكما يطلق التدبير على الإنسان والله فانه يطلق على الإنسان والحيوان. وكلاهما إسقاط إلى أعلى مرة وإلى أسفل مرة أخرى من تدبير الإنسان لبدنه ونفسه ومجتمعه أى التدبير الداخلى والتدبير الخارجى. التدبير حكم قيمة بصواب وخطأ عكس التدبير المجازى، الله والعالم، فليس به إلا صواب. وتعنى السياسة التدبير. فاللص يبذل جسمه لجسمه، إثار حالة جسمانية على أخرى. فمقصد اللصوص السياسة لاقامة الجسم^(١).

والثالث الغاية والهدف. فالتدبير لا يكون إلا قصداً، والقصد لا يكون إلا بالإرادة والاختيار. والأفعال الإنسانية أفعال اختيارية وهى المهن والحرف والصنائع وهى على مراتب ثلاث طبقاً لدرجة الاختيار. الإنسان مع الإنسان، والإنسان مع الطبيعة، والإنسان

(١) السابق ص ٣٩-٤١/١٠١.

مع نفسه، من الاختيار المحدود، إلى الاختيار النسبي، إلى الاختيار المطلق. الأول الاختيار المحدود، ما يبدؤه الإنسان مثل الإيلاء ثم بعد ذلك ليس له فيه اختيار. والثاني الاختيار النسبي وهو الاختيار الجزئي لاشتراك قوة أخرى غير ناطقة معه مثل الملاحظة والفلاحة. والثالث الاختيار المطلق، كل جزء فيه باختيار مثل الحياكة والسكافة^(١).

ويتأسس العلم المدنى على الصدق اليقيني وليس المتهم كما هو الحال عند الصوفية. فالتصوف لا يمكن أن يكون أساسا نظريا للعلم المدنى لأنه ظنى وليس يقينيا. لذلك تقوم صنائع المشعبذين على صور روحانية كاذبة إما بالحس أو لفساد الجوهر لما تطاول زمان عدمه. ومن الصور الروحانية الكاذبة يكون الرياء والمكر. يظنها الناس الحكمة ويظنون أن من خواص مدنها التعقل. ليس المقصود إحصاء كل أصناف التدبير بل التدبير الصادق فقط لأنه أفضل. وهو السبيل إلى نيل السعادة الأبدية. وهنا يكون السؤال: هل التدبير وسيلة لنيل السعادة أم أن السعادة وسيلة للتدبير؟ هل التوحيد وسيلة للتدبير أم أن التدبير وسيلة للتوحيد؟ هل الإنسان الكامل يؤدي إلى المدينة الفاضلة أم أن المدينة الفاضلة تؤدي إلى الإنسان الكامل؟^(٢).

ب- أنواع البشر والتجمعات. وأنواع البشر مقدمة لأنواع المدن. فالطبيعة إما بالذات أو بالعرض. والطبيعة بالذات إما الإنسانية العامة أو الإنسانية المشتركة مثل حب الآباء للأولاد. والطبيعة بالعرض ضرورية مثل شرف الآباء. فالعالم صور صورة الأب والأم والولد والله. التنوع فى الصور الذهنية قبل أن يكون فى الواقع الاجتماعى^(٣).

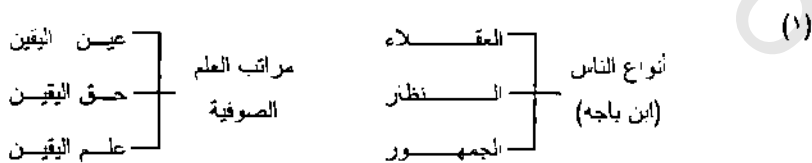
والناس نوعان: الأول خسيس يراعى صورته الجسمية فقط، والثانى رفيع شريف يراعى صورته الروحانية فقط. ويمكن تلف الصورة الجسمية من أجل الإبقاء على الروحانية مثل الشهادة. ويمكن عدم الاحتفال بالجسمية دون اتلافها مثل حاتم الطائي

(١) السابق ص ٦٩-٧٠/٧٣.

(٢) السابق ص ٦٣-٦٥.

(٣) السابق ص ٨٧-٩٣.

وأشكال الناس ثلاثة طبقاً لدرجاتهم في المعرفة: الأول الجمهور وهي المراتبة الطبيعية، ارتباط المعقولات بالصور والخيالات بالموضوعات الهيولانية وجميع الصناعات العملية. والثاني النظار أصحاب المعرفة النظرية الذين يدركون المعقولات عن طريق الوساطة. والثالث العقلاء الذين يدركون الشيء في ذاته، وهم السعداء. وهي مثل قسمة الصوفية مراتب العلم إلى علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين^(١). والخلاف بين الأول والثاني خلاف بين الحس والعقل، بين الاستقراء والاستنباط، في حين أن المراتبة الثالثة أدراك العقل المباشر. ينظر الجمهور إلى الموضوعات أولاً ثم إلى المعقولات ثانياً من أجل الموضوعات لأجل التشبه بالمعقولات. فيرون المعقولات بواسطة كما تظهر الشمس في الماء. فإن المرئي خيالاتها وليس نفسها. في حين أن الجمهور يرى خيال الخيال مثل انعكاس الشمس على المرآة وانعكاس ذلك على المرآة. أما مراتبة العقلاء فإنهم السعداء الذين يرون الشيء ذاته. حال الجمهور من المعقولات مثل حال الموجودين في مغارة لا تطلع على اسم الشمس فيرونها. وحال النظار كمن يخرج من المغارة إلى البراح فيلمح الضوء ويعي الألوان. أما العقلاء السعداء فإنهم يبصرون الشمس^(٢). والتعبير في المرحلة الثالثة بالألغاز أي بالصور والتشبيهات التي لا يفهمها الجمهور مع توحيد بين الذات والموضوع. وهو أقرب إلى المعرفة الصوفية. وواضح أن المرحلة الثالثة وحدها هي التي تجمع بين المعرفة والسعادة.



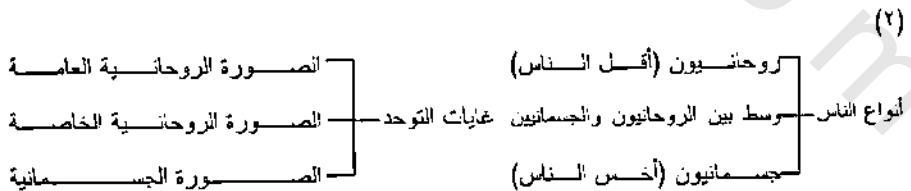
ابن باجه: اتصال العقل الإنساني ص ١٦٥-١٦٧. وهي مثل درجات المعرفة الثلاث عند اسبينوزا:

الحس والعقل والحدس أو درجات المعرفة الثلاث عند كانط في نقد العقل الخالص.

(١) وهو ما يشبه أسطورة الكهف عند أفلاطون.

وأقسام الناس مثل غايات المتوحد تقابلا بين التجمعات البشرية والغايات الإنسانية. فالتناس ثلاثة أنواع: جسمانيون وهم أخس الناس، ووسط بين الروحانيين والجسمانيين، وروحانيون وهم أقل الناس. وفي الروحاني معرفة الأرائل^(١). وتمتد أنواع المدن طبقا لغايات المتوحد. فالمدن تعبير عن اختيارات الأفراد وغاياتهم. وغايات المتوحد ثلاث: الصورة الجسمانية، والصورة الروحانية الخاصة، والصورة الروحانية العامة^(٢). وتتال هذه الغايات بالفكر وإلا كانت الأفعال بهيمية لا شركة للإنسانية فيها. فالاختيار فكري والغرض البهيمي ممكن في الإنسان. شكله إنسان وباطنه بهيمية. وأفعال البهائم لا تنتج مدنا، فالمدينة مرتبطة بالغايات العقلية. غاية البهيمية ليست الصور الروحانية العامة بل الصور الروحانية الخاصة أو الصور الجسمانية. قد يشارك الحيوان في الصور الروحانية العامة في النوع وليس في الفرد^(٣). في حين أنه في الإنسان في الفرد الدائم في النوع في مقابل الوقتي للإنسان. الضروري في الحيوان في مقابل الاختياري في الإنسان. وكلاهما فضيلة باشتراك الاسم. في الحيوان الكمالات شكلية، وفي الإنسان فكرية. الكمالات الشكلية يشارك فيها الحيوان الإنسان. والكمالات الفكرية يتفرد بها الإنسان وحده. المجتمع إذن أخلاق، والأخلاق فكر ونطق. الكمالات الفكرية للإنسان مثل صواب الرأي وجودة المشورة وصدق الظن وكثير من المهن والقوى مثل الخطابة وقيادة الجيوش والطب وتبوير المنزل. هي غايات تطلب لذاتها. في حين أن الجسمية مثل الأكل والشرب والدفار والروحانية مختصة

(١) مثل أويس القرني وإبراهيم بن آدم وهرمس وكان هرمس من الصوفية لأنه باطني وأرسطو أيضا وبعض الشعراء العرب.



(٣) وذلك مثل حياء الأسد، وعجب الطاووس، وملق الكلب، وكرم الديك، ومكر الثعلب.

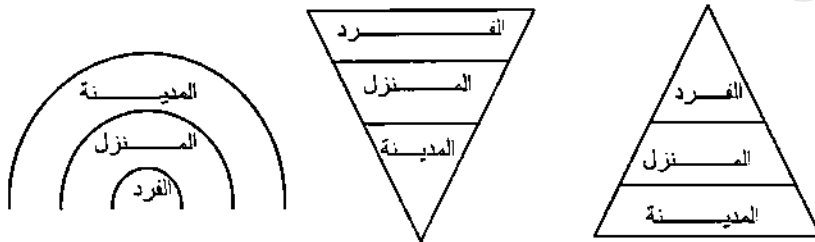
بالإنسان لا يشاركه غيره. الروحانية للذكرى، والجسمانية الوجود المشار إليه. الأول بعد الخلاء والثانى بعد الملاء. الأول بعد الزمان، والثانى بعد المكان^(١).

وبالإضافة إلى القسمة الكيفية يعطى ابن باجه قسمة كمية. ويشبه المجتمع الكبير وهو المدينة بالمجتمع الصغير وهو المنزل. وقد يعنى ذلك أيضا تشبيه السياسة فى المجتمع الكبير بالاقتصاد فى المجتمع الصغير لما كان اللفظ القديم للاقتصاد هو تدبير المنزل^(٢).

والمنزل جزء من المدينة. فالعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل كالدوائر المتداخلة أو الهرم المعدول أو المقلوب عند الفارابى. والغاية من كمال المنزل كمال المدينة أو كمال الفرد. فالمنزل وسيلة لتحقيق كمال الفرد وكمال المجتمع وكان الوحدة الأولى هو المنزل ليس الفرد أو المدينة. القول فى تدبير المنزل مجرد وسيلة لا غاية، قول مجرد فى وقت معين وفى أدبيات معينة عند البلاغيين. والمنزل الناقص والفاضل كلاهما باشتراك الاسم أى قول بلاغى. وهو جزء من علم النفس أى التربية وأدبياتها التى تضم الوصايا (أخلاق) أو أبواب صحبة السلطان ومعاشرة الإخوان (سياسة). والصادق منها مرتبط بعصره. وتتغير العصور وتتغير الآراء، ويصبح الضار نافعاً، والنافع ضاراً. فابن باجه يعيد قراءة النصوص القديمة ويراجعها إحساساً منه بالميدان الجديد وبأنواع الكتابات فيه وبتطور الزمان واختلاف العصر. والحكم على الأقاويل وأنواعها سابق على ابن رشد. فالأقاويل البلاغية عند ابن باجه مثل الأقاويل الخطابية عند ابن رشد. والقول العلمى عند

(١) ابن باجه: تدبير المتوحد ص ٩٥-١٠٨.

(٢) السابق ص ٤١-٤٣.



باجه هو القول البرهاني عند ابن رشد.

جـ- المدينة الفاضلة ونوابتها. أفعال الإنسان غايتها المدينة، المدينة الفاضلة فقط، وفي المدن الأربعة الناقصة أفعال الإنسان غاية هذه المدن. والتوطيات في المدينة الفاضلة غايات في غيرها. الخلاف إذن بين المدينة الفاضلة والمدن الأربعة الأخرى في القيم وليس في الأفعال، في مثل الجماعة ومذهبها، وإحصاء المدن، واحدة فاضلة وأربع غير فاضلة تؤيده الأخبار عن الأمم السابقة وليس حصيلة مشاهدات أو تحليلات اجتماعية أو قسمة عقلية. وبفضل المدن الخمس كلها ينشأ العلم المدني وليس بالمدينة الفاضلة وحدها. فالسلب أكثر إيجاباً من الإيجاب.

والمدن أربعة: الامامية وهي المدينة الثيوقراطية، ومدينة المال وهي الرأسمالية، والجماعية وهي الشيوعية، والتغلب وهي الدكتاتورية. الأولى والرابعة نظام سياسي، والثانية والثالثة نظام اقتصادي. ومن أعظم أسباب الفساد ظن أن هذه المدن الأربع مدن الفضيلة لأنها مدن فاسدة في السياسة أو الاقتصاد. في السياسة لا فرق بين تسلط الدين أو تسلط الدولة. وفي الاقتصاد تسيطر الطبقات العليا المترفة. ويظهر أولاد المترفين وذوو الأحساب الفضيلة من غير أن يكونوا أهلاً لها.

والمدينة الفاضلة فاضلة الآراء والأفعال، أعطى فيها كل إنسان أفضل ما هو معد نحوه. آراؤها كلها صادقة، وأعمالها فاضلة بإطلاق. والأعمال فاضلة بالتصية إلى فساد موجود مثل قطع العضو الفاسد ليبدأ البدن كله. والكامل ما لا زيادة فيه والزيادة فيه نقص كالإصبع السادس. والفرق بين الطبع والوضع أن الطبع صحيح والوضع منحرف مريض. وهو التقابل بين الطبيعة والصناعة، بين الصحة والمرض، بين الخير والشر.

وكل رأى غير آراء المدينة الفاضلة وأفعالها كاذب. ولا يوضع في المدينة الفاضلة رأى أو محل غير رأيها وعملها على عكس المدن الأربع الفاسدة، تستبقى ولا تستبعد، يتعلم كل منها من الآخر. وهو نموذج المدينة المتعددة الآراء^(١). المدن الأربع

(١) السابق ص ٨٣-٨٤ / ٩٢-٩٣.

أفضل لأنها متعددة الآراء وليست أحادية للرأى، يتعلم الإنسان فيها بالطبيعة أو الاكتساب الخير والشر. ليس الخير مفروضاً عليه والشر جاهلاً به كما هو الحال فى تصوير الجنة. يميز فيها الإنسان، ويختار بين الصواب والخطأ إعمالاً للعقل والإرادة. ويقع العمل الخطأ لينال به غرض آخر وليس لمجرد اللعب. وإذا كان الخير نسبياً أى بالنسبة إلى آخر لم يعد المجتمع مثالياً بل تبريراً للشر الأقل لتوقع خير أعظم. وهذا التقابل بين الفاضل والفاقد ثنائية متطهرة توقع فى القطعية والمذهبية مثل الفرقة الناجية والفرق الهالكة، نظرة مثالية للمجتمع، جنة الله فى الأرض.

ولا تحتاج المدينة الفاضلة إلى صناعة الطب نظراً لصحة الأبدان ولأنها تعيش على الطبيعة والفطرة. والطبيعة تعالج نفسها بنفسها نظراً لاعتدال الغذاء. ولا تحتاج إلى صناعة القضاء لأن الناس أخيار بالطبع، متحابون لا يتشاكسون. أفعالهم كلها صواب^(١). وقد يكون عدم احتياج المدينة الفاضلة إلى صناعة الطب لأنها تتبع قوانين الغذاء المعروفة فى كل الأديان. وهذه حالة مثالية للبدن بلا طب، وللروح بلا قضاء. ومن له تمام الأعضاء وجودة الصحة فهو عبد بالطبع لا فرق بينه وبين البهائم.

ولا يشير ابن باجه إلى معلمه الفارابى. فيغيب التراكم الفلسفى. الكل يبدأ من الصفر وكأنه لم يسبقه أحد. ربما نشأ عدم الإحساس بضرورة الإحالة إلى السابقين فى الموروث مثل الإحالة إلى الواحد لأن الموروث حضارة واحدة، ينتسب إليها الحكماء. وليسوا غرباء، والموروث غير مشخص. ولا توجد أفكار شخصية بل فكر موضوعى وحضارة عامة مشتركة يعرضها الجميع.

ومن خواص المدينة الفاضلة ألا يكون فيها نوابت. فالنوابت معنى قدحى. النوابت من واقع لهم رأى صادق ليس فى المدينة أو كان فيها نقيضهم. المهم هو المصدر وليس الصدق. وهى حجة سلفية أصولية. وكلما كان المعتقد أكثر وأعظم كان اسم النوابت أصدق. النوابت هى المعارضة الخيرة فى المدن الفاضلة أو المعارضة الجاهلة فى المدن

(١) السابق ص ٤٣-٤٥، رسالة الوداع ص ١٣١-١٣٦.

الشريرة. لا يهم المكان ما دام المثل الأعلى هو الانسجام والتآلف والتناغم. وتظهر النوايت فى المدن الأربع الفاسدة وليس فى المدينة الفاضلة وحدها تنظييراً لآية ﴿وَإِذْ قَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾. وهو وضع الأنبياء والصالحين ودعواتهم مع أقوامهم. وبهذه النوايت فى المدن الفاسدة تتحول إلى مدن فاضلة. وإذا ظهر النوايت فى المدن الفاضلة تنقص رفضاً للتناقض والاختلاف. التوافق هو الحياة، والتناظر الموت. الرأى الواحد الحق والآراء المتعددة هو الباطل. وقد يكون النوايت من الداخل أو من الخارج، من الموروث أو من الوافد بصرف النظر عن المصدر^(١). وإن سير المدن الفاضلة وغير الفاضلة هى فى النهاية سير نافعة. وهو ما قاله الفارابى من قبل من ضرورة بتر المعارضة حتى يصبح النظام الهرمى الطبيعى الكونى مثل بتر الطبيب العضو الفاسد حتى يبرأ الجسد استعمالاً للحدث الشهير فى غير موضعه عن صلة الأعضاء بالجسد دليلاً على التراحم والترابط الاجتماعى.

والسؤال هو: هل للنوايت معنى إيجابى أم معنى سلبى مثل الفسق أى خروج النبت من الحبة؟ قد يكون له معنى إيجابى مثل الغرباء والصوفية أى إعلان الحق ولو كان أقلية فى مواجهة الباطل ولو كان أغلبية؟ ومن هم؟ هل هم الحكماء والصوفية أى المتوحدون؟ هل هم المثقفون الثوريون بلغة العصر؟

د- الرئاسة والكمال. والرئاسة الاجتماعية عند ابن باجه نوعان. الأول بين المعلم والتلميذ والملك والمدينة. والثانى المستعملة لغاية بالتأخير أى بالتشبيه والمجاز مثل مدير المدينة الفاضلة. وهو ليس ملكاً بل يحقق غاية التدبير. الأول رئاسة ظاهرة خارجية، والثانية رئاسة باطنية داخلية. فى الرئاسة الأولى يقدر الرئيس أفعال المروؤس كى يبلغ غرضه. وعلى هذا يقال لمدير المدينة الفاضلة الملك الرئيس. والرئاسة الثانية مستعملة لغاية إنسان ما توطئة له فى غرضه. ولا يدل مدير المدن غير الفاضلة بأنه رئيس إلا فيما شابه فيه الملك. الرئيس الأول يعطى السنة ويقدر

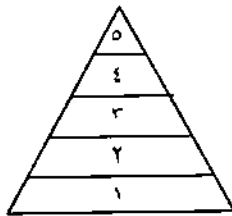
(١) ابن باجه ص ٤٥-٤٦.

الأفعال، والرئيس الثاني الفارس واللجام^(١).

ويتحقق الكمال الإنساني على خمس مراتب من أدنى إلى أعلى، كمال الآلات واليسار وهو الصلاح الإنساني العام، كمال العالم، وكمال الصحة، جسد الإنسان وهو كمال العبد المطيع، وكمال الفضائل الشكلية وهو كمال الحيوان الراقى، وكمال الصناعات العملية وهو كمال الإنسان الفرد، وأخيرا الكمال الذاتي الخالص، كمال النطق. وكل كمال أدنى خادم لكمال أعلى. ونور الصحة كالعبيد والعرفاء وعمال المدينة لا من أجل الفضائل الشكلية التي تجود بها المعاشرة وتتم بها مصالح المدينة. والصناعات العملية كالطب والملاحة والفلاحة والخطابة وقيادة الجيش مرووسة وتهدف أيضا إلى صلاح المدينة. والكمال الذاتي ليس خادما لكمال آخر بل هو غاية في ذاته في حين أن الصناعات العملية خادمة للكمال الذاتي. كل درجة دنيا خادمة للدرجة العليا، وكل درجة عليا مخدومة من الدرجة السفلى. كل درجة عليا رئيس وكل درجة دنيا مرووس. كل درجة دنيا وسيلة، وكل درجة عليا غاية. الأولى على الإطلاق غاية وليست وسيلة. والدنيا على الإطلاق وسيلة وليست غاية. والمتوسطة وسيلة إلى ما هو أعلى وغاية لما هو أدنى منها.

وهذه الكمالات مقصودة بالطبع ولا تتم إلا بالاجتماع المدني. لذلك تفاضل الناس لتكمل المدينة بهم. الكمالات إذن تراتبية طبقية. والطبقة يحددها طبع الإنسان. والطبقة ليست المهنة أو الرزق بل العقل أو الغاية الإنسانية. وهي واحدة أبدية عقلية مثل الله. هو تفاضل طبيعي كوني ليس فيه للإنسان حرية واختيار. والاختيار داخل الطبيعة، والحرية

(١) ابن باجه: رسالة الوداع ص ١٣١-١٣٦.



أنواع الكمال

- الكمال الذاتي الخالص
- الصناعات العملية
- الفضائل الشكلية
- الصحة
- الآلات واليسار

فى الضرورة، أن يكون الإنسان غاية نفسه فى إحدى هذه المراتب الخمس. فالارتقاء نظرية فى الخلاص. يصل فيها الإنسان إلى حال لا تصارعه الطبيعة ولا تنازعه النفس البهيمية. وهى حالة النطق والشرف واللذة والبهاء والبهجة دون ألم الطبيعة، حال النفس الناطقة البعيدة عن الهوى، الوحدة التى لا ضد لها ولا كثرة فيها^(١).

ثالثاً: من الاجتماع إلى السياسة

وكما تحولت الأخلاق إلى اجتماع يتحول الاجتماع إلى سياسة مثل سياسة الأبدان والنفس والأصحاب عند إخوان الصفا أو أنواع الرياسة عند الفارابى أو الإمامة وضرورة السلطة فى المجتمع عند ابن سينا.

فالسياسة لفظ عام بمعنى أيضاً الأخلاق الاجتماعية، سياسة الأصحاب كما يقول الاخوان أو توجيه النصائح للملوك. فالقوانين السياسية هى المعايير الأخلاقية. والغاية منها نفعية. ولا فرق بين الطبقات الأخلاقية والطبقات الاجتماعية والطبقات السياسية. والتقسيم الطبقي الثلاثي واحد فى الأخلاق والاجتماع والسياسة. تبدو الآراء السياسية للاخوان متأثرة خاصة فى القسم الرابع فى العلوم الناموسية الإلهية والشرعية. فالإنسان حيوان سياسى عمرانى. خلق لتعمير الأرض ولخلافة الله فيها. ويصفون السلطة السياسية الإمامة والملك، وأوقات الحرب^(٢).

ولم يساهم فى السياسة فقط الحكماء، فلاسفة البلاط فى الدولة السنية بل ساهم فيها أيضاً حكماء العامة، فلاسفة الجماهير فى المعارضة الشيعية، أبو حاتم الرازى، وأبو يعقوب السجستاني، وحמיד الدين الكرماني.

(١) ابن بلجة: رسالة للوداع ص ١٣٦-١٤١، الغنية الإنسانية ص ١٠٠، الوقوف على العقل للفعال ص ١٠٧.

(٢) إخوان الصفا: الرسائل، الرسالة الأولى: فى الآراء والديانات ص ١٠٤/٤-٥٣٨. فصل فى بيان سبب اختلاف العلماء فى الإمامة ص ٤٩٣-٤٩٧. الرسالة الحادية عشر: فى ماهية السحر والعزائم ص ٢٨٣-٤٠٦. فى معرفة الحروب وأوقاتها، فى معرفة متى الحرب تكون ص ٤٠٤-٤٠٥ الخلافة والإمامة ص ٢٩٧/٩/١.

وكما يتأرجح موضوع النفس بين الطبيعيات والإلهيات فى الحكمة النظرية ويتأرجح أيضا فى الحكمة العملية بين الأخلاق والاجتماع والسياسة كذلك يتأرجح موضوع السياسة بين الأخلاق الاجتماعية فى علاقة الفرد بالآخرين، برئيسه وندّه ومرؤوسه، وبالأخلاق الدينية فى علاقة الفرد بنفسه وبالله، وبالنبوة نظرا لضرورتها فى المجتمع، وبالمجتمع المدنى فى النظم الاجتماعية وفى أنواع المدن طبقا لأهدافها وطبيعتها الرياسة فيها وأخيرا بالإمامة التى تحولت من علم الكلام إلى علوم الحكمة. فتجلى قوى النفس هو أساس الأخلاق والاجتماع والسياسة.

وقد عبر الاخوان عن هذه الوحدة بين الأخلاق والاجتماع والسياسة فى القسم الرابع من الرسائل العلوم الناموسية الإلهية والشرعية. وتعنى العلوم الناموسية كل ما يتعلق بالمجتمع، الأخلاق والسياسة. وهو القسم الذى يتضمن أيضا تصنيف العلوم مما يدل على إدخال هذه العلوم "الإنسانية" داخل القسمة الثلاثية التقليدية للحكمة النظرية: المنطق والطبيعيات والإلهيات. والعلوم الناموسية قسمان: إلهية وشرعية، عقائد وشرائع، نظر وعمل. فالحكمة النظرية أساس الحكمة العملية^(١).

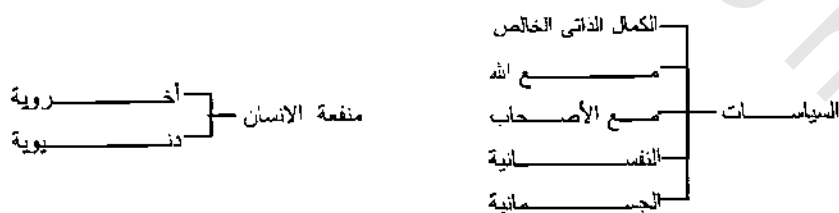
١- الأخلاق والسياسة والتربية. وهى بدايات السياسة وعلاقتها بالأخلاق والتربية والبدن والكون قبل أن تتحول إلى علم السياسة وتحليل السلطة فى المجتمع.

أ- السياسة الأخلاقية. وتعنى السياسة هنا المعنى العام، الإدارة أو كيفية التعامل أو التدبير، مثل رسالة الاخوان فى أنواع السياسات. فالعنوان خادع لا يدل على مضمونه. إنما يعنى السياسة بالمعنى العام. وتنقسم إلى أربع سياسات: الجسمانية أى سياسة الإنسان مع جسمه، والنفسانية أى سياسة مع نفسه، وسياسته مع الأصحاب، وسياسته مع الله^(٢). وهى قسمة رباعية قائمة على قسمة ثنائية سابقة وهى أن منفعة

(١) إخوان الصفا: الرسائل ص ٤/١/٤٠١.

(٢) الرسائل ص ٤/٩/٢٥١/٢٥٨.

الإنسان دنيوية وأخروية. لذلك كانت سياسته في علاقة مع الجسد أو النفس أو الصديق أو الله. وهي مظاهر متعددة للإنسان الكامل. تصف ما ينبغي أن يكون ولا تقرر ما هو كائن. تعطى النصائح والمواظ وتوجه نحو السلوك العملى وليس نحو التأسيس النظرى. لذلك امتلأت بالمابنيغيات والإنشائيات والخطابيات. هي رسالة أقرب إلى الأخلاق العملية، كيفية التعامل مع الجسد بالزهد، ومع النفس بالتصفية، ومع الأصحاب بالمحبة، ومع الله بالطاعة. والتعامل بالجسد الإنسانى الوجودى، إظهار القرب بالبعد، واللين بالغلظة، والأنس بالوحشة، والكرم بالشح، والانبساط بالانقباض، والرحمة بالسخط، والوعد بالوعيد كما هو الحال فى أحوال الصوفية^(١). السياسة الجسمانية فى الطب البدنى. فالغذاء صنفان وثالثهما الماء، ما ينزل من السماء أو ما ينبع من الأرض، مع قلة الأكل وترك الشبع وتعتمد الجوع والاعتدال. والسياسة النفسانية تصفية النفس بالقناعة والزهد والفقر، وإلا يطمع فى الدنيا قطاع الطرق واللصوص ومصادرة السلطان وحسد الاخوان. ويستعمل الاخوان تشبيه السفينة والريان. وهو تشبيه إنسانى عام لا صلة له بوافد أفلاطونى أو موروث أصلى أو حضارى. وتأتى سياسة الأصحاب بعد المعرفة. وتشمل سياسة الأهل مع الاخوة والزوجة والأولاد والعبيد خصوصا النساء، وضرورة تفقد أحوالهن لأنهن سريعات التلون كثيرات التغير، يتغيرن مع الساعات، ويضطربن مع الأوقات. فيكون الصفح عنهن كثيرا، ومراعاة أموالهن، ولا يغتر الإنسان بصلاحيهن، فاستفسادهن سهل يسير إلا من حماها الله، وقليل ما هن. ولا يجب إظهار الفاقة للأولاد والغلمان



(١) السابق ص ٢٩٠.

والحواشي، وأن يقوم الإنسان بواجبه المفروض عليه^(١).

وبعد الانتقال من سياسة الجسد إلى سياسة النفس إلى سياسة الأصحاب، الأقرب فالأقرب، والأبعد فالأبعد، يتم الوصول إلى الله. ويظهر موضوع العبادة والقربان قرباً إلى الله وتقرباً إليه. والقربان نوعان: قربانان مقبولان ودعاءان مستجابان، وقربان غير مقبول ودعاء غير مستجاب.

والقربان نوعان: فلسفى مثل سقراط وأرسطو، وشرعى مثل الحج والذبح. والعبادة نوعان: فلسفية إلهية للخاصة مثل الإقرار بتوحيد الله، وعبادة شرعية ناموسية للعامة، الأوامر والنواهي. ويصعب اقتران العبادتين الفلسفية والشرعية لأن العبادة الفلسفية موت الجسد وحصر النفس عن الأمور المحبوبة وترك الرخصة والوصول إلى إدراك حقائق الموجودات، في حين أن العبادة الشرعية ظاهرة محضة. العبادة الفلسفية الإلهية مثل السياسات الجسمانية والسياسات النفسانية والعبادات الناموسية والشرعية التي تشمل سياسات الأصحاب والسياسة مع الله. وتقام في أول الشهر وفي وسطه وفي آخره. اليوم الأول للتطهر والتبخّر، والثاني محراب الصلاة، والثالث العشاء الأخير وصلب المسيح وتقديسه حتى يصل السماء بجزء الجدى وهو النجم الذى يهتدى به فيتأمل الكتاب حتى الثلث الأخير. وفي الليل، الثلث الأول لعبادة النفوس، والثلث الثاني للقيام والتفكير فى الملكوت، والثلث الثالث الهبوط إلى الأرض سجوداً بالتدلل والتضرع والاستغفار والتوبة، والدعاء الأفلاطوني، والتوسل الادريسى، والمناجاة الأرسطية حتى الفجر، فيمحي الفرق بين الموروث والوافد فى الحكمة الخالدة. ولا فرق بين مسيحية ويونانية وصابنية وإسلامية. وعبادات الإخوان نموذج لهذه العبادة الإلهية الفلسفية. وقربان الإخوان يجمع بين الفلسفى والشرعى مثل قربان إبراهيم بالإضافة إلى بعض الخرافات الشعبية مثل أن فى الجنة أربعين خروفاً^(٢).

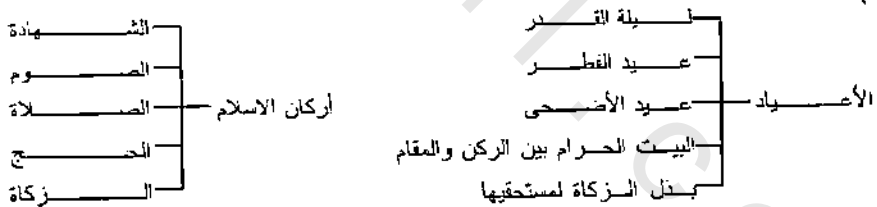
(١) السابق ص ٢٥٩.

(٢) وهو رأى كانط فى التفرقة بين الدين الفلسفى والدين الكنسى، والانتقال من أحدهما إلى الآخر عن طريق التأويل. انظر دراستنا "الدين فى حدود العقل وحده"، قضايا معاصرة، ج١ فى الفكر -

وبالرغم من صعوبة اقتران العبادة الشرعية بالعبادة الفلسفية إلا أنه طبقا لاتفاق الحكمة والشرعية أو الفلسفة والدين يثبت الاخوان تطابق الأعياد الإسلامية والأعياد اليونانية أى الفلسفية للخاصة، أعياد الشرع مع أعياد الطبيعة. فأركان الإسلام خمسة: الشهادة والصوم والصلاة والحج والزكاة. والأعياد الإسلامية خمسة: ليلة القدر، عيد الفطر (معابنة الهلال)، عيد الأضحى، البيت الحرام بين الركن والمقام، وبذل الزكاة لمستحقها^(١). وتتفق الأعياد اليونانية الطبيعية مع الأعياد الإسلامية الشرعية. فعيد الفطر هو عيد الربيع والخصب. وعيد الأضحى هو عيد شدة الصيف. ويوم الوصية هو يوم جفاف الثمار. وأحيانا تبدو الأعياد الشيعية مثل وصية الرسول فى حجة الوداع بغدير خم أو يوم الحزن يوم قبض الرسول. وأحيانا تتدخل الأبراج الحمل والسرطان والميزان والجدى مع الفصول الأربعة^(٢). وأحيانا تنكر خصوصية الأعياد الإسلامية التى لا تشابه أعياد الفلسفة ولا الشريعة لأنها ذاتية قائمة بذاتها. تظهر الأفعال عنها وبها وفيها. وهى ثلاثة: أول ووسط وآخر والرابع أجمعها وأشدها فعلا. الأعياد للفرح ويوم الوصية فى حجة الوداع ممزوج بالحزن، ويوم قبضه حزن وكآبة. وفى كل دين، اليوم الأخير،

= الغربى المعاصر، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦ ص ١٣١-١٧٠.

(١)



(٢) أيام الاخوان	الفلك	الإسلام	الأعياد الفلسفية	الصورة الإنسانية
الأول	الربيع	الفطر	الحمل	الصبا
الثانى	الصيف	الأضحى	السرطان	الشباب
الثالث	الخريف	الوداع	الميزان	الكهولة
الرابع	الشتاء	القبض	الجدى	آخر العمر

الرسائل ج ٤/٩/٢٦١-٢٦٧/٢٧٢.

العشاء الرباني، حجة الوداع إعلانا عن نهاية فترة وبداية أخرى. وقد حول الاخوان أعيادهم إلى أشخاص ناطقة، وأنفس فعالة تفعل بإذن ربها ما يوحيه إليها وما يلهمها من أفعال. وتستمر في التاريخ بعد مرحلة النبوة والوصية وحجة الوداع. يظهر الداعي ويخرج أول القائمين في يوم فرح وسرور. ثم يقضى على الجور، وهو في فرح وسرور واستبشار بقيام الثاني. ثم يعود الباطل ويقوم الثالث لمقاومته. ثم يختفى ويعم الحزن والكآبة بالعود إلى الكهف نقية واستتارا^(١).

ب- الأخلاق السياسية. والتحول من السياسة الأخلاقية إلى الأخلاق السياسية هو تحول إلى قلب علم انسياسة، السلطة السياسية. والسياسة عند إخوان الصفا لا تظهر مباشرة بل بطريق غير مباشر على لسان الحيوان أو بتحليل دورات الأفلاك أو بتصفية النفس وتجنيد الجماهير والاستعداد حتى يحين وقت الثورة. ومن ثم يصعب الفصل بين الأخلاق والاجتماع والسياسة.

وتقوم الأخلاق السياسية على نفس الثنائية التقليدية. فكل شئ في هذا العالم ظاهر وباطن. وكذلك الأمر في السياسة. فالأخلاق السياسية ظاهر وباطن، صلاح في الدنيا وصلاح في الآخرة، عامة وخاصة، سوقة وملوك، ملوك وأئمة. ولكل طائفة أخلاقها السياسية. ولا يمكن الصعود من طبقة إلى طبقة إلا بعد تهذيب النفس^(٢).

وكما تحولت الأخلاق الفردية إلى الأخلاق الاجتماعية عند الفارابي كذلك تتحول الأخلاق الاجتماعية إلى الأخلاق السياسية عن طريق البحث عن الفضيلة الكاملة أو الفضيلة الرئاسية قبل تحول الرياسة من مستوى الأخلاق السياسية إلى علم السياسة في

(١)

الاستتاء نقية واستتارا
عودة الباطل ومقاومة الثالث
القضاء على الجور وقيام الثاني
ظهور الداعية أول القائمين

(٢) السابق ج ١/٩/٣٢٨.

السلطة السياسية. والفضيلة الكاملة هي فضيلة واحدة من مجموع الفضائل كلها أو عدة فضائل تكون أعظمها قوة، ولا يمكن إثباتها إلا بإثبات سائر الفضائل كلها. فضيلة كلية بعد إتمام الفضائل الجزئية، فضيلة كل الأمم بعد إتمام فضائل كل أمة ومدينة ومنزل أو طائفة. ومن ثم تترتب الفضائل ابتداء من أعظمها قوة إلى ما هو أقل، وما أشبهها في جزء من أجزاء المدينة مثل فضيلة صاحب الجيش المشتركة بين المجاهدين، وهي الشجاعة، وفضيلة مكتسب المال. الفضيلة الكاملة أعظم الفضائل، والصناعة الكاملة أعلى الصناعات. وفضائل الطائفة اثنان: المنزلية والجهادية أى الاقتصاد والحرب وليس الاقتصاد والسياسة. وكلاهما تحت الفضيلة الرئاسية^(١). والسؤال هو: هل كبس المال فضيلة أم يتم طبقاً لعوامل والربح، المكسب والخسارة وقوانين السوق، العرض والطلب؟ وهل يمكن التحكم فى الاقتصاد بالأخلاق؟ ربما يكون رأى ابن خلدون السلبى فى التجارة وأخلاق التجار أقرب إلى الفضيلة.

واخوان الصفا هم الوحيدون الذين تعرضوا لقضية تجنيد الجماهير باعتبارهم قضية سياسية من أجل سلب المجتمع وتفرغه من مضمونه وإسقاطه من الداخل عن طريق تكوين الحركات السرية وتجنيد الأفراد ريثما يتم الانقراض على ما تبقى من الدولة كنظام سياسى. وإلى أن يأتى هذا الحين تمارس النقية.

وقد اختلف الاخوان وهم من الباطنية عن القرامطة والإسماعيلية حول الخروج على أولى الأمر، واستعمال القتل والترويع والاستيلاء على البلاد. فقد شجع الدولة العباسية العلويين على الخروج ولكن الاخوان فضلوا السكينة والانتظار حتى يأتى الوقت الملائم للثورة والعصيان. وأثناء ذلك يقومون بتربية الأفراد وتنقيف العقول بفلسفتهم التى تجمع بين الفلسفة والدين وتصفية القلب وتقوية أوامر المحبة والإخاء. فيزول ما علفت به الشريعة من الجهالات والضلالات، ويحصل الكمال الإنسانى^(٢).

(١) الفارابى: تحصيل السعادة.

(٢) الرسائل ج١-٨-٩. ويمكن القول إن الاخوان أقرب إلى يمين اليسار والقرامطة يسار اليسار.

فالمملوك هم خلفاء الله فى الأرض لملك البلاد وسياسة العباد، يحفظون شرائع الأنبياء بتنفيذ أحكامهم وحفظ النظام. وهو أقرب إلى الثيوقراطية والحكم الإلهى، مرتبطة بالله والكون والأفلاك والأرض. فالأفلاك ملائكة السماء ومدبروها كما أن الملوك مدبروا الأرض^(١).

فالتطريق إلى زعزعة الحكم هو تفريغ الدولة من الداخل بعد تجنيد قوى الجاه والسلطان والمال حتى يتم انتزاع السلطة السياسية القديمة إلى السلطة الدينية الجديدة قبل تحويلها إلى سلطة سياسية.

ويتم التجنيد عن طريق إرسال مندوبين إلى قوى الرئاسة والجاه والمال والتلطف فى دعوتهم واستمالتهم إلى المذهب ليساندونهم فيما نالهم من اضطهاد.

ويأتى الأحداث والاغرار بالصبيبة لإدخالهم فى الدعوة إلى الكاهن بيده مصباح وبالأخرى بخور ويلزمه بالسِر. ويتلو الكاهن على رأسه سبعة وثمانين اسما من أسماء الملائكة وإسماع السِر للرجال والنساء. ويحذر العامى من علوم النجوم والطلسمات والكيمياء والطب من أجل استدراجه إلى السحر ونزع المقاومة العقلية والإرادية منه. وفى قصص الأنبياء أدلة على ذلك مثل قصة هاروت وماروت، والهداية من الشيخ والداعية والمرشد والإمام المستور.

وتبدو أهمية القرابين التى ترمز إلى ذبح الأعداء والأشرار وأهمية الأعباد كإطار شعبى لتجنيد الأعضاء^(٢). ويكثر الاستشهاد بقصص الأنبياء إبراهيم وإسماعيل والقداء والخاتم بدل السكين. كما تظهر الصور القرآنية مثل سود وبيض وحمز وغازيب سوداء. ويستشهد بسقراط وذبحه ديكا وفاء لنذر.

(١) الرسائل جـ ١/٣/١٤٥.

(٢) الرسائل جـ ٢/١١/٣٠٠-٣٠٢.

والسؤال هو: إذا كان الاخوان حركة معارضة سرية فكيف تكون إشراقية؟ ربما لأن تفسير المضطهدين أقرب إلى الانفعال منه إلى العقل وإلى الاندفاع منه إلى التريث. ومع ذلك فالتريث فى الخروج على أولى الأمر تقية أفضل من الخروج قبل الساعة.

ج- التربية السياسية. ولأول مرة تتحول السياسة من أخلاق سياسية أو سياسة أخلاقية إلى تربية سياسية قبل أن تصبح علما سياسيا دقيقا. وتكون التربية السياسية عن طريق نظرية فى التعليم بين معلم ومتعلم.

ويكون التعلم لثلاث مراتب من العلوم. علم خاص بكل طائفة، وعلم خاص بكل أمة، وعلم مشترك بين كل الأمم، علم الإنسانية^(١).

ويكون التعليم بطريقتين: طوعا أو كرها، إخضاعا أو تأديبا، إقناعا بالأقوال الإقناعية والانفعالية وكرها مع المتمردين العاصين. الاختلاف فى الوسيلة، والغاية واحدة. وكما يختلف الإقناع والتأثير والخيال كذلك تختلف طرق التأديب بين القلة والكثرة، الضعف والقوة. التعليم هو إيجاد الفضائل النظرية فى الأمم والمدن. والتأديب هو إيجاد الفضائل الخلقية والصناعات العملية فى الأمم. التعليم للأخلاق، والتأديب للصناعات. التعليم بالقبول، والتأديب بالتعود على النهوض بالملكات وشحذ العزائم بحيث تستولى الأفعال على النفوس كى تعشقها. وقد تكون العزائم بقول أو بفعل. الفضائل الفكرية من الذات، والفضائل الخلقية من التعليم. الفضائل طوعا، والصناعة تأديبا^(٢). التعليم من الصبا حتى البلوغ، والتأديب من ثمان أسابيع أى شهرين مما بين أخلاق العقاب منذ الطفولة !

(١) العلم الأول يسمى فى الأنثروبولوجيا المعاصرة Sub-Culture, Mass-Culture, Group-

Culture. والثانى National Culture ، والثالث Universal Human Culture.

(٢) التعليم أقرب إلى Education ، والتأديب أقرب إلى Training . وإذا كان التعليم هو Learning فإن التأديب يكون هو التربية Education.

وقد يكون التعليم شفافيا كما هو الحال فى الثقافة العربية الإسلامية قبل التتوين
وقد يكون مدونا.

والتعليم والتأديب على مستوى المدن والأمم جميعا وليس على مستوى مدينة
بعينها أو أمة خاصة مما يوحى بضرورة وجود نظام دولى، شرطى للعالم، كما هو الحال
هذه الأيام بتهذيب وتأديب المدن والأمم التى تخرج على النظام الدولى الجديد كى تدخل
بيت الطاعة.

والسؤال هو: كيف يتم الجمع بين الطبع والإرادة؟ بين التعليم والتأديب، بين
الطوع والكره؟ الطبع فطرة لا تحتاج إلى تهذيب، والإرادة حرة فى حاجة إلى تعلم
طبيعى. التأديب ضد الطبع والإرادة فى آن واحد.

والمعتاصون والمشاغبون هم المعاندون أى الملحدون والطاغون وكأن الفرق
الهالكة فى علم الكلام مازالت حاضرة فى الذهن، ودعوة السلطان لاستئصال الخارجين
عليه والمعارضين له.

والسؤال هو: هل أساليب الترغيب هى أساليب التهريب والوعد المعروفة فى
الدين؟ التعليم ممكن. أما التأديب بالقوة والقمع فهى أخلاق العبيد وأخلاق القوة والسيطرة.
ولا عجب من الفارابى العقلانى المنطقى الاشرافى الفنان تبرير استعمال العنف لتأديب
المتعلمين المتمردين المعتاصين بالإكراه. وهو ما يتفق مع تصوره للمتمردين فى المدينة
الفاضلة وبترهم. فمن الأفضل بتر العضو الفاسد حتى يبرأ الجسد كله. وقد يكون ذلك
تبريرا لما يسمى الآن غسيل المخ وإعلام الدولة والقمع والسجن والتعذيب.

ولماذا يؤدب العصاة على الأمور النظرية التى يربون عليها؟ وهل يمكن تغيير
قناعات الناس؟ وهل هو مفيد حتى فى الأمور العملية؟ هل هناك سعادة بالإكراه؟^(١). ربما
يعنى تأديب الأمة تجنيدها فكريا وتربيتها أخلاقيا ونهضتها ثقافيا كما هو الحال فى

(١) وهذا ما يحدث فى واقعنا الحالى من تأديب تاركى الصلاة بالعصا وإيقاعهم عن العمل فى شبه
الجزيرة العربية.

المجتمع الأيديولوجى أو فى الأمة الإسلامية. ويكون ذلك بالإقناع وليس بالتأديب. وهل الأمة كالطفل والصبى والمدن للتأديب؟ وهل الأمة وحدة واحدة دون تفاوت طبقاتها وطوائفها؟ وهل العقاب جماعى أم فردى؟ هل الأمة جمع واحد، إصلاحية واحدة يسوقها الملك كما يشاء؟ وهل فى المؤدب فضائل غير القهر والغلبة والتعذيب والقسوة والخطف وانتهاك حقوق الإنسان؟ وقد يؤدى ذلك إلى تبرير ما يفعل موظفوا النظام وأجهزة الاعلام وغسيل المخ.

ووسائل الإقناع أربعة: التأثير أى الخطابة، والإقناع أى الجدل، والإذعان أى السفطة، والتخمين أى الشعر، والبرهان أى الحكمة دون حدود فاصلة بين منطق الظن. فالتعليم إما إقناعى انفعالى تمثيلى أو نظرى برهانى، الأول للعامة والثانى للخاصة.

تتعلم الأشياء النظرية أولا بالطرق الإقناعية ثم التخيلية خاصة الأشياء التى لا يمكن أن تعرف إلا بمعلومات كثيرة وخاصة المبادئ القصوى. فالعامة فى حاجة إلى مثالات لها وإقناعات بها. وتختلف أمة عن أمة ومدينة عن مدينة، وطائفة عن طائفة حتى يحصل للجميع الفضيلة الفكرية، وتحصل لهم الفضائل النظرية. الإقناع والتمثيل للعامة أولى فضائل العلم. وتختلف الصور طبقا للشعوب نظرا لتعدد الأنواع الفنية والأمثال الشعبية. البداية بالإقناع والتأثير ثم بعد ذلك الخيال. والغاية من الأقاويل الانفعالية الخلفية الإذعان والخشوع والتسليم. وهى وسائل أكثر قوة تهدف إلى مجرد الإقناع. ويتفرد الخيال بين الأمم والمدن والطوائف من أجل الإقناع بالفضائل الفكرية التى تحصل من الفضائل النظرية.

وقد أتت هذه القسمة فى طرق البرهان لأن تفهيم الشيء إما بعقل ذاته أو تخيل مثاله، وأن إيقاع التصديق إما بالبرهان اليقينى أى التصور أو بالإقناع أى التخيل. وكل تعليم يلتزم بهذين الشئين، تفهيم الشيء وإقامة معناه فى النفس وإيقاع التصديق به. ويكون إما بالبرهان وفى هذا الحالة يكون العلم فلسفة أو بالتخيل وسماه القدماء ملكة، وإذا أخذت الفلسفة واستعملت فيها الطرق الإقناعية سميت الملكة الفلسفية الذائعة المشهورة.

والبرائية ملكة محاكية للفلسفة. وكلاهما يعطيان الغاية القصوى للإنسان وهي السعادة. الفلسفة تبرهن، والملكة تقنع. الفلسفة تعطي المبدأ الأول وذوات المبادئ الثواني غير الجسمانية، المبادئ القصوى المعقولة. والملكة تتخيلها بمثلالات مأخوذة من المبادئ الجسمانية، وتحاكيها بنظائرها من المبادئ المرئية، وتحاكي أفعال القوى والمبادئ المرئية، وتحاكي الأفعال الإلهية. كما تحاكي أفعال القوى والمبادئ الطبيعية بنظائرها من القوى والملكات والصناعات الإرادية أى تشخيص الطبيعة كما يفعل أفلاطون فى "طيماوس" تمثلاً للوafد فى إطار الموروث.

والسؤال هو: هل الصناعة العملية تعلم بالإقناع والانفعال أم بالعقل كحرفة؟ وإذا كان التخيل عن طريق الشعر العامة، والإقناع والتأثير عن طريق الخطابة لتعليم الصناعات فهل يمكن أن يؤدى ذلك إلى تعليم صناعة تقوم على علم نظرى دقيق؟ قد تعنى الصناعة العملية هنا فنون البلاغة والخطابة أى فنون القول. وقد تعنى الحاجة إلى الأساليب الإقناعية الانفعالية التمثيلية الحسية الأولى فى تعلم الأطفال الأمور التجريدية البسيطة مثل صناعة الحساب. والأقويل الإقناعية هى فى النهاية من صناعة المنطق.

إلى هذا الحد بلغ الإعلاء من شأن الفلسفة اعتزازا بالفلسفة فى مجتمع دينى ناشئ يسيطر عليه الفقهاء والسلاطين والصوفية. وبدت الملة أقل منها لأن الملة تدرك بالمثلالات وتحاكي النظائر. أما الفلسفة فتتصور المبادئ الأولى. محاكاة الأفعال الإلهية فى الملة وقوع فى التخيل وابتعاد عن البرهان. فالملة أقل من الفلسفة والفلسفة أعلى من الملة. ويستعمل الفارابى لفظ الملة وليس الدين للدلالة على أن الدين اجتماعى بالضرورة بعد أن يتحول إلى طبيعة أو بنية اجتماعية. فهو ليس ديناً مجرداً بل ديناً اجتماعياً.

وليس التخيل أقل من النظر العقلى أو الإدراك الحسى بل يتجاوزهما لأنه يتطلب أولاً معرفة الأمور الحسية وتصوراتها العقلية ثم تجاوزهما بالخيال. هل الخيال أقل من العقل، والنبي أقل من الفيلسوف، والخيال أكثر قدرة على التصوير والإدراك؟ لا توجد عند الفارابى صراحة نظرية فى النبوة والخيال كما هو الحال عند ابن سينا ولكنها

موجودة فى طرق الإقناع. وهو ما سماه ابن رشد بعد ذلك أنواع الأقاويل حتى عرف به دون مصادره.

وربما تحولت الفلسفة إلى نوع من الأرسقراطية اليونانية. لذلك يظل علم الكلام فلسفة الحرفيين، الخياط والغزال والنشار والنجار والحداد.

ويبدو أن التعليم المقصود شئ بين التعليم العام والتربية الوطنية والاعلام كما هو الحال فى هذه الأيام فى الخلط بين التربية والتعليم والثقافة والاعلام، والعلم والإرشاد القومى. وهى علوم أربعة: الأولى الفضيلة النظرية التى تحصل بها الموجودات المعقولة ببراھين يقينية، وهى أعلى العلوم، علوم الخاصة. والثانية حصول المعقولات بطريق إقناعى. وهى فى الحقيقة ليست علوما منفصلة كموضوعات بل هى أقرب إلى المناهج. والثالثة العلوم التى تحتوى على مثالات المعقولات مصدقة بالطرق الإقناعية وهى أيضا أقرب إلى المناهج منها إلى الموضوعات، الشعر بدلا من الخطابة. والرابعة العلوم المنتزعة من الثلاثة الأولى طبقا لعدد الأمم. وهى العلوم التى تأخذ بعين الاعتبار الثقافات الشعبية والوطنية، جدل العام والخاص. ونظرا لأن البرهان أفضل طرق الإقناع كانت الفلسفة أقدم العلوم وأعلاها رياسة، وبها تحصل السعادة القصوى. وقسمة العلوم إلى برهانیه أو إقناعية تخيلية إما ناتجة عن قسمة المجتمع إلى طبقتين عليا ودنيا، خاصة وعامة، رئيس ومرؤوس.

وتتحول الأخلاق السياسية إلى تربية اجتماعية عن طريق السلطة السياسية أو الدينية أو الفكرية فى التعليم والتأديب. تحصل الفضائل فى الطبع من ذوى النفوس القوية والطبائع العظيمة أى فى الأقلية الفاضلة. وإذا حصلت الفضيلة الأولى حصلت الفضائل الجزئية. فالأعم يتضمن الأخص.

فمن هم المؤدبون؟ هم قوم يفوض إليهم التأديب بما لهم من قدرة على الاستنباط ونصرة الحق ومعاودة الباطل وجودة التعليم لتحقيق غرض الرئيس. فالرئيس هو المهيمن من وراء الستار. فى كل واحد منهم فضيلة جزئية وفضيلة فكرية يتعقبا على جودة

استعمال الجيوش فى الحروب حتى يتمكن له التأديب الداخلى والخارجى. وظيفة الجيش فى الخارج ضد العدو وفى الداخل لاستتباب الأمن كما هو الحال فى المجتمعات العسكرية الحالية، مجتمعات القهر والغلبة^(١).

ومن ثم فالمعلمون هم الأئمة والملوك والحكماء وواضعوا النواميس وهم الأنبياء والرئيس الأول وهو الله. وفى غياب الأئمة والملوك يظهر الحكماء دون ذكرهم صراحة كمعلمين للأئمة والملوك. يعلمون جميع أوائل العلوم. ويتبعون فى ذلك الطرق المنطقية كلها. ويرتقى الملوك فى الرياسات الجزئية حتى يصلوا إلى رتبة الملوك. ولهم تعليم خاص عن باقى الصبية. فتعليم الخاصة مخالف لتعليم العامة، وعلوم الخاصة ليست علوم الجمهور. فالتطبيقية فى العلم أيضا يعلمون أوائل العلوم ومقدما حتى يمكن بعد ذلك الاستنباط منها. وهى بلغة العصر المناهج وليست النظريات، كيف يكون العالم عالما، وليس بماذا يكون العالم عالما، العلم وليس المعلومات.

وقد تقوم الطوائف أى الأقليات بالتأديب. ويمكن استعمال أكثر من طائفة فى التأديب أو تقسيم طائفة واحدة إلى أصغر أجزائها كما هو الحال فى العشائر والبيوت وربما الأحياء والقرى والبلدات.

والسؤال هو: هل يعلم العلوم النظرية الأئمة والملوك والأئمة فقهاء والملوك سلاطين؟ أليس هذا تقريبا للملك الامام والامام الملك؟ وهل الامام أهل علم أم أهل قوة وتدريب؟ أحيانا يبدو الأمر سطحيا ساذجا، وتبدو الفضائل وكأنها ألعيب حواء، وكأن البشر مجرد مادة سلبية يتم تدريبها وتصويرها كما يهوى الرؤساء^(٢).

ويتفاضل الناس، أهل الطبائع المتساوية فى الرئاسة. من لديه قدرة فى الاستنباط فى جنس رئيس ما ليس له قدرة على استنباط ما فى ذلك الجنس، وهو التفاضل الكلى

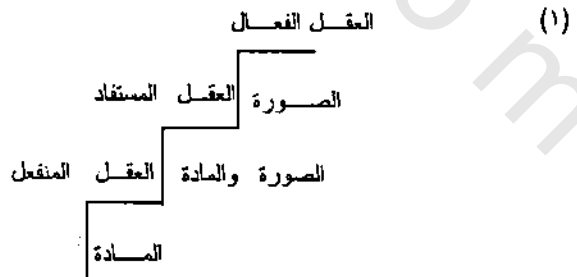
(١) وكما هو الحال فى العالم العربى ودول أفريقيا وأمريكا اللاتينية وبعض دول آسيا.

(٢) الفارابى: السياسات ص ٥٠-٥٤.

والجزئى. ومن لديه قدرة على استنباط أشياء أكثر له الرئاسة على من له قدرة على استنباط أشياء أقل. ومن له القدرة على جودة الإرشاد والتعليم رئيس على من ليس له قوة على ذلك. ومن يتأدبون بأفضل ما فى ذلك الجنس رؤساء على من تأدبوا بأخس ما فى ذلك الجنس. والفاق بالطبع فى جنس وتأدب بكل ما أعد له بالطبع رئيس على من لم يكن فى ذلك الجنس فائق بالطبع سواء تأدب أو لم يتأدب أو تأدب بشيء يسير. والرئيس لديه قدرة على الاستنباط من تلقاء نفسه وعلى أن ينهض غيره نحو شئ. فلا بد من باعث على التعليم من خارج ومنهض. ولا بد لمن يعرفهم بذلك.

ويتتابع الرؤساء، الرئيس الأول ثم الرئيس الثانى كما هو الحال فى العقول العشرة. والرئيس الأول لا يرأسه إنسان. حصلت له العلوم والمعارف بالفعل ولا يحتاج إلى إرشاد أو تعليم من آخر ولا إلى إدراك الجزئيات والعمليات. ويكون ذلك فى أهل الطبائع العظيمة الفائقة بعد اتصالها بالعقل الفعال. الرئيس الأول هو العقل الذى يتدرج من العقل المنفعل إلى العقل المستفاد إلى العقل الفعال، من المادة إلى الصورة إلى الصورة المحضة^(١). وقد تكون الرئاسة فى جنس مثل الفلاحة والتجارة والطب أو بالإضافة إلى جميع الأجناس الإنسانية. حينئذ يكون الرئيس هو الملك أو الأمام أو النبى أو الفيلسوف.

ومن خلال نظرية المعلم يتم الانتقال من الأخلاق إلى السياسة. وهو انتقال معرفى فيعد. أن كان الإنسان فى حاجة إلى التعاون أصبح فى حاجة إلى التعليم. مهمة العلم



ترويض المتعلم بإرادة المعلم والحاجة إليه إلى أن تُراضى الفطر بالإرادة أى إلى أن يتم اكتساب التعليم، ويصبح طبيعة أو فطرة ثانية (١).

والفطرة العظيمة الفائقة فى الجنس دون ترويض أو تأديب قد تبطل قوتها على طول الزمان. فالتأديب ضرورى. وفلسفة التربية ضرورية لكل الفطر المحتاجة وغير المحتاجة. ويتفاضل الناس بالطبع فى أجزاء الجنس. فالمعدون بالطبع إلى الجنس الأخر أقل من المعدين بالطبع للجزء الأشرف. كما يتفاضل الناس حسب الاستعداد، نقصه وكماله. ويكون التأديب بالأشياء التى هم معدون نحوها. إذا كان التأديب بالأشياء الخسيسة يخرج الاستنباط فى الخسائس من جنسها. ويتفاضل المتأديبون بالتساوى فى تفاضلهم فى الاستنباط. ومن تأديب من ذوى الطبايع الناقصة فى جنس ما أفضل ممن لم يتأديب بشيء من أهل الطبايع الفائقة.

نظرية التعليم ضد نظرية التعلم الذاتى أو التعلم الطبيعى (٢). توحى بالتبعية والوصاية والقهر وبمصطلحات الشيعة فى الوحى ومذهبهم، مذهب أهل التعليم. وقد انتشر فى عصر الفارابى وظهر عند السجستانى وفى رسائل إخوان الصفا.

والغاية من التعليم نيل السعادة. فإذا كانت السعادة القصوى مقصود الإنسان فعليه معرفتها. والنظر سابق على العمل حتى يستطيع أن يقوم بالأشياء التى بها ينال السعادة. بل يحتاج إلى معلم ومرشد. البعض يحتاج إلى إرشاد يسير، والبعض الآخر إلى إرشاد كبير. وليس كل إنسان قادراً على التعليم وإرشاد غيره. هناك من هو قادر على تلقى الإرشاد وهو ليس رئيساً أصلاً بل مروضاً. علاقة المعلم بالتعلم إذن علاقة الرئيس بالمرؤوس وليست علاقة الند للند بين طرفين متكافئتين، يتحاوران ويتجادلان، بل طرف يعطى وطرف يأخذ كما هو الحال فى مناهج التلقين.

(١) وهذا ما جعله لسنج دور الوحى فى تربية الجنس البشرى.

(٢) وهو الـ Autodidacte المعروف عند روسو وتولستوى.

وفى غياب السعادة فى المدينة تظهر الهيئات الرديئة من هيئات النفس. وهذا تحديد للشقاء بنفى الضد، غياب السعادة. وتظل السعادة هى أساس السعادة والشقاء على حد سواء. وهو نوع من التفاؤل بإثبات الخير وأن الشر طارئ عليه، خير فى حالة الغياب. ويتم بلوغ السعادة بزوال الشر عن المدن والأمم. فلا يوجد تحديد للشر إلا بنفى الخير مما يدل على تفاؤل فى الفكر. وإذا كان الخير نوعين، طبيعى وإرادى فإن الشر كذلك نوعان، غياب الطبيعة وغياب الإرادة. والشقاء والرديئة فى النفس، مرض وهمى مثل مرض الأبدان. الأشقياء يستلذون المر ويتأثنون بالحلو. قد لا يشعر مرضى النفوس بمرضهم ولا يصغون إلى قول مرشد أو معلم أو مقوم فتبقى نفوسهم هيولانية^(١).

٢- الدين والبدن والكون. ويتم التحول من الاجتماع إلى السياسة عن طريق تحليل الدين فى المجتمع ومقابلة المراتب الإلهية بالطبقات الاجتماعية، ثم تقابل البدن والمجتمع، علم الطب والعلم المدنى، وأخيرا تقابل المجتمع والكون، والتحول من السياسة المدنية إلى السياسة الكونية، ومن العلم المدنى إلى علم الوجود. وهى نفس البيئة الثقافية التى خرجت منها رسائل إخوان الصفا.

أ- السياسة الدينية والاجتماعية. وتظهر السياسة الدينية عند إخوان الصفا فى أجناس العلوم المنطقية والطبيعية والإلهية ضمن العلوم الإلهية. كما تدخل فى الصنائع العملية والغرض منها. تشمل العلوم الإلهية، الله، الروحانيات أى الملائكة والنفسانيات والسياسة والمعاد، لا فرق بين الدنيا والآخرة. وتقابلها السياسات النبوية والملوكية والعامة والخاصة والذاتية. السياسة النبوية لمعرفة كيفية وضع النواميس المرضية والسنن الزكية بالأقاويل الفصيحة ومداداة النفوس وحفظها من الديانات الفاسدة والأفعال الجائزة. وهو دور الأنبياء. والسياسة الملوكية معرفة حفظ الشريعة وأخبار السنة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام، ورد المظالم، وقمع الأعداء، وكف الأشرار، ونصرة الأخيار. وهو دور الخلفاء والأئمة والسياسة العامة

(١) السابق ص ٥٩.

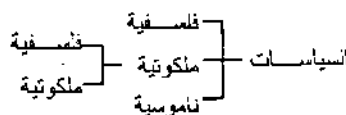
رياسة الأمراء على المدن والبلدان ورياسة الدهاقين على القرى، ورياسة القادة على الجيوش، وطبقات المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصفاتهم ومذاهبهم وأخلاقهم ومراتبهم وأمورهم وجمعهم وأنصافهم وتوظيفهم. وهو دور الرؤساء والسياسة الخاصة بتدبير المنزل والمعيشة والخدم والغلمان والأولاد والممالك والأقرباء والقسمه والجيران والصحة والاخوان، وهو دور الأسرة. وأخيرا السياسة الذاتية وهى معرفة الإنسان نفسه وأخلاقه وأفعاله وأقاربه وأحواله، غضبا أم رضا، وهو دور الفرد^(١). وبالرغم من التقابل بين العلوم الإلهية والسياسات النبوية إلا أن هذه السياسات تتناول السياسة والاقتصاد والأقارب الفصيحة أى الأدب وإصلاح الواقع والنفس أى التغيير الاجتماعى، والثواب والعقاب أى الأخلاق والقانون^(٢). ويمكن اختصار السياسات إلى ناموسية، وملكوئية خاصة وعامة، وفلسفية.

والغرض من السلطة السياسية ضرورة تنفيذ الشريعة أى أوامر الدين. ولولا خوف الناس من السلطان لما طبقت الشريعة. وهل الغرض من تطبيق الشريعة رعاية مصالح الناس أم لزوم الخوف من السلطان؟ السياسة مثل الأمانة ضرورية والرياسة فضيلة والكبر رذيلة^(٣). وإذا كانت السياسة رياسة والرياسة سياسة فأين الشعب والمؤسسات؟

(١) الرسائل: رسالة فى الصنائع العملية والغرض منها ج١/٧-٢٥٨-٢٥٧، فصل فى أجناس العلوم ص٢٦٩-٢٧٢، فصل فى العلوم الإلهية ص ٢٧٢-٢٧٥، فصل فى الغرض من الملك ج١/٨/٢٩٢.



(٣) الرسائل ج١/٩/٣٣٧.



وللنفس الملكية القدسية شهوة القرب إلى ربها وقبول الفيض منه. وتتفق النفس الناطقة مع العاقلة الحكيمة في العلوم والمعارف إلا أن الأولى عمل وصناعة والثانية وحي وإلهام. ويضع الاخوان الوحي مع التكهن والقيامة والفراسة والإلهام والمناجات والإنذار بالكائنات بعلم النجوم والزرز. وهناك فروق فردية بين النفوس وسياساتها. وللنفس الحكيمة شهوة العلوم والمعارف، والذهن الصافي والفهم الجيد، وسرعة الخاطر وقوة التخيل وجودة التصور، والفكر والرؤية والتأمل والاعتبار، والنظر والاستبصار، والحفظ والتذكار، ومعرفة الروايات والأخبار، ووضع القياسات واستخراج النتائج بالمقدمات، والتكهن والقيافة والفراسة، وقبول الوحي والإلهام، ورؤية المنامات والإنذار بالكائنات بعلم النجوم والزرز^(١).

والسياسة مهنة مثل الصنائع والعلوم، والتصرف والتجارة والبطالة والحكمة. والمهن سبع من أعلاها إلى أنناها: الأولى الحكم والمعارف لأهل العلم والدين والمستبطين للناموس. والثانية الملك والسلطان والأجناد وأرباب السياسات. وهم طائفتان: الخلفاء في الملك والرياسة في أمور الدنيا والتنوير والسياسة وحفظ ظاهر أحكام الناموس على أهله، والخلفاء في أسرار أحكام الناموس، الأئمة المهديون والخلفاء الراشدون. والثالثة العلوم والآداب أصحاب البنايات والعمارات والأملك لا فرق بين العلوم الهندسية التطبيقية والعلوم البلاغية. والرابعة العمل والتصرف للمتصرفين والخدامين والمتعيشين يوماً بيوم، عمالة الأجر اليومي. والخامسة التجارة والبيع والشراء لأرباب التجارة والمعاملات والأموال. والسادسة الصنائع والحرف لأرباب الصنائع والحرف والأعمال. والسابعة البطالة والفراغ للزمن والعاطل وكان البطالة حرفة، والصدقة أجر.

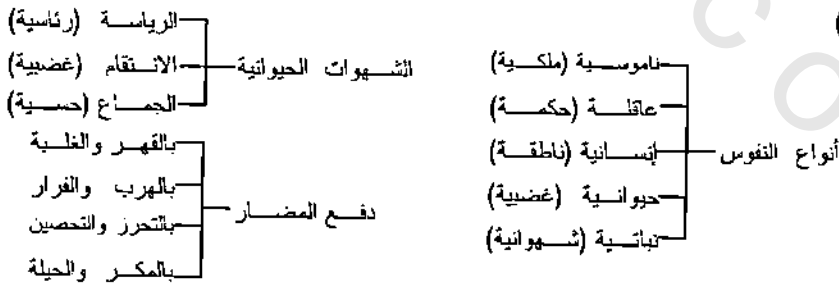
والإنسان خليفة الله في الأرض لتعميرها وسياستها تشبها بالله وريادة لعالم ما تحت القمر. فينال بذلك الخلود ويتحول إلى ملاك. والسياسات ضمن العلوم مثل الآداب والرياضيات والمعارف. وأنواع النفوس خمسة: نباتية شهوانية، وحيوانية غضبية،

(١) نسابق من ٣١٦/٩/١.

وإنسانية ناطقة، وعاقلة حكيمية، وناموسية ملكية. والشهوات الحيوانية ثلاث: حسية مثل الجماع وغضبية مثل الانتقام ورياسية مثل الرياسة. فلا تتم السياسة إلا برياسة. الرياسة صلاح الموجودات وبقائها على أفضل الحالات وأكمل الغايات. ويتم دفع المضار بالمكر والحيلة أو بالتحرز والتحصن أو بالهرب والفرار أو بالقهر والغلبة^(١).

ويقسم الاخوان المجتمع إلى أربع طبقات لا فرق في ذلك بين مجتمع الدنيا ومجتمع الآخرة، بين الناس والملائكة، بين الأرض والسماء، بين البشر والكون. فهي عالم واحد. الأولى المرتبة العليا للملائكة. يشاهدون الخلق عيانا ويقفون على أحوال الآخرة وهم في سن الخمسين. والثانية الملوك ذوو السلاطين وهم الفضلاء الكرام وهم في سن الأربعين. والثالثة الرؤساء ذوو السياسات، وهم الأخيار الفضلاء في سن الثلاثين. والرابعة ذوو الصنائع الأبرار الرحماء في سن الخامسة عشرة! وعبادة الله ليست بالشعائر وحدها بل بعمارة الأرض، وتحقيق منافع الإنسان والحيوان وإصلاح أمر الدنيا. وكل شئ جميل وفاضل بالنسبة للملوك والرؤساء مثل الموسيقى التي يغنى بها في مجالهم. والمَلِك والمَلَاك والمَلِك من نفس الاشتقاق. فتصور الله ملكا ينتهى إلى جعل الملك إلها. ويظل السؤال: هل الإله الملك هو الأساس والملك الإله هو القرع أم أن الملك الإله هو الأساس والإله الملك هو القرع؟ هل يتصور الله ملكا بناء على تصور الملك إنها أم يتصور الملك إلها بناء على تصور الله ملكا؟ هل الدين أصل والسياسة فرع استنباط أم السياسة أصل والدين فرع استقراء؟ وبلغة الشيعة أيهما مثل وأيهما ممثول،

(١)



في بيان الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها. ونكت من آداب الأنبياء وزيد من أخلاق الحكماء،
الرسائل ج ١/٩/٢٩٦-٣٨٩.

الدين أم السياسة؟ وهو نفس السؤال للفارابي في آراء أهل المدينة الفاضلة^(١).

والناس على ثمان طبقات اجتماعية من الأعلى إلى الأدنى: خلفاء أسرار أحكام الناموس وهم الأئمة المهديون والخلفاء الراشدين، وخلفاء الملك والرياسة في أمور الدنيا والتدبير والسياسة، والزهاد والعبادة وأنصار واضع الناموس وغزاة أعدائه، والمفسرون لألفاظ التنزيل والفقهاء والقضاة، وأصحاب الأخبار وحملة الأحاديث، وأخيرا القراء والحفظة^(٢).

ب- السياسة البدنية. ونقاس المدينة والمنزل على البدن عند الفارابي. فالبدن هو الأصل والمدينة والمنزل هي الفرع. البدن مؤتلف من أجزاء مختلفة محدودة العدد، بعضها أفضل وأحسن من بعض، متجاورة مرتبة. الكل منها فعل، وكلها تجتمع بالتعاون حتى يتحقق غرض البدن. كذلك يتألف المنزل والمدينة من أجزاء مختلفة محددة العدد بعضها أحسن من بعض وبعضها أفضل من بعض، متجاورة مرتبة. ويجتمع من الكل التعاون على تحقيق الغرض. المنزل جزء من المدينة. وتتكون المدينة من منازل تتعاون على الكمال. غرض المدينة قياسا على البدن. البطن والرأس والصدر والظهر واليدين والرجال منازل كالمدينة.

(١) السابق ص ٢/٥/١٢٥٠/١٢٧/٢١٨.

(٢) السابق ص ٢/٧/١٥٢-١٥٣.



وكما يعالج الطبيب كل عضو قياسا على جملة البدن والأعضاء المجاورة كذلك،
يدبر مدير المدينة كل جزء بالقياس إلى جملة المدينة دون إضرار بالكل. وكما يعالج
الطبيب العضو بحيث لا يضر بسائر الأعضاء كذلك يفعل رئيس المدينة. وإذا خشي
الطبيب على البدن من فساد عضو فانه يبتز، كذلك رئيس المدينة يقطع الأعضاء
الفاصلة حفاظا على صلاح الكل. ومع ذلك فان عدم الاضرار بالغير شرط الاستنباط في
الطب والمدينة. قد يستطيع الإنسان استنباط المتوسط في الأفعال والأخلاق بمفرده مثل
استنباطه للأغذية بمفرده. فالاستنباط في كلا الفعلين الطبي والمدنى واحد. ومع ذلك
يجب الاحتراس فيه من الأضرار بسائر البدن وإلا كان طبيا فاسدا، وكانت صناعة
المدينة فاسدة.

وتؤدى الأفعال المتوسطة المقدرة بالقياس إلى السعادة فى كلتا الحالتين. فكما أن
الصحة هدف الطبيب من العلاج فان السعادة هدف المدنى. السعادة للمدينة مثل الصحة
للبدن. وهناك توازى بين مرضى الأجسام ومرضى النفوس^(١).

ويتضمن هذا التحليل تصورا سكونيا للبدن والمجتمع. فالأجزاء مترتبة متجاورة
مع أن الأجزاء فى حركة عضوية متآزرة. كما يغلب عليه تصور المركز والمحيط أو
القمة والقاعدة لفهم وظائف البدن وطبقات المجتمع. فأعضاء البدن تتعاون فيما بينها فى
الفضل والخسة مع أنها كلها متساوية فى أداء الوظائف. مازال التصور الرأسى مسيطرا،
الأعلى والأدنى. ولو اختلف عضو خسيس فى وظيفة لاختلفت وظائف الأعضاء الفاضلة.
ومن ثم فهو فكر يعبر عن اقتضاء ومطلب، ما يجب وما ينبغى بالرغم من قياس الفرع
وهو المدينة على الأصل وهو الطب. ويررر الفارابى قطع اليد كما يبرر النفى والتغريب
والاستبعاد والتشريد والعزل والسجن والقتل حتى يصح البدن كله والمجتمع كله.

وعلم الطب مثل العلم المدنى، علم استنباطى يقوم على التحليل العقلى واستنباط
حد المتوسط والاعتدال فى الأفعال البدنية والمدينة وكأنا فى قياس منطقي شرطه

(١) الفارابى: فصول المدنى ص ٤١-٤٧/٤٤.

الاستغراق. المدينة الفاضلة تصور معيارى للمجتمع مثل الرئاسة الفاضلة التى يصح المجتمع بسببها دون أن يدخلها شئ من السياسات الجاهلة. فهى كلها أمراض تعرض للمدن الفاضلة ومن ثم يشبه العلم المبنى علم الطب فى حفظ الصحة وحماية البدن من التعرض لشئ من الأمراض. والعلم المبنى علم علاجى، والرئاسة علاجية. والمدينة الفاضلة المجتمع الصحيح، والمدينة الجاهلة المجتمع المريض. الطب علم مبنى، والعلم المبنى طب. كلاهما لعلاج البدن، بدن الفرد أم بدن المجتمع. هناك إذن تطابق أو توازى بين الطب والسياسة، بين عمل الطبيب وعمل الرئيس.

يعلم الطبيب أن الأضداد تقاوم بالأضداد. تقاوم الحرارة بالبرودة، وكل منهما أعم من الآخر. أعمها الأضداد التى تقاوم بالأضداد وأخصها الحمى الصفراوية التى تقاوم بماء الشعير أو التمرهذى. وأوسطها الحرارة التى تقاوم بالبرودة. وإذا ظهرت الأضداد فى الطب فلماذا لا تظهر فى المجتمع الذى يقوم على الانسجام والوئام والنظام الهرمى الأبدى الذى لا تصدع فيه ولا انشقاق؟ لا فرق بين جدل الطبيعة وجدل المجتمع، فمنطق الأضداد واحد. ولا يعالج الطبيب الأشخاص فردا فردا بل بناء على الكليات. والكليات كصفات تحتاج إلى كميات وهو الدواء. العلم كفى قبل أن يكون كميا^(١).

ويحتاج الطبيب إلى قوتين: القدرة على معرفة الكليات وهى قوانين العلم، والقدرة على معرفة الجزئيات، شخصا شخصا. وكما يستخرج الطبيب ويستنبط المتوسط والمعقول فى الأغذية والأدوية فى صناعة الطب فكذلك مدير المدن أو الملك يستخرج ويستنبط المتوسط المعتدل فى الأخلاق والأفعال. وهى الصناعة المنفية والمهنة الملكية. مهنة الملك مثل مهنة الطبيب. الملك بالمهنة الملكية وصناعة تدبير المدن اشتهاره بها، فى وقت وفى أى وقت وجود آلاتها وقومها وطاعتها. وكذلك الطبيب يكون طبيبا بالمهنة سواء عرفه الناس وله آلات ووجود قوم ينفذون إليه ومرضى يأتون أم لا. الملك بالمهنة والقدرة على الصناعة، تسلط أم له يتسلط سواء كان كريما أم غنيا أم فقيرا. الملك ملك

(١) الفارابى: الملة ص ٥٦-٦٥/٥٨، الفصول ص ٣٩.

بالطبيعة، ملك فى ذاته سواء كان متسلطا أو ممدوحا أو ملكا مجردا. ويشترط البعض الطاعة فى المدينة أو اليسار أو التسلط بالقهر والإذلال والترهيب والتخويف. والفارابى لا يشترط ذلك لأنها تابعة للجهة وليست شرطا لها^(١).

صلة الملك بالمدينة مثل صلة النفس بالبدن. وكما أن كمال البدن فى النفس فان كمال المدينة فى الملك. وكلاهما كالربان فى السفينة. البدن والمجتمع يخضعان لنفس البنية هى الرئاسة أو السلطة. والتشبيه ليس فقط فى الإلهيات بل فى الإنسانيات. كلاهما رئيس ومرؤوس، مخدوم وخادم، غاية ووسيلة. الاختلاف فقط فى اشتراك الاسم. السياسة واحدة للبدن والمجتمع^(٢).

والسؤال هو: هل هناك ملك فى ذاته دون شعب أو إله دون عالم؟ هل الملك الذى لا يطاع يكون ملكا؟ كيف يحكم الملك بلا آلات أى مؤسسات ووزراء؟ وكيف يكون ملكا فى كل الأوقات مدى الحياة كما يحدث هذه الأيام؟ أليست هذه صفات الله دون أفعاله؟ وهل هناك طبيب بلا مرضى وبلا آلات؟ إلى هذا الحد بلغ استغناء الرئيس عن المرؤوس مع أنهما متضايقان مثل الأب والابن، والزوج والزوجة، والكبير والصغير، والغنى والفقر.

يحتاج طبيب الأبدان إلى معرفة البدن، كل واحد من أجزائه وأمراضه وأعراضه وكما ووجه إزالتها، وهينات البدن التى بها يصح وتكمل الأجزاء. كذلك بعالج المدنى والملك الأنفس، ويعرف أسرار النفس وأجزائها، نقائصها وأردالها، عوارضها وكما، وهيناتها التى تتم بها الخيرات وكما، ووجه إزالة الرذائل عن البدن، ووسائل حفظها فى نفوس المدنين. وكما يعرف الطبيب من أمر البدن ما يلزم فى الصناعة يعرف من أمر النفس مقدار ما يلزم فى الصناعة.

فإذا كانت صحة البدن هى اعتدال المزاج، والمرض الانحراف عن الاعتدال كذلك أيضا صحة المدينة فى اعتدال أخلاق أهلها. ومرضاها هو التفاوت. وإذا كان الطبيب هو

(١) الفارابى: فصول ص ٤٩-٥٠.

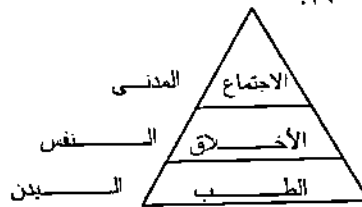
(٢) ابن سينا: أحوال النفس ص ٥١-٥٢/٩٥-١٢٥/١٢٦-١٤٠.

الذى يرد الاعتدال إلى المدينة يشترك الطبيب والمدنى فى الفعل، ويختلفان فى الموضوع. الأول البدن، والثانى النفس أى المجتمع. ولما كانت النفس أشرف من البدن فإن المدنى أشرف من الطبيب. موضوع الصحة فى الحالتين هو الاعتدال. والمرض هو التطرف.

وإذا كان الطبيب هو معالج الأبدان فالإنسان المدنى هو معالج الأنفس وهو الملك. الهدف من علاج الطبيب للأبدان جعلها مهيئة لأن تفعل به النفس خيرات أو سيئات، مجرد استعداد دون تدخل فى الخيرات أو السيئات، مجرد إعداد لآلة سواء كان للحسن أو للقيح. ثم يأتى المدنى بالصناعة المدنية، والملك بصناعة الملك بما ينبغى أن يفعل وفيه ينبغى مثل رئيس البناعين بالنسبة للبنائين. الأول علمى والثانى أخلاقى. الأول ما هو كائن. والثانى ما ينبغى أن يكون^(١).

واضح أن الطب علم كمى تشخيصى تشرىعى وظيفى. فإذا كان علم الطب هو علم الأبدان فإن العلم المدنى هو علم النفوس أى أنه علم الأخلاق أو علم النفس الاجتماعى. فالمدنى يشمل النفس والأخلاق والاجتماعى. الطب هو الأصل والمدنى هو الفرع فى القياس التمثيلى. والسؤال هو: هل الصحة اعتدال والمرض تطرف؟ إذا كان ذلك صحيحا فى الطب فهل التطرف الاجتماعى مرض؟ وماذا عن الثورات الاجتماعية التى قد يحكم عليها بأنها تطرف؟ هل كان الفارابى طبيبا وهو يتحدث عن الطب ويأخذه كمقياس للتشبيه؟ لقد رد على جالينوس دفاعا عن أرسطو ولكن فى إطار الفلسفة وليس فى إطار الطب. هل الطب ثقافة شعبية عامة، الأصل الذى تحتكم إليه السياسة والعلم المدنى؟ هل لذلك مصادر موروثة فى بعض الأحاديث التى تشبه المجتمع بالبدن وعلاج المجتمع بعلاج الأبدان؟

(١) الفارابى: فصول ص ٢٤ - ٢٦.



والمدينة الفاضلة مثل البدن التام الصحيح. وكما تتكاتف أعضاء البدن على سلامة الجسد كذلك الحال فى المدينة. وكما تتفاضل أعضاء البدن بالفطرة والقوى وبها عضو رئيسى هو القلب كذلك الحال فى المدينة. وكما تتفاوت أعضاء البدن فى مراتبها طبقا لقربها أو بعدها من الرئيس كذلك الآخر فى المدينة. وكما أن كل واحد فيها بالطبع قوة يفعل بها بالطبع غرض الرئيس كذلك الأمر فى المدينة. وهناك أعضاء أخرى تفعل حسب أغراضه وليس بينها وبين الرئيس واسطة تكون فى الرتبة الثانية حتى تصل إلى أعضاء تخدم ولا تروى أصلا طبقا لنظرية الفيض، الرئيس الذى لا يكون مروضاً لآخر من أعلى، والمروض الذى لا يكون رئيساً لأحد من أسفل. كذلك الأمر فى المدينة التى تتفاوت أجزاؤها بالفطرة وتتفاضل بالهيئة بها رئيس وآخرون يقتربون منه. وفى كل واحد هيئة وملكة يقضى بها غرض الرئيس وهم أولى المراتب الأولى. ودونهم من يحقق أغراضهم. وهؤلاء هم المرتبة الثانية إلى أن تنتهى إلى رتبة يخدمون ولا يخدمون، وهم أدنى المراتب.

الفرق بين البدن والمدينة هو أن أعضاء البدن طبيعية، وهيئات وملكات المدينة وإن كانت طبيعية إلا أنها إرادية. البدن ميدان الضرورة، والمدينة ميدان الحرية^(١). أجزاء المدينة مغطورة بالطبع بفطريات متفاضلة، يصلح بها إنسان لا شأن لشيء دون شيء ولكن ليس بناء على أجزاء المدينة الفطرية بل بالملكات الإرادية مثل الصناعات.

وكما أن أعضاء البدن التى تقترب من العضو الرئيس تقوم بأفعالها الطبيعية حسب غرض الرئيس الأول بالطبع بما هو شرف، وما دونها يقوم بأفعال أقل شرفاً إلى أن ينتهى إلى الأعضاء التى تقوم بالأفعال الأخس كذلك الأجزاء التى تقترب فى الرئاسة من رئيس المدينة تقوم بالأفعال الإرادية بما هو أشرف، ومن دونهم بما هو أقل شرفاً إلى أن ينتهى إلى الأجزاء التى تقوم بأخس الأفعال. وخسة الأفعال قد تكون خسة موضوعاتها أو عنايتها أو سهولتها. وربما يكون القيام بالأفعال الطبيعية بحسب غرض

(١) وهذا هو موقف اسبينوزا وكتط.

الرئيس تتناقضا وخطا بين مستوى الطبيعة ومستوى الغائية. والغاية فى الطبيعة هى الوظيفة. أما الغرض أو القصد فلا يكون إلا إنسانيا. كما أنه لا توجد وظائف أشرف ووظائف أخس سواء فى البدن أم فى المجتمع لعنائها أو لسهولةا. ولا فرق بين رئيس المدينة وزبالتها فى أداء الواجب إن لم يكن الزبال هو المحافظ على صحة الرئيس من الأوبئة والأمراض.

ومع ذلك هناك فرق واضح بين الرئيس والمدينة فى القياس. فإذا كان كل شئ فى البدن يحدث بالطبع فمن الداخل أما فى المدينة فمن الخارج أى غرض الرئيس إلا إذا كان الرئيس فى قلب المدينة داخل كل مواطن مثل الله.

فإذا كان للبدن والمدينة نفس النشأة والتكوين ابتداء من القلب والرئيس فهل يتكون الجسد ابتداء من القلب أى النطفة أو من الدماغ؟ وهل يتكون المجتمع من الرئيس أم من المرؤوسين، والرئاسة عقد وبيعة واختيار؟ وهل يجوز التشبيه بين عالمى الضرورة والاختيار، وقياس المجتمع على البدن؟

وتدخل العبارات الإنشائية مثل أنتم وأكمل وأفضل وأشرف فى وصف الطبيعة والمجتمع. فالعضو الرئيسى هو بالطبع أكمل الأعضاء وأتمها فى نفسه. وأفضل الأعضاء التى تشاركه. ودونه أعضاء أخرى رئيسية لما دونها ولكن رياستها دون رئاسة الأول وتحتة. وكذلك رئيس المدينة أكمل أجزائها فيما يخص وأفضل كل من شارك فيه غيره. ودونه مرؤوسون، ويرأسون آخرين. وهو حكم مطلق عام لا استثناء فيه، حكم مبدأ وليس وصفا لواقع. كما يتضح من تحليل العبارات أفعال "ينبغى" و"يجب" أى أن التحليل لما ينبغى أن يكون وليس لما هو كائن. فكما أن القلب يتكون أولا ثم يصبح هو السبب فى تكوين أعضاء البدن والسبب فى حصول قواها وترتيب مراتبها إذا اختل عضو منها كان هو المزيل لهذا الاختلال كذلك رئيس المدينة "ينبغى" أن يكون هو أولا ثم يصبح هو السبب فى حصول أجزاء المدينة والملكات الإرادية وترتيبها، وإن اختل فهو المسؤول عما يزيل اختلاله.

وربما يكون هذا التحليل كله تنظيرا غير مباشر لحديث مشهور يقوم على نفس القياس وتأويلا له عن طريق تحليل التجربة البشرية تكلم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، أو "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا".

ج- السياسة الكونية. ولما كان البدن أحد مراتب الفيض يدخل علم الطب كأحد موضوعات العلم المندى فى نظرية الفيض بعد الانتهاء من النزول من المراتب السماوية حتى النفس، ومن النفس إلى البدن قبل الدخول فى عالم الأسطوانات. قبل المدينة الفيض هو الأساس، والبدن مجرد مثال.

موضوع العلم المندى إذن هو الفيض وتراتب الموجودات. فلا فرق بين العلم المندى والعلم الإلهى. كلاهما علم واحد وموضوع واحد سواء فى الإلهيات أو فى المدينيات. وأحيانا يظهر الفيض بعد العلم المندى (الملة) وليس قبله (الآراء)، وكأن العلم المندى هو الأساس والإلهيات هى الفرع. فى هذه الحالة يدخل علم النفس وعلم الطب ثم العلم المندى نزولا فى نظرية الفيض كأحد مراتب الوجود فى العلم المندى من جديد. وبالتالي يتناول العلم المندى مراتب الوجود بمقاييس ثلاثة: الخدمة، والرياسة، والتوسط، ومعرفة المراتب كما وكيفا، ومعرفة درجات الكمال لكل منها، وارتقاء كل منها إلى الأخرى حتى الكمال المطلق والرياسة العليا. وتتحول الكثرة إلى وحدة حتى الوجود الواحد فى العدد والرياسة والفضيلة والكمال. هذا الواحد يدبر كل ما دونه ويرأسه. بداية الفيض بالرياسة التى ليست لها رياسة تخدمها. والنهاية بالرياسة الخادمة التى ليس لها مروض ترأسه، مرة صعود إلى الكمال ومرة نزولا إلى النقص، مرة تصفية للنفس، ومرة فيضا عليها، فى قسمة الوجود بين الواجب المطلق والسالب المطلق، من الوحدة إلى الكثرة نزولا، ومن الكثرة إلى الوحدة صعودا. الناس بالله صعودا واقتفاء آثاره فى تدبير العالم صعودا. الله قوة، غاية قصوى، الخير الأقصى. والسعادة فى الدنيا والآخرة، والآخرة خير وأبقى. الآخرة غاية الدنيا، والدنيا وسيلة لها. وتنتهى "الملة" وكأنها رسالة فى التصوف مثل آخر "الإشارات والتنبيهات" لابن سينا^(١).

(١) الفارابى: الملة ص ٦١-٦٦.

ويتحول التشابه بين البدن والمدينة إلى تشابه بينهما وبين الوجود ذاته. فالقياس واحد. ويتم الانتقال من البدن إلى المدينة إلى الوجود دون أى إحساس بالمستويات. التصور واحد، والرؤية واحدة وإن اختلف مستوى التطبيق وميدان التحقق. السبب الأول فى الموجودات مثل رئيس المدينة الفاضلة أو ملكها. ثم تأتى بعده الموجودات الثانوية البرية عن المادة، العقل أو النفس، ودونها الأجسام السماوية، ودونها الأجسام الهيولانية. وكلها تحنو السبب الأول وتتبعه. ويفعل ذلك كل موجود حسب قوته. كل يقتفى أثر غيره طبقا لمرتبته. الأحسن يتبع ما هو أعلى منه إلى أن ينتهى إلى الأول الذى تنتهى إليه كل الموجودات. وتتقل الموجودات من أدنى إلى أعلى. حركتها اقتفاؤها لغرضها. كذلك ينبغي أن تكون المدينة الفاضلة احتذاء أجزائها مقصد رئيسها الأول، والقياس على الموجودات هو مجرد عود للتذكير بأول آراء أهل المدينة الفاضلة عودا على بدأ مما يدل على أن الوجود هو الأصل، وأن المدينة والبدن فرعان له، وأن المستويات الثلاثة تحكمها نظرية الفيض، مرة فى الوجود، ومرة فى البدن، ومرة فى المدينة^(١).

وقد لاحظ إخوان الصفا من قبل هذا التقابل بين الكون والمدينة على نحو أسطورى من خلال الفلك وعالم الجن الذى يربط بين عالم الإنسان والعالم الطبيعى. ففى الرسالة الثانية عن "الحيوان" من القسم الثانى "الجسمانيات والطبيعات" تطيع الجن رؤساءها وملوكها لأبراز التقابل بين الجن والإنس، بين الطبيعة والمجتمع. للجن مطيعه كما تطيع الملائكة الله مثل طاعة الحواس النفس الناطقة يرازا للتقابل بين الطبيعة والجسد. والأدلة على طاعة الجن تسخير سليمان لها وذهاب الجن تعودا بالقرآن منها، والامتثال لأوامر الإنسان وسرعة الاستجابة. والإنس أسوء من الجن فى الطاعة وأقرب إلى العصيان. والدليل على ذلك أن طاعة الرؤساء خداع ومكر ونفاق وغرور وطلب العوض والأرزاق والمكافآت والخلع والمآرب والكرامات وإلا فالعصيان والخروج والعداوة والحرب والقتال والفساد فى الأرض. ومن مظاهر العصيان أيضا إنكار دعوة الأنبياء والأدلة الضرورية وطلب المعجزات عنادا أو نفاقا وشكا وارتيابا ومكرا وديلا

(١) الفارابى: آراء ص ٧٥-٧٦.

وغشاء وخيانة فى السرو العلانية، وغلظ الطباع ورداءة الحيلة، وسوء العادة والعمل، وتراكم الجهالات، وعى القلوب، وكذلك إدعاء الانس أنهم أرباب وغيرهم عبيد بلا حجة ولا برهان طلبا للرياسة^(١).

ثم يظهر التقابل بين الكواكب والمجتمع. فكلاهما بنية واحدة للرئاسة. الشمس ملك، والكواكب الجنود والأعوان والرعية، والمريخ صاحب الجيش، والمشتري القاضى، وزحل الخازن، وعطارد الوزير والزهرة الحرم، والقمر ولى العهد. وقد يكون السبب فى ذلك التشخيص الغالب على نفسية المضطهدين، تشخيص السماء كقوى فاعلة أقوى من البشر ونزع التحكم فى الأرض عن البشر إلى السماء كنوع من أيديولوجية التحرر. الحاكمية للسماء والعبودية للأرض. وكل ما يدور على الأرض محكوم بدوران الأفلاك. وأحوال الكواكب هى المتحكم فى أحوال الناس أفرادا وجماعات.

فى المريخ يكون الملك فظا غليظا شتاما بذينا. وفى زحل حقود لواما عسيرا بخيلا. وفى الشمس كثير الجماعات، وفى المشتري صدوقا وفيا وعالما، وفى عطارد مفكرا داهية وأديبا، وفى الزهرة كثيرة الأموال، وفى القمر جريئا.

كما يشير كل كوكب إلى أحد مظاهر الدولة، الشمس للخلفاء، المشتري لولاة العهد، المريخ لأصحاب التنور، زحل للفهامة جمع فهران وهو مستشار الملك ومدير ملكه، عطارد للوزراء والكتاب، القمر للعمال، الزهرة للنقاد.

والسؤال هو: ما العلاقة بين البرج والصفة ؟ معظم الصفات شخصية فردية مثل شروط الأمانة. ألا يوجد إصلاح فى الأرض إلا إذا توافر البرج فى السماء؟ وهل تتدخل الشمس أو القمر لزلزلة السلطان القائم وإيجاد نظام جديد؟ هل الطبيعة الحتمية أقوى من حرية البشر؟ وهل يجوز تنوير الناس بالغيب والأساطير مثل الصهيونية والنازية حاليا أم بالعمل والتحليل الاجتماعى لأسباب الظلم والقهر؟ متى تكون السياسة موضوعا لعلم السياسة وليست خاصة لأحكام النجوم؟ يحتاج الملوك إلى منجمين عندما تتحكم الدروشة

(١) فى بيان حسن طاعة الجن لروسائها وملوكها جـ ٢/٨/٣٠٦-٣٠٩.

فى السىاسة كما هو الحال عند بعض رؤساء العصر. إنما يكشف التحليل عن الواقع السياسى وسوء الأحوال السياسية وعلاقة الحاكم بالمحكوم والراعى بالرعية.

والحقيقة أن العكس هو الصحيح. لا يحدث شئ فى السماء إلا إذا حدث على الأرض أولاً طبقاً لقانون الاستحقاق والمسؤولين على الأعمال ضد علم النجوم. الضائع هو الذى فى حاجة إلى أن يتمسك بشئ فيجد الأفلاك فإنها بعيدة عن السلطان لم يستول عليها بعد. وهى أقوى منه قريبة من الله. لا يمكن فهمها ويجهلها السلطان. ولا يمكن مراجعتها. ضرورة علم أحكام النجوم فى السماء لأحكام السلطان فى الأرض. ومن يقوم بالتدبير ليس الملك ولا الامام بل الخليفة المؤيد بالملائكة مثل تأييد سليمان وتسخير الجن والطير وتأييد موسى ومحمد وكأنه لابد من تأييد خارجى. والسؤال هو: هل كان محمد مؤيداً من الخارج مثل موسى وداود أم تأييداً داخلياً، قوة الفكر والسلوك الرشيد ؟ هل استعمل الإسلام الخرافات مثل المراحل السابقة أم أحدث تغييراً نوعياً فى طبيعة الوحي^(١)؟

وهذا ما سماه الشيعة بعد ذلك علم الميزان عند حميد الدين الكرمانى، وحدة النظام فى نطاق ضرورة الطبيعة وحرية الإنسان. ويشمل التقابل بين عالم السماء وعالم الأرض

(١) جـ ٤/ ١١/ ٣١٧ - ٣٢٢/ ٣٢٤ - ٣٧٠/ ٣٧٤

الطبيعة	المجتمع السياسى
الشمس	الملك
الكواكب	الجنود والأعوان والرعية
المريخ	صاحب الجيش
المشتري	القاضى
زحل	الخازن
عطارد	الوزير والكاتب
الزهرة	الخدم والجوارى
القمر	ولى العهد

الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية على حد سواء. فحركة الأبراج سبب تكون الأقاليم وطباع الرجل بينه وبين نفسه خلقه وطباعه وسجاياه وأمواله النفسية بينه وبين الآخرين، أهل منزله، ورفاقه وعشيرته وقومه^(١). بل إن حركات الأفلاك والبروج في الزمان مثل

(١)	الكونيات	السياسيات
	الأخلاق	الأقاليم
	البروج	البلدان والسودان والحدود
	الوجوه	المدن
	الدرجات	القرى
	النفائق	المحال والأسواق
	الثواني	المنازل والدكاكين
	الكواكب في البروج	الأرداج في الأجساد
	الكوكب في بيته	الرجل في بيته وعشيرته
	الكوكب في شرفه	الرجل في عزه وسلطانه
	الكوكب في مثله	الرجل في منزله أو دكانه أو ضيعته
	الكوكب في وجهه	الرجل في زيه ولباسه
	الكوكب في حده	الرجل في خلقه وسجيته
	الكوكب في أوجهه	الرجل في أعلى مرتبته
	الكوكب في حيزه	الرجل في حاله اللانقة به وفي أصحابه ورفاقه
	الكوكب في وباله	الرجل المختلف (المتردد) المدير
	الكوكب في غير حيزه	الرجل في حال منكر
	الكوكب في برج لاحظ له فيه	الرجل الغريب في بلدة غريبة
	الكوكب في هبوطه	الرجل الذليل المهين
	الكوكب في حضيبضه	الوضع الحال الساقطة عن مرتبته
	الكوكب تحت الشعاع	الرجل المحبوس
	المحترق	المريض
	الواقف	المتميز في أمره
	الراجع	العاصي المخالف
	السريع السير	المقبل الصحيح
	البطيء السير	الضعيف الذاهب القوة

وجود الإنسان فى الزمان حتى أنه ليصعب التفرقة أيهما أصل وأيهما فرع إسقاطا من أعلى إلى أسفل أم إسقاطا من أسفل إلى أعلى، تمثل أم اغتراب، وجود شرعى فى العالم أم وجود مغترب خارج العالم؟ ومن وصف أحوال الإنسان يتضح الموقف النفسى والاجتماعى والسياسى سلبا مثل الغريب الذليل الميهين الوضيع الساقط المحبوس المريض المتحير الضعيف الهرم الهارب الخائف الوجل الكاره أو إيجابا فى عزه وسلطانه، فى خلقه وسجيته فى حاله اللاتقة، المقبل الصحيح، القاضى وطره، الحاضر المستعد المحارب المبارز المنازع العامل الواد الموقف المحب وهو الأقل^(١).

الرجل النشط	الكوكب فى التشريق
الرجل الهرم	الكوكب فى التغريب
الطالع الذهاب نحو حاجته	الناظر
قاضى وطره	المتصرف
القرينان من الناس	المقتربات من الكواكب
للرجل الحاضر للشيء الحاصل فيه	الكوكب فى الوند
الجائى المنتظر	مانئ الوند
الذهاب أو الغائب	الزائل
المولود فى الظهور أو الشيء فى الكون	الكوكب فى الطالع
المنتظر الذى سيكون	الكوكب فى الثانى
الذهاب إلى لقاء الاخوان	الكوكب فى الثالث
الرجل فى دار آياته أو الشيء فى معنفه	الكوكب فى الرابع
الرجل المستعد للتجارة أو الفرحان بما يرجو	الكوكب فى الخامس
الهارب المنهزم المتعوب	الكوكب فى السادس
المبارز المنازع المحارب	الكوكب فى السابع
الخائف الوجل	الكوكب فى الثامن
المسافر الوحيد من الوطن الزائل من سلطانه	الكوكب فى التاسع
الرجل فى عمله وسلطانه المعروف المشهور به	الكوكب فى العاشر
الواد الموافق المحب	الكوكب فى الحادى عشر
المحبوس الكاره لموضعه الميغض لما هو فيه	الكوكب فى الثانى عشر

(١) الرسائل جـ ١/٣/١٥١-١٥٢.

رابعاً: السلطة السياسية

والسلطة السياسية هو قلب علم السياسة الذى قارب تجاوز الأخلاق السياسية إلى السلطة فى المجتمع ورئاسة المدينة سواء الملك الفيلسوف أو الخليفة أو الأمام أو النبوة فى المجتمع كوظيفة تشريعية.

الرئاسة فى الفضيلة تشخص وتصبح رئاسة فى المدن. والبنية واحدة، القمة والقاعدة. ولما كانت الفضائل الفكرية أكمل الفضائل الخلقية كانت أعظم رئاسة وقوة لأنها أعم للبشر جميعاً وأبقى فى التاريخ، وهى الفضيلة الرئاسية. والفضائل الأعم والأبقى أعظم رئاسة. وكلما كانت الفضائل المشتركة بين الأمم أو أمة أو مدينة فى مدة أطول كانت أكمل رئاسة وأعظم قوة، تتلوها الفضائل فى مدة أقصر. فهل تعظم الرئاسة وتشد قوة بالفضائل الخاصة أم بالفضائل العامة، بالدفاع عن المصلحة الخاصة أم عن المصلحة العامة؟ هل الرئاسة أنانية بالضرورة تعتنى بمصالح المجموع من أجل مصلحة الفرد؟ وكما أن للفضائل ترتيباً ابتداءً من الفضيلة الكاملة إلى ما هو أقل منها كذلك الصناعات لها رئاسة فى الصناعة الرئيسية وغيرها أقل منها. ويكون السؤال: هل الرئاسة استتباط الفضيلة من النفس؟

وتختلف الموازين باختلاف الموقع من السلطة رئيساً أو مروبساً. فالتحليل السياسى أساس التحليل الأخلاقى. إذ يختلف صاحب الخلق المحمود والضابط لنفسه من حيث الاستحقاق. الأول أفضل من الثانى إذا كان مديراً للمدينة أى الرئيس. أما الإنسان فهو أفضل من الطبيعى لأنه يستحق فضيلة الاجتهاد. وإن هفا هفوة فإن الرئيس يؤمه ولا يعدو إثمه. أما صلاح الرئيس فعام إن هفا فسد الناس. فيجب أن تكون الفضائل فى طباعها ويكفيه ثواب التقويم. وينتهى الفارابى إلى أن الناس على دين ملوكهم، وأن الرئيس لا يحتاج إلى ضبط النفس لأنه فاضل بالطبع، وأن ضبط النفس والصراع معها للعامه، وأن الرئيس يقوم العامة وله ثواب على ذلك، وأن على الشعوب وصايا، وما أسهل على الطاغية أن يدعى الكمال^(١).

(١) الفارابى: فصول ص ٣٥/٥٦، الفقرات ١٥-١٦/٢١.

والقياس بين العامة والخاصة هي الرئاسة، الرياسة الفكرية أو الرياسة الصناعية. الرئيس هو أخص الخواص. وهو ليس فقط بل كل من يقوم مقامه، غاية أو فضيلة. قد يقوم مقام الرئيس من ينوب عنه ويفوض بدلا منه وذلك بشرطين. الأول أن يكون علمه من تلقاء نفسه، وهنا يتم تغليب الطبيعة على الإرادة، والاكتساب على الإلهام. والثاني أن يكون الرئيس أرشده إليه وحمله عليه وهنا يتم تغليب التعليم والإرشاد من الخارج.

وقد يوجد ملوك ورؤساء في وقت واحد في جماعة أو في مدينة واحدة أو في أمة واحدة أو في أمم كثيرة تكون جماعتهم لملك واحد نظرا لوحدة الهدف والغرض والإرادة والسيرة. فالكثرة في الوحدة.

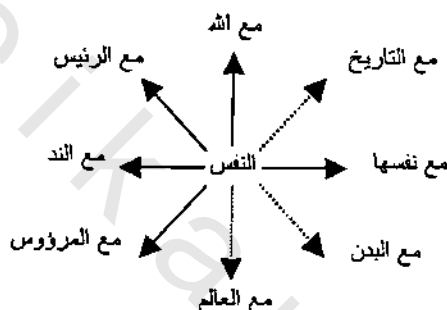
والسؤال هو: هل يمكن أن يعرف الإنسان من تلقاء نفسه أنه نائب الرئيس أو أن يرشد نائبه كي ينوب عنه أم أن الواقع يفرض عادة أن يتقلب نائب الرئيس على الرئيس ويحزحه بانقلاب وسفك دماء حتى يصبح هو الرئيس الأول أو سلما بعد وفاة الرئيس وتغيير سياسته من نائب الرئيس بعد أن أصبح رئيسا.

الرياسة ضرورة للجماعة. قد تكون فردية أو جماعية. وقد ترجع ضرورتها لتنظير الموروث "لو كنتم ثلاثة فأمرؤا عليكم واحدا". يركز أهل السنة على المؤسسات في حين يركز الشيعة على الامام. وكلاهما سواء في السلطة.

وهي نوعان: الأول جسداني مثل رياسة الملوك والجبابة الذين ليس لهم سلطان إلا على الأجسام بالقهر والغلبة والجور والظلم استعبادا للناس واستخدامهم قهرا في إصلاح أمور الدنيا وشهواتها والغرور بلذاتها. والثاني روحاني، رياسة أصحاب الشرائع الذين يملكون النفوس والأرواح بالعدل والإحسان، ويستخدمونها في الملل والشرائع لحفظها وإقامة السنن والتعبد بالإخلاص والتأله برقة القلوب واليقين بنيل الثواب والفوز والسعادة في المعاد^(١). وهل الرياسة الجسمانية تقوم بالضرورة على القهر والغلبة والتسلط والجور وتنتهي إلى السقوط في حين أن السياسة الروحانية تنتهي بالضرورة إلى المعاد أي إلى القيام والنهوض؟

(١) إخوان الصفا: الرسائل ج٤-٦/١٢٥/١٢٧.

١- الأخلاق الرئاسية. والعلاقة مع الآخر جزء من العلاقة مع النفس ومع الله، الآخر المطلق. لذلك ميز الفارابي بين خمس علاقات مع الآخر ابتداء من معرفة الخالق، ونهاية بمعرفة النفس، وتوسطاً بالعلاقة بين الرئيس والند والمرؤوس. وهو ما يبدو غريباً بالنسبة للفلسفة الإشرافية التي تبدأ بمعرفة النفس ثم معرفة الله. فانه رئيس الرؤساء. ولما كان الله والنفس يمثلان الأعلى والأدنى فقد تمت صياغة العلاقات مع الآخر على هذا النحو^(١).



وتغيب علاقة النفس مع البدن ومع العالم. فالإنسان موجود في العالم. كما تغيب علاقة النفس مع التاريخ والماضي وبالتالي مع المستقبل. فالإنسان أيضاً موجود تاريخي. أولاً، لمعرفة الخالق أي علاقة النفس مع الله الأولوية على باقي العلاقات الأربعة مما يدل على أهمية البعد الديني في الأخلاق الاجتماعية عند الفارابي. فمعرفة الخالق وما يجب لعزته سياسة أخلاقية تقوم أولاً على الالهيات كالعادة. الله هو البداية الأولى في الدين، مصادره أو مسلمة في الأخلاق والاجتماع والسياسة^(٢). وبالتالي يتحول علم

(١) يميز الفارابي في "السياسة المدنية" بين خمس علاقات معرفية كالآتي:

- أ - معرفة الخالق وما يجب لعزته
- ب - معرفة ما ينبغي أن يستعمل المرأ مع رؤسائه.
- ج - معرفة ما ينبغي للمرأ أن يستعمله مع أكفائه د - معرفة ما ينبغي أن يستعمله المرأ مع من دونه.
- هـ - في سياسة المرأ مع نفسه، الفارابي السياسة المدنية ص ٣٤.

(٢) وذلك بمعنى Aixom في علم المنطق الحديث.

أصول الدين إلى علوم الحكمة. وتتحول نظرية الذات والصفات والأفعال الأشعرية في العقلية، والسمعيات في المعاد إلى تصورات فلسفية عامة للكون، الله والعالم والإنسان عبر الاعتزال، التوحيد والعدل. الحكمة هو تحول من الكلام الأشعرى إلى الكلام الاعتزالي باسم الفلسفة.

وبتأمل الموجودات كما هو الحال في الطبيعيات في علم الكلام وفي علوم الحكمة يثبت وجود الله بدليل بعدى، "فيزيقي" غائى، هو دليل العلية. وهو دليل يقوم على الاستقراء. الفكر الفلسفى مثل الفكر الكلامي يتصور دليل العلية على نحو طولى تصاعدى، لكل معلول علة حتى الوصول إلى علة أولى ليست معلولاً لغيرها. وهي طبيعة الفكر الدينى. فى حين أن الفكر العلمى يتصور العلاقة بين العلة والمعلول على نحو دائرى، لكل معلولة علة ولكل علة معلول هي نفس العلة. الماء من السحاب نزولاً، والسحاب من الماء صعوداً دون ما حاجة إلى ماء أول أو سحاب أول. وهو ما سماه الفارابى "على سبيل الدور".

وبعد إثبات الذات تأتى الصفات التى تثبت عن طريق قياس الغائب على الشاهد. تبدأ المعرفة بشهادة الحواس ثم بأحكام العقل. تؤدى شهادة الحس والنظر في الموجودات إلى نوعين منها نوع فاضل ونوع خسيس. ويستعمل الفاضل في الوصف. فأصدار الأحكام على الصفات عملية إنسانية صرفة، قياس الغائب على الشاهد مع فعل تطهري، إعطاء الغائب أكثر الفضل والعالم أقله، إطلاق الغائب في مقابل نسبية الشاهد في الصفات، وتبرأة الآخر واتهام النفس في الأفعال. وهو موقف إنسانى بطولى، يعطى أكثر مما يأخذ، يعبر عن سلم القيم، التضحية بالأقل في سبيل الأكثر. الله موجود وليس معدوماً. حى وليس ميتاً، عالم وليس جاهلاً. الدين ينشأ في الشعور على أسس أخلاقية، وبالتالي يفسر الدين بالعودة إلى أصله في الأخلاق. لذلك يقترن قياس الغائب على الشاهد، وهو قياس معرفى تصورى، ببرهان الأليق والأجدر. هو برهان الأولى في التنزيه وهو معنى القول المأثور "كل ما خطر ببالك فانه خلاف ذلك". النصف الأول من القول تقريرى وصفى، يقوم على قياس الغائب على الشاهد. والثانى تطهري ناف يقوم على

الاستبعاد المطلق، والإبقاء على التعالى. الأول إيجاب والثاني سلب. الأول وضع والثاني نفى، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الخلف، أى "محلك سر" وعدم قول شيء، إثبات شيء ونفى ضده، هوية صورية فارغة. مثل هذه الأقوال مجرد تمرينات عقلية يمكن استعمالها مع باقى الأوصاف وبنفس الطريقة لتفسير نشأة الأحكام بإرجاعها إلى مصدرها. فهي تعبر عن الذات ولا تصف الموضوع. وما يقال فى الوجود والعلم والحياة يقال فى باقى الصفات. فإذا كانت الأحكام على الله إنسانية خالصة بناء على إمكانيات المعرفة فمن الطبيعى إذن التوجه مباشرة إلى العلم المدنى والعلم السياسى دون تغطيته بالإلهيات واستبطان الإنسانية منها، والعودة بها إلى تأسيس علم الأخلاق^(١).

وبعد التوحيد يأتى القول ابتداء من حرية الاختيار ثم الحسن والقبح العقليين كما هو الحال عند المعتزلة. فالإعتزال هو المرحلة المتوسطة فى التحول من الكلام الأشعرى إلى علوم الحكمة. والفلاسفة استئناف لدور المعتزلة فى التحول من الله إلى الإنسان، ومن النقل إلى العقل، ومن الإلهيات إلى الإنسانية.

ويؤدى تأمل العالم إلى أن العالم الإنسانى أفضل له لأنه ذو نفس. ويكتشف الإنسان نفسه أنه إرادة واختيار ثم روية وتمييز، "أنا حر فأنا إذن موجود" و"أنا موجود إذن أنا عاقل". فإثبات الحرية يسبق إثبات العقل، يتفرد الإنسان عن الله بالحرية. ثم يتفرد الإنسان عن باقى الموجودات بالعقل الذى يأتى مسانداً للحرية حتى تكون الحرية رشيدة عاقلة. الكوجيتو الفلسفى عملى أولاً ونظري ثانياً على عكس الكوجيتو "الديكارتى" نظرى

(١) ولما لم يقدر الإنسان على معرفة ماء سوى ما شاهده بحواسه وفهمه بعقله مما شاهده لم يجد بدا من وصف البارى الذى هو سبب الأسباب والعبارة عنه بما وجد السبيل إليه من الألفاظ والأوصاف. فلما أراد العبارة عنه والوصف له، وعلم أنه لا يلحقه شيء من جميع الأوصاف التى شاهدها وعلمها لتفرد بذاته ولأنه نزه عن كل ما أحسه وعرفه لم يجد طريقاً آخر من أن ينظر فى الموجودات التى لديه. فإذا تأملها وجدها صنفين فاضلاً وخسيساً، ووجد الأليق والأجتر بسبب الأسباب الواحد الحق أن يطلق عليه من كل الصنفين أفضلهما مثل أنه رأى الموجود والمعدوم، وعلم أن الموجود أفضل من المعدوم فأطلق القول عليه وقال: إنه موجود. ورأى الحى وغير الحى وعلم أن الحى أفضل من غير الحى فأطلق القول عليه وقال: إنه حى. الفارابى: تحصيل السعادة ص ٢١-٢٢.

أولاً "أنا أفكر فأنا إذن موجود" وعملى ثانياً "الإرادة أوسع نطاقاً من الذهن". وهو سبب الخطأ. فالحرية والعقل شرطاً للإنسان الفاضل. والطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً ليس من أرسطو بل من «ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه». الله واهب الطبيعة وأعطى الإنسان اختياراً وروية، وأهلها للعدل والإتقان.

ولما تفاوت الناس فى استعمال الحرية وإعمال العقل أرسل الله إليهم رسولاً ليبلغهم بما ينفعهم فى العدل. فالنبوة نتيجة للحرية وأحد مستلزماتها مثل العقل لخط دفاع ثانى عند من لا يحسن استخدام العقل.

ولما تفاوت الناس فى الأفعال فإنهم يتفاوتون فى الاستحقاق والاستحقاق طبيعى وعقلى. وينطبق على الأفعال الإرادية وليس على الأفعال العضوية، الأعمال بالنية والقصد وليست الأعمال العفوية اللامقصودة^(١).

ولا حرج من استعمال لفظ الطبقة أو الطائفة. فهناك ثلاث طبقات: العليا والدنيا والمتوسطة. والسلوك الأخلاقى سلوك اجتماعى، والسلوك الاجتماعى أخلاق الطبقة. يستعمل الفارابى منهج التأمل فى النفس وقلب النظرة من الخارج إلى الداخل، ففى الإنسان تكمن الحقيقة. ويكتشف الأخلاق الاجتماعية والتكوين الطبقي للمجتمع، الطبقات العليا والدنيا والمتوسطة ويسمىها المتكافئة، الملوك والرعايا والموظفون. فالملك لا يرى من هو أعلى منه وتحتة طبقتان. والصعلوك بتعبير الفارابى ليس هناك من هو أدنى منه فوقه طبقتان. والطبقة المتكافئة تحتها طبقة وفوقها طبقة. وكل طبقة محددة فى طبقتها دون حراك اجتماعى. لا يصبح الملك ند أو صعلوك. ولا يكون الصعلوك ملكاً أو موظفاً من الطبقة المتوسطة. ولا يكون الموظف أهلاً لأن يصبح ملكاً ولا أن ينزل صعلوكاً على مستوى الرعية.

(١) الفارابى: السياسة المدنية ص ٢١-٢٣. والحكماء مثل اسبينوزا يثبتون الحتمية فى الطبيعة والحرية فى الإنسان.

كما يستعمل الفارابى منهج التأمل فى أحوال الناس وأعمالهم ليكتشف علم السياسة وملاحظة تعرفاتهم والتعرف علم أسبابها ومحاسنها ومساوئها، النافع والضار منها، والتمسك بالمحاسن والتخلّى عن المساوئ، ونيل المنافع وترك المضار. السياسة علم عملى يهدف إلى تحقيق غاية عملية. فإذا كانت الأخلاق تحليلاً نظرياً فإن السياسة تطبيق عملى. هنا يبدو الفارابى متشابهاً. فالأخلاق معيارية تضع ما ينبغى أن يكون وهى فى نفس الوقت تقريرية، تصف ما هو كائن فى الأخلاق التطبيقية.

والغاية من ذلك كله حسن المعاش، وتجنب الآفات واستقامة الأحوال ونيل السعادات. فالأخلاق تقوم على ثنائية متطهرة حادة بين النفس والبدن، الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، الحسن والقبح، النافع والضار، اللذيق والمؤلم. هو نوع من أخلاق الحرب تقوم على مجاهدة النفس حتى تتغلب الفضيلة على الرذيلة، والخير على الشر، والنفس على البدن، والحسن على القبح، والنافع على الضار، واللذيق على المؤلم. الحرب ليست فى الخارج بل فى الداخل. والجهاد مع النفس وليس مع العدو طبقاً للحديث المشهور الذى يميز بين الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس، والأصغر وهو جهاد العدو طبقاً للحديث الشهير والذى يشكك بعض المصلحين فى صحته^(١). فهى أقرب إلى الأخلاق الصوفية مجاهدة النفس ورياضتها، والتوبة وشروطها. وهو ما ينفق مع الأخلاق التكليفية بين القطبين المطلقين، الواجب والحرام أو النسبيين المندوب والمكروه أو الطبيعى فى المباح.

وواضح أن الغاية من الأخلاق الاجتماعية تهذيب النفس ورياضتها وليس تغيير الواقع طبقاً للمبدأ الأخلاقى الاجتماعى الشهير المستمد من الآية القرآنية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيِرَ قَوْمًا بِأَنفُسِهِمْ﴾. وهى أخلاق واضحة وسهلة تغفل أخلاق الاشتباه ولا توضح مقياس المذموم والمدح، العقل أو المنفعة أو المصالح العامة.

(١) أبو الأعلى المودودى، حسن البناء، سيد قطب: الجهاد فى سبيل الله، دار الأنصار، القاهرة (د. ت.).

ثانياً ما ينبغي أن يستعمله المرء مع رؤسائه تطبيق لما ينبغي أن يفعله مع الله. فالرئاسة واحدة، رئاسة الله للعالم، والملك للدولة، وصاحب العمل للعمال، والمدير للموظفين، والأب للأسرة. هنا تتداخل المستويات الدينية والسياسية والاقتصادية والإدارية الاجتماعية بصرف النظر عن أيها الأصل وأيها الفرع. هل الرئاسة أولاً لله ثم تستبسط منها الرياسات الأخرى، من المطلق إلى النسبي نزولاً أم أنها أولاً للمجتمع ثم تستقري منه صعوداً من النسبي إلى المطلق قياساً للغائب على الشاهد ؟

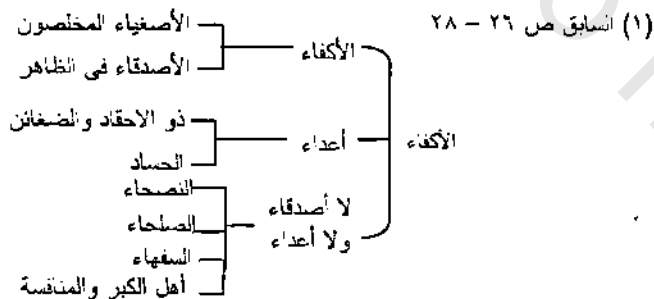
والإنسان مع رؤسائه إما أن يكون خادماً له طول الوقت أو بعض الوقت أولاً يلقاه إلا بالذكر نظراً لبعده. فما يحدد علاقة الإنسان برؤسائه الزمان والمكان، القرب والبعد. إذا كان خادماً له طول الوقت يكون ملازماً له، مواظباً على ما فوض إليه دون ملل أو مدح أو تقريظ يؤدي إلى النفاق أو التزلف، وتزيين الحق باطلاً والباطل حقاً، بالرغم مما في طباع الناس من ميل إلى مدح الرؤساء. وإذا فوض إليه التدبير كوزير أو مشير أو معلم فعليه تعريفه بوجه الصلاح في الأعمال. فالسلطة عمياء كالسيل المنحدرة من الرتبة تغرق كل شيء كما هو الحال في الطغيان أو يستفيد منه الناس بالسدود والقنوت كما هو الحال في الشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون الاتيان بمنكر أعظم. ومن واجبه كتمان السر، وعدم البوح بأسرار الدولة، والحيلة من غضب الرؤساء. ويتفرد الرؤساء بالهم واستعباد الناس. فهم على صواب دائماً لكنثرة مدح الناس لهم وأطرائهم لأفعالهم طبقاً لطباع البشر. والأفضل الصراحة والنصح، ورعاية مصالح الناس، والجهر بالرأي. فالساكت عن الحق شيطان أخرس. ومن الواجب حيلة الرئيس. وهو لا يخشى لو كان عادلاً يحقق مصالح الناس. وعليه تحمل أخطاء الرئيس وأفعاله القبيحة أي استعمال النفس ككبش الفداء. الكل فداء الرئيس. لا يحاسب الرئيس لأنه مبرأ من الخطأ، كامل الأوصاف، الإنسان الكامل نموذج الله^(١). وعليه التلطف في نيل المنافع من جهة الرؤساء بعدم اللج في السؤال أو دواحه أو إظهار الطمع، وطلب أسباب المنافع لا المنافع ذاتها أي العمل وليس الحسنة، والانتفاع بالرئيس وليس منه

(١) الغارابي: السياسة المدنية ص ٢٣ - ٢٦

لتحقيق المصالح العامة وليس المكاسب الشخصية. وعليه التضحية بالنفس وبكل شخص في سبيل الرئيس. وكل خير فمن الرئيس وليس من النفس، وكل شر من النفس وليس من الرئيس مثل الله، الخير منه والشر من البشر ﴿ ما أصابك من خير فمن الله وما أصيبك من مصيبة فمن نفسك ﴾ تبرئة الآخر واتهام النفس وعليه عدم أخذ شيء من سمات الرئاسة وإلا عرض نفسه للهلاك، فتستحيل مراكز القوى أو المنافسة على الرئاسة، وعدم الاستغناء عن الرئيس، والافتناع بكل ما يفعله، وعدم الشكوى منه حتى ما يسخط الإنسان عليه، وعدم إظهار العداء له أو الحقد عليه. كل الذنوب من النفس وليس من الرئيس". فهذه قوانين ينتفع باستعمالها في معايشة الرؤساء".

والسؤال هو: هل يجوز حجب الحقائق عن الناس؟ وماذا عن دور الإعلام في توعية الجماهير وتبصيرها بعواقب الأمور وإلا سرت الشائعات والتكهنات وحصل الناس على الحقائق من مصادر أخرى فتتشأ أزمة ثقة بين الحاكم والمحكوم؟ ولماذا الحيطة من عدم إغضاب الرؤساء؟ أليس الساكت عن الحق شيطاناً أخرس، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن أعظم شهادة كلمة حق في مواجهة حاكم جائر؟ ولماذا البدء بتعبد الرؤساء، والتفكير من أعلى؟ أليس ذلك تشريعاً للطغيان؟ إلا يجعل ذلك سلوك أهل المدينة قائماً على التملق والنفاق؟

ثالثاً، ما ينبغي للمرء أن يستعمله مع أكفائه. والأكفاء ثلاثة أنواع: الأصدقاء، مخلصون أو في الظاهر، والأعداء ذو الأحقاد والضغائن أو الحساد، ولا أصدقاء ولا أعداء، أهل الكبر والمنافسة أو السفهاء، أو الصلحاء أو النصحاء^(١).



يجب على الإنسان ملاطفة الأصدقاء المخلصين والاكثار منهم، فلا فائدة من صداقة ضعيفة، ومجاملتهم في الظاهر دون إطلاعهم على الأسرار والعيوب وخواص الأفعال والأحوال والنعم وأسباب المنافع، واستمالتهم والصبر معهم بحسب الظاهر دون أخذهم على الباطل، وعدم أخذهم بالتقصير. لا يقطع غيابهم ولا يجازهم فقد يرجى صلاحهم. كما يجب ضرورة تعهد الأصدقاء عند الحاجة والفاقة ومواساتهم من غير إحراجهم إلى المسألة، وتقصد أقاربهم وعائلاتهم إذا ماتوا، وكثرة التصدق عليهم بالرغم مما قد يثير ذلك من شبهة أخلاق التجار.

أما الأعداء فيجب على الإنسان الاحتراس من ذوى الاحقاد والضعائين، ومعرفة أحوالهم، وتقويت مؤامراتهم وكثرة الشكاية منهم إلى الرؤساء، والتشهير بهم حتى يأخذ الناس خذرم، وإهلاكهم، فإذا لم يتيقن من إهلاك العدو فلا يسرع حتى لا يتخذ ذلك العدو ذريعة. أما الأعداء والحساد فيجب غيظهم وإذاؤهم بذكر النعم التى يختص بها والاحتراز عن دسائسهم.

أما من ليسوا أصدقاء ولا أعداء مثل النصحاء فيجب الاستمالة إليهم دون الاعتزاز بأقوالهم أو التعجل بقبولها أو العمل قبل أن يتم فحصها. ويجب مدح الصلحاء الذين يتبرعون بالإصلاح بين الناس، ومدحهم على فعلهم والتشبيه بهم. ويجب استعمال الحلم مع السفهاء واللامبالاة معهم حتى لا يؤذه، ويقابل سفههم بقلة الأكرأث. ويجب مقابلة أهل الكبر والمنافسة بمثله. فالتواضع معهم ضعف وثقة منهم بأنفسهم. فالتكبر عليهم يثنيهم عن عزمهم وكبرهن. ولا يقل الحديد إلا الحديد.

وهذه كلها نصائح ظنية، لا تصلح فى كل المواقف. تقوم على الفائدة والمصلحة وتجنب المخاطر أكثر مما تقوم على المعايير الخلقية مثل شكاية الأعداء إلى الرؤساء والتشهير بهم وإهلاكهم دون العفو عنهم أو الحذر منهم والذي قد يؤدى إلى الخوف والجبن، وغيظ الحساد. والإغاضة ليست فعلاً خلقياً بل قد تزيد الشرور. وكيف يمكن إغاضة الأعداء وفى نفس الوقت توقى شرورهم، فقد تكبر إساءتهم دون توقىها؟ ولمذا

مدح الصلحاء والتشبه بهم وهم فى مرتبة تالية للنصحاء الذين يجب التوقف فى نصائحهم ومراجعتها أولاً والشك فيها؟ وكيف يمكن التعرف على الأكفاء والتمييز بينهم بهذه القسمة الرياضية؟

رابعاً، ما ينبغى أن يستعمله المرأ مع من دونه وهم الضعفاء. وهم نوعان: الأول المتعلمون ذوو الحاجة، أولوا الطبائع الرديئة أو البلاء أو المتعلمون ذوو الأخلاق الطاهرة. والثانى المحاويج ذوو القافة، الملحون أو الكاذبون أو الضعفاء الصادقون^(١).

خامساً سياسة المرأ لنفسه وهى من أكبر الأجزاء مثل علاقته بالله. وهى أقرب إلى الأخلاق منها إلى السياسة. وهى نوعان: المال أى الاقتصاد، والجاه أى السياسة. وتتطلب معرفة كيفية الحصول على القنية والمال، الدخل والخارج أى الكسب والمصروفات والتوازن فى الميزانية دون دين، والصناعات وأنواعها، الشريف منها والخسيس مثل القمار وضرورة السخاء حسب الطبقة، والإنفاق من أجل الاعتدال مع الإذخار. والجاه أفضل من زيادة المنافع. فالجاه يكسب المال ولا يكسب المال الجاه. والجاه لذة أعظم من لذة المال.

ومنها تحصين الأسرار وكيفية استخراجها من المناوئين ربما تتظيرا لحديث "واستعينوا على قضاء حاجتكم بالكتمان"^(٢). فذبوع الأسرار نيل من الأعراض وعدم جدية وتبنيه الناس عليها. كما ينبغى المشورة مع أهل الرأى والكتمان والاستفادة من تجارب المتقدمين، ومعرفة الأسرار الظاهرة والباطنة، الظاهرة مثل ما يبدو على الرئيس من أخذ العزم وإعداد العدة والتطلع على الأخبار والوقوف على الأحاديث، والباطنة مثل

(١) الفارابى: السياسة المدنية ص ٢٩.

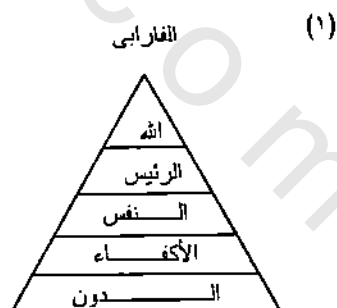
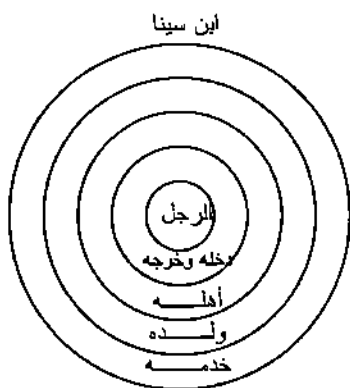


(٢) السابق ص ٢٩ - ٣٣.

الحرم والإمساك والتعريف على الأخبار من العجم والصبيان والجهال والنساء لأنهم قليلوا التمييز ويقشون السر عن طريق كثرة المحادثة مع من يستأنس المرأ بهم. وهى أمور تقديرية خالصة تختلف بحسب الحال.

ويعيد الفارابى فى سياسة المرأ لنفسه كيفية الظفر بالأعداء والذين تم التعرض لهم من قبل فى سياسة المرأ لأكفائه. عليه طلب العلو على العدو فى كل فضيلة، وأن يعلم العدو ذلك حتى يضعف وتخدم ثائرته، وإحصاء معاييه عن صدق لمعرفته على حقيقته، والتعريف على سماته وأخلاقه حتى يمكن مقابلة كل منها وضدها، ومعرفة ما يقلقه وما يضجره حتى يطمئن لمكايده.

وما ينتفع به المرأ هو الألب ومزاولته فى الظاهر مثل معرفة العورات وافتراض العثرات، معرفة ما عند الناس أكثر مما يعرف الناس عنه، وأن يقصد غير المقصود تخفياً بالرغم من أن الأعمال بالنيات والاستعلاء والصعود تدريجياً إلى أعلى دون سخط أو تسرع، وتحمل الأصعب فالأخف، وعدم إظهار الغضب أو الرضا بإفراط، والمطل أحياناً إذا تعقبه الإنجاح، والصبر حتى الفوز، واستيفاء المقدمات، والتحدث بلسان الغير إنقاء المخاطر. والسؤال هو: هل هذه أخلاق أم نكاء عملى؟ هل هى معايير أخلاقية أم تكيف حسب المصلحة؟ هل أخلاق مبادئ أم أخلاق مواقف ^(١). هى أقرب إلى أخلاق النجاح فى الحياة أو دليل الإنسان الناجح.



٢- الرئاسة الأخلاقية. وإذا كان الفارابي قد وصف مستويات خمسة للأخلاق الرئاسية في تصور هرمي رأسى لها بين الأعلى والأدنى فإن ابن سينا أيضاً وعلى نفس المنوال ودون التصريح به أو الإحالة إليه وصف مستويات خمسة للرئاسة الأخلاقية في دوائر متداخلة، الرجل مع نفسه، ومع دخله وخرجه أى أعماله ومهنته، وأهله، وولده وخدمه مستبعدا سياسة الرجل مع الله وواصفا بدلا عنها سياسة الرجل في الكسب والصرف وقد كانت جزءاً من سياسة الرجل مع نفسه عند الفارابي، ومحولاً الأعلى والاكفاء والأدنى إلى الأهل والولد والخدم متجها نحو مزيد من التفكير الاجتماعي.

والسياسة هنا تعنى تلافى الخلل وإصلاح ما فسد من وجهة نظر الرجل، و"انقضت الأبواب التى مثلنا فيها ما يحق على الرجل فعله فى تدبير نفسه وما يشتمل عليه منزله"^(١). والبداية إيمانية يحمد فيها ابن سينا الشرع والعقل والنطق، انتقلا من الإلهيات إلى الإنسانيات، ومن الكلام إلى الفلسفة، ولو أنها مازالت فى لغة الإيمانيات وجزءاً من السياسة الإلهية. فمن نعم الله على الإنسان إكمال الطبيعة البشرية وخصائصها. فتحليل الطبيعة عبادة ومعرفة للعلم الإلهي وقدرته. ومن نعم الله التمييز بين الخير والشر، والعى والرشد، والصانع والمصنوع، والمالك والمملوك، والسائس والمسوس. وهو الطريق إلى معرفة الخالق والمخلوق تأكيداً على الصلة بين الثنائية الأخلاقية والاجتماعية والسياسية وبين الثنائية الدينية.

الرجل هو المركز ثم البداية بالاقتصاد وقبل الاجتماع وهو اقتصاد سياسى أو اقتصاد اجتماعى. ثم تأتى وظيفة المنزل الأهل والولد والخدم، نواة المجتمع، من أجل تخزين القوات. فالطعام والغذاء سبب نشأة التجمعات الإنسانية وليس الحاجة إلى التعاون وتقسيم العمل كما هو الحال عند الفارابي. والحاجة إلى حفظ الطعام تدعو إلى الحاجة للإستخلاف وهو الزوج صاحب السلطة والتدبير والقوامة والكفاءة على الأهل والولد والخدم فتتحول الأسرة إلى نواة أولى للرعية والزوج صورة أولية للملك، لا فرق فى ذلك

(١) ابن سينا: السياسة ص ٢-٣.

بين ملوك وسوقة، راعي ورعية، سائس ومسوس، مخدوم وخادم. فالتفاوت يؤدي إلى رئاسة الزوج إلى النسل إلى الخدم إلى السياسة. الزوج أقرب إلى أمين المخازن، والأسرة، الأهل والولد والخدم، أقرب إلى الوحدة الإنتاجية الأولى^(١).

وقيل أن يعرض ابن سينا للدوائر المتداخلة الخمس يبين التفاوت بين الناس في الصفات والرتب. فالفروق الفردية هي أساس الفروق الاجتماعية كما يثبت علم النفس الاجتماعي. والطبقات الخلقية هي أسس الطبقات الاجتماعية. والتفاوت في الآراء والعقول مقدمة للتفاوت في الأملاك والمنازل والرتب. والتحاسد الطيعي كحالة نفسية أساسية للتفاوت الاقتصادي كطبيعة اجتماعية.

ويبدو من ذلك أن المساواة فساد. فلا يمكن أن يكون الناس في طبقة واحدة. لو كانوا كلهم سوقة أو ملوكا لهلك الجميع. ولو تساوا في الغنى لما خدم أحد أحداً، ولما نشأ بين الناس تعاطف ورحمة. ولو تساوا في الفقر لهلكوا جميعاً. إنما يتعظ الغنى الجاهل بالفقر العالم. التفاوت لا يتعاطى تصحيحاً للخطأ وكان وجود الفقراء لنصيحة الأغنياء، ووجود الأغنياء لنصيحة للفقراء. فاللامساواة بين الناس هي الأساس^(٢). تلك حكمة الله فاللامساواة قدر من أقداره. والله هو الواضع للأساس الطبقي للمجتمع بخلقه التفاوت الخلقى بين الناس كأساس للتفاوت الاجتماعي كما هو الحال في التفسير الرأسمالي الدينى للطبقات الاجتماعية.

ومن هنا لزمّت السياسة لتدبير هذا التفاوت بين الناس وتحديد الصلة بين الخادم والمخدوم، المروّس والرئيس كما يدبر الله العالم. تعنى السياسة التريبة الخلقية لقبول هذا التفاوت النفسى الاجتماعى من أجل حسن المعاش. يحتاج الجميع، الكبير والصغير، الغنى والفقير، الملوك والسوقة، إلى السياسة من أجل التأديب والتعديل والتقويم والتهديب حتى

(١) السابق ص ٥-٦.

(٢) وهذا عكس روسو الذى جعل المساواة بين الناس هو الأساس واللامساواة هو الاستثناء فى "خطاب فى نشأة اللامساواة بين الناس".

عن طريق التعنيف والقمع. وهذا هو معنى الرعاية في الحديث المشهور "كلكم راع كلكم مسؤول عن رعيته"، الرعاية بمعنى الوصاية. ولذلك لزم التجسس بمعنى البحث والتتقيب والتعرف على الصفات العامة والخاصة للبشر. ويدعو ابن سينا للملوك الذين جعل الله بأيديهم رقاب العباد وتدبير الممالك، وفوض لهم سياسة الرعية، ثيوقراطية شيعية صريحة. وبعد الملوك يأتي الولاة، الأُمُل فالأُمُل، ثم البطانة والخدم ثم أرباب المنازل. ويستعمل ابن سينا السجع لأدب النفس دون تحليل مصالح الناس^(١). وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان، التكبير أى السياسة مع أن الحيوان ابتداء من الحشرات والنمل والنحل حتى الأسود أيضاً يقوم بالتكبير.

أولاً، سياسة الرجل مع نفسه تنظيراً لأية ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ أو ﴿أدعون الناس إلى البر وتتنسون أنفسكم﴾. البداية بالكوجيتو العملى. ومهمة البداية بالنفس اكتشاف العقل كسائس، والنفس أمارة بالسوء. نظرة متعالية للعقل ودونية للنفس، تبرئة للعقل واتهاماً للنفس. ثم تأتي معرفة كيفية السياسة والإصلاح ثم معرفة جميع مساوئ النفس. ولما كان الإنسان عاجزاً بنفسه عن ذلك احتاج إلى معونة الأخ اللبيب. فالأخرة مرآة النفس.

ويحتاج الرجل إلى سياسة تقوم على الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، تسوق الناس كالأنعام، والتقريب والإبعاد، بالعطاء والحرمان. وليس للناس دور إلا الخدمة والطاعة. ليس لهم حقوق بل عليهم واجبات، لهم حق الطعام كالحيوان وعليهم واجب الطاعة كالعبيد. ذلك دور الوحي وتلك وظيفة النبوة. وهذه مهمة الدولة ورسالة الملوك.

(١) السابق ص ٤



والرؤساء أحق بسياستهم لأنفسهم، وعدم الاكتراث لسقطاتهم وهفواتهم والاسترسال فيها بقلة الاحتشام نظراً لاستثناء القلة العاقلة الفاضلة تنظيراً لموضوع "اللمم". ويخشى من تقديمهم لأنهم أكمل البشر. أما السوق والرعاع فإن أفعالهم مكشوفة لمخالفة الناس والمناصحة، وبالتالي كشف العيوب حقاً أم باطلاً والحقيقة أن الملوك أيضاً شخصيات عامة محط النقد العلنى عكس العامة التى لا يهتم بها أحد. وهو دور الصحافة والرقابة وأجهزة الإعلام والأمن وجمع المعلومات. وسلوك الملوك على كل لسان. فهم نموذج وقدوة. تكبر العامة عيوبهم، وتكثر فيهم الشائعات. وأحزاب المعارضة لهم بالمرصاد. وأقران السوء والبطانة يزيدون من فسادهم دون تقديم تحججاً بالخوف منهم وتذرعاً بأنهم أقدر بأنفسهم.

والشورى تعبير عن العقل. تقوم على اللين. ومع ذلك فإنها "كالشوكة الشائكة بجسدك والقرحة الدامية فى بدنك". إذ يقوم الفقهاء بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويقدمون النصيح. والناصح إما بالحسنى لإظهار الخفى أو المواظبة على الظاهر منها بالرغم من خطورة الزهو والعجب ونقص التواضع أو التخدير من القبيح لإخفاء الخفى وتغيير الظاهر بالرغم من ضرورة تغيير الخفى مثل تغيير الظاهر بالحسنى دون القهر. ويتطلب استعداد الآخر لقبوله عن طيب خاطر أو الحديث تلميحاً لا تصريحاً، والقصد فى القول. ما قل ودل، من غير إفراط أو تفريط، وترك الوقت للسامع حتى تختمر النصيحة فى ذهنه ويدرك أهميتها وحسن استماعه لها. وتكون النصيحة رأياً واحداً حتى يمكن اتباعها. وأفضل نصيح هو النصيح العملى. وقد تقوم على الوعد والوعيد، الثواب والعقاب، أخلاق الجزاء التى هى أقرب إلى أخلاق العبيد، وأبعد عن أخلاق الطبيعة^(١). شرائط المعروف تعجيله وكتمانها وتصغيره واختيار

(١) السابق ص ٥-٩.

الوزراء والمديرون وأرباب السياسات والملوك.

صناعة الأدباء. صناعات ذوى المروءة

صناعة الفرسان والأساور.

موضعه. فالغاية منه ليس مجرد إعلانه بل تحقيقه.

ثانياً، سياسة الرجل مع دخله وخرجه أى الكسب والمصاريف وهى من مفاهيم الفارابى دون الإشارة إليه. أولوية الفارابى تقسيم العمل وألوية ابن سينا الاقتصاد على الاجتماع. وكلاهما تعبير عن أولوية السلطة السياسية. والناس نوعان. الأول محتاج بسعيه بالهمة والسعى والتجارة الصناعة. والثانى غير محتاج ساعياً برزقه، وكان القدرات الطبيعية ووسائل الإنتاج هى التى لا تحدد هياكله وأنماطه. والصناعة أوثق من التجارة. فالتجارة بالمال، والمال عرضه للفناء مثل ابن خلدون فى نقده التجارة كخدمات وليس كإنتاج ونقده أخلاق التجار. وصناعات نوى المروءة ثلاثة أنواع. الأول من حيز الأيد والشجاعة وهى صناعة الفرسان والأساورة. والثانى من حيز الأدب، وهى الكتابة والبلاغة أى صناعة الأدياء وعلوم النجوم والطب. والثالث من حيز العقل وصحة الرأى وصواب المشورة وحسن التدبير وهى صناعة الوزراء والمديرين وأرباب السياسة والملوك^(١). السياسيون أعلى من الأدياء والعلماء، والأدياء والعلماء أعلى من العسكر. ولا يوجد صناع أو زراع باستثناء الصناعة الرقيقة الخفيفة البعيدة عن الشر. ومن الضرورى إحكام كل صناعة والتقدم فيها. وماذا عن المهن القريبة من اللصوص مثل الشرطة وضرورة التعامل مع القتل وقطاع الطرق؟ وإذا كان شرط المهنة البعد عن المجاهدة فماذا عن عمال المناجم والعقالين؟ وإذا كانت المهن أخلاقية بالضرورة فإن ذلك يعنى سيادة الأخلاق على الاجتماع، والفضائل على تقسيم العمل. والغنى وراثته لا يتطلب من الغنى العمل وكأن الثروة باقية إلى الأبد، والعمل ليس من طبيعة البشر. وإذا كان الفقير وحده هو الذى يعمل فكأن العمل عقاب له على فقره. ولا ضير من الرزق اتواسع الحلال دون اعتبار لمستوى الدخل وعدالة التوزيع فى المجتمع كله. ولا يجوز الاستحواذ على المال بالإكراه والغصب والاستغلال مثل الفدية والرشوة. والصدقات والزكوات من بعض أوجه الصرف. والإبخار لنوائب الدهر، تصرف عن طيب خاطر، بين التبذير والشح وهى غير ملزمة، تعطى تطوعاً لأهل الخلة والستر وليس للشحاتين.

(٢) السابق ص ٩-١١.

ويتم ادخار بعض المال ليوم الفاقة لوجه الله أو استعداداً للمستقبل ويجب الحذر من الحسد والقييل والقال وأراء العوام. والأخلاقيات لا وجود لها عند القلة المترفة أو الأغلبية الفقيرة. الأولى نهمة تريد المزيد، والثانية فى حاجة تريد البقاء. والسؤال هو: ما مصادر ابن سينا فى هذا التحليل الاقتصادى؟ هل هى قراءات صامتة عن ذكرها أم تجارب شخصية ومشاهدات عينية أم تأملات حكمية؟

ثالثاً سياسة المرأة مع أهله كلها مركزة على واجبات المرأة. فمعظمها على المرأة وليس على الولدان، ربما لأن السياسة مع الولد قسم خاص والولد جامع للبنات. فالزوجة مقدمة على الولد. والمرأة الصالحة شريكة الرجل فى ملكه، وقيمته فى ماله، وخليفته فى رحله. شخصيتها اقتصادية، وكيلة الرجل فى عمله أثناء غيابه المؤقت أو الدائم. وخير النساء العاقلة الدينية الحية الوطنية، الودودة، الولود، قصيرة اللسان، المطاوعة العنان، الناصحة الجيب، الأمينة الغيب، الرزان فى مجلس الوقود فى هيبتها المهيبة، فى قامتها الخفيفة، المتبذلة فى خدمة الزوج، حسنة التدبير، تكثر القليل، تجلو الأحزان، وتسلى الهموم. والسؤال هو: هل يمكن أن تجتمع كل هذه الخصال الحميدة فى امرأة واحدة؟

وشرف المرأة يدل على نبل الرجل، والحق يرجع إليه وليس إليها. كل سلوك المرأة إيجاباً أم سلباً يرجع إلى الرجل وكأنها مجرد مرآة تعكس صورة الرجل. ولا تنقلب المرأة رجلاً ولا ينقلب الرجل امرأة. فالعلاقة بين الرجل والمرأة علاقة الأعلى بالأننى، مجرد إحدى حالات تصور العالم الهرمى. سياسة الرجل فى النهاية هى الهيبة الشديدة حتى لا يهين عليها وتأمرة وتتمرد عليه، والكرامة التامة، وتحسين شارتها، وشدة حجابها، وترك إغارتها، وأخيراً شغل خاطرها بالمهم، سياسة الأولاد! ويعنى تحسين الشارة جمالها الخارجى مع حجابها، خطوة إلى الإمام وخطة إلى الخلف، ويعنى ترك إغارتها تجنب غضبها.

وكلها إرشادات ونصائح ومواعظ أكثر منها علماً. إذ يتحول الاجتماع إلى أخلاق، والأخلاق إلى تربية. ولا يعتمد ابن سينا على تنظير الموروث ولا تمثل الوافد. لا يعلن

عن مصادره المدونة أو تجاربه الشخصية أو مشاهدات لعصره (١).

رابعاً: سياسة الرجل مع ولده تبدأ بحسن التسمية وحسن المراجعة، وتأديبه مع العظام حماية له من الأخلاق الاجتماعية، واستعمال سياسة الترغيب والترهيب واللين والايحاش، والاعراض والاقبال، والحمد والتوبيخ وربما الضرب الخفيف أولاً والثقل ثانياً. ومؤدب الصبي عاقل، متدين فاضل صادق، وقور رزين لبيب، نزيه. خدم السراة، وعرف أخلاق الملوك والسفلة وآداب المجالس والمؤاكلة والمحادثة والمعاشرة. مهمته معرفة طبع الصبي، ميوله ورغباته. يحادثه بسرعة الحفظ في تربية تقوم على التراث الشفاهي. يتزاور معه ويتكلم ويتباهى في مساجلة ومناقشة. يتعلم القرآن (للدين واللغة والشعر (الرجز)، القديم والجديد، والشعر الأخلاقي لتعلم الفضائل، وبعد القرآن واللغة تأتي الصناعة، صناعة الكتابة للرسائل والخطب والمحاورات والحساب والخط. فصناعة الأدب أقرب إلى الناس، البلاغة والنحو والشعر والخطب والنسب ثم الحساب والهندسة والطب. ويدفع المعلم الصبي إلى الكسب والتعيش كي يستغل وينفق من كسبه ويتزوج ويكون أهله وأسرته (٢).

وواضح تربية العصر، التربية الأرستقراطية مع العظام لأن التربية مع الرعا مفسدة. يتغذى من المراجعة وليس من الأم كما هو الحال في الطبقات العليا. وفي نفس الوقت يكون التأديب بالضرب والتخويف فالطبع يغلب التطبع، وكأن الطبيعة عسيرة على التربية، شر في حاجة إلى تقويم عكس التربية الطبيعية وكأن الطفل متاع لا رأى له ولا اختيار، والحديث كله عن تربية الصبي وليس الصبية، وإعداد الرجل وليس المرأة. ولا يتعلم شيئاً عن الصناعات ولا عن أمور السياسة. فالمجتمع حرفي مهني ديواني تجاري. وهو نظام تعليمي إلهي لا سبب له وكان ابن سينا الطبيب العالم الذي يفسر المعجزة تفسيراً علمياً عاجز عن تصور المهن والصناعات والحرف تصوراً تربوياً طبيعياً.

(١) السابق ص ١١ - ١٢.

(٢) السابق ص ١٣ - ١٥.

خامساً تقوم سياسة الرجل مع خدمه على ضرورة وجود الخدم. ويحدد علاقة المخدم بالخدام كعلاقة ضرورية. فالخدام للمخدم كالجوارح من الجسد. دون الخادم يفقد المخدم متعة الحياة والراحة، وتصنيع مهائمه، ويضطر إلى العمل والجهد. ويحمد ابن سينا الله على تسخير الخدم لنا وكأن نظام عبودية العمل نظام إلهي، تشريعاً للعبودية الإنسانية بالعبودية الإلهية (١).

ويضع ابن سينا عدة مقاييس لاختيار الخدم مثل حسن التقدير والفراسة والتوسم، والبعد عن سوء الخلقة فالأخلاق تابعة للخلق، وتجنب ذوى العاهات كالعمور والعرج والبرص، والبعد عن الكيس والدناء والمكر، وإيثار اليسير من العقل والحياء على كثرة الشهامة والخفة، والصلاحية لعمل واحد دون الانتقال إلى عمل آخر وكأنه لا يوجد خادم واحد متخصص في أكثر من عمل، فكل ميسر لما خلق له. الصنعة حتمية بالخلقة وكأنه لا توجد عبقرية أو إبداع في أكثر من مجال على عكس ما يؤكد تاريخ الإبداع الإنساني في كل الحضارات. ويستعمل ابن سينا أمثلة من فارس وكأن نظام العبودية منقول منها إلى البيئة العربية، ووافد على الثقافة الإسلامية (٢).

فإذا ما أساء الخادم كما قال الفارابي من قبل فإنه من الأفضل بتر العضو الفاسد على أن يفسد باقي الأعضاء. كأن عدم الطرد في مصلحة المخدم أكثر مما هو في مصلحة الخادم الذي يقوم على المخدم. والشيطان المعروف أفضل من الشيطان المجهول طبقاً للمثل الشعبي.

والحقيقة أنه إذا كانت علاقة الخادم بالمخدم علاقة الجوارح بالجسد فإن المخدم يصبح مشروطاً بالخدام هو الشرط. فالجسد بلا جوارح لا يستطيع الدفاع عن نفسه، كذلك المخدم دون الخادم. وهو جنل السيد والعبد. دون العبد لا يوجد سيد. وهي نفس علاقة الجوهر بالأعراض. دون الأعراض لا يوجد جوهر. والجوهر لا يتعزى عن

(١) فينبنى أن تحمد الله عز وجل على ما سخر لك منهم وما كفأك، السابق ص ١٥.

(٢) مثل : أحسن ما في التميم وجهه.

الأعراض^(١). وإذا كانت العلاقة ضرورية إلى هذا الحد، علاقة الخادم بالمخدوم فماذا عن الخادم؟ أليس من البشر، ومن حقه أن يكون مخدوماً له خادم طبقاً لنظرية الفيض ومراتب الوجود. ولماذا يكون الخادم عبداً أو المخدوم سيداً؟ وما نذب الخادم في أن يوجد عبداً وما فضل السيد إذا كان يوجد سيداً بمشية الله الأبدية وليس وضعاً اجتماعياً يكن تغييره؟ وهل ينفع في ذلك الصلاح والأصلاح أو التعويض عن الآلام كما قرر المعتزلة؟ وهل الخدم حيوانات منزلية أليفة، يعوضهم عن ذلك حسن المعاملة وإشباع حاجاتهم المادية؟ ومن الذى جعل الخادم خاماً والسيد سيداً، الله أم التاريخ أم المجتمع؟ ولماذا لا يخدم الإنسان نفسه؟ وإذا كان للخادم صنعة فلماذا يكون خادماً وليس عاملاً؟ وإذا كانت له صنعة فهل هى مقدرة عليه دون تغييرها وكأنه آلة؟ ولماذا لا يتعلم الخادم صنعة جديدة لكسب تجارب حتى لا يولد إنساناً ويموت خادماً؟ وماذا لو كانت الطبيعة قادرة على عدة صنائع؟ وهل من عقاب الخدم السجن ومنازل الإصلاح والتقويم والطرْد؟ وهل يطلب الخادم من السيد الصفع والمغفرة والإنابة كما يفعل العبد مع السيد، والمخلوق مع الخالق حتى يغفر السيد عنه، صاحب العصا والجزرة؟ وما العيب في إخبار الخادم بعض المال واللباس للزمن إذا ما غضبت عليه السيد؟

السياسة عند ابن سينا تعنى أن يبقى الآخر في الطوع، الزوج والولد والخادم أى الوصايا والرقابة. وهو تصور ديني، العناية والربوبية. الإنسان عبد الله وعبد لأخيه الإنسان في أن واحد مادامت العبودية بنية نفسية لعلاقة الأنا بالآخر. وربما هناك امتداد يوناني. فلا فرق بين ملكية الجسد وملكية العمل. وربما تغير نظام الخدم الآن باستثناء الهجرات العربية والأسبوية إلى الخليج وما تروى عنهم من مآسى وأحزان من بقايا التراث القيم^(٢).

(١) وهى نفس الرواية الشهيرة كريتون العجيب The admirable Creaton التى تقص حكاية غرق قارب ونجاة الأسرة الارستقراطية واعتمادها على الخادم، فى كل شئ فى إقامة حياتها الجديدة فى الغابة.

(٢) مثل محمد المنسى قنديل: بيع نفس بشرية.

٣- الرئيس الفيلسوف. الرئيس هو الفيلسوف الكامل. والفيلسوف الكامل هو الرئيس. والفيلسوف على الإطلاق الذى حصلت له الفضائل النظرية والعملية ببصيرة يقينية والقدرة على إيجادها فى الأمم والمدن ببراھین يقينية وبطرق إقناعية وتخيلية طوعاً أو كرها هو الرئيس الأول.

يمكن معرفة مبادئ الموجودات ومراتبها والسعادة ورياسة المدن الفاضلة إما تصورها بالعقل أو تخيلها بالخيال. والتصور هو ارتسام ذواتها فى نفس الإنسان كما هى موجودة حقيقة، فى حين أن تخيلها هو ارتسام خيالاتها ومثالاتها وتحاكبها فى نفس الإنسان. والقسمة إلى عقل وخيال طبقاً لفاوت قدرات الإنسان الإدراكية وضعف تصوراتهم. طريق الفلسفة واحد لنيل السعادة فى حين أن طرق الخيال متعددة. لذلك كانت الفلسفة للخاصة والخيال للعامّة. الخيال من الدرجة الأولى، خيال الإنسان فى المرأة، أقرب إلى الحقيقة من الخيال من الدرجة الثانية، خيال تمثال الانسان فى الماء، ويتفاوت الناس فى الخيال بين الأحكم والأثم فى مقابل الأنقص، وبين الأقرب إلى الحقيقة فى مقابل الأبعد عنها، وبين الأقل فى مواضع العناد أو الأخف أو الأعسر فى العناد فى مقابل الأكثر فى العقاد أو الأظهر والأسهل فى العناد والتزييف. وقد تزوج المحاكاة، محاكاة شئ ثم محاكاة المحاكاة ثم محاكاة محاكاة المحاكاة.. إلخ. ويمكن استعمالها كلها مادامت جيدة. وإن تفاضلت يستعمل الأحكم والأثم والأقرب إلى الحقيقة، وما كان مواضع العناد فيه أقل^(١).

وخيال الخاصة أقوى وأعمق من خيال العامة. كما أن بداهة الحس عند العامة قد تكون أفضل من التصور عند الخاصة. وهناك الخيال العلمى والخيال الاجتماعى والخيال السياسى والخيال الحربى عند كبار العلماء واثقاده كعامل مساعد على التصور بل مقدمة له، أكثر غنى وإثراء فى التعبير عن الحقائق وإيصالها للناس وتنفيذها أداتياً. وهناك الخيال الشعرى فى التعبير والإقناع بالعواطف والانفعالات والصور الفنية. الخيال

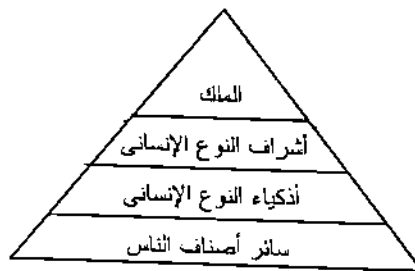
(١) الفارابى : السياسة المدنية ص ٥٩-٦١.

أسهل على العامة من التصور، الخيال الساذج الذى يقوم على التشبيه الحى. أما الخيال الشعرى فإنه يوقظ فى الخاصة الدلالات، وقد يكون أعمق من التصور. فالشعر أساس الفلسفة. وهو الخيال السمعى وليس الخيال البصرى كما هو الحال فى التصور الفنى فى القرآن الكريم. وهو مالا يدركه إلا الخاصة فى حين يقع العامة فى التشبيه دون تأويل. العقل للحكماء والخيال للمؤمنين. والحكماء وحدهم هو القادرون على التأويل^(١).

والرئيس الفيلسوف هو المتصل بالعقل الفعال وبالنفس وبالطبيعة. فهو حلقة الصلة بين الله والإنسان والعالم. بعدها يتدرج المرووسون والرؤساء بين الأدنى والأعلى، من الملك إلى أشراف النوع الإنسانى أى أذكىاء النوع الإنسانى إلى سائر أصناف الناس^(٢).

والفيلسوف الحقيقى وعى خالص بلا جمهور، أقرب إلى المسيح كشهيد منه إلى الرسول كمؤسس دولة. هو رئيس حتى ولو لم توجد الدولة^(٣). هو ذات بلا موضوع، ملك بلا محكمة، وإمام بلا مصلين، وفيلسوف بلا أمة، وطبيب بلا مرضى وآلات، وفنان بلا مستمعين أو مشاهدين، مثل الكوجيتو الديكارتى أو النرجسى أو الله، العقل والعقل والمعقول أو الاستقراطى الذى ينعم بالفن للفن. ألا يدل ذلك على أولوية القيادة على

- (١) انظر دراستينا: الشيء تصور هو أم صورة؟ هموم الفكر الوطن ج ٢ الفكر العربى المعاصر، دار قباء القاهرة ١٩٩٨ ص ٢٠٩ - ٢١٦. وأيضاً القنون البصرية الفنون السمعية أيهما أقرب إلى الوجدان العربى، حصار الزمن، (تحت الطبع). وأيضاً من العقيدة إلى الثورة ج ١ المقدمات النظرية، الفصل الرابع، نظرية العلم، مبدولى، القاهرة ١٩٨٧ ص ٥١٢ - ٥٢٧.
- (٢) ابن سينا: أحوال النفس ص ١٥ - ١٥٢/٩٥ - ١٢٥/١٢٦ - ٢٤٠.



(٣) وهو ما يقوله أحد الخطباء العرب الحاليين، أنه رئيس بلا دولة فى مقابل دولة بلا رئيس.

الناس، والصفوة على الشعب، والقمة على القاعدة. وعدم سماع الناس للفيلسوف الحق ليس عيبه بل عيب الناس. حينئذ ألا يمكن للفيلسوف أن يأخذ الناس على قدر عقولهم؟ وهذا هو النبى. كان هدف الرسول أن ينجح قولاً وعملاً دون تكرار تجارب الأنبياء السابقين، خاصة موسى والسيد المسيح.

وهناك تقابل بين الفيلسوف الحقيقى والفيلسوف الباطل والمبهرج والمزور مثل تقابل المدينة الفاضلة وأنواع المدن الجاهلة من بداية وتغلب وفاسقه وجاهلة. الفيلسوف الباطل هو الذى لا يعرف الأشياء على حقيقتها تعليماً أو تعليمًا. هو الذى غابت عنه الغائية من الفلسفة النظرية وظن أنها بعض السعادات المظنونة عند الجمهور فسعى بعلمه إليها، وانحسر عن الغاية الأولى وجهها. هو الذى يشرع للعلوم دون أن يكون عالماً بها ولا يتوافر لديه شروط استعداده للعلوم النظرية بطريقة اللاهوت السكبي.

والفيلسوف المبهرج هو الذى تعلم مثل الفاضل ولكنه لم يعود نفسه على الأفعال الفاضلة بحسب الملة ولا الجميلة بحسب المشهور بل اتبع هواه وشهوته وعدم تمتل شروط الرئيس الفيلسوف.

والفيلسوف المزور هو الذى يتكلم فى العلوم النظرية دون أن يكون مستعداً بالطبع لها وبالتالي تضيق العمر عكس حجج ابن سينا فى خلود النفس والنضج فى النفس والضعف فى البدن كمصيرين متعارضين.

والرياسة من مهام العلم المدنى. وهى تمكن من تلك الأفعال والملكات فى المدينة أو الأمة وتحفظها عليهم، وليست الدساتير والمؤسسات أو الشعب وكما هو الحال فى الامامة فى علم أصول الدين. ولا تكون هذه الرياسة إلا بمدينة وصناعة وملكة وقوة تكون عنها الأفعال، وهى مهنة الملك. وهى ملكة وقوة وهبة شخصية طبيعة نظرية وليست وظيفة اجتماعية أو فعلاً مكتسباً بصرف النظر عن نقد القرآن للملوك «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة».

والرئاسة نوعان: فاضلة وجاهلة. الفاضلة تحفظ على الأمة الأفعال والسير والملكات لتتال السعادة القصوى. والجاهلة لا تحفظها عليهم. لذلك لا تسمى ملكاً. السياسة الفاضلة للأمة الفاضلة والإنسان الفاضل والمهنة الفاضلة والرياسة الفاضلة. والسياسة الجاهلة للأمة الجاهلة والإنسان الجاهل والمهنة الجاهلة والرياسة الجاهلة. فالقسمة إلى فاضلة وجاهلة لا تنطبق على المدن أو الآراء بل أيضاً على الرياسات وكان الذى يحدد نوع المدينة إما أراؤها أو رياستها. ولا يطلق اسم الملوك بالضرورة إلا على الهيئة الفاضلة. ولا يقال على الجاهلة ملكاً بالرغم من تسمية القرآن ذلك (أن الملوك إذا خلوا قرية أفسدوها).

ولا يمكن أن تتم المهنة الملكية الفاضلة الأولى إلا بمعرفة كلياتها وذلك بأن تقرن إليها الفلسفة النظرية مضافاً إليها التعقل أى القوة الحاصلة فى التجربة وطول مزاولة الأفعال فى آحاد المدن والأمم والجمع، القدرة على جودة الاستنباط والشرائط التى تقدر بها الأفعال والسير والملكات فى جمع أو مدينة أو أمة، فى وقت قصير أو طويل، وبحسب الحال والعارض. أما المهنة الملكية التابعة فلا تحتاج إلى الفلسفة. بل يتولى رؤساؤها على مر الأزمان طبقاً لشرائط الرئيس الأول أولاد ملوك المدينة، يصيرون مثل الرئيس الأول بعد تربيتهم ملوكاً. ولا يحتاج ملوك المدن الجاهلة إلى الفلسفة ولا إلى المهنة الملكية الأولى بل يمكن أن يحقق غرضه بالقوة التجريبية ويصل إلى غرضه بجودة القرينة الحقيقية بتجربته هو أو بتجربة من يشاركونه فى مقصده، مع أن القرينة القديمة واحدة. والغرض هو الذى يختلف، فتصبح قرينة حسنة أو خبيثة^(١).

واضح أن هذا التحليل هو تنظير عادة فقهية قديمة، التمييز بين وزارات التفويض ووزارة التنفيذ. الأولى نظرية والثانية عملية أو بين الأصول والفروع فى علمى أصول الدين وأصول الفقه. كما أنه تنظير للامامة السارية فى التاريخ بعد الخلافة والنبوة. وهى أقرب إلى الملكية الوراثية منها إلى العقد والبيعة^(٢).

(١) الفارابى: الملة ص ٥٤-٥٦/٦٠-٦١.

(٢) الفارابى: السياسة المدنية ص ٥٥-٥٦/٥٩.

والأمة الفاضلة هى التى يديرها الرئيس الفاضل. فأهلها هم الفاضلون والأخيار والسعداء. فضلها من فضل رئيسها. وإذا اجتمعوا فى مسكن واحد كانت هى المدينة الفاضلة. غايتها الأخلاق الاجتماعية.

وتتفاضل السعادات لأهل المدينة بالكمية والكيفية بسبب تفاضل الكمالات المستفادة بالأفعال المدنية كما تتفاضل اللذات أيضاً. والتأذى الجماعة الفاضلة خير من التأذى كل فاضل بمفرده. فالأخلاق الاجتماعية تحقيق للأخلاق الفردية كما هو الحال عند جماعات الزهاد والنساك والمؤمنين وحلقات الصوفية.

وتتفاضل مراتب أهل المدينة فى الرياسة والخدمة حسب فطر أهلها والآداب التى تأدبوا بها. فكل إنسان ينتمى إلى رتبة أو طبقة. والطبقات نوعان رياسة أو خدمة. وتتفاوت المرتبتان وتكرران حتى الرئاسة الأولى التى ليست خادمة لرئاسة فوقها، والخدمة الأخيرة التى ليست رئاسة إلى خدمة تحتها. وإذا أراد الرئيس غير ذلك فعليه أن يحدد ذلك بوصية ولكنها وصية أيضاً تجعل طائفة أقرب الناس إليه ثم تلوها طوائف حتى الوصول إلى آخر مرتبة فى الخدمة. لا يستطيع إذن الرئيس أن يغير من هذا النظام الطبقي أو الترتيب الهرمى وأن يجعل أعاليها أسافلها، وأسافلها أعاليها.

وهذا الترتيب من الرئيس الأول. وهو ترتيب طبقي لا تتأخر فيه قائم على التقدير والتأخير مثل الموجودات الطبيعية فى المراتب والدرجات، من الأول حتى المادة الأولى والأسطقات. ومدير المدينة شبيه بالسبب الأول لدرجة أنه يصعب الإجابة على سؤال: هل السياسات إلهيات مقلوبة إلى أسفل أم أن الإلهيات سياسات مقلوبة إلى أعلى.

ومدير المدينة هو المكفل بترتيبها وتحصيل الخيرات وإزالة الشرور. هو الذى يوجب الخير ويبطل الشر. هو الحارس الأوحى، والناس تحته وصاية وحماية. ينظر فى كل ما أعطته الأجسام السماوية. يستبقى ما ينفع ويجتهد فى تحويل الضار إلى نافع أو يبطله. فرييس المدينة له القدرة على التعامل مع الأجسام السماوية ومعرفة أثرها فى المدينة. يعرف مبادئ الموجودات ومراتب السعادة، والرياسة الأولى للمدينة ومراتبها

والأفعال المحددة التى بها تنال السعادة والعمل بها وتوجيه أهل المدينة لفعلها.

والرئيس هو الذى يقوم بتأديب العصاة والمتمردين يذكرها. وهو الذى يحدد الأمور النظرية التى يتم التأديب عليها وإقناع المتمردين بها. هو الذى يقوم بعملية "غسيل المخ" للمعارضة السياسية. فعلاقة الرئيس بالأمة مثل علاقة رب المنزل بالصبي. عليه واجب التأديب مثل مدير الإصلاحية للأحداث وما يقال هذه الأيام عن كبير العائلة ورب الأسرة. ويحتاج الملوك لتأديب المعتاصين والمتمردين إلى قوة أعظم مما يحتاجها أرباب المنازل مع أهلهم رؤساء المدن على تربية الصبية والأحداث. فهل نشر الفضيلة طوعاً أو كرها إشارة إلى الفتوحات وتنظيراً للموروث.

والسؤال هو: لماذا يكون ترتيب المدينة من وضع الرئيس الأول وليس من البنية الاجتماعية والاعتراف بالتركيب الطبقي للمجتمع؟ وهل مدير المدينة عالم بأحكام النجوم؟ وهل وصلت قدرته إلى التحكم فى الضار وتحويله إلى نافع مثل الساحر؟ هل كل هذه القوة للرئيس؟ وأين كل رجال الرئيس؟ أين الشعب والمنظمات الشعبية؟ أين القوانين والدساتير والمعارضة، المراجعة والرقابة على السلطة التنفيذية؟ يبدو أنه أقرب إلى الإمام المعصوم.

وإذا تفرق الناس تحت رياسات أخرى كانوا أفاضل غرباء. فالغربة هو العيش فى مدن لا تدبرها الرئاسات الفاضلة. وقد يكون سبب تفرقهم أنه لم يتفق لهم بعد مدينة يمكن الاجتماع فيها أو كانوا فى مدينة ثم عرضت لهم آفات، عدو أو وباء أو جذب. فى هذه الحالة تكون الهجرة ضرورية، هجرة الفضلاء من المدن الجاهلة إلى المدن الفاضلة إن وجدت. فإن لم توجد فالفاضل غريب فى الدنيا ردىء العيش، والموت خير له من الحياة^(١). وهو حد بالغ فى التشاؤم واليأس وتخل عن المقاومة والصمود.

وتظهر علاقة الخادم بالمخدوم، والرئيس بالمرؤوس فى السياسة عند ابن سينا مثل ظهورها عند الفارابى من قبل. وهى علاقة بنبوية تتجلى فيها الإلهيات فى

(١) الفارابى: فصول ص ٩٥ الفقرة ٩٣، للسياسة المدنية ص ٤٤-٤٥.

الإنسانيات. فى الإلهيات حركة المرووس بحركة الرئيس، والأشرف أكمل من الأخس، والعقل الأول أفضل من العقول العشرة التالية، وأشرف المقاصد لا يخطئ بعكس أخسها. وفى الطبيعيات الحركة أخس الأحوال والمادة أخس الذوات. ومبدأ الوجود من الأشرف فالأشرف حتى ينتهى إلى الهوى ثم من الأخس إلى الأشرف حتى النفس الناطقة والعقل المستفاد. وفى الإنسانيات، السعادة أفضل من الشقاوة (١).

ولما كانت بعض مؤلفات علم الكلام مكتوبة إلى السلطان وبأمر منه فإن بعض مؤلفات الحكمة أيضاً مكتوبة لنفس الغرض. فبعد الحمد لله والصلاة على رسول الله يبدأ تملق السلطان وإعطاء الفكر هدية للأمير. وبعد الاعتماد على الله والاعتصام بحبله والاستجداء بقوته يتحول ذلك إلى الابتهاال إلى السلاطين الأكابر والاعتصام بعراهم والاستعانة بقواهم والانتماء إلى خدمتهم، والإنحياز إلى حيلتهم والمباهاة والاتصال بهم، والمبادأة فى الاتكال عليهم. وهى نفس الثنائية الدينية السياسية سواء فى المعرفة أو فى الصياغات النظرية بين الخاص والعام، والراعى والرعية، والقوى والواهى، والعلى والسائل، والعاقل والجاهل، والحاكم والمحكوم. وينفذ ابن سينا أحياناً هذه العادة على أسس أنها تطاول على الحكام. ومع ذلك وجد العذر فى الاتصال بالأمير. ويمدحه لأنه حقق رأس الفضائل الاثنيتين: حب الحكمة فى العقائد وإيثار الزكى من الأعمال فى المقاصد. وإذا كانت هذه الرسالة أول ما كتب فهل بدأ حياته متملقاً للأمراء ؟ (٢).

يدعو ابن سينا لبقاء حياة الأمير. ولو كان أى أمير آخر لدعا له أيضاً بطول البقاء. ليس الأمير بشخصه بل بمنصبه. مات الملك يحيا الملك. وتنتهى الرسالة بالدعوة إلى الأمير. والأمير يأمر فى شؤون الفكر، وهو حكيم يدعو له الرئيس الفيلسوف. بل إن الاختصار والتطويل بناء على أمر الأمير وليس بناء على الموضوع ذاته، بل إن الدولة تتجدد بتجدد الأمير وليس لأنها مؤسسة مستقلة عنه. رفاهتها مشروطة بأيامه، ورفعته ومكانتها برفعته ومكانه، وزيادة طلاب الفضل مرتبطة به. وهل منعت الدعوة بتأييد الله

(١) ابن سينا: الإشارات ص ١٦٤/٣٨٨/٤٠٩/٤١٢/١٩٥/٣٩٥/١٣٢.

(٢) ابن سينا: مبحث فى القوى النفسانية ص ١٤٧-١٤٨/١٧٨.

للأمير من الانقلاب عليه أو أن الدعوة لرفع الحسد رفعت عنه؟ فلماذا احتقار الذات وانسباط الأصاغر للأكابر؟ وإذا كانت عادة القدماء فلماذا لا يقاومها المحدثون؟

٤- خصال الرئيس. ليس الرئيس أى إنسان كيفما اتفق. إذ تكون الرئاسة إما بالفطرة والطبع معديها أو بالهيئة والملكة الإرادية. والرئاسة الفطرية بالطبع لا تتوفر فى كل صناعة بل فى أكثر الصنائع لخدمة المدينة. فأكثر الفطر كذلك، ولكن فى الصنائع صفة ترأس وتخدمها صنائع أخرى، ومنها صنعة تخدم ولا ترأس. صناعة رئاسة المدينة إذن ليست كأى صناعة ولا أى مملكة. فهى ليست وراءها صناعة أخرى تكون مرؤوسة لها مثل رئاسة البدن بل صناعة تقوم الصناعات كلها. والإنسان الرئيس لا يرأسه إنسان آخر أصلاً. الرئيس هو الرئيس الأول للمدينة الفاضلة. ورئيس الأمة الفاضلة، رئيس المعمورة^(١). وهو تعظم وتبجيل، أقرب إلى الذاتية منه إلى الموضوعية. فلا يوجد رئيس للإنسانية كلها. وهو الامام مما يدل على الاتجاه الشيعى. يعرف الفلسفة النظرية والعلمية، والحكمة والسعادة بتدبير من الله^(٢).

والإنسان بفطرته مكون لفضيلة مستتبطة من قوة فكرية عظمى بالطبع. الملك ملك بالطبيعة، والخدم خدم بالطبيعة. ثم تأتى الإدارة فتكمل ما تركته الطبيعة. الزعيم يولد زعيماً، والعبد يولد عبداً.

وتختلف القوة التجريبية بحسب المواضع والصنائع وبحسب المستعملين لها. وهى قوة نفسية مثل التمييز. والتمييز فى الخير شريف وفى الشر خبيث ودهاء وحيلة وجريرة. تستعمل فى تدبير المدن الفاضلة. يستعملها الرئيس الأول لأنها نافعة فى السياسة الفاضلة وتنتهى بصاحبها فى الرئاسة. وأشرف قوة تجريبية ما استعملت فى أشرف صناعة وهى الرئاسة الفاضلة. وأنقصها ما يستعمل فى السياسات الجاهلة مثل التغلب. وهى أقرب إلى

(١) هل يعنى بلغة العصر السكرتير العام للأمم المتحدة أو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى العالم ذى القطب الواحد؟

(٢) الفارابى : تحصيل السعادة، فصول ص ٩٣-٩٥ الفقرة ٩٣، أراء ص ٧٩.

النكاء العملى مثل الكياسة والفطنة وحسن التصرف (١).

والسؤال هو: هل الملك ملكاً بالطبع والخادم خادماً بالطبع أم بالظروف الاجتماعية ومنها الوراثية، وراثه المهنة؟ وخطورة ذلك فى الدفاع عن الثبات الاجتماعى عن نظام العبودية الأبدى (٢).

والرئيس الأول الفاضل صاحب مهنة ملكية، يوحى إليه، لا فرق بينه وبين الرئيس والنبي والإمام والصوفى الملمهم. يقدر الآراء والأفعال فى الملة الفاضلة بالوحى بإحدى طريقتين. الأولى توحى إليه كلها مقدرة مثل النبي. والثانية يقدرها بالقوة التى استفادها من الوحى، الاجتهاد أو الحكمة. وذلك موضوع العلم النظرى أو نظرية العلم وليس فى السياسة كعلم عملى. يجمع الرئيس إذن بين السلطتين السياسية والدينية بالرغم من نقد القرآن للملوك.

وتشتمل المهنة الملكية الأولى على أشياء كلية مثل علم العدل. ولا يكتفى منها بمعرفة الأشياء الجزئية. صحيح أن الاستفادة من التجربة تعطى قدرة على تقدير الأفعال كما وكيف بحسب أحوال مدينة أو أمة أو واحد أو بحسب حال وعارض فى وقت واحد. المهنة الملكية فى المدن جزئية. والقوة التى يحدث بها الاستنباط هو العقل. وهى قوة لا تحصل بمعرفة الكليات لكن بطول التجربة فى الأشخاص. الرئاسة هنا بالتجربة وليست بالموهبة والفطرة، بجهد البشر وليست باختيار إلهى (٣).

رئيس المدينة شبيه بالإله إن لم يكن كذلك فى تصوره مراتب الموجودات فى نظرية الفيض ثم النزول تدريجياً من المدينة حتى باقى الطوائف التى لا ترأس أفعالها فقط من دونها بل تخدم أيضاً ما فوقها. وأحياناً يبدأ الرئيس المدينة، رئيس الروحانيين،

(١) وهو ما كان يتصف به معاوية فى عبارته المشهورة: والله لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت.

إذا أرخوا شددت، وإذا شدوا أرخيت.

(٢) وهو ما عبر عنه يوسف إدريس فى مسرحية "الفراير".

(٣) الفارابى: الملة ص ٥٨/٥٩.

الروح، الملاك، جبريل، النبي، الإمام، الملك، الفيلسوف أو الفيلسوف الملك. يرتقى صعوداً حتى يصير إليها، ويهبط نزولاً حالاً يصير إنساناً. ينزل الوحي من الله إلى الرئيس الأول، النبي، فيدبر المدينة بالوحي وتنفيذ الأوامر. وهو علم الشريعة، العلم المدني. الله هو المدير الأول للمدينة الفاضلة كما أنه المدير للعالم. وبين المديرين نسبة وتناسب وليس صراعاً وتناحراً. وبين أجزاء المدينة الفاضلة ائتلاف وانسجام وارتباط ونظام ومقصد واحد في الكون بالقوة الطبيعية، وفي المدينة الفاضلة بالقوة الإدارية. وكلاهما من وضع مدير العالم كما هو الحال في الأشعرية التقليدية. ومن ثم تقوم الطبيعية والمجتمع على غاية واحدة وهدف واحد. الغاية القصوى من العلم المدني إذن هو التعرف على الله، لفظاً ومعنى دون تشكل كاذب، الله جل ثناؤه كما هو الحال في علم الكلام.

والرئيس اثنا عشرة خصلة فطر عليها. فالرئاسة موهبة وليست اكتساباً. تتراوح بين الصفات البدنية والذهنية والخلقية، صعوداً من أدنى إلى أعلى على النحو الآتي:

١- تمام الأعضاء وسهولة أدائها لما يحتاجه الرياسة من الخطابة والقيادة للجند مع أن آفات الأعضاء لا تؤثر في الاتصال الذهني بين العقل المنفعل والعقل الفعال. ولا يعيب بعض القادة القهر أو البدانة أو العرج^(١). وقد يحتاج الأمر إلى بعض التخصيص والتمييز بين الأطراف والحواس. فأفات الأطراف أقل تأثراً في القيادة من آفات الحواس كالعمى والصمم والبكم. والرئيس يقرأ الرسائل، ويستمع إلى الرسل، ويحاور الوزراء، ويقود المعارك. وهل يمنع بتر بعض الأطراف من حسن القيادة؟ كما يمكن التمييز بين الآفات الخارجية المؤثرة والآفات الداخلية مثل آفات الكبد والمعدة والمرارة غير المؤثرة. وماذا عن الإنسان الطائر عند ابن سينا الذي يثبت أن لا تسكن وعى ذاتي خالص حتى ولو كان بلا أعضاء وبلا بدن؟

٢- جودة التصور والفهم لكل ما يقال، وفهمه طبقاً لقصد القائل وحسب الأمر في

(١) كان يعمر بن الخطاب بعض العرج، وكان علياً بن أبي طالب قصيراً به بعض البدانة كما تصف بعض الروايات.

نفسه، انتقالاتاً من صفات البدن إلى الذهن، وإن كان الرئيس أحياناً يعتمد على مستشارين أكثر جودة منه في الفهم والتصور (١). وهل يمكن ذلك دون قراءة ؟

٣- جودة الحفظ لما يفهمه ويراه ويسمعه ويدركه أى الذاكرة القوية القادرة على الحفظ والاختزان. مع أنه يوجد الآن السجلات والملفات والمحفوظات ونظم المعلومات. إلا إذا كان المقصود الذاكرة التى يتولد منها العلم والوعى التاريخى الناشئ عن التراكم المعرفى. وقد لا يكون الحفظ مقصوداً بنفسه بل بقدر ما يحدث عن وعى تاريخى.

٤- جودة الفطنة والذكاء الذى يجعله إذا رأى الشئ بأدنى دليل فطن على جهته ووجه الدلالة فيه. وقد تغنى عن ذلك البديهة وسرعة الفهم ويقظة الوعى.

٥- حسن العبارة والقدرة على الإبانة باللسان عما فى ضميره من بيان. وهى خاصية الفصاحة عند العرب، والبلاغة التلقائية التى اعتمد عليها إعجاز القرآن.

٦- حب التعليم والاستفادة والانقياد للعلم دون أن يؤلمه تعب التعلم ولا يؤذيه والمثابرة عليه والاجتهاد فيه. فالعلماء ورثة الأنبياء. والمدينة مدينة العلماء، ورئيسها الملك الفيلسوف.

٧- التعفف عن الشراهة فى المشروب والمأكول والمنكوح، وتجنب اللعب، وبغض اللذات. وهو ما قد يتنافى أحياناً عن سمات بعض الرؤساء الذين تدفعهم القوة والسلطة والجاه والمال إلى التمتع بالدنيا وطاعة الآخرين لهم. فللسلطة سحرها. وابن سينا نفسه نموذج على ذلك فى حبه للدنيا وكثرة الجماع. وقد يكون الرئيس وسيماً محباً للغناء والطرب ساحراً للنساء. وقد يفخر بأنه الراقص الأول والمزاح الأول والحبيب الأول (٢).

(١) مثل على بن أبى طالب واستشارة الخلفاء والصحابة له لعلمه وتقواه.

(٢) من المحدثين وسامة الرئيس كلنتون، وحب الرقص والغناء عند الرئيسين كاوندا وماندللا، وحب الغناء والطرب عند الحسن الثانى، والشبق الجنىسى عند أمراء شبه الجزيرة العربية.

٨- حب الصدق وأهله وبغضب الكذب وأهله. فالصدق شجاعة أدبية وقدرة على المواجهة ومبعث على الأقدام.

٩- كبر النفس وحب الكرامة، والترفع عما يشين من الأمور، والتنزّه عن الصغائر والسمو إلى الأرفع، والتعالى على الأشياء.

١٠- الزهد في المال وهو ما يندر بين الرؤساء الذين تسمح لهم سلطاتهم المطلقة بتحويل الأموال إلى الخارج وانتفاع أولادهم بأكثر مما يستحقون.

١١- حب العدل وأهله، وبغض الجور وأهله، وإنصاف المظلوم حتى ولو كان الظالم أهله، وهو المعدل في الخارج بمعنى الإنصاف، والعدل مع النفس، والمرونة مع الآخرين، والاقتصاد في القول، والصرامة في تطبيق العدل الخارجي، ومقاومة النزوع نحو الجور.

١٢- قوة العزيمة والجسارة والإقدام دون خوف أو وجل، وقوة النفس. وهذه كلها أقرب إلى شروط الزعامة كما يعرفها علماء النفس الاجتماعي الحديث. بعضها عامة يمكن الاسترسال فيها وزيادتها إلى ما لا نهاية، ويصعب تحقيقها في رئيس واحد. وهو تطوير لصفات الأمام في علم أصول الدين^(١).

ويمكن تخليصها كلها في أربع وهي صفات الإمام عند أهل السنة. الأولى تمام الأبدان، ومن الثانية حتى السادسة العلم، ومن السابعة حتى العاشرة في التقوى، والحادية عشرة في العدل، والثانية عشرة في القوة.

وقد نقل هذه الشرائط إلى عشرة ضما للوفاء، أفلاطون في كتاب "السياسة" إلى الموروث، شرائط الإمام بعد إسقاط كمال البدن، وجودة الفطنة وحسن العبارة وحب التعليم وحب العدل وأهله وزيادة التربية على النواميس وصحة الاعتقاد والتمسك بالفضائل على النحو الآتي:

(١) الفارابي : آراء من ٧٩-٨١. وهي نفس الشروط عند إخوان الصفا، الرسائل ص ١٢٩/٦-١٣٠.

- ١- جودة الفهم والتصور للنسئ الذاتى، البرهان وليس الخيال.
 - ٢- الحفظ والصبر على الجد الذى يناله فى التعليم.
 - ٣- محبة بالطبع للصدق وأهله والعدل دون جموح ولا لاجاجة فيهما بالهوى.
 - ٤- الاعتدال فى المأكول والمشروب، وأن تهون عليه بالطبع الشهوات والدرهم والدينار وغيرهما.
 - ٥- كبر النفس عما يشين عند الناس.
 - ٦- الورع وسهولة الانقياد للخير والعدل وعسر الانقياد للشر والجور.
 - ٧- قوة العزيمة على النسئ الصواب.
 - ٨- التربية على نواميس وعادات تشاكل ما فطر عليه.
 - ٩- صحة الاعتقاد لأراء الملة التى نشأ عليها. والتمسك بالأفعال الفاضلة التى فى ملته وعدم الإخلال بكلها أو بحفظها.
 - ١٠- التمسك بالفضائل إلى هى فى المشهور فضائل غير مخلة بالأفعال الجميلة فى المشهور.
- وإذا عسر اجتماع هذه الخصال الاثنى عشر أو العشر فى رئيس واحد يمكن على الأقل أن يتصف بست منها أى بأقل من نصفها بعد إسقاط الصفات البدنية والإبقاء على بعض الصفات المعنوية غير المتشابهة أو المتداخلة مثل:
- ١- الحكمة أى الفلسفة، فالحكمة أم العلوم.
 - ٢- العلم أى حفظ الشرائع، السنن وسير الأولين فى المدينة للإعترار بها وتربية الوعى التاريخى.
 - ٣- جودة الاستنباط فيما لا يحفظ عن السلف من شريعة محتزيا حزو الأئمة الأولين.

فالاستنباط لفرع يقوم على أصل.

٤- جودة الروبة والاستنباط فى أمور جاهزة ليس لها سابقة عند الأولين وهى صفة أكثر جرأة، تعتمد على المصالح العامة والتنظير المباشر للتوقع دون الالتزام بأصل أول قد يمنع من الاجتهاد كما هو الحال فى المدارس الفقهية المحافظة.

٥- جودة الإرشاد بالقول إلى شرائع الأولين والى ما أدى إليه الاستنباط أى التعليم والدقة

٦- جودة ثبات البدن فى الحرب، فى الصناعات الحربية. فالرئيس قائد الجند، وهى الصفة البدنية اللياقية.

ويمكن تلخيص هذه الصفات الست فى أربعة: سلامة البدن، والعلم النقلى، والعلم العقلى، والحكمة. وإذا لم يوجد رئيس تجتمع فيه هذه الخصال الست، ووجد اثنان أحدهما يتصف بالحكمة والثانى بباقي الصفات الخمس الأخرى أى العلم العقلى والنقلى مع ثبات البدن كان أحدهما رئيساً مما يتطلب وجود رئيسين غير متفاضلين. فالحكمة جماع العلم العقلى والنقلى، وجماع العلمين النقلى والعقلى هى الحكمة. وإذا ما تفرقت الصفات فى عدة رؤساء، كل صفة فى رئيس تعدد الرؤساء، وهو ما يصعب حقيقة خاصة وأن الرئاسة تستلزم رئيساً واحداً. وإذا ما غابت صفة الحكمة وتفرقت الشروط الأخرى فى عدة رؤساء أو اجتمعت فى رئيس واحد تصبح المدينة بلا ملك وتتعرض للهلاك. فالحكمة سبب بقاء المدن^(١). وكلها تنويع على جواز إمامة المفضل مع وجود الأفضل فى علم الكلام.

ولا خوف من تعدد الرؤساء وذلك لأن نفوس رؤساء المدينة الفاضلة نفوس متصلة إما نظراً لوحدة النفس البشرية كما يصرح بذلك الوحي «الذى خلقكم من نفس واحدة»، وحدة النفس بالرغم من توالى العصور وكأنها ملك واحد على مر الزمان

(١) الفارابى: آراء ص ٨١ - ٨٣.

قبل الواحد القهار حتى ولو كانوا في أماكن عديدة في زمن واحد فإن نفوسهم واحدة، أو لوحدة النفس في كل مرتبة. فالطبقة هي التي تحدد الوحدة. ولا يمكن للوحدة افتراق الطبقات كما هو الحال عند الصوفية في وحدة نفوس الأقطاب، ووحدة نفوس الأبدال، ووحدة نفوس المربين، ووحدة نفوس المشايخ، أو نقلاً من وحدة الأئمة نظراً لتناسخ الأرواح عند الشيعة واستمرار روح الله في التاريخ من خلال الأئمة. وقد تكون مجرد صور فنية تبين إمكانية اتصال الرؤساء نظراً لتألف النفوس إذا بلغت درجة عالية من الحكمة^(١).

وقد يعرض للرئيس ألا يقدر على الأفعال كلها يستوفيهما حق قدرها أو شرائطها إما بسبب المنية وإما لاشغال ضرورة معوقة مثل الحروب أو أنه لا يقدر الأفعال إلا عند حانت عارض دون أن تعرض له العوارض في زمنه أو بلده، فتبقى الحاجة إلى تشريع لها يقوم غيرها باستخراجها. فالرئيس لديه الأصول، والفقهاء والأئمة من بعده لديهم الفروع. يشرع الرئيس للأصول ذات الأهمية، ويترك الأخرى إما لوقت فراغه أو لغيره إما في زمانه أو زمان بعده مثل صلة النبي بالعلماء، فالعلماء ورثة الأنبياء.

وخليفته مثله مشرع، وله أن يعتبر ما شرعه الأول طبقاً للأصلح في زمانه وهو دلالة النسخ في الشريعة لا لأن الأول خطأ بل لأن الزمن قد تغير. ويستطيع الثالث أن يغير ما شرعه الثاني إلى ما لانهائية. التقدم إلى ما لانهاية في الزمان ويؤكد التشريع. وهذه دلالة قصص الأنبياء والنسخ في الشرائع، من شريعة إلى أخرى.

وإذا مضى الرئيس الملك الإمام البر في الحقيقة ولم يخلفه من هو مثله احتيج إلى رئاسة تحذو حذوه، وتستببط من أقواله وأفعاله أشياء لم يصرح هو بها. وهنا تنشأ صناعة الفقه، استنباط أحكام جديدة حسب مقاصد الشريعة. وهنا يجوز تقليد الأول إذا غاب الثاني. فالاجتهاد يتلوا النبوة وإلا فلا مشاحة من التقليد، تقليد الإمام الأول، وهو موقف يحاول الجمع بين الاجتهاد عند أهل السنة وتقليد الإمام عند الشيعة.

(١) السابق ص ٨٥ - ٨٦.

لذلك كانت الرئاسة ضربين: الأولى نبوة، والثانية تابعة، إمامة أو خلافة، وكما هو الحال في الرئاسة الأولى والثواني وبنفس علاقة الخادم بالخدم على المستوى الأفقي في التاريخ وتوالي الأزمان^(١). ويكشف ذلك عن المصدر الداخلي: الإمامة في علم أصول الدين، والاجتهاد في علم أصول الفقه، والناسخ المنسوخ من علوم القرآن وعلم أصول الفقه.

ولماذا الصفات كلها صفات كمال! ألا تكون صفات النقص من مكونات الزعامة مثل القوة والغرور وتجاوز العاهات والإحساس بالنقص كما هو الحال في التحليل النفسي للقواد والعظام؟

ولما كان التقدير في الآراء والأفعال كانت صناعة الفقه جزأين: آراء وأفعال مع أنه لا يوجد فقه في الآراء بل في الأفعال وحدها. لذلك كان لفقه الأفعال سبعة شروط:

١- استيفاء علم كل ما صرح به واطع الشريعة بتحديد من الأفعال بقول أو فعل كما هو الحال في السنة، قولاً وفعلًا وإقراراً. فيقوم الفعل مقام القول.

٢- المعرفة بالشرائع التي شرعها الأول بحسب وقت ما تم تبديلها في غيرها ليحتذى بالأخيرة لا الأولى أي بالناسخ لا بالمنسوخ.

٣- المعرفة باللغة التي كانت بها مخاطبة الرئيس الأول، لغة الوحي الأولى وعادات استعمال اللغة في ذلك العصر، ومعرفة أوجه الاستعارة والمجاز^(٢).

٤- جودة الفطنة للمعنى لمعرفة الأسماء المشتركة التي تشارك في اللفظ وتختلف في المعنى.

(١) الفارابي: الملة ٤٩ - ٥٠.

(٢) وهو ما يصعب تطبيقه على الأنجيل التي كانت لغة الوحي الأولى الأرامية ولغة التكوين ثم اللاتينية ثم باقي اللغات الحية شرقية وغربية، وما يتطلب ذلك من قواميس تاريخية لمعرفة تطور اللغة في استعمال كل عصر.

٥- جودة الفطنة لما يستعمل على الإطلاق مثل الظاهر والعام وكما هو الحال في المبادئ اللغوية في علم أصول الفقه.

٦- معرفة المشهور من الأمور والعادات أى الواقع الاجتماعى.

٧- قوة أخذ التشابه والتباين فى الأشياء، والتميز بين اللازم وغير اللازم بجودة الفعلة والدربة والوصول إلى أنفاظ الشريعة وأفعالها ولم ينطق به بالمشاهدة أو السماع سواء كان فى زمانه صحبة أو من الأخبار سماعاً. والأخبار إما مشهورة أو مقنعة، وكل منها إما مكتوبة أو غير مكتوبة^(١).

وشروط فقيه الآراء هى نفسى شروط فقيه الأفعال إنما الأول للكليات والثانى للجزئيات، الأول للأصول وهو عمل الأصولى، والثانى للفروع وهو عمل الفقيه. والأشياء العملية فى الملة تشتمل على جزئيات الكليات التى تحتوى عليها العالم المدنى. لذلك فهى جزء من العلم المدنى. وفى نفس الوقت تدخل فى إطار الفلسفة العملية. الشرعيات والفقهيات جزء من العلم المدنى والفلسفة العملية. والفقه فى الأشياء العملية من الملة يشتمل إما على جزئيات الكليات التى تحتوى عليها الفلسفة النظرية أو على مثالات الأشياء تحت الفلسفة النظرية. فهو جزء من الفلسفة النظرية وتحتها العلم النظرى أى مجموع الأصول. وهو ما قاله الفارابى من قبل فى "إحصاء العلوم" وإدخال الكلام والفقه والعلم المدنى فى العلم الخامس كعلم واحد.

الفقه إذن علم عملى، يحتوى على أجزاء الكليات التى يتضمنها العلم المدنى. وبالتالي فهو جزء من العلم المدنى. وهو بدوره جزء من الفلسفة العملية. والفقه أيضاً علم نظرى، يشتمل على جزئيات الكليات التى تتضمنها الفلسفة النظرية. وهى مثالات الأشياء الداخلة تحت الفلسفة النظرية.

(١) الفارابى : الملة ص ٥٠ - ٥٢.

ورؤساء المدينة الفاضلة أربعة: الملك، ورئيس الأفاضل، وملك السنة، ورؤساء السنة. أولاً الملك هو الرئيس الأول له ستة شرائط مقارنة مع شروط الإمام فى الفقه وليس فى أصول الدين. الملك هنا هو الملك الفيلسوف. الحكمة غاية، والتعقل وسيلته، والمتميز بجودة الإقناع والجدل، وجودة التخيل للتأثير ثم الاجتهاد والاستنباط ثم الجهاد بالفعل. هو الملك الحكم العاقل المجادل الشاعر الفقيه المجاهد (١).

ثانياً رئاسة الأفاضل أى القيادة الجماعية فى حالة عدم اجتماع هذه الشرائط كلها فى واحد، وجودها متفرقة فى جماعة. أحدهم لديه الحكمة، والآخر التعقل، والثالث الإقناع والتخيل، والرابع الجهاد. فالجماعة هنا تقوم بدور الملك.

ثالثاً ملك السنة. وهو الفقيه أو العالم كما يقال هذه الأيام فى إيران الثورة، ولاية الفقيه. فى حالة غياب القيادة الجماعية يكون رئيس المدينة هو الذى يجتمع فيه العلم بالشرائع والسنن المتقدمة التى أتى بها الأولون من الأئمة ومديرو المدن. وتكون له جودة التمييز للأمكنة والأحوال لاستعمال السنن حسب مقاصدها كما يقول الأصوليون، العلم بأسباب النزول وبمقاصد الشريعة، والقدرة على الاستنباط لما لم يصرح به، وهو الاجتهاد بلغة الأصوليين، وجودة تعقل الحوادث التى لا تكون فى السير المتضعة لحفظ عمارة المدينة أى الوعى التاريخى، وجودة إقناع وتخيل كالمتكلم والشاعر، وقدرة على الجهاد مثل قائد الجيوش. فهو الإمام الفقيه أو بلغة العصر الوزير الأول.

رابعاً رؤساء السنة أو بلغة الفقه أهل الحل والعقد، وبلغة العصر مجلس الوزراء فى حالة عدم وجود واحد تجتمع فيه الخصال السابقة ويقوم بذلك الجميع. وهم جماعة العلماء أو إجماع الأمة وكأن الاجتهاد الفردى سابق على إجماع الأمة والاجتهاد الجماعى.

(١) الفارابى الفصول ص ٦٦-٦٧.

الحكمة (الغاية)	شروط الملك
للتعقل (الوسيلة)	
جودة الإقناع	
جودة التخيل	
القدرة على الجهاد ببدنه	
عدم وجود شئ يعوق عن فراولة الاجتهاد والجهاد	

وكل جزء من أجزاء المدينة فيه رئيس لا رئيس فوقه. وهناك مرؤوسون ليس لهم رئاسة. وهناك وسط بين الرئيس والمرؤوس، رؤساء لأدناهم، ومرؤوسون لأعلامهم، في علاقة راسية بين الأعلى والأدنى، وليس في علاقة أفقية بين الامام والخلف.

ومراتب المدينة الفاضلة تتبع مراتب رياستها. فهناك رئيس ومرؤوس بناء على تقسيم العمل أولاً ثم ترتيب الأعمال ثانياً. كل منها خادم للآخر كالفارس الذي يحتاج إلى الخيل والسراج والحداد.

والاثنان، الرئيس والمرؤوس، لهما نفس الغاية، ولكن أحدهما أتم تخيلاً من الآخر، وأكمل فضيلة، وأجود تعقلاً. رئاسته الآخر لفضله عليه، ودونه من له تخيل دون روية. فالروية أعلى من التخيل، والتخيل أقل منها. وإن كان له روية فإنه يحتذى حذو من يستتبط له. ودونه من لا تخيل له روية. إذا أعطت له الغاية والتخيل والروية قدر على الاحتذاء. ودونه من لا يتخيل الغاية ولا روية له ولا احتذاء ولكن منقاد إلى الطاعة دون علم بالغاية. وهذا هو خادم المدينة. ولا يكون رئيساً بل هو بالطبع عبد. وما بين الأعلى والأدنى أى الحكمة والطاعة رؤساء ومرؤوسون. والحكمة رئيس لها، والطاعة لا مرؤوس لها. وحذق العبد والخادم مثل حذق الرئيس. الخلاف في العمل. الرئيس يستعملها ويستخدمهما. كل درجة أعلى أشرف من الدرجة الأدنى. تستعملها وتكون مقدمة عليها^(١).

والسؤال الآن: هل مراتب الشرف معرفية خالصة أم تخضع لقرارات تقسيم العمل طبقاً للطبع والفطرة؟ هل هي علاقة صاحب رأس المال بالعامل؟ هل هي علاقة القوة النظرية بالقوة العملية، والنظر بالعمل؟ هل الرئاسة طبيعية في البشر بصرف النظر عن تقسيم العمل بناء على حديث "لو كنتم ثلاثة فأمرؤا عليكم واحداً؟"

(١) السابق ٦٧ - ٧٠.



وملوك الجاهلية مثل مندها يتسلطون على المدن طبقاً لميولهم وأهوائهم دون تحقيق باقى الغايات. وهم على النقيض من ملوك المدن الفاضلة ورياساتها. ورئيس المدينة الضرورية هو الذى له حسن تدبير وجودة احتيال فى استعمال أهلها لينالوا الأشياء الضرورية وحفظها وبذلها لهم من عند نفسه. ورئيس مجتمع النذالة هو الإنسان القادر على وجود التدبير واكسابهم الثروة وحفظها لهم. فكما يكونوا يولى عليهم.

ورئيس مدينة الكرامة هو أكثر الناس وجوداً بالإكرام. وذلك يأتى عن طريق إما الحسب أكثر مما لغيره إن كانت الرياسة بالحسب فقط، أو باليسار، أو بالحسب واليسار معاً. ومن ليس له هذا ولا ذاك فإنه لا يكون من الرياسات أو الكرامات. وأفضل الرياسات تتعداه الكرامة إلى غيره أى المدح المطلق. وهو أكثرهم نفعاً لأهل المدينة فى اليسار الملذات أو الكرامات أو الشهوات. إما ببذلها لهم من نفسه أو بتقويض ممن يحسن تدبيرها ويحافظ عليهم^(١). وأفضل الرؤساء من يعطى اليسار واللذات دون أن يطلبها لنفسه بل يطلب الكرامة وحدها والمدح والإجلال والتعظيم بالعدل والفعل، وأن يشهر اسمه عند سائر الأمم فى زمانه يبقى ذكره. وهو لذلك يحتاج إلى مال ويسار ليعطى أهل المدينة ويشبع شهواتهم من مال أو لذة. وكلما عظمت أفعاله يكون يساره أعظم لأهل المدينة. لذلك احتاج الرئيس إلى المال واليسار من أجل طلب الكرامة والحية. ويجمع المال من المدينة إما خراجاً أو غلبة قوم آخر، وإحضار أموالهم إلى بيت المال للإتفاق منها فى المدينة طلباً لكرامة. وقد يبقى المحب للكرامة شيئاً لنفسه حياً ولولده من بعده، ولا يبقى له ذكر بعده فيجعل الملك فى ولده أو فى جنسه. فالوراثة للملك من أجل الكرامة. قد يأخذ الرئيس بعض اليسار إكراها. وقد يكرم قوماً ليكرمهم. يكرم الناس ولكن يختص هو بأشياء مما له بهاء وزينة وفخامة وجلالة من بناء وملبس وشارة واحتجاب عن الناس ومركب. ويسن سنن الكرامات. ويصبح هو وجنسه ملك الناس، ويرتب الناس طبقات طبقاً للكرامة والجلالة. ولكل نوع كرامة من يسار وبناء ولباس وشارة ومركب.

(١) وهو أشبه برياسة السادات الذى يأخذ المديح، ويوكل وسطاءه من رجال الأعمال ومن الناس.

ويتبادل هو والناس الكرامات كما هو الحال فى مجتمع الملوك والأمراء والنباشين^(١).
وواضح التوسع فى وصف رئيس مدينة الكرامة. وتوحى ألفاظ الجلالة بالملكية والملوك.
وكلما ازدادت الرئاسة وازدادت طاعة الناس كان الوصول إلى اليسار أتم وأكثر طلب.
الرئاسة لطلب الجلالة لطالبى اليسار لطلب اللعب لطلب اللذات من المأكول والمشروب
والمنكوح كما وكيفا.

ورئيس مدينة التغلب هو الرئيس والملك، أقواهم بجودة التدبير واستعمالهم فى
غلبة من سواهم، وأجودهم احتيالاً، وأكملهم رأياً لرد الغالبين ولا يغلبوا أبداً، وهو ما
يناقص انهيار نظم القهر والطغيان. وقد يكون القاهرون على السواء فى محبة القهر
والغلبة، ويكونون متساوين فى المراتب أو مختلفين. لكل واحد منهم شىء غلب عليه من
المقهورين المجاورين أقل أو أكثر مما للأخر. قد يكون القاهر واحداً فقط، وله قوم هم له
آلات لقهر سائر الناس. ليس لهم همة فى غلبة شىء لنفسه أو لغيره بل حمته غلبة الشىء
لذلك الواحد إذا ما كفاه الواحد أمره، وأعطاه ما يقيم حياته وجلده ويستعمله استعمال
الكلاب والبزاة مثل المرتزقة. الكل عبيد يخضعون الواحد، أذلاء خاضعون له. لا يملكون
لأنفسهم شيئاً. بعضهم يحرق أو يتاجر له. قصده أن يرى قوماً مقهورين له حتى وإن لم
ينله أى نفع^(٢).

وتكون الرئاسة فى المدينة الجماعية بأى شىء اتفق. والجمهور مسلط لأعلى
الرؤساء، ومن يرأسهم بإرادة المرؤوسين، ويكون على هواهم. وإذا استعصى أمرهم لم
يكن فيهم رئيس ولا مرؤوس إلا المحمودون عندهم. وبلغه العصر، تنشأ الرئاسة بموجب
العقد الاجتماعى. فإن غاب فبالفضلاء من الناس أو المكرمون. والمكرمون هم الذين
يوصلون أهل المدينة إلى الحرية وإلى تحقيق شهواتهم وأهوائهم وحفاظهم من أعدائهم
الخارجين عليهم، وقد تكون المعارضة. ومن يقتصر من الشهوات على الضرورة فهو
الأكرم والأفضل والمطاع. ودون ذلك من الرؤساء إما أن يكون مساوياً لهم إذا اصطنع

(١) وهو المجتمع الذين نقدته الأفغانى فى فكرنا العربى المعاصر

(٢) وذلك مثل نظام هولاء.

لهم الخيرات أى إرادتهم وشهوتهم بذلوه كرامات وأحوال تساوى ما يفعله لهم. وبالتالي لا يكون لأحد فضلاً على أحد. بل يكونوا أفضل منه متى بذلوا له الكرامات ويجعلون له من أموالهم حظاً. لا يتمتع وجود رؤساء بهوى أهل المدينة أو برياسة آباءه المحموده أى وراثه. وقد يتسلط الجمهور على الرؤساء كما هو شائع فى نقد الديمقراطية الفوضوية ودكتاتورية الغوغاء فتتشأ أغراض المدينة الجاهلية. والرياسة فى المدينة الجماعية إما تطاولا على أهلها أو نال أهلها أموالاً وعوضاً. ويعنى التطاول تمثيل إرادة المجموع. ويعنى نيل الأموال تحقيق المنافع العامة (١).

ويخدم الفارابى المدن الجاهلة فى آخر المدينة الجماعية بمجمل الرياسات الجاهلة فى المدن الجاهلة الست لأن تحديد المدينة بنوع رياستها وليس فقط بآرائها وأفعالها. فالمقصود من الرياسة التمكن من المدينة. وليست كل رياسة أولى من الأخرى. كلها تؤدي وظيفة واحدة. والرئيس الفاضل هو القادر على جودة الروية وحسن الاحتيال فيما ينيهلهم شهواتهم وأهواءهم ويحفظها لهم من أعدائهم، ولا يرد أحد من أموالهم شيئاً إلا الضرورى لقوته، الفاضل بالحقيقة. هو الرئيس الذى يقدر أفعالهم ويسددهم نحو السعادة يرأسونه وإن رأسهم، يخلعونه أو يقلبونه وإلا كان مضطرب الرئاسة متنازعا فيها، وكان الفارابى بشير بلغة العصر إلى عيوب الديمقراطية وسرعة تغيير الحكومات.

وكل رئيس مدينة جاهله يود أن يحقق لها مآربها، ويؤتيها شهواتها ويسهل لهم الطريق إليها، ويحفظها لهم. يابون رياسة الأفاضل. وهذا يعنى ضرورة أن إنشاء المدن الفاضلة ورياسة الأفاضل عن المدن الضرورية والجماعية أسهل. أما الضرورى واليسار والتمتع بالذات وباللعب وبالكرامة فقد تنال بالقهر والغلبة. فالانتقال من الضرورى والجماعة إلى الفاضلة أسهل من الانتقال من المدن الأربعة الأخرى التى تنال بالقهر.

تتم الرياسات الأربع إذن بالغلبة مما تتطلب رياسة الإبدان وقساوة الأخلاق والجفاء والغلظة والاستهانة بالموت ونيل ما يهم وصناعة السلاح وجودة الروية. صاحب

(١) الفارابى: السياسة ص ٧٦ - ٧٨، الآراء ص ٨٤.

التمتع باللذات شره على المأكول والمشروب والمنكوح. ومنهم من يغلب عليه اللين والرقّة فتتفسخ قوته الغضبية. ومنهم من يستولى عليه الغضب وآلاته النفسانية البدنية والشهوية فتصبح نفسه ذليلة لهما وكان الفارابى قبل ابن خلدون يعتبر الترف مفسدة للرياسة والعصبيّة. ومنهم من جعل مقصوده أفعال الشهوة، ويجعل قواه العليا خادمة لقواه الدنيا، والناطقة خادمة للغضبية والشهوانية، والغضبية خادمة للشهوانية فى نظام هرمى مقلوب. يصرف همهته ورويته فى استتباط ما تتم به أفعاله الغضب والشهوة. ويعرف الأفعال الغضبية لخدمة أفعال الشهوة، المأكول والمشروب والمنكوح، ويحفظها على نفسه كما يفعل أشرف أهل البوادي من الترك والعرب الذين يعمهم الغلبة والنهم والشره. لذلك يعظم عندهم أمر النساء، ويحسن منهم الفسق، ولا يروته عيباً. يتجملون عند النساء ليعظم شأنهم عندهم. يأخذون أحكام النساء، ويتسلط عليهم النساء. يرفهون نساءهم ولا يشركوهن فى الكد^(١).

خامساً : الخلافة والإمامة والنبوة.

وتأتى النبوة فى النهاية لأنها تشريعية فى حين أن الخلافة تنفيذية، والإمامة تأويلية. فالترتيب الطبيعى النبوة فالخلافة فالإمامة حين أن الترتيب الفعلى، النبوة فالإمامة فالخلافة. فالإمامة أقرب إلى النبوة، والخلافة أبعد عنها. إذا اجتمعت الخصال فى واحد كان هو النبى أو الإمام بعده. وإذا اجتمعت فى جماعة كانت هى خليفة من بعده.

وعند الاخوان خلفاء الأنبياء الأئمة، ظاهرون فى الدور الأول وهو البدن، ومستورون فى الدور الثانى وهو النفس. فقد عقدت النبوة للإمامة باللواء.

والخلافة عند الإخوان نوعان: خلافة النبوة وخلافة الملك. الخلافة الدينية والخلافة السياسية. ومن ثم أصبح الملك والسلطان من موضوعات الخلافة. الملك النبوى بمنزلة الخلافة، نموذج الرئاسة فى الدولة، لا فرق بين نبوة وإمامة.

(١) الفارابى : المياسة ص ٧٨ - ٨١.

وفى الترتيب الهرمى للكون يظهر الأنبياء فى مرتبة أقل من الفلاسفة والحكماء. كما يظهر الحيوان فى أقل مرتبة وكأنه مكان «لوما من دابة إلا خلا فيها نذير». والحيوانات والحشرات والطيور أمم مثل البشر ولكن لا يفقه الإنسان لغتها. الحيوان زينة الأرض كما أن الكواكب زينة السماء. وما بينها العلماء والعقلاء والإنسان^(١). وأحياناً أخرى تبدو النبوة أعلى من الحكمة، والأنبياء أعلى من الحكماء. وأحياناً تبدو الملائكة فوق الأنبياء. ويتوقف الأمر على وجه الإحساس بالتثنية العقلية وبجمال الكون. فعند الإخوان نظرة إنسانية للحيوان تقديراً له. فهو جزء فى تراتب الكون، مكلف برسالة بالرغم من تسخير الإنسان له وفوائده العملية، واعتباره من الخلق فيه.

وعند ابن سينا ترتبط الإمامة بالنبوة والخلافة. ويختلط النبى مع الخليفة والإمام وكأن الخلافة عند أهل السنة والإمامة عند الشيعة استمرار للنبوة وشرعية الحكم. وتمثل قمة الإلهيات مما يبين أهمية اللاهوت السياسى باصطلاح المعاصرين. الرئاسة للنبى، وعليه أن يفرض طاعة من يخلفه، وكأن الإمامة بالتعيين وليس بالبيعة. ولا يدخل ابن سينا فى نقاش مع المتكلمين فى موضوع الإمامة أو الفقهاء مع أنه يتعرض لطرق تنصيب الإمام وشروطه وكيفية الخروج على الحاكم الظالم كما يفعل الأصوليون ووظائف الإمام كما يفعل الفقهاء. ولا يشير إلى الموروث وهو يتعامل معه، ربما لمقتضيات الإبداع وللتظهير الخالص للموضوع نقلاً لعلم الكلام إلى علوم الحكمة^(٢).

(١) الرسائل ص ١٢٤/٦/٤-١٤٤.



(٢) فى الفصل الخامس والأخير من المقالة العاشرة فى الخليفة والإمام ووجوب طاعتها والإشارة إلى السياسات والمعاملات والأخلاق، الإلهيات ص ٤٥١-٤٥٥.

١ - الخلافة والإمامة. عند الإخوان الإمامة خلافة النبي وهي الصق بالنبوة من الخلافة. والخلافة أبعد عن النبوة من الإمامة. والإمام عند مسكويه هو الحاكم بالسوية. وهو الذى يقضى على أنواع الجور. هو نموذج وقدوة. لا يعطى نفسه أكثر من غيره.

واللفظان يدلان بالضرورة على التقابل بين السنة والشيعة، الخلافة عند أهل السنة، والإمامة عند الشيعة. صحيح أن الشيعة لا يستعملون لفظ الخلافة ولكن الإمامة مصطلح سننى أيضاً فى علم أصول الدين وفى الفقه، الإمامة الكبرى أو الإمامة الصغرى.

أ - الخلافة فى الأرض. والخلافة عند الإخوان أقرب إلى الثيوقراطية، خلافة الله على لسان المعارض وتأسيس ذلك فى القصص القرآنى. آدم أول خليفة، وإبليس أول عدو طبقاً لثنائية الخير والشر، اعتراض إبليس على آدم ورفضه السجود، ووصية آدم لذريته تدل على خلافة النبوة فى الإمامة، وهو بيت التوحيد. الخلافة فى الأرض تكرر واستتاف لخلافة السماء، لآدم والعصيان. فتاريخ الملوك هو تاريخ العصيان، خلافة صورة الإنسان فى الأرض، فى المعادن والنبات والحيوان. ملوك الحيوان قوة وبطش وعدوان فى حين أن ملوك النبات والمعادن حسن خلق.

والنبوة وراثته فى الأمة. وهو أقرب إلى التصور اليهودى منه إلى التصور الإسلامى. وإن استحال وجود خصال الأنبياء فى واحد وجدت فى جماعة من أجل القيادة الجماعية. جماعة الإخوان هى المرشحة للخلافة الجماعية لتعاونها فى أمور الدين والدنيا والتصفية وكان الخلاف بين الجماعة شر والإتفاق خير بالرغم من أن اختلاف الأئمة رحمة بينهم، وفى عصر يعانى من الاتفاق ويحتاج إلى الاختلاف، وهو حق شرعى. مهمتها نصره الدين وحفظ الشريعة وإقامة السنة وحمل الأمة على منهاج الدين وإقامة الدولة ولها حسن العاقبة. فإذا ما تفرقت الأمة بعد وفاة النبي واختلفت فى المنهاج، وتشتت الشمل وقسد الأمر زالت الدولة. جماعة الإخوان هى المرشحة لتعاونها فى أمور الدين والدنيا، وحب كل واحد منهم ما يحب لنفسه. وهو رأى الحكماء والفلاسفة والفضلاء وطريق الأنبياء ومذهب خلفائهم والأئمة. وهو ما ينصح به القرآن

فى الاجتماع على رأى واحد وترك الفرقة وتآليف القلوب بصدق الأقاويل وتصديق الضمائر وعدم الكذب أو الخداع أو الخيانة والتهمة. ينصح ولا يخون، يثق فى الولاية، يتودد ولا يتحاسد، يتحاب ولا يتباغض، يوافق ولا يخالف، يتفق ولا يختلف، يتعاقد ولا يتخاذل، يتناصر ولا يتقاعد، يتعاون على صلاح الدين، رجل واحد ونفس واحدة، اقتداء بسنة الشريعة (١).

والخلافة عند مسكويه تظهر الإنسان. فهى سلطة تربوية عكس ما هو شائع فى هذا العصر من أنها مفسدة.

والمؤهلون للخلافة أربعة، من أعلى إلى أدنى، الحكماء ثم أهل الحسب والنسب ثم أصحاب الثروة ثم العامة. الخليفة هو الحكيم أولاً ثم الشريف ثانياً ثم الغنى ثالثاً ثم الشعبى رابعاً. ومن ثم يصعب أن يكون الخليفة من عامة الناس. يتقدم عليه الغنى والشريف، ويتقدم الحكيم على الجميع.

والحاكم خليفة الرسول بل خليفة الله الشارع. فالشريعة مصدر السلطة وليس الحاكم أو الشعب. ومن ثم يكون التفسير لصالحه (٢). والخليفة هو الذى يحرس الدين.

والسؤال هو: هل الإمامة أصل من الأصول كما هو الحال عند الشيعة أم فرع من الفروع كما هو الحال عند أهل السنة؟ هى عند الإخوان فقهيات من أمهات مسائل الخلاف بين العلماء. ومع ذلك تبدو من الألفاظ المستعملة مثل المفسر والإمام والوحى. ووظيفة الإمام أنها أقرب إلى الأصول منها إلى الفروع. ويضرب الإخوان المثل بالإمامة لبيان الاختلاف فى الآراء والديانات. تاه فيها الخائضون إلى حجج شتى، وكثر فيها القيل والقال، وتقاتل الناس حولها. وبدت البغضاء، وسفكت الدماء، واستبيحت الأموال بسببها حتى عصر الإخوان بل وحتى الانقلابات العسكرية فى العصر الحاضر. وتشعبت فيها الآراء إلى مالا نهاية.

(١) الرسائل جـ ٤/١١/٣١٥-٣٢٧/٣٨٢، جـ ٤/٦/١٢٤-١٢٧.

(٢) "الخليفة يحرس الدين" مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ١١٧.

ب- وظائف الامام والداعية. والأصل فيها احتياج الأمة إلى إمام، خليفة للنبي، وحفظاً للشرعية، وإحياءاً للسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما تحتاج الأمة إلى خلفاء الإمام لجباية الخراج وأخذ الأعشار والجزية وتقريبها على الجند والحاشية وحفظ الثغور وتحصين البيضة وقهر الأعداء وحفظ الطرقات من اللصوص والقطاع ودفع المظالم وردع القوى عن الضعيف، ينصف ويعدل بين الناس. يرجع إليه فقهاء المسلمين وعلمائهم لحل مشكلاتهم في أمر الدين ويكون حكماً بينهم حين الخلاف في الفقه والأحكام والحدود والقصاص والصلوات والجمعات والأعياد والحج والغزو وتولية القضاء والعدول والفتاوى. ويكن تطوير هذا الجزء وجعله تحصين الثغور والذب عن البيض والدفاع عن الأوطان.

وهناك رأيان فيما ينبغي أن يكون عليه الإمام. الأول الأفضل بعد النبي والأقرب إليه نسباً، ومنصوص عليه، وهو رأى الشيعة. والثاني خلاف ذلك دون تفضيل وهو رأى أهل السنة الذين يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل^(١).

وواضح أن وظائف الإمام عند الإخوان نظرية عقائدية. فالاعتقاد أول قاعدة يضعها الشارع ثم يبنى عليها سائر ما يتمم الشريعة من القول والعمل والأقوال والأوامر والنواهي ومعاني التأويل وفرائض وسنن الأحكام وتدابير الأمة وسياسة المملكة. وهى عشرة عقائد تجمع أصول التوحيد والعدل فى إطار نظرية الفيض^(٢). ثم تأتى الدعوة بعد

(١) قى بيان سبب اختلاف العلماء فى الإمامة، الرسائل ص ٤٩٣/١/٤-٤٩٨.

(٢) وهى ١- للعالم بارئ قديم حى عالم مكين قادر قاهر مريد، علة جميع الموجودات ومالكها ومصرفها ٢- تصور موجودات عقلية مجردة عن الهوى، كل واحد منها قائم بذاته، وبهم تقع المراسلة والوحى والإنجاز والتأييد ٣- تصور موجودات نفسانية مجردة عن الأبدان ومستقلة عنها تارة ومتعلقة بها تارة أخرى ٤- بمفارقة ذاتها، وخروجها من الأجساد لا يخرجها من قدرة البارئ ٥- كل واحدة من الموجودات متفردة بذاتها لا يصلحها ولا يفسدها إلا ما يتعلق بها من سوء أعمالها أو فساد آرائها أو رداءة أخلاقها أو تحكم جهالاتها. ٦- إذا أمر البارئ تعالى الناس أمراً مكنهم منه وأزاح عنهم فممنهم طائع لأمره وممنهم راكب نهي ٧- لكل صنف من أصناف الطاعات جزاء، ثواباً أم عقاباً. وهناك معاد وجزاء على الأعمال من خير أو شر، من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، والله لا يظلم

الإمامة وهى عامة وخاصة، علنية وسرية، لفظية ومعنوية، نصية وتأويلية. وفى حالة نقص الفهم لا يبقى إلا الإقرار. ولا يجب الإقرار باللسان والشك أو الخيانة فى القلب. الأفضل المعادة فى السر والعلن، فى الظاهر والباطن.

وهناك مراتب أربع للمدعويين. الكفار لا ظاهر ولا باطن، والمنافقون، ظاهر دون باطن، تصديق باللسان وتكذيب بالقلب، والمسلمون ظاهر دون باطن، إيمان باللسان وشك بالقلب، والمؤمنون ظاهراً وباطناً. وهى قسمة رباعية بين الإيجاب والسلب كما هو الحال فى أحكام التكليف الخمسة باستثناء المباح.

والحقيقة أنه ليست من وظائف الإمام وضع العقائد بل وظيفة عملية تقنينية خالصة، ولا وضع الشرائع بل استنباط الفروع من الأصول. وواضح من نسق العقائد ابتداء من التوحيد ونهاية بالإمامة إسقاط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وبالرغم من أهمية انتشار الإسلام فى أفريقيا وأمريكا عن طريق دعاة الشيعة إلا أن الشهداء أرفع الناس درجة. فالشهادة من الشاهد والشهيد.

وعند ابن سينا الإمام هو العلنى ظاهراً أو باطناً كما هو الحال عند أهل السنة وليس الإمام الخفى المستور كما هو الحال عند الشيعة. تجب له الطاعة وليس النصح أو العزل أو الثورة عليه. وإذا افترق الناس أو تنازعهم الأهواء أو اجتمعوا على غير ما يستحق فقد كفروا مع أنه لا يجوز اجتماع الأمة على ضلالة، ولا يجوز تكفير أحد من المسلمين والأولى تكفير الجماعة. تتركز السياسة فى شخص الحاكم. ويغيب دور المؤسسات والنظم السياسة إلا فى إشارات قليلة فى المعاملات.

وكيفية تنصيب الإمام طريقان. الأول طريق النبى، والثانى طريق إجماع السابقين على من يتصف عند الجمهور بثلاث صفات: الاستقلال فى السياسة وليس التبعية

= ٩- أول الدعاء إلى الله الأعمال بالثواب وأرفعه درجة عند الماب ١٠- الدعاء أعلى الناس درجة وأرخصهم منزلة وأشدّهم فى الدعاء وأكثرهم فيه، وأوسعهم علماً وأكثرهم أمة، وأعظمهم نعمة، وأنطقهم بالصدق وألزمهم بمنهاج الحق، الرسائل ص ١٣٠/٦-١٣٢.

للسلطان، أصالة العقل والإتصاف بالأخلاق مثل الشجاعة والعفة وحسن التدبير، والعلم بالشريعة أى الإتصاف بالعلم.

وإذا خرج أحد على الإمام بدعوى قوة أو مال، وربما فى الذهن معاوية فعلى الكافة قتاله وقتله. فإن قدروا نكصوا كفروا. ويحل دم القاعد القادر بعد أن يصح على المملأ ذلك منه. فإن كان الخارجى أكمل من الخليفة وكان الخليفة غير أهل الخلافة خرج أهل المدينة معه. والمعول على ذلك إثتان. الأول حسن العقل وصواب الحكم. والثانى حسن الأيالة والبصر بالعاقبة. وقد يوقع ذلك الجميع فى شقاق قتل الخارجى ثم قتل القاعد عن القتل (١). وماذا عن العزلة عن الفريقين المتحاربين حقنا للدماء كما فعل الحسن وأوحى الرسول؟ فالمتقدم فى هذين الشرطين دون أن يصير إلى أضدادهما فهو أولى بالخلافة. يشارك أعلمهما أعقلهما، ويعاضده كما فعل عمر وعلى. فعلى الأعلّم، وعمر الأعلّ. ويتضح من ذلك الجمع بين السنة والشيعة. فأين سينا ليس سينا على الإطلاق لأنه لا يقول بالبيعة بل بالنص. وليس شيعياً على الإطلاق لأنه يجوز الخروج على الإمام ولا يقول بالعصمة والتقبة. يتولى عمر وعلى فى آن واحد. لا يكفر الشيخين، ويقول بأهمية على. وإذا صعب استحقاق الخليفة من عدمه فى حالة الإختلاف عليه يفضل النص على تنصيب الإمام كما هو الحال عند الشيعة.

وللإمام وظائف ومهام محددة يمكن إجمالها فى سبع.

١- فرض العبادات فى أمور التعظيم مثل الأعياد والاجتماعات والتمسك بالجماعة والدعاء للناس، والدعوة للشجاعة والمنافسة لإدراك الفضائل ونزول البركات، وكان الفيلسوف الإشراقى قد نحو إلى صوفى خالص. وظيفة الإمام هنا احتفالية شكلية موسمية خالصة.

٢- الإستراك فى المعاملات التى تقوم عليها المدينة مثل المناكحات والمشاركات الكلية. وهى الأحوال الشخصية، وكان الإمام يتدخل بشخصه فيها وليس عبر المؤسسات

(١) هو - يحدث فى الحزائر حالياً.

القضائية وأحكام الشريعة والنظم التشريعية مثل العقود والخراج. وتشمل أيضاً المعاملات التى بها الأخذ والعطاء وفرض السنن التى تمنع من وقوع الظلم مثل المعاملات التجارية. يمنع المعاملات الظالمة مثل الصرف والنسيئة كما هو معروف فى الفقه. ويسن للقوانين لمعاونة الناس بعضهم لبعض ووقاية أموالهم مثل القوانين الاجتماعية التى تنظم الجمعيات الأهلية. ويقاقل الأعداء ويبيح أموالهم وفروجهم لأنها ليست من المدينة الفاضلة. وهى تشريعات قديمة ارتبطت بعصرها. فمعاملة المحاربين والأسرى والأراضى تحت الاحتلال تحكمها القوانين الدولية. وواضح هنا الجمع بين السياسات الداخلية والخارجية فى المعاملات.

٣- تأمين حماية البلاد فى الخارج وأمانها فى الداخل. قد تكون للمدينة سنة حميدة، فإذا أوجب الوقت التصريح بأنه لا سنة غير السنة النازلة فإنها قد تسن على الأمم الضالة وتحمل على العالم بأسره. وإذا رأت المدينة الحسنة هذه السنة محمودة وأن فى تجددها إعادة أموال أمم فاسدة إلى الصلاح ثم صرحت بعدم قبول هذه السنة وكذبت بأنها نازلة على المدن كلها كان ذلك وهنا عظيماً عليها. ويكون للمخالفين الاحتجاج فى ردها بامتناع أهل المدينة عنها. حينئذ يجب تأديبها ومجاهدتها دون مجاهدة أهل الضلال أو إلزامهم غرامة. ويكونون من المبطلين لإنكارهم الشريعة النازلة. فاما أن يهلكوا عن استحقاق إفساداً لأشخاصهم وبقاء لصالحهم خاصة وأن السنة الجديدة النازلة أفضل. واضح أن ابن سينا يحاول تعقيل فقه الحرب والسلم، والجهاد والفتح، الإسلام أو الجزية أو القتال. ويعترف بوجود سنن فاضلة بالفطرة وبحكم العقل، شرع من قبلنا، والشرائع السابقة، وسنن الأمم، الصابئة أو المجوس أو البراهمة أو شرائع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى. يخشى عليها من الأمم الفاسدة، فالعقل فى حاجة إلى نقل، والنقل فى حاجة إلى عقل. ومهمة الشريعة الكاملة صلاحها وإكمالها، والأوجب تأديبها لأنها أخذت نصف الحق دون النصف الآخر. فهم ليسوا من أهل الضلال الصرف. ويمكن مسامحتهم على فداء أو جزية دون اعتبارهم من المدن الضالة.

٤- توقيع العقوبات، وإقامة الحدود للزجر والمنع من معصية الشريعة. إذ لا ينزجر كل إنسان خشية من الآخرة. العقوبة المادية العاجلة ضرورية إذ لا تكفى الخشية من العقوبة المعنوية الآجلة. والأفعال التى يعاقب عليها هى تلك الأفعال المخالفة للسنة، المؤدية إلى فساد المدنية مثل الزنا والسرقه والتواطؤ مع العدو. أما إضرار الشخص لنفسه فجزاؤه التأديب فحسب. وقد وضعت السنن على حد الاعتدال فى العبادات والمزاوجات والمزاجر دون تشدد أو تساهل.

٥- الاجتهاد فى المعاملات لأن الأحكام تتغير بتغير الأوقات، ولا يمكن ضبطها فى صياغة واحدة منذ البداية وحتى النهاية. ويتطلب ذلك تطوير التشريع طبقاً لتطور الزمان. ولا يجوز فرض الأحكام الجزئية أو الكلية لأن الزمان متغير. ويترك ذلك إلى أهل الشورى والعلم. وهى مهمة جماعية وليست بالضرورة وفقاً على الإمام.

٦- تنظيم المدينة فى الداخل والخارج أى التجارة الداخلية والخارجية وتسليمها وتقوية التطور. تلك مهمة السلايس من حيث هو خليفة بمعرفة الحفظة أى جهاز الدولة. وهو ما استبقاه عمر بعد فتح فارس من تدوين الدواوين. مهمة الإمام إذن الاقتصاد والحرب، التجارة والدفاع، البضاعة والسلاح.

٧- سن الأخلاق والعادات مع أنها مجرد أعراف جماعية أو عادات فردية تدخل ضمن إطار الحريات الاجتماعية والحقوق الفردية. ويعتمد الإمام فى ذلك على تعريف الحكماء للفضيلة بأنها وسط بين طرفين وذلك من أجل كسر غلبة القوى النفسية وإزكاء النفس وتخليصها من أوامر البدن ومفارقة لها واستعلاؤها عليه، ثم استعمال القوى للمصالح الدنيوية، والاستفادة من الميزات لبقاء البدن واستمرار النسل، وتوظيف الشجاعة للمحافظة على المدينة^(١). ويجب تجنب الإفراط فى المصالح الإنسانية، والتفريط لضررها على المدينة. والحكمة النظرية لا توسط فيها بل التوسط فى الحكمة العملية وحدها، فى الممارسات العملية وسلوك الناس

(١) ابن سينا: الإلهيات ج٢/ ٤٥٢-٤٥٥.

دون الوقوع فى "الجريزة" أى الإنشغال بالدنيا والحرص عليها. يحقق الإمام إذن الفضائل الثلاث: العفة والشجاعة والحكمة، والعدلة هى التوسط بين هذه الفضائل الثلاث فى فضيلة رابعة. فالنواعى ثلاثة: شهوانية تدفع إلى فضيلة العفة مثل لذة المنكوح والمطعموم والملبوس والراحة، وغضبية تدفع إلى فضيلة الشجاعة مثل الخوف والغضب والغم والأنفة والحقد والحسد، وتديرية تدفع إلى فضيلة الحكمة^(١). والسعادة هى اجتماع الحكمة النظرية والعملية. والرب الإنسانى اجتماع الفضائل النظرية مع الفضائل العملية مع النبوة. تكاد تحل عبادته بعد الله. سلطانه العالم الأرضى، وخليفة الله فيه، اقتراباً من التصور الشيعى الإمامة الذى يصل إلى حد الألوهية^(٢).

والداعية هو يد الإمام اليمنى. وله أيضاً خصال ومهام أربع. الأولى الوعى بأحوال الناس وموالاتهم حتى يصيروا رجالاً واحداً. صاحب الشريعة هو الرأس وهم الجسد، ومثل تصرف القوى الفكرية فى القوى الحساسة، شعب واحد، وأمة واحدة، انتقالاً من الإشراف إلى السياسة أو من خارج العالم إلى داخله^(٣). والثانية بذل المال والنفس والأهل فى إقامة الشريعة. والثالثة سن سنة وسيرة عادلة لصالح الجمهور والنفع العام دون اعتبار لمشقة أو ضرر. خلفاؤه فى التاريخ والمستقبل وليس فقط الحاضر. ونسبة الحاضر إلى المستقبل كنسبة الأحاد إلى العشرات وعشرات الألوف إلى مئات الألوف إلى آلاف الألوف .. الخ، كاشجرة الروحانية أصلها ثابت وفرعها فى السماء. والرابعة عدم نسبة أى رأى إلى نفسه بل إلى الواسطة التى بينه وبين الله من الملائكة على عكس الحكماء الذين ينسبون الحكمة إلى أنفسهم كما هو الحال فى

(١) وهذا ما عبر عنه سيد قطب أيضاً فيما سماه استعلاء الإيمان.

(٢) من نجمت له الحكمة النظرية فقد سعد، من فاز بالخواص النبوية كاد أن يصير ربا إنسانياً، ويكاد أن تحل عبادته بعد الله تعالى. وهو سلطان العالم الأرضى وخليفة الله فيه، الإشارات ج ٢، ٤٥٤-٤٥٥.

(٣) وهو ما يقوله المسيحيون فى الصلة بين المسيح والكنيسة.

تصور الرئيس الملهم. وخلفاء الدعاة الذين بهم يتم الدين والدنيا وإقامة الشريعة لهم أيضاً أربع خصال: عقل يعرف به القبيح، وقدرة فى الأفعال والأقوال، وأن تكون وصية كل واحد من واضع الشريعة، وأن يكون لكل جماعة رئيس. أما الفقهاء فلا يحتاجون إلى رؤساء فالعقل رئيسهم^(١). وقد تكون الوصية فرض وصايا على العقل وبالتالي الخضوع لسلطة أخرى غير سلطة العقل. ومن ثم تجتمع السلطان، الدينية والسياسية كمصدر للقهر فى الفكر السياسى.

وبالرغم من وجود عناصر شيعية مما لا شك فيه أكثر من العقائد المباشرة كاتجاه عام مثل التأويل، النزعة الصوفية الاشراقية، وكموقف خاص فى الإمامة التعيين بالنص وتأليه الأئمة ولو احتمالاً عن طريق الفضائل النظرية والعملية إلا أن ذلك يدخل ضمن الدراسات الاستشرافية وليس التحليل الفلسفى الخالص. وهو ما حدث فى توفيق التطبيق^(٢). وقد يكون الهدف أبعد من ذلك وهو إثبات أن الإبداع الفلسفى شيعى الاتجاه كما هو الحال فى الحكم على كل الفلاسفة المسلمين إما بإرجاعهم إلى الطائفة والملة، شيعى، سنى أو إلى العرق والقوم، عربى، تركى، فارسى، وهو ما استمر حتى العصر الحاضر. والعنوان غريب يدل على التطابق بين ابن سينا والشيعية. وقد يدل على علم

(١) الرسائل ج٣/٤/ ١٣٤-١٣٧.

(٢) على بن فضل الجيلانى: توفيق التطبيق، فى إثبات أن الشيخ الرئيس من الامامية الاثنا عشرية، تقديم وتحقيق وتعليق د. محمد مصطفى حلمى، عيسى البابى الحلبي، القاهرة ١٩٥٤. ويضم مقدمة للمؤلف (ص ٣-٦) ثم مقالتين: الأولى فى وجوب الواهب وتوجيهه وعينيته وصفاته الحقيقية (٩-١٠)، والثانية فى أن كلام الشيخ موافق لمذهب الإمامية (١٣-٥٠)، ثم الحديث عن الإمامة والعصمة والنفس واليقين والنبوة وذكر الاستشهادات والمناسبات من كلام الشيخ الرئيس (٥٣-٥٨) ثم ذكر كلام الشيخ الرئيس وتطبيقه موافق لمذهب أهل الحق واليقين على وجه التوضيح والنتيجه (٦١-٩٧). ويستعمل المؤلف بعض انكباب الأخرى غير الشفاء مثل جوابه على مسائل أبى الحسن العامرى (ص ٥٥)، والرسالة العرشية (ص ٥٦). ويحتوى على تعليقات كثيرة لناشر أقرب إلى حصول الناحل، مجرد تجميع مادة لتكبير حجم الكتاب ولا شأن لها بان موضوع، مجرد فرصة لتأليف لكتاب نفسه صغير الحجم. ويكرر الناشر نفسه فى بعض الأفكار باسئلوب انشائى من أجل بيان إمكانياته الفلسفية وأنه من مدرسة مصطفى عبد الرزاق.

الميزان، تطابق الحكمة والشرعية كما هو الحال عن إخوان الصفا وكل الفلاسفة دون تمييز بين سني وشيعي. والشيعية حركة معارضة سياسية تحولت إلى ثقافة شعبية ضد السلطة القائمة التي تمثلت ثقافة الطبقة الراقية، الطبقة الحاكمة^(١). المقالة الأولى في العقائد. ومعظم الكتاب في الوجود في الأذهان والوجود في الأعيان، وأن واجب الوجود هو الحقيقة، والدليل الأنطولوجي، ومقالة صغيرة ليس بها من عقائد الإمامية شي^(٢).

والحقيقة أنه لا يمكن أخذ جزء من المقالة العاشرة للشفاء وهي أصغر المقالات في النبوات كدليل على أن ابن سينا شيعيا من الإمامية الاثني عشرية^(٣). وماذا عن المقالات التسع الأخرى؟ لو كان إماميا لكان له نسق فلسفي آخر غير المشائية. والحديث عن النفس والعقل وإدراك ما يقولونه ولا تقبله نفسه يوحي بأنه يستمد مصادره لصالح التنظير العقلي المباشر وبنية العقل الطبيعي الصريح. ومعظم الاستشهادات في موضوعات الإمامة والعصمة والنفس واليقين والنبوة تمت على نحو انتقائي من "الشفاء" ومن "الرسالة العرشية" مع استبعاد العناصر العقلية الخالصة. والقول بالعناية واللفظ ليس بالضرورة شيعيا من ابن سينا بل هو ميراث عام في الفكر الفلسفي الكلامي والفلسفي والأصولي والصوفي. وإذا كان هناك تشابه بين موقف ابن سينا والشيعية فانه راجع إلى وحدة المصدر وهو الموروث الاسلامي وليس لأثر أحدها على الآخر. كما يتم تأويل كلام ابن سينا بحديث يكون دائما ملائما لمذهب الإمامية الاثني عشرية وأنداده من أسرة شيعية. فقد أجاب أبوه داعي المصريين وسمع منهم ابن سينا في طفولته. وهو لا يعنى بالضرورة أن كل نسقه شيعي الاتجاه وأنه كان من أكابر الشيعة الإمامية الاثني عشرية.

(١) وقد كان هذا هو الهدف من تأسيس الأزهر في البداية الذي مازال يجمع بين ثقافة الطبقة وثقافة الشعب، ثقافة السلطة والثقافة الجماهيرية.

(٢) ومن ثم يكون أقرب إلى فيورباخ.

(٣) مسائل الإمامة والخلافة والعصمة أو مسائل النفس وخواص القوة القدسية والنبوة وضرورة وجود النبي وأوصاف المتكلمين والعارفين وأصحاب النفوس القدسية والمعاد وترتيب المدينة وسياسة الدولة وشئون المجتمع، كل ذلك في الفصل الأخير من المقالة العاشرة من إلهيات الشفاء.

والحقيقة أن المؤلف من علماء القرن الحادى عشر أى من المتأخرين يريد إرجاع الحكمة إلى الكلام باعتباره العلم المستمر بعد نهاية الفلسفة بموت ابن سينا فى العالم السنى وبصدر الدين الشيرازى فى العالم الشيعى وتحويلها إلى فرع من فروع علم الكلام. فابن سينا شيعى، يتم تحويله من حكيم إلى أحد رؤساء الفرق الكلامية واستمرار المشكلة إلى هذا القرن المتأخر. وقد يكون السبب استمرار تكفير الفلسفة والفلاسفة وإخراجهم من دائرة المركز، أهل السنة. وقد يكون دفاعا مبطنا عن ابن سينا لآخراجه عن حكم الغزالى بتكفير الفلاسفة وإثبات أنه ليس زنديا ولا سنيا ولا كافرا بل موحدا مؤمنا إماميا. وقد يكون الحكم على ابن سينا على هذا النحو هو تبادل علوم الحكمة فى مرحلة الموسوعات (ابن سينا) بعد مرحلة الأشخاص (الكندى والفارابى).

٢- الملك والسلطان. وهما تعبيران متداخلان، ولفظان قرآنيان. الملك هو الملك النبى مثل داود وسليمان، والسلطان هو الملك الذى يجد شرعيته فى الدين. فى الملك النبى الأولوية للنبوة على الملك، فالنبوة بلا ملك، مثال بلا واقع، دين بلا دولة، عقيدة بلا شريعة. وفى السلطان الأولوية للملك على النبوة، فالملك بلا نبوة سلطة جائرة، واقع بلا مثال، شريعة بلا عقيدة.

أ- الملك النبى. والملك عند الاخوان هو صاحب السلطة التنفيذية. يعمل لدى الإمام خليفة النبى. مهمته أخذ البيعة، وترتيب الخاص العام، وجباية الخراج والعشر والجزية، وتفريق الأرزاق على الجند والحاشية، وحفظ الثغور، وتحصين البيضة، وقبول الصلح والمهادنة، وإعطاء الهدايا لتأليف القلوب.

ودور النبى الوحى والدعوة، والتدوين والكتاب، وإجراء السنة الشريفة. فالأنبياء أطباء النفوس، فهى أدوار ثلاثة. الأول استقبال الوحى من الملائكة وهو البعد الرأسى فى النبوة، وتدوين الكتاب المنزل بالألفاظ الوجيزة، وكان النبى هو الذى يكتب الحرف، وتبيين القراءة بالصوت والفصاحة، وإيضاح المعانى وبلوغ التأويل، ووضع السنن المركبة، ومداواة النفوس المريضة من المذاهب الفاسدة والآراء السخيفة والعادات

الرديئة والأفعال القبيحة، ونقلها من العادات والآراء، ومحوها من الضمائر بذكر عيوبها ومداواتها من الأسقام إلى العادات بالحماية لها من العودة إليها، واشفائها بالرأى الرصين والعادات الجميلة والأعمال الزكية والأخلاق الحميدة بالمدح والترغيب في الثواب ليوم المعاد. والثاني سياسة النفوس الشريفة عن قصد سبيل الرشاد وردّها في سلوكها في وعر الطريق البغى بالتمادى، وسياسة النفوس الساهية والأرواح اللاهية من طول الرقاد ونسيانها ذكر المعاد بالتذكّار لها يوم المعاد نذيراً للناس. ثالثاً إجراء السنة في الشريعة وإيضاح المنهاج في الملة، وتبيين الحلال والحرام، وتفصيل الحدود والأحكام في أمور الدين، والترهيب فيها وذم الراغبين إليها، وتفصيل أحكام الخاص والعام وما بينهما من سائر الطبقات^(١). والسؤال هو: هل التدوين من خصائص النبي وكذلك التفسير أم من الأجيال اللاحقة، التدوين بالألفاظ الوجيزة وكان الألفاظ من اختياره وأنه حرّ التصرف في انتقائها؟ وخصال النبوة خطاب إنشائي عام في حين أن خصال الملك خطاب تحليلي دقيق.

وخصال الملك هي خصال الإمام. فهل يجمع الإمام بين النبوة والملك، بين السلطتين الدينية والسياسة في حين أن النبي يمثل السلطة الدينية وحدها؟ ومن ثم تكون الإمامة في السياسة أقوى من النبوة. ولما كان الدين والسياسة صنوان، حاجة الدين إلى سياسة وحاجة السياسة إلى دين، كانت الإمامة أقوى من النبوة على الإطلاق. وهو نسق لا خلاف عليه في التوراه والإنجيل والقرآن وصحف الأنبياء. وهو أيضاً نسق عقلى عام، الجمع بين النبوة والملك، بين الدين والدولة، الاستشهاد بالقول المأثور لأردشير ملك الفرس في وصيته، أن الملك والدين إخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بالآخر، وذلك أن الدين أس الملك، والملك حارس. فما لا أساس له مهذوم، وما لاحافظ له ضائع. لابد للملك من أس، ولابد للدين من حارس.^(٢) وقد تجتمع النبوة والملك في شخص واحد مثل

(١) الرسائل جـ ١/٤٩٤-٤٩٦.

(٢) وقد حاول بعض العلماء والحكام تفريق بينهما مثل علي عبد الرازق، وخالد محمد خالد الأول قبل أن يتحول سعودياً في الدين والسياسة. كنّ العلمانيين والضيابط الأحرار في صراعمهم مع =

داود وسليمان ويوسف ومحمد، وقد يختلفان مثل المسيح إيثارا لملكوت السموات على ملكوت الأرض، وإعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

ويظهر من القصص الرمزية أن الملك هو النبي كما قال داود وسليمان. الدين دولة، والدولة دين. والتوحيد بين النبوة والملك ليس حرصا على الدنيا بل حرصا على الدين. فالملك عارض لأسباب عديدة. فلو كان الملك في غير أمته لردهم عند دينهم أو عذبهم كما فعل فرعون مع بنى إسرائيل. وقد قال أردشير أن الملك والدين توأمان. والناس بطبائعهم لا يرغبون إلا في دين الملوك، ولا يرهبون إلا منهم. والناس على دين ملوكهم كما لاحظ ابن خلدون فيما بعد. والسؤال هو إذا كان الملك عارضا فكيف يمكن تأسيس الدولة وتحقيق الدين كنظام شرعى للعالم؟ السلطة تنشأ في المجتمع أولا أى الدولة ثم تبحث بعد ذلك عن شرعية بالدين أولا وبالمذاهب السياسية ثانياً. وإذا كان في طبيعة الناس الرغبة في دين الملوك كيف يمكن إذن تفسير ثورة الأنبياء على دين الملوك مثل ثورة موسى ضد فرعون، وعيسى على اليهودية، ومحمد على دين قومه، وإبراهيم على قومه عبدة الأصنام؟ بل إن تاريخ الأنبياء هو تاريخ الثورات على ديانات الملوك.

وأحيانا ينشأ التعارض بين أخلاق الملوك وأفعال النبوة لأن الملك أمر ديني، والنبوة أمر ضروري. فالدنيا والآخرة ضدان. وأكثر الملوك راغبون في الدنيا حريصون عليها وتاركون الآخرة وناسون لها. والأنبياء زاهدون في الدنيا راغبون في الآخرة، يأمرون بها ويحذرون إليها^(١).

ويعطى الاخوان تأويلا لحكاية الملكين بيبابل هاروت وماروت على أن ملكا من ملوك الفرس عليه نعمة ظاهرة، منغمسا في الدنيا ووزيره عاقل طبقا لثنائية الخير والشر. ثم مرض الملك وعز الطبيب والدواء. وبيكثر الخروج على الملك والرغبة في الانتفاض عليه إذا علم الناس مرضه مما يدل على جو القلق السياسى. وخاف الوزير

= الاخوان المسلمين. لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين.

(١) السابق ج ٤/١٩٦-٤٩٧.

من السؤال فى حين كان الملك يتوقع السؤال كما هو الحال فى أسباب النزول.

والشيخ البعيد له اثنا عشر تلميذا مثل حوارى المسيح. أرسل رسولين إلى الملك لتعليمه العلم الرياضى والعلم الالهى، العلم الالهى ملك والعلم الرياضى وزير. ولم تتجح وصايا الشيخ. وقد حاول الرسولان الجمع بين السعادتين. الدنيا والآخرة، واستحال ذلك. وفرض الواقع نفسه، اختيار أحد النقيضين، وهو أقرب إلى النموذج المسيحى منه إلى النموذج الإسلامى.

وتغير الملك بسبب حلم الشيخ الذى أتاه ونبهه إلى زوال سلطان الأرض. طار الشيخ وسار فى الهواء. وأدرك الملك الانتقال من الضد إلى الضد، أنه مملوك وليس مالكا، جاهلا وليس عالما، حيوانا وليس انسانا. فالحكاية لها خطان متعارضان. انقلب الرسولان من الآخرة إلى الدنيا بالرغم من وصية الشيخ، وانقلب الملك من الدنيا إلى الآخرة، أشبه بتكافؤ الأدلة والشك، وضرورة وجود مقياس للاختيار بين المصيرين، قوة الدعوة إلى الآخرة للملك، وقوة الدعوة إلى الدنيا للرسولين. تشبه دعوة الملك دعوة الغنى من المسيح "اترك ما فى يدك واتبعنى"^(١).

وتظهر فى القصة الرمزية بعض مظاهر الحكم والدولة مثل دور الشائعات وأهميتها بالنسبة للسلطان. ومازال الأدب الشعبى أداة التعبير عن السياسى، من ذهب للانتقام فاكتوى بنار الحب^(٢). وقد تجلى ذلك كله فى رسالة الحيوان كقصة رمزية فى الأدب السياسى. وتبدو القصة كأنها تدعو إلى الثورة على سلطان الأرض مثل الصوفية وزعزعة خوف الناس وخضوعهم له. يبدو الجو السياسى للقصة، الثورة ضد الأمم الطاغية والأحزاب الباغية التى تكذب الأنبياء، وربما كان القصد الأمويين. وعلى هذا النحو ترتبط السياسة بالتاريخ، نشأة الدولة وسقوطها وكما تشهد على ذلك البروج والكواكب.

(١) الرسائل جـ ٤/٣١٧ - ٣١٨ / ٣٢٢ - ٣٧٤.

(٢) وذلك مثل دعاء الكروان لطله حسين.

وتعليم الملوك العلم الرياضى والعلم الإلهى دون ذكر للعلوم الطبيعية أو العلوم
الناموسية يجعل الرياضة مقدمة للإلهيات. كما تدل على عدم انفصال السياسة عن
الأخلاق. مازال الملك هو الأساس. به قيام الدولة وسقوطها. وتتدخل أحلامه فى إدارة
الدولة وقراراتها السياسية مثل فرعون ويوسف. فقد أخرج الملك عن السجن كما فعل
بولس فى الإنجيل عن طريق حلم الملك وخوفه^(١). ويستلهم الاخوان المادة القصصية من
التوراه والإنجيل والقرآن والأدب الفارسى.

وعند مسكويه القائم بحفظ السنة وغيرها من وظائف الشرع الإمام وصناعته
الملك. فالإمام بحكم ولا يفتى ويؤول فحسب. ويعتمد على نفس القول الشهير لأردشير
ملك فارس وحكيمها: الدين والملك أخوان توأمان، لا يتم أحدهما إلا بالآخر. الدين أس
والملك حارس. وكل ما لا أس له مهدوم، وكل ما لا حارس له ضائع. وانتهى زمان
الحاجة الإلهية بانتهاء النبوة فوجب تدبير الملك بالإمام الحق والملك العدل^(٢). وظيفة
الملك حراسة الدين وإلا كان متغلبا متسلطا^(٣). وحراسة الدين شئ والثيوقراطية شئ
آخر. الدين لا يحكم بل يشرع، والحاكم هو السلطة التنفيذية التى تقوم بالمحافظة على
حسن التطبيق^(٤).

ونسبة الملك إلى الرعية نسبة الأب إلى الأولاد والله إلى العالم. الرعية بالنسبة
لبعضها البعض علاقة قوى وتساوى، وبالنسبة للملك علاقة رياسة. الأولى أفعية والثانية،
رأسية. وهى فقرة صغيرة ولكنها هادفة، منخفضة بين المحبة والصدقة مثل حراسة
الخليفة للدين، وكاختفاء فقرة الملوك القدوة داخل الأخلاق. تقوم السياسة هنا على أخلاق
الواجب فى الأسلوب وربما على أخلاق الطبيعة فى التحليل^(٥). وتقوم الأخلاق السياسية

(١) الرسائل ج٤/١١/٤٥٧ - ٤٦٠ ج٤/١١/٣١٥ - ٣٢٧ / ٣٧٧ - ٣٨٠.

(٢) الإمام العادل مسكويه: تهذيب الأخلاق ص ٩٧.

(٣) وهو نفس الموقف الذى يتوحد فيه الدين بالسياسة مثل هيجل فى الفلسفة الغربية.

(٤) مسكويه: تهذيب الأخلاق ج١٢١ - ١٢٣.

(٥) وبلغت الفلسفة الغربية المعاصرة الجمع بين كانتط وبرجسون.

أحياناً على الأخلاق النفسية التربوية من أجل تأسيس المجتمع الأبوى فى صلة النفس بالبدن، والملك بالرعية، والأدب بالأسرة، والله بالعالم. وكما بدا ذلك فى النقاط السياسية التطبيقية الأخيرة فى آخر تهذيب الأخلاق". الأخلاق السياسية هى أخلاق وجوب، ما ينبغى على الحاكم. رئيس المدينة هو المؤدب للناس كما أن العقل مؤدب لقوى النفس. هو المعلم والملهم والقائد والإمام والرئيس والنبى والزعيم إلى الأبد. وتتم تربية النفس علمياً بالفكر وعملياً بالصناعات. فالملك هو الحكيم الأول والصانع الأول^(١).

كما تدخل الصداقات والرياسات فى الخيرات فى مقولة الاضافة. فلا رئيس بلا مرؤوس، ولا صديق بلا صديق. الرياسة ضد الغاية فى ذاتها بل غايتها عملية، فى التقدير والادارة والحكم.

والسلطان له أيضاً تضييفات أكثر من العامة لأنه قوة وحفاظا على الصحة مثل تعامله مع الأصدقاء والحساد، وحاجته إلى المؤن فى الإصلاح، ولومه باستمرار واستبطاؤه، واستزادة الأهل والأصدقاء منه، وتحريم ذلك على أهله وحريمه وخاصته، وحصاره بين الفقراء والأغنياء.

وللملوك هموم. يظن الرائي لهم أنهم مسرورون وهم مهمومون. يسأمون الالتذام بالملوك بعد أن يصبحوا ملوكاً. فالملك نقيض الحكمة التى لا سأم فيها. والملك اغتراب عن الدنيا وتعفف منها. فالملوك هم أشد الناس فقراً لكثرة حاجتهم بالرغم مما يبدو عليهم من ثروات. وهم من الناس وليسوا غرباء عنهم، من الداخل وليسوا من الخارج. وهم فى نفس الوقت من أشقى الناس فى الدنيا والآخرة. يزهد الملك فيما عنده بينما يرغبه الآخرون. يحسده القليل، ويسخط منه الكثير. ويسأم الرخاء^(٢).

ويمكن نقد الملوك فى رغبتهم اقتناء الجواهر النفيسة وجزع نفوسهم لفقدانها. واختلاف الجزع حسب الطبقات. جزع الملوك أشد من جزع أواسط الناس والتجار. إذا

(١) وهذا هو الجمع بين Homo Spiens و Homo Faber

(٢) السابق ص ١٢١ - ١٢٣ / ١٤٩ - ١٥١ / ١٤٨ - ١٤٩.

احتاجها الملوك لا يستطيعون بيعها لأن ذلك فضيحة، ولا يستطيع أحد شراءها. والقادر يخشى الملك. كما يمكن نقد تجارة الجواهر النفيسة والاستحواذ عليها من الملوك وأواسط الناس. إذ يطلبها من هو أعلى منه. ولا يستطيع منعها وإلا تم اضطهادها. ولو سمح بها لعجز عن فقدانها. ولا يجب الاحتفاظ بها لأنها معرضة للسرقة في حالة الاستعمال أو تبقى في الخزائن فلا ينتفع بها^(١).

ويعتمد مسكويه في تحليله على مصادر داخلية صرفة واقتداء بالصحابة الأوائل^(٢). كما يعتمد على بعض الروايات والأخبار وليس بالضرورة على الأحاديث الصحيحة. الألفاظ موروثة مثل الإمامة والخلافة والنبوة والعدل والجور. والسؤال هو: كيف تأخذ هذه الألفاظ دلالاتها المدنية في عصر الثورة على الملوك وتنصيب الأئمة والدعوة إلى الخلافة، وتآله الحكام والرؤساء، لا فرق بين ملكيين وجمهوريين؟

ب- سلطان العصر. ويصور التوحيدى أحوال العصر. وهو الوحيد من بين الفلاسفة الذى يخرج من أحكام الحكمة النظرية المجردة، بنت العقل الخالص إلى الواقع الاجتماعى بكل أزماته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وممارساته الأخلاقية. فكل فكر هو رد فعل على ظروف العصر. فالتأليف ليس كتاباً مقررراً كما هو حادث فى هذا العصر بل تعبيراً عن أزمة مجتمع، وبؤس مؤلف، وحياة مفكر، ووجود كاتب.

وأفة العصر الحسد والفساد. فالمجتمع مجموعة من الطرارين أى النشالين وقطاع الطرق والخائفين المستلقين الذين يضربون على القفا والذين يكفرون بعضهم بعضاً فى الميادين العامة وفى أجهزة الأعلام بلغة هذا العصر والدس على الآخرين لإفساح المجال للنفس. وتتحسر الأمة فى الطبقة، والولاء للجماعة هو ولاء للطبقة. فالإنسان ابن طبقته. كما تتلخص أزمة العصر فى انتشار الفحشاء وفساد العلماء وانتشار الجهل، وظهور البغى، وفساد الدين، وسطحية الناس وفقدان الصديق. زادت الإباحية، وأصبح ذكر الله

(١) السابق ص ٦١ - ٦٢ / ٦٤ / ٦٢ / ١٦٤ - ١٦٦ / ١٨١.

(٢) مثل أبى بكر الصديق.

لغوا على الألسنة، وظهور القلب من الفكر، وكدر الوقت، وعكر الأمر، وقدر الحال، وتكرار القول، ونكران الفعل، وخوار البناء، وقبح الوجه، وغلبة الغفلة.

والقضية هي كيف يستطيع السلطان أن يحكم في هذا العصر في هذا الزمن الردي؟ إن عقل السلطان أكبر، وحلمه وصبره أعظم رواية عن أبي سليمان. وهي خصال لا تقوى عليها العامة، بالرغم من أنها أقرب من الحكمة السياسية إلى الأخلاق. والعامة تحت قدرته تأتمر بأمره، وتطيع أمره. العلاقة بين السلطان ورعيته علاقة إلهية كما هو الحال عند الشيعة. الملك رب الأسرة. وهو نوع من السماح للشرعية للتسلط باسم كبير العائلة. وهو نظام كوني تتطابق فيه الشرعية مع الطبيعة الأخرى بين سنة وشيعة، بين سلطة قائمة ومعارضة قائمة. السلطان في تدبير الرعية، رواية عن القومسي كالشمس في تفصيل الأزمان، والحبّة كالرياح في التلقيح^(١). والعلماء من الجميع كالثبات والحيوان، والعوام في نقل الأمور كالأرض في محل الأنام، وما يكون من منافع الإنسان. الملك اله بشري، ونور كوني.

والرعية وديعة من الله عند السلطان، يرعاها ويستثمرها، ويدبر أمورها، ويبحث عن أسباب شكواها. فلا شكوى بدون سبب يوفرها لها العمل أو الإعانة من بيت المال مع ملاطفة للمعترض واستئناسه. ومع ذلك يعطى أبو سليمان الحق للرعية في مراجعة السلطان في حين أن البطانة تريد عقاب الخارجين عليه والمناوئين له بالقتل والسجن والتعذيب. ويستحيل ترك خدمة السلطان إلا بدين متين ورغبة شديدة في الآخرة. وقطام صعب من الدنيا، ولسان يلغ بالخلو والحامض. والسلطان ضرورة للفكر والأدب وليس فقط للسياسة والرياسة، مدحا له وتقربا إليه، وشحادة من الدنيا. فهو المفكر الأول والمناظر الأول والمحتاج الأول. والسؤال هو: هل السلطان يسوس الناس وهو المطيع

(١) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ج١/٢ - ١٩٥ - ١٩٦ ج٢/ ١٥٣ - ١٥٤ / ١٦١ - ١٦٢
الإشارات الإلهية ص ١٤٦ / ١٤٨ / ٢١٠ / ٢١٥. ويمكن أن يكون نقد العصر موضوع رسالة في الجبهة الثالثة من مشروع "التراث والتجديد". لاموروث ولا وافد عند أبي حيان في مجموع أعماله خاصة في "الإشارات الإلهية".

الله كالفطيع؟ وماذا لو عصى الناس السلطان؟

واغتيال العامة للسلطان طبيعي إذا ما غابت حرية التعبير. فهل رد الفعل هو التكتيل بالعامة كما نقضى بذلك بطانة السلطان وخدمه أم أن هذا واجب العامة والخاصة في النقد والنصح؟ إن رغبة السلطان كالعادة هي أن يعكف الناس على شئونهم دون التعرض له وللأوضاع العامة وهو ما يستحيل نظريا نظرا لضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعمليا نظرا لأن النقد والضيق وحرية التعبير طبيعي في البشر^(١).

ويتم مدح السلطان منفذ الشرع، ومد اليد إليه بالسؤال لقبض الثمن. ويصل تملق السلطان إلى حد وصفه كاله. ويتم المدح باسم الله. وقد بدأ هذا التقليد حتى عند الكندي في رسائله إلى المعتصم بالله الرحمن الرحيم وكأننا نحمد الله. ويبلغ مدح السلطان إلى حد تبعية كل شيء له. فعلى أقداره يتم تعريف كل شيء وكأنه شريك لله^(٢). يصل إلى حد التذلل والهوان في طلب الحاجة^(٣). وأحوال الزمن الرديئ ليس له إلا السلطان. فهل تجوز الشكاية لمن كانوا السبب في الخراب؟ وهل يجوز أن يكون الجلال والحكم والقاضي والقاتل واحداً؟^(٤)

وإذا كان التملق سلوكا فانه يتوجه لله وللسلطان والوزير ولأى رئيس. ولا فرق بين الراعى لله والسائل للسلطان والساعي للوزير. ويقدر اتساع الأمل عند المداحين بقدر ما يجدون القدر للممدوحين على الجفاء، وعدم العطاء بكثرة الانشغال. والحقيقة أن شكوى

(١) أبو حيان: الإمتاع ج ١/ ١٤ ج ١٩٨/ ٢ - ١٨٩/ ١٩٩ ج ٨٥/ ٣ - ٩٠. المقاسات ص ١١٧.

(٢) اشترى جارية كانت في النحاسين وكانت حسناء جميلة .. اكرك كما أنت وجردوا السكاكين على الجارية في الدار يطالبونها بالمال فانشقت مرارتها ودفنت في يومها. وصورة أخرى: وأعتقها بحضرة القاضي عند مسجد، الإمتاع ج ٣/ ١٦ - ١٦٢.

(٣) وطبقا للمثل الشعبي "إن كان لك عند الكلب حاجة قول له يا سيد" وبالفصحى "اسجد لقرد السوء في زمانه" الإمتاع ج ٣/ ٢١٥. ويمكن إجراء عدة رسائل علمية من أقسام الاجتماع عن العيارين والتوادين والسطار، وصورة الجوارى، الأدبيات الحاضرات البنيهة العاشقات والشهيدات. الإمتاع ج ٣/ ٢١١ - ٤٢٤.

(٤) أبو حيان: رسالة في شكوى لبؤس ورجاء المعونة، الإمتاع ج ٣/ ٢٢٥ - ٢٣٠.

الزمان ليست لله أو للسلطان أو للوزير بل هي من ضعف النفس في حين أن التراث القديم ينعى المداحين ﴿قتل الخراصون﴾ مما دفع بأبى موسى المردار من شيوخ المعتزلة إلى تكفير كل من جالس السلطان كرد فعل على من حرم نقد بقلة السلطان. ويظل الأفعاني في حياتنا المعاصرة حدثا عندما يجعل السلاطين أحد أسباب انهيار الأمة.

ويستعمل الدين غطاء للسؤال. فلا فرق بين الدعاء كبنية نفسية وذهنية وإرادية، والطلب بناء على إرادة المانع وليس تحقيق المطلوب بالجهد الإنساني^(١). بل يبلغ الحد بالسؤال إلى طلب التوسط لدى الوزير أو عرض خدمات السائل على المسئول، والمادح على الممدوح. وهو ما يعارض تقاليد القدماء في أن تجوع الحرة ولا تأكل بثديها، وفي اعتبار ذلك شركا. وقد تكون القدرية هنا أفضل ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتبته الله لنا﴾. ويكون موقف الصوفية أفضل في ترك الدنيا بمن فيها على من فيها لمن فيها، وكذلك موقف بعض الفقهاء في رفض خلع السلطان وألقاب مقتى الديار، وشيخ المشايخ وإمام الأئمة^(٢). ويصل الذل في الطلب إلى حد أن يكون الطالب حامل رسالة أو بعض المال للتجارة^(٣).

فإذا كانت العامة مع بعض الخاصة من فقهاء البلاط متملقة للسلطان فإن البعض الآخر يعرف زوال الملك ويتوكل على الله. وإذا انشغلت العامة بأمور الدنيا، رخاء العيش وطيب الحياة، وسعة المال، ودر النافع، وأموال السوق، وتضاعف الربح، فإن الخاصة العارفة بالله مولعة بحديث الأمراء والعظماء لتقف على تصاريف قدرة الله فيهم وجريان أحكامه عليهم ونفوذ مشيئته في محابهم ومكارهم فسينفذون الأحكام ويعلمون أن كل ملك زائل، وأن هناك فرقا بين الظاهر والباطن. وهم الصوفية الذين يتركون الدنيا بمن فيها على من فيها، راضين بماهم فيه من سكينة واطمئنان ونعمة ورضا. ومنهم من يستعمل

(١) وأيضا عند ديكرات معلم الأميرات في الفلسفة الغربية، وموزار في بلاط الأمراء.

(٢) وذلك مثل ابن تيمية والغز بن عبد السلام.

(٣) ويتضح مدح السلطان وتلقه في آخر رسالتين في آخر الجزء الثالث من "الإمتاع والمؤانسة" جـ ٣/

٢٠٧ - ٢٣٠. وأبو حيان له سبق في هذا التقليد عند الحكماء في مدح السلاطين قبل العصر التركي.

أساليب التورية والكناية كى يتجنبوا اضطهاد السلطان^(١).

وبتجه التوحيدى نحو إخوان الصفا فى تصويره للناموس الإلهى ووضع بين الخلق نقلا عن ابن مقداد من أن الناموس الإلهى يتوجه به إفاضته الخير، وترتيب السياسة، ويورث سكون البال، ويحسم جواد الشر، ويوطد دعائم السنين، ويبعث على تشريف النفوس وترتيب الأخلاق، ويقرب إلى طريق السعادة، ويمهد لأسباب الحكمة ويشوق الأوراح إلى طلب الحق، ويقدم دواعى العدل والرحمة والانصاف^(٢).

ومع ذلك ظل العبيد بعد الإسلام بمدة طويلة حتى القرن الرابع، عصر التوحيدى بل وحتى العصر التركى. وانتهى رق الأفراد فى العالم الإسلامى، واستمر فى العالم الجديد حتى الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب. ثم تحول من رق الأفراد إلى رق الشعوب. وقد استغرق تحرير رق الأفراد عشرات القرون فى حين تحررت الشعوب فى مدى نصف قرن^(٣).

ويتعرض أبو حيان على لسان الفيلسوف لبعض الموضوعات الاقتصادية مثل الغنى والفقر. وهو ما تعرض له أيضا علم الكلام ضمن موضوعات العدل ويعطيه المعنى الصوفى. الغنى والفقر فى النفس وليس فى الوضع الاجتماعى والمستوى الاقتصادى، فى الداخل وليس فى الخارج. وتساعد فى ذلك ثنائية الجوهر والعرض. الغنى ماليا غنى بالعرض فقير بالجوهر. والفقر ماليا غنى بالجوهر فقير بالعرض. وقد يكون الغنى والفقر فى الأخلاق. فالغنى هو القادر على التمسك بالأخلاق والامتناع عن الشهوات. والفقر هو المنكب عن الشهوات، عاجز عن السيطرة على الأهواء والانفعالات. وقد يكون الغنى والفقر فى السلوك الفاضل، فى الصدق والغش أى فى العاجلة. فالغنى غشا فقير صدقا. والفقر غشا غنى صدقا. وقد يكون الغنى والفقر فى

(١) الإمتاع والمؤنة ج ٣/ ٩٥-٩٩، الصدقة ص ٨٧.

(٢) أبو حيان: المقابسات ص ١٤٢-١٤٣.

(٣) الإمتاع والمؤنة ج ٢/ ٩١-٩٢/ ٢٠١.

علاقة الدنيا بالآخرة. فالغنى فى الدنيا فقير فى الآخرة والفقير فى الدنيا غنى فى الآخرة. هذا مع الاعتراف بأن الغنى عز والحاجة ذل، والخروج من المستوى النفسى الأخلاقى الدينى إلى المستوى الاجتماعى الاقتصادى.

كما يتعرض لبعض موضوعات التوافق الاجتماعى ووحدة الأمة فيما يتعلق بأهل الذمة والسلام عليهم مبادرة أوردنا كما يتم التعرض لبعض الموضوعات العسكرية مثل الحرب والحزم والتيقظ وقلة الاستهانة بالخصم. فالعساكر لاتساس بالتوائى والحروب لاتدبر بالاعتزاز. ومن أفات العصر تحول الحرب من الفتح والجهاد إلى القتل والغزو والنهب.

وصعوبة أبى حيان قراءة النفس فى مرآة الآخر حين يعرض نماذج من الحوارات الفلسفية تعبر عن آراء الآخرين فى الظاهر وعن حواراه مع نفسه فى الباطن. وأبو سليمان هو الشخصية المحورية الأولى. وعلى لسانه يضع أبو حيان كثيرا من آرائه أو يتبنى آراءه. وقد كان الحوار الفلسفى بين الأدياء ثقافة شعبية فى مجتمع حضارى. وكثير منها حكايات ونوادر، كلمات جيدة، ومأثورات أدبية، ومواقف طريفة. وكلها إنشائيات نقل أو تكثر. ويستعمل بعض العبارات القرآنية الحرة مثل "وانقلبت إلى أهلى مسرورا"^(١).

٣- النبوة والتشريع. وتبلغ قمة الفكر السياسى فى النبوة والتشريع. فالشريعة هى حلقة الاتصال بين الله والعالم، بين الوحي والواقع، بين النبوة والمجتمع. والتشريع ليس فقط للمجتمع بل أيضا للكون كما هو الحال فى الناموس الربانى عند الاخوان. ثم يأتى التقيض فى إبطال النبوات عند الرازى وإثبات القانون الطبيعى للبشر. ثم يأتى الجمع بين الدعوى وتقيضها فى التشريع الاجتماعى للأسرة والمجتمع عند ابن سينا فى جدل ثلاثى تاريخى وبنويوى فى آن واحد.

أ- الناموس الربانى. وضمن البحث عن ماهية الايمان وخصال المؤمنين مثل ماهية التوكل وماهية الأخلاص، وماهية الصبر، وماهية القضاء والقدر، وماهية الخوف

(١) أبو حيان: المقابسات ص ١٤٢ - ١٤٣.

والرجاء، وماهية الزهد، وماهية النفس، هدف الاخوان أيضا ماهية الناموس وشرائط النبوة وخصالهم ومذاهب الربانيين والإلهيين^(١) ووضع الناموس والنبوة والربانيين والالهيين معا يجعل القانون مع النبوة، والربانيين والإلهيين مع الأنبياء. ويتأسس الناموس فى الضرورة الكونية وليس فقط فى الوضعية الاجتماعية والمصالح العامة^(٢). الشريعة الإلهية جبلت روحانية تبدو فى النفس الجزئية فى الجسد البشرى بقوة عقلية تفيض عليها من النفس الكلية باذن الله فى دور من الأدوار والقرانات لتجذب النفوس الجزئية لتخليصها من الأجساد. وهى فى أعلى المنازل وأسمى الدرجات فى الآخرة وأكثر ثوابا فى التشبه بأفعال الملائكة والقرب من الله ورضاه فى العلم والعمل والصناعة والتدبر والرياسة.

وللشريعة ظاهر وباطن، الظاهر فى الألفاظ المقررة المسموعة فى الدنيا. والباطن التأويلات الخفية والمعانى المفهومة المعقولة للآخرة. إما المتفلسفون الذين يعارضون الشريعة فهم الجهال بظاهر الشريعة، العمى عن معرفة أسرارها. توانوا فى استعمال السنة، وعابوا موضوعاتها، وأنفوا من الدخول فى أحكامها، واستكبروا عن الانقياد لحدودها. لذلك سمّتهم الشريعة شياطين الإنس والجن، يوصى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا^(٣).

ومن ثم تتحول الشريعة إلى عالم روحانى غايته الآخرة وليس الدنيا، السماء وليس الأرض كما هو الحال فى التأويلات الباطنية وكأن التأويل للآخرة فقط وليس للدنيا دفاعا عن مصالح الناس. ولماذا يكون فهم الأسرار بتوفيق من الله ويتم الوقوع فى الدور ولا يكون بالفعل والمصلحة؟ كما تتم معرفة السرقة والسارق والمسروق بالسحر والعزائم والعين وليس بتحليل العلل^(٤).

(١) ماهية الناموس وشرائط النبوة وكمية خصالهم ومذاهب الربانيين والالهيين، الرسائل ج ٤ / ٦ / ١٢٤ - ١٤٤.

(٢) الرسائل ج ١ / ٣ / ١٥٦ ج ٩ / ٣٢٨.

(٣) السابق ج ٤ / ١٠ / ١٢٨ - ١٣٩ / ١٢٩ - ١٤٤.

(٤) فى الحكم على السرقة والسارق، فى معرفة السارق، فى معرفة سن السارق، فى إصابة ما سرق، فى

وعند الفارابي معقولات الأشياء الإرادية التي تعطيها الفلسفة العملية توجد في النواميس، ويمكن استنباطها لتحقيق السعادة القصوى منها. وواضع النواميس قائم للفيلسوف إلا إذا كان هو فيلسوف فلا رئيس ولا خادم. النواميس هي الشريعة، والفلسفة هي الحقيقة. واضع النواميس هو الفقيه أو النبي، وواضع الفلسفة هو الحكيم أو الفيلسوف. وتتحول الأشياء النظرية إلى أشياء عملية إما مخيلة في نفوس الجمهور أو برهانية في نفس الفيلسوف. فهي ملكة في نفس الجمهور، وفلسفة في نفس واضع النواميس. النواميس خارج الخيال تنظيرا للموروث. فالشرع ليس به مجاز.

الإمام والفيلسوف وواضع النواميس شيء واحد. الألفاظ مختلف والمعنى واحد^(١). إلا أن الفيلسوف يدل على الفضيلة النظرية. وواضع النواميس يدل على جودة المعرفة بشرائط المعقولات العملية. وإذا كان "ملك يعني الاقتداء فان الاقتداء لا يكون على الأشياء الخارجية وحدها بل أيضا على الأشياء الداخلية، المعرفة والفكر والفضيلة والصناعة. والإمام معناه المؤتم أي الذي يتقبل الأغراض وجميع الأفعال. فالإمام هنا لا يعني الإمامة الصغرى، إمامة الصلاة، بل الإمامة الكبرى أي رئاسة الدولة كما يتصورها الحكماء، المدينة الفاضلة وتحويلها من وظيفة عملية إلى وظيفة نظرية^(٢).

والسؤال هو: من هو واضع النواميس، الفقيه أم النبي؟ وهل الفلسفة أعلى من الناموس، والناموس خادم لها إلا إذا كان هناك الفيلسوف المشرع أو الحكيم النبي؟ ربما

معرفة اللص، في معرفة هل السارق مقيم في بلد أم مسافر، في معرفة الوضع الذي فيه السرقة، في معرفة جنس المسروق، في ماهية السحر والعزائم والعين، جـ ٤/ ١١/ ٣٩٨ - ٤٠٦.

(١) قتيبن أن معنى الفيلسوف والرئيس الأول والملك وواضع النواميس والإمام معنى كله واحد. وأى لفظة أخذت من هذه الألفاظ ثم أخذت ما يدل عليه كل واحد منها عند جمهور أهل لغتنا وجبتها كلها تجتمع في آخر الأمر في الدلالة على معنى واحد بعينه، الفارابي: تحصيل السعادة.

(٢) ويمكن إجراء عدة رسائل جامعية عن الإمامة بين المتكلمين والفلاسفة، وأخرى عن الفيلسوف، ودراسة مقارنة بين الفارابي وهيجل وثلاثة فلسفة الدين أو فلسفة التاريخ عن ابن عربي وهيجل، ودراسة مقارنة بين ظاهريات الروح وعلم المنطق من ناحية والفتوحات الملكية وفصوص الحكم من ناحية أخرى.

كان المقصود أنه لا نظر بلا عمل، ولا عقيدة بلا شريعة، ولا دين بلا دولة، تنظيرا للموروث وكل الرؤساء ماهيتهم الرياسة لا الخدمة وكان الخدمة عيب، وهو ما يحدث في هذا العصر على السلطة أى السياسة الرئاسية. وهل الفارابى أمامى شيعى مثل ابن سينا أم أنه فقيهه السلطان كما هو الحال عند أهل السنة، الفارابى وسيف الدولة، وابن سينا والدولة البويهية، والغزالي ونظام الملك، وابن رشد والمنصور؟

ب- القانون الطبيعى. وفى مقابل الناموس الربانى عند إخوان الصفا والفارابى يضع أبو بكر الرازى القانون الطبيعى. وبالرغم من أن موضوع النبوة عند الرازى يدخل فى تناسخ الأرواح مما يستحيل معه التفرقة بين النبوة الصادقة والنبوة الكاذبة، كما يدخل فى موضوع العقل والمناظرة إلا أنه يدخل أيضا فى موضوع الاجتماع والسياسة، يبطل النبوات ويؤسس القانون على الإلهام الطبيعى.

ويقدم الرازى حججا أربع على إبطال النبوات. الأولى حجة التخصيص وهى أطول الحجج وأكثرها تفصيلا. لماذا اختص الله قوما بالنبوة دون قوم، وفضلهم على الناس؟ وكيف يختار الحكيم ذلك ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، ويكثر الحرب ويهلك الناس به بسبب الاختلاف بينهم والافتتال بين أبناء الدين الواحد؟ يدافع الرازى عن المساواة بين الأمم دون تفضيل أمة على أخرى وتخصيصها بالنجاة أو الهلاك. ويعرض الكرمانى حجة التخصيص على لسان الرازى أن الأولى بالحكيم ترك الناس كما خلقهم لتدبير أمورهم بما هو أصح لهم ووضع سنن المناكحات والشراء والبيع والمعاملات والأخذ والعطاء بناء على اتفاق بينهم حتى لا تضع المخاصمات والخلافات بينهم كما هو الحال فى القانون المدنى أو القانون الوضعى أو القانون الطبيعى فى الحياة المعاصرة^(١). ونظرا لأن الحكيم قد اختار هذا النبى دون ذاك، وفضل هذه الأمة دون تلك، فالتخصيص

(١) آراء أبى بكر الرازى فى النبوة مقتبسة من المناظرات بين أبى حاتم الرازى الداعى الاسماعيلى الفاطمى وأبى بكر الرازى من أعلام النبوة لآبى حاتم نظرا لصياح كتاب أبى بكر فى إبطال النبوات. وهو مذهب ابن الراوندى والبراهمة كما هو واضح من كتاب "الزمردة". وقد رد الكرمانى على أبى بكر فى "الزمردة"، رسائل الرازى ص ٢٩١ - ٣٠٠.

على درجتين، تخصيص الامة، وتخصيص الفرد، فان الرازى ينكر النبوة على الاطلاق،
محوا للتفضيل من الأساس.

ويدافع أبو حاتم عن النبوة وبالتالي عن الإمامة وضرورة التخصيص بأن العالم
منقسم إلى إمام ومأموم، عالم ومتعلم. هذا حال جميع الملل والديانات والمقالات من أهل
الشرائع وأصحاب الفلسفات. يحتاج الناس بعضهم البعض ولكنهم لا يستغنون عن الأئمة
والعلماء كما يدل على ذلك إلهامهم. يتعلمون من العلماء ويهتدون بالأئمة، ويقتدون بهم،
بريادياتهم لهم. ويبرر ذلك تفاوت الناس فيما بينهم، وتراتبهم فى طبقات، وتفاضلهم فى
الصناعات، وفى كل طبقة من الناس فاضل ومفضول. ولا يستطيع أحد أن يدرك بفضنته
وكياسته ما يشاء إلا بوجود معلم يرشده ومعاون يرجع اليه، وأمام يقتدى به ويأتمر
بأمره. لذلك يتعلم الناس من بعضهم البعض، ويحتاجون إلى بعضهم البعض فى جميع
أمر الدنيا والدين، وكما يشهد بذلك العيان. ولقد خص الله البشر وقسمهم هذه القسمة ليقوم
الأمر والنهى، وتظهر الطاعة والمعصية، ويثبت الاستعباد، ويقع الثواب والعقاب طبقا
للأعمال. لذلك يجوز أن يختص الله بحكمته ورحمته قوما يختارهم من خلقه ويجعلهم
رسلا اليهم، يؤيدهم بالآيات، ويفضلهم بالنبوات، ويعلمهم يوحى منه ما لا يستطيع البشر
تعلمه من أنفسهم، ويرشدونهم إلى صلاح أمورهم فى الدين والدنيا، يسوسون الخلاق،
خاصة وعامة، علماء وجهلاء، أنكباء وبلداء، فيستقيم أمر العالم بهذه السياسة وهى
الشرائع التى تغنى البليد عن النظر فى دقائق العلوم الفلسفية التى يتبحر فيها الفلاسفة،
وتبهر عقولهم، وتعجز عن ضبطها بكل ما لديهم من قوى عقلية على النظر والاستدلال.

والحقيقة أن اعتراضات أبى على التخصيص بالرغم من دفاع أبى حاتم مازالت
قائمة. فعيوب دفاع أبى حاتم قسمة الناس إلى إمام ومأموم، تابع ومتبوع، عالم وجاهل،
فاضل ومفضول، قسمة تؤدى إلى التبعية العلمية والاجتماعية والسياسية، ولا تساعد على
التحرر إلى درجة الدفاع عن الاستعباد وفرض الوصايا على البشر^(١). ولا يبرر حاجة

(١) أبو حاتم الرازى: أعلام النبوة ص ٢٩٦ - ٣٠٠.

الناس إلى التعاون بالضرورة أن تكون العلاقة بينهما علاقة تبعية بل تعاون مشترك وتبادل خبرات على نفس المستوى. فلا يوجد رأى كبير يجب له الطاعة. بل تتساوى أذهان البشر وتتفاوت وتتعاون وتتبادل الخبرات. وهو دفاع الشيعة عن الإمامة أكثر من دفاعهم عن النبوة. فالإمامة تستلزم الطاعة وعدم الخروج على الإمام فى حين أن النبوة تجوز الخروج على الإمام الظالم بعد استيفاء شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة فى الدين، واللجوء إلى القضاء. كما يؤكد الدفاع على التفاوت الطبقي بين الناس وحله عن طريق تبعية طبقة لأخرى. البداية بالمراتب العقلية، والنهاية بالطبقات الاجتماعية. وهذا التفاوت فى الإنسان وليس فى الحيوان، يعجز عن تغييره إلا بمدد خارجى عن الله عن طريق الإمامة^(١). فاللامساواة مجرد ذريعة لإثبات التدخل الخارجى والاختصاص. وهناك تفاوت بين البشر فى القدرات العقلية والعملية، فطرة أم اكتساباً. والإنسان مسؤول عنها وعن حسن التعامل معها بإبراز الاختلافات بين البشر من أجل التعاون وتبادل الخبرات المشتركة. التفاوت نتيجة لاستعمال الحرية فى الخلق والإبداع وليست فى الطبقة. كما يستعمل أبو حاتم الحساب، الثواب والعقاب لإثبات علاقة التابع بالمتبوع. وهى حجة دينية وليست مصلحة طبقاً لقانون الاستحقاق. إما الدفاع بأن ذلك تجهيل لله أو حجر عليه فهى حجة إرهاب ديني وليست حجة مصلحة دنيوية. تمنع من التفكير الحر، وتضع قدرة الله فى مواجهة طاعة الإنسان، وتدافع عن الوضع القائم أكثر مما تدعو إلى التغيير. وأخيراً إن العلاقة بين الفلاسفة ليست علاقة تابع بمتبوع بل علاقة ناقد بمنقود، رأى برأى كما فعل أرسطو مع أفلاطون "أحب أفلاطون ولكن حبى للحق أعظم" من أجل الإثراء المتبادل، وتكامل وجهات النظر وكما فعل الفارابى فى "الجمع بين رأى الحكيمين. أفلاطون الإلهي وأرسطوطاليس الحكيم".

ويرد أحمد بن عبد الله الكرمانى على حجج الرازى بحجج مشابهة لحجج أبى حاتم رداً على حجة التخصيص. فقد ثبت التخصيص بحكمة الحكيم. والحقيقة أن هذا الدفاع عن النبوة يقوم على حجة لاهوتية وليس على حجة مصلحة، وهروب من تأسيس النبوة

(١) وهى حجة ميكافيلية وهوبز فى تبرير السلطة السياسية.

فى العقل؁ حاجة الإنسان إلى المعرفة؁ وفى الواقع؁ حاجة المجتمع إلى التشريع.

أما التخصيص فى الكون فهى حجة أكثر إقناعا لقيامها على مبدأ التفرء فى العالم. والعيب هو الانتقال من التخصيص فى الطبيعة إلى التخصيص فى البشر قياسا؁ واعتبار أن الطبيعة هى الأصل والبشر هم الفرع؁ وإغفال مبدأ المساواة بين البشر والذى على أساسه يمكن أيضا قياس الطبيعة التى تقوم فى بعض جوانبها على المساواة فى الخلق والتسبيح للخالق. وعلى فرض وجود التخصيص فى الطبيعة وفى البشر يظل السؤال قائما: لم تخصيص هذا الفرد بالنبوة دون الآخر؟ وهذا الشعب دون ذلك الشعب؟ وإذا كانت القدرات الفردية والخصائص الجماعية هى سبب الاختيار فالإنسان والجماعة ليسا مسؤولين عن القدرات والسمات الفطرية. تلك مسؤولية الخالق. وإذا كانت الصفات مكتسبة من التربية فالمجتمع فالتخصيص إذن يقوم على اختيار إنسانى حر؁ وجهء إنسانى خالص فى إطار ضرورة العصر وجدل النقل والإبداع فيه.

إما ولادة الإنسان جاهلا وحاجته إلى المعلم فإنها فى الحقيقة ليست حجة بل معارضة للشرع الذى جعل العقل أساس النقل؁ ومناهضة للطبيعة والفطرة التى يقوم الدين عليها. وهو حكم على الإنسان بالجهل منذ الولادة وإنكار للمعارف الفطرية والبداهة الحسية والعقل الطبيعى. والنبوة ليست فقط علما بل هى علم وعمل؁ بل أقرب إلى العمل منها إلى العلم. لو كانت النبوة علما فقط فهو علم يقوم على استقرار مصالح الناس ثم قياس الغائب على الشاهد. والتعليم من الخارج فرض للوصاية على الإنسان. وتفتح المجال لوصاية غير الأنبياء من الأئمة وأهل التعليم والمهملين طلبا للطاعة المطلقة دون مراجعة أو تصحيح أو نقد أو تبديل. وتكبيال العقل الإنسانى مقدمة لانتزاع حريته. ويستطيع الإنسان التمييز بين النافع والضار بفطرته. وليس الإنسان بأقل من الحيوان فى ذلك. والتعليم لا يكون بالضرورة من معلم بل من النفس؁ من الحواس ومن العقل ومن الوجدان ومن خبرات السابقين كما هو معروف فى نظرية العلم عند المتكلمين والفلاسفة والأصوليين والصوفية. وماذا عن تعدء الأنبياء ومراحل الوحي وتبديل الشرائع ونسخها

كلياً أو جزئياً؟ فإذا كان العلم الالهي مطابقاً للعلم البشري فكيف طبقاً للقدرات البشرية، فأين الأساس وأين الفرع؟ إلا يستطيع الإنسان وعقله وبديته ووجدانه أن يصل إلى ما يعطيه الوحي عن طريق السمع كما هو الحال عند عمر بن الخطاب أو عند الصوفية عن طريق التجارب والرياضيات والمجاهدات؟ وماذا عن دعوة الوحي نفسه إلى العلم والتعلم اعتماداً على النفس بالنظر في الآفاق وفي النفس «وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون»، والاجتهاد في العلم المستقل عن الدين "أنتم أعلم بشؤون دينكم" بدلاً من سوء التأويل لبعض الآيات المنتقاة مثل «وإله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً». وعند الصوفية يعلم الإنسان كل شيء، وشهد عليه في عهد الذر الأول. وما المعارف البشرية الحسية والعقلية والوجدانية إلا استرجاعاً للمعارف الأولى^(١). وهو موقف أقرب إلى أهل التعليم والإمامة والذي يقول بضرورة وجود معلم. ولا فرق بين إثبات النبوة والإمامة، بين السنة والشيعة، بين السلطة والمعارضة في الرغبة في السيطرة على المعارف البشرية كمقدمة للسيطرة. على مقدرات الشعوب والاستئثار بالسلطتين المدنية والسياسية^(٢).

أما أن خلق الله البشر محبين للرياسة والظلم والقهر والمال وجوز أن يقع بينهم العداوة والبغضاء والمنافسة على طلب الرياسة فثارت الفتن، وقضى القوى على الضعيف وسلب ماله وأحبابه وعدم وجود قوى إلا وهناك من هو أقوى منه فوجبت حكمة الله أن يحفظ النوع البشري بوضع شرائع تحفظهم بقيادة من يختاره لهم من بينهم رئيساً لهم، فهي حجة ضعيفة يمكن الرد عليها. إذ تقوم الحجة على أن الله خلق البشر أشراراً في حين أن الله خلقهم على الفطرة، والفطرة خيرة «صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة». والإنسان بفطرته مدفوع إلى الخير، والابتعاد عن الشر. وتصور الإنسان شريراً بطبعه مجرد ذريعة لتبرير السلطة الدينية والسياسية التي تأخذ الناس بالنواصي وتقرض عليهم

(١) لذلك قال أفلاطون "المعرفة تذكر والجهل نسيان".

(٢) أبو حاتم الرازي: مناظرات ص ٣١٤-٣١٦.

الوصايا. وتبرر الواقع الأليم وتتجاوزه بعامل خارجي، وليس بتغير الطبيعة البشرية ذاتها عن طريق التربية^(١). ويمكن السيطرة على الأهواء والمصالح المتعارضة بسن القوانين التي تقوم على العقد الاجتماعي بين البشر من الداخل وليس بالضرورة بفرض الوصايا عليهم من الخارج. ولا يحتاج البشر إلى قيادة شخصية وزعامة فردية تنظم للناس حياتهم. فالقوانين والدساتير تقوم بنفس الدور. وخطورة الزعامة على هذا النحو التفرد بالسلطة، وبطانة السوء، والترفع على الناس^(٢). ولا فرق بين الشريعة الوضعية وبين إقرار النسخ التغيير تكيفاً مع واقع الناس. وكيف يتم تبرير قتل المخالف للنبي المختار الذي جعله الله للناس أماماً؟ وهل يمكن درأ شر بشر أعظم، التصفية الجسدية للمعارض؟ إن خطورة الدفاع عن النبوة هو أنه يتم دفاعاً عن الله والهداية منه، وأن كل معارض لذلك تكون معارضة لله وضلال عن طريقه توجب القتل^(٣). وطرق الهداية متعددة، من الله ومن النفس، من الوحي ومن العقل، من الإلهام ومن الطبيعة^(٤).

أما أن الله قد أودع في البشر عقلاً بالقوة، وأن النبوة هي التي تخرج هذا العقل من القوة إلى الفعل عن طريق تهذيب الله للنبي. وإخراج ما فيه من القوة إلى الفعل حتى يقوم هو بنفس الدور مع المرسل إليهم فإن هذا التحول لا يحتاج إلى محول أي إلى عامل خارجي. بل يمكن اتن يتم ذلك عن طريق التعميم والتربية والتدريب والاكتساب أي عن طريق القوى الذاتية والعوامل الداخلية.

وبالرغم من قوة حجة التخصيص وضعف الرد عليها أو الرد عليها بنفس المنطق، منطق الوصاية، الإمامة بدلاً من النبوة إلا أنه يمكن تناولها عن طريق بيان حدودها. إذ لم يخص الله قوماً دون قوم بالنبوة «لوما من أمة إلا خلا فيها نذير»، «منهم

(١) كما هو الحال عند ميكافيللي في "الأمير" وهوبز في "التتين".

(٢) وهي حجة الرأسمالية في حاجة الشعب إلى قيادة كاريسمية لتبرير الزعامة الفردية والبطولة والابتداع الفردي ورأس المال.

(٣) كان قتل من خالف السياسة وأمر الله واجباً، السابق ص ٣١٦.

(٤) "والحمد لله رب العالمين الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله".

من قصصنا ومنهم من لم نقصص عليك). وربما كان سقراط وأفلاطون وأرسطو أنبياء اليونان، وبوذا نبي الهند، وكونفوشيوس ولا وترى أنبياء الصين، وزرادشت وماتى أنبياء فارس، وحمورابي نبي العراق. وقد حدث التحول من بنى إسرائيل إلى العرب نظرا لعصيان بنى إسرائيل. فالاختصاص مبنى على الاستحقاق، وليس موهبة بل اكتسابا، وليس فضلا بل امتحانا، وليس تشريفا بل مسؤولية. وليس للأنبياء فضل على باقى الناس بل هم مجرد وسائل للاتصال. ولا يقل فضل المرسل اليهم عن الرسول. هم وسائل اتصال بين جبريل والنبي، كما أن الملائكة وسائل اتصال بين الله والعالم، والعالم وسيلة اتصال بين الإنسان والله. وقد وقعت الحروب بين الطوائف إما صراعا على المصالح أو تعصبا للمذاهب وليس بسبب النبوة فى حد ذاتها. كما وقعت الحروب بين الملوك والرؤساء والدول على المغام والمصالح. ومن ثم فان نقد النبوات لن يحقق السلم فى المجتمعات ولا السلام بين الشعوب، ولا تختلف الأيديولوجيات عن النبوات فى المجتمع. والقياس على الأئمة لا يجب السؤال بل يطلقه على الأئمة أيضا، لماذا تفصيل إمام على إمام؟ تنشأ النبوة فى المجتمع كما تنشأ الزعامة، إعلانا عن تطوير المجتمع ونقله من مرحلة إلى مرحلة فى مسار التقدم البشرى، نذيرا بانتهاء الدولة وبشارة بقيام دولة أخرى. فالوحي عامل محرك فى التاريخ حتى يتحقق استقلال الوعى الإنسانى عقلا وإرادة ويصبح قادرا على تحمل مسؤولية التقدم بنفسه. فالعقل وريث النقل، والفعل الإنسانى وريث الفعل الإلهى^(١). التخصيص إذن مسألة ماضية لم يعد لها وجود لا فى الحاضر ولا فى المستقبل إلا فى جدل التقدم الاجتماعى وعوامل نهضة الأمم وسقواطها.

أما الحجج الثلاث الأخرى فأصغر حجما مع أنها لا تقل أهمية عن حجة التخصيص. الأولى، أن الدين يأخذ أصل الشرائع بالتقليد وترك النظر والبحث عن الأصول حتى أصبح نقد الروايات والجدل فى الدين مرءا وكفرا. ومن عرض دينه للقياس لم يزل الدهر فى التباس، وتحريم النظر فى الخالق، والاكتفاء بالنظر فى المخلوقات. والقدر سر الله لا يجوز الخوض فيه. والتعمق فى الدين كان سبب هلاك

(١) لئنك قمنا بترجمة وتقديم لسنج: تربية الجنس البشرى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧.

الأمم السابقة. يدافع الرازى عن العمق فى الفكر والبحث والنظر ضد العلم الجاهز والمعارف المسبقة. وهى حجة ضعيفة إذ تدعو الآيات إلى النظر والاجتهاد ونبذ التقليد، فالتقليد ليس مصدرا من مصادر العلم، والاجتهاد مصدر من مصادر التشريع، والعقل أساس النقل، وأول الواجبات هو النظر، وما لا دليل عليه يجب نفيه^(١). وفى العقل يتساوى الناس بشرط الاجتهاد والنظر. وتفاوت الناس فيه لعدم صرف همهم اليه وليس لنقص فيهم. واختلاف الأنفاظ بين الأنبياء يبين عن طريق تأويل كلامهم المرموز الاتفاق فى معانيها. واختلاف الفلاسفة وتقليد بعضهم لبعض ليس بأقل مما يقع بين الانبياء.

والحجة الثانية اعتماد الأنبياء على المعجزات تعميم لا يصدق على كل مراحل النبوة. كانت المعجزة فى مراحل النبوة السابقة دليلا على إثبات وجود الله وتدخله مباشرة فى الطبيعة لنصرة الأنبياء وإنقاذ المؤمنين، البقية الصالحة. فلما اكتمل الوعي الإنسانى، وأصبح الإنسان قادرا بعقله على الفهم والتمييز، وبارادته على الاختيار الحر، توقف دور المعجزات وتحول إلى إعجاز أى إلى استنفاد قدرات البشر على التحدى والابداع الفنى والعلمى والتشريعى. فقوانين الطبيعة ثابتة لا تتغير كما لاحظ ابن رشد دفاعا عن السببية وكما أثبت الأصوليون فى التعليل^(٢).

والحجة الثالثة أن كرامة الإنسان فى العلم وليس فى الدين. فيما يعلم وليس فيما يجهل، فيما يبرهن بحواسه وعقله وليس فيما يفترض، قياسا للغائب على الشاهد. فالرازى يدافع عن العلم وقدرته اللانهائية. وقد برع الفلاسفة فى الطب ومعرفة طبائع العقاقير، ومعرفة حركات الأفلاك والكواكب وحساب النجوم وعلم الهندسة، ومعرفة عرض

(١) وقد استطاع حتى من يقطن ذلك.

(٢) وهذا ما أثبتته القرآن ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾. ﴿أو قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعتاب، فتفجر الأنهار خلالها فجورا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا، أو تأتي بالسماء والسفينة فيبلا، أو يكون لك بيت من زخرف، أو ترقى فى السماء. ونؤمن لرقيت حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا﴾.

الأرض وطولها والمسافة بين السموات استبطا بدقة النظر ولطافة الطبع. والحققة أن العلم تحقق لافتراضات الأنبياء، وأن علم الفلك إنما نشأ بتوجيه الوحي العقل نحو الطبيعة. وأن علم الطب إنما كشف عن الحكمة في الجسد والعناية في الطبيعة. فالعلم نشأ من شأيا الدين وليس مناقضا له أو بديلا عنه^(١).

ويعطى الرازي البديل عن النبوة، وهو أن يلهم الحكيم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم في عاجلهم وآجلهم دون تفصيل بعضهم على بعض حتى لا يقع الخلاف والنزاع بينهم فيهلكون. وهو أفضل من أن يجعل بعضهم أئمة بعض، فتصدق كل فرقة إمامها وتكذب غيره، ويضرب بعضهم أعناق بعض بالسيوف. فيعم البلاء ويهلكون بالمعاداة والمجانبة كما هلك كثير من الناس من قبل^(٢).

والحققة أن هذا البديل مازال يقوم على التحديد السلبي له بفقد النبوة دون أن يعطى الدليل الإيجابي عليه. وله أيضا حدوده. وقد لا يختلف عن النبوة أو الإمامة كثيرا. فالإلهام الفردى عودا إلى النبوة عن طريق تعميمها وتحويلها إلى الإمام فردى خاص. ولا يجيب على اعتراض التخصيص من جديد، إلهام فرد دون آخر لأن الإلهام ليس اختيار أحدا بل هو هبة طبيعية من الداخل، والإنسان ليس مسؤولا عن طبيعته أو من الخارج عودا إلى الله من جديد مرسل الأنبياء وملهم الشعراء. وقد يفهم كل فرد إلهامه على فردى فتتدخل المصالح والأهواء ويقضى على موضوعية العلم وتقع الحروب والمنازعات. وإذا كان هذا التفاوت بين الناس بفعل الخالق فإنهم غير مسؤولين عنه وبالتالي ينتفى عنهم الثواب والعقاب لاختفاء حرية الاختيار. وإذا كان الإلهام الفردى متساويا لدى الجميع نظرا لعدل الحكيم يقع الخلاف أيضا نظرا لتفاوت القدرات بين البشر في الفهم والتفسير. وإذا كانت هذه القدرات متفاوتة بفعل الخلق أو الجبلة فإنه يكون ظلما من الخالق أو من الطبيعة صنعة الخالق. كما أن الإلهام أيضا ضد العقل. وبالتالي يتوجه إليه نفس الاعتراض على النبوة وضد حرية الفكر، فالإلهام لا يقوم على النظر

(١) رسائل الرازي ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) أبو حاتم الرازي: أعلام النبوة، ص ٢٩٥ - ٣٩٦، المناظرات ص ٢٩٥.

والاستدلال بل على العلم الذى يقذفه الله تعالى فى القلب دفعة واحدة. حجة التاريخ ليست حجة الفكر. وحجة الواقع لا تطعن فى المثال باعتباره مثالا واقعا على نحو خاص. فالإنسان قادر بعقله على التمييز بين الحق والهوى، وقادر بحريته على الاختيار الحق وتجنب الأهواء التى بسببها تقع الحروب بين رجال الدين. وهناك فرق بين الدين كمبادئ ومقاصد وغايات، ورجال الدين والسياسة الذين يأخذون الدين ستارا لتشريع الأهواء والرغبات والمصالح. كما يقوم البديل على إنكار الصراع البشرى (لولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض). الصراع البشرى قائم قائم سواء ثبتت النبوة أم لم تثبت، بسبب تعارض المصالح والأهواء والقوى. وليس بالاسلام رجال دين إذا كانت آفة الدين رجاله على مر العصور. والإمامة ليست سلطة دينية تشريعية بل هى تنظيم عملى سواء كانت الإمامة الكبرى أو الإمامة الصغرى^(١).

ج- القاتون الاجتماعى. ويجعل ابن سينا التشريع جزءا من النبوة. فالنبوة وظيفة اجتماعية. لذلك تدخل النبوة فى عديد من الموضوعات والعلوم. فى أقسام العلوم فى السياسة يدخل ابن سينا النبوة والشريعة. وتضم كتابين: الأول فى النواميس والفلسفة لاتريد شيئا عما تظنه العامة، أن الناموس حيلة وخديعة. فى حين أن الناموس هو السنة والمثال القائم الثابت ونزول الوحي. والعرب تسمى الملك النازل بالوحي ناموسا. وهذا الجزء من الحكمة العملية يعرف به وجود النبوة، وحاجة الإنسان فى وجوده وبقائه ومنقلبه إلى الشريعة وبعض الحكمة فى الحدود الكلية المشتركة فى الشرائع والتى تخص شريعة شريعة بحسب قوم قوم، وزمان زمان، ويعرف به الفرق بين النبوة الإلهية والدعوى الباطلة. ومن ثم تظهر النبوة فى أقسام العلوم عند ابن سينا كما دخلت فى مناهج العلم وتقسيمه عند الكندى وكما دخلت فى التاريخ عن المتكلمين وفى الاجتماع والسياسة عند الحكماء^(٢).

(١) وهذا هو أيضا موقف كانط فى الفلسفة الغربية الحديثة.

(٢) ابن سينا: أقسام العلوم ص ١٠٨.

ويتعرض ابن سينا أيضا لموضوع النبوة في نهاية النفس، وهي جزء من الطبيعيات. فالنبوة هي حلقة الوصل بين الطبيعيات والسياسيات مع العبادات والمعاملات والالهامات والمنامات والشرائع والسنن. ويبين جلالة قدر النبوة ووجوب طاعتها وأنها واجبة من عند الله وعلى الإطلاق والأعمال التي تحتاج إليها النفوس الإنسانية مع الحكمة في أن يكون لها السعادة الأخروية وأصنافها. كما أن الشر الذي هو في الأفعال هو أيضا بالقياس إلى ما يفقد كماله مثل الظلم أو بانقياس إلى ما يفقده كماله في السياسة الدينية كلها مثل الزنا^(١).

وإثبات النبوة ينتهي إلى إثبات الشريعة مع أن حاجة المجتمع إلى الشريعة لا تتطلب بالضرورة حاجته إلى النبوة لأن الشريعة وضعية تعبر عن المصالح العامة. فالسنن لا تحتاج إلى معارف نظرية كلامية لأنها سنن وضعية بتعبير الشاطبي في "أحكام الوضع". وهل يلزم الحد الأولي من المعارف الإلهية، التوحيد أم يكفي العدل؟ صحيح أن ابن سينا يرفض الخوض في دقائق نظرية الذات والصفات والأفعال ويكتفى بالمبدأ العام للتوحيد، وجود مبدأ عام شامل يتساوى أمامه الجميع. هذا المبدأ العام هو الضامن لمعيارية القوانين التشريعية من ناحية العقل ومن ناحية الطبيعة. ويحتاج العامة إلى الرموز والأمثلة للإيضاح من أجل تمثيل المعاد وإمكان تصويره قياسا للغائب على الشاهد.

والسؤال هو: لماذا تكون السنن بالضرورة بأذن الله ووحيه وإنزاله من الروح القدس على نحو غيبي وهو أقرب إلى علم الكلام منه إلى الفلسفة الخالصة؟ أين القانون الطبيعي الفطري؟ وأين حكم العقل والاجتهاد؟ كما تصعب التفرقة بين الحد الأدنى من المعارف الإلهية والحد الأعلى. فربما صعب على البعض الحد الأدنى، أن للعالم صناعا واحد قادرا وأنه عالم بالسر والعلانية، وأن من حقه أن يطاع أمره إذ يجب أن يكون الأمر لمن له الخلق وأنه قد أعد لمن أطاعه المعاد المسعد ولمن عصاه المعاد الشقي

(١) ابن سينا: الشفاء، الآلهيات ج ١/ ٢٨ - ج ٢/ ٤١٩.

حتى يتلقى الجمهور رسمه المنزل على لسانه من الملائكة بالسمع والطاعة. ولا ينبغي أن يشغلهم بشئ من معرفة الله فوق معرفة أنه واحد حق لاشييه له. وهل قانون الاستحقاق في حاجة إلى وحى وتمثيل أم أنه قانون عقلى وضعى طبيعى إنسانى؟ إما أمور المعاد فانها تفهم على نحو مجمل لامبين، ومتشابه لا محكم، ومجاز لا حقيقة، ومزول لا ظاهر^(١).

وفى "الاشارات" يتحدث ابن سينا عن موضوعين: إثبات النبوة، وكيفية دعوة النبى إلى الله تعالى والمعاد اليه. فالالهيات إلهيات سياسية كما هو الحال فى اللاهوت السياسى الغربى المعاصر. ويثبت ابن سينا النبوة اجتماعيا، فالإنسان فى مجتمع طبقا لقانون تقسيم العمل، ونظرا لاستحالة قيام فرد واحد بكل شئ، وضرورة التخصيص المهني. ولما احتاجت المشاركة والمعاملة إلى سنة وعدل لزمّت النبوة كحاجة اجتماعية قانونية لسن تشريعات عادلة للمعاملات. النبوة ليست حاجة فردية روحية أو نظرية معرفية بل حاجة عملية اجتماعية، مادية تشريعية قانونية. وضرورة النبوة للمجتمع ولزومها مثل انبات الشعر على الأشفار والحاجبين وتقصير الأخمص من القدمين. وهو تمثيل بدوى غير جدير بالنبوة^(٢).

(١) كما كل بميسر له فى الحكمة الإلهية والإنسان يصلح له أن يخطر أن عنده حقيقة يكتمها عن العامة. بل يجب ألا يرخص فى تعرض شئ من ذلك. بل يجب أن يعرفهم جلالة الله تعالى وعظمته برموز وأمثلة من الأشياء التى هى عندهم جليلة وعظيمة. ويلقى إليهم مع هذا القدر أغنى بأنه لا نظير له ولا شريك له ولا شبيه له. وكذلك يجب أن يقرر عندهم أمر المعاد على وجه يتصورونه، وتتمكن إليه نفوسهم، ويضرب للسعادة والشقاوة أمثالا مما يفهمونه ويتصورونه. وأما الحق فى ذلك فلا يلوح لهم منه إلا أمرا مجبلا وهو أن ذلك شئ لاعين رأته ولا أذن سمعته، وأن هناك من اللذة ما هو ملك عظيم، ومن الألم ما هو عذاب مقيم. واعلم أن الله تعالى يعلم أن وجه الخير فى هذا فيجب أن يوجد معلوم الله على وجهه على ما علمته ولا بأس أن يشتمل خطابه على رموز وإشارات تستدعى المستعدين بالجبل فى النظر إلى البحث الحكيم، الآلهيات ص: ٤٤٢ - ٤٤٣.

(٢) النبوة الحاجة إلى النبى، ضرورة النبوة فصل بأكمه، الفصل الثانى من المقالة العاشرة فى إثبات النبوة وكيفية دعوة النبى إلى الله تعالى والمعاد اليه، الآلهيات جـ ١٤٤/٢ - ٤٤٢ وأيضا فصل فى إثبات النبوة وكيفية دعوة النبى إلى الله والمعاد، النجاة ص ٣٠٣ - ٣٠٨. أشد من الحاجة إلى =

والسؤال هو: إذا كانت العلاقات الاجتماعية تتطلب سنة وعدلا فلماذا تشخيص ذلك في ضرورة وجود سان ومعدل؟ لماذا لا يتم ذلك عن طريق القانون الطبيعي أو العقد الاجتماعي غير المدون دون ما حاجة إلى مشروع أو عاقد مشخصين؟ والحديث عن السان والمشروع كما تحدث الاصوليون عن الشارع أى واضع الشريعة لا يعنى التشخيص بل يعنى الشريعة الوضعية بمصطلح الشاطبى أى واضع الشريعة افتراضا.

وصفة التعاون والاجتماع لا تميز الإنسان فقط عن الحيوان. إذ يتعاون النحل فى بناء المخابى وتخزين الغذاء، والنحل فى صنع خلايا العسل. وهى حاجة طبيعية دون أن تحيل بالضرورة إلى مظاهر العناية الإلهية والتدبير والمبدأ الأول. والتحليل الطبيعى يتفق مع مبدأ اقتصاد الفكر أكثر من التحليل الدينى. والافتراض الأقل يجب الافتراض الأعظم. فلا حاجة بالضرورة إلى إدخال عوامل خارجية غير اجتماعية فى تحليل حاجة المجتمع إلى التشريعات وقوانين مثل علم الملائكة. إذ تكفى فى ذلك معارف الإنسان الطبيعية، وقدرته على معرفة الخير، وكيفية تحقيقه. لذلك ليست المعجزات ضرورية لإثبات النبوة، وابن سينا حكيم وليس متكلماً.

وإذا كانت الغاية من النبوة معرفة القوانين الاجتماعية فلماذا تكون غايتها عبادة المعبود أى دينية صوفية عبادية؟ وإذا كانت الغاية المنتفعة فى الدنيا فلماذا إضافة المنفعة فى الآخرة والعودة من علوم الحكمة إلى علم الكلام؟ وإذا كانت معرفة الخير والشر والحسن والقبح لمنفعة الدنيا فلماذا الثواب والعقاب؟ واضح أن الحكمة لم تستطع بعد الانتقال بالفكر الفلسفى من مستوى الالهيات إلى مستوى الإنسانيات.

ومع ذلك يعرض ابن سينا للشريعة فى القسمين الكبيرين: العبادات والمعاملات. لما كان وجود النبى لا يتكرر فى كل وقت نظراً لتفرده بالطبع والمزاج وجب أن يسن شرائع تنكسر المصالح الإنسانية وكأن النبوة مختصة بمزاج النبى وطبعه ومتميزا عن

٢٢٧. است. اشمس على. اشمس وعلى الحاجيين وتفسير الاخص من القميين، الاشارات ص ٢٢٧.

سائر الناس بتأله^(١). فوظيفة النبوة ليست فقط عقائد بل شرائع، ولا تعطى فقط معارف نظرية بل ممارسات طبقا لقواعد نظرية مثل استمرار معرفة الناس بالصانع والمعاد أى بالعقليات والشخصيات، بالالهيات والنبوات طبقا لتفرقة أصول الدين، والحذر من وقوع النسيان فيه خاصة بعد انقراض عصر الرسول. لذلك يجب سن أفعال وأعمال تتكرر فى مدد متقاربة يلحق فيها القادم الماضى واللاحق السابق، تذكر بالله وبالمعاد. فالنبوة مؤقتة فى الزمان تحفظها الرواية بعد ذلك وليست مستمرة فى التاريخ. ولا يتم هذا التذكير بالألفاظ أو النيات أو الخيال بل بالأفعال التى تقرب إلى الله وتستوجب الجزاء. وهى العبادات المفروضة على الناس كمنبهات ومنكرات بالأسس النظرية. هذه المنبهات إما حركات مثل الصلاة أو عدم حركات أو بعض حركات مثل الصوم الذى هو فعل سلبى فى الظاهر يؤدى إلى فعل إيجابى فى الباطن وهو القرب من الله. وهناك أفعال أخرى لتقوية السنة لتحقيق المصالح الدنيوية مثل الجهاد والحج. فلا فرق بين الجهاد وباقى أركان الإسلام التى أصبحت خمسا باستبعاد الجهاد على مدى التاريخ وهى ست بضم الجهاد إليها. ويوصل ابن سينا مناسك الحج باختيار أصلح البلاد بالمأوى أو الهجرة التى يتم فيها الحج وأنسب المواقع التى تهيج فيها الذكريات، وتقنين أفعال الله مثل القرابين، والصلاة مخاطبة لله ومتاجاه له، ومثول بين يديه فى خشوع مثل مقابلة الملوك والسلطين. غاية هذه الأفعال رسوخ عقائد الايمان بالله وبالمعاد وتذكر الإنسان بها فينوم التشبث بالسنة والشرائع وإلا طواها النسيان بانقضاء الزمان وتوالى العصور كما هو الحال فى موقف اليهودية والمسيحية فى تبرير أفعال العبادة بما يظهر فيها من رموز وصور وأيقونات وتمائيل^(٢).

(١) وهو أيضا ما لاحظته اسبينوزا فى وسائل التعبير المستقاه عند كل نبي من البيئة والمهنة والثقافة المحلية.

(٢) الأصل الثالث، المقالة العاشرة، فى العبادات ومنفعتها فى الدنيا والآخرة، الشفاء، الالهيات جـ ٢/

وبالرغم من أهمية هذا التأسيس النظري للعبادات العملية وضرورتها للتذكير بالعقائد النظرية إلا أن قسمتها إلى ما يحقق منافع أخروية وما يحقق منافع دنيوية مثل الجهاد والحج يغفل أن كل عبادة تحقق منافع دنيوية. فالشهادة تحرير للوجدان الإنساني من الخوف من سلطان البشر وأدعاء القوة، والمتكبرين والمتسلطين على الرقاب مثل منافع الجهاد والحج. ليست الشهادات مجرد ألفاظ ونوايا وخيال بل شهادة على العصر وتحرير للوجدان الإنساني بفعل السلب "لا اله" ثم إثباته بفعل الإيجاب "إلا الله"، والاعلان عن نهاية تطور الوحي وتحقيق آخر مرحله فيه التي أعلنها الرسول، وهو الاسلام.

ويركز ابن سينا على الصلاة والحج دون الشهادة والصوم والزكاة، وتصور الحج على نحو مكاني وأفعال قرايين كما هو الحال في الديانات السابقة مثل القدس وذبح الأضاحي في اليهودية. والحج عادة عربية قديمة منذ وضع ابراهيم قواعد البيت احتراماً لجد العرب وتقديراً للحنفاء، وجمعاً للعرب في مكان لتبادل المنافع استعداداً للسلطة المركزية لمكة وسط الحجازيين الشمال والجنوب.

ليست غاية هذه العبادات المحافظة على المبادئ النظرية. بل إن غاية هذه المبادئ النظرية وضعها كقواعد للسلوك وتحقيقها في الممارسات العملية. ليست النظرية غاية والعمل وسيلة بل النظرية وسيلة والعمل غاية كما هو واضح من صلة العقيدة بالشرعية، والقرآن المكي والقرآن المدني. وظيفة الجهاد والحج المحافظة على المصالح العامة، الدفاع عن الأمة، وعقد مؤتمرها السنوي لحشد امكانياتها في مواجهة أعدائها. كما أن الغاية من الصلاة المنفعة الفردية في طهارة البدن وتمارينه البدنية والاحساس بالوقت والتضامن الاجتماعي في صلاة الجماعة، والتذكر بمبادئ الأخلاق العامة وحسن المعاملة وأداء الواجبات ورعاية حقوق الله في حقوق الإنسان. الصلاة ليست خشوعاً إمام السلاطين بل ثورة على سلطان البشر باسم سلطان الله وحاكمية القانون^(١).

(١) ذلك كان شعار الثورة الاسلامية في ايران "الله أكبر قاسم الجبارين".

هذه الأفعال تؤدي إلى منافع عملية فردية واجتماعية وليس إلى رسوخ الله والمعاد كحقائق نظرية. المعاد أساسه في ذاته، الكشف عن بعد المستقبل في وعي الإنسان وإحساسه بالزمان والتاريخ^(١). والله هو المبدأ الواحد الذي يتساوى أمامه الجميع، وهو المعيار المطلق للأخلاق الذي يمنع البشر من الوقوع في الأهواء والرغبات والميول أو النسبية والشك والعدمية.

ولماذا أغفل ابن سينا الزكاة؟ هل لأنه صوفى أم لاغفال القضية الاجتماعية واعتبار أن الوضع الاجتماعي من الله؟ وهل أفعال الطهارة لمحاسبة النفس أم لمحاسبة المجتمع عملياً على الاستغلال؟

وهذه العبادات للعامة وليست للخاصة. إنما تقيّد الخاصة فقط في المعاد والسعادة في الآخرة التي تتم بتركية النفس وإبعادها عن الأسباب المضادة التي تؤدي إلى اكتساب الهيئات البدنية. فالتنزيه ليس فقط فعلاً من أفعال الزهد لتصور الله بل هو أيضاً فعل من أفعال الشعور للتسامي الإنساني وترقية النفس وتركيتها عن طريق الأفعال الفاضلة. الحسنات يذهبن السيئات. واستمرار أفعال الأخلاق تكسب النفس ملكة الالتفات إلى الحق والاعراض عن الباطل، والاتجاه نحو المفارقة، وتحقيق السعادة الروحية والبقاء الروحي. حتى ولو ظن أنها أفعال المقصود منها تذكير الله فالأولى أن تكون كذلك عن من يأخذها كوسيلة للتذكير. ويظل تفضيل ابن سينا للأفعال القائمة على الاعتقاد والتي تؤدي إلى المحافظة عليه. فالمؤمن نظراً وعملاً أفضل من المؤمن عملاً فقط^(٢). فعل المؤمن من النظر إلى العمل تحقيقاً، ومن العمل إلى النظر تقوية ودواماً. والعلماني بتعبير العصر من

(١) من العقيدة إلى الثورة، ج٢، النبوة والمعاد.

(٢) 'وهذا الأفعال لو فعلها فاعل ولم يعتقد أنها فريضة من عند الله وكان مع اعتقاده ذلك يلزم في كل فعل أن يتذكر الله ويعرض عن غيره لكان جديراً بأن يفوز من هذا الزكاء بحظ الشفاء'، الإلهيات ج٢/ ٤٤٥-٤٤٦. وإلى هنا ينتهي النجاة ولا تدخل الأسرة والمجتمع والإمامة. فتلخيص النجاة للشفاء بقطع النصوص وليس بالتركيز على الأفكار.

العمل إلى النظر وحده اكتشافا. الأول يجمع بين القبلى والبعدى، والثانى بعدى فحسب. وقد يكون الاكتشاف التلقائى أكثر ابداعا من التحقق لشيء معروف سلفا. وقد يكون للمؤمن اكتشاف آخر هو تقوية العمل للاعتقاد المسبق بعديا. والسؤال عند الثانى: لماذا لا يكون للسنن أسسها الوضعية فى العالم وليس فى مصدرها الأول عند الله، وأى الأساسين أفضل؟ التحتى أم الفوقى أم أن التحتى يعطيها الطبيعة والفوقى يعطيها العقل؟ هل السنن فروض وواجبات من أعلى أم انها احتياجات ومتطلبات من أسفل؟ هل غرضها المعاد أم صلاح الدنيا؟ يتوقف ذلك كله على منطق الاستشهاد النازل والصاعد كالمؤمن، والصاعد فحسب كالعلمانى. وهل النبى يدبر شؤون الناس بشخصه أم بالقانون اللاشخصى؟ وهل هو إنسان متميز بتأليه أم مثل سائر البشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟

وعيوب هذا التصور أنه يقع فى ثنائية متطهرة بين البدن والنفس ومصير كل منهما وغايته المستقلة، سعادة البدن فى اللذة الحسية، وسعادة النفس فى النعيم الروحى. كما تسود النظرة الصوفية الاشراقية الباطنية وجعل غاية الأفعال السمو والتعالى دون الاهتمام بشؤون الدنيا ورعاية مصالح الناس. وجعل عالم السعادة فقط هو العالم العلوى، الله والملائكة وليس عالم البشر وأوضاعهم الاجتماعية. ومن ثم يتحول الاسلام إلى مسيحية مع أنه كان رد فعل عليها "لا رهبانية فى الاسلام". يريد ابن سينا تحقيق الوحدة بين البشر فى طهارة النفس وليس فى أفعال الدنيا ورعاية مصالح الناس. وهى وحدة الخاصة دون العامة. فاللعمامة العبادات، وللخاصة أفعال النفس.

ثم يبدأ ابن سينا بتحليل القوانين الاجتماعية قبل قانون الأحوال الشخصية. ومعظمها واجبات وليست حقوقا، تبريرا للشرعية وليس تطويرا لها، دفاعا عن الوضع القائم من أجل الثبات والاستقرار وليس رفضا له من أجل التغيير والحراك الاجتماعى. ويستعمل ابن سينا ألفاظا قهرية مثل العقد والسنن وليس الدين أو الشريعة أو العقائد أو النظم.

ويقسم ابن سينا المجتمع حسب المهنة إلى طبقات اجتماعية ثلاث: المدبرون، والصناع، والحفظة. الأولوية للإدارة، والصناعة تأتي في المرتبة الثانية، ثم الحفظ والتدوين والصرف في المرتبة الثالثة. في البداية الإدارة العليا، وفي النهاية الإدارة السفلى، والانتاج الصناعي فيما بينهما. ولا يتحدث عن الزراعة بل الصناعة التي أصبحت مصدرا للانتاج^(١). والطبقات يرأس بعضها بعض. أعلاها المدبرون وأدناها الحفظة. المدبرون رؤساء الصناع، والصناع رؤساء الحفظة. المدبرون لا رئيس لهم، والحفظة لا رؤوسين لهم. وكل إنسان له طبقة مهنية محددة أى مقام محمود. ومنها يستمد قيمته الاجتماعية، أشبه بنظام الطبقات في الهند الذي يقوم على الدين والسلطة في المجتمع^(٢). لكل إنسان عمل يقوم به، ومنفعة يؤديها. فلا توجد بطالة لأن البطالة عمل بلا نفع وتقصير في الشركة. وكل من يخرج على هذا النظام الهرمي الرئاسي وجانب غيره الحظ يجب رده ونفيه من الأراضى. وإذا كان السبب عرضا أو آفة وضع المرضى والمعوقون في مواضع خاصة بهم تحت إمرة رئيس كالمستشفيات ومراكز التأهيل المهني. هذا هو الوضع الاجتماعي الأبدى الذي لا يتغير والذي لا يسمح بأى حراك اجتماعى لا داخل الطبقة المهنية ولا خارجها. فإذا ما كانت ثورة للفقراء من كل طبقة أو من الطبقة الدنيا ضد الطبقتين المتوسطة والعليا أو من الطبقة المتوسطة ضد الطبقة العليا كان جزاء الثائرين النفي والسجن والتشريد، ومقاومة العنف بالعنف كما طالب الفارابى في ضرورة الردع والبقر إذا خرجت الطبقات الدنيا عن نظام المدينة الفاضلة ودون إحالة ابن سينا له طبقا لعادته في الصمت عن مصادره إبرازا لبنية الموضوع ذاته كل مرة من جديد ابتداء من الصفر^(٣).

(١) وهو نفس موقف الطهطاوى فيما بعد فى توحيد بين الصناعة (الاندوستريا) والعمران.

(٢) Cast-system.

(٣) هذا هو موضوع الفصل الرابع من المقالة العشرة "فى عقد المدينة وعقد البيت وهو التكاح والسنن

الكلية فى ذلك" الشفاء، الإلهيات ج٢/٤٤٧-٤٥١. ولقد تم اختصاره من النجاة.

ثم يدخل الاقتصاد مع الاجتماع المهني في صورة المال وكما هو الحال في المجتمع التجاري والاقتصادي الريعي القائم حتى اليوم في دول النفط. فالمال المشترك له مصادر ثلاثة: الأول الخراج وهو حقوق تفرض على الأرباح المكتسبة الطبيعية كالثمرات والنتائج. والثاني العقوبات دون تحديد عقوبات من ولأى سبب. ويبدو أنها الغرامات التي يدفعها أصحاب الجنايات وذوهم لعدم ردهم لارتكابهم أخطاء لا عن عمد. وتكون مخففة مع إطالة المهلة للسداد. والثالث الغنائم وهي أموال المعاندين للسنة. وقد توقفت بتوقف أسلاب الحرب وتوزيعها على المحاربين، وتصرف في المصالح المشتركة، وإعطاء مرتبات الحفظة الذين لا يعملون بصناعة، والصرف على المعوقين والقعدة، ويرفض ابن سينا إنهاء حياة الميؤوس من شفائه من المرضى لأن مؤنثة لا تجحف بالمدينة. وقد يتكفل به الأقارب.

ويحرم ابن سينا عدة صناعات في المدينة مثل القمار لانه نقل للأموال من غير مصالح أو منفعة أو مقابلة. ويحرم السرقة واللصوصية والقيادة لنفس السبب. وقد تكون القيادة قطع الطريق أو السطو المسلح. كما يحرم المراهبة لأنها تغنى من تعلم الصناعات الداخلة في الشركة، وزيادة مال دون صرفة. ويحرم الزنا واللواط لأنهما يؤديان إلى الاستغناء عن الزواج وهو أحد أركان المدينة. فقد كان اللواط سائدا مثل الزنا في المجتمعات القديمة ومستمر حتى الآن في بعض المجتمعات الحديثة في شبه الجزيرة العربية وفي الغرب الحديث. ويمكن قياسا على ذلك تحريم أفعال حديثة مثل السمسرة والأعمال الطفيلية والمضاربات والعمولات والرشاوى والكسب السريع الذي لا ينتج عن جهد أو زيادة انتاج.

ولما كان المجتمع حرفة وأسرة يعرض ابن سينا للأسرة وموضوعها الرئيسي الزواج. فغاية الزواج النسل. لذلك يجب تشجيعه والتحريض عليه لبقاء الأنواع. وهو تصور بيولوجي خالص يغفل الأنا والحب والسكن إلى النفس بين الزوجين. وهو أيضا

دليل على وجود الله بالرغم من عدم وضوح الدليل وعدم الحاجة اليه أى إلى إثبات وجود إله من خلال الزواج على هذا النحو المتسرع إلا إذا كان المقصود أنه لولا البشر لما عرف الله طبقا للحديث المشهور "كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فيه عرفوني". الموضوع شرط إثبات الذات. وإذا تم اختزال موضوع الأسرة فى الزواج فانه يتم اختزال الزواج مرة ثانية فى النسل ثم يتم اختزال النسل فى المواريث والتحول إلى موضوع المال والاقتصاد.

وللزواج شرطان: العلانية ضد الزواج العرفى، والدوام ضد زواج المتعة الخالى من الأولاد والنفقة مع أن ابن سينا شيعى إمامى. فهل يهاجم ابن سينا موقف الشيعة أو السنة التى تقول بإخفاء المناكحات؟ وهل الاعلان عن الزواج هو وسيلة الترابط الاجتماعى أم هناك وسائل أخرى أقوى وأشد؟ والقصد من علانية الزواج اتضاح الأنساب، وعدم وقوع خلل فى المواريث، وهى أصول الأموال، والأموال أصل المعيشة. فبسبب خفاء المناكحات يقع خلل فى الأنساب مما يسبب خللا فى أوجه النفقة. فنفقة البعض على البعض الآخر، ومعاونة البعض للبعض الآخر، وتشئت الشمل الجامع للأولاد، وتجدد الحاجة إلى المزاوجة يؤدى إلى ضياع الألفة والمحبة. فالعواطف تأتى فى النهاية وليس فى البداية، نتيجة للمواريث والأموال وليست مقدمة لهما. يؤسس ابن سينا الترابط الاجتماعى على أساس اقتصادى. فالمصلحة هى أساس المحبة، والألفة لطول العشرة والمخالطة. وأكثر أسباب المصلحة المحبة، والمحبة من الألفة، والألفة من العادة، والعادة من طول المخالطة. فالعواطف تأتى استقراء وليس استنباطا، من أسفل وليس من أعلى، عكس الحب "الرومانسى" الذى لا يعرف علة أو سببا إلا عشق الأرواح ووحدة النفوس.

ويرفض ابن سينا أن يكون الطلاق والفرقة بين الزوجين فى يد المرأة لأنها "واهية العقل مبادرة إلى طاعة الهوى والغضب" بالرغم من احتمال الطلاق نظرا لتألف الطباع

أو تنافرها. فإذا صعب الجمع بينهما وجب التفريق حرصاً على المعاش وكان ابن سينا يشرح الحديث الشهير "النساء ناقصات عقل ودين" أو أنه وصف للتكوين النفسى للمرأة من وجهة نظر الرجل. لا يجوز جعل عصمتها فى يدها لأنها أنقص من الرجل عقلاً، وأكثر منه اختلافاً واختلاطاً وتلونا. بل تكون العصمة فى يد الحكام أن يفرقوا بينهما إذا عرف عنه سوء الصحبة لها^(١). فالحاكم بيده الأمر حتى فى العلاقات الخاصة مثل الله. يتم الطلاق إمام القاضى وليس بمجرد كلمة فى فم الرجل. صحيح أن ابن سينا لم يحدد بوضوح من أنقص الزوجين عقلاً وأكثر تلونا بل يفهم من السياق أنها المرأة. ولم يقل ابن سينا القاضى. والبداية بالصلح قبل الطلاق. فإذا وقع فللمطلقة النفقة ومؤخر الصداق كغرامة للرجل جزاء على الطلاق^(٢).

وفصل ابن سينا أسباب الفرقة فى أربعة: الأولى عدم التكافؤ بين الزوجين، وهى نظرة طبقية كما قننها ديوان الأشراف فى الأحكام السلطانية^(٣). والثانى سوء العشرة دون تحديد ابن سينا لأسبابها. الثالث بغض جسدى أو نفسى قائم على تنافر الطباع، وهو ما يتنافى إذا ما قام الزواج على علاقة الحب قبل العقد. والرابع عدم الانجاب وهو أحد أسباب تعدد الزوجات وليس الفراق.

ويبرر ابن سينا تعدد الزوجات للرجل وليس تعدد الأزواج للمرأة بأن الشراكة فى الرجل حسد لا يلتفت إليه، من طاعة الشيطان. فى حين أن الشراكة فى المرأة عار. والمرأة أشد انخداعاً وأقل طاعة للعقل. ومن ثم كان تعدد الأزواج لها مضرة، وأحادية الزوج لها حماية.

(١) وهو ما فعله الحبيب بورقيبة فى جعل الطلاق فى يد المحكمة الشرعية وليس فى يد الرجل فى تونس.

(٢) النساء، الآلهيات ج ٢/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٣) وقد يكون ذلك أحد أسباب الخلاف بين أسامة بن زيد وزينب بنت جحش.

ويبرر ابن سينا المحلل والثناء على الشريعة بعد تشخيصها في الشارع بنكاح صحيح من رجل آخر بعد الطلقة الثالثة والاستمتاع بها حتى يثير غيرة الزوج الأول فلا يجازف بطلاقها مرة أخرى، ويعرف مقدار الضرر الواقع عليه إذا كرر الطلاق جزافا. فإذا كانت المرأة مجرد متاع فهي له ولغيره. وإذا كان عن حب فإن الزواج المحلل يثير النفور والابتعاد من الزوج الأول. ويكون الزواج الثاني بوكالة عنها. فلا بأس أن تصحب لذة الآخر بها فضيحة للزوج الأول لأنه لا يستحق رعاية أو مصلحة له. والسؤال الآن: ماذا لو رفض الزوج الثاني الطلاق واستمتع بها وأراد الزوج الأول ردها عن حب واكتشاف خطئه ومصلحته وأنبه ضميره؟ وماذا عن الزوجة التي اكتشفت ضرورة رجوعها إلى زوجها الأول وعدم استمالتها للثاني والعصمة ليست بيدها؟ كما أن المحلل يحل مشكلة الزوج وهو التسرع في إلقاء يمين الطلاق واعتبار زوجته مجرد شيء ولكنه لا يحل مشكلة المرأة ويجعلها مجرد متاع لا رأى لها لا في الطلاق البائن ولا في الزواج الثاني. وإذا تم الطلاق على يد الحاكم أو القاضي فما لزوم المحلل؟ وماذا عن نفسية الرجل بعد أن يطأ رجل آخر زوجته في حالة العودة إليها أو عن نفسية المرأة بعد أن يطأها رجل ثان في حالة العودة إلى الأول؟ وفيه إذن تفضيل البكر على الثيب إلا لجدة الأولى وحبيها الأول على خبرات الثانية المتعددة؟ وهل ترجع المرأة للرجل الأول أو يرجع الرجل للمرأة بعد أن يطأها غيره؟ وماذا عن مصير الأولاد من الرجل الأول في حالة عدم رجوع زوجته أم أولاده إليه؟ ألا يقع الضرر عليهما معا في سبيل حل مشكلة سوء استعمال الرجل ليمين الطلاق والدفاع عن المرأة بزواجها الثاني بخلق مشاكل أعظم؟^(١)

والمرأة يتستر عليها ويتم تخديرها أي بقاؤها في المنزل وكأنها بضاعة مملوكة لصاحبها. ولا يجوز لها العمل. وفي مقابل ذلك تسن لها النفقة تعويضا لها. وفي مقابل

(١) وهذا هو موضوع الفيلم المصري "طلاق سعاد هاتم" ضد المحلل. الشفاء، الاكليات ج٢/٤٤٩-٥٥٠.

ذلك يملكها الرجل ولا تمكله وكأن العلاقة بينهما علاقة ملكية، من يملك من؟ وبطبيعة الحال يملك القوى الضعيف. ومن مظاهر ملكيتها عدم نكاحها لغيره وجواز نكاحه لغيرها إن لم يتجاوز العدد المنكوح عن المعقول في مقابل الانفاق عليها. وهو تشريع لنظام الاماء وملك اليمين وكان سبب تعدد الزوجات هو القدرة على الانفاق، رخصة للغنى دون الفقير، للذات وليست للموضوع. وكلاهما يستمتع بالجماع وإن كان حظها فيه أكثر من حظه نظرا لحاجتها إليه أكثر من حاجته، ربما لفراغها وانشغالها، ولتفكيرها في جسدها وتفكيره في العمل. هي إلى الداخل وهو إلى الخارج كما يرمز لذلك العضوان الجنسيان، الفرج والذكر. كلاهما يستمتعان بالولد الذي يشمل البنت. فالمال والبنون زينة الحياة الدنيا. يقوم كل منهما بتربيته، كل فيما يخصه. النفقة للوالد والرعاية للوالدة. وعلى الولد خدمتهما وطاعتها وإكبارهما. فهي سبب وجوده، واحتملا مؤونة تربيته ورعايته كما هو ظاهر للعيان ربما تنظيرا لآية ﴿وَلَا تَقْلُ لِهَآءِ وَلَا تَهْرَهَآ وَقُلْ رَبِّ اَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِىْ صَغِيرًا﴾ دون تعرض لحالات العقوق وقتل الأبناء للآباء والأمهات كما تعرضه الحياة المعاصرة، الفقر والمخدرات والضياع. وماذا عن التربية الثقافية والدينية من الوالد والوالدة؟ وهل يقتصر دور الأم على الرعاية الجسدية جسما لجسم بالرضاعة والاطعام؟ وماذا عن دور الدولة في حالة عجز الطرفين؟ وماذا عن سوء تربية الأولاد وتحملهم تبعات الوالدين؟ وماذا عن قضايا التبنى وتحديد من الأم من أُنشئت أم من ربت؟^(١) وماذا عن قضايا الوكالة والوصايا؟

والسؤال الآن: ما مصادر فكر ابن سينا في الأسرة والزواج؟ هل هو الفقه الاسلامي ومحاولة تنظيره فلسفيا أم هو العقل الصريح نظرا لاعتماد ابن سينا عليه "وغير ذلك مما إذا تأمله العاقل عرفه" أم هي العادات والتقاليد في عصره ينظرها ابن

(١) وهى القضية التى عرضها برشت فى مسرحية "دائرة الطباشير القوقازية". الشفاء، الالهيات جـ ٢/

سينا كما يفعل عالم الاجتماع اعتماداً على فهم الملاحظة؟ يحول ابن سينا أحياناً الآيات والأحاديث إلى أبنية عقلية ونفسية واجتماعية دون استعمالها كدليل نصي كالمتكلم أو الفقيه. فالنص صياغة لتجربة وتفسيره بالعودة إليها^(١) وربما هو روح العصر الذي مازالت ممتداً حتى الآن عبر التراث القديم والعادات القديمة وكأن التاريخ قد توقف، والزمن قد سقط من الحساب^(٢).

(١) انظر دراستنا: عود إلى المنبع أم عود إلى الطبيعة؟ وأيضاً: "ليهما أسبق، نظرية في التفسير أم منهج في تحليل الخبرات؟" قضايا معاصرة جداً في فكرنا المعاصر، دار الفكر العربي ص ١٦٩ - ١٧٦.

(٢) وهو نفس موقف فشته في "فلسفة الحق"، انظر كتابنا فشته فيلسوف المقاومة، (تحت الطبع).

الفصل الثالث

التاريخ

أولاً: هل هناك فلسفة للتاريخ؟

إذا كانت أقسام الحكمة النظرية عند ابن سينا ثلاثة: المنطق والطبيعات والإلهيات، وكانت أقسام الحكمة العملية ثلاثة أيضاً: الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل فأين فلسفة التاريخ؟ وإذا كنت أربعة عند إخوان الصفا: المنطق والطبيعات والنفسيات/العقليات، والعلوم الناموسية الإلهية والشرعية فهو اقتراب أكثر من الإنسانيات بإبراز النفس والعقل كموضوع مستقل بين الطبيعات والإلهيات، وبإضافة العلوم الناموسية أى القانون الإلهي والشرعي دون الاقتراب صراحة من التاريخ.

وربما غابت فلسفة التاريخ من علوم الحكمة لأن المنطق صوري خالص لا شأن له بالتاريخ باستثناء المتواترات كأحد مصادر العلم مثل الحسيات والمجريات والبدهييات، والتواتر أى تاريخ الرواية ونقلها عبر الأجيال. فالتاريخ هنا هو نقل المتن عبر السند، والقول شفاهاً عبر الرواة. وهو مستمد من علم الحديث.

كما يتصور الفارابي أجزاء المنطق ليس فقط على نحو صوري من حيث قسمة المنطق إلى يقين وظن، ولكن أيضاً على نحو تاريخي. فمنطق اليقين يبدأ بالمدخل، الكليات الخمس، ثم المقولات ثم العبارة ثم التحليلات الأولى (القياس). ويبلغ الذروة في التحليلات الثانية البرهان. ثم ينهار التقدم ويتراجع إلى الجدل والسفسطة والخطابة والشعر. فانتقال المنطق من اليقين إلى الظن هو تراجع ونكوص وانحيار.

وفى الطبيعات والإلهيات يظهر التاريخ الرأسي في ترتيب الموجودات الطبيعية والإلهية في نظرية الفيض نزولاً، الله والعقل والنفس والمادة، ثم تقسيم النفس إلى إنسانية وحيوانية ونباتية. ثم تأتي العناصر الأربعة في النهاية ومنها تتركب المعادن. فهو تاريخ الكون أو التاريخ الطبيعي.

وفى النبوة وقصص الأنبياء يظهر التاريخ بوضوح، دور الأنبياء فى حركة التاريخ، مراحل التاريخ ومساره كما يمثله قصص الأنبياء سواء لصالح السلطة واكتمال التاريخ فى الدولة القائمة أو لصالح المعارضة والثورة على الحكم الظالم.

وفى الحكمة العملية تبدأ فلسفة التاريخ فى الظهور من الأخلاق، الممارسات التاريخية، الكونية والشعبية والاجتماعية، ثم صراع الضرورة التاريخية والحرية. صحيح أن الحكمة العملية القديمة ثلاثة أقسام: الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل، إلا أنه يمكن تطوير تدبير المنزل أى الاقتصاد إلى تاريخ عن طريق التاريخ السياسى والتاريخ الاقتصادى.

ثم يظهر ابن خلدون مفترداً فى "المقدمة" لتأسيس فلسفة للعمران أقرب إلى فلسفة التاريخ بعد نقده لمناهج الرواية وأغلاط المؤرخين فى التاريخ القديم اعتماده على التجارب والمشاهدات. وابن خلدون مؤرخ استطاع أن يكتب مقدمة فى فلسفة التاريخ، قبل أن يكتب "تاريخ العرب والبربر وليس حكيماً. بل إنه معاد للحكمة فى كتبه عن قى إبطال للفلسفة وفساد منتحليها"^(١).

١- لماذا غابت فلسفة التاريخ؟ غابت فلسفة التاريخ كقسم مستقل فى علوم الحكمة ربما لعدة أسباب أهمها:

أ- التصور العام للكون فى علوم الحكمة الأولى فيه لواحب الوجود، الواحد، الكامل، اللانهاى الذى منه يفيض كل شىء. وهو تصور المتكلمين خاصة الأشاعرة لنظرية الذات والصفات والأفعال. هو تصور هرمى للعالم يعطى القمة أكثر مما يعطى القاعدة، وللصورة الخالصة أكثر ما يعطى للمادة المتعينة. وفى هذا التصور يغيب التاريخ الطبيعى والتاريخ الإنسانى معا. فالطبيعة لا تتطور من ذاتها. خلقت مرة واحدة من عدم وتنتهى إلى عدم. وكان يمكن لأصحاب الطبائع الذين يقولون بالطفرة والكمون والتوليد

(١) انظر دراستنا: لماذا غاب مبحث التاريخ من تراثنا القديم؟ دراسات إسلامية، الأنجلو المصرية، القاهرة

إنتاج تاريخى طبيعى ولكنهم ضاعوا فى زحمة الفرق. فهم فرقة من فرقة، الاعتزال والفرقة نفسها مستبعدة ومهمشة، ولم تبق فى التاريخ. والإنسان لا يبادر ولا يحرك التاريخ طالما أن المبادرة علوية، وطالما أنه مطالب فقط بتطبيق الشريعة وتنفيذ الأوامر، فهو علة ثانية وليس علة أولى.

ب- تصور العلاقة بين طرفين فى محور رأسى وليس فى محور أفقى، بين الأعلى والأدنى وليس بين الأمام والخلف يجعل الحركة رأسية نازلة وصاعدة، بين الذهاب والإياب، بين الفيض الكونى والإسرافى النفسى. ويصبح التاريخ، ومراتب الموجودات، ومقامات الارتقاء خارج التاريخ، منعرجا إلى أعلى وليس متجها إلى الأمام. العالم يفيض عن الله، والنفس تصعد إلى السماء. والوحى ينزل من العقل الفعال، والعقل المنفعل يستفيد منه ويصعد إليه متحدًا به، فالفرع يعود إلى الأصل. لا يوجد زمان ولا مكان ولا بشر ولا دول ولا صراع ولا إرادات جماعية أو فردية حتى ينشأ التاريخ.

ج - النزعة الإشرافية والعلم اللدنى والمعارف المعطاة سلفا والحقائق المتلقاة، كل ذلك يعطى الأولوية المطلقة للنظر على العمل، وللمعرفة على السلوك. الحقيقة تكتمل بمعرفتها، والسعادة فى هذه المعرفة القائمة بذاتها. ولا ينشأ التاريخ إلا بأولوية العمل على النظر. ولا يعنى العمل مجرد العمل الفردى الأخلاقى، مجاهدة النفس بل العمل السياسى الجماعى لتغيير الواقع والدخول فى متناقضاته.

د- الفلسفة الخالدة فى عقل الفيلسوف، وتحويل العالم إلى مثل أعلى، والمجتمع إلى مدينة فاضلة، جعل الفكر خارج التاريخ من وضع الذهن، حقيقة مطلقة خارج العالم، خلود بلا زمان. والتاريخ الإنسانى لا ينشأ إلا فى المكان والزمان ومع البشر والتدافع فى الأرض. لا ينشأ التاريخ فيما ينبغى أن يكون بل فيما هو كائن، بالفكر الطوباوى ولكن بالواقع المضنى المعاش. تكتمل الحقيقة فى ذهن الفيلسوف بمجرد تأملها ويتوقف التاريخ^(١).

(١) هذا أيضا ما حدث عند هيجل وتصور الفيلسوف الذى يكتمل التاريخ فى ذهنه.

هـ- الحقيقة تقوم على العقل والطبيعة، على الاتساق المنطقي والتطابق مع الواقع. فالوحي له أساسان، العقل والطبيعة. فهو تأسيس بلا تاريخ، اكتمال بلا تطور، بنية بلا مراحل.

و- الحقيقة بنية وليست تاريخا، اكتمال وليست تطورا، معطاة مرة واحدة ولا تكتشف على مراحل تجعل الحقيقة بلا تاريخ، بلا زمان ولا مكان، بلا تفاعل ولا تضاد. ويبدو أن اكتمال الوحي جعل العقل أقرب إلى البحث عن النهاية وليس البداية، النتيجة وليس المقدمة، ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾. مع أن محمداً عود إلى إبراهيم، وتأكيد على رسالات الأنبياء^(١).

ز- بداية كل فيلسوف من الصفر، من الألف إلى الياء، وصمته عن مصادره لم يحدث التراكم الفلسفي الكافي لخلق وعي تاريخي. فالكندي لا يشير إلى المترجمين، والفارابي لا يشير إلى السابقين عليه، وابن سينا يبدأ الفلسفة وينهيها ويكمل بنيتها، ويتم النسق^(٢). المنطق والطبيعات والإلهيات ليس لأحد، وللـكـل في نفس الوقت^(٣).

ح- كان الفلاسفة مفكرى البلاط، يفكرون للأمير، ويعملون لحسابه. كان الكندي مؤدياً للمعتصم بالله، والفارابي زينة بلاط سيف الدولة، وابن سينا وزيراً. في دولة بني بويه، وابن رشد طبيب المنصور. كانوا من النخبة وليسوا من الشعب باستثناء الشيعة مثل أبي يعقوب السجستاني الذي استشهد في ثورة عام ٣٣١ والمعارضة السياسية والثوار الذين حولوا قصص الأنبياء إلى فلسفة في التاريخ. كان الأنبياء ثورا ضد الظلم، وتلاهم الأئمة القائمون ووضع الأكوار والأدوار، ودورات التاريخ، والصراع بين القهر والتحرر، بين الظلم والعدل، بين الحق والباطل.

(١) هذا هو التقابل اللغوي الأنتروبولوجي في الغرب الحديث بين Diachronism, Synchronism .

(٢) هذا ما فعله هيجل أيضا في تاريخ الفلسفة الغربية.

(٣) وهذا على عكس الفلسفة الغربية وتولد المذاهب الفلسفية بعضها من بعض طبقا لقانون الفعل ورد

الفعل، مقدمة في علم الاستغراب ص ٦٤٢-٦٤٤.

ط- غياب فلسفات للتاريخ فى الحضارات المجاورة، يونانية ورومانية غربا، وفارسية وهندية شرقا، جعل التفاعل بين الوافد والموروث فى حده الأدنى. صحيح أن أفلاطون كان لديه تصور للعالم، تكوينه وتطوره فى "طيمائوس" ولكنه كان تاريخا أسطوريا، وأن أرسطو كان مؤرخا أكثر منه فيلسوفاً للتاريخ، نكتمل الحقيقة فى ذهنه. لم يحدث التحدى الثقافى الخارجى، المنبه من الحضارات المجاورة حتى تنشأ فلسفة للتاريخ تجمع بين الوافد والموروث كما حدث فى المنطق والطبيعات والإلهيات.

ى- كانت روح العصر روح الانتصار، وكانت الجيوش فاتحة، والعمارة قائمة. كان التاريخ يصنع بالسواعد والعقول. كانت الحضارة فى بدايتها تنشأ وتتكون وتصنع تاريخها. ولا تنشأ فلسفة التاريخ إلا بعد توقف الاندفاع الأول، وتأمل الفيلسوف فى مسار الحضارة، والتفكير فى أسباب قيامها وسقوطها كما حدث عند ابن خلدون^(١). فلسفة التاريخ يمكن أن تنشأ الآن سبعة قرون بعد ابن خلدون لطرح سؤال النهضة كما طرح ابن خلدون سؤال الانهيار خاصة بعد ظهور حضارات جديدة مجاورة خاصة الحضارة الغربية، ومحاولة للإجابة على سؤال شكيب أرسلان: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟

٢- هل يمكن إقامة فلسفة فى التاريخ؟ وهو السؤال المطروح ليس فقط داخل علوم الحكمة، بل أيضا داخل منظومة العلوم الإسلامية كلها، العقلية النقلية الأربعة، والنقلية الخالصة، والعقلية الخالصة.

ففى علوم الحكمة يمكن تحويل التاريخ الرأسى إلى تاريخ أفقى، والمحور الرأسى إلى محور أفقى، ونظرية الفيض وتراتب الموجودات إلى نظرية فى مراحل التاريخ، ونظرية الإشراق والصعود إلى أعلى إلى نظرية فى التقدم إلى الأمام. ويمكن الاستمرار فى قصص الأنبياء والأدوار والأكوار من الماضى إلى الحاضر والمستقبل دون التوقف

(١) يروى ابن إبراهيم باشا وجد كتابات فى فلسفة التاريخ فى الشام. فأرسله إلى أبيه فى القاهرة لقراءته. فرد عليه قائلا "أنت تقرأ التاريخ أما أنا فأصنع التاريخ".

على الماضي وحده، نزولا من مدينة السماء إلى مدينة الأرض، وبيان مقاومة الأئمة بعد الأنبياء لنظم القهر والتسلط إلى نهاية الزمان. كما يمكن بيان أنواع الضرورة التاريخية الكونية والتاريخية والشعبوية والاجتماعية ومقابلتها بالحرية الفردية وبعمل الجماعات. ويمكن إبراز العناصر الأولى لقيام الدول وسقوطها كما حاول الكندي والرازي والفارابي والتوحيدى وغيرهم. وأخيرا يمكن الدخول فى حوار مع ابن خلدون فى تاريخ العمران ومراجعته وقراءته من جديد، لوضع سؤال شروط النهضة بعد أن وصف ابن خلدون أسباب الانهيار.

ويمكن العودة إلى علم أصول الدين الذى كانت علوم الحكمة تطويرا له وإعادة الاختيار بين البديلين الأشاعرة والمعتزلة وأيهما أقدر على إنتاج فلسفة فى التاريخ، نظرية الذات والصفات والأفعال التى تضع الكمال كله خارج العالم، وتخرج الإمامة من الأصول إلى الفروع من أجل تسكين الناس ونزع سلاح المعارضة أم الأصول الخمسة عند المعتزلة وضم العدل إلى التوحيد، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلا من أصول الدين؟ وكلاهما بديلان داخل أهل السنة بالإضافة إلى البديل الشيعى الذى ظهرت فيه فلسفة التاريخ وفلسفة الثورة، وفلسفة المعارضة وفلسفة السياسة التى تحققت فى الثورة الإسلامية فى إيران أكثر مما ظهرت عند أهل السنة.

ويمكن إعادة تأويل النبوة والمعاد من السمعيات فى العقائد الأشعرية وتحويلها إلى فلسفة فى التاريخ العام، النبوة ماضى البشرية ومراحلها المختلفة وثورات الأنبياء، وقيام الدول وسقوطها فى الماضى، وتبدل الأقوام وهلاكهم مثل عاد وثمود، ومقاومة موسى لفرعون، ومحمد لأشراف مكة. والمعاد مستقبل البشرية ليس بالضرورة بعد الموت ولكن قبل الموت فى حياة البشر والإعداد له بالفعل.

كما يمكن تأويل الإيمان والعمل والإمامة كتاريخ متعين فى المواطن والدولة والعقد الاجتماعى بينهما. ثم توالى الدول والطبقات، والمفضول والأفضل وانهيار التاريخ من الخلافة إلى الملك العضود فى مقابل المهديّة والصعود من جديد آخر الزمان حتى يتم

الخلاص على أيدى المهدي المنتظر. ويمكن رد الاعتبار إلى الفرق الهالكة ونقد الفرقة الناجية، من أجل تشجيع المعارضة السياسية ونقد التسلط والأحادية^(١).

ويمكن البحث في علوم التصوف عن عناصر مكونة لفلسفة التاريخ، وتحويل المحور الرأسي أيضا والصعود إلى أعلى في نظرية الإشراق، في المقامات والأحوال إلى محور أفقي في مراحل التاريخ، وتعاقب الدول من الخلف إلى الأمام بدلا من أدنى إلى أعلى، وأن يصبح الفناء، نهاية الطريق الصوفي هو البقاء اكمال الغاية في التاريخ.

ويمكن أيضا إعادة تأويل "فصوص الحکم" وقصص الأنبياء على أنها مراحل التاريخ منذ آدم حتى محمد وخالد بن سنان، وكيف يتجلى الكمال تدريجيا، نبيا وراء نبي، مرحلة وراء مرحلة حتى يصبح الحق خلقا والخلق حقا، وقد قامت فلسفات التاريخ على نوع من تحقيق المثال في الواقع، وتحقيق الغاية في التاريخ، وهو ما سماه الصوفية وحدة الوجود. يستطيع التصوف كله بما فيه من طاقة وحركة وصراع وجدل أن يتحول إلى فلسفة في التاريخ، بأن ينتقل من الداخل إلى الخارج، ومن الفرد إلى الجماعة، ومن الروح إلى التاريخ.

بل إن الطريقة نفسها كالمهدية والسنوسية قد تحولت إلى حركات جهاد ضد الاستعمار في التاريخ الحديث. وشارك كبار الصوفية قديما وحديثا في ثورات الشعوب المضطهدة مثل الحلاج واشتراكه في ثورة القرامطة ونجم الدين كبرى في الشام. ومازالت مؤثرة في السودان والمغرب وأواسط آسيا، وقادرة على التأثير في مسار التاريخ بعد تحولها إلى حركات شعبية حاملة للأهداف الوطنية والقومية.

لقد نشأ التصوف في البداية كنوع من المقاومة السلبية بعد أن استحالت المقاومة الفعلية بعد استشهاد الأنمة من آل البيت واستتباب النظام منذ الحجاج وخلفائه. والآن المقاومة ناجحة في إيران وجنوب لبنان وفلسطين والشيشان. بل إن معظم حركات

(١) وقد تم ذلك من قبل في "من العقيدة إلى الثورة" خاصة في المجلد الرابع "التاريخ العام"، والمجلد الخامس "التاريخ المتعين".

التحرر الوطنى فى هذا القرن قد خرجت من عباءة الصوفية خاصة والحركة الإصلاحية بوجه عام. يمكن التحول من جهاد النفس إلى جهاد العالم، من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، ومن إسقاط التنبير إلى التحرر الفردى والاجتماعى والسياسى، ومن الأحوال النفسية إلى جدل فى التاريخ، ومن المقامات الصوفية إلى مراحل التقدم فى التاريخ.

ويمكن أيضا استنباط عناصر لفلسفة فى التاريخ من علم أصول الفقه، من تسلسل الأدلة الشرعية الأربعة، من الكتاب إلى السنة إلى الإجماع إلى القياس أى من النص إلى تجربته الأولى فى الزمان والمكان إلى توالى فهم الأجيال جيلا وراء جيل إلى الجهد الفردى فى الفهم والاستنباط. فالتقدم هنا من النص إلى الحياة، وإجماع الجيل السابق ليس ملزما للجيل الحالى. والاجتهاد مفتوح إلى آخر الزمان، فالوقائع لا تنتهى.

وإذا كانت اللغة اصطلاحا وليست توقيفا فإن ذلك يسمح بتتبع نشأة اللغة وتطورها. واللغة تعنى الفكر، ومن ثم يمكن أيضا وصف تطور الفكر البشرى من خلال تطور اللغة ومعانيها الاشتقاقية والاصطلاحية والعرفية. وإن الاشتباه فى اللغة الظاهر فى ثنائيتها مثل: الحقيقة والمجاز، الظاهر والمؤول، المحكم والمتشابه، المجمل والمبين، المطلق والمقيد، المستثنى والمستثنى منه، يسمح بإدخال عنصرى الزمان والمكان من أجل تأويل متجدد للأحكام ونصوصها. ففى اللغة ثابت ومتحول، جدل الثوابت والمتغيرات. كما أن التعليل يمكن أن يتحول من تعليل الأحكام الفردية إلى الكشف عن قوانين السلوك البشرى العام باستقراء جزئيات الأحكام، وتحويلها إلى قوانين فى التاريخ.

أما أحكام الوضع فقدرة على التحول من النص إلى العالم، ومن الحكم الشرعى إلى الموقف الإنسانى، فالأفعال فى العالم لها أسباب وشروط وموانع وعزائم ورخص وصحة وبطلان. أما أحكام التكليف فإنها تصف الممارسات الفعلية للأفراد والجماعات بين الإيجاب والسلب الضرورىين أو الاحتماليين نظرا لوجود الضرورة والحرية فى التاريخ بالإضافة إلى الأفعال الطبيعية التلقائية التى يقوم بها الأفراد تعبيرا عن الدافع الحيوى.

أما المقاصد فإنها تمثل الغايات القصوى للتاريخ، الحياة والعقل والعلم والكرامة وثروات الأمم التي تدافع عنها الشعوب لأنها أسباب بقائها. هي حقوق الأفراد والشعوب التي تتجلى في مراحل التاريخ ومن خلال نضال المجتمعات.

ويمكن أيضا استنباط بعض العناصر المكونة لفلسفة التاريخ من العلوم النقلية الخالصة. ففي علوم القرآن هناك أسباب النزول وأولية الواقع على الفكر أى المكان، و"الناسخ والمنسوخ" ووجود الزمان داخل التشريع والنص والحكم أى التطور والتغير فى الأحوال. وهناك التحول من المكى إلى المدنى، من التصور إلى النظام، وترتيب السور والآيات طبقا لزمان نزولها.

وفى علوم الحديث تشير الرواية إلى انتقالها عبر الزمان، ونقلها عبر الأجيال. فالتاريخ هو التطابق بين المسموع والسامع دون تأويل أو تخريج. علم ميزان الرجال، وعلم الجرح والتعديل وشروط التواتر كل ذلك يمكن أن يتحول إلى وعى معرفى تاريخى.

وعلوم التفسير أيضا خاصة تلك التى استعملت المنهج التاريخى يمكن أن تكون مصادر أولية لفلسفة فى التاريخ تصف أحوال الأمم، نهضة وسقوطا، ونشأة العالم ونهايته، واستقراء القوانين من الحوادث الجزئية، ودراسة الماضى عبرة للحاضر، وجمع المعلومات عن الأمم السابقة والتحقق من رواياتها وأساطيرها.

وفى علوم الفقه يمكن التحول فى الأولويات من العبادات إلى المعاملات من أجل اكتشاف عناصر التاريخ الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، فى البيع والشراء، والإجارة والمزارعة، وأنواع المضاربات، والإسلام والجزية والقتال، والجهاد والغنائم، والرق والنساء والصيد. فالفقه هو علم النوازل، والنوازل متغيرة عبر العصور.

وإذا كانت الجغرافيا جزءا من علوم الحكمة، الحكمة الطبيعية، دراسة طبقات الأرض، الإنسان والحيوان والنبات والمعادن، فانه يمكن رصد عناصر التاريخ الطبيعى. أما التاريخ فإنه يمكن الكشف عن فلسفات التاريخ وراء الحوليات والطبقات وكتابة

التاريخ من البداية إلى النهاية والتصورات الحاكمة له.

بل إن العلوم العقلية الخالصة لقادرة على أن تمد فيلسوف التاريخ ببعض العناصر مثل علم الفلك وتأثير عالم الأقلاك في العالم الأرضى، عالم ما فوق القمر فى عالم ما تحت القمر، وتأثير النظرية الجغرافية على حياة الشعوب وأمزجتهم وعاداتهم وعمرانهم. كما يمكن لعلوم الطب والتشريح إعطاء عناصر لتكوين تاريخ طبيعى للإنسان.

لقد اشتدت الرغبة فى ظهور فلسفات للتاريخ فى الفكر العربى الحديث بفضل التأخر والتقدم. وحاول كثير من المصالحين الإجابة على السؤال والتركيز على سنن الكون ﴿ ولن نجد لسنة الله تبديلا ﴾، وقوانين التاريخ، ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾. من أجل العظة والاعتبار. وقد ساعد على ذلك ترجمة فلسفات التاريخ المعاصرة من الغرب الحديث وتحقيب التاريخ فى مراحل تجعل الغرب مركزا للعالم وتضع تاريخ البشرية جميعا فى مراحل ما قبل التاريخ، وتاريخ الغرب الحديث هو نهاية التاريخ ومصبه حيث يتوقف التاريخ وينتهى. فتحقيب الغرب هو تحقيب العالم. ولا توجد حضارات وشعوب ثرت الغرب حيث اكتمل التاريخ وتوقف الزمن^(١).

وقد قامت المشاريع العربية المعاصرة لإبراز الوعى التاريخى والإجابة على سؤال: فى أى مرحلة من التاريخ نحن نعيش؟ وتحقيب الحضارة الإسلامية تحقيا مستقلا من القرون السبعة الأولى، العصر الذهبى الأول الذى بلغ ذروته فى القرن الرابع الهجرى، إلى القرون السبعة التالية. ويفصل بينهما ابن خلدون الذى وصف القرون السبعة الأولى مبينا كيف قامت الحضارة الإسلامية ولماذا انهارت؟ ونحن الآن على أعقاب حقبة ثالثة، قرون سبعة قادمة، من القرن الرابع عشر حتى القرن الواحد والعشرين الهجرى ابتداء من الإصلاح الدينى بالرغم من كبوته، والثورة العربية بالرغم من نكستها إلى فجر نهضة عربية جديدة. كما تتم دراسة الغرب الحديث الذى أوشك على نهاية عصوره الحديثة منذ الإصلاح الدينى فى القرن الخامس عشر الميلادى حتى نهاية القرن

(١) لسنج: تربية الجنس البشرى دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، المقدمة.

العشرين وبداية الواحد والعشرين، متلاحما مع نهضة آسيا. وربما تشاهد البشرية تحولا في روح العالم وسرياتها من الشرق القديم إلى الغرب الحديث أولا ثم عودتها من الغرب القديم إلى الشرق الحديث ثانيا^(١).

ثانيا: التاريخ الرأسى-

ويعنى التاريخ الرأسى تاريخ العالم وفيضه من أعلى إلى أدنى كما هو الحال في نظرية الفيض ثم الصعود من جديد من أدنى إلى أعلى بالإشراق. الفيض في الكون والإشراق في النفس، الذهاب والإياب، الخروج والدخول، البداية والنهاية.

١- التاريخ النازل (نظرية الفيض). وهو تاريخ الكون كما مثلته نظرية الفيض وصدور العالم عن الله على درجات، وخروج المادة من اللامادة على مراتب. وهو أقرب إلى التاريخ الطبيعى منه إلى التاريخ الإنسانى بالرغم من بزوغ النفس كأحد مراتب الكون. والنفس العاقلة أحد قواها^(٢).

أ- فيض الوجود ومراتب الموجودات. وهناك ثلاث مراتب للأحياء فيما يتعلق بالنطق والحياة. الأولى حى ناطق غير مائت وهو الملاك. والثانية حى ناطق مائت وهو الإنسان. والثالثة حى غير ناطق وغير مائت وهو الجن. فالإنسان أفضل من الجن فى النطق، والجن أفضل من الإنسان فى عدم الموت^(٣). الإنسان والجن على طرفي نقيض فى النطق والموت والملاك وسط بين الاثنين يشارك الإنسان فى النطق، ويشارك الجن فى عدم الموت. والحقيقة أن الجن ناطق طبقا للعقائد لأنه يستمع إلى القرآن ويفهمه

(١) مقدمة فى علم الاستغراب ص ٧٦٣-٧٧٦.

(٢) تم عرض نظرية الفيض بالتفصيل فى باب الحكمة النظرية، الفصل الثانى، الطبيعىات والأفعال. وقد يبدو تداخل بين هذا الجزء وذلك.

(٣) الفارابى: المسائل الفلسفية ص ٩١.

حى ناطق غير مائت = الملاك	}	مراتب الأحياء
حى ناطق مائت = الإنسان		
حى غير ناطق غير مائت = الجن		

ويتكبره ويناقش ويحاجج وهذا لا يكون إلا بالنطق. وهو إجابة على سؤال مثل باقى
الأسئلة المنطقية والطبيعية فهو سؤال علمى وليس سؤالاً عقائدياً

وفى "رسالة فى إثبات المفارقات" يبرهن الفارابى على صحة نظرية الفيض، الله،
والعقل، والنفس الفلكية والنفس الإنسانية. لا تموت ولا تفسد، مدركة لذواتها، ولكل منها
سعادة فوق سعادة المادة. وتكثر العقول والنفوس الفلكية بالأنواع فى حين تكثر النفوس
الإنسانية بالأشخاص بالرغم من سؤال الحكماء: كيف يمكن الجمع بين البساطة والكثرة
فى النفوس لأن البساطة قرين الوحدة؟

والبراهين لإثبات المفارقات إما عامة لها كلها أو براهين خاصة لإثبات مفارق
مفارق، وأحياناً تكون بإثباتها أولاً ثم إثبات المفارقة ثانياً. وتقوم الحجة على قسمة الوجود
إلى واجب وممكن. وهى ثنائية تطهيرية تعبر عن إيمان مسبق وموقف تطهيرى وليست
تصورات بديهية بل إيماناً مقنعاً. والبرهان على إثبات الوجود الذى لا سبب له فى حاجة
إلى برهان آخر لإثبات أنه مفارق. فالممكنات يجب أن تنتهى إلى واجب الوجود. وواجب
الوجود لا سبب له وإلا لزم التعليل إلى ما لانهاية. كما أن الوجود إما معلول أو علة،
طرفان ووسط، والوسط يرد إلى الطرفين مما يستلزم وجود سبب لا علة له. فلكل موجود
علة. وإذا استغنى عنها أصبح واجب الوجود. والمحدث يحتاج إلى علة حادثة. والبرهان
على أنه مفارق أنه لو كان جسماً لكان له مادة وصورة، وكانت له ماهية مما يستلزم
محالات ثلاثة: أن المعلوم يلزمه الوجود أو أن الوجود بلا سبب يكون من لوازم الماهية
أو أن يكون واجب الوجود متعلقاً بالماهية واجبا عليها. وأحياناً إثبات الشيء يتضمن
إثبات مفارقاته فى خطوة واحدة دون حاجة إلى خطوتين^(١).

وأحياناً يكون الجدل الداخلى أى البرهان صعباً لا يتفق مع علوم الحكمة التى تقوم
على البرهان لا على الجدل مما يدل على بقاء علم الكلام، موضوعاته وبعض مناهجه فى
علوم الحكمة. إذ يقوم إثبات المفارقات على براهين داخلية منها علم الكلام دون الاكتفاء

(١) الفارابى: رسالة فى إثبات المفارقات، الفترة (١).

ببداية التصور في الفلسفة. فعلوم الحكمة لم تتخل بعد عن المنهج الجدلي.

والبراهين كلها في الحقيقة لا هي جدلية كلامية ولا برهانية فلسفية بل هو اقتضاء خلقى أو مطلب نفسى تكشف عنه عبارات مثل "لا يصح"، "لا يجوز"، "يجب أن" من اللازم أن....، "يقتضى أن"، وهو طريق الأولى الأخلاقى^(١). وتعتمد كل الحجج على نفس القسمة التطهيرية، الأول والثانى، الصورة والمادة، العلة والمعلول، الوجود والماهية، وكل منها يعتمد على الأخرى، وهو ليس استدلالا بل إيماننا يبحث عن ذاته، إيمان صريح يتحول إلى إيمان مقنع أو إيمان مقنع يكشف عن إيمان مسبق طبقا لعملية التشكل الكائنة.

وبالرغم من وضع رسالة الفارابى وتركيزها إلا أنها رسالة تطهيرية علوية إشراقية لا تتفق مع فلسفته المنطقية العقلية. وهو نفس التضاد في فلسفة ابن سينا بين "الشفاء" و"النجاة" من ناحية و"الإشارات والتبسيهات" خاصة في القسم الأخير عن "المقامات والأحوال"، بين الفلسفة العقلية المنطقية والفلسفة الصوفية الإشراقية. وهو نفس التضاد الذى وقع فيه أيضا الرازى بين "القدماء الخمسة" والطب الروحاني. ولم يصمد أمام الإشراق إلا الكندى العقلانى الطبيعى، المنطقى العلمى، وابن رشد المعتزلى الأرسطى. والمطلوب الآن ربما ليس إثبات "المفارقات" بل تحقيق "الحالات" من أجل عودة الفكر إلى الواقع وتأثيره، والقضاء على الاغتراب الثقافى.

والله هو المفارق الأول، ولا سبب له. وهو العلة الأولى وواحد. قالوحدانية تأتى قبل سائر الصفات، الوصف السادس فى علم أصول الدين^(٢). ولا يزيد الفارابى أكثر من ذلك. كما يفصل فى المفارقات الثلاثة العقل والنفس الفلكية والنفس الإنسانية نظرا لقياس الغائب على الشاهد. وكل ما يقال فى المفارقات الثلاثة يقاس عليه.

والعقل ليس واحدا بل هناك عقول كثيرة. وكلها فعالة وليس فقط العقل العاشر.

(١) وهو أيضا الدليل الانطولوجى عند أنسيلم والتحول من Majus أعظم إلى Melius أفضل. انظر مقدمتنا لترجمة "أومن كى أعقل"، نماذج من الفلسفة المسيحية.

(٢) من العقيدة إلى الثورة جـ ٢ التوحيد ص ٣٠٤-٣٣٦

وترتبط المفارقة بالوحدة وكأن الواحد لا يكون حالا والكثير لا يكون مفارقا.

وهناك ستة براهين لإثبات العقول الفعالة. الأول أن اللازم الأول إحدى الذات لأن الأول إحدى الذات من كل جهة، ويقضى الواحد واحدا، والواحد لا يكون إلا مفارقا، ولا يصدر عن الصورة إلا صورة، ولا يصدر عنها مادة أو صورة ومادة. والثاني الجسم مؤلف من مادة وصورة، ولا يستغنى كل منهما عن الآخر، فلا بد أن يوجد كلاهما من ثالث مفارق. والثالث لو كان الجسم الفلكي سبب وجود جسم محوى للزم أن يكون لعدم الخلاء سبب. والخلاء محال، والمحال لا سبب له لذلك كان الفلك مفارقا. والرابع النفوس الإنسانية مفارقة ويلزم أن تكون علتها مفارقة لأن الجسم متأخر في الوجود عن المفارقات. ولو كان الجسم سبب المفارق لأفاد وجودا مثله وأتم منه، وكان وجود النفس الإنسانية من غير سبب، والجسم لا يفيد وجودا أكمل منه. والخامس النفوس الإنسانية تخرج من القوة إلى الفعل في المعقولات، ولابد لذلك من قوة تجعلها معقولة وهو المفارق. والسادس لابد للحركة الدائمة من محرك مفارق^(١).

والملاحظ على هذه البراهين أنها تثبت ببرهان الخلف وكأن الموضوع منطقي صرف وليس وجوديا. كم أنها تقوم على افتراض التسليم بنظرية الفيض وخروج العقل الأول من الواحد، والعقل الثاني من الأول... الخ. وماذا لو أنكر الفيض، هل يسقط البرهان؟ وهل يقتضى التسليم بالمفارقات التسليم بالفيض بالضرورة؟ ألا يؤدي الخلق إلى القول بالمفارقات أيضا على الأقل، الله والنفس. فبعد إثبات المفارق الأول يستنبط المفارق الثاني لأن الفائض عن المفارق مفارق. وبعض البراهين يقوم في مقدماته على مسلمة مثل استحالة الخلاء، وهو افتراض مسبق مأخوذ في البرهان على أنه مسلمة. كما يعتمد برهان على إثبات النفوس الإنسانية وهي لم تثبت بعد. إذ يتضمن فقرة كما تكشف عن ذلك عبارة 'على ما سيأتى بعد'. وفكرة 'التقدم' و'التأخر' فكرة إيمانية خالصة مثل تقدم النفس على البدن كتقدم الله على العالم في الوجود أو تقدم البدن على النفس مثل تقدم

(١) انقاربي: رسالة في إثبات المفارقات، الفقرة (٢).

العالم على الله فى المعرفة. وتقوم معظم البراهين على استحالة التسلسل إلى مالانهاية لأن نموذج اليقين عندهما هو البرهان الطولى وليس الدائرى. والبراهين كلها من نوع إثارة الغبار ثم الشكوى من عدم الرؤية أو هى براهين افتراضية تبدأ بـ "لو" بحيث يبحث العقل اتساقه مع نفسه واستنباط نتائج متفقة مع مقدمات افتراضية أصلا لم يتم التثبت من صحتها. والبراهين صور شعبية للتوفيق بين متعارضين، المادة والصورة، والحاجة إلى شخص ثالث أعلى غير منحاز يجمعهما وهو العقل المفارق. وهذا ليس برهانا عقليا بل صورة إنسانية بدليل لفظ "مستغنى". وهو لفظ إنسانى وأسلوب إنسانى وعبارات صوفية مثل "أحدى الذات" مما يدل على أنها ليست برهنة عقلية بل تجربة صوفية. وفى نظرية القدم لا توجد مفارقات لأنها نظرية حلولية.

وتسمى النفس الفلكية أحيانا بالقوى السماوية أو النفوس السمائية وليست نفوس الأفلاك. وهو تعبير شعرى أكثر من الفلك اللفظ العلمى. والحركة المستديرة مفارقة على عكس الحركة المستقيمة. فالاستدارة تقبل فى الفلك وليس فى علاقة العلة بالمعلول. وتثبت النفوس السمائية بثلاثة براهين. الأول أن الحركة الطبيعية تصدر عنها حالة طبيعية وهى حالة الحركة المستديرة وليس السكون. والثانى أنها تتطلب أمرا تسكن عنده على أقرب الطرق، وهى المستقيمة. والثالث أن الطبيعة لا تقتضى هروبا من مطلوب، والمستديرة بخلافها فهى أذن غير طبيعية بل نفسانية اختيارية. ولأنها تختار جزءا فهى ليست عقلا. والبرهان على مفارقتها أن مطلوبها لا يصح أن يكون حسيا ومن باب الشهوة والغضب وإلا كانت تسكن عند إصابته. فهناك استكاف من الشهوة والغضب وهما أساس الخلق الإنسانى. وكلها أدلة ضعيفة صورية جدلية لا تثبت شيئا، وتهرب من الإسقاط الإنسانى^(١).

وتثبت النفوس الإنسانية كعلة لإثبات الأجسام لأن الجسم لا يثبت جسما. والجسم المطلق لا وجود له. فلا بد من مقوم وهو الجوهر وخاصيته النمو والاعتداء والإدراك

(١) السابق، الفقرة (٣).

والحركة وهو النفس. وهناك أربعة براهين لإثبات مفارقة النفوس الإنسانية. الأول إدراك المعقولات والمعقولات معانى مجردة، وكل مدرك يحصل فى المدرك، وكل ما يحدث فى الجسم يكون مؤثرا فيه، ما لا بد للجسم فى وجوده. فلو حدث معقول فى الجسم لما كان معقولا. والثانى الشعور بالذات. ولو كانت فى آلة لما شعرت بذاتها دون إدراك آلتها، وكان بينها وبين آلتها آلة. ويتسلسل إلى ما يدرك ذاته. وكل موجود فى آلة فذاته غيره. الثالث إدراك الأضداد معا بحيث يتمتع أن توجد كذلك فى المادة. الرابع الإقناع بأن العقل قد يقوى بعد الشيخوخة. وإذا كان مفارقا لا يفسد بفساد المادة. وهى الحجة المذكورة عند ابن سينا دون الإشارة إلى مصدرها.

وهذه البراهين الأربعة يمكن التساؤل حول كل منها. الأول هل إدراك النفس المعقولات يجعلها مفارقة وكيف يتم الانتقال من مستوى المعرفة إلى مستوى الوجود؟ والثانى هل يعنى الوعى بالذات بالضرورة المفارقة والانفصال عن الجسم؟ والثالث هل يثبت إدراك هذه الأضداد مفارقتها أم يثبت فقط معرفتها ووجودها؟ والرابع ألا تدل قوة العقل بعد الشيخوخة على النضج واكتساب الخبرات وليس على المفارقة وإلا فما معنى العتة عند الشيخوخة والنبوغ فى الطفولة والصبا؟

والغرض من إثبات المفارقة غرض ديني وهو إثبات البعث. والبرهان على ذلك بقاء البسيط، بقاء العقل بالفعل وليس العقل الهولاني. فالبقاء بالمعرفة وليس بالعمل الصالح، وليس للثواب والعقاب كما هو الحال فى علم العقائد^(١).

وبالرغم من دقة الفكر البرهاني إلا أن السؤال هو : هل يحتاج الإنسان إلى إثبات النفس وهو كائن يتحرك يشعر ويتألم ويفرح ويحزن؟ وهل براهين البعث صورية مجردة فارغة جدلية أم إحساس إنساني، الرغبة فى الحياة بعد الموت، والشوق إلى الخلود، وتمنى عالم آخر يسوده العدل تعويضا عن الظلم فى الدنيا؟

واستمرت نظرية الفيض عند الشيعة الإسماعيلية عند أبى يعقوب السجستاني فى

(١) السابق: فقرة (٤).

"الينابيع" وعند حميد الدين الكرمانى فى "راحة العقل"^(١). وتتميز بزيادة ظهور الجانب الإنسانى. وتزداد المراتب الأربعة فى "الينابيع" من الله والعقل والنفس والعالم إلى الإنسان وتاريخ النبوة والمعاد أى دور الإنسان فى التاريخ. ماضى البشرية فى النبوة، ومستقبلها فى المعاد. ولا فرق بين الينبوع الروحانى والينبوع المادى فكلاهما درجات مختلفة من التحقق والتعين. والينابيع مثل الحدود الدينية أى قواطع وفواصل.

وهناك أربعون ينبوعاً فى خمس مراتب. الأول ثلاثة ينابيع فى الله بمعنى المبدع وهويته. ويعنى الإبداع إضافة أمر إلى طرفين. والثانى تسعة ينابيع فى العقل الأول المبدع وخلود العقل وسكونه وتمامه ومخاطبته للنفس. والثالث ثمانية ينابيع بين العقل والنفس بلغة الكندى فى الأيس والنيس، والنفس الكلية وإفاضتها على الأنفس الجزئية للبشر، وقوى النفس وحركاتها. والرابع ستة ينابيع فى خلق العالم وابتداء الإنسان وعدد الملائكة وفى استبعاد الشر من أصول الإبداع. والخامس فى الإنسان والنبوة والمعاد^(٢).

(١) الراعى الأجل سيدنا أبو يعقوب المسجستانى: الينابيع، تقديم وتحقيق مصطفى غالب، المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، لبنان.

(٢) لله: ١- الينبوع طبيعى وروحانى ومعنى المبدع ٢- هوية المبدع. ٣- هى إضافة أمر الله إلى طرفين. العقل. ٤- عالم العقل. ٥- العقل الأول مبدع. ٦- قبل العقل الأول لا يتوهم شيء البنية. ٧- العقل لا يبيد. ٨- العقل ساكن. ٩- العقل تام القوة والفعل ١٠- إثبات العقل المجرد ١١- مخاطبة العقل للنفس ١٢- كيفية اتصال فوائد العقل بالنفس ١٣- الأيس لا يصير نيساً ١٤- الأسىات متناهية وذات غايات ١٥- سؤال لم خلق الله العالم محال ممتنع ١٦- إبداع العقل إبداع لقوى كثيره ١٧- إثبات النفس الكلية تتبع منها الجزئيات فى البشر ١٨- ما فى البشر أجزاءه وجوهره من النفس الكلية ١٩- الأفلاك بجميع قواها ونجومها وحركاتها فى أفق النفس ٢٠- كيفية حركات الفلك على مراد النفس واختيارها مع وجود الجبر فيها ٢١- الله فى كل مكان لا يليق بالخلق الأول فضلاً عن المبدع جل وعنى ٢٢- كيفية ابتداء الإنسان ٢٣- كيفية عبادة المبدع وهو السابق المبدع ٢٤- ملائكة الله لا يحصىها عدد ٢٥- الشر لا أمثل له فى الإبداع ٢٦- القوى الطبيعية لا قدر لها عن القوى الروحانية المعاد: ٢٧- الثواب هو العلم ٢٨- معنى الصليب للمسيح عليه السلام ٣٢- اتفاق الصليب مع الشهادة ٣٣- العالم لا صورة له عند المبدع قبل الإبداع ٣٤- الزوج المركب الذى يتلو الأربعة بعد الستة ٣٥- لا أحد إلا ويبلغ مرتبة العقل ٣٦- هوية صاحب الفتنة ٣٧- توهم الكثرة من علة واحدة هو أمر الله ٣٨- للبشر عود إلى ثواب أبدى ٣٩- معنى كلمة المبدع ٤٠- كيفية اتصال التأييد =

فالإبداع نشأة تكون أى نشأة التاريخ مع الخلق. الإبداع نوع من الخلق المستمر أى الفيض والتجلى، وخروج مرتبة من مرتبة فى مراحل وعلى درجات، من العالم الروحى حتى العالم المادى. وبالرغم من أن الينابيع تمثل الفيض إلا أنها التأسيس أيضا بلغة الأوتاد.

هناك إحساس عند أبى يعقوب بالجدة لدرجة تقديس النص لأصالته وهو محمل بالدلالات، بالإضافة إلى جمال العنوان وتقسيم الكتاب طبقا لبنية الموضوع. وبالرغم من إيجازه إلا أنه يتم الخروج عن الموضوع "لنعد إلى ما كنا فى سبيله". يجمع بين البرهان وصفاء النفس. وبالرغم من صعوبة الأسلوب ودرجته العالية فى التجريد الفلسفى وكلفته فى السجع إلا أنه مملوء بالمصطلحات الفلسفية والقرآنية مثل سدرة المنتهى. الغاية منه توضيح الأسس النظرية والهدايات العملية.

ويستأنف العامرى (٣٨١هـ) نظرية الفيض من رباعية إلى خماسية. ففى "الفصول فى المعالم الإلهية" ودون حمدلات أو بسملات أو دعوات مراتب الوجود خمس: الله وهو الموجود بالذات فوق الدهر وقبله، والقلم وهو الموجود بالإبداع مع الدهر وقرينه، والعرش واللوح وهما الموجودان بالخلق بعد الدهر وقبل الزمان، والأفلاك الدائرة فى الأجرام العلوية وهى موجودة بالتسخير أى بالطبع مع الزمان وقرينه، وأخيرا الأسطوانات الأربعة وهى الموجودة بالتوليد بعد الزمان وتكوينه. وكلها معانى ذاتية للوجود أو حقيقة الوجود أو مراتب الأشياء فى حقيقة الوجود.

الله هو الأمر أى الصورة الكلية، والعلم العقل الكلى، والعرش الفلك المستقيم، واللوح النفس الكلية مما يبرز عملية التشكل الكاذب بين الدين والفلسفة على مستوى الألفاظ.

الإحاطة بالموجودات من الخصوصية الإلهية، فانه محدث العالم ومدير الأشياء، والغنى الأكبر لمن له الخلق والأمر، والقلم هو العقل الكلى. وهو جوهر لا يتجزأ يحيط بالأكران الطبيعية، ومملوء بالصور العقلية. وهو نوعان: إلهى يعقل ويدبر ومنه يستمد الأنبياء والحكماء المعارف، وهو عقل بالفعل يعقل ذاته. وعقل بشرى أو إنسى، وهو

= بالمؤيدى فى العالم الجسدانى، الينابيع ص ٥٨-٦١/٦٩-٧٠.

جوهر قابل للعلم والحكمة. واللوح هي النفس الكلية، وهي ثلاثة أنواع: إلهية تدبر الطبيعة، وعقلية تفكر في الأشياء، وذاتية تعطي الأجسام والصور. فالنفوس إما عقلية أو عادية، والطبيعية إما نفسانية أو طبيعية فحسب. جوهر النفس العقل وكمال الجسم. النفس من حيث التكوين في الزمان، ومن حيث العقل في الدهر. وهي أيضا حامل الأخلاق^(١).

أما القوى الطبيعية في الجوهر الانسى فهي كالأساس للحيوانية، والتراكيب القويمة من الناس اختلفت في إثنية الصانع بين دهرى وزمانى وروحانى وجسمانى ووجدانى ومتكثر، مما يدل على تعدد الرؤى الإنسانية. والجواهر على الحقيقة هي الصور دون المواد. وهي إما إلهية أو صناعية أو طبيعية، وكل جوهر قائم بذاته من النقص إلى الكمال^(٢).

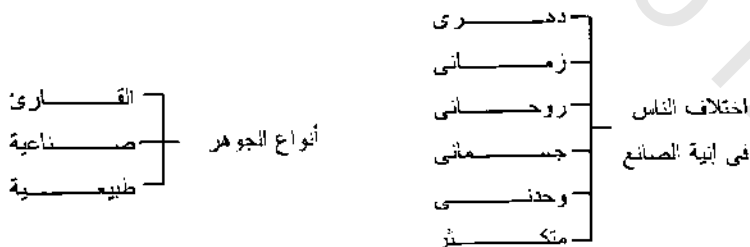
والسؤال هو: ما مدى تدخل الإرادة الإنسانية الحرة في هذا النسق الكوني لإفساح المجال لفلسفة في التاريخ تكون جماع القانون التاريخي والحرية الإنسانية؟

ففي "التقرير لأوجه التقدير" يعرض العامرى لنظرية الواجب والممكن والمستحيل

(١) أبو الحسن العامرى: التفصيل في المعالم الإلهية ص ٣٦٣-٣٧٩



(٢)



بين الكلام والفلسفة لبيان فساد مذهب الجبر والقدر وإفساح المجال للحرية الإنسانية. فالوجود ثلاثة أقسام: الواجب والممكن والممتنع. ولكل منها أقسام. فالواجب قسمان الإلهي المتفرد والإنساني، واجب بذاته واجب بغيره. والتقدير الإلهي إبداع أو صنع أو تسخير. والقول في وجه التقدير وحساب الأفعال هو أن المعاني عقلية محضة أو طبيعية محضة أو مشترطة بين الطبيعة والعقل. والمعرفة اليقينية بالمعاني المقدرة إما مبادئ أجسام أو لواحق أجسام أو ذوات أجسام. وأصناف صور الموجودات إما رياضية أو منطقية أو إلهية أو طبيعية. فكلما كانت مرتبة المعاني والصور أعلى وأكثر تجريدا كانت مجالا للقدرة الإلهية. وكلما كانت أقل تجريدا وأكثر طبيعة كنت مجالا للقدرة الإنسانية^(١).

والممكن نوعان: ممكن مطلق وممكن تقبلي أى نسبي. والممكن المطلق هو مجرد الإمكان الذى يكون فيه الوجود أكثر من اللاوجود أو اللاوجود أكثر من الوجود أو يتساوى فيه الوجود واللاوجود. أما الممكن النسبي فهو الأحداث أى الوقوع، إحداث المعاني الاتفاقية أو المهنية أو الفكرية أو الطبيعية. ويكون الفعل فى العالم بالإحالة

(١) أبو الحسن العامري: التقرير لأوجه التقدير ص ٣٢٢-٣٢٨



والتغير، والتنمية والتقيص، والتكوين والإفساد. أما الإمكان التلقى فإنه ميدان الموجودات الناقصة. وهى إما قريبة من الكمال أو بعيدة عن الكمال بسبب الفعل، أو بعيدة جدا عن الكمال بسبب المعرفة أو بعيدة جدا جدا عن الكمال كالوهم. أما الممكن النادر فهو أيضا واقع فريد لا يتكرر. وإذا كان الممكن مطلقا ونسبيا فأیضا الممتنع مطلق ومقيد. وفى كلتا الحالتين لا يحدث الفعل إلا فى الإمكان وبالتالي يظهر فساد مذهب الجبر والقدر عن طريق قسمة الوجود ودرجة عالية من التنظير^(١).

وفى "إنقاذ البشر من الجبر والقدر" يحلل العامرى الفعل الإنسانى ابتداء من النفسانيات والأفعال مباشرة دون المرور بقسمة الوجود، ويدافع عن حرية الأفعال عن طريق تحليل قوى النفس.

وينقسم الفعل أيضا باعتباره أحد مظاهر الوجود إلى الواجب والممكن والممتنع طبقا لأحكام العقل الثلاثة. وينقسم الممتنع إلى الفاعل والعنصر والمشارك بينهما. كما ينقسم إلى ضرورى وإرادى. والضرورى إلى قهري كالنبات وطبيعى كالنار متجهة إلى أعلى. وينقسم الإرادى إلى شوقى محسوس وفكرى كأفعال الصلاة والصوم. وأفعال الشريعة إرادية فكرية.

وما يهم هى أسباب الفعل لمعرفة نسبته من الضرورة والحرية. فالفعل إما متحد



أو مباين، متقدم أو متأخر، بالقوة أو بالفعل، ذاتي أو عرضي، فعل أو انفعال مما يسمح بتدخل الإرادة الإنسانية كعلة صورية أو غائية أو فاعلة أو مادية. ويمكن حدوث أفعال مختلفة من فاعل واحد عن طريقة الاستعانة الذاتية، أو بالآلات أو بالتأثير أو بالتوليد. ومن ثم للإنسان أفعال داخلية مثل التوفيق والخذلان في علم الكلام وأفعال خارجية في العالم^(١). والإنسان خالق أفعاله كما هو الحال عند المعتزلة، طبقا لقاعدة الصلاح والأصلح. والعقل أعظم حجج الله على خلقه^(٢). وواضح ارتباط علوم الحكمة بالأشعرية كإطار عام، الجمع بين الإرادتين الإلهية والبشرية مع أن القصد معتزلي.

ثم تبرز الفلسفة السياسية من خلال نظرية الفيض. فالإمام طبيب العالم. وهو الذي يعالج العالم إذا مرض ويحفظ عليه صحته إذا برىء. وذلك ضد احتمالين: الأول الملك التغلبي الذي يقوم على القهر، وهو حكم قبيح لذاته يتراءى للنفس الفاسدة أنه حسن، والتجاذب الهرجي الذي يقوم على الفوضى وهو مؤلم بذاته ويتراءى للنفس الفاسدة أنه ملذ. ولا يعالج القهر والفوضى إلا الملك الطبيب بقوة العقل. وهو بالنسبة للمدينة كاشه بالنسبة إلى العالم. هناك تقابل كلي بين مراتب الفيض والعقل والنفس والطبيعة، والبدن ومراتب المجتمع : الحكمة والشريعة والملك والمدن. قوام البدن بالطبيعة، وقوام الطبيعة بالنفس، وقوم النفس بالعقل. كذلك قوام المدن بالملك، وقوام الملك بالشريعة، وقوام الشريعة بالحكمة لأنها تصدر عن الحكيم العليم. ومتى ظهرت الفاحشة في المدينة فارقتها الحكمة. ومتى زالت زينة الملك حطت الفتنة أعلام المروءة وعثرت بنوى النعم عوائق النقم. وقوة فكر الملك أبلغ في حراسة الملك من قوة الجند والجهل في مبادئ الأمر يضر في عاقبتها وفي كل ما يتبعه. والجهل في أواخره يقتصر في مضمرته على الشيء المجهول^(٣). وكما تبرز الفلسفة السياسية من ثانيا نظرية الفيض تبرز فلسفة التاريخ، قيام

(١) من العقيدة إلى الثورة جـ ٣ العدل ص ١٨-٣٧٠. وهو يشبه تحليل بلوندل للفعل في الفلسفة الغربية المعاصرة.

(٢) العامري: إنقاذ البشر من الجبر والقدر ص ٢٦٥-٢٧١.

(٣) مسكويه: الحكمة الخالدة ص ٣٦٦/٣٧١.

الدول وانتهيارها من ثنايا الفلسفة السياسية التي هي في حقيقتها فلسفة اجتماعية، وحقيقتها في الفلسفة الأخلاقية^(١).

ب- فيض المعرفة ونظرية النبوة. والنبوة علاقة متبادلة بين الأعلى والأدنى، بين إرسال الرسل والرؤيا والمنامات ثم العودة إلى الله عن طريق العمل الصالح ونيل السعادة في المعاد.

إذ تنتهي "الدعوى القلبية" للفرابي بالمعجزات والدعاء والرؤيا والمنامات والأنبياء والغيبيات والعبادات والشرائع، تكشف القناع عن التشكل الكاذب ابتداء من حدوث النفس ومفارقتها للبدن وسعادتها وشقاوتها بعد الموت، وجود الخير في العالم وغياب الشر^(٢). فللأنبياء معجزات، وأن الرؤيا والمنامات درجة من درجات النبوة، وأن علوم الأنبياء لدنية غير مكتسبة، وأنهم يخبرون بالمغيبات، وأن الشرائع والأحكام والأوامر والنواهي واجبة الطاعة. هذا من حيث النزول. أما من حيث الصعود، فالدعاء مستجاب. والعبادات واجب، وكمال الإنسان بالعلم والعمل، وأن السعادة العظيمة والدرجة الرفيعة الحكمة الحقيقية.



(١) أبو الحسن العامري: ذخرات في الفلسفة الخلقية ص ٥٠٥ - ٥٢٤.

(٢) وأن المعجزات حق ممكنة الوجود في الأنبياء. وأن الدعاء حق واجب ومشفع به، وأن الرؤيا والمنامات حق، وأن ما يوصف به الأنبياء من إحاطتهم بالعلوم لا على سبيل التعليم الشاق فهو حق، وأن إخبارهم بالمغيبات حق وأن العبادات واجبة، وأن ما يأتي به الأمر والشرائع والحكام والأمر والنهاي حق واجب، وأن الكمال والتمام للإنسان إنما هو بالعلم والعمل معاً، وأن الدرجة الرفيعة السعادة العظمى إنما هو معد لأولى الحكمة العقلية والحمد لله كما هو أمله ومستحقه، ادعائى القلبية، حيدر آباد ١٩٤٧.

والنفس القدسية النبوية في ابتداء نشوتها تقبل الفيض دفعة واحدة دون قياس. أما النفس غير القدسية فإنها تقبل العلوم بالواسطة والقياس. والنبى يضع للناس الشرائع، ويأخذ الأمة بالترغيب والترهيب، ويعرفهم بالجزاء، الثواب والعقاب طبقاً للأعمال دون تكليف بما لا يطاق^(١). النبوة هنا علاقة رأسية بين الله والنبى، بين العقل الفعال والنفس، النبوة الرأسية وليست النبوة الأفقية. والنبى هو الذى يضع السنن والشرائع وكأنها لا تقوم على أسس وضعية ومصالح الناس. ويأخذ النبى الناس بالترغيب والترهيب أى بمنطق الإيحاء وليس بمنطق البرهان، وجدل الطمع والخوف. ورتبة النبى أعلى من رتبة العالم مع أن العلماء ورثة الأنبياء. فالنبوة من الله، والعلم من الطبيعة مع أن أسباب النزول تجعل الوحي من الواقع، والعلم الطبيعي به قدر من الإلهام والحدس. والنبى معصوم والعالم يخطئ ويصيب مع أن القرآن قد صحح محمد عندما عبس في وجه الأعمى. وموسى قتل المصري، وداود قتل الضابط لئلا يأخذ زوجته. والله يحفظ النبى من سوءه في حين أن العالم يحرق. مع أن المسيح قد أسىء إليه، وعذب الأنبياء، وبعض العلماء قدرهم المجتمع ونالوا أرفع الدرجات. والملك الفيلسوف عند القدماء هو النبى فى الحضارة الجديدة والذى يوحى إليه. والوحي هو توسط العقل المستفاد بين العقل المستفعل والعقل الفعال، فالوحي علاقة رأسية وليس علاقة أفقية. العقل الفعال يمثل الله، والعقل المستفاد وعقل النبى. والعقل المستفعل مثل عقول سائر البشر^(٢).

ويؤسس العامرى نظريته فى "الإبصار والمبصر" بناء على فيض المعارف فى النفس وارتقاء المعارف من الحس إلى العقل إلى الروح^(٣). ويقسم نظرية الإبصار إلى ثلاثة أقسام، المبصر وهو حاسة البصر، ثم المدركات البصرية أى موضوع الإبصار ثم العلاقة بين الحاسة والموضوع، بين الرائى والمرئى^(٤).

(١) الفارابى: زينون، حيدر آباد ١٩٤٧.

(٢) الفارابى: السياسة المدنية ص ٥٣-٥٤.

(٣) العامرى: الإبصار والمبصر ص ٤١١-٤٣٧.

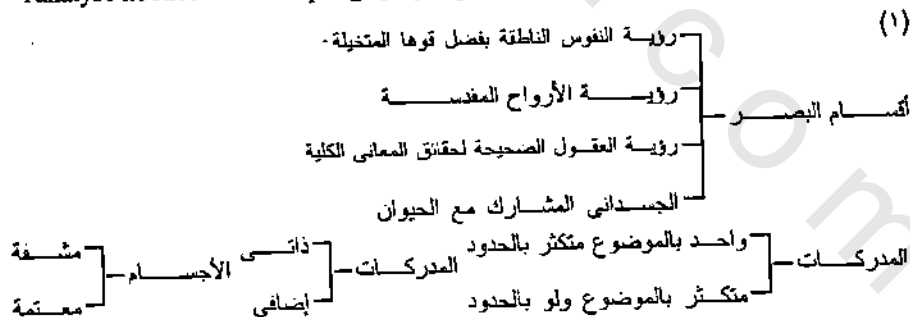
(٤) وكما هو الحال فى الظاهريات فى الفلسفة الغربية المعاصرة، الجانب الذاتى noèse =

وينقسم المبصر إلى أربعة أقسام: الجسداني ويشارك فيه الإنسان والحيوان، ورؤية العقول الصحيحة لحقائق المعاني الكلية، ورؤية الأرواح المقدسة، ورؤية النفوس الناطقة بفضل قواها المتخيلة. والثلاث الأخيرة يتفرد بها الإنسان^(١).

أما المدركات بحاسة البصر فنوعان، متكرر بالموضوع واحد بالحدود، وواحد بالموضوع متكرر بالحدود. وذلك لأن الوجود إما إضافي أو ذاتي، والأجسام إما غير مشقة أو مشقة. فالإدراك إذن يرتقى من الكثير إلى الواحد، ومن الإضافي إلى الذاتي، ومن المعتم إلى الشفاف. وأعلى درجة في الإدراك عن طريق النسك العقلي كما عبر عن ذلك حكماء فارس^(٢).

٢- التاريخ الصاعد، (نظرية الإشراق). إذا كان التاريخ النازل هو تاريخ الكون فإن التاريخ الصاعد هو تاريخ الروح، تقيض النفس عن بارئها أولاً ثم تعود إليه ثانياً. وكما يأخذ النبي من أعلى الفيض والعلم والوحي والإلهام فإنه يعطي الناس منبهات العودة مثل الصلاة والزكاة. فالصلاة تضرع وتجريد واستعداد لقبول فيض الرحمة وتذكر الله ورسوله. والزكاة عدل وإنصاف وحق الفقراء. وبه يبقى النظام الكلي للعالم. وكذلك الأمر في سائر العبادات التي فيها صلاح الأخلاق وتجريد النفس وتصفيتها عن العوائق. فينال الإنسان لذات حسية ولذات عقلية، الأولى للعامة والثانية للخاصة^(٣).

= والجانب الموضوعي noeme ثم التحليل الذاتي الموضوعي l'analyse noético- noématique



(٢) السابق: شذرات في النسك العقلي ص ٤٩٥-٥٠٢.

(٣) زينون، حيدر آباد ١٩٤٧.

وهل الشرع هو العبادات أم المعاملات؟ وهل الغاية من الصلاة قبول فيض الرحمة أم الفائدة العلمية للبدن والإحساس بالوقت والتركيز على النفس ونقاء الضمير؟ وهل الزكاة من أجل المحافظة على النظام الكوني أم من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس ومنبه على أن للفقراء حق في أموال الأغنياء، وتغيير النظم الجائرة؟ وهل وظيفة الشرع الحصول على لذات حسية أو عقلية للعامة أو للخاصة أم لتحقيق مصالح الناس؟ وقد تتم العودة إلى المبدأ على نحو صوفى عن طريق علاقة المريد بالشيخ. وشروط المريد تسعة: الشباب، وفراغ القلب، والزهد في الدنيا، وصحة المزاج، وحب العلم، والصدق، والعدل الطبيعي، والأمانة، والتدين دون الإخلال الواجبات الشرعية ضد إسقاط التكاليف عند بعض الصوفية مما يدل عن حرب خفية بين الفلاسفة الصوفية لاستئثار كل منهما بالنظرية الإشراقية.

وفى أمور المعاد تتوالى شروط أخرى مثل تجنب الحرام، والاتفاق مع الجمهور فى الرسوم والعادات، وتجنب الفظاظ وسوء الخلق، والترحم على من دونه فى الرتبة، واحترام ما فوقه أو مثله فى الرتبة، وألا يكون أكولا ولا مستهتكا ولا خائفا من الموت ولا جمع المال إلا بقدر الحاجة، والعلم حتى ممن هو دونه فى المرتبة، وترك الوقعة بين الناس، وإعطاء النصيحة، وحسن المخالطة، وقول الخير والصدق. وهى مجموعة النصائح العملية لممارسة الحكمة. معظمها إنشائى خطابى تعليمى، ما ينبغى أن يكون وليس التحليل النفسى الاجتماعى للفضائل والردائل. يستبعد التأويل حتى للخاصة لصالح الالتزام الحرفى بأوامر النبى وعادة الجمهور. ويخرج عن الفلسفة كبحت نظرى لإعطاء نصائح فى السلوك والأخلاق العملية. وتقوم النصائح على احترام السلم الاجتماعى وتبرير الميراث، وترك شىء للعيال أفضل من ترك لا شىء. وعدم جواز التكسب بالعلم ربما تصور يونانى، نموذج سقراط فى مواجهة السوفسطائيين فى حين أن الاشتغال بالعلم وبالكسب سنة الفقهاء والمتكلمين كالنجار والحداد والغزال والنشار والزجاج. هو أقرب إلى التصور الصوفى، فالعلم كنز مدفون، يفوز به من سهل الله طريقه إليه وليس العلم استقراء للطبيعة، يقوم به كل عالم دون ما حجة إلى تدخل خارجى غير مشروط بالإبداع

العلمي. ويخاطب الفارابي القارئ أشبه بالدعاة للمريدين^(١).

أ- الأدعية الأخروية (الفارابي). وفي "دعاء عظيم" يظهر الفارابي صوفيا يبتهل إلى الله. يقدم خمسة عشر دعاء ثلاثة منها تضم حججا عقلية على غير عادة الفلاسفة ينضح فيها الدين الصريح المختفى وراء الدين المؤول أى الحكمة، وكما هو الحال فى آخر "الإشارات والتنبيهات" لابن سينا. ويشير الفارابي إلى "إخوان الصفا وأصحاب الوفا" ليس بالضرورة إلى الفرقة التاريخية بل ربما كان المصطلح على الشيوع.

وفى الأدعية مصطلحات فلسفية من الإلهيات والطبيعيات تكشف عن التشكل الكاذب وأحيانا تتجاوز المصطلحات الفلسفية والدينية مثل الدعوة بتهذيب النفس من طبيعة الهيولى "إنك أنت العلة الأولى بجوار عبارات إسلامية مثل" اللهم أرني الحق حق وارزقني اتباعه، وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه"، مثل خطب الجمعة. ويغلب أسلوب السجع حتى يسهل تذوقه صوفيا وأدبيا، تجمع بين النثر والشعر^(٢). وكلاهما منظومة نفسية مثل الأراجيز المتأخرة وهو شعر ركيك يستعمل مصطلحات طبيعية وليست شعرية. الغاية الفكر والعقيدة وليست الصورة الفنية. أربعة عشر دعاء تبدأ بلفظ "اللهم" وتشبه ابتهالات الصوفية^(٣). وتظهر بعض التعبيرات القرآنية مثل: الجوار الكنس، روح القدس، الحكمة البالغة، الملائكة. وأحيانا يكون الدعاء مجازا فى حاجة إلى تأويل.

ويصعب تصنيف الأدعية بين الإلهيات والطبيعيات والإنسانيات لأنها كلها تتجه نحو التصوف مخترقة العلوم كلها إلى الله. وتخلو من الأدعية المنطقية لصعوبة استعمال مصطلحات المنطق فى الابتهالات. وكثير منها قيل وقال أى أنها مجرد تجميع من الآخرين حول موضوع واحد هو الأنبياء، وأفكار متفقة مع الفارابي، فهو تأليف غير مباشر.

(١) الفارابي: زينون، حيدر آباد ١٩٤٧.

(٢) هى الدعوات ١١ + ١٢ + ١٤.

(٣) هى الدعوات ٢ + ٤.

وأحياناً يتم التوجه مباشرة من الله إلى الإنسان أو من الإنسان إلى الله دون توسط الطبيعة. لذلك تستعمل نظرية الفيض والاتصال بالعقل الفعال مما يجعله دعاء الخاصة وليس العامة.

وتقوم الأدعية كلها على نظرة ثنائية تطهيرية بين الله والعالم، النفس والبدن، الكفاية والحكمة، الكفاية تقطع العلائق مع الدنيا، والحكمة لاتحاد النفس بالله، الأولى لقطع العلاقة مع الأرض، والثانية لإربطها بالسما. فالسما أفضل من الأرض. وتستعمل لغة النور والظلمة والعقل الفعال والعقل المنفعل، والعقل والقوة، والرؤية الصادقة في مقابل أضغاث الأحلام.

الله هو واجب الوجود، علة العلل، قديم لم يزل، التوحيد والتنزيه والتفرد بالحديّة كما يصف الصوفية، الواجب دون السالب، القمة دون القاعدة، الجوهر دون الاعراض، ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾. بالآية شعر الطبيعة، ولغة الأشياء، تدل على قصر العلم الإنسانى وحدود اللغة البشرية.

وتترك الدنيا للهداية والتقوى، وكراهية البدن ومحبة النفس، ورفض الطبيعة، وعشق الروح. وتقهر الشهوات، ويتم التحول من الفناء إلى البقاء، وطلب الجواهر الشريفة في الجنات العالية ومصير النفس في السماء والمقام القنسى.

والسؤال هو: هل العالم والطبيعة سجن؟ وهل الله سجان؟ ويعد السجن يأتي الافتراض، افتراض السجين بالشهوات. فالصورة للإنسان السجين المعذب الذى تنهش الحشرات لحمه وتلدغه الهوام! والنفس مدانة والمطلوب تطهيرها من الأوساخ، أوساخ الحس وكدر الطبيعة مع أن الحس أحد وسائل المعرفة والطبيعة خيرة. ويستجدى الإنسان العصمة مع أن كل بنى آدم خطاؤون وخير الخطائين التوابون ويستجدى الرحمة، وهو إخلال بشروط التوبة.

كل شيء فى الشعور من أفعال الله، مثل الهداية والكفاية والإبواء كما هو الحال عند الأشعرية. ومن ثم تتحول الحكمة إلى تصوف، والفلسفة إلى كشف، والعقل إلى

قلب، وينتهي الفارابي المنطقي إلى الفارابي الصوفي^(١). وتتحقق المطالب الإنسانية بمجرد الدعاء كما هو الحال في الأدعية الشعبية للعاجزين «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور». وقد نقد إقبال فلسفة السؤال واستجداء الفعل والنصر من عنده تعالى^(٢).

وتظهر نفس الروح في "من الأسئلة الكلامية والأجوبة الجامعة"، وهي مجرد أقوال متفرقة دون نسق أو بنية من نوع الحكم والأمثال، خمسة عشر قولاً عن الحب والإنسان وتفسير الآية وأنفاظ الأحد والمؤمن وموضوعات العلم والعقل والعالم الطبيعي، والصبر والظرفى، والشمس والقمر والتدبير، وأفضل المواعظ، والسبعة فى الجنة، والأمة. تتدخل فيها موضوعات المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة موضوعان لتفسير آيتين. وأكثر من نصفها يبدأ بـقيل وقال وسئل. والقائل هو الحكيم أو أهل اللغة^(٣).

والتفسير لآية «لوما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». والعبادة هنا عند المفسرين التوحيد، تحويلاً للنص إلى تصور، والآية إلى معنى. وتفسير آية «لوما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» أى خروج الضد من الضد وليس فقط تفسير صناعياً طبيعياً فى أنواع الشجر. ولفظ الأحد أبلى لأنه خارج عن الواحد العددي ومنه وحيد ومتوحد أى متفرد.

وهناك قولان فى العلم أنه لا حياة فى العلم ولا رياء فيه، وأن العلم يعطى العزة فى النهاية، ولا يأتى إلا بذل فى البداية مع أن التعليم يعطى الكرامة والإحساس بالآخرة فى البداية والنهاية. ربما كان المقصود إذلال الشيخ للمريد حتى يروضه على الطاعة ويميت إرادته من أجل استقبال الأوامر الإلهية. والعقل لغويا من الحبس، حبس الأشياء فى مواضعها. عقل اللسان مثل عقل البعير، ويعنى كفه عن القول.

(١) وهو نفس التقابل عند توما الاكوينى بين الفيلسوف اللاهوتى صاحب "الخلاصة اللاهوتية" وانرد على الأمم وبين حياته الخاصة كصوفى بكاء.

(٢) الفارابى: دعاء عظيم ص ٨٩-٩٢.

(٣) التفسير ١ + ١٢، قال ٢، قيل ٥، سئل ٢، والمجموع ٩.

والعالم الطبيعي ما تحت فلك القمر إلى مركز الأرض. وسميت الشمس شمسا والقمر قمرا لأن الشمس تندو في الصيف وتبتعد في الشتاء مثل الدابة الشموس التي تقترب، تطيع تارة وتجمع تارة أخرى. والقمر يزداد تارة وينقص تارة. لذلك سمي المقامر مقامراً.

والمؤمن مطيع للمولى ومبغض للدنيا. زاده التقوى، وكلامه الذكرى وليس المناضل فيها. والأدب مفارقة الهوى واجتماع خصال الخير ومراقبة الرضاء ومن المأدبة أى اجتماع لطائف الأغذية. والصبر حبس النفس عما تتنازع إليه، والحبس أفضل من الانطلاق الحر، حبس فى الداخل وحبس فى الخارج. ومن ترك التدبير عاش فى راحة كما هو الحال عند الصوفية فى إسقاط التدبير. والظريف هو الخفيف فى ذاته دون تكلف وكما هو الحال عند الظرفاء. ومن النصائح العملية عدم الإطالة عند المريض. وسبعة فى الجنة خير من الجنة: زيارة الآباء والأمهات والأقرباء، وزيارة الأنبياء، وخدمة الملائكة، ورحمة الله، وذكر الله، وسلام الله، ورؤية الله^(١).

ب- الحكمة الخالدة (مسكويه). وقد اتفقت حكمة الشعوب بصرف النظر عن ثقافتها الخاصة على طريق الخلاص، وهى مقامات الصوفية التى يغلب عليها معظمها الطابع السلبي مثل الشكر والرضا والقناعة والزهد والتوكل والفقر. فهى تمثل الخبرة البشرية عبر التاريخ، الحكمة الواحدة التى انتهت إليها تجارب البشر، الصعود إلى الله، وترك العالم والزهد فيه. فالنصوف هو حكمة البشر وخلاص تجربة الشعوب أى الهروب من العالم والفرار من الناس والاعتراب فيه خارجاً عنه وربما دون العودة إليه.

وهى أقوال متفرقة منتقاة من أقوال فارس والهند والروم والعرب قبل الإسلام والإسلاميين المحدثين. الاختلاف فى المصدر والاتفاق فى الغاية. وحكم العرب كلها من الإسلاميين وكأن الصحابة والصوفية وعلى بن أبى طالب المصدر الرئيسى للحكم. معظمهم من العرب أكثر منهم من الإسلاميين. فالعرب هم المسلمون لأن الإسلاميين

(١) الأمثلة اللاحقة ص ٩٥-٩٦.

المحدثين هم الحكماء، الفارابي والعامري أو الأدياء مثل ابن المقفع (مع فقرة لأفلاطون العربي) وهو فارسي الأصل، والفرس حملة لواء العلم والحضارة من الإسلاميين المحدثين. ويغيب الكندي وابن سينا والسجستاني وأعلام الشيعة ربما لخلاف مسكويه مع ابن سينا، فالانفعالات الإنسانية تكمن أحياناً وراء تدوين التاريخ، والعوامل الفردية في جدل مع العوامل الموضوعية. ويبرز على بن أبي طالب وكأنه زعيم الصوفية في أقواله المروية عنه. وكلها تؤدي إلى ترك الدنيا بمن فيها على من فيها، إحساساً عاماً بفناء العالم وتقاتل الناس عليه وإثارة الآخرة على الدنيا، وتروى عنه أحاديث قدسية بالإضافة إلى أقوال أئمة الشيعة مثل محمد بن الحنفية^(١). وتغيب السياسة عن حكم العرب ويعم الاغتراب الصوفي في الله والآخرة. وليس للعرب في الأخلاق الاجتماعية شيء فكلها إسلامية. فالعرب والإسلام والتصوف شيء واحد. والاستثناء هي حكم ابن المقفع التي غلب عليها الفكر السياسي وهو ينتسب إلى حكمة فارس.

ومعظمها نصوص مختارة، أقوال وحوارات وحكايات وأمثال. يقل فيها التحليل العقلي الخالص، أشبه بتأليف الفقهاء والرواة في حين أن "تهذيب الأخلاق" يعتمد فيه مسكويه على التحليل العقلي الخالص، والبرهان الفلسفي. بل إن حكمة الإسلاميين المحدثين أقلها اعتماداً على الحجج العقلية.

ولا يهم ترتيب حكم الشعوب ولا ترتيب مقامات الصوفية. بل المهم هو ماهية الحكمة ودلالاتها على الطريق إلى الله والخلص من العالم^(٢).

وأحياناً تتم الإشارة العابرة إلى بعض القيم الأخلاقية وأحياناً يتم تفصيلها. فمن

(١) هو الحديث القدسي الآتي: "يا ابن آدم إذا عملت بما افترضت عليك فأنت من أعبد الناس، وإذا اجتبت ما نهيتك عنه فأنت من أروع الناس. وإذا اقتتعت بما رزقتك فأنت من أغنى الناس، مسكويه، الحكمة الخالدة ص ١١٢.

(٢) كان يمكن وضع تحليل "الحكمة الخالدة" في فصل الأخلاق ولكن نظراً لأهمية تهذيب الأخلاق كخطاب فلسفي أخلاقي ثم الاقتصاد عليه، وترك "الحكمة الخالدة" من العناصر المكونة لفلسفة التاريخ نظراً لأنه يمثل حكمة الشعوب.

القيم العابرة الشكر والإخلاص والإنابة والاستسلام واليقين. فمن عرف الابتداء شكر ومن عرف الانتهاء أخلص. ورأس اليقين المعرفة بالله.

والإيمان هو التصديق بما ينبغي أن يصدق به. وهذا التصديق لا يكون إلا بالعقل. ولا يبحث العاقل عما استيقن به من الأمر، ولا يمتنع عن البحث عما شك فيه. ومن أتاه الله سعة في الفهم وقوة في العقل فقد أتاه السلطان الذي يملك به نفسه. ومن ملك نفسه بسلطان العقل قل أسفه على ما فات. وذو العقل هم أولوا الأمر. ولو صور العقل لظلمت عنده الشمس. ولو صور الجهل لأضاءت عنده الظلمة. وهو عقل في حاجة إلى تجربة. فالرأى أيضا نابع من التجربة. وقد قيل: خذوا عن أهل التجارب، والأمور لا تصلح إلا بقرائنها.

كما تحتاج عقول البشر إلى عون من الخارج أى الإلهام النبوى والتأييد الإلهي. كما تحتاج الطبائع إلى قمع تدبيري، والشهوات إلى ردع تحكيمي، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء. فإما أن يكون العقل مستقلا في البرهان أو أن يكون قاصرا في حاجة إلى مدد خارجي. وإما أن تكون الفطرة خيرة أو أن تكون في حاجة إلى قمع باسم الشريعة. فإذا ما شعر العقل بقصره لجأ إلى الشريعة الإلهية حتى يثق العقل الإنسانى الجزئى بالعقل الإلهي الكلى. وقد وهب الله لكل ذى قوة يستعين بها على دفع مكائد الشيطان^(١).

والطبيعة أمة العقل، والعقل عبد للمبدع الأول عند سقراط. وحياء الإنسان عندما يكون جاهلاً على الكبير أعظم. فالعقل مناط العلم وأعظم لذة محادثة العلماء وقراءة كتب الحكمة. ومن صح فكره أتاه الإلهام، ومن دام اجتهداه أتاه التوفيق.

والعقل والطبيعة قرينان. فإذا كان سقراط ركز على العقل فقد أبرز أرسطو دور الطبيعة. فالغريزي خلقه انفرد بها الخالق عند أرسطو. والطبيعة هي الحامل للأخلاق، مثل الأدب والعفاف وهي حامل أيضاً للأدب الصحيح كما يرى أفلاطون والقرآن في

(١) مسكويه: الحكمة الخالدة ص ٤١-٤٢/٧٦/٧٨-١٢٥/١٢٦-١٤٣/١٥٠-١٥١/٢٩٠/٣٦٥.

سورة الشعراء ونقده الشعر الكاذب كما نقد أفلاطون الجدليين والخطباء والملحنين والمشائين والملهين واللعاين ضروب اللعب. والطريق المؤدى إلى الأنب الصحيح هو حب الجهاد والبقاء على الحذر والاستعداد، وعين لا تسكن ولسان لا يفتر، وإنارة القلوب فى الصدور الخربة ووضع الحكمة فيها وإماتة الجهالة، والزهد فى الدنيا، والامتناع عن شهواتها، والفكر الطويل والتعجب الدائم، والاعتبار بمن اغتر بالدنيا ومن وقف على حدود التجربة، وبالغنى الذى خرج بما ليس له، والفقير الذى حزن على قوت ما يشقى به الغنى، والقدرة على إظهار الحكمة فى سلطانه. العقل والطبيعة والكمال الخلقى شئ واحد، فأنه فى العقل وفى الطبيعة وفى النفس.

ومن سوس العقل الصريح التفرقة بين الحسن والقبيح ثم السكون إلى الحسن والتفور من القبيح. وقد يمدح الشئ كذباً وزوراً وهو مذموم. كما يذم الشئ كذباً وزوراً وهو ممدوح. فيعرض للعقل الناقص انخداع واغترار (١).

والإيمان على درجات ست من أدنى إلى أعلى: الخوف ثم الرجاء ثم اليقين ثم الحب ثم الاتصال ثم الاتحاد جمعاً بين أحوال الصوفية مثل الخوف والرجاء وبين مقاماتهم مثل اليقين والمحبة. والكفر أيضاً على درجات ست من أدنى إلى أعلى: الزيف ثم الرين ثم الغشاة ثم الطبع ثم الخلاف ثم القفل. والاتحاد هو العدول عن الحق إما باللجاج والمعاندة أو بالعادة والاقتداء بالغواة من الجمهور أو بالقصور عن النظر. والفاضل من اطرح العناد، وترك تقليد غيره، ونظر إلى نفسه.

وفى مقابل الإيمان والكفر من جانب الإنسان يأتى القبول والطرء من جانب الله. فدرجات القبول من الله للمؤمنين أيضاً ست من أدنى إلى أعلى: الارتضاء ثم التقريب ثم الاجتباء ثم الاصطفاء ثم الاستخلاص ثم الرفع بالإجلال. ودرجات الرد من الله للكافرين أيضاً ست من أدنى إلى أعلى: الحط ثم القطع ثم الإبعاد ثم الطرد

(١) السابق ص ٢١١ / ٢٢٣ / ٢٤١-٢٤٣ / ١٤٦ / ١٦٦-١٦٧ / ٢٧٨-٢٨١ / ٣٥٢ / ٣٧٣.

ثم الخسأة ثم الطرح^(١).

والإيمان مقرون بالعمل. فأصل الأمر في الدين اعتقاد الإيمان وتجنب الكبائر وتأدية الفرائض. الإيمان قدرة على العمل.

والعلم قيمة تؤدي إلى المعرفة واليقين. ومراتب اليقين من أدنى إلى أعلى أربعة: تبصرة الفطنة، ثم تأويل الحكمة ثم موعظة العبرة ثم سنة الأولين. وقد يكون العالم من أهل الحق أو من فروع الحق أو قصده الحق أو ضد الحق. والحق إما ظاهر يعرف بنفسه أو غامض يعرف بالدليل. والعلم متنوع. فالإغراق في علم واحد من شأن العلماء والحكماء أو السراة والرؤساء بل الأخذ من كل فن. وإنما يتفرد بعلم واحد من يحب المرء والتكسب. وهو قول ابن شبرمة.

والعلم من أمور العباد مع الحلم والعفاف والعدالة. ومن أعمال البر العلم بالسفن، والعمل بإصابة السنن، وسلامة الصدر بإماتة الحسد، والزهد بالصبر. وأربعة أشياء تقوى على العمل التوفيق والعزم والصحة والغنى. وطريق النجاة إما سبيل الهدى أو كمال التقى أو طيب الغذاء.

(١) السابق ص ٣٦٥-٣٦٦.



وأشد الناس عدواة عند الموت العلماء المفرطون. والعابدين الأحق، والعالم الفاجر
فتنة لكل مفتون وممن يلقون الجواب سريعاً الرجل العالم الموفق للخير بتعليم دين الله.
وممن ينبغي أن يسفوها ويحكم عليهم بالحق المقتى في الدين وهو لا يعرف الفقه ولا
يقتبس العلم من موضعه^(١).

العلم والعمل إذا واجهتا لعملة واحدة. هما قرينان كمقارنة الروح للجسد، لا ينفع
أحدهما دون الآخر. العلم روح والعمل بدن، العلم أصل والعمل فرع، العلم والد والعمل
مولود. كان العلم فكان العمل، ولو لم يكن العلم لما كان العمل. والغاية من الكد في العلم
التماس صلاح الدين والدنيا وأفضل البشر ملاك العلم والعمل، وملاك العمل بالسنة
وإصابة السنة ولزوم القصد. والله ليس بغافل عما يعلم الإنسان إن لم يعمل بما يعلم. ومن
لم يكن كلامه موافقاً لفعله فإنه يويخ نفسه. ولما وجد القوم الكلام أهون من العمل كثر
الواصفون وقل الموصوفون. وقد أبى الله إلا أن يعقل القول بالعمل. ولا تكفى الكتابة دون
العمل. المبادرة بالعمل تحمي من كذب الأمل وتحقق قبل الأجل. وأدوم الإخاء العمل
الصالح وأمقت الرجال الفقيه الفاجر^(٢).

والصبر احتمال الأمور المؤلمة والمكاراة الحادثة. وهو نوعان: صبر على ما
تهوى النفس وصبر على ما تكره. وقد يفضل أحدهما على الآخر. وهو صبر على
الطاعات وصبر على المعاصي. الصبر المحمود هو الثبات. ويقرن بالشكر. وهو صائر
إلى كل ظفر. ويقرن به التأنى وعدم العجلة. فالحيلة خير من الشدة، والتأنى أفضل من
العجلة. إلا أنه في الثقافة الشعبية الصبر رذيلة. فقد قبل الناس الضيم. واستكانوا له
وتعودوا عليه حتى أصيبوا بالنفور واللامبالاة كما عبر عن ذلك أحد المصلحين
المحدثين^(٣) والكمال في ثلاث: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التقدير في

(١) السابق ص ١٢٥/١٤٣/١٤٦.

(٢) هذه أقوال أبو سليمان الداراني والحسن والجنيد وبعض النساك، السابق ص ٣٦/٣٣/٣٦/١٤٧/١٤٣/١٤٧/١٥٥.

(٣) السابق ص ٨-٩/١١/١٥/٥١/١٠٤/١٢٢.

المعيشة. وذروة الإيمان أربع خلال: الصبر فى الحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص بالتوكل، والاستسلام للرب. والصبر حماية من الفتنة وشفقة منها.

والقضاء والقدر من نفس النوع. فإذا كان الداء من السماء بطل الدواء، وإذا قدر الرب بطل حذر. القدر علة ما هو كائن والعمل علة ما لم يكن. والدليل على أن القدر حق أن الأمور تأتى لأهل الجهل بجهلهم وتمتّع على العلماء بعلمهم وكأن الحياة عبث. ومن سرور الدنيا الرضا بالقسم والعمل بالطاعة فى النعم وعدم الاهتمام برزق الغد، والعالم كله يهتم بالمستقبلات. فالقدر هو الفاعل الحق، والفعل الإنسانى باطل.

وإذا كانت خمسة أفعال للبشر بالاجتهاد والعمل كالعلوم والعمارات والصناعات والفروسية والفقه، وخمسة أخرى بالعادة كالأكل والنوم والمشى والجماع والتغوط، وخمسة أخرى بالجواهر أى بالطبيعة كالخيرية والتواصل والسخاء والنقة والاستقامة، وخمسة أخرى بالوراثة كالذهن والحفظ والشجاعة والجمال والبهاء مع أن البعض منه بالاكْتِسَاب فهل هناك خمسة أخرى بالقضاء والقدر، كان أهل والولد والعمر والمال والسلطان؟ إذا كان الإنسان لا يختار أهله ولا ولده ولا عمره بالرغم من أن الأمراض وحوادث الطريق وأسباب الموت فى مقدور الإنسان تجنبها بقوانين المرور والطب ووسائل العلاج فإن المال والسلطان ليسا بالقضاء والقدر فالمال من كسب الإنسان والنظام السياسى عقد وبيعة واختيار^(١). وذروة الإيمان أربع خصال: الصبر فى الحكم، والرضا بالقدر، والإخلاص بالتوكل، والاستسلام للرب والصبر حماية من الفتنة وشفقة منها.

ومع الصبر والقضاء والقدر يأتى الرضا والتوكل والقناعة. فمع الرضا يطيب العيش. وأقل الرجال هم أفضلهم رضا، وأفضلهم رضا أقلهم غفلة عن ذكر الله وفناء الدنيا. وبصدق التوكل يحصل الإنسان على الرزق. ومن عز النفس لزوم القناعة. والتمسك بالقناعة يؤدى إلى رضا البال، والشعور بالرضا يؤدى إلى الوداعة والتسليم بما يقع. والغنى فى القناعة، والسلامة فى العزلة، والحرية فى رفض الشهوة، والمحبة فى

(١) السابق ص ٩-١٠/٣٣/٦٧.

ترك الطمع والرغبة. والغنى الأكبر فى ثلاثة. نفس عالم يستعان بها على الدين، وبدن صابر يستعان به على الطاعة لله والتزود بها للمعاد يوم الفقر، والقناعة بما يرزق الله باليأس مما فى أيدي الناس. والمقتنع غنى وإن جاع وعرى. والمريض فقير وإن ملك الدنيا. القناعة الرضا بالقسم. وقد تحدد القناعة سلبيًا بإخراج الطمع من القلب.

ثم يأتى التسليم. وحسن الناس تسليماً بقول ما ينزل به الله، جوعاً أو شبعاً، عطشاً أو رياً. وما أعطى الله عبداً فى نفسه من السلامة ووهب له من العافية فى الجوارح أفضل من غرض الدنيا. ولولا مخافة العجز من احتمال الأذى لسأل الإنسان الله كل صباح مثل ما اتفق له منه قبلاً وتسليماً دون اعتراض أو تساؤل. فمن توكل على الله حق توكله فى حسن الاختيار له لم يجب أن يكون فى حاله سوى حاله^(١).

والغنى والفقر من القيم المتشابهة النسبية وليست المطلقة. فقد يصيب الغنى أهله الفرح القليل والحزن الطويل. وقد يكون أغنى الغنى غنى النفس وملك الهوى وليس غنى المال. وقد لا ينقص أهل الفقر عن أهل الغنى إلا أن يكون الغنى عالماً والفقير جاهلاً. فالغنى غنى العلم والفقر فقر النفس. وسقراط مثل على ذلك. إذ دعاه أحد الأغنياء فقال له: لو أردت أن أعيش عيشك لقدرك عليه ولو أردت أن تعيش عيشي لم تقدر عليه. ولما دعا عليه أحد الأغنياء بالفقر قال له: لو عرفت الفقر لشغلك التوجع لنفسك عن التوجع لسقراط. وأشقى الشقاء الفقر والاثم. وأطول كآبة وحزناً الفقير بعد الغنى، والدليل بعد العز، والبئس بعد النعمة، وتابع الهوى عند عواقب الأمور وخواتيم الأعمال. لذلك لا يجب الاستهانة بالمال فإنه آلة المكارم وعون الدهر وقوة على الدين ومتألف للإخوان. كما يؤدى فقدان المال إلى قلة الاكتراث من الناس، وقلة الرغبة إليه والرهبة منه فيستخف به الناس. فالفقر والغنى ليسا قيمة إلا بقرائنهما مثل الغنى والجاه^(٢). ومن لا مال له يستقرضه الله. والدليل على أن ما فى يد الإنسان ليس له أنه كان لغيره من قبل.

(١) السابق ص ٨١/٨٣/١١٥/١٥٢/١٥٤/١٥٦.

(٢) السابق ص ٣٣-٣٤/٤٩/٥٦/٦٨/١٥٢/٢١١.

والعيش فى أمن الفقر خير من العيش فى الخوف من ضياع الغنى. فطلاب الدنيا يطلبون الغنى كيف كان.

أما الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة فمن القيم الحكمة لا فرق فى ذلك بين حكمة اليونان وفارس والهند والعرب والمسلمين المحدثين. الدنيا دار عمل، والآخرة دار ثواب. وأفضل من المال ومن حظوظ الدنيا الفانية حظوظ الآخرة الباقية، فلا أسف على ما فات من الثراء. حين يحضر المال يغرب العقل، وحين يحضر العقل يغرب المال. الدنيا ذات تصرف وزوال، وأهلها رهائن مصائب ومتالف. متاعها قليل وفناؤها كثير. والعيش زهيدا والتبعة مخوفة. وبين المقبرة والمزيلة كنز الأموال وكنز الرجال. إذا أقيمت الدنيا على الإنسان أعطته محاسن غيره. وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه. لذلك خاف عمر على نفوس الناس عندما نظر فى معادهم ووجد المصدق به أحمق والمكذب به هالك. كما حذر وهب به منبه من سب إيليس علانية وصداقته سرا. والزاهد فى الدنيا من لا يطلب المفقود حتى يفقد الموجود. ورفض الدنيا قبل الالتباس بها أهون من التخلص منها بعد الوقوع فيها.

وتبقى الحكمة بالعمل فى العالم الآخر هكذا أوصى أفلاطون تلميذه أرسطو. وكل ما ينطق به الإنسان فهو مجازى به فى الدنيا أو فى الآخرة، صالحا أم طالحا، خيرا أم شرا، سرا أم علانية، فإن الله لا يخفى عليه شىء. هكذا قال هرمس مثلث العظمة بالحكمة والنبوة والملك، قراءة إسلامية للحكمة اليونانية فى حكمة واحدة للشعوب.

لذلك كانت أنفع الأمور للناس وأقربها لعيونهم القناعة والرضا، وآخرها وأشنعها عليهم الشره والسخط. وجل السرور بالقناعة والرضا، وكل الحزن بالستره والسخط. وطلب الغنى بالقناعة وإلا فليس المال مغنياً وإن كثر. هكذا قال هرمس. ولا مال عند من ترك القناعة، ولا خير فى الإنسان إن لم يكن قنوعا. هكذا قال أميروس للشاعر. والقنية مخدومة. ومن خدم غير ذاته فليس حرا. هكذا قال سقراط وعلى بن أبى طالب. ولا يبقى للإنسان فى دنياه إلا ذكره الطيبة عند الآخرين.

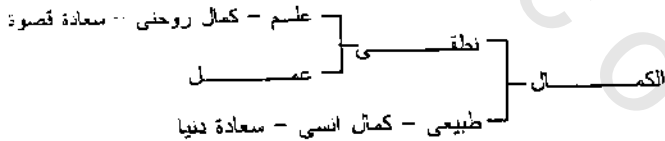
ومن ثم يتعارض العالمان وتكون النتيجة المادية أو التصوف أو يتجاوران وتكون النتيجة إما الإشباع أو النفاق. فلماذا لا يتحدان ويكون العمل في الدنيا طريقاً إلى الآخرة حتى لا يصبح الدين مخدراً، وحكمة الشعوب هروباً. والخطورة في تفضيل الموت على الحياة واليأس على الأمل. "نعم الدواء الأجل وبئس الداء الأمل" أو "الأمل قاطع من كل خير". وهو معارض بحكمة الشعوب أيضاً في رفض اليأس والقنوط ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. والعمل في الدنيا إلى الأبد "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً" (١). وكيف لا يكون المرأ زاهداً حتى يزهد في عمره وإلا كان مترهداً. لذلك كان الفقيه الواعظ هو الذي لا يقط الناس من رحمة الله.

والكمال الإنساني غاية قصوى، واستكمال أى عملية اكتمال. وللإنسان استكمالان: استكمال طبيعي، واستكمال منطقي. وكذلك السعادة هي الكمال المطلق. وهي قسمان: أحدهما غاية النطق العملي وهو الكمال الانسي. وتسمى سعادة أدنى، وحدها فعل النفس بفضيلة كاملة خلقية، والأخرى غاية النطق النظري، وهو الكمال الروحاني. وتسمى سعادة قصوى، وحدها فعل النفس بفضيلة حكمية (٢).

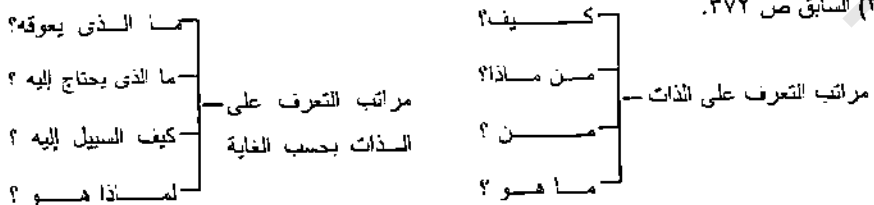
ويبدأ الكمال بمعرفة الذات. ومراتب التعرف على الذات أربع: إجابة على ما هو، ومن، ومن ماذا، وكيف. ومراتب التعرف على الذات بحسب الغاية أيضاً أربع: إجابة على لماذا هو، وكيف السبيل إليه، والذي يحتاج إليه، وما الذي يعوقه (٣).

(١) السابق ص ٨-١٠/١٦-٢٦/٢٩/١١٢/١٣١/١٤٢/١٤٦/١٩٢/٢١٤-٢١٥/٢١٨/٢٢٤.

(٢) السابق ص ٣٦١.



(٣) السابق ص ٣٧٢.

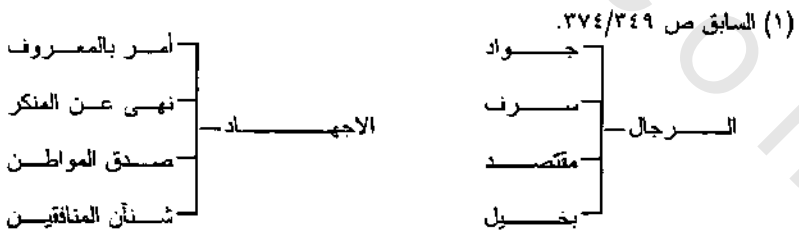


والرجال أنواع: البخيل والمقتصد والمسرف والجواد. والجهاد أربعة أنواع أيضا: من أدنى إلى أعلى: شنآن المنافقين، صدق المواطن، نهى عن المنكر، أمر بالمعروف. فدرأ المفاسد مقدم على جلب المصالح. وأشرف المجاهدات قمع الشيطان عدو الله، بسلطان العقل ولى الله (١).

والكمال الإنسانى كمال البدن، الصحة والعفة. والكمال المعنوى كمال العقل ومحبة الفضيلة، ويصونها عن النقص. فذا ما عرض له نقص يفتقر إلى القوة التدييرية والشرعية الإلهية. فانه نموذج الكمال الطبيعى والإنسانى. والطبيعة ليست منحلة ولا صدئة بل تتجه بطبيعتها نحو الكمال. والإنسان لا يختار الفعل الأخس بل الأفضل تعبيرا عن الشوق إلى الكمال لاستصلاح لأشرف الجواهر لأشرف القنيات وإستجلاب لأشرف القنيات لأشرف الأغراض (٢).

وعند العامرى اتصال العبد على مراتب أربع: المتقين والمحسنين والأبرار والصالحين. الأولى نتيجة الخوف، والثانية نتيجة الرجاء، والثالثة نتيجة المحبة، والرابعة نتيجة الإخلاص. وطريقها كلها الاستقامة.

وانقطاع العبد عن مولاه أيضا على مراتب أربع: الأعراض والحجاب والطرود والخسأة. الأولى من لواحق الاستهانة، والثانية نتيجة الاستحقاق، والثالثة نتيجة الإنكار، والرابعة للبعث فحسب. وطريقها السخافة والاعوجاج (٣).

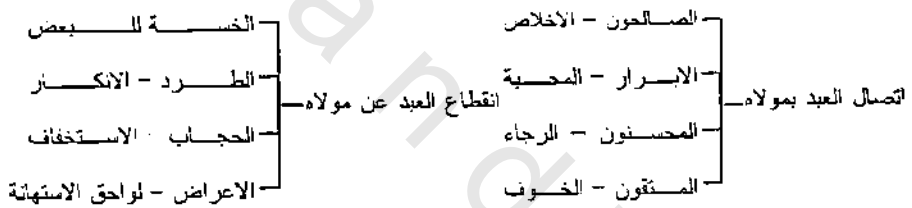


(٢) السابق ص ٣٥٢-٣٥٣.

(٣) السابق ص ٣٥٠.

والطريق إلى الله ثلاثى المراحل، بداية ووسط ونهاية. ولكل مرحلة أربع مراتب. البداية ماذا هو، ومن جاء به، ومن ماذا جاء به، وكيف كان مجيئه. والوسط مرتبة الشخص من الجوهر الانسى، وقسطه، زيادة أم نقصان، ثابت أم متأرجح. والنهاية لماذا هو، وكيف السبيل إليه، وما الذى يحتاج إليه فى التوجه نحوه، وما الذى يعوقه عنه (١). فالانتقال من الشريعة إلى الطريقة إلى الحقيقة كما هو الحال فى الطريق الصوفى.

والنقرب إلى الله بملازمة الخدمة له. والنقرب إلى الله بالعمل على ثلاث مراتب: الأفضال والتفويض والتوبة. أما النعمة لغير المستحق فهي لثلاثة أسباب: الامتحان والعبارة والاستدراج. والنقرب إلى الله على نحو عقلى خالص، حقا محضاً، وروحاً صافياً، ونوراً إلهياً فيطلع على ما فى العالم إلهاماً. فمن أراد أن يسكن فى هذا العالم



(١) اسابق ص ٣٥١

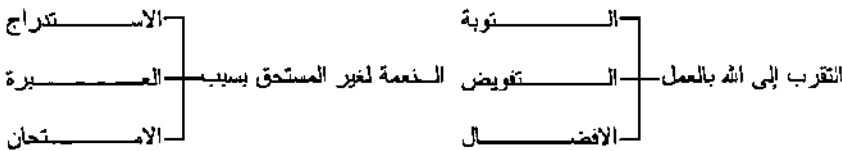


فلينقرب إلى الله رب العالمين تمسكا بخدمة الشرائع. فالشرعية هي المقومة للخلقة على حسن الخدمة (١).

ورأس الحكمة مخافة الله. والطريق إلى الآخرة تقوى الله. فالإنسان بخير ما اتقى الله كما قال عمر بن عبد العزيز (٢). الحكمة أعظم المواهب التي وهب الله لعباده. يزرعها فيهم حتى لا يمنع أحد عن أحد سبل الخير. الحكمة هي سبيل الثقة في الدين. وهي قيس من نور الله. ومن كان ميله غير رضا الله ألقى نفسه إلى التهلكة.

ولا فرق في ذلك بين حكمة اليونان وحكمة الإسلام. فوصية أفلاطون لتلميذه أرسطو كلها حكم إسلامية، أسلوبياً ومصطلحات وفكراً. فهو إبداع حضارى، قراءة الوافد والموروث من خلال الحكمة الخالدة مثل "اعرف ربك حقاً"، "تسأل الله تعالى ما لا يدوم لك نفعه"، "إن الله تعالى لا ينتقم من العبد بالسخط عليه" سواء قالها أفلاطون أو فيثاغورس أو أرسطو أو أقوال مأثورة عن الرسول والصحابه والأئمة والصوفية والأولياء. فوصية فيثاغورس المعروفة بالذهبية تعبر عن حكمة اليونان وحكمة الإسلام في آن واحد لغة، الإشراق والينابيع وحلول الله في الإنسان وفي الطبيعة. والقصاص القرآنى عامل موجب مثل وصايا فيلبس أبى الاسكندر لابنه ساعة الوفاة مثل وصايا يعقوب لابنه ووصايا لقمان لابنه. ومشاهد القيامة مثل رؤيا يوحنا ومعاد الإسلام. وسؤال سفنكس: ما الخير وما الشر وما الذى ليس بخير ولا بشر يقوم على قسمة عقلية منطقية أخلاقية إسلامية. فالحضارة اليونانية حضارة توحيد وعدل كما تصور المعتزلة. وحكماء اليونان فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو مثل أنبياء الإسلام (وما من أمة إلا خلا

(١) السابق ص ٣٥٦/٣٥٧.



(٢) السابق ص ١١٧/٢٨٥-٢٨٦/٢٨٩/٢٩١.

فيها نذير»، «منهم من قصصنا عليك ومنهم من له نقصص عليك».

ففى حكمة اليونان فى وصية فيثاغورس إن الله لا يرضى لنفسه من الناس إلا بمثل ما رضى لهم به منه. وأول وصية بعد تقوى الله تبجيل الذين لا يحل بهم الموت من الله وأوليائهم وإكرامهم بما توجبه الشريعة. يدبر الله العالم. لذلك وضع فى الإنسان وفى الطبيعة جنسا إلهيا يساعده على التعرف على الأشياء وعلى انتظام الظواهر. كل ما فى العالم من هذا المبدأ الإلهي كما قال أيروقلس يحمى الإنسان من الغفلة والشهوة. ويحدث التقابل بين البخت اليوناني والتدبير الإسلامي دون تضحية أحدهما بالآخر. ومع ذلك فالتصور الإسلامي هو الغالب. ما يأخذه الناس بالبخت ليس بخير وما يأخذونه من الملك فهو خير بالصحة مثل اليسار وحسن الأحدث وكثرة البنين والسلطان والجمال والظفر. الله معطى الحياة، والحمد لله دائما، والتوكل كل التوكل عليه والاستغفار له كما أوصى سقراط. وهو المنشئ لكل أدب وعلم ولكل تعليم روحاني كما هو الحال فى وصية أفلاطون فى تأديب الأحداث^(١).

ورأس الحكمة مخافة الله. والطريق إلى الآخرة تقوى الله. فالإنسان بخير ما اتقى الله كما قال عمر بن عبد العزيز^(٢). الحكمة أعظم المواهب التى وهب الله لعباده. يزرعها فيهم حتى لا يمنع أحد عن أحد سبل الخير. والحكمة هى سبيل التفقه فى الدين. الحكمة قيس من نور الله. ومن كان ميله غير رضا الله لى نفسه إلى التهلكة.

وأمر المعاد، خاصة الثواب والعقاب ردع ورجاء، تخويف وترغيب، نتيجة الأفعال ومقدمات لها. وتتفق فى ذلك حكمة الهند مع حكمة الإسلاميين المحدثين. فإنكار الثواب والعقاب يودى إلى إفلات الزمام واتباع الشهوات والعجز عن السيطرة على الانفعالات. المصر على الخطايا لا يتمنى الجنة. ولا يعصى الله إرضاء للمخلوقين. ويعذب المرأ على الذنب بعد مقامات كثيرة من السر والعلانية، ابتداء من الخاطر ثم

(١) السابق ص ٢١٩/٢٢٥/٢٢٧/٢٣٤/٢٣٦/٢٣٧/٢٥٣.

(٢) السابق ص ١١٧/٢٨٥-٢٨٦/٢٨٩/٢٩١.

الاهتمام ثم نسيان مولاه ثم قبول الوسوسة ثم الفكر ثم الإرادة ثم العزم ثم الإظهار، ثم الطلب ثم الفعل ثم الاحدراء ثم الطغيان ثم التماذى إلى أن يموت عليه. فإن تاب بعد هذا كله قبل حضور الموت وتاب الله عليه. والحذر كل الحذر فى الإقدام على جنة عرضها السموات والأرض ليس للإنسان فيها موضع قدم كما قال ابن السماك^(١).

والثواب والعقاب نتيجة للإيمان بالله العادل، وهما فى نفس الوقت دليل على إثبات وجود اله عادل، النتيجة من المقدمة، والمقدمة من النتيجة كما هو الحال عند الفارابى. المكافأة واجبة فى الطبيعة، تجب فى الأعمال المقرونة بالنيات. فالمرأ لا يجازى على ما يعمل فى نومه وما هو خارج إرادته واختياره مثل السعال والعطاس وحياته وموته وتنفسه، وغذائه واستفراغه وإن كان فيها بعض الإرادة. ولا يجازى على النيات المجردة. والدليل على وجود المكافأة هو أنه بعد معرفة الله ووحديته وتنزيهه ورسوله وزمانه بوضوح وجد فى صدره سعة وفى أحواله استقامة، وعن الأشرار سلامة، وعند الأخيار حظوة، وفى معاشه سدادا بمقدار ما يفعله وينويه. ومن ثم ينبغى تقديم سياسة لأحواله بقلب قوى، ونية صادقة، وصدر واسع، وثقة بأن ما يأتيه من ذلك وإن قل يجدى عليه نفعا جليلا. ولا يكفى قول الحق دون صدق النية وصواب الموضع. وصدق النية بالورع والدين والمجاهدة بأحسن الأخلاق^(٢).

وهناك قيم مضادة لتقدم التاريخ، تدعو إلى أن السلف نموذج الخلف وقدوة له طبقا لآية ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات﴾ وطبقا للأمثال العامة والأقوال المأثورة "ما ترك السلف للخلف شيئا" أو "بئس الخلف ونعم السلف" والذى أدى إلى التصور المنهار للتاريخ، يقتدى الخلف بالسلف لأن للسلف معونة على الأخلاق، وفى السابقين عصمة للاحتقين. ولقد رفع الله لكل خلف أعلاما من السلف^(٣). وقيم أخرى تدعو إلى العزلة والوحدة مثل: إذا أراد الله بعبد خيرا أنسه بالوحدة. وإذا كان هناك مواساة

(١) السابق ص ٩٢/٩١/٩١٦/٩٦/٣٧٤.

(٢) السابق ص ٢٨٨-٢٨٩/٣٣٢.

(٣) السابق ص ٨٧/١١-٨٨/١١٥.

واهتمام بالآخرين فعند الجوع.

وقليل من القيم فى حكمة الشعوب هى التى تدعو إلى الثورة والغضب والدفاع عن مصالح الناس، والسعى فى الأرض والكد والكدح فى الدنيا. ومعظمها منسوبة للجاحظ من حكمة الإسلاميين. فالحزم ضد التوكل. والحذر كل الحذر من أن يخدع الشيطان الناس عن الحزم، ويحث على التوكل، والإحالة إلى القدر. فقد أمر الله بالتوكل عند انقطاع الحيل، وبالتسليم للتضاء بعد الأعداء كما ورد فى الكتب المنزلة وسنن الأنبياء.

وقد نقد عمر بن الخطاب المتوكلين وسماهم المستأكلين. فالمتوكل هو الذى يلقى الحبة فى بطن الأرض ويتوكل على ربه. الفعل له، والانفعال للطبيعة، المبادرة له واستمرارها للقانون. والتناصر عز، والتوكل مذلة كما قال أكتثم بن صيفى. والبطالة نذالة.

وباستصلاح المعاش يصلح أمر العباد. وأحسن الأمور عند الله أحسنها عند الناس لأن الله لا يأمر إلا بالحسنى، ولا ينهى إلا عن القبيح. فما رآه المسلمون حسن فهو عند الله حسن كما أقرت الملكية، ولا يخاف الإنسان ظلم ربه ولكن يخاف ظلم نفسه وكان عمر يشكو إلى الله بلادة الأمين ويقظة الخائن.

وليس شىء لتغيير نعمة وتعجيل نقمة أقرب من الإقامة على الظلم. إن الله عدل ولا عيب إلا العدل. والتحدى هو التحول من الصفة الإلهية إلى الأوضاع الاجتماعية^(١).

ثالثاً: التاريخ الأفقى.

إذا كان التاريخ الرأسى يقوم على ثنائية السماء والأرض، الله والعالم، النفس والبدن، الخير والشر، الآخرة والدنيا، البقاء والفناء، هذه الثنائية المتطهرة المتعارضة التى يقضى فيها أحد لطرفين على الآخر بالضرورة فإن التاريخ الأفقى يقوم على ثنائية التقدم والتأخر، الأمام والخلف، القيام والقعود، النهضة والسقوط، المثال والواقع، وتحقيق كلمة الله فى الأرض، والوحي كنظام مثالى للعالم. خطوة نحو بزوغ فلسفة التاريخ.

(١) السابق ص ١٥-١٦/١١٢/١٤٠/١٤٢/١٧٤/٣٥٨.

وقد مثل ذلك قصص الأنبياء سواء عند أهل السنة الذين يتوقفون على خاتم الأنبياء باستثناء الصوفية الذين يضيفون رمز الولاية خالد بن سنان كما هو الحل عند ابن عربي أو عند الشيعة الذين يضيفون الأئمة باعتبار أن الإمامة وريثة النبوة، والقائم خليفة النبي.

١- قصص الأنبياء ودورات التاريخ. وفي "الأسئلة الالامعة" بعد الارتقاء الرأسى للنفس فى الفقرة الأولى تأتى اثنا وأربعون فقرة عن النبوة وتاريخ للأنبياء للتقدم الأفقى، وتسلسل الأنبياء من آدم حتى محمد، مرحلة مرحلة، فى تسع وثلاثين حلقة، بعضها أنبياء، وبعضها أقوام أو أصحاب. ومن الأنبياء يظهر أولو العزم، آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد مع غيرهم من الأنبياء. والفقرة الثانية عن حكم قص أبناء الرسل. والثالثة عن الفرق بين الرسول والنبي. وابتداء من الرابعة حتى النهاية قص تسع وثلاثين نبيا وقوما وصاحباً دون محاولة لإخضاعها لقانون واحد أو دلالة واحدة أو غاية واحدة كما فعل ابن عربي فى "قصص الحكم" فى التجلى التدرجى للوجود. وهو موضوع قرأنى خالص، لا تشكل كاذب فيه أو مصطلح فلسفى. يعتمد فيه الفارابى على أقول السابقين مفسرين أو متكلمين دون دراسة خاصة. وكلها أقوال مروية دون إسناد لها. لم يتحقق الفارابى من صدقه لا تاريخياً ولا عقلاً ولا أخلاقياً. فهى ظنيات فى ظنيات. ويستشهد بالقرآن أكثر من الحديث^(١).

وحكم قص أنباء الرسل استشهد بقول الحكماء وهى سبعة: أولاً إظهار النبوة ودلالاتها على الرسالة أى المعرفة التاريخية من أمى وليس عن طريق الأسفار والثقافة الشعبية التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة العربية. ثانياً تثبيت الفؤاد أى تحويل الوعى السياسى إلى وعى تاريخى واكتشاف التاريخ الماضى كحقل تجارب للحاضر والمستقبل.

(١) لا تظهر الاستشهادات فى كل الأنبياء. هناك قرآن وحديث فى سبعة أنبياء: آدم ولوط ويوسف وسليمان ومحمد. وقرآن فقط فى أحد عشر نبيا موسى وشمويل ويونس وعزير وعيسى وحزقيل وأصحاب القيل وأصحاب الرس والرسل الثلاثة وأصحاب رضوان وقوم سبأ. وحديث فقط فى ثلاثة أنبياء: إسماعيل وإسحق وشعيب. وهناك استشهاد ببعض الاسرائيليات.

فالمعرفة تتحقق فى التاريخ ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾. ثالثاً ذكر درجة الرسول. فالرسول علامة على انتقال التاريخ من مرحلة إلى مرحلة دون تشخيص الرسالة فى الرسول. ﴿وكذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنا ذكراً﴾. رابعاً، عبرة للأمة أى تذكر وتيقن من صدق المعرفة بالتصديق الداخلى. خامساً تعلم الوحي بأحوال الأنبياء وصعوبة الفصل بين الرسالة والرسول تأكيداً على الوحي الذاتى وبعيدا عن المصادر التاريخية. سادساً الأسوة الحسنة فى الأنبياء السابقين أى تطور النبوة فى خط واحد هو جهاد السابقين والنموذج القدوة فى السلوك. سابعاً بيان النعم على الأمة الظاهرة مثل تخفيف الشرائع، والباطنة مثل تضعيف الصنائع كمصدر للأحكام العملية.

والفرق بين الرسول والنبي أن الرسول شارع فى حين أن النبي حافظ شريعة غيره. الرسول يعم البشر والملك فى حين أن النبي للبشر فقط. كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. كما أن فائدة الرسل معرفة الشريعة وإنزال الكتب ومعرفة الحقيقة جمعاً بين النظر والعمل.

وهناك فرق بين أولى العزم من الرسل وبين الرسل الآخرين. ويعنى العزم عقد القلب مسبقاً بخلاف القصد الذى يقارن الفعل. والنية مثل لا عزم لا تفارق بل تتقدم. العزم إرادة فعل الشيء.

وأولى العزم من الرسل إما سبعة: أو نوح وإبراهيم واسحق وأيوب ويعقوب ويوسف وشعيب، أو خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، أو أربعة: نوح وإبراهيم وهود ومحمد. وأصحاب الشرائع ستة بإضافة آدم. والحقيقة لقد استقر الأمر عند المتكلمين أن أولى العزم ستة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد. ويضيف الشيعة القائم.

وهناك أنبياء ورسل من ناحية وطوائف وأقوام وملائكة من ناحية أخرى مثل هاروت وماروت الملكان، وأصحاب الرقيم، وأصحاب الفيل وأصحاب الرس، وأصحاب

الأخدود، وأصحاب خروان وقوم سبأ، والرسل الثلاثة الذين أرسلهم الله إلى أنطاكية. ويمكن اعتبار أولى العزم هي المراحل الكبرى في تطور الوحي والتاريخ. وتتداخل المجموعتان، الأنبياء والطوائف، دون أن يكونا متتابعين ولا يتبع الفارابي ترتيباً زمنياً على الإطلاق بل لكل نبي دلالة نبوية^(١).

أ- الأنبياء والرسل. آدم وإدريس. خلق الله آدم على صورته ومثاله أى أن الإنسان شبيه بالله، والله شبيه بالإنسان ثم ردها الإنسان إلى الله وتصوره على صورته ومثاله. وهو حديث نبوى وآية توراتية في نفس الوقت. ويدعمه الفارابي بالقرآن. وهو ما اعتمد عليه الصوفية في الحلول واتحاد والفلاسفة في تكريم الإنسان، والمنكلمون في تصور الله على أنه إنسان كامل^(٢). ما سوى آدم خلق في الأرحام، وكبر من نطفة فعلة فمضغة فلقماً فعظماً. ولا تعنى الصورة بالضرورة المعنى الحسى بل قد تعنى النطق والوجدان والذات والوعى الذاتى. ومعجزة آدم فتح اللسان أى اللغة بتعليم الكلام كما حدث لمحمد مع أن الفرق أن آدم تعلم الألفاظ ودلالاتها على الأشياء في حين أن محمد تعلم المعانى مباشرة ودلالاتها في النفوس. والسؤال هو: هل علم الله آدم أسماء جميع اللغات التى تكلم بها أولاده أم لغة أصلية أولى توقيفاً تفرعت عنها اللغات الأخرى اصطلاحاً؟ ما هي هذه اللغة الأم، العبرية أم العربية أم الأرامية؟^(٣). وهل تلقى الوحي الرسالة معجزة أم رسالة طبيعية لإبلاغها للناس؟

وإدريس أول من خط بالقلم. وأول من خاط الثياب، الكتابة بعد القراءة، والتدوين بعد الشفاه، وبعد المنطق تأتى الصنعة. وسمى إدريس لكثرة دراسته للكتاب، صحف آدم وشيث. وكان اسمه أخنوخ في الإسرائيليات. وينتهى نسبة إلى شيث بن آدم. بعث على

(١) السابق ص ٩٠٦-٩٨.

(٢) وقد جعل فولتير ذلك أساس التشبيه، وفيورباخ أراد إرجاع صورة الله الإنسانية إلى الإنسان حتى يسترد وعيه بذاته ودون أن يفذه خارجها. انظر دراستنا : الاغتراب الدينى عند فيورباخ، دراسات فلسفية ص ٤٠٠-٤٤٥.

(٣) اللغة الأم Ursprache.

شريعة آدم إلى أولاده قابيل بعد أن كفروا حين دعوتهم إلى الإيمان. وقيل رفع إلى السماء الرابعة أو السادسة مثل معراج أخنوخ في التوراة. وقيل إنه في الجنة مع أرواح أطفال المؤمنين. وهو يشارك عيسى ومحمد في الرفع إلى السماء (١).

نوح وهود وصالح. ونوح شيخ الأنبياء لأنه أكثرهم تعميرا. واسمه مشتق من القوم لكثرة نياحته على نفسه. ينتهى نسبة إلى أخنوخ. إذ تتوالى الأنبياء بالعقب والذرية واجتمع بنو قابيل وبنو شيث بالمصاهرة. وترك بنو شيث صالح أعمالهم وتابعوا فساق بنى قابيل فبعث الله نوحا لهم. ولا يعتمد على قصة نوح في القرآن وبه قصة كاملة. وهناك كثير من المرويات الظنية التى لا برهان عليها، والفارابى هو المنطقى صاحب البرهان. وكيف عرف بقاء سفينة نوح فى الماء ستة أشهر وتحنيدها بالعاشر من رجب حتى يوم عاشوراء؟ هل كانت الشهور العربية قديمة قدم نوح؟ وشريعته مستأنفة إلى اليوم لأنها شريعة إنسانية عامة مثل شريعة إبراهيم وليست خاصة بنى إسرائيل.

وينتهى نسب هود إلى نوح وكان النبوة متعاقبة فى الذرية. وبعث على شريعة نوح وهى شريعة عامة وشاملة وباقية بالرغم من التطور التاريخى للأحكام. هى شريعة أخلاقية أكثر منها تشريعات اجتماعية.

وينتهى نسب صالح أيضا إلى نسب نوح. فقد أرسل إلى قبيلة ثمود لأنهم عبدوا غير الله. وأراهم من المعجزات الكثير. وقد سميت ثمود لذلك لقلة مائها. فالتهم هو الماء القليل (٢).

إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب. وقد سمي إبراهيم خليلا لتعظيم الحق بالإخلاص فى العبادة. فهو صديق الله أو لترقيته شأن الخلق بحسن الضيافة كما هو الحال فى قصة ضيف إبراهيم. وقيل سمي خليلا لبذل نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للاخوان.

(١) الفارابى: الاسئنة الالامعة ص ٩٧-٩٨.

(٢) السابق ص ٩٩-١٠٠.

ولوط اسم عربى، من اللوط أى اللزوق إذ أن حبه لاط بقلب إبراهيم. والشائع أيضا أنه من اللواط الذى استشرى بقومه. وهو أيضا نوع من اللزوق. نسبة يمتد إلى إبراهيم، فالنبوة لا تخرج من الذرية عكس مفهوم القرآن لها. أرسله الله إلى خمس مدائن وهى المؤتفكات. لم يؤمن به أحد، ولم يرتدع قومه عن القياح.

وإسماعيل واسحق ولدا إبراهيم. وعند أكثر المفسرين أن الذبيح إسحق. وعند البعض الآخر إسماعيل طبقا للروايات اليهودية أو العربية. والأظهر أنه إسماعيل بناء على حديث "أنا ابن الذبحين" أى إسماعيل وعبد الله أبوه برؤيا عبد المطلب جده.

ويعقوب بن إسحق استمرار للنبوة فى الذرية دون تعليق من الفارابى بأن الذرية ليست من شروط النبوة ﴿قال ومن ذريتى، قال لا ينال عهدى الظالمين﴾. وقد سمي يعقوب بإسرائيل لأن الأسر بالعبرية يعنى العبد، والليل اسم من أسماء الله، وبالتالي يكون معناه عبد الله. وقد كتب الفارابى حكاية بالفارسية ردا على سؤال: إذا كان يعقوب اطلع فى منامه على مصير يوسف فلماذا سلمه لأخوته؟ والجواب أنه يعلم إذا حاق القضاء ضاق القضاء. فالفارابى يعبر عن الوافد العبرى بالوافد الفارسى^(١).

ويوسف عند أكثر العلماء اسم عبرانى أو عربى من آسفه أى أغضبه كما فى آية ﴿فلما أسفونا﴾ أى أغضبونا. وقد نزلت سورة يوسف عندما طلب المسلمون سورة لا يكون فيها أمر ولا نهى بل مجرد أخبار القرون الماضية لتسلية القلوب. فطاقة البشر على الأمر والنهى محدودة. والإنسان يود التمتع بالقص وإثارة الخيال من أخبار السابقين. وقد تكلم شاهد يوسف وهو صغير كما تكلم ولد ماشطة فرعون وصاحب جريح والراهب عيسى.

وأيوب من نسل نبي بالضرورة، فالنبوة لا تكون إلا ذرية. الشريعة شريعة إسحق. قد يكون أصله روميا لأنه بعث فى أرض الشام. والشام مستعمرة رومانية.

(١) السابق ص ١٠٠-١٠٢.

وشعيب ينتسب إلى إبراهيم في مدينة مدين كما وردت في أحاديث الرسول. ويمتاز بحسن الجوار.

موسى والخضر وإلياس واليسع وذو الكفل وأشمويل وداود وسليمان ويونس وعزير وزكريا ويحيى. وبالرغم من أهمية موسى إلا أنه لا يذكر إلا نسبة إلى يعقوب، والتماسه النبوة لأخيه وإجابته إلى ذلك من نص فارسي. وتمنى محمد الإيمان لعنه مما يبين شرف رتبته على رتبة موسى. النبوة أعلى الدرجات والإيمان أقل منها. وهو خليط من قراءة موسى من خلال محمد، والفارسيات والاسرائيليات. كان في علم الله أن هارون من الانبياء فجرى على لسان موسى دعاء وفي علمه أن أبا طالب لا يؤمن ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. فالتفسير بعلم الله غير مقنع، ومطلوب إجابة خاصة لسؤال خاص.

وقد أوصى الخضر موسى ضد اللجاج، والمشى بخير حاجة، وبالضحك من غير عجب، وضد تعيير الخاطئين والبكاء على الخطيئة. وقد سمى الخضر كذلك لأنه إذا صلى في موضع اخضر مكانه. والموضوع أسطوري خالص مما يوحي بأنه ربما يكون العمل كله منتحلاً على الفارابي. فلا هو أسلوبه ولا فكره، مجرد تصوف من مصادر متعددة فارسية وإسرائيلية مباشرة أو من خلال المفسرين مثل عكرمة.

وإلياس من نسل النبي. الخضر إلى البحار وإلياس إلى الفياض تقابلاً بين الماء واليابس، يجتمعان معاً كل عام أيام في موسم الحج، ويراهما الصالحون مما يدل على الرؤية الذاتية وليست الموضوعية. وهما باقيان إلى يوم النفخ في الصور، مع أن الكل ميت بما في ذلك محمد ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَهُمْ مَيِّتُونَ﴾. لما عصاه قومه حرج ولحق بشواهد الجبال يعبد الله. يأكل من نبات الأرض وثمار الأشجار خمس سنين. ثم هرب من قومه حيث صدوه فاستقبلته دابة على صورة فرس من نار، وربما على صورة أسد، فركبها ومرت كالريح. جعله الله إنسيا ملكياً، صورة الإنسان وطبيعة الملائكة، وهي صورة إلبا في التوراة مع بعض أساطير الإسراء والمعراج.

واليسع مرتبط بالياس، كان قبل دخوله الغار من تلامذته، تابعا له. وأعطاه من الصوف منصبا له خليفة فى القوم. وركب الدابة وغاب. ودعا اليسع قومه إلى الله بالرغم من غيابه، من بقايا صور الامام المنتظر.

وذو الكفل استمرار لقصة الياس واليسع. فقد استخلفه اليسع فيما أمره الياس فى عبادته ودعوته. وسمى كذلك لأنه تكفل عن اليسع عمله، الصوم بالنهار وقيام الليل والقضاء بين الناس دون غضب أو عجل.

أما أشمويل فهو اسم عبرى قد تعرب ربما إلى صمويل. لم يذكر فى القرآن، من نسل يعقوب. تحمله الملائكة. ولا يختص بتابوت ولا سكينة. كان التابوت لآدم بتوارثه الأنبياء صاغرا عن كابر. به عصى موسى وعمامة هارون وعصاه ومنطقة اسحق، وكسرا من الألواح التى تحطمت بعد أن ألغاه موسى، ولوحان من التوراة، وققيز من المن، وصاع يوسف، وطست تغسل فيه قلوب الأنبياء، أشبه بما حدث لمحمد وهو فى الصغر، وخاتم سليمان الذى به يجرى المعجزات، والسكينة وهى شىء كرأس المهرة لها عيان وجناحان ووجه كوجه إنسان يخرج منه صوت يوم القتال أهيب من صوت الأسد لهزيمة العداء. وربما هى النصرة بها فى الحرب. السكينة إذن شىء مادى وليست معنى مجازيا. ويستشهد بالقرآن على التابوت ﴿ألم تر من الملائكة أنزلت من سماء مبسورة﴾ إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ﴿أليس الله أعلم بما فى صدور هؤلاء﴾ وأيضا ﴿تحمله الملائكة﴾، وأيضا ﴿إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت﴾^(١).

وينتسب داود إلى يعقوب. خصه الله بالنبوة والحكمة والملك وتسخير الجبال، والطير يسبحن معه، والصوت الطيب، وإلانة الحديد، وصناعة الدروع. لم يأكل إلا من عمل يده. ويسط العدل، والسلسلة التى يعرف بها المحق من المبتطل، رمز التعادل، كفتى الميزان. ثم أظهر المكر والخديعة بعد أن رفع الله السلسلة أى نهاية العدل. القوة فى العبادة وشدة الاجتهاد. وأنزل الله عليه الزبور بالعبرانية، مائة وخمسون سورة كله

(١) السابق ص ١٠٢-١٠٥.

مواظ وحكم دون حلال أو حرام، ولا حدود ولا أحكام. فالأخلاق والحكمة سابقة على الحدود، الداخل قبل الخارج، والأخلاق قبل القانون. أكرمه الله بفصل الخطاب أى بيان الكلام أو علم الحكم والبصيرة فى القضاء، وربما القضاء بالبينات والايمان. وكان له سبعة عشر ابنا.

وابنه سليمان أعظم ملكا منه وأقضى، وداود أشد تعبدا ربما لقصة سليمان مع ملكة سبأ. وهو لا يختلف فى ذلك عن داود وقتله الضابط وأخذ امرأته. ولا يوجد استشهاد بقرآن أو بحديث مع أن المادة وافرة فيهما. وقد ورث سليمان داود (نورث سليمان داود) فى حين أن الرسول قال "نحن معاشر الأنبياء لا نورث ولا نورث". فالأنبياء لا يرثون دراهم ولا دنائير.

ويونس بن متى وهى أمه. ولم ينسب نبي إلى أمه إلا يونس وعيسى بن مريم. كان من عادة القوم قتل النسي إذا ظهر كذبه. فلما لم يأتهم العذاب فى الميعاد الذى أوعدهم يونس خشى أن يقتلوه. فخرج من غير أمر لقلة الصبر على قومه والمدارة لهم، وهو ما نهى عنه الله (ولا تكن كصاحب الحوت). فالغاية من توالى الأنبياء الاستفادة من تجاربهم. لذلك أقر الإسلام عدم إعطاء موعد فى الدنيا، عدم تحرك النبي بلا أمر، والصبر مع القوم ومداراتهم.

وعزير فى صورة المسيح دخل القدس على حمار ومعه عصير فى زق وسلّة من عنب وتين كما دخل المسيح فى يده غصن زيتون أو سعف نخل. يحيى الموتى مثل المسيح. أماته الله مائة عام مثل أهل الكهف. لم يتغير العصير والعنب. أما الحمار فقد تحلل وبقي عظاما بيضا. وسمع صوت يجمع العظام البالية فبعث الحمار، وأول ما أحيا الله من عظام عزير عينه فى رأسه، وجعله ينظر إلى عظام نفسه، ذاتا وموضوعا، إلى أن كسى باللحم. وهى آية على إحياء الموتى. أيتة أنه كان لبن أربعين سنة وابنه مائة وعشرون عاما. وربما كانا أخوان توأمان ولدا وماتا فى يوم واحد، الأول أربعون عاما والثانى مائة وأربعون عاما. فما دلالة هذه الأرقام؟ وقد ذكرت القصة فى القرآن (أنى

يحيى هذه لله بعد موتها»، «فأما لله مائة عام»، قال «لست يوما أو بعض يوم»، «انظر إلى حمارك»، «ولنجعلك آية للناس».

وزكريا من أبناء ملوك بني اسرائيل بداية بالنسب طبقا لعادة الساميين، عرب وعبريين. ولا يهم زمان البعثة لأنها تحط مثالي. وربما غاب الهدف منها والقصد ووضعها في مسار تاريخ النبوة. لذلك ظهرت النبوات متتالية متجاورة دون تواصل قصدي بينها.

ويحيى لأنه حيى به رحم أمه وهى عقيم. ففكرة ولادة العقيم شائعة فى التوراة، أو من العذراء بغير أب. وهناك قرابة بين يحيى وعيسى، فمريم بنت خالة يحيى. وهو أكبر من عيسى بستة أشهر. قتل يحيى لأنه لم يرض عما تمناه الملك قبل أن يرفع عيسى إلى السماء فى جدل الخلاص والهلاك. فهناك أربعة أشخاص صاروا أنبياء بالرغم من صغر سنهم، يوسف وسليمان ويحيى وعيسى^(١).

عيسى. وسمى كذلك لأنه يمسح العاهات فيبرىء على وزن فعيل بمعنى الفعل كالرحيم والعليم. وربما لأنه كان أمسح الرجل ولم يكن لرجله خمص، فعيل بمعنى مفعول، فهي صفة جسمية ليس لها دلالة رمزية أو إعجازية. وسمى روحا تشريفا له مثل بيت الله كما سمي جبريل الروح الأمين والروح القدس. سبب وجوده نفخة جبريل «فنفخنا فيه من روحنا». مدة حمل مريم ساعة أو ثلاث أو سبع أو يوم أو تسعة أشهر أو ثمانية لأنه لم يعش مولود ابن ثمانية. وكلها أقوال مرسله بلا دليل. يحيى الله به الموتى وكان الله فى حاجة إلى وسائط. كلمة الله لأنه كَوْنُ بها فى «كن» فكان بلا توليد مع أن اللاهوت المسيحى عند أهله يقوم على التوليد. خلق بكلمة الغيث إلى مريم دون معرفة آية كلمة^(٢).

(١) السابق ص ١٠٦-١٠٧.

(٢) السابق ص ١٠٨.

محمد. وهكذا دون ألقاب وكأنه لا يحتاج إلى تعظيم مثل باقى الأنبياء. يمتد نسبه إلى إبراهيم كما يمتد المسيح إلى داود، وهو مالا يمكن التحقق منه فى شجرة الأنساب. وهو برسالته، الهدى الساطع والسيف القاطع، وليس بشخصه. وإجابة على سؤال بالفارسية لماذا شبه الله المصطفى بموسى ﴿كما أرسلنا إلى فرعون رسولا﴾ أنه كان لموسى خمسة أعداء: فرعون وهامان، وقارون، والسامرى وعوج بن عنق. وكان لمحمد خمسة أعداء أيضاً: أبو جهل، وعاص بن وائل، وأسود بن عفوت، وأسود بن عبد المطلب، وحارث بن قيس. أهلك الله الأوائل ببليّة واحدة، وأهلك الأواخر ببليّات مختلفات. الهلاك الجماعى فى حالة بنى إسرائيل، والعقاب الفردى فى حالة أمة محمد. ولا يوجد تأويل رمزى للعدد خمسة أو أنه إشارة إلى مبادئ كما يفعل الحكماء. وتدخل السيرة أكثر مما تظهر ماهية الرسالة، مولده عام الفيل باليوم والشهر مقارنة بباقى الأنبياء مثل إلياس واليسع وقيدار، وكفالة جده واسترضاعه من حليمة من بنى سعد. كان أقصَح العرب "أنا أقصَح العرب بيد أنى من قریش. ونشأت فى بنى سعد بنى بكر فأنى يأتينى اللحن". ثم رباه عمه حتى اختاره الله رسولا. وإجابة على سؤال بالفارسية لماذا لم يشرفه الله تعالى بأبيه وأمه بشرف الإيمان حتى لا يلزمه الانشغال بتعظيم أى مخلوق، ولكى لا يغتم بعض أصحابه ممن مات أبوه وأمه على الشرك. سبب إلهى أولاً، ثم سبب إنسانى ثانياً^(١).

ب- الملائكة والرسل والأصحاب والأقوام. ومع الأنبياء أولى العزم يذكر بعض الملائكة والرسل والأصحاب والأقوام على علاقة بالنبوة أو أنبياء مبشرون. فمن الملائكة هاروت وماروت، معلقان فى غار بابل على رأس بئر. وكانا فى زمن إدريس. بالنهار بشر وبالليل ملائكة. استوجبا العذاب باقتحام الشهوات، والميل إلى امرأة اسمها زهرة، فاخترتا العذاب فى الدنيا على العذاب فى الآخرة. وهو تصور شعبى رمزى قد لا يتسق مع تصور الملائكة. فالملائكة لا يخطؤون لأن ليس لديهم إرادة حرة وعقل يميزون به بين الحسن والقبح، بل هم خير محض، مضطرون إليه. لا شهوات لهم ولا يتنازلون. ولا

(١) السابق ص ١٠٨-١١٩.

يعاقبون ولا يجازون. ليسوا أنصاف بشر أو أنصاف ملائكة طبقا للنهار والليل. ولا يليق التعليق على بئر بالملائكة.

وقد أرسل الله رسلا ثلاثة إلى أنطاكية طبقا لآية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾. منهما توأمان، بولس وشمعون. دخلا أنطاكية ودعيا الناس إلى الله فحبسهما الملك فعلم شمعون مقتم الحواريين وجاء لعونهما وتوسل إلى الملك وتقرب إليه بمعرفة الكتب فأحضرهما وسألهما أمام الملك عن إحياء عيسى للموتى والبرهان على ذلك فأتيا بميت لم يدفن بعد وهو ابن حبيب النجار وكان من خيار الموحدين سرا، فأحيا الله الميت بدعائهما. فحضر الحبيب وسأله ابنه أمام الملك عما يرى. فأخبر أنه يرى شابا فى السماء الرابع يدعو لهؤلاء الثلاثة ويلتمس من الله حفظهم. فخلى الملك سبيلهم. فلما خرجوا من عند الملك هم الناس بقتلهم وقالوا ﴿إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ﴾ زجرهم الحبيب. ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ فقتلوه. وقد قال النبی "سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفه عين، خربيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار مؤمن آل يس، وعلى ابن أبى طالب وهو أفضلهم". وواضح الأصل النصرانى مع التأويل الشيعى.

وكاتب مجرد اسم علم مع نسبه، خليفة موسى. أحسن الخلافة حتى مات. واستخلف ابنه فى أمور الشريعة حتى مات. وهى قصة سطحية لا دلالة لها إلا من تحويل النبوة إلى ملك وراثى. وهو غير مذكور فى القرآن ولكنه وافد من الإسرائيليات.

وحزقيل هو الذى أحيا الله بدعائه الخارجين حذر الموت بعد أن وقع الوباء فى الأرض، وخرج الناس هاربين فماتوا كلهم. ثم مر بهم حزقيل فدعا لهم فأحياهم الله بدعائه. وهو مذكور فى القرآن على العموم وفى الإسرائيليات على الخصوص. ولو أراد الله الخصوص لذكره بالاسم. إحياء الموتى ليس بجديد فى اليهودية. والمسيح ليس بدعة نظرا لإنكارهم إحياء الموتى. فجاء الأنبياء بهذه المعجزة باستمرار.

أما لقمان فكان عبدا حبشيا، نجارا، عتقه مولاه فنام نومة أعطى الحكمة بعدها فانتبه يتكلم. مر عليه قوم يعظمهم واستعجبوا منه وهو النجار وسألوه عن سبب حكمته.

فأجاب بأنها صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك مالا يعنى الفرد.

ومن فرط إعجاب المسلمين بالاسكندر حولوه إلى نبي حاملا رسالة التوحيد. وسبب تسميته أنه كان فى مقدمة رأسه شبيه قرنين من اللحم، وهو ما لا يمكن تصويره بدنيا، قرنان من الشعر نعم، خاصة وأن اليونان يحبون الجمال. وربما لأن له ذؤابتان لطيفتان من الشعر والذؤابة تسمى قرنا . وربما لأنه طاف قرنى الأرض، المشرق والمغرب. وربما لأنه دخل النور والظلمة. وقد اختلف الناس فى نبوته مما يدل على أنها عملية تأليه وتعظيم. وربما كان من الملوك وليس من الأنبياء بالرغم من صعوبة التمييز بينهما^(١).

أما الأصحاب فهم أصحاب الكهف، وأصحاب الرقيم، وأصحاب الفيل، وأصحاب الرس، وأصحاب الأخدود، وأصحاب خروان. فعلامات التاريخ ليست فقط الانبياء بل أيضا الأهل والأقوام والشعوب والجماعات. وقد تكون جماعة من الأنبياء مثل أهل الكهف أو من الأشقياء مثل أصحاب الفيل وأصحاب الرس وأصحاب الأخدود وأصحاب خروان وقوم سبا، فأهل الكهف قصة مذكورة فى القرآن أكثر غنى وتصويرا مما هو وارد عند الفارابى. هم فتية من أبناء الملوك فى سباط دقيانوس الملك أى أنها قصة حديثة نسبيا ربما من النصارى. هجروا أوطانهم هربا من ظلم الملك وقسوته باحثين عن ملك قديم بره عميم. مكثوا نائمين جسدا يقظين روحا. وألبسهم الله لباس المهابة. وفى الخيال الشعبى أنهم ناموا بالفعل دون مهابة غير حالى الذقون. فهم ليسوا أنبياء بل أتباع الأنبياء، أنقياء يفرون من المظلم، وينتظرون تغير الزمن. فثبتوا هم وتغير الزمن.

وأصحاب الرقيم تكرر لقصة أصحاب الكهف مع مزيد من التجسيم. فالترقيم لوح من الرصاص فيه أسماء أصحاب الكهف وقصتهم، فعيل بمعنى مفعول. وقيل اسم لواد فيه الكهف. وكانوا ثلاثة خرجوا يرتادون لأهلهم إذ أصابتهم السماء فأووا إلى كهف فأنحطت صخرة من الجبل فأنسد باب الكهف. وهى مجرد قصة مصمته خالية من

(١) السابق من ١١٠-١١٤.

أما أصحاب الفيل فقد عزم ملك الحبشة على خراب الكعبة كي يصبح بيته مزارا للناس. فأرسل جنده ورئيسهم أبرهة مع الفيلة. فلما وصلوا جبال تهامة أخبر عبد المطلب جد النبي بقوم أبرهة، فخرج واعظا له أن لهذا البيت حافظا يحرسه. فلم يسمع للنصح، وقصد هدم الكعبة فنزلت آية ﴿فأرسل عليها طيرا أباييل، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول﴾ أى جماعات بعضها وراء بعض، كزرع أكل حبه وبقي لبه أو كحب أكل لبه وبقي قشره.

وأصحاب الرسل بقية قوم وهود وصالح، نزلوا إلى البئر، ﴿وبئر معطلة﴾. وكل ركية لم تطو بالحجارة فهي رس. عمروها وشيدوا القصور وكثرت لهم المواشى. وكانوا يعبدون الجوارى والعدارى. فإذا تمت ثلاثين يقتلونهم ويستبدلونهم. بعث الله لهم ثلاثين نبيا فى شهر واحد فقتلواهم جميعا. فأرسل لهم نبيا وأيده بنصره حتى انتقم. ثم أرسل الرياح إلى مواشيهم حتى هلكت. وأرسل جبريل حتى أبيض كل بئر وعين لهم. فماتوا، وعددهم ستمائة ألف، عطشا. وهى قصة شعبية قد تكون مصادرها عربية أو عبرية لا تصمد أمام النقد العقلى مثل قتل ثلاثين نبيا فى شهر واحد، وانتصار نبى واحد مغوار بدافع الانتقام، وهلاك المواشى مع أكثر من نصف مليون إنسان.

أما أصحاب الأخدود فقد أمر ذو نواس الملك بحفر شق بنجران ناحية اليمن، وأوقد فيه النار، وأحرق من آمن برب صبى عرف الله بتعريفه إياه، ثم قتل الصبى بالسهم. فقد عرف الصبى الله معرفة قطرية. ومصدرها قص عربى قديم.

أما أصحاب خروان فمصدرها نصرانى. وتدور القصة حول رجل صالح بخروان بين صنعاء واليمن له بستان يعطى كل سنة عشرة. وكان له عشرة بنين. فلما مات اتفق الأنبياء على ألا يعطوا شيئا لأحد وعزموا على جنى الفواكه قبل الصبح قبل ازدحام الفقراء والمساكين ﴿إذ أقسموا ليصر منها مصبحين﴾. فوجدوا قبل الصبح آثار العذاب ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أى كالرماد والأسود أو الليلة المظلمة. وللقصة مضمون

اجتماعى واضح، حق الفقراء فى أموال الأغنياء. وهو ما أثبتته الوحي فى آخر مرحلة^(١). أما قوم سبأ فهى قصة تخلط بين القصة المذكورة فى القرآن وروافد أخرى. فالاسم لرجل من بلد فى فلسطين. وهو بلد سهل كثير الأهل لهم ثلاث ميا من يجتمع فيها ماء المطر. ولها ورقات مسدودة بالمسامير لأخذ الماء قدر الحاجة. ولهم بساتين وكروم ورغد عيش، فريدة فى الأرض. لم يشكروا نعمة الله. كفروا وتضافروا، ولم يسمعوا دعوة النبى. فأرسل الله إليهم سيل العرم كما هو الحال فى سورة سبأ أى ماء الحياض، والعرم فارة بركة لتقب موضع الورقات وقطع المسامير فسال الماء من الحياض وضربت البيوت والبساتين. وبذل الأشجار والرياح والبقول نبت الخبط والأثل والحشيش، وهلكوا بالجوع. والقصة خليط فى العقاب بين إرادة الله وقوانين الطبيعة وصناعة الإنسان^(٢).

وفى النهاية يدل هذا القصص، المفكك عند الفارابى على أن قصص الانبياء لم يتحول بعد إلى فلسفة غائية فى التاريخ، بل هو مجرد قصص متجاوزة متراصة بعضها بجوار بعض لا دلالة عامة لها، ولا غاية نهائية منها. تخلط بين المصادر العربية والعبرية والفارسية، بين القصص الشعبى والقصص القرآنى. ولا يتبع القصص ترتيبا زمانيا أو رؤية بنوية بل تعنى فقط باشتقاق الأسماء وبالذرية والنسب، وتحديد المواقع الجغرافية، وإجراء المعجزات، وبيان التدخل الإلهى. يغلب عليها التصوف والإيمانيات والإشراقيات، وليس الدخول فى العالم والالتزام بقضاياها. وكان من الصعب على المنطقى الفيلسوف، خادم بلاط سيف الدولة أن يحول قصص الانبياء إلى تاريخ الثورات على الظلم والطغيان كما حاول حكماء الشيعة وعلى رأسهم أبو يعقوب السجستانى.

٢- النبوة وتاريخ الكون (السجستانى). وتثبت النبوة عند السجستانى عن طريق الموجودات الطبيعية. فلا فرق بين الوحي والعالم، بين النبوة والكون، بين الاشراف فى النفس والفيض فى الكون. ولا فرق فى القراءة بين "النبؤات" و"النبوات" فقد كانت وظيفة

(١) السابق ص ١١٠-١١٤.

(٢) السابق ص ١١٤-١١٥.

النبوة عند العبرانيين التنبؤ بالمستقبل ثم تحولت في العصر الإسلامي إلى التشريع للحاضر أساسا مع بعض القصص للاخبار عن الأمم السابقة وبعض التطلع نحو المستقبل في الدنيا والآخرة. وهو نفس الاشتقاق مع جواز إسقاط الهمزة^(١).

الكون عند السجستاني تاريخ، والعقائد تاريخ الكون. التوحيد والابداع والخلق والكون والبشر والنبوة والامامة والقيامة والبعث مجموعة تسمى علم الحقائق أو علم الابتداء والانتهاى أو علم المبدأ والمعاد. أما التنزيل فيقوم على التفسير وقصص الأنبياء وأركان الشريعة. فالتنزيل هو التاريخ وليس الواقع الاجتماعى. وأما التأويل فهو معرفة أساس العقيدة الباطنى^(٢).

ويقسم السجستاني النبوة سبعة مقالات طبقا للسيارات السبع وربما الأئمة السبعة أيضا، وكل مقال إلى اثني عشر فصلا ربما طبقا للأئمة الاثني عشر^(٣). وهى بنية قوية تدل على تحول النبوة إلى فلسفة فى الطبيعة ثم إلى فلسفة فى التاريخ. تقوم أولا على إثبات التفاوت فى المخلوقات والتعددية فى الكون مما يعنى مراحل الخلق والتجلى والإبداع بالرغم من التصور الشائع للوحدانية والفرقة الناجية. فشرط إقامة فلسفة التاريخ تعددية البداية ووحدة النهاية، تكثر الوسائل ووحدة الغاية. ثم تنتقل ثانيا من الله إلى النبوة، فالنبوة فضل وإصلاح، ولا يوجد الله لا يتكلم ولا يرسل ولا يعتنى بالعالم ولا يفيض

(١) الفيلسوف الإسماعيلي أبو يعقوب اسحق السجستاني: إثبات النبوات، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢.

(٢) السجستاني: النبوات، مقدمة ص د.

(٣) وهى المقالات السبع الآتية.

١- فى الابانة عن التفاوت الموجود فى المخلوقين.

٢- فى أنه لما ثبت أن لهذا العالم صانعا حكيمًا وجب أن يكون منه رسولا إلى المصنوعين.

٣- فى إثبات النبوة من جهة الأشياء الطبيعية.

٤- فى إثبات النبوة من جهة الأشياء الروحانية.

٥- فى أن الأنبياء كانوا متفقين فى الحقائق وإن كانوا مختلفين فى الظواهر.

٦- فى كمية أدوار النطقاء وما بين كل دور والدور الآخر.

٧- فى العجائب الموجودة فى القرآن والشريعة والدالة على إثبات نبوة محمد.

بمعرفته كما أفاض بوجوده. ثم تثبت النبوة من جديد من جهة الطبيعة المادية أولاً ثم الطبيعة الروحانية ثانياً مع مزيد من اليقين في الوجود من نشأته الأولى في الماضي إلى الطبيعة المتكونة في الحاضر، بدناً وروحاً، جسماً ونفساً. ثم تظهر فلسفة التاريخ بوضوح في تعدد النبوات، اختلاف في الظاهر واتفاق في الباطن، كثرة في الوسائل ووحدة في الغاية، تعدد في الشرائع ووحدة في القصد. ثم يتحقق فلسفة التاريخ في النهاية في الأكوار والأدوار، وتحديد طبيعة كل مرحلة ودور كل نبى. والمقالة السابعة بالرغم من أنها مفقودة إلا أنها تعطى الحجج النقلية على صدق هذه التحليلات العقلية الأولى مع نظرية التأويل وأشهرها ﴿إنا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾^(١).

فلا يوجد إله منفصل عن العالم بل هناك كون ووحى ورسالة وإنسان وإمام. فالحديث عن الله حديث عن الكون والإنسان. والحديث عن الكون هو حديث عن الله والإنسان، والحديث عن الإنسان هو حديث عن الله والكون. كل ذلك في رؤية فنية وأدبية واحدة كتاب "النبوات" أقرب إلى الألب الصوفى الإلهى ومقدمات الأشاعرة الفقهاء وطلاب دار العلوم مع بعض المصطلحات الفلسفية المطعمة ببعض عبارات القرآن الحر^(٢). يظهر الإنسان عند الشيعة أكثر من ظهوره عند السنة في طريقتين مختلفتين. تحول الإنسان إلى إله عند السنة فتحول الإله إلى إنسان عند الشيعة. البشر مركز العالم وبؤرته الأولى. والإنسان هو الوسط بين الله والعالم أو بين العالم والله.

الهدف من إثبات النبوات هو إثبات التاريخ. فلا تاريخ بلا نبوة، ولا نبوة بلا إله، ولا إله بلا عالم. ومن ثم وجب إثبات النبوة أولاً ضد المنكرين لها لأنها تقوم على المعجزات ولأنها يمكن أن تدرك بالتعليم والاجتهاد ولأنها تقوم قياساً على المحسوس مع إغفال المعقول.

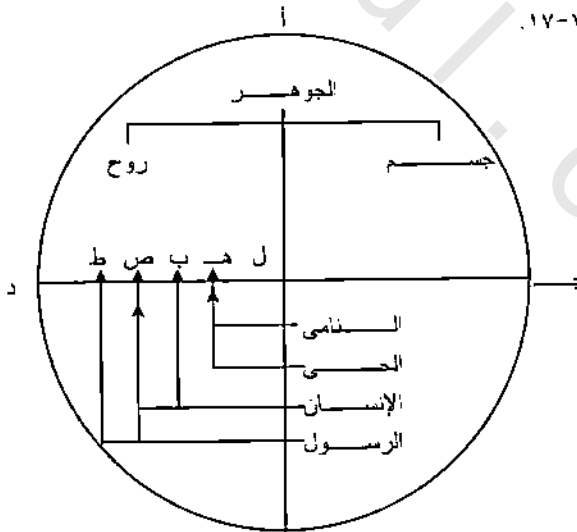
(١) هي مفقودة، وموضوعها التقية، ومطابقة الحروف والكلمات والآيات والسور وعللها وأسبابها ومعانيها والحكمة من وجودها وخاصة في أوائل السور القرآنية والعلّة التي وجدت من الشهادة والصلاة والحج والزكاة والمحكم والمتشابه في القرآن، النبوات، مقدمة ص ح - دب.

(٢) والمقالات السبع متساوية كما باستثناء الخامسة (٢٦ص) والسادسة (١٣ص).

وطرق إثبات النبوة ثلاثة. طريق الحشوية والذي يقوم على الروايات والأخبار دون التثبت من صحتها، سندا أو متنا، ودون التحقق من صدقها. وطريق التقليد وحججه ضعيفة تقوم على التسليم وليس على البرهان. وطريق البرهان قبول الحقائق من النبى والتصديق بها والتحقق من صحتها. وإثبات النبوة بالعقل والنفس، بالتصور والمخيلة شىء طبيعى. فالنبوة وظيفة معرفية، اتصال بين عقليين، فى حين أن إثبات النبوة بالطبيعة هو تحويلها إلى تاريخ وهى الإضافة الجديدة للسجستانى. وإثباتها بالبراهين جديد أيضا جده البراهين. وهى أربعة: فى الألفاظ المنطقية أى اللغة، وفى التراكيب أى القضايا، وفى النفس، وفى الآفاق وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم أفلا تبصرون، وأيضا «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم».

وأحيانا يصل الاحكام النظرى عند السجستانى إلى درجة الوقوع فى المذهب المغلق والبنية العقلية والموضوعية، والمذهب القادر على تفسير كل شىء، وهضم كل شىء، الكليات القادرة على ابتلاع الجزئيات. وذلك مثل انقسام الجوهر إلى جسم وروح، وأبعاده النامى والحسى والإنسان والرسول ومقابل ذلك بالحروف الخمسة للام والهاء والباء والصاد والطاء، وانقسام العالم كله إلى أربعة اتجاهات^(١). وتقابل الموجودات الأربعة الحروف الخمسة باستثناء اللام.

(١) السابق ص ١٥-١٧.



أ- **التفاوت في الوجود.** في المقالة الأولى يتم بحث التفاوت في الوجود طبقا للعلل الأربعة بمصطلحات الكندي الأولى الهلية والمائية والكيفية والكمية إجابة على أسئلة هل، ما، كيف، لم. فالوجود يقوم على ميثاقيزيقا التعدد والاختلاف ضد ميثاقيزيقا الوحدة الفارغة الصورية التي يتمثلها الحاكم تدعيما لسلطانه السياسي. وهذا التفاوت نسبي. فبين المتفاوتين اختلاف في بعض الوجوه أو اختلاف في البعض الآخر. ومن ثم لا يثبت التفاوت جملة ولا يرتفع جملة. أما عالم العقل فليس به تفاوت على الإطلاق^(١).

ومن أجل التفاوت تستقيم أمور العالمين. فمراتب الوجود من أجل وحدته، والتنوع من أجل الوحدة، والاختلاف من أجل الوصول إلى الغاية الواحدة. فالتعددية هي الأصل باسم التوحيد وإلا كان صوريا فارغا مصمما عقيما^(٢). هو تفاوت نحو الأفضل والأصلح والأكمل. وهو توتر نحو الأفضل بعيدا عن الأزدل. فالعالم يتقدم من الأنقص إلى الأكمل، ومن الأقل فضلا إلى الأكثر فضلا^(٣). هو تفاوت من أجل التعاون والتآلف والانسجام الاجتماعي أي تقسيم العمل كما هو الحال عند الفارابي والمحدثين. هذا التفاوت هو شرعية الاختلاف، ورفض تسلط الرأي الواحد والشخص الواحد^(٤).

ويثبت التفاوت ليس فقط في الوجود، في الكون والطبيعة، بل أيضا في البشر. فأفضل المتفاوتين في هذا العالم هم البشر. فتحليل التفاوت والتعدد إنما يتم في النهاية على المستوى الإنساني. التفاوت في الجسم والتفاوت في النفس. والتفاوت في الجسم بين الحس والذات. والتفاوت في الحس في الحواس الخمس، وفي الذات بين الكم والمكان والزمان والإضافة والقوة والفعل^(٥). والتفاوت في النفس بين الفضيلة والرذيلة، وبين أصحاب

(١) السابق ص ٢٠-٢٣/٢٧-٢٩/٤٨.

(٢) السجستاني: النبوات ص ٢٤/٧-٢٨.

(٣) وهي فلسفة التفاوت المشهورة عند ليبنتز في الفلسفة الغربية.

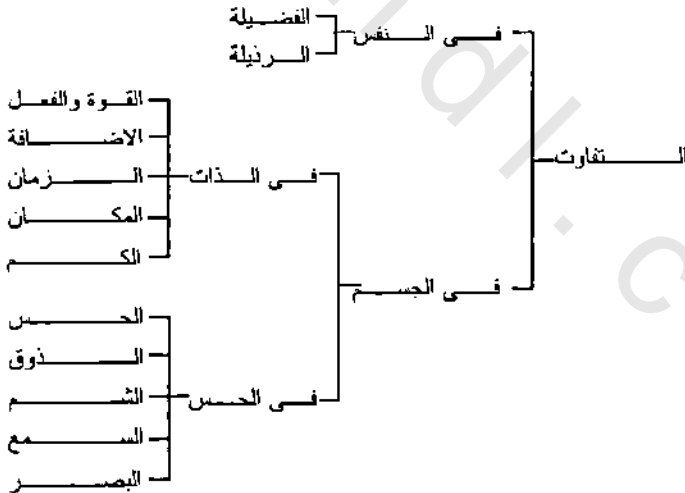
(٤) انظر دراستنا: حق الاختلاف، هموم الفكر والوطن - التراث والعصر والحداثة ص ٢٢٩-٢٣٨.

(٥) السابق ص ٢٥.

الفضائل وأصحاب الرذائل.

ويظهر هذا التفاوت في الثنائيات الأخلاقية المعروفة، الفضيلة والرذيلة، الصدق والكذب، العدل والجور، الحق والباطل، الأمانة والخيانة، البر والفجور، العلم والجهل، الحلم والغضب، الخير والشر، الشجاعة والجبن، الكرم والبخل، العفة والشره.... الخ وكما هو الحال في أحوال الصوفية.

ويستفاوت البشر في الفضائل إلى سبعة مراتب، لكل مرتبة سبع من الشعب طبقا للعدد الرمزي الإسماعيلي، من أسفل إلى أعلى: البقاء، وإرسال الرسل، وحسن التدبير، وحسن الوضع، والمنطق، والعقل، ومعرفة المبدع. ويكفي فقط ضرب المثل بشعب العقل السبع وهي: معرفة العلل والمعلولات، والعدد والمعدود، والبسيط والمركب، والمتقابلات، والعقل نفسه، ومرموزات النفس، والبراءة من التعطيل. ويتداخل الشعب فيما بينها مثل معرفة الله والعقل^(١).



(١) السابق ص ٣٠-٣٦/٤٣-٤٥.

وقد يدرك بعض المتفاوتين مرتبة غيره. فكل مراتب الوجود تقوم بوظيفة واحدة بالرغم مما بينها من تفاوت مثل الألحان المتفاوتة في النغم الكلى العام، لذلك يدرك كل نبى مرحلتين، والمرحلة السابعة عليه، والمرحلة التالية له.

وهو تفاوت في الأخلاق وفي الفضيلة وليس في العرف أو الطبقة والنسب. هو تفاوت في ممارسة الحرية والسبق في تحقيق الدعوة وأداء الأمانة.

لقد وقع الدين مقابل النوع الأفضل وهو الانسان لأن غايات السياسات وأحسنها انما هو الدين، وأفضل الحيوان وأعدلته تركيبا وأقومه مزاجا وأحسنه تقويما هم البشر. فلزم أحسن الأنواع في باب التقويم أحسن السياسات في باب الوضع^(١).

وفي صورة أعم للمراتب شعبها تشمل معرفة المبدع والطبيعيات والرياضيات والنفس. ويرتبط العقل بالحس ويتجاوز به إلى النفس ثم إلى الاستشهاد والاعتبار والاستدلال. والمنطق كله أخلاق ثلاثية بين الشيء وتجربته وضده، إيجابه وسلبه. وحسن التركيب هو بناء البدن. وحسن التدبير العمران والانسان المندى وعلاقته بالطبيعة.

وإرسال الرسل أراه الانسان والمجتمع وتأسيس الدولة. والبقاء أمور الأخرويات والمعاد بالرغم مما فيه من تشبيه وتجسيم مثل الحشوية. الفضائل العملية جزء من المنطق، وعلم الميزان يصف تقابل كل شيء مع كل شيء، بين الشريعة والحقيقة. وكل ذلك مقدمة للنبوة، الانسان والطبيعة والتاريخ^(٢).



(١) السابق ص ٩٠.

(٢) السابق ص ٣٧.

وأفضل المتفاوتين من البشر هم الرسل. وهنا تبدأ فلسفة التاريخ بالمعنى الدقيق،
تفاوت الرسل أى تفاوت مراحل التاريخ. وتفاوت الفضل فى الرسل هو تفاوت المراحل
بين السابق واللاحق، المتأخر والمتقدم.

هناك تفاوت فى الأنبياء، فى اختيار الإنسان. فالعلة التى يختار من أجلها الله
بعض عباده للرسالة ليبر مما صور الروح الأمين فى قلبه من علوم الملكوت بلسان
القوم المختلفين عن قبوله فيجرب ذلك فى مسامعهم فيكون بسط العدل، ووضع الشيء فى
موضوعه. وهو معنى تمام الحكمة وأصل العدل. الرسالة علاقة شعور بشعور، شعور
الله بشعور النبى بشعور متلقى الرسالة أى المكلف من أجل تحقيق الحكمة والعدل، ومن

معرفة المبدع	العقل	المنطق	حسن التركيب	حسن التدبير	ارسال الرسل	البقاء
الطة والمطول	الاعتبار	العام والحكمة الاحاطة، الجهل	التماع، التمييز	فى الأبدية	وقوع الرغبة	البعث
العدد والمعدود	الاستشهاد	العدل الأمانة الجور	القلب المياسة	فى الصناعة	وقوع الأمان	الصراط
السيط والمركب	ترك ما لا بأس به	الشفقة القناعة الحرص	الكيد شبهة	فى الملابس	وجوب المعاملة	التمييزان
التفات	استعمال ما به الحسن	الجود، الاتصال البخل	الزينة النفس بالمنطق	فى الحروب	لزوم التقصاص	الحساب
النفس	لنكاره على النفس	الشجاعة العقوبة أحسن	الطحل الضحك	فى النبأ	ذكر المبدع	الجزاء
رموزات النفس	بشارته للنفس	الرحمة العفو القسوة	المرارة اللون	فى الحيوان	حجر الأعمال	التحليل
البراءة من التعطيل	افادته للنفس	الصديق الوفاء الكذب	الكلينان الاحتلام	فى العلوم	رسوم المحبة	شرف الجزاء

الذهاب إلى اطلاق صلاح الناس إلى تنظيم المجتمع واقامة الدولة. فاذ قام قائم في في بعض الأدوار تجمع الناس تحت شريعة واحدة لم يتردد أحد في اتباعه ولم يشك في سلطة فيكون في ذلك دوام الصلاح لهم في المعيشة.

ولا يختار الله أحد ممن أشرك في الإمامة وكان الشرك بالإمامة شرك بالله! فبالإمامة تصح النبوة، وبالنبوة يقوم العالم^(١).

وقد رخص الأنبياء لأنفسهم ما حظروا على أممهم، وحظروا على أنفسهم ما رفضوا لأممهم. فالزعامة لها مطالبها وخصائصها. يأخذ الأنبياء أنفسهم بالقدوة حين يحظروا على أنفسهم ما يرخسون به لأممهم في مباحج الحياة، وانتفع بطيبات الدنيا والميراث وترمل أزواجهم. ويرخصون لأنفسهم ما يحظرون على أممهم مثل الإكثار من الزيجات، وهو ما قد يعتبره البعض كيلا بمكيالين. تحريم على النفس ما يحلل على الآخرين بطوالة، وتحليل للنفس ما يحرم على الآخرين أقل من ذلك بكثير. وقد ينقص ذلك من عمومية القانون الخلقى وشموله^(٢).

والأنبياء وإن كانوا في غاية الفضل إلا أنهم متفاوتون فيه، وهو ليس فضلا شخصيا أو كونيا بل مرحليا في مسار التاريخ. فالتفاوت على ثلاثة وجوه: تفاوت مع اتفاق، ومعرفة المؤمنين اختلاف الشرائع واتفاق الماهية، وعبور المراحل من أول الدور إلى آخره أي الإيمان بكل الأنبياء. الأول لليهودية، والثاني للمسيحية والثالث للإسلام على ما يبدو من طبيعة كل مرحلة مما يسهل مقارنة الأديان والحوار فيما بينها.

والتسخير تسخيران: تسخير طبيعي مثل إنزال الأمطار وتسخير إرادي وهو إرساله الأنبياء ولا يوجد أحد دبر سياسة البشر سياسة عامة غير الرسل.

(١) السابق ص ١٥/١٧/٣٨-٤١/٥٣-٥٩.

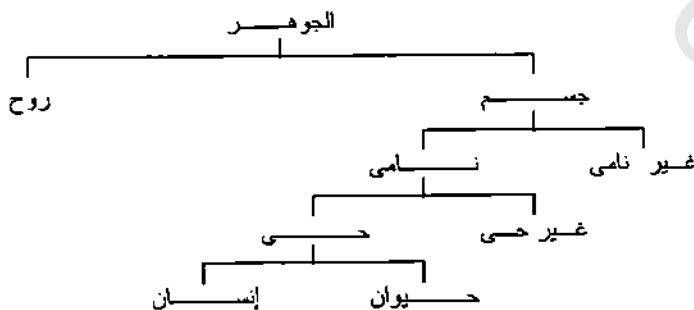
(٢) السابق ص ٧٤-٧٦.

ب- إثبات النبوة للطبيعية. وثبتت النبوة من جهة الأجناس الطبيعية الخمسة، الأجناس والأنواع والفصول والخواص والأعراض. ثم تنقسم والأعراض إلى سبعة طبقا للأئمة الاثني عشر: الحركات الكيفية والكمية، والأزمنة أى المتى، والأمكنة أى الأين، والفساد أى الوضع، والقضاء والاختلاف أى الملكية، والإضافة، والأفعال، أن يفعل وأن يفعل. يستعمل السجستانى اللاهوت الطبيعى، وليس "اللاهوت الشخصى" كما هو الحال عند أهل السنة، إثبات النبوة بالطبيعة، والإنسان جزء منها، والعقل والعلم والبرهان أجزاء فيه. هذا الالتصاق بالعالم كله وبالكون عند الشيعة قد يكون رد فعل على ضياعه وفقدانه كنظام سياسى^(١). الأجناس والأنواع منطقية طبيعية نظرا لوحدة العقل والطبيعة. الجوهر روح وجسم، والجسم غير نامى ونامى، والنامى غير حى وحى، والحى حيوان وإنسان، بالرغم من تفصيل الحى إلى فرس وبغل، والإنسان إلى محمد وخالد يزيد^(٢). النبوة إذن

(١) السابق ص ٨٩.



(٢) السابق ص ٨٩-٩٣.

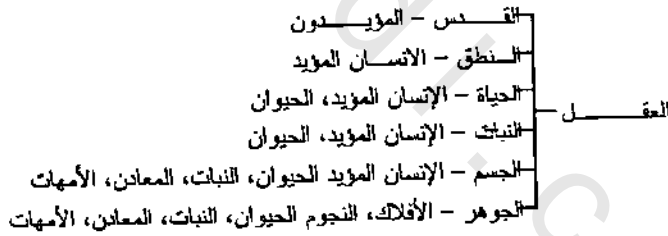


نوع من أنواع الحيوان الطبيعي، يجمع صلاح الدنيا والآخرة.

وهو تفاوت في الطبيعة، في حركاتها ومستوياتها في الحيوان والنبات والمعادن. وهو عالم التراكيب. وفي هذه الحالة لا فرق بين النبوة والفيض، بين المعرفة والوجود، بين العقل والكون، بين الله والعالم. وكلها مظاهر للعقل ويضم ست مراتب: الأول الجوهر، الأفلاك والنجوم والأمهات والنبات والمعادن والحيوان. والثاني الجسم، الأمهات المستحيلة، المعادن والنبات والحيوان، وبيزغ الإنسان المؤيد. والثالث النبات، الحيوان والإنسان المؤيد ويسقط النبات والمعادن، والرابع الحياة، الحيوان والإنسان المؤيد، والخامس النطق، الإنسان المؤيد ويسقط الحيوان، والسادس القدس وهم المؤيدون فقط الذين يفوقون البشر^(١).

والعبادة تقابل الأجناس الطبيعية. فالعبادة جنس الأجناس. وهي عبادة محضة أو عبادة شريعية، والعبادة الشريعية ست مثل: عبادة الكواكب، عبادة النيران، اليهودية، النصرانية، الاسلام ثم فرقه، التوحيد والقدرية والمرجئة^(٢).

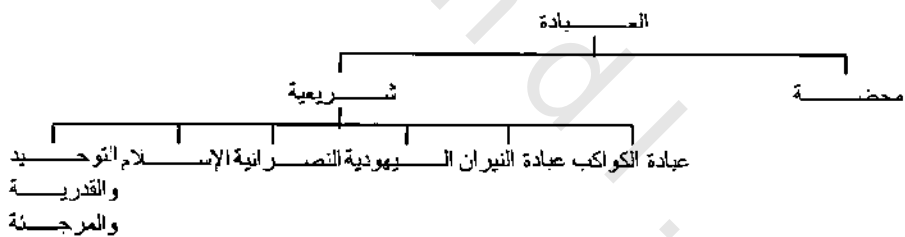
(١) السابق ص ٣٢٣.



(٢) السابق ص ٨٩.

وإثبات النبوة من جهة الخواص الطبيعية أيضا ممكن. فقرة جذب الحديد مثل قوة جذب القلوب بصرف النظر عن أيهما حقيقة وأيها مجاز^(١). الخاصية ما تعم كل النوع ولا يشارك في كل وقت أو ما يعم كل النوع ويشارك في وقت دون وقت أو ما يعم نوعا واحدا يشارك غيره أو نوعا واحدا لا يشارك غيره. وينطبق على الطبيعة والنبوة على حد سواء^(٢).

والتشابه بين الأعراض في الطبيعة والنبوة أيضا قائم. فالأعراض غير زائلة أو زائلة مثل ثبات الحكم وتجديد الشريعة. والأعراض تحول واستحالة وهي في النبوة الفسخ. وهي الرفع دون الفساد وللحامل وكذلك النبوة. وتثبت النبوة من جهة الحركات الطبيعية. فإذا كانت الحركة الطبيعية إلى الوسط ومن الوسط وعلى الوسط فكذلك النبوة إلى الوسط من نزول التأييد من عالم البسيط من قبل السابق والتالي على قلب الناطق والأساس، ومن الوسط من مثل قلب الناطق والأساس لقبول فوائد الأصلين، وعلى الوسط



(١) إثبات النبوة من جهة الأنواع الطبيعية، الأجناس الطبيعية، الفصول الطبيعية، الخواص الطبيعية، الأعراض الطبيعية، الأزمنة، الكون والفساد، التضاد والاختلاف.

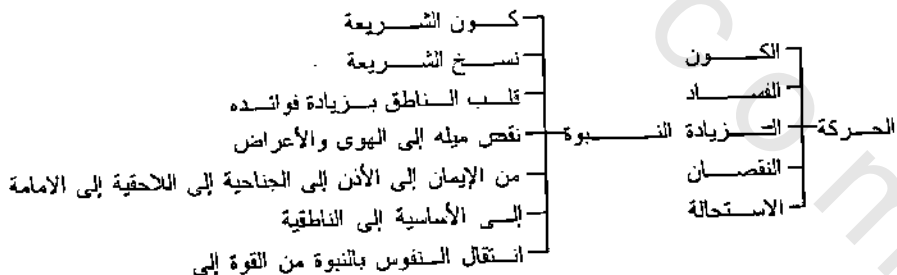
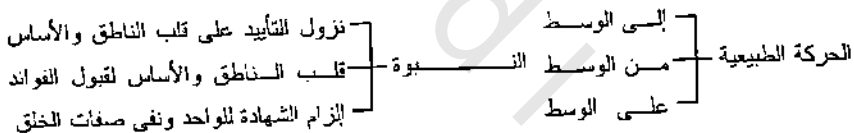
(٢)

النبوة	الطبيعية	ما يعم النوع كله ولا يشارك في كل وقت
الرسول الناظر	العزل	ما يعم النوع كله ويشارك في بعض الوقت
تأليف الشرائع	الشيب	ما يعم نوعا واحدا يشارك غيره
واجبات الرسل	القيام	ما يعم نوعا واحدا لا يشارك غيره
الإسلام لجميع الرسل	الكتابة	

مثل إلزام الشهادة للواحد الفرد للفردانية على جميع الحدود ونفى صفات الخلق عن التوحيد. والحركة الطبيعية ست كون، وفساد، وزيادة، ونقصان، واستحالة، وانتقال. والنبوة أيضا ست: كون الشريعة، فسخ الشريعة، قلب الناطق بالزيادة، نقص ميله إلى الهوى والأعراض، والاستحالة من الايمان إلى الاذن إلى الجناحية إلى اللاحقية إلى الإمامة إلى الأساسية إلى الناطقية، واستحالات انتقال الانفس من عالم الفناء إلى عالم البقاء، وانتقال النفوس بالنبوة من القوة إلى الفعل. والسؤال هو: وهل سكون الطبيعة مشابه أيضا لسكون النبوة؟ ومتى تسكن النبوة؟ فى حالة الضعف والانهايار؟^(١).

ويزداد الأمر صعوبة وتعقيدا إلى درجة الغموض فى التعرف على التقابل بين النبوة والطبيعة والوقوع فى النسق المغلق وكأن التقابل قد أصبح غاية فى ذاته كإبداع عقلى أكثر من كونه دلالة على السياسة أو التاريخ. وبعض الساحات مازالت فارغة دون تقابل^(٢).

(١) السابق ص ٩٨-١٠٢.



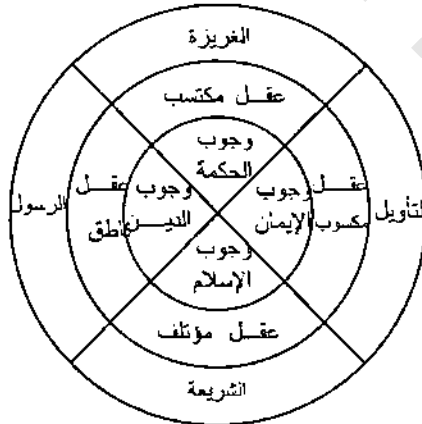
(٢) السابق ص ١٠٢.

مكسوب وهو الإيمان^(١).

وقد تكون الواسطة عند الحيوان هي الأعضاء. فالوحي عام للإنسان والطبيعة. والأمم كثيرة من الجن والإنس، الحيوان والإنسان. فالأعضاء أول رسول من الطبيعة إلى الحيوان. فالواسطة نوعان: جسماني للحيوان، وإنساني للإنسان. فطرق الوحي ثلاثة: الرسول مثل وحي محمد، والوحي المباشر مثل وحي عيسى، والتستر من وراء حجاب مثل وحي موسى. ومن ثم فإن عبادة الله من غير واسطة الرسل في العالم الجسماني باطلة. المتعبد كالمريض، والعبادة مثل الطب والرسول.

ويسهل إرسال الرسل بعد أن أصبح النطق في الإنسان جوهريا غريزيا، وأصبحت العبارة في النطق تصور فكرته قبل النطق بالعبارة. كذلك الرسالة، شيء جوهرى في غريزة الرسول، وتكون عبارته شبيهة بعبارة المنطقى تكشف عما في قلبه من وحي الله. فالمعنى من الله والتأليف من الرسول. الوحي بالمعنى وليس باللفظ^(٢). والحقيقة أن المنطق ليس كالوحي. فالمنطق فكر نظرى والوحي توجه عملى. المنطق بحث عن البرهان والوحي يقين بلا برهان.

(١) السابق ص ٥٩/٥٢-٦٥.



(٢) وهو نفس رأى المسيحي من أجل حل قضية تحريف النصوص. وهو أيضا رأى اسبينوزا والصوفية.

لذلك تثبت النبوة من جهة النفس والعقل أى من جهة الأشياء الروحانية. فنفس الحكمة وجوب الرسالة. وأول رسالة يؤتيها العقل إنما هي معرفة المبدع. تثبت الرسالة من جهة العقل، والنفس، والأعداد، والفكر والحفظ، والمحبة والغلبة، والسعادات، والكرم والشرف. إذ تظهر الأعداد والرياضيات والانفعالات في النفس^(١).

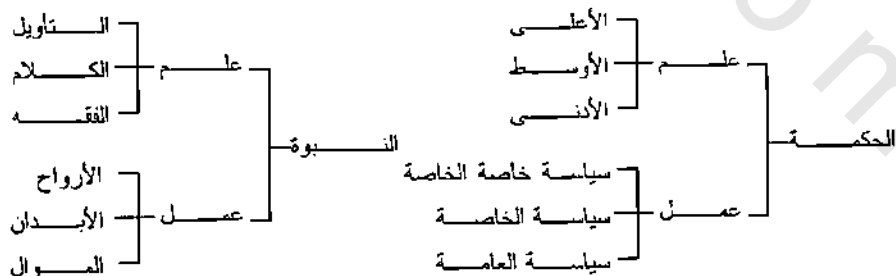
الحكمة علم وعمل، وكذلك النبوة. والعمل في الحكمة سياسة العامة مثل الأعياد، وسياسة الخاصة مثل تأديب الرجل لأهل بيته، وسياسة خاصة الخاصة، سياسة المرأ مع نفسه. وكذلك الأمر في النبوة. والعلم عند الحكماء علم الطب والصناعات للعامة وعلم التنجيم للخاصة، وعلم اللاهوت لخاصة الخاصة. وكذلك النبوة للعامة وهي معرفة الأبدان، المنافع والمضار، وللخاصة معرفة السموات والنجوم والأرض، وللخاصة الخاصة، معرفة الله والملائكة.

وقد يكون مصدر هذا التشابه أن النبوة هي الباعث على الحكمة^(٢). كما تتفق الحكمة والشرعية في العلم والعمل، تتفق أيضاً في الفضائل وفي صلاح العباد وتحقيق العدل في العالم. وإذا كانت الحكمة علماً وعملاً فالنبوة أيضاً علم وعمل. وإذا كان العلم في الحكمة ثلاثة الأدنى والأوسط والأعلى فالعلم في النبوة أيضاً ثلاثة، العفة والكلام والتأويل. وإذا كان العمل في الحكمة سياسة العامة وسياسة الخاصة وسياسة خاصة الخاصة فإن العمل في النبوة سياسة الأحوال، وسياسة الأبدان وسياسة الأرواح^(٣).

(١) السابق ص ١١٨-١٤٤.

(٢) السابق ص ٩-١١٩/١٢٣.

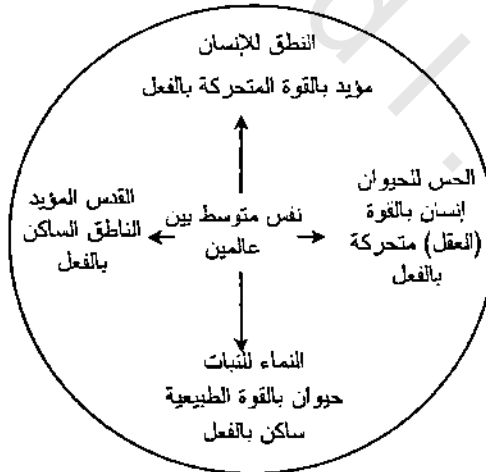
(٣) السابق ص ١٢١-١٢٣.



وتمنع الحكمة الإنسان عن كثير من هوى النفس وكذلك الرسالة تأمر بالطاعات. فالرسالة توجب ما توجب الحكمة، والحكمة توجب ما توجب الرسالة إيجاباً وسلباً. والحكمة إعطاء كل ذي حق حقه وكذلك الرسالة الأولى عن طريق العقل، والثانية عن طريق الناموس. كل منهما غاية للأخرى. والنفس متوسطة بين عالمين، النطق للإنسان المؤيد بالقوة المتحركة بالفعل، والنماء للنبات، والحيوان بالقوة الطبيعية الساكنة بالفعل على محور رأسى. وهى متوسطة على محور أفقى بين الحس للحيوان وهو إنسان بالقوة متحرك بالفعل، والنفس المؤيد الناطق الساكن بالفعل^(١).

وأول رسالة يؤيدها العقل إنما هى معرفة المبدع أى العقل فى الوجود وتجلي الله فى الخلق. هو العقل الكونى وليس العقل الاستدلالى، العقل المجسم الذى يكتشف تخلق الموضوع. وهو أيضاً العقل أساس التكليف. إذ تسقط الشرائع بانعدام العقل. وبدون العقل ينعدم التكليف. وإذا كان العقل من الله بلا واسطة والرسالة بواسطة فالعقل أعلى^(٢).

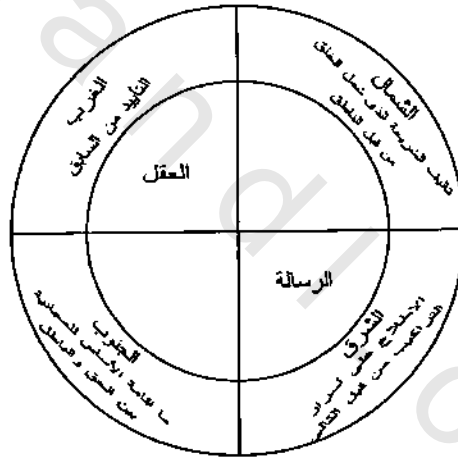
(١) السابق ص ٤٥.



(٢) السابق ص ١٢٦ - ١٢٧.

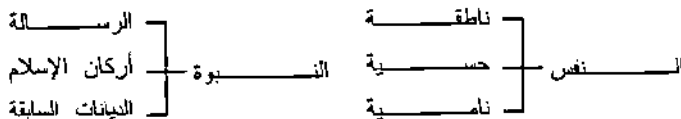
وتثبت النبوة من جهة النفس. فإذا كانت النفس نامية وحسية ناطقة، فالرسالة هي الناطقة، وأركان الإسلام الخمسة هي القوى الحسية الخمسة. وإذا كانت قوى النفس ظاهرة للعالم الجسماني وباطنة للعالم الروحاني فكذلك حدود الرسالة جسمانية: الأساس، والمتم، واللاحق، واليد، والجناح، وروحانية: الإعلان، والجد، والفتح، والخيال. النفس علة الحركات الطبيعية، والنبوة علة الحركات الدينية، النفس علة الحركات الكونية، والنبوة علة الحركة في التاريخ. وإذا كانت النفس تنمو من النباتية إلى الحيوانية إلى الإنسانية فكذلك الرسالة تتسخ وتبديل. وإذا كانت النفس الناطقة أعلاها فكذلك الإسلام أتم الرسالات، والقرآن معجز بكلامه ونظمه^(١).

وإن منزلة الحى الناطق غير المؤيد عند الحى الناطق المؤيد كمنزلة الحى الحساس غير الناطق عند الحى الحساس الناطق^(٢). فالحياة والنطق والتأييد ثلاثة



(١) السابق ١٢٧-١٢٩.

(٢)



مستويات للوعي. ونسبة الحياة للنطق كنسبة النطق للتأييد^(١). ونسبة النطق للحياة كنسبة التأييد للنطق. وقد وجب على النفس الخضوع للعقل وهو علة لها وأنس لوجودها^(٢).

وتثبت النبوة من جهة الأعداد فالأعداد من الأمور الروحانية. وهى نفس البيئة الثقافية التى أفرزت رسائل إخوان الصفا. العدد زوج والشريعة شهادتان، شهادة الوحدانية، وشهادة الوصاية. والزوج اثنان، وهى الظاهر والباطن. تتفق الرسالة مع الأعداد من جهة التقاسيم، الثلاثة ركعات وطلاق وصدقات، والأربعة فرائض ونكاح، والخمسة الزكاة، والستة الأيام، والسبعة الطواف وآيات الفاتحة وعدد أبواب جهنم وتقسيم القرآن، والثمانية مقدار الحبوب الخ. وإذا كان العدد من حيث الكم منفصلاً كالعدد فى الحساب والقول ومتصلاً فى الخط والسطح والجرم والزمان والمكان فإن الرسالة أيضاً جمع بين المنفصل والمتصل فى سبعة: آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والقائم. الأعداد رسل بعضها لبعض وكذلك الرسل. وإذا انقسم العدد إلى آحاد وعشرات ومئات وألوف فكذلك

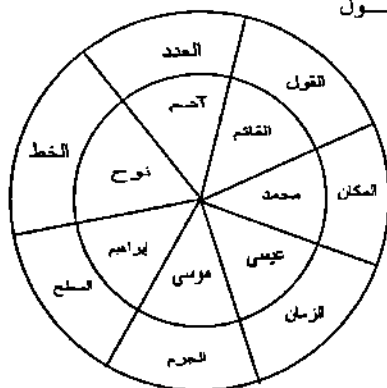


(١) لنسابق ص ٧٤.

(٢) نقاضى النعمان: المذهبة ص ٦١.

الرسالة مرتبطة بالأصول الأربعة، السابق والتالى والناطق والأساس^(١). فصحة الرسالة قائمة على صحة الأعداد، وهو دليل خارجى وليس دليلاً داخلياً.

وتثبت النبوة أيضاً من جهة الفكرة. وشوق التفكير لا يكون من جهة الاستدلال بل من جهة البحث والإلهام. فالفكر فى الحكمة يعادل الإلهام فى النبوة، العقل والقلب، التصور والحدس. ثم يتحول الفكر إلى عبارة فى اللسان، والرسالة فى القلب قبل النطق. الفكر وسيلة للتحقق من صدق النبوة وصدق الاتباع. التحقق بالفكر صعوداً وليس هبوطاً. ويأتى الصدق بعد الكذب. وكما أن الفكر يختلف بحسب الأزمنة والأوقات والأمكنة والأفعال كذلك الرسالة إذ تنمى النواميس على هيئة الزمان الذى يليق بها. وكما أن الفكرة منها خبيثة ومنها صحيحة مستقيمة كذلك الرسالة منها الابتداع والكذب ومنها الصدق والبرهان^(٢).



(٢) السابق ص ١٣٣.

وتثبت النبوة من جهة الحفظ. ويثبت الحفظ بإثبات الحافظ. إذا بطل الحافظ بطل الحفظ وكأن الحفظ يتم بعامل خارجي وليس بعامل داخلي، بالحفظ الذاتي مثل الصدق الذاتي. فإذا ما بقي الحفظ بعد غياب الحافظ كان أيضاً حفظاً صريحاً، وكل حفظ آخر يكون مجازاً بالقياس له. فقد حفظت النبوة بوجود النبي. ثم لم تبطل بعد غيبته بل حفظها المشاركون له في النوع، واجتهدوا في الحفظ. وهو أشبه بحفظ الكتاب المقدس عند النصاري المشروط بحفظ الكنيسة له وليس عن طريق التواتر. ومثل ذلك الحفظ في اللوح المحفوظ الذي نقشت به كل الكائنات التي كانت وتكون إلى نهاية الزمان.

ويمكن أن يكون الحفظ أيضاً بالقلب ابتداءً من الحواس الخمس مثل حفظ الملموسات والمذوقات والمشعومات والمسموعات والمبصرات مثل حفظ الحدود الخمسة الروحانية. وهو أيضاً الحفظ في القلب مثل حفظ المرتادين. والسؤال هو: وماذا عن الحفظ في الواقع وإبقاء الشريعة كنظام مثالي للعالم الذي لا يتم إلا بعمل الأفراد والجماعات والنظم السياسية ؟ (١).

وتثبت النبوة أيضاً من جهة الذكر. والذكر مثل الحفظ. لذلك يسمى القرآن الذكر. كلاهما في النفس قوة. وكلاهما ذكر للتاريخ وحفظ له في الزمان. والذكر طرفان ووسط معتدل. والرسالة أيضاً طرفان ووسط. كلاهما يتجدد باستمرار بدليل النسخ. كلاهما قوة في النفس الناطقة. كلاهما قوة مزدوجة مع الصورة وهو الذكر، ومع الوصاية بعد النبوة. فالنبوة مثل غيرها من مظاهر العلم والفن في النفس وقواها الداخلية. يتذكر الإنسان أحوال الخلقة من البداية إلى النهاية. وكذلك الرسالة تقوم على التذكر بالخالق وعظمته، وبتاريخ الأمم الماضية للعبرة إيجاباً أم سلباً والدروس المستفادة منها. الذكر من قوى النفس الناطقة وكذلك الرسالة والوصاية والإمامة واللاحقية والجناحية وسائر الحدود (٢).

وتثبت النبوة من جهة المحبة. فمحبة الرسل راسخة في قلوب أتباعهم أكثر من

(١) السابق ص ١٣٤-١٣٥.

(٢) السابق ص ١٣٥-١٣٧.

محبتهم لأولادهم وأهلهم وأصدقائهم وأبائهم وأمهاتهم، مما يدل على أنها من جهة رسالة الخالق ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾. والفضل موجود فى الشيء، من غيره لا يكون إلا من جهة المحبة. وهو الفضل الموجود فى المؤمنين الآتى من الرسالة. كما تورث المحبة الألفة وترفع الشحنة كما تفعل الرسالة^(١). ويمكن الاستمرار إلى ما لا نهاية على هذا النحو. كل شئ إنسانى يوجد أيضاً فى النبوة ومن ثم يظهر الاتفاق بين الطبيعة والوحى، بين التجربة الإنسانية والنبوة.

وتثبت النبوة أيضاً من جهة الغلبة. وهى غلبة إيداعية يظهر بها الرسل وينتصرون على أعدائهم مما يدل على صدق النبوة بالرغم من تعارض الغلبة مع المحبة. كما أن الغلبة قهر، والقهر ليس برهاناً للصدق. فالأقوى ليس هو بالضرورة الأحق. وهى غلبة موهوبة من الله تمكن الرسل من تحقيق سياساتهم وإضعاف قوة صاحب الملة. فهى قوة إلهية مما يسهل استخدامها أحياناً من السلطة السياسية فيزداد القهر قهرين، غلبة النبى بالدين، وغلبة الملك بالدولة. وقد تكون الغلبة بالكلام أى الأمر والنهى والشرائع وبلغه العصر، الثقافة والإعلام. وماذا عن المنكرين للنبوة والوحى، أين غلبة الرسل ؟ ^(٢).

وتثبت النبوة من جهة السعادات. فالسعادات نوعان دنيوية وأخروية. والدنيوية أربعة أنواع: صحة البدن، وكثرة الأحوال، وكثرة الأولاد والأبوة والبنوة، والعز والرياسة. والأخروية نوعان: الخلاص من العقاب، والوصول إلى الثواب. وكذلك النبوة خاصة النوع الرابع من السعادة الدنيوية التى لا تكون إلا بالرياسة. فالرياسة لا تكون إلا من جهة الرسل. ف رؤساء العالم الذين بأيديهم الأحكام والملك، براهمة وأساقفة أو جواليت أو سواودة، أو علماء أو فقهاء. والسؤال هو: وماذا عن الدول التى لا أديان لها، ألا تعرف السعادة ؟ وماذا عن الذين لهم الحكم والسلطة بلا نبوة مثل القادة والزعماء وهم ليسوا أنبياء هل يكونون أنبياء بالضرورة ؟ هل ماركس وماونسى تونج أنبياء ؟ ^(٣).

(١) السابق ص ١٣٧-١٣٩.

(٢) السابق ص ١٣٩-١٤٠.

(٣) السابق ص ١٤٠-١٣٢.

وتثبت النبوة أخيراً من جهة الكرم والشرف. فإذا كان الإنسان أشرف العالم وكان كل شيء يستحق أن يكون شريفاً، فالجامع لنوع الإنسان بتملكه عليهم أشد استحقاقاً لأن يسمى شريفاً وهم الرسل المستحقون لاسم الشرف. وإن كان شرف الإنسان بمقدار شرف ما يبلغه من أهل الصناعة فلا أشرف من الرسل الذين أجادوا صناعة التبليغ والإعلان والصدق. وإذا كان الإنسان شريفاً فإنه لا يتعامل إلا مع ما هو شريف مثله. ولما كان الملك شرفاً لذوى المملكة وجدت النبوة على نمط الملك، الأول للعالم وللآخر. وكثيراً ما يختلط الأمر فيتحول ملك الدنيا نبياً بل وإلهاً كما هو الحال فى السلطة السنية كما يتحول نبي الآخرة ملكاً بل وإلهاً كما هو الحال فى العقائد المسيحية^(١).

والأنبياء متفقون فى الحقائق مختلفون فى الظواهر. هم من معدن واحد ولو اختلفت أوضاعهم. فقد عاينوا العالم البسيط وقدروا على مخاطبة الروحانيين فوجب أن يكونوا على اتصال بهذين الجوهرين مهما اختلفت أوضاعهم وأزمنتهم وأمكنتهم. وحدة المنبع وتعدد المصب. وحدة الأصل وتعدد الفروع، وحدة الدين وتعدد الشرائع. كما تختلف اللغات والمعنى واحد. وكما تختلف المهن والصنائع وكلها تصدر من منبع واحد وقصد واحد هو القلب. ولو لم يكن الأنبياء من مصدر واحد لما جازت شهادة بعضهم على بعض، وتصديق بعضهم لبعض. وكما أن العدد هو أصل الحساب، والأسطوانات لأربعة أصل الموجودات فكذلك النبوات أصلها واحد^(٢).

ويقبل الرسل الرسالة من المرسل عن طريق خاطر فى النفس ثم التعبير عنه بالأسنة قولهم وبلغاتهم. المعنى من الله واللفظ من النبى. وبين الخاطرات واللغات مناسبات روحانية ومشاكلات نفسية سماها الفقهاء "أسباب النزول" قبل تحويل الواقع الاجتماعى إلى ظواهر نفسية.

ويتأكد الناطق بأن اللفظ الذى اختاره النبى مطابق للمعنى الذى قذفه الروح الأمين

(١) السابق ص ١٤٢-١٤٤.

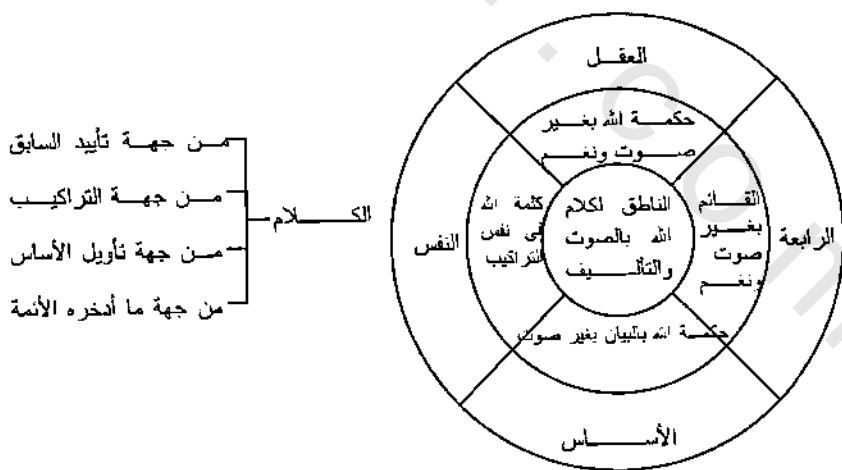
(٢) السابق ص ١٤٥-١٨٠.

فى القلب من صناعة الأشياء ليبلغه إلى الأمة فيؤكد الاصطلاح، الموضوع ودلالته على الزمان. فالناطق هو المفسر المجتهد الفقيه المجدد لمعانى الألفاظ طبقاً للحاجات المتغيرة لكل عصر ومفاهيم الخير والشر والتحليل والتحرير، والدلالة بالكل على الأجزاء مثل ال ل هـ التى هى مجرد حروف متفرقة ولكنها مجتمعة تدل على الله.

النبوة إذن فى حاجة إلى واسطة. فالمقبول إما عن طريق الوهم بالخاطرات والتفكر فى خزائن العقل أو عن طريق السمع بالكلام. ويبطل طريق السمع لأن المتكلم فى حاجة إلى متكلم إلى ما لا نهاية. ولا ضرورة لنبي لأن الأمة قادرة على السمع. إذن لا بد من القبول بالخاطرات. وهى نوعان: خطرات الرسل التى قد تتعرض لسوء المزاج وخطرات الأم وهى مقدسة. فالرسل ليسوا معصومين فى حين أم الأمومة كذلك. وهذه هى الطرق الثلاثة التى وصفها القرآن: الرعى أى السابق، ومن وراء حجاب أى التماهى مثل حى بن يقظان بين الطبيعة والعقل، وإرسال الرسول وهو الناطق.

فالكلام أولاً فى عالم النفس والعقل عند الأساس وعنصر رابع. يتحول إلى وحى بغير صوت ونغم بل بمجرد بيان أول وتراكيب أولى عند الرسول. ثم يحوله الناطق إلى كلام بالصوت والتأليف^(١). الكلام من جهة تأييد السابق، ومن جهة التراكيب، ومن مهة

(١) السابق ص ١٥١.



تأويل الأساس، ومن جهة ما ادخره الأئمة. له تأويل، باطن في القلب ظاهر في الحواس. يفيض إفاضة محضة في قلوب الناشئين في أدوار السתר.

رابعاً: التاريخ الدائرى.

التاريخ الدائرى هو التاريخ الأفقى نفسه دون فكرة التقدم المستمر وبداية الأدوار والأكرار. فالتاريخ هو الزمان، والنبوة أيضاً تقع فى الزمان. والزمان بطبيعته زمان البشر وزمان الأحياء، له نشأة ونمو واضمحلال وفناء.

هناك إذن صلة بين فلسفة التاريخ وفلسفة السياسة. فلسفة التاريخ هى تحويل التاريخ إلى طاقة سياسة من أجل تغيير دولة الظلم والجور إلى دولة العدل والقسطاس. وفلسفة السياسة هى المصعب النهائى لفلسفة التاريخ. هى فلسفة التاريخ متحققة فى لحظة زمنية محددة. هو الماضى الذى يكتمل فى الحاضر كما أن فلسفة التاريخ هو الحاضر المقروء فى الماضى من أجل تأصيل السياسة. هما فلسفة واحدة، الأولى تقرأ السياسة فى التاريخ، والثانية التاريخ فى السياسة. التاريخ عبرة الماضى للحاضر، والسياسة تحقيق نبوة الماضى فى الحاضر. وتبرز فلسفة التاريخ من الفلسفة السياسية. فالأئمة يطبقون الشريعة، يملئون الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. وهى سنة الله فى خلقه (١). ويتساءل القاضى النعمان عن الإمام بذاته، وهل يعلم الغيب؟

وتبرز فلسفة التاريخ أحياناً على استحياء من فلسفة العقائد. فالتاريخ ليس له موضوع مستقل إلا من خلال قصص الأنبياء. ويتضح ذلك فى "الرسالة المذهبية" للقاضى النعمان، من الإذهاب وليس من الذهاب، إذهاب وساوس الشيطان وإحضار نور القلب وهداية العارفين. وهى رسالة تدعو إلى الإمام الناطق العلیم بالبولطن منذ البداية. وتتضمن مجموعة من الإجابات عن عدة أسئلة عن تفسير أسماء الله الحسنى ونفى الشرك بالله وبيان رتبة القائم وأبواب الصلاة ومناسك الحج تستغرق الفصل الأول كله. والفصل الثانى خمسة أسئلة أخرى عن الحدود العلوية السبعة. والفصل الثالث يضم ثلاثاً وأربعين

(١) السجستانى: الزبائيع ص ١١، القاضى النعمان، المذهبية ص ٤٧ / ٨١-٨٤.

سؤالاً عن موضوعات فقهية. الظاهر هو علم الفرائض، والباطن هو علم السياسة، مصدر فلسفة التاريخ. الظاهر العبادة العملية، والباطن العبادة العلمية .

تظهر فلسفة التاريخ من ثانياً التوحيد ضد الشرك ورتبة القائم القادر على فهم التوحيد بالتأويل، وتأتى الحدود العلوية السبعة ودور الناطق والمتولى له والأساس حتى انقضاء الدور، والأنجم المديرات ومنازل النجوم. وتأتى المادة وتنصرف من الأساس. وتسقط مواد الناطق عن أساسه بعد ارتقائه وذهاب غيبته، ثم البحث عن الأئمة، من مضى منهم ومن بقى.

ويظهر قصص الأنبياء، المصدر الثانى لفلسفة التاريخ حديثاً فى قصة موسى والعبد الصالح، وقصة مريم وقنوتها إلى ربها، وعيسى من أنثى بلا ذكر، والمسيح بلا هجرة، وإبراهيم والقبلة الذى وفى ورفع القواعد، واتخاذ موسى السبت عيداً، وعيسى الأحد، ومحمد الجمعة، ورواية آدم وحواء والجنة وإبليس والهبوط إلى الأرض، ومعنى أن عيسى كان وجيهاً عند الله ومن المقربين، ومعنى قول الرسول كل من لا يؤمن ببعثتنا ويقر برجعتنا يكون بريئاً منا"، وقوله أيضاً "تمام أمرنا بسبعة: ثلاثة منا وأربعة من غيرنا" وهى أحاديث رواها أئمة الحديث الشيعة، ومعنى بقاء النبوة فى الذرية والعقب، ومنزلة النطقاء^(١).

كما تظهر فلسفة التاريخ من مصدر ثالث نشأة العالم ونهايته، الموت اثنان، والحياة اثنان، وهل كان قبل آدم أناس، ونشأة الخلق وكونه وكيف تتصور الصور الروحانية والجرمانية يوم ظهور القائم، ويوم الخالق يعاد ألف سنة مما يعد المخلوقين، وجمع الأولين والآخرين أى كل التاريخ لميقات يوم معلوم، ومستقر أرواح المتوفين إلى وقت ظهور القائم^(٢).

وتظهر فلسفة التاريخ من علم التفسير، وتفسير بعض الآيات مثل ﴿يا أيها المزمِّل﴾،

(١) القاضى النعمان: الرسالة المذهبية ص ٢٨ / ٤١ / ٥٥-٥٧ / ٦٧-٧٤ / ٧٩.

(٢) السابق ص ٧٩-٨٠.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ...﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ لِلصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ إما مخاطبة للرسول أو إعلاناً عن الفترة. ويمكن تفسير القرآن كله على أنه فلسفة في التاريخ، منذ بداية الخلق حتى نهايته، وعهد الذر الأول، وحمل الأمانة، وتطور النبوة، وانتهاء الأمم^(١).

كما تظهر بعض الدلالات الفقهية على أنها مؤشرات على الأدوار والأحوال عن حكم الخمر والميسر والزنا والقتل، وسبب الختم باليمين ثم اليسار، وضم اليد إلى الصدر واليمين على اليسار^(٢).

وأخيراً كل شيء يمكن تأويله على أنه فلسفة للتاريخ مثل علوم الملكوت الدال على المعبود وتواتر الرسل، وحد العلم، وأهل الظاهر، وأهل الباطن، وعلم المؤمن الذي يصبح علماً نفسياً. فلسفة التاريخ إذن فلسفة تأويلية لكل شيء، العقائد والشعائر، الماضي والحاضر، الأشخاص والجماعات، العوالم والأحوال^(٣).

١- زمن النبوة. وكما يخرج التاريخ من النبوة تثبت النبوة من جهة الأزمنة أي بالتاريخ، يتولد التاريخ من الزمان كما يتولد الزمان من النبوة. الزمان هو الذي يعطى النبوة مادتها، والنبوة تعطى الزمان صورته. وكما ظهر شرف الزمان بالشرائع الموضوععة لكل وقت منه، لكل يوم وشهر وسنة أظهرت الشريعة أيضاً شرف الزمان عند طلوع الشمس وغروبها وتوسطها الفلك بأن أوجبت على الأبدان الصلوات فيها وإلا مضى الزمان دهرًا بلا قيمة. الزمان قبل ظهور الشريعة خراب لا عمارة فيه ثم عمرته الشريعة بما أوجبته فيه. الشريعة هي التي أعطى الزمان شرفه في اللحظات المتميزة.

(١) هناك ١٦ آية وحديثان.

(٢) القاضي النعمان: المذهب ص ٦٠/٦٣-٦٥/٧٦.

(٣) من العقيدة إبن التوراة جاء النبوة المعناد (التاريخ العام) جاء الإيمان والعمل. الإمامة (التاريخ المتعين).

والدليل على أن النبوة علة ما يتولد الزمان منه أنه قابل النبوة قد يخبر الناس بما يكون في الزمان المستقبل من النبوات.

ودليل آخر أن النبوة علة الزمان أن أوامر النبي قد غلبت الزمان على إظهار أفعال النبوة وقهرت أفعال الزمان لأنها ليست على نظم واحد بل تتقدم وتتأخر، نقل أو تكثر في حين أن أفعال النبوة على حال واحدة بلا تقديم ولا تأخير، ولا تقليل ولا تكثير. فالزمان هو الذي يعطى النبوة وجودها التاريخي ومسارها الزماني. فتظهر النبوة من قبل السابق والتالي، ويظهر الأكثر والأقل. ومن ثم اتفقت النبوة في أوضاعها ومعاشها مع الأزمنة في أوقاتها وساعاتها وأيامها وشهورها وسنينها وجميع أقسامها (١).

لذلك تثبت النبوة من جهة التضاد والاختلاف ووجودهما في شرائع الرسل والمرسل في آن واحد. فقد يأمر الرسول وينهى بما يضاد أوامر الرسول السابق ونواهيه مع إقراره برسالته. وكلاهما صحيح. وقد تابع الفقهاء اختلاف الأنبياء، واختلفوا فيما بينهم، وكل شئ فيه قولان، والكل إلى رسول الله منتسب. وكلما اختلفت الشريعة في الوضع والترتيب ظهرت كلماتها ومنفعاتها، والكل له الفضل. فالنبوة صحيحة حتى مع وجود أضدادها بما في ذلك الضلالات المخترعة والبدع المؤسسة (٢).

(١) السابق ص ١٠٢-١٠٧.

(٢) السابق ص ١١٢-١١٤.



والتضاد فى الحكمة وفى النبوة وفى النبوة واحد، منطق واحد يحكم الاثنين فى التضاد ومن جنس واحد عند الحكماء والأبيض والأسود وعند الأنبياء الصوم والإفطار. والتضاد تحت جنسين مختلفين عند الحكماء العدل والجور وعند الأنبياء النصارى والمسلمون. والتضاد كجنسين فى الحكمة، الفضيلة والرذيلة، وفى النبوة الإسلام والنصرانية.

أ- نسخ الشرائع. والرسول أكثر من واحد نظراً لاختلاف الأوضاع. فقد أصبح الشئ مأموراً به فى عصر منهياً عنه فى عصر آخر، مرغوباً ومرهوباً على التوالي، حلالاً وحراماً وكلاهما من مصدر واحد على حقيقة روحانية واحدة. لذلك لا يمكن لرسالة واحدة أن تجمع تطور البشرية كله إذ تتطور الشريعة بتطور الزمان، ويتغير الناموس بتغير العصر.

لذلك وجد التفاضل فى الرسل. ولا يعنى التفاضل اختلافاً فى القيمة، فالك من مصدر واحد ومن ثم القيمة واحدة. الفضل فى المرحلة التاريخية، السابق واللاحق، المتقدم والمتأخر. فالتقدم جوهر الزمان وبالتالي جوهر النبوة.

إذا ما انقضى الدور وقام بالرسالة غيره، وجد التراكيب فى هيئة مخالفة لما كانت عليه أيام الرسول السابق فيضع شرائع متفقة مع التراكيب الجديدة. فمن أجل اختلاف الأوضاع وجب تعدد الرسل. والشريعة سياسية دينية لمصلحة العباد، والطب سياسة بدنية لمصلحة حفظ الصحة. ولما اختلفت أوضاع الطب اختلفت السياسات الطبية من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان. كذلك تختلف الشرائع طبقاً للأزمنة والأمكنة. ولما كانت الشرائع تضعف بعد قوة لزممت شرائع أخرى قوية تحل محلها حتى تتجدد باستمرار طبقاً للعصر (١).

وكل رسول يفضل الذى تقدم درجة أو درجات. وليس الفضل بشخصه بل بتقدم المرحلة، فضل المتقدم على المتأخر، واللاحق على السابق، والجديد على القديم، والناسخ

(١) السابق ص ١٦٠-١٦٣.

على المنسوخ، والأواخر على الأوائل، والاجتهاد على التقليد، والتغير على الثبات، والوضوح على الغموض، والمحكم على المتشابه، والمجمل على المبين، والحقيقة على المجاز، والمأول على الظاهر.

ونظراً لتسارع إيقاع التطور فإن النسخ يقع أيضاً داخل الشريعة الواحدة كما هو الحال في الشريعة الإسلامية والوعي الانساني في سبيل الاكتمال. فالنسخ نوعان. النسخ الكلي بين المراحل، مثل شرائع آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى محمد، والنسخ الجزئي في آخر مرحلة من المكي إلى المدني، بل وداخل المدني نفسه^(١). وهذا ليس اختلاف في ذات الشريعة بل لسعة القدرة وتشابك المصالح وتسارع الزمن وتغير الأحداث.

ولقد أوجبت الرسل على الأبدان شرائع ونواميس ليكون ذلك تذكرة للنفس وإرشاداً لها لمعرفة الله بعيداً عن مزاج البدن. فالشريعة للأبدان أى للظاهر وليست للنفس أى للباطن. الشريعة للبدن والمعاد للنفس. مهمة الشريعة كبح جماح الشهوات وزجر النفس وترويضها. فهي مهمة قمعية روعية. وتذكرهم بأن لهم معبوداً وهم عبيده، وأنه مالكهم، وأن طاعته فرض عليهم. فقليل من الناس من يعرفونه بالاستدلال. فالشريعة لمن يعرف الله عقلاً. والترغيب والترهيب لمن يعرف السعادة والشقاء في ذاتهما. وربما يكون ذلك دوراً، الشريعة من المعبود، والمعبود من الشريعة دون حرية داخلية أو إبداع ذاتي. والسؤال هو: كيف تعتمد أيديولوجية المقاومة على الاشراف؟ هل لتفريغ فكر السلطة العليا وسلخ الإنسان عن الواقع لتقويضه ومن أجل تكوين جماعة سرية مغلقة تعمل ضد الدولة، وتطيع الإمام طاعة مطلقة^(٢).

وترفع الشرائع نظراً لأنها لم تعد قادرة على مواكبة الزمن والتغير وعجزها عن تدبير سياسة المدن. تخرج الأمة عن طاعة الأئمة والأولياء إلى طاعة الطواغيت. فيأتى

(١) من العقيدة إلى الثورة جـ ٤، النبوة والمعارض ١٠٦-١٣٩.

(٢) السابق ص ١٧٥-١٧٧.

كل رسول ويعظم بيتاً لشرفه ويسميه بيت الله. ويأمر أمته بالسعى نحوه ويقضى بطاعته ويفوض الإمام لخدمته. هكذا فرض الصيام على المسلمين واليهود والنصارى وعبدية الأوثان والمجوس تقوية لأهل الحق على أهل الباطل. وفرض الغسل على الجنابة لمجانبة أهل الحق إعطاء الفضل لأنفسهم. أما الصلوات والطهارات والزكوات فإنها من أجل مساعدة المحتاجين ونظافة البدن وطهارة النفس في ظاهرها. ولا ترفع الشرائع جملة واحدة من القائم بنفسه عن الأمم بل الأمم هي التي ترفعها حتى يشرق القائم عليها بنور ربها بعد أن وجد أن الشرائع منحلّة، والدماء مسفوكة، والناس يكفر بعضهم بعضاً. غابت الرحمة، وعم الجور والخيانة. أهل الإيمان مقهورون مغلوبون وأهل الجهل والنفاق قاهرون غالبون. فتأتى الصيحة الواحدة، صيحة العلم في وجه أهل الظاهر والتقليد فيرتفع الفساد، وتبلغ النفس حظيرة القدس. وهكذا يتم تأويل الشريعة لصالح المقاومة. فالشرائع منها محكم، وهو ما لا يكون صلاح العالم إلا به، ومتشابه وهو ما يمكن أن يكون للعالم صلاح بفقده (١).

وكما يبلى الزمان وينشأ كذلك النبوة تبلى وتتشأ. وتبلى الشريعة المتقدمة وتتسخها الشريعة الجديدة (٢). وهذه هي العلة التي من أجلها لم تكن النبوة متصلة من جهة الشريعة. فجميع الحركات العلوية اجتمعت في شريعة واحدة. ووجوب الشريعة لإظهار ما فيها من الصلاح والسكون لأهل العالم. فلو توالى أصحاب الشرائع لم يستقم العالم على سياسة واحدة. فالنسخ لا يعنى الإزالة والقطع والمحو بل يعنى التغير من خلال التواصل (٣).

وهناك عدة أسباب لنسخ الشريعة. فبعد مرور زمن طويل تصبح الشريعة غير متلائمة مع روح العصر الثاني خاصة بعد تقدم الإنسان في مجال العلم والتطور وتوسع

(١) السابق ص ١٧٧-١٨٠.

(٢) السابق ص ١٠٤-١٠٥ اليهود يبتلون النسخ دفاعاً عن أنفسهم ويثبتونه الشيعة دفاعاً عن الإمامة، والسنة بين الإبطال لآخر مرحلة والإثبات للمراحل السابقة.

(٣) السابق ص ٧١-٧٤.

مداركه وعقله، مما يستلزم تغيير الشريعة حتى تواكب روح العصر ومسار الزمن. كما أن جسم الإنسان ذو نهاية محدودة يصل إليها بعد مراحل، والشريعة ذات نهاية محدودة عندما تصل إليها تصبح قابلة للنسخ. والشريعة مثل الحياة، تتطور بتطورها. وكما تنتهى دورة الجسم ليبدأ جسم جديد كذلك ينتهى دور الشريعة لتبدأ شريعة جديدة. ولو ترك الناس جميعاً على شريعة واحدة واعتادوا استعمالها وتعودوا عليها فإنها تتحول إلى عادة وتفقد وظيفتها كمؤشر على الطاعة. وقد تضيع منها الرهبة والرغبة، وبهما صلاح الدين والدنيا. لذلك لزم تجديدها حتى تؤدي وظيفتها فى الطاعة والسيطرة على الإرادة وإفراغ الوسع البشرى (١). ولما تضمنت الشريعة حكمة مستورة، ولا يمكن جمعها كلها فى شريعة واحدة لزم تعدد الشرائع وكشف كل شريعة أحد جوانب هذه الحكمة طبقاً لحاجات كل زمن ومتطلبات كل عصر. وتراكم الخبرات يؤدي إلى إنكار الجيل اللاحق آراء وأقوال وأفعال الجيل السابق وأنماط حياته. فالجديد يجب القديم حتى لو كان هناك أحياناً حنين إلى القديم كنوع من تهييج الذكريات والرغبة فى التواصل، إذا ما تأزم الحاضر، وتوقف المسار نحو المستقبل. ولم تستقم الكواكب السبعة على فصل واحد. بل قد يفسد كل كوكب فعل الكواكب الأخرى إن تكن لهما شركة فى فعل ووضع عالم الدين بازاء عالم التراكيب. فالتقدم والتعدد والصراع سمة الكون وليس فقط سمة البشر. وأخيراً إن اختلاف الشرائع يوجب البحث والاستطلاع عنها وعن ما يثبتها، فلو اتفقت الشرائع كلها لم توجب بحثاً ولا استطلاعاً فيبقى الناس فى تيه وحيرة، وعمى وجهالة. وهو برهان يقوم على افتراض النقيض (٢).

ولا يعنى النسخ التغيير والتبديل والانقطاع فقط بل يعنى أيضاً الاستمرار والتواصل محققاً جدل الثابت والمتحول، الثبات والتغير من أجل تحقيق تغيير من خلال التواصل أو التواصل من خلال التغيير (لما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها).

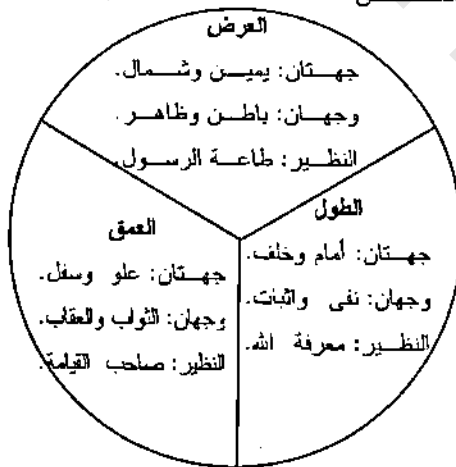
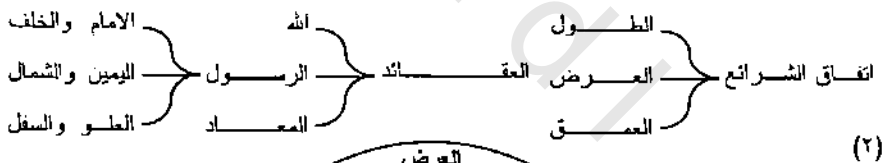
(١) السابق ص ٧٦ ٧٨.

(٢) وهو ما لاحظته أيضاً برجسون وضرورة تجدد العادة بالدافع الحيوى والطاقة الروحية رفضاً للرتابة.

لذلك قد تقع بين شريعتين مشاركة فى التحليل والتحریم. فتشارك الشريعة الجديدة الشريعة القديمة فى بعض وجوه لئلا تنفر عنها النفوس فتكون استقامة الملك لصالح الدين موجودة وحتى لا يحدث اضطراب وحيرة وشك فى نفوس الناس فيقعون فى النسبية ثم اللاأدرية ثم العدمية، وحتى لا يظهر الناس تعانداً وتناقضاً بين الرسل فيؤمن بالبعض ويكفر بالبعض الآخر. وكلها حجج نفسية تربوية من أجل الإبقاء على التراكم الكمى فى التاريخ الذى يؤدى إلى تغير كیفى.

وتتفق الشرائع فيما بينها فى الطول والعرض والعمق، فى الإيمان بالله والرسول وباليوم الآخر^(١). ويتأويل شيعى الطول هو الإمام والخلف أى معرفة المبدع بالنفى والإثبات. والعرض اليمين والشمال أى أن دعوة الناطق طريقان، اليمين طريق الحقيقة، والشمال طريق الظاهر. والعمق هما العلو والسفل. فانه يمثل مسار التاريخ، التقدم أو التخلّف. والرسول يمثل اتجاه المجتمع، يميناً أو يساراً. والمعاد يمثل بعد المثال والواقع. المفارقة والحلول، التنزيه والتشبيه^(٢).

(١) السابق ص ٧٨-٨٢.



والنسخ يدل على قبول اللاحق للسابق وليس رفضه. كما يدل على أن كليهما، الناسخ والمنسوخ، من معدن واحد (١).

وتختلف التغيرات الكلية في العقب والأزمة والدهور فتخرب العامرة، وتعمر الخربة، ويصبح الأعزّة أدلة، والأدلة أعزّة. فالرسل من معدن واحد، وتختلف أوضاعهم وشرائعهم فيصبح الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمأموراً منهيّاً، والمنهى مأموراً دون أن يتغير الأصل، النبوة في الزمان، كالثابت في المتحول، والوحدة في التنوع.

وقد اثبت الرسل جميعاً معاينتهم لما لا يخطر على قلب بشر، أحدهم كلم الله، والآخر روح الله، وقول ثالث أنه دنا منه حتى رآه. والكل يقول بأنهم عاينوا الجنة والنار وساكنيها. كلام الله إذن له حدوده العلوية والسفلية. أما كلام المتعالى الخالى من المقابلات، من جهة أمره المحض فهو متعال لا يقع عليه خلقه بل هو علة جميع المخلوقين الجسماني والروحاني، الكثيف واللطيف.

والعجيب إثبات النبوة أيضاً من خلال الأمكنة. فالوحي يختلف باختلاف الزمان "الناسخ والمنسوخ"، وباختلاف المكان "أسباب النزول". فقوام الأنفس الناطقة في أمكنتها الدينية. ولا يعنى المكان هنا السماحة بل يعنى المكانة والقوامة بالذات والوضع. المكان هنا له معنى مجازى. فالنبوة لا توجد إلا في مكان وزمان وعند شعب وبلغة وفى واقع سياسى واجتماعى وثقافى معين. يعنى **المكان** هنا النفس ومعتقداتها وبيئتها أى مكانها المعنوى وواقعها الفكرى (٢). كما قد يعنى المكان الأماكن الشريفة ذات الدلالة من بقايا الديانات القديمة مثل مكة والمدينة والمساجد والصوامع والمعابد والأديرة والمصليات والكنائس والقدس مع أن الأرض كلها طاهر لا تمايز فيها «جعلت لى الأرض مسجداً طهوراً».

ب- النبوة والملك. وقد يضاف الزمان إلى واحد من الملوك، ملوك الملة. فيقال

(١) السابق ص ١٤٩ - ١٥٣.

(٢) السابق ١٠٧ - ١١١.

إن الزمان هو الملك. إذا فسد فسد الزمان، وإذا صلح صلح الزمان. ومع ذلك هناك فرق بين النبوة والملك. المملكة لا تقوم إلا بالنبوة. النبوة منة من الله على من يشاء من عباده، والمملكة منتقلة بين الناس. النبوة تنزع الملك وتضمه إليها في حين أن المملكة لا تستطيع أن تنزع النبوة وتضمها إليها. النبوة لا تحكم بأحكام الملك في حين تحكم المملكة بأحكام النبوة. أحكام النبوة معدودة ومتساوية ومتوازنة وأحكام المملكة غير معلومة ولا معدودة ولا متساوية أو موزونة مجرد بحث ورأى. النبوة موجودة في بقعة غير منتقلة في حين لا تخلو بقعة من مملكة. النبوة ذات أسماء مختلفة في حين أن المملكة مرتبطة باسم الملك. النبوة لا يمكن إرثها كلياً أو جزئياً مثل الإمامة والوصاية في حين أن المملكة يمكن توريثها للخليفة، وربما فات اللاحق السابق. في النبوة يذكر الرسول والإمام عند الأنبياء في حين أنه ينقص ذكر الملوك السابقين في المملكة. تجمع النبوة مكارم الأخلاق في حين قد يجمع الملوك مساوئ الأخلاق. ولا ينال النبوة أصحاب الفدالة في حين قد يكون الملوك منهم.

هذا التقابل بين النبوة والملك، بين الخير والشر دعوة ضمنية للملك الإلهي أو الحكم الديني. وهو تقابل صوري لا يطابق الواقع. فقد تكون هناك نبوة إنسانية مثل الكونفوشيوسية والمناوية والبوذية والزرادشتية. وقد ينشأ صراع بين الاثنين ويكون فيه النصر لأحدهما على الآخر كما حدث في العصر الوسيط الأوربي، انتصار الكنيسة على الدولة أولاً ثم انتصار الدولة على الكنيسة ثانياً. وهناك نبوة تحكم بأحكام الملك مثل داود وسليمان، ومملكة تحكم بأحكام النبوة مثل نظام الخلافة الإسلامية. وقد تكون هناك بعض الأحكام الجائرة في الشرائع القديمة وبعض الأحكام العادلة في الممالك القديمة. وقد لا تخلو بقعة من نبوة كما لا تخلو بقعة من مملكة (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير). وقد تكون النبوة في نسل النبي مثل المملكة، وقد يكون الملك ليس بالضرورة ابن ملك بل قد يكون أخوه أو قريبه أو حتى غريمه. ولا يذكر كل نبي في حين قد يذكر الملوك مثل الاسكندر ونابليون. وقد توجد أمة عاصية لا ترجو الثواب من الله في مقابل مملكة تخشى القانون وتطيع الملك. وقد تكون أمة مرذولة مثل اليهود في عصر موسى أو المسيح وقد

يوجد ملوك مستبثرون متحضرون مثل فراعنة مصر القديمة. وقد يكون الملوك من أصحاب الكرامة، ويشاركون مع الأنبياء من أصحاب الكرامة أيضاً في شخصية الملك النبي أو النبي الملك. فالمملكة لا تدوم إلا بالنبوة عن طريق الرئاسة، فكل شيء له رئيس ومرووس حتى في الطبيعة، المعادن، النبات والحيوان والإنسان. ورفع النبوة عن المملكة يؤدي إلى الفساد^(١).

ومما يرشد أن الزمان هو على حد الناطق وأنه مضاف إليه، اتفاق الناس على هذا القول، هذا زمان صالح، وهذا زمان فاسد^(٢). ذلك فرق بين فلسفة التاريخ وفلسفة السياسة. فلسفة السياسة تحقيق لفلسفة التاريخ. وفلسفة التاريخ هي الطاقة الكامنة في فلسفة السياسة.

ولا تنتقل النبوة من نسل إلى نسل وهو ما يخالف صريح القرآن ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال لا ينال عهدي الظالمين^(٣). فكيف يحكم الله بأن الذرية التي تجرى النبوة فيها ذرية واحدة، ولا ينتقل عنها هذا الشرف إلى غيرها من النسل كأنهم خلقوا لها ولا يمكن لأحد غيرهم قبولها. والحجة في ذلك امتناع الأنواع الطبيعية أن ينتقل بعضها إلى بعض مع أنه طبقاً للعلم الحديث يمكن التهجين وتخليق أنواع جديدة من نوعين قديمين. وإذا كانت النبوة ليست من الأمور الطبيعية الفلكية بل هو أمر روحاني يتصل بقلبها من معالم العقل والنفس وهما من الثوابت التي لا تغير فيها ولا انتقال مع أن النبوة تثبت قبل ذلك من جهة الأجناس والأنواع الطبيعية كأمر طبيعي ليس فقط في الإنسان بل أيضاً في الحيوان والنبات ولدى كل كائن حي فإن ذلك لا يستدعي بقاءها في نسل واحد حتى لا يتحول الأمر إلى عنصرية. وإن تحول النبوة من نسل إلى نسل لا يعني إحداث ضرب من الفساد والشقاق^(٤). فما خلقته النبوة من محبة وتعاطف وألفة في نسل تستطيع أن تخلقه في نسل آخر. وقد تحولت النبوة بالفعل من العبرانيين إلى العرب بالرغم من انتمائهما معاً إلى

(١) السابق ص ١٧٢ / ١٠٤.

(٢) السابق ص ١٠٥.

(٣) السابق ص ١٥٦ - ١٥٩.

الساميين، وخروج محمد من جده إسماعيل بن إبراهيم. ليست النبوة وفقاً على أحد. فالبشر وسيلة للإيصال، مجرد واسطة بين الله والعالم في ظروف تاريخية معينة طبقاً لمراحل التاريخ وليس لاختيار وتفضيل لشعب بعينه دون آخر كما هو في اليهودية بكل فرقها القديمة والحديثة باستثناء العقلايين منهم^(١). وما يقره القرآن أيضاً هو أنه لم تخل أمة من الأمم من نذير «لوما من أمة إلا خلا فيها نذير». وكيف يكون الأنبياء جميعاً من نسل واحد وقد تباعدت المسافات والثقافات بينهم، وليسوا فقط أنبياء بنى إسرائيل؟ وهل من قرابة بين كونفوشيوس وبوذا وزرادشت ومانى وأدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد؟ وهل النبوة وراثية أم هبة؟ وماذا لو خرج العقب ليس أهلاً للنبوة مثل ابن نوح؟

لا توجد خصائص ثابتة للطبيعة تقاس النبوة عليها وثباتها في نسل واحد مثل فيلة الهند أو أحصنة العرب أو نمور أفريقيا. وخصائص الشعوب العامة مثل ضيافة بنى مدلج، وزجر الطير في بنى أسد، والخفة واللعب في أهل الهند، والصناعات العجيبة عند أهل الصين، والفلسفة عند اليونان لا تعنى أنها هبات طبيعية بل بها قدر كبير من الاكتساب طبقاً لحاجات البيئة. فقد كانت الفلسفة في الهند والصين وفارس. أما التوجع على مغادرة النبوة النسل فإنه يعادل الفرح بقدم النبوة عند شعب آخر. فالفقد والوجد منطق واحد. وقد يكون الدافع على الرغبة في إبقاء النبوة في نسل واحد هو إبقاء الإمامة في نسل واحد. فلا يعقل أن تبقى النبوة في نسل واحد ولا تبقى الإمامة في نفس النسل، فالإمامة استمرار للنبوة وقراءة لها عبر التاريخ. ليس السبب في فساد الأمم انتقال الإمامة والخلافة خارج بيت النبوة بل عوامل متعددة أخرى. فهذا معارض لروح الشريعة "اسمعوا وأطيعوا ولو أمر عليكم عبد حبشي". ولن يؤدي بقاء النبوة في نسل واحد إلى طاعة زائدة. وأدم نبى له نسل خرج منه. ومحمد نبى وليس له نسل خرج منه.

٢- الأكوار والأدوار. ثم تحولت فلسفة التاريخ من تجاور الأنبياء كالعرض

(١) مثل اسبينوزا الذى لا يجعل النبوة وفقاً على اليهود. اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة

المنتابع دون رؤية أو غاية أو منطق للتواصل والانقطاع أو جدل للتاريخ إلى فلسفة في التاريخ تقوم على الصراع بين الأضداد وجدل المراحل وتراكم التجربة التاريخية وتجلي المسار التاريخي من التسلط إلى التحرر، ومن القهر إلى الحرية، ومن الظلم إلى العدل، ومن الباطل إلى الحق. خرجت هذه الفلسفة من البيئة الشيعية التي حملت لواء المعارضة واستمرت في الثورة السياسية ضد الأمويين أولاً والعباسيين ثانياً دفاعاً عن الثورة المستمرة^(١).

ويمثل أبو يعقوب السجستاني هذه الروح الجديدة في فلسفة التاريخ. وقد استشهد بالفعل في ثورة ٣٣١ هـ قبل أن يتوفى الفارابي في بلاط سيف الدولة بثمان سنوات .

والدور هي المرحلة التاريخية التي تفصل بين النبيين. لذلك لكل نبي دور أي مرحلة تاريخية. وهو نوعان: صغير أي المرحلة بين كل ناطق وناطق. وكبير أي المرحلة التاريخية كلها منذ ظهور أول نبي حتى آخر نبي. فقد عاشت الإنسانية دوراً قبل ظهور أول الأنبياء. وتعيش الآن دوراً بعد ظهور آخر الأنبياء حتى آخر الزمان. النبوة كلها دور كبير^(٢).

وقد استعمل إخوان الصفا من قبل هذين المصطلحين. لم يذكرهم السجستاني وهم من نفس البيئة الثقافية الشيعية التي خرج منها. ربما لم تكن رسائلهم معروفة في ذلك الوقت فقد كانت جماعة سرية يصعب الحصول على كتاباتها.

أ- جدل التاريخ. ودرجات التفضيل بين الأنبياء هي مراحل التاريخ كما مثلها الأنبياء ذور العزم: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، والقائم. يمثل آدم درجة الاصطفاء، ونوح النداء، وإبراهيم الخلعة، وموسى الكلام، وعيسى الكلمة أو الروح، ومحمد الرؤية، والقائم المجازاة والمحاسبة. وهي سمات شخصية أكثر منها مراحل

(١) السابق ص ١٨١-١٩٣.

(٢) السابق ص ١٨١-١٨٢.

تاريخية. وقد يختلف فيها البعض. فمحمد ليس الرؤية بل الدولة. وهل وظيفة القائم المجازاة والمحاسبة؟^(١).

وهي مراحل سبعة، عدد فردي. الأنبياء الستة أولو العزم معروفون. أما القائم فهو الجديد. هو الذي يمثل خلافة النبوة في الإمامة، يظهر المستور، ويبين المجل، ويحكم المتشابه. وهي وظيفة أكثر منها شخص. قد يترأى عليه أشخاص عدة وتظل وظيفة القائم^(٢).

وكل نبي سابق يتضمن النبي اللاحق في حالة كمون قيل أن يتحول من القوة إلى الفعل، ومن الكمون إلى الظهور.

ولكل دور سبعة أئمة مستقرون. والإمام المستقر هو الإمام الذي ساعد على تحويل النبوة إلى حركة في التاريخ وإلى ملك. وذلك مثل شيت أو هابيل لآدم، وسام لنوح، وإسماعيل لإبراهيم، وهارون لموسى، وشمعون الصفا لعيسى وربما على لمحمد.

وهناك تشابه بين الأدوار، غيبة عيسى مثل غيبة الإمام، والقائم بعد محمد مثل الحواريين بعد المسيح، والصامت والناطق مثل المسيح والكنيسة. ولكل دور رئيس، آدم وتوبته، نوح وسفينته، إبراهيم وأثاره ودرجته، موسى وآياته ومنقبتة، عيسى وغيبته، محمد وأنصاره وهجرته، والقائم ورسومه وصورته. والدور لا يكون إلا من اثنين،

(١) السابق ص ١٦٤-١٦٨.

مراحل النشأة والتكوين	آدم = الاصطفاء = الطير - ن	تقاضي الأنبياء
	نوح = النداء = النطفة	
	إبراهيم = الخلعة = العلقة	
	موسى = الكلام = المضغة	
	عيسى = الكلمة = العظام	
	محمد = الرؤية = اللحم	
	القائم = المجازاة والمحاسبة = الخلق الآخر	

(٢) ويمكن مقارنة فلسفة التاريخ عند السجستاني مع فلسفة التاريخ عند أوغسطين.

صامت وناطق، باطن وظاهر، سرى وعلنى، داخلى وخارجى ^(١). ويتنافس العدد سبعة مع العدد اثنى عشر. فالملائكة والبروج والرؤساء واللواحق اثنا عشر. والكواكب والأنبياء سبعة.

وإذا كان الناطق ينسخ شريعة من قبله بإظهار شريعة جديدة كذلك ينسخ الصامت تأويل من قبله وإعطاء تأويل جديد. فلا بد للناطق من صامت قريباً منه وأساساً له. يحتاج إلى مشورته فى أمور الدين والدنيا وما يجب من الحكمة الإلهية والعناية الربانية. لذلك قد يكون الصامت أعلم من الناطق حتى يمكنه إعطاء مشورته. وقد اتفق جميع العلماء على أن الله أنزل الشرائع مجملة فى حاجة إلى تبیین ومقسمة فى حاجة إلى تقسيم. وقام الرسول بذلك ظاهرياً، ووضع كل شئ فيها فى موضعه ثم عهد بذلك باطنياً إلى صامت يعرض له من التأليف ما يكون له القوة والفاعلية. علاقة الناطق بالصامت علاقة الخلق بالإبداع. الخلق للظاهر والإبداع للباطن، الخلق للعموم والإبداع للكمون ^(٢).

(١) السابق ص ١٩١-١٩٢.

أدم وشيث أو هابيل	أصحاب الأدوار والأنمة المستقرون	أدم وتوبيته	أصحاب الألوأر وعلاماتهم
نوح وسام		نوح والسفينة	
إبراهيم وإسماعيل		إبراهيم وأثاره	
موسى وهارون		موسى وآياته	
عيسى وشمعون		عيسى وغيبته	
محمد وعلى		محمد وهجرته	
القائم والمهدى		القائم وصورته	

(٢) السابق ص ١٨٢-١٩٣.

المرحلة	السمة	العلامة	الصامت الأساسى	الناطق
من الكشف إلى الستر	التوبة، الهبوط إلى الأرض قبول التوبة وإقامة الوحى	التوبة	قابيل	أدم
الأمن من الغرق	الهبوط من السفينة إلى الأرض	السفينة	سام	نوح
		الهجرة	إسماعيل	إبراهيم
		الهجرة	هارون، يوشع	موسى
	الرفع إلى السماء		شمعون	عيسى
من الستر إلى الكشف	الغيبة ثم الحضور	الهجرة	على	محمد

الصامت والوحى والأساس مفاهيم متداخلة وأحياناً متميزة. فهارون هو الصامت بالنسبة لموسى، ويوشع هو الوحى بالنسبة لهارون. فى حين تتحد المفاهيم الثلاثة فى باقى الصامتين، سام وإسماعيل وشمعون وعلى. ولآدم شيث وقابيل فأيهما الصامت والأساس والوحى؟ وإذا كان إسماعيل هو صامت إبراهيم فماذا عن اسحق؟ ومن هو صامت القائم وأساسه ووصيه أم أنه ليس بحاجة لأن يقوم بهذه الوظائف؟ كما تذكر علاقة الهجرة عند كثير من الأنبياء هجرة إبراهيم من مسقط رأسه إلى أرض تهامة وشهابها، هجرة موسى من الشام إلى بيت المقدس ومجاورته التيه، هجرة محمد من مكة إلى المدينة. وهناك تشابه بين البداية والنهاية، بين آدم والقائم، آدم من الكشف إلى الستر والقائم من الستر إلى الكشف. وبعد كل صامت يأتى ستة أئمة قبل أن يظهر ناطق آخر، اثنان وأربعون إماماً قبل أم يظهر القائم صاحب الدور السابع، صاحب الكشف والظهور. والصلة بين الناطق والأئمة مثل الصلة بين المقام والأحوال عند الصوفية. وقد نصب القائم بعد الغيبة خلفاء له بمثابة الأساس. وتقوم الوصية نصاً مثل وصية محمد على على بغدير قم. وقد يحسب عمر الناطق مثل تحديد عمر موسى بمائة عام وسبع سنين.

وهناك تقابل بين أسماء النطقاء السبعة والأوصياء السبعة والأئمة السبعة والدرجات السبع والمراتب السبع، مما يدل على رغبة فى إيجاد التناسق وتجاوز التناقض، والفهم فى عالم اللافهم، والوعى فى عالم اللاوعى^(١).

(١) قيس بن منصور: الأسابيع ص ١٧٢ / ١٧٧.

٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
القائم	محمد	عيسى	موسى	إبراهيم	نوح	آدم	النطقاء
المهذى	على	شمعون	يوشع	إسماعيل	سام	شيث	الأوصياء
محمد	إسماعيل	جعفر	محمد	على	حسن	على	الأئمة
انتهاء	ملك	حسن	إنسان	حيوان	نبات	معادن	الدرجات
ناطق	وصى	متم	حجة	داعى	مأنون	مستجيب	المراتب

والتقابل بين الناطق والصامت هو نفس التقابل بين التأويل والتتزيل، بين المتشبه والمحكم على مستوى المعرفة. وهو نفس التقابل بين الهبولى والصورة والنفس والبدن على مستوى الوجود، وبين الإثبات والنفى على مستوى اللغة والمنطق والشهادة. وقد يكون هذا التقابل فى التاريخ أيضاً بين الزعيم والصامت والزعيم المتكلم^(١). وهو التقابل فى الكون بين الكواكب والأفلاك، بين الحر والبرد، بين النهار والليل، بين الذكر والأنثى، بين المركز والمحيط. وهو نفس التقابل فى الشريعة بين الجهر والخفى، بين عمل الجوارح وعمل القلوب.

فلكل ناطق صامت يحتاج إلى مشورته فى أمور الدنيا وما يحب فيها من الحكمة الإلهية والعناية الربانية. فقد اطلع الصامت مثل الناطق على جميع الأسرار النبوية ليمكنه مؤازرته ومعاضدته. فقد أنزل الله الشرائع مجملة غير مفسرة. فبينها وفسرها الرسول ظاهرياً. وعهد ببيانها وتفسيرها الباطنى إلى وزير صامت يعرض عليه من التأليف ما يكون له القوة والفاعلية. ولا يكتمل الدور إلا باثنين ناطق وصامت. وقد استقر الخلق كله على هذين الأصلين الناطق أولاً والصامت ثانياً^(٢).

والحقيقة أنه قد يختلف الأمر فى الاجتماع والسياسة. فقد يكون الذكر صامتماً والأنثى ناطقاً. وقد يكون المركز ناطقاً والمحيط صامتماً. قد تتبادل الأدوار بين الظاهر والباطن. قد يكون الباطن ظاهراً والظاهر باطناً.

والمدة بين ناطق وناطق ألف وخمسمائة عام تقسم على سبعة أئمة أو مئتين، لكل منهم مائة عام ويكون مجموعها سبعمائة عام وهو أقل من نصف الفترة. ولا يمكن أن يزيد الأئمة عن سبعة. عندئذ تنتهى الفترة. فإمكانات الواقع أقل بكثير من إمكانات الحساب. والفترة من الفتور أى الإعياء والملل ونهاية الدافع الحيوى فى النفوس الجزئية

(١) فى تاريخ الثورات العربية، ناصر ونجيب فى الثورة المصرية فى يوليو ١٩٥٢، وعارف وقاسم فى الثورة العراقية فى يوليو ١٩٥٨.

(٢) قيس بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٢٢.

من العالم الجسداني فتعجز عن قبول التأييد. ثم ينتهي هذا الإعياء بظهور نفس ذكية أخرى يستمر فيها التأييد بعد أن انتشرت المعاصي والمفاسد وقطع الله عن الأرض الأمطار فقل الزرع وخف الرزق وسلط الآفات على المواشي والحيوانات فيعود الضرر على كافة الناس خاصة العصاة منهم بعد إعراضهم وميلهم إلى الأضداد. فينقطع مدد الإمامة، ويحول التأييد، ويستلم الأمر اللواحق والأجنحة فتقع الفترة في أدوار النطاء، في نوح أربع فترات، وفي إبراهيم ثلاثة، وفي موسى اثنتين، وفي عيسى واحدة، ولم تقع في محمد فترة لأنه قائم بالنبوة. هذا التناقض التدريجي في الفترات يدل على الاكتمال التدريجي للوعي الانساني واستقلاله عقلاً وإرادة ودور آدم ودور القائم خارج الفترات لأن الدورة لم تكن قد نشأت بعد، وبعد القائم ينتهي الزمان ويبدأ التصحيح. ولا فرق بين أن يحدث الإعياء في الوعي الفردي أو الوعي الاجتماعي، في الأفراد أو المجتمعات، في النخبة أو في الدولة. وواضح تدخل الإرادة الإلهية في التاريخ قبل أن يستقل كلية ويصبح ميداناً للفعل الانساني^(١).

وكل دور له سمة: آدم والهبوط من الجنة، نوح والهبوط من السفينة، إبراهيم والهجرة، عيسى والرفع، محمد والهجرة، القائم والغيبة ثم الظهور.

ولكل دور أساس. آدم وإقامة الوحي، ونوح وإقامته من نجا من الغرق، وإبراهيم وإقامته اسماعيل، وموسى وإقامته يوشع وصياً، وعيسى وإقامته شمعون وصياً، ومحمد وإقامته علياً وصياً، والقائم وإقامته الخلفاء. الخمسة النطاء كل قائم له وصي بعكس آدم ونوح اللذين يشاركان في الهبوط من الجنة ومن السفينة.

ولما كان أمر النطاء يجري على الانتقال من دور الكشف إلى دور الستر أو من دور الستر إلى دور الكشف كان انتقال آدم من دور الكشف إلى دور الستر وكنانتقال القائم من دور الستر إلى دور الكشف. البداية ستر والنهاية كشف، ومن حد الإمامة إلى حد

(١) السابق ص ١٩٢-١٩٣.

الناطقية. كما ينتقل النطقاء الخمسة من حد الإمامة إلى حد الناطقية. وينتقل كل ناطق من ذلك الحد إلى الحد الأعلى فيجب إقامة الأساس عليه (١).

ولكل ناطق ضد طبقاً لقوانين الجدل والصراع، إبليس رمزاً للغواية ضد آدم، وابن نوح رمزاً للكفر ضد نوح، ونمرود رمزاً للعناد ضد إبراهيم، وفرعون رمزاً للطغيان ضد موسى، ويهوذا رمزاً للخيانة ضد عيسى. وأبو جهل وأبو لهب رمزان للإنكار والكفر ضد محمد، والسلطان الجائر أياً كان وفي أى زمان رمزاً للطغيان ضد القائم. وقد أظهر فرعون الأضداد حتى أصبح رمزاً في الأدب الشعبي.

ولما كانت الإمامة متولدة عن النبوة، وكما يتفاضل الأنبياء يتفاضل أيضاً الأئمة حتى الإمام السابع الذى يصير ناطقاً ابتداءً من أول الأنحاء (٢).

والإمام رأس الهرم والقاعدة الأتباع. وكما تتبع القاعدة الرأس يتبع الأتباع الإمام. الإمام بحر تصب فيه كافة الأنهار والعيون والسواقي منه وإليه، مولد كهربائى يشع نوره فى المصابيح. الأئمة بشر فى الظاهر ولكنهم فى الباطن وجه الله لأنه لا يعرف إلا بوجهه. وهو يدل على العالم وبالقالى فهو وجه الله، ويد الله لأنه يبطش به، وجنب الله. الإمام هو الذى يحاسب البشر يوم القيامة، هو الصراط المستقيم والذكر الحكيم.

وعند المؤيد فى الدين الشيرازى خلق الله أمثالاً وممثلات. جسم الإنسان مثل ونفسه ممثل، والدنيا مثل والأخرة ممثل، والأعلام التى خلقها الله وجعلها قوام الحياة، والشمس والقمر والنجوم مثل، وقواها الباطنة التى تؤثر فى المصنوعات ممثل.

وقد تكون الأنواع النبوية ستة هى: النطقاء أصحاب الشرائع، واللوائح أصحاب بث الدعوة، والأبائى، والأجنحة والمأذونون، والمستجيبون، وأصحاب التقليد. وهى موافقة للأنواع الطبيعية (٣).

(١) السابق ص ١٨٦-١٨٧.

(٢) السابق ص ١١٦، الفينابيع ص ١١-١٣.

(٣) السابق ص ٩١-٩٣.

وأحياناً يتم الاختصار على أربعة: اللاحق وقدراته، والمتم وحفظ الأمانة، والأساس ونشر التأويل، والناطق ووضع السياسة الجديدة. الثوار هنا أربعة فقط. وقد يكونوا ثلاثة فقط الزسل والأساس والنطقاء^(١).

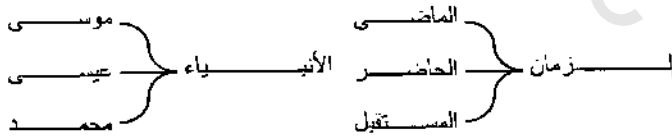
ويعيش الأنبياء فى الزمان. فإذا كان الزمان ذا أبعاد ثلاثة الماضى والحاضر (المقيم) والمستقبل (المنتظر) فإن الأنبياء ثلاثة موسى للماضى، وعيسى للحاضر، ومحمد للمستقبل. موسى هو الذى جسد تاريخ أنبياء بنى إسرائيل، وعيسى هو الحاضر الأبدى، ومحمد هو مستقبل الزمان إلى ما لا نهاية أى التاريخ القادم^(٢).

وإذا كانت الفصول تنقسم إلى ثلاثة أقسام عام وخاص وخاص الخاص، فالعام يفصل بين الحالىين كالقيام والقعود. وهو فصل سريع الزوال. والخاص يفصل بين الهيئتين وهو فعل بطئ الزوال. وخاص الخاص يفصل بين النوعين فصلاً ذاتياً مثل الحدود الثلاثة: الناطق والأساس والمتم^(٣).

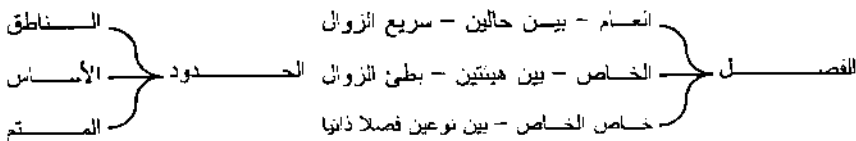


(١) السابق ص ٦٠.

(٢) السابق ص ١٠٣.



(٣) السابق ص ٩٣.



ويظهر النطقاء بعد انتشار الفساد فى الأرض. إذ ينتشر الفساد فى الأرض وتعم البلىا قبل ظهور الرسل والنطقاء مما يستلزم النطقاء التفكير فيه. ولولا الفساد لما ظهر الرسل لأن الرسول مجمع البركات، فالشر مقدمة للخير، والسلب على الإيجاب فى جدل التاريخ. وتجديد الشريعة لا يلزم إلا بعد الدروس المتقدمة والخبرات المتراكمة. ولما كان المخصوص بالرسالة فى أول أمره ضعيفاً فى حين يشتد الفساد من الوباء والقحط والقتل والجور مما يستدعى مقامة الناس يظهر النطقاء لقيادة الدعوة. وكلما اشتدت الأزمة اقترب الخلاص. فإذا ما خبا نور الشريعة فى قلوب الأمة وأصبح تطبيقها لا يتم إلا بجهد ومقامة، بل والاستخفاف بكل شريعة أخرى يظهر النطقاء إلى أن تنتهى أدوارهم إلى أدوار الكشف، ويلزمون أنفسهم بما اكتسبوا فى أدوار الستر من الخير بموالاته الأولياء، ومن الشر لمتابعة الأعداء.

ويستعمل النطقاء أساليب التخويف بالآيات كما يفعل الصوفية. وثمره التخويف الزهد. وثمره الترغيب فى الآخرة التفكير فى الخلقة. وثمره التوقف فى الخلقة الوقوف على الحقائق وثمره الوقوف على الحقائق ثبوت النبوة^(١).

وفى الزمان تحدث الثورة وينشأ التاريخ. وإذا كان الزمان طبقاً للحظاته التسع هو: الآن والساعة واليوم والشهر والسنة والقرن والدور والتحويل والدهر فإن الثوار أيضاً تسعة، المؤمن، والجناح، واللاحق، والمتم، والأساس، والناطق، والقائم، والجامع، والنفس الكلية. وكل ثائر يظهر فى لحظة من لحظات الزمان: المؤمن فى الآن، والجناح فى الساعة، واللاحق فى اليوم، والمتم فى الشهر، والأساس فى السنة، والناطق فى القرن، والقائم فى الدور، والجامع فى التحويل، والنفس الكلية فى الدهر. فالثورة فى روح العالم وفى زمان التاريخ كله. الثورة هى الأبدية^(٢).

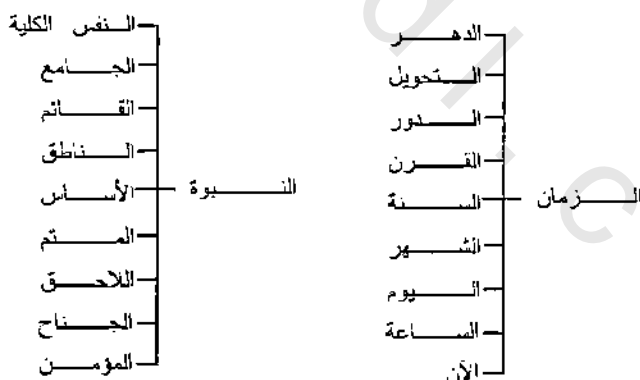
(١) السابق ص ١٥٣-١٥٦.

(٢) السابق ص ١٠٢.

وجود الأنبياء ليس في كل وقت بل في كل ألف سنة، أقل أو أكثر، يظهر نبي كما هو الحال في الألفية^(١).

وتتهار الأمم لأن الكون له علتان: علة طبيعية وعلة دينية. والعلة الدينية أشرف من العلة الطبيعية. ويكون الكون والفساد طبقاً للعلة الدينية. فلزوم الدين على كل عاقل مخير. ومن تخلى عنه أسرع إليه الفساد ووجب قتله قبل نزول الفساد الطبيعي. وهو تشريع لقتل المخالفين في الرأي والمتهمين بالكفر والإلحاد وضياح الدين^(٢). ويروج بعض المخترعين الكاذبين ما يروج للرسل من السوق بأهوائهم شرائع جعلوها في أعناق الناس من غير أن كانت لهم أرواح^(٣). ويشرع السجستاني لقتل الجاحدين للرسل وللمخترعين الكذابين الذين يروجون ما يروج للرسل من السوق والدعوة^(٤).

وبالرسل صلاح العالمين. فبعد إهمال المعارف، وإبطال المنافع، وأهواء الأحكام، ونقصان الخلقة، وظهور الضعف، واستيلاء الفساد يظهر الأنبياء فتظهر القوة معه، وتنام الخلقة، وكمال الحكمة، وبيان المنافع، ووجوب المعارف، ولزوم الافاقة العقلية. ويظهر العلم الروحاني بعد خفائه. وبعده عن الإدراك بالمشاعر الحسية غير ممكن للبشر، ثم تغلب



(١) السابق ص ٣٩.

(٢) السابق ص ١١.

(٣) السابق ص ٨٥.

(٤) السابق ص ٨.

الآية من جديد وينهار التاريخ، ويتسع الإنكار والرغبة عنه، وتصغر النفس، وتزول الافاضة، ويظهر الشح، وينقص الإبداع. فيظهر الأنبياء من جديد حتى تدوم الافاضة وترفع النفس وتشتد الرغبة في العالم الروحاني ويتم الإقرار به. فيالرسول يتم صلاح العالمين^(١).

فإن قيل أن المعارف موجودة قبل الرسل عند الحكماء اعتماداً على لطافة أذهانهم ومقاصد حكمتهم يقال إن الحكماء يتعلمون عن طريق التلميذ والأستاذ إلى ما لا نهاية في حين أن الرسول لا معلم له إلا الله. كما أن الافاضة العقلية تظل نسبية محدودة معرضة للخطأ في حين أن النبوة كاملة صادقة. كما اجتهد الرسل في حفظ الصحة وحفظ الأمراض. فكل نبي حكيم وليس كل حكيم نبياً. فقد عرف الرسل بلطافة أنفسهم وشرها حركات الأنفس في كل دور وكيف تتحدد بالأشخاص. وانشقوا بالصور الفنية بالقصور والجنان والخيام والأكواب، ووضعوا الموسيقى على الفطر الإنسانية والتأليف الروحانية. وكل ما لدى الحكماء لدى الرسل. فهم منجمون ومهندسون وموسيقيون وأطباء وكذلك الرسل. وأضاف الرسل سياسة العامة وبناء المدن ووضع المحاسن وكيفية اللباس ليس عن طريق الحكمة بل عن طريق الصلوات في أوقاتها وما فيها من ذكر الله والثناء عليه وتسبيحه وتقديسه، وتوزيع الزكاة على الفقراء. ومن ثم تفوق سياسة الرسل سياسة الحكماء بما لديهم من قدرة على وضع ناموس شرعى وتدبير ديني.

ب- الأدوار السبعة. لم تكن هناك أدوار قبل آدم لأن الأدوار مرتبطة بنشأة الإنسان وبقصد استقلال وعيه عن الطبيعة، كمال العقل واستقلال الإرادة. ليست الأدوار للجن ولا الملائكة ولا الشياطين لأنهم غير مكلفين. هم خارج الزمان وبالتالي ليس فيهم إمكانية التطور والتحول، وتحقيق مشروع الكمال العقلي والإرادي. هناك شياطين الإنس مجازاً الذين عكفوا على الظواهر فتباعدت أسفارهم، وشياطين الجن الذين اقتصروا على العلوم العقلية وبعدوا عن إصابة الحق وإدراك الخفيات فعزوا عن السمع. فالشيطان من الشطن وهو البعد.

(١) السابق ص ١٦٩-١٧٢.

وتوبته انقضاء دور النطقاء وظهور القائم. والكلمات التي أتمها خمسة أحرف ك ل م ا ت. وتشير إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد^(١). الكاف أى نوح المقدر لكون الشريعة وكون السفينة. واللام لإبراهيم الذى لمعت النبوة والإمامة فى عقبه. والميم لموسى الذى به تربعت الرسالة. وهى بحساب الجمل أربعون. والألف لعيسى الذى لم ينسب إلى أحد من البشر. الأدوار الستة هم النطقاء الستة، والسابع هو المتمم، مثل الجهات الست، والأيام الست فى خلق العالم والقوى الست: الحركة، والسكون، والهيولى، والصورة، والمكان، والزمان^(٢). أجزاء الستة واحد وعشرون. وكل ناطق هو الداعى إلى الأصلين، ومنه انبعاث الأئمة السبعة واللواحق الاثنى عشر ومجموعهم أيضاً واحد وعشرون حداً. ولا توجد فى الستة من الأقسام إلا الثلاثة وهو السدس والنصف والثلاث. فالنصف يدل على أن كل ناطق مجمع نفسه وأساسه والمتم. فالنصف على حدة إذ هو نصف ما ظهر من الإبداع. والثلاث على حد أساسه. والسدس على حد المتم إذ هو أحد الأنحاء الستة. وهى صورة الدائرة، الثلاث. والأربعة بعدد الزوج المركب وهو الستة. والأعداد صور الوجود كما هو الحال عند إخوان الصفا.

أول الأدوار دور آدم. وهو أول مرتبة النطقاء، وأول مرتبة دور الست. لم يكن له شريعة يأتى بها. أما القائم فهو صاحب دور الكشف الذى يكشف ما استقر من أدوار النطقاء كما بدأ الله الخلقه بآدم^(٣). والستر فى البداية والكشف فى النهاية. البذرة فى باطن

(١) السابق ص ١٨٢-١٨٥.

- ك = نوح
- ل = إبراهيم
- م = موسى
- ا = عيسى
- ت = محمد

(٢) التبيين ص ١٥٤-١٥٥.

اليوم	١	٢	٣	٤	٥	٦
الحركة	علو	سفل	يمين	شمال	أمام	خلف
القوى	الحركة	السكون	الهيولى	الصورة	الزمن	المكان
الجسد	اليدين	الرجلين	الظهر	البطن	العنق	الرأس

(٣) السابق ص ١٨١-١٨٢، القاضى النعمان: المذهبة ص ٣٤.

الأرض في البداية والثمرة فوق فروع الأشجار في النهاية. ويتدخل الخيال الشعبي ونفوس الألوان في قصة آدم. فقد نزل آدم من الجنة مسخوطيناً أسود اللون. ولما تاب الله عليه ببيض ثلثه أول يوم والثلث الثاني ثانی يوم، والثلث الأخير ثالث يوم مما يوحى بأفضلية الأبيض على الأسود مع أن "الأسود جميل" كما يقال بأذواق العصر.

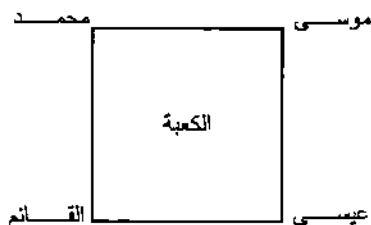
وتظهر التوراة كمصدر للمعلومات عن نوح. وهو أول من غرس الكرم لصنع الخمر. وهو أول من بنى الشرائع. ويدخل عيسى مع نوح لعدم وجود مادة كافية لنوح أو ربما لأن نوح أول من وضع الشرائع وعيسى آخر من أكملها. نوح الظاهر وعيسى الباطن. وهناك صلة بين الخمر والشرعية. فالشرعية مخامرة للعقول ومدهشة الأذهان^(١).

وإبراهيم هو الذى وضع مراتب الحدود بعده. وقد إسحق الإمامة. ووظيفة الإمام حفظ الظاهر وإقامة اللوائح. وقلد إسماعيل الأساسية وكشف له الحقائق. والركنان اللذان من صلب إسحق هما موسى وعيسى اللذان شرعا الشريعة المقلدة المؤسسة على الظاهر المحض. والركنان من ولد إسماعيل هما محمد والقائم اللذان بسطا الحقائق. محمد من جهة الشرائع والوضع إذ تنطق شريعته بالبيان من غير كشف. من إبراهيم خرج العجم عن طريق إسحق، ومنه أيضاً خرج العرب عن طريق إسماعيل. يعكف العجم العاجمة على ظواهر النطقاء، بينما العرب العاربة هم الطالبون للحقائق والأسس. والسؤال هو كيف يكون الألب عبرانياً والابن عجمياً؟ وهل اليهود عجم أم أن العجم هم الفرس؟^(١) وإبراهيم هو الذى رفع القواعد وبنى الكعبة على أربعة أركان: موسى وعيسى ومحمد والقائم^(٢).

(١) السابق ص ١٨٥.

(٢) السابق ص ١٨٥-١٨٧.

(5)



أول ناطق من بيت إسحق هو موسى بن إسحق بن إبراهيم. وموسى إمام الشريعة مثل نوح وإبراهيم ومحمد. نسخت شريعته شريعة إبراهيم كما نسخت شريعة إبراهيم شريعة نوح. عمر مائة وسبعين عاماً. قبره بجبل الطور لا ببيت المقدس الذي لم يكن له دلالة قبل داود. وصيه أخوه هارون عاش ثمانين عاماً. وبعده يوشع كفيله على هارون. وبعده شعيب اللاحق والحجة وصاحب الفترة المخاطب لموسى من الشجرة. أعانه أخوه فى نبوته وتأويل شريعته. فأظهر حقائق التأويل، وأبان معانى التنزيل. وأشرق العالم بنور الهداية، وأزال عنهم ظلم الغواية^(١).

وعيسى بن إسحق بن إبراهيم. وصيه شمعون، وضده يهوذا، والإمام فى عصره خزيمة. استتر فقام زكريا مكانه. وكفل مريم حخته. اجتمع بها رسول خزيمة وفاتها فى ظهور المسيح. نسخ شريعة موسى. وعبر عن نفسه بالأمثال، لم يقتل ولم يصلب لأن البعث للأرواح وليس للأجساد ويعود حرف الهاء فى ﴿لما قتلوه وما صلبوه﴾ إلى هوية عيسى^(٢).

ودور محمد هو دور القرآن. والحقيقة أنه قد تختلف القراءة والاستفاد. القرآن من فعل قرأ قرأناً أو القرآن من فعل قرن أى قرأنا دون الهمزة. الأولى قراءة ظاهرية. والثانية قراءة باطنية. القرآن مقروء بطبيعة الحال. والقرآن هو الربط والعقد، بين طرفين، الله والعالم، المثال والواقع، العقيدة والشريعة، النفس والبدن، الكيف والكم، الصورة والمادة، العقل والحس، النظر والذوق، التنزيل والتأويل ... الخ. وهو معنى التوحيد. فالتوحيد قرآن ضد الثنائيات المعروفة سلفاً فى الديانات الثنوية الشرقية القديمة والديانات التطهيرية التى تصحى بطرف لحساب الطرف الآخر، المسيحية لحساب الروح، واليهودية لحساب البدن.

وتتصل الرسالة بقلب النبى من غير تفسيرها فابتهل إلى الله أن يشرح صدره فأكرمه بالفتح، وهو قوة روحانية هى مجمع الشرح أنزله به الروح الأمين على قلبه

(١) السابق ص ١٨٧-١٨٨.

(٢) السابق ص ١٨٩-١٩٠.

مجملاً، قوة أكرمه الله بها وتعنى علوم الشرع والتتزيل. وفى صنعته حوضان: ماء أبيض من اللبن وأحلى من العسل دلالة على العلم المحض وإفادة التالى عليه بقوة الفتح الذى يجرى من قبل الأساس من الحلوى التأويلية إلى ميل القلوب إليها. فلما شرح الله صدره عن المستغلات الوصفية النازلة على قلبه بلا تفسير أوجب عليه إقامة من ينشر ذلك بين أمتة حتى لا يبقوا فى التيه والحيرة وضيق الصدر. وهذا هو تأويل آية ﴿محمد والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾. تراهم ركعاً سجداً يبتغون من فضل الله رضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود. مثلهم فى التوراة والإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار. وعد الله الذين آمنوا ﴿^(١)﴾.

وقد أرسل للبشر كافة. وهذا معنى حديث أنه أرسل إلى الأحمر والأسود، الأحمر أهل الظاهر وهم الأنس، والأسود أهل الباطن وهم الجن. وهم نوعان: فسقة مثل الفلاسفة وظلمة مثل الطغاة. والذين المغفوران المتقدم والمتأخر فهو ما جاء به أهل الظاهر وما نسبوه إلى القياس فاختلوا فيما لا يعرفونه من أصله ^(٢).

والقائم هو الخاتم وليس الرسول. وهو غير مشخص أى قائم تستمر النبوة فيه، فالتوراة استمرار للنبوة. الإمام ظاهر والقائم مستور. الإمام فى السلطة والقائم فى المعارضة. وهو دور الخلافة بعد النبوة عند أهل السنة، والكنيسة بعد المسيح فى النصرانية، والعلم بعد النبوة عند الحكماء "العلماء ورثة الأنبياء". القائم هو نهاية الكل من الرسل. يحاسب الأمم السالفة بما ألزموا أنفسهم من استعجال نواميسهم يجمع بين

(١) ﴿أشداء على الكفار﴾ هو الحسن بن على، ﴿رحماء بينهم﴾ هو الحسين بن على، ﴿ركعاً﴾ على بن الحسين، ﴿سجداً﴾ محمد بن على، ﴿يبتغون من فضل الله﴾ الصادق، ﴿رضواناً﴾ المبارك، ﴿سيماهم فى وجوههم من أثر السجود﴾ القائم، ﴿مثلهم فى التوراة والإنجيل كزرع﴾ الأساس، ﴿أخرج شطأه﴾ الحسن بن على، ﴿فآزره﴾ الحسن بن على، ﴿فاستغلظ﴾ على بن الحسن، ﴿فاستوى﴾ محمد بن الباقر، ﴿على سوقه﴾ الصادق، ﴿يعجب الزراع﴾ أى المبارك، ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ أى القائم، ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ أى الذين صفوا بالولاية.

(٢) القاضى النعمان: المذهبة ص ٦٦.

لنواميس المختلفة المتفرقة والمتباينة، ويكشف عن حقائقها وتصير مجموعة وكأنها حقيقة واحدة، والأمم أمم واحدة تطبيقاً لآية ﴿فكيف إذا جئنا بكل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾. وأحياناً يكون كالإله الذى يحاسب الجميع. فالقيامة يوم الفصل أى يوم التأويلات وإشراق الحقائق فى النفوس الزكية من نور ربها ووضع الكتاب، وحضور النبيين والشهداء، والقضاء بينهم بالحق، وهذا كله معنى القائم ووظائفه، بين الله وآخر الأنبياء وآخر الأنحاء وآخر النطقاء. القائم هو الذى يوحد بين مراحل الوحي السابقة مثل محمد وعيسى وموسى بالنسبة للسابقين عليهم. القائم هو نهاية الكل من الرسل. يجمع بين النواميس المختلفة المتفرقة المتباينة بالكشف عن حقائقها فتصير مجموعة كأنها شريعة واحدة وكأن أممها واحدة. والسابع هو نهاية كل شئ، الكواكب والأقاليم وأيام الأسبوع. وفى عهده يتم بعث الصور الروحانية. تنتهى الرسل كلها إلى القائم، ويبدأ القائم حتى يوم القيامة. والقائم من القيامة، يوم الفصل، بعد الخصومة والمنازعة، يفصل بين أهل الأديان، ويظهر الحقائق، ويلزم أهل الأديان بالرجوع إلى الحقائق والإقرار بها. وهى نفس أوصاف محمد ووظائفه عند أهل السنة. وهى عند الشيعة أقوى فى القائم (١).

وبالقائم يثبت التوحيد. وبمعرفته ينفى الجهل العظيم. وهو دليل الدعوة إلى إمام الزمان والحجر الخاتم الدال على الإمام. الخنصر يدل على الداعى، واليد اليمنى على دعوة الباطن، واليسار على الظاهر، والنقش على الحجر علم التأويل، معجزة الإمام. وما ختم به عليه هو أخلاق الإمام الداعى للمفاتيح بعلم التأويل ودعوته. يتختم الرسول فى شماله بعد تختمه فى يمينه إشارة إلى فهم التأويل وباطن الشريعة وإعلامه أنه لا يقدم التنزيل إلا بالتأويل. فبعد أن أقام الظاهر ودعا الناس إليه دعاهم إلى الباطن وهو روح الظاهر، ونصب لهم صاحبه، وأقامه لهم، ودلهم عليه، وأرشدهم إليه. وضم اليدين إلى الصدر فى الصلاة، واليمنى تعلقو اليسرى ثم إرسالهما إشارة وإعلام بقيام الشريعة، والعمل بالفريضة والسنة، وضم الحدود إلى نفسه. واسبال اليدين فى الصلوات إشارة إلى أنه صاحب التأويل (٢).

(١) السابق ص ١٦٦-١٦٩ / ١٩١.

(٢) القاضى النعمان: المذهبة ص ٨٥-٨٦.

العدد سبعة لا يقتصر على الأنبياء وحدهم بل يمثل حقيقة مشتملة أيام الأسبوع، وعدد السموات والأرض، والكواكب. ويسجد الساجد على سبع أعضاء. ويصلى الظهر فى الساعة السابعة. والفجر ركعتان لأجل الأصليين. وصلاة المغرب ثلاث ركعات دليلاً على حروف للروحانيين الثلاثة، السابق والتالى والجذ. وبين العبدین سبعون يوماً^(١).

٣- حساب الجمل. وهو علم قديم معروف فى تاريخ الحضارات القديمة خاصة تاريخ الأديان فى التيارات الغنوصية فى اليهودية والمسيحية. وقد تسرب إلى الحضارة الإسلامية من فيثاغورث والإسرائيليات وربما بعض المصادر البابلية والهندية الشرقية القديمة. كل حرف له رقم ومجموع الحروف فى كلمة تكون عددها. ومجموع الكلمات فى جمل تماثل أعداد حروفها مثل الشهادة والبسمة. وقد أبدع فى ذلك أولاً إخوان الصفا ثم أبو يعقوب السجستاني وباقي فلاسفة الاسماعيليين مثل القاضي النعمان وحاتم بن عمران وقيس بن منصور ومحمد بن سعد بن داود على مدى ستة قرون من انثالث حتى الثامن. وقد استمر التأليف حتى القرن الثامن كما هو واضح فى "الرسالة الكافية" للداعى محمد بن سعد بن داود الملقب بالرفعة (٧٨٩هـ) وإن كان إيداع السجستاني الأول قد خف، وتحول التأليف إلى مجرد تجميع لرؤى سابقة. انتهى الأحكام النظرى والمحاجة العقلية، وكثرت الحجج النقلية والشواهد النصية بدلاً عن الخطاب بالفلسفى. ويتركز الفكر كله على العدد سبعة باعتباره الرمز الأم عند الشيعة الإسماعيلية مع الاستشهاد ببعض العارفين مثل السبع الشداد، والسبعة رجال، والسبعة أقاليم^(٢).

ومن حساب الحروف والكلمات خرجت الأسماء والألقاب عند الشيعة: الناطق، والصامت، والإمام، والمأذون، والمستجيب، والداعية، والمهدى، والأساس، واليد، والحجة، وفو الامتصاص، والقائم، والباب، والبلاغ، واللاحق، والجناح، والوصى، والمتم، والخليفة، وصاحب الكشف، وصاحب الدور، وصاحب الكور، والمستودع، للدلالة على مراتب العلم الباطنى ومستويات التأويل. ولا فرق فى ذلك بين اللغة والوجود، بين

(١) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٠٩-١١٠.

(٢) الرسالة الكافية ص ٩٣.

الكلمات والأشياء، بين الحروف والظواهر الطبيعية، بين المعاني وفترات التاريخ.

أ- الحروف والكلمات. والمقالة السابقة مفقودة والتي تعطى منهج التأويل أو قاعدة التأويل كما فعل ابن رشد بعد ذلك في "مناهج الأدلة" فهي مقالة في الحروف والكلمات والآيات والسور في أوائلها وأواخرها والكلمات المعجمة. ثم تأتي الأسرار المكتومة في الشهادة والأسرار والزكاة والحج، تأويلاً للشرائع. ثم يتلو ذلك مكارم الأخلاق الموجودة في القرآن، ثم اتفاق القرآن مع التراكمات أى مع الطبيعة وكيفية الجواهر. ثم تعود المقالة أخيراً إلى اللغة في كيفية المحكم والمتشابه (١).

ويظهر نفس الاتجاه في "الينابيع". إذ تتجسد الحروف في اسم الله وفي الكون وفي الأئمة. الله والأركان والأوتاد كل منها أربعة حروف. الله أربعة حروف أ ل ل هـ، ألف للتأيد، واللام الأولى للتركيب، واللام الثانية للتأليف، والهاء للتأويل. وفي الأركان: النار والهواء والماء والأرض. وفي الأوتاد: بيت الحياة، وبيت العاقبة، وبيت الخصومة، وبيت الرفعة والسلطان. وفي الأئمة: السابق، والتالى، والناطق، والأساس. ثم تعود الحروف من جديد: العين، الحاء، والخاء، والهاء (٢). بل إن "لا إله" مكونة من الألف واللام و"إلا الله" مكونة من اللام والهاء وهما عبارة الشهادة، النفي والإثبات (٣). والشر لا أصل له في الإبداع.

(١) السابق ص ١١.

(٢) الينابيع ص ٦٣ / ٦٧.

الله	أ	ل	ل	هـ
الكلمة	ك	ل	م	هـ
التأيد	التركيب	التأليف	التأويل	
السابق	التالى	الناطق	الأساس	
النار	الهواء	الماء	الأرض	
بيت الحياة	بيت العاقبة	بيت الخصومة	بيت الرفعة والسلطان	
العين	الحاء	الخاء	الهاء	
العقل	النفس	الصورة	المادة	
الذوات	الهموم	القول	الكتابة	

(٣) السابق ص ١٣٠-١٣٢ انظر دراستنا: ماذا تعنى لا إله إلا الله، محمد رسول الله؟ الدين والثورة في

مصر ١٩٥٢-١٩٨١ ج٧-اليمين واليسار في الفكر الدينى ص ١٤٧-١٦١.

هذا العالم المغلق بين الحروف والأسماء والأشياء والأئمة يعبر عن رغبة في السيطرة على العالم الضائع ببناء عالم محكم تسيطر فيه اللغة على العالم. فالحروف عناصر مشتركة يتكون منها الله والعالم والإنسان والتاريخ.

وتتداخل الموضوعات. فصاحب التأويل هو الإمام أو الأساس. وصاحب التأييد يعنى الإمام أولاً توجد فواصل واضحة فى التأويل. القصد فقط هو إيجاد تناسق نفسى بين الفكر والوجدان وليس وصف أشياء فى الواقع، إبداع الخيال وليس تقرير واقع. والخيال أحد أبعاد الوجود الإلهى مع الجد والفتح.

والتركيب والتأويل لا اختلاف فيهما. والتأويل والتنزيل مختلفان من جهة النطاق. فكل ناطق يجمل التأييد على قدر صفوته. ويؤلف الشريعة على مقدار زمانه ودوره. وأما التركيب فإنه فى كل وقت على نسق واحد وترتيب واحد كذلك التأويل. وفى كلمة الله وجود الأشياء على الأربع معانى: الذات والهموم والقول والكتابة يوازىها التأييد والتركيب والتأليف والتأويل. التأييد يوازى ذوات الأشياء إذ للمؤيد فى كل شئ مما له ذات دلالة وأعمال لما لا يدركه التأييد من حيز العقل، وكذلك الأشياء ذوات المعانى التى يخرجها العقل. والهموم توازى التركيب من حيز التالى. والقول يوازى التأليف الذى ألّفه الناطق بقوته إذ يوازى التأليف للأصوات بالقوة. وهو حيز الناطق. والكتابة توازى التأويل. فالتأويل البيان، نقش الصور العقلية فى قلوب المرتادين. ولا يوجد شئ فى العالم إلا وهو مكتوب على الخشب والموارد والأنواع والمعادن والحيوان. ويستخرج التأويل من كل شئ ويستدل بكل شئ. ولا يوجد القول إلا فى المتكلم الذى يتكلم بما لا يفهمه المخاطب. ومن قبل تأليف الناطق أكثرهم لا يعلمون، وفى القول يقع الصدق والكذب. وفى حد الناطق تقع مرتبتان: الإيمان وهو الصدق، والنفاق وهو الكذب^(١).

وهو تفسير كونه للشهادة وليس تفسيراً ثورياً بفعلى الشعور، النفى والإثبات، السلب والإيجاب، الرفض والقبول، وتفسير شيعى للصليب، وبين التشيع والنصرانية عناصر درامية مشتركة، استشهاد الحسين والمسيح، الشعور بالاضطهاد والمقاومة،

١) (١) الينابيع ص ١٦٨-١٧٠.

التجسد والخلص، الإشراق والمعجزات وكما لاحظ الصوفية من قبل بين صلب الحلاج وصلب المسيح.

وفى تفسير آخر للشهادتين عند الحكماء المأنوسين بطاعة الأئمة أنها دالة على حدود الله. وهى نفى وإثبات. وهى مكونة من ثلاثة حروف ألف ولام وهاء. فجميع ما خلق الله فى السماء والأرض والشرائع داخلة تحت آية «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم»، وهى نفس الثنائية التى تقوم عليها الشهادة ^(١). الشهادة نفى وإثبات، ناطق وأساس. الشهادة أربع كلمات تشير إلى قوى النفس فى العالم الجسمانى الرباعى، العاقلة والناطقة والحسية والنامية. وزمامها القدسية. وكل كور فى العالم الوضعى يقوم بأربعة نطقاء. والعلل أربعة: فاعلة ومادية وصورية وتمامية. والعقل ليس له علة متممة لأنه تام. وفاعله البارى. والروح العاقلة لها أربع درجات: الجن والنطقاء والأساس والإمام. والروح العالمية لها أيضاً أربع مراتب: الفاعلون، الأساس، واللواحق والأئمة والخلفاء، والمستجيبون والمأذونون، والدعاة. والروح على أربعة مستويات: الروح العالمية، والروح القدسية، والروح العاقلة، والروح الناطقة، الهوية والجوهر والصفة والاسم ^(٢).

(١) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١١٢-١١٣، قيس بن منصور: الأسابيع مقدمة ص ١٨-٢٥.

(٢) قيس بن منصور: الأسابيع ص ١٧٤.

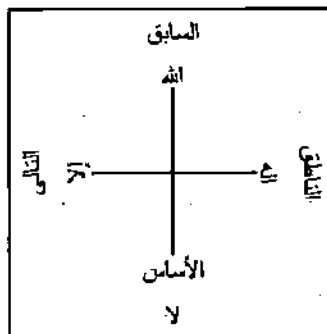


وتتألف الشهادة من كلمات أربع وفصول سبعة وحروف اثنا عشر ^(١). وهى تقابل معنى الصليب. فالشهادة مبنية على النفى والإثبات، الابتداء بالنفى والانتهاه بالإثبات وكذلك الصليب خشبتان، خشبة ثابتة لذاتها وخشبة أخرى ليس لها ثبات إلا بثبات الأخرى. والشهادات أربع كلمات كذلك للصليب له أربعة أطراف. الطرف الثابت فى الأرض مثل صاحب التأويل الذى تستقر عليه نفوس المؤيدين. والطرف الذى يقابله من أعلى صاحب التأييد الذى تستقر فيه نفوس المؤيدين. والطرفان فى الوسط يمينا ويساراً التالى والناطق، صاحب التأليف. الشهادة سبعة فصول كذلك للصليب أربع زوايا وثلاث نهايات. والزوايا الأربع والنهايات الثلاث دليل على الأنحاء السبعة فى دورة كما دلت الفصول السبعة فى الشهادة على أئمة دور الناطق عليه السلام. والكل اثنا عشر حرفاً. وتأليفها من ثلاثة حروف غير مكررة كذلك الصليب تركيبه من سطوح وزوايا وخطوط. الخطوط مثل الألف، والسطوح مثل اللام، والزوايا مثل الهاء، وكما تكمل الشهادة عند اقترانها بمحمد كذلك شرف الصليب بعد أن يوجد عليه صاحب الدور ^(٢).

(١) الزينابيع ص ١٢٤-١٢٦.

لا	إله	إلا	الله	٤ كلمات
التسييح	الإضافة	الابتهاال	التعظيم	٤ كلمات
فصل	فصلان	فصلان	فصلان	٧ فصول
حرفان	ثلاثة حروف	ثلاثة حروف	أربعة حروف	٧ حروف
السابق	التالى	الناطق	الأساس	٤ أئمة
الأصلان		الأساسان		

(٢) السابق ص ١٤٦-١٤٩.



ويمكن صياغة لا إله إلا الله في كلمات وأسماء وأشياء وموضوعات بعيداً عن الحروف وتشير فقط إلى حرفي النفي والإثبات، والنفس والعقل والعالمين العلوي والسفلي والصلاة حركاتها وأوقاتها، والتالي (واللاحق) والصامت والناطق^(١). ويلاحظ أيضاً وجود فراغات غير مملوءة. كما ينقص الدليل والبرهان. وتغيب أسماء المحاور الراسية.

كان الهدف من ذلك عدم الوقوع في التشبيه كالأشاعرة أو التعطيل كالمعتزلة والدخول في مرموزات النطقاء وتحويل الروحاني إلى جسماني عن طريق التأويل وعلم الاحاطة وعلم الانتهاء. ومع ذلك وقع الفكر الشيعي في الحرفية والتشخيص والتثبيت في واقع معين وفقد العمومية مع أن الغاية من التأويل هو الخروج من اللفظ إلى المعنى، ومن التشبيه إلى التنزيه، ومن الجسماني إلى الروحاني.

كان الدافع هو الرغبة في إيجاد نسق وتناسق كرد فعل على الفصم النفسي والسياسي والاجتماعي، من التنافر إلى التناسق، ومن اللاعقل إلى العقلي، ومن عدم التطابق بين الآية والواقع إلى التطابق بين حروف الآيات وعالم التعويض.

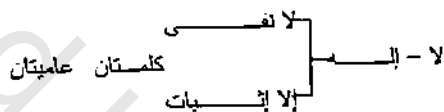
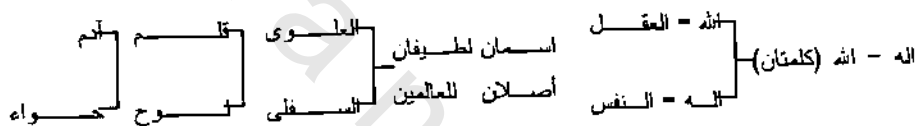
وأفضل الأسماء المجموعة في "لا إله إلا الله". وهي أربعة أشياء: اسمان لطيفان خاصيان "الله وإله"، وكلمتان عاميتان "لا وإلا"، الأولى للنفي والثانية للإثبات. يدل الاسمان اللطيفان على العقل والنفس اللذين هما أصلان للعالمين العلوي والسفلي. اسم الله دليل على العقل الذي يدل على وحدانية الله. ولما أبدع المبدع العقل جمع في صورته الثلاثة: النفس والناطق والصامت.

(١) المسجستاني: الأسابيع ص ١٦١، حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٣٠-١٣٣.

لا	كلمة عامية	نفي		الركوع	دليل الصامت
إله	اسم لطيف	النفس	العالم السفلي	المغرب	التالي
إلا	كلمة عامية	إثبات		سجدة	دليل على الناطق
الله	اسم لطيف	العقل	العالم العلوي	الفجر	

وحرف الله مقابل ركعات الفجر. وإله دليل على التالى وهو ثلاثة حروف
مقابل فريضة المغرب. فقد جمع الله فى صورتيهما الأصلين السفليين، الناطق
والصامت. وهذان الاسمان سبعة حروف. فالأصلان مجمع الحروف العلوية السبعة.
وركعات سنة صلاة الفجر قبل فريضتها دليل على الأصلين من الأصول الأربعة.
ر"إلا" دليل على الناطق، قطعتان فى مقابل السجديتين. وقد جمع الله فى علومه علم
الصدق، و"لا" دليل عليه، مقابلها الركوع. ولم يجمع فيه شئ من حدود غيره من
الأصول الثلاثة. وهاتان الكلمتان خمسة أحرف تجمع الإمام واللاحق والجناح
والمأذون والمستجيب. وإلا كانت دليلاً على الناطق بحرفين وعلى الصامت بحرف
واحد كما كانت دليلاً على العقل بأربعة حروف^(١).

(١) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٢١-١٢٢.



الله + إله = ٧ حروف (الحروف العلوية السبعة)



ويمكن رسم "لا إله إلا الله" على نحو عددي رياضي على النحو الآتي (١):

نفى وإثبات	ثلاثة حروف	أربعة	سبعة	اثني عشر	ثمان وعشرون
حركات الفلك	- من الوسط - إلى الوسط - على الوسط	- طلوع - غروب - إقطار	- الكواكب خمسة - النيران اثنان	١٢ برج	٢٨
خرب عمران	حيوان نبات معادن	يوبة رطوبة برودة حرارة	سبع أقاليم	١٢ جزيرة	٢٨
الإنسان	- طول - عرض - عمق		أعضاؤه الباطنة من القلب إلى المرارة، مخ، عصب، عظم، عروق، دم، لحم، جلد.	١٢ فتحة من الرأس إلى الجمد ٧ + ٥	٢٨
ليل نهار		الفصول الأربعة	سبع أيام	١٢ شهراً	٢٨
زوج فرد		أحاد، عشرات، مئات، ألوف	فرد المركب زوج المركب أربعة = ٧	١٢ رتبة	٢٨
باطن ظاهر	الناطق الأسل الإمام	الإمام الحجة الداعي المأثور	٧ أئمة	١٢ حرف	٢٨
ماء تراب	- فرض - سنة - سبغ	غسلان ومسحان = ٤	الرجلان، المضمضة، الفرج، اليدان، الرأس، للتسويق، الاستجاء = ٧	١٢ عضواً	٢٨
حركة سكون	- فريضة - سنة - تطوع	- الوقوف - القيلة - النية - الوضوء	٧ تكبيرات. تسبيحة، استواء، تشهد، تسليم	١٢	٢٨ تكبير الإنسان
فضة ذهب	- غم - بقر - إبل	٤ حروف زكاة وصفة			٢٨ الطم الروحاني
ليل نهار	- نية - إقطار - سجود				٢٨ الإنسان الكامل
حلال حرام					

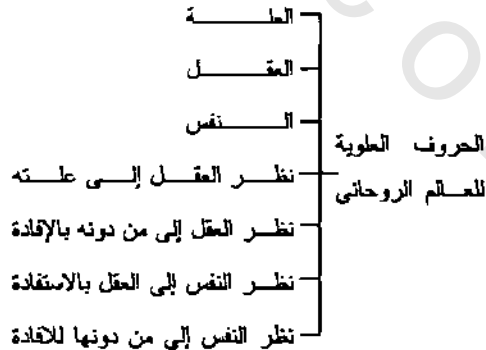
(١) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١١٣-١١٥.

ويلاحظ على هذا الجدول وجود فراغات لم يتم ملؤها بعد، النسبة الثلاثية، والحساب الثلاثي، والزكاة السباعية والاثنا عشرية، والصيام الرباعي والسباعي والاثنا عشري، والحج الثلاثي والرباعي والسباعي والاثنا عشري. كما لا يوجد تبرير خاص للأعداد الثنائية والثلاثية والرابعة والسباعية والاثنا عشرية والثمان وعشرين دون الأعداد الأخرى. ويتشابه المجموع في كل الحالات باستثناء الزكاة وهو التدبير الكامل والصيام وهو العالم الروحاني والحج وهو "الإنسان الكامل والشكل الفاضل والصورة التامة المؤلفة من الطبائع والعناصر ذات الأنوار البهية والأخلاق المرضية وكان الأول آدم أبو البرية" (١). كما أن عدد الموضوعات من الفلك حتى الحج طولاً أحد عشر وهو عدد فردي لا يرمز إلى شيء. بالإضافة إلى أن علاقة هذا الجدول الرياضي كله بموضوع الشهادة غير واضح لا من حيث الحروف ولا من حيث الكلمات.

ويمكن تفسير الشهادة سباعياً، فكلمات الشهادة سبع قطع. والحروف العلوية في العالم الروحاني سبعة: العلة، والعقل، والنفس، ونظر العقل إلى العلة، ونظر العقل إلى من دونه بالإقادة، ونظر النفس إلى العقل بالاستفادة، ونظر النفس إلى من دونها بالاستفادة (٢). ومدار العالم الجرماني على المعبرلات السبعة والعالم الوصفي من دور إلى دور سبعة أئمة.

(١) السابق ص ١١٦.

(٢) قيس بن منصور: الأسابيع ص ١٧٤.



وتتضمن الشهادة اثني عشر حرفاً أى أن كل إمام يصل إلى المستجيبين بواسطة اللواحق الاثني عشر. وهى ثلاثة حروف متكررة تشير إلى التزليل والتأويل والتأييد والتي بها قوام الحدود. كما تدل على الجذ والفتح والخيال، الوسائط بين الروحانيين والجسمانيين. وهى نفى وإثبات، يشير النفي إلى أهل الظاهر الذين يصفون تشبيهاً، ويشير الإثبات إلى أهل الباطن الذين يعبرون تنزيهاً. وقد تقوم الشهادة على العدد اثني عشر، الاصلان والفروع الثلاثة والحروف السبعة فى العالم الروحاني. والعالم الجرماني اثنا عشر، وكذلك أبراج الأرض، وجزرها وحروف القلم واللوح والجذ والفتح والخيال، والعالم الوصفى، وأبواب النطقاء، والعلوم فى العالم الوضعى من جهة اللواحق.

والشهادة فى مجموعها بصرف النظر عن تكرار الحروف ثمانية وعشرون حرفاً، أربعة فى سبعة، الأربعة النطقاء والأوصياء والخلفاء والأنحاء وكل منهم سبعة أئمة. والحدود نوعان: روحانية لا ترى ولا تحد، وجسمانية، ترى وتحد. والله هو الأول والآخر (١).

والحروف الثلاثة الألف واللام والألف قوام الشهادة: العقل، والنفوس، والجذ المتحد بالناطق. فالعالم الروحاني ثلاثة: الجذ والفتح والخيال. والعالم الجسماني ثلاثة أيضاً: الطول والعرض والعمق. وعلوم البشر ثلاثة: الباطن، علوم العقل والقلب مثل صفار البيض، وعلوم ممزوجة، علوم الأرواح مثل بياض البيض، وعلوم الظاهر السمعية والبصرية التى تتعلق بالأجسام مثل قشر البيض. والعالم الوصفى ثلاثة أكوار: الإقرار وهو الإصلاح، والتعبد وهو الإيقان، والتعلم وهو الإيمان. ومناطق الأفلاك ثلاثة: غربية وشرقية ووسطى لا شرقية ولا غربية. والمدعون ثلاثة: الأجنحة والمأذنون والمستجيبون (٢).

(١) السابق ص ١٦١ / ١٦٨ / ١٧٧.

(٢) السابق ص ١٧٤ - ١٧٦.

"لا إله إلا الله" أربعة كلمات: اسمان لطيفان وخاصان، الله وإله، الله يعنى العقل وإله تعنى النفس، وكلمتان عامتان جاريقان لا وإلا، نفى واستثناء. والله من أربعة حروف: الألف للعقل، واللام الأولى للنفس، واللام الثانية للناطق، والهاء للصامت. ومجموع حروف "الله" وإله" سبعة، وهى الحروف العلوية. وحروف الله فى مقابل صلاة الفجر. والعقل ثلاثة حروف: النفس والناطق والصامت. والألف واللام سجدتان للناطق، وركعتان للصامت. الحد العلوى القلم واللوح، والحد السفلى الناطق والصامت.

"لا إله إلا الله" خمسة حروف: الإمام، واللاحق، والجناح، والمأذون، والمستجيب. والحواس الظاهرة هى الحدود الجسمانية الخمسة. البصر للناطق، ضوء الشمس. العين لا ترى إلا المشاهد فى حين أن الناطق يرى الأجسام عن بعد والأذن تسمع من قريب. واليد الداعى بدلاً من اللمس. والأنف تبحث عن مكان فى النسق.

وتعبر هذه الثنائيات عن رغبة فى التطهر والتعويض عن الواقع فى البداية. فالمثال تعويض عن الممنول وليس ثورة عليه.

وتتكون البسملة من كلمات أربع فى آية واحدة هى فاتحة الكتاب أى أن الأساسين فى الدعوة إلى الشريعة والبيان مفاتحة الناس بما أيد كل واحد منهما بمقدار الأصلين. وكانت الأصول الأربعة كلها يداً واحدة. والكلمات الأربع واحد وعشرون حرفاً، تسعة عشر حرفاً ظاهرة، قابلون للتأييد وواقفون على التأويل وهم الأئمة السبعة واللواحق الاثنى عشر، وحرفان خفيان واقفان على التأويل عاجزان عن قبول التأييد وهما الداعى والمستجيب. وهى أحد عشر فصلاً. فصلان لا ينظران بل يتوقف عليهما بالعقل، والفصول الثمانية مرثيون مدركون. وهذا دليل على أن الدعوة أى الشريعة والبيان مقسومة منفصلة على الأساسين والأسماء السبعة الجسمانيين المرثيين المؤيدين من الأصلين الذين لا ينظران بل يثبتان بالعقل^(١).

(١) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٢٣-١٤٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرح	العدد	ركعات	حروف	
أربعة حروف بالقوة والرمز النفس هو العقل بالقوة متصلة بالحروف.	النقطة	المغرب	٣ مثل إله	بسم ب س م النفس
			٤ حروف	الله أ ل ل هـ العقل
الانطلاق ستة معروفون بأسمائهم ظاهرون عند اللبنة مخفيون عند القشرية. ألفان، خفية وظاهرة.			٧ حروف ٦ + أخفى ظاهر	الرحمن الناطق
الأساس ستة ظاهرة ألف واحد ناطق			٦ حروف	الرحيم
				الأساس

ومن قطع الأساسين وبين الفرعين ودعا التجدين دون الآخر ملعون منفي
مطرود من رحمة الله في العاجل ومن ثواب الله في الآجل. وقد قال أمير المؤمنين
الرحمن من الرحمة، والرحيم من المغفرة أى أن من الناطق الإيقاظ والاعذار والإنذار

رحمة لهم. ومن الصامت البيان والهداية، وبها تقع المغفرة للأنام. وباطن الأساس لا يناله إلا الموحدون.

والألف الناقص في "بسم" و"إله" هو الألف من الحروف. وصلاة المغرب هو الانتصاب. الألف دليل العقل. ولا يتصل بالحروف مثل العقل في حين أن الباء تتصل بالحروف.

وقد أسقط الرسول البسملة من براءة لأن الباب في أولها أمر الغضب أي أنه يمكن تأويل الآيات والحروف تأويلاً ثورياً سياسياً غاصباً وليس فقط تأويلاً ميثافيزيقياً إشراقياً رمزياً.

وتتكون البسملة من تسعة عشر حرفاً. وتتضمن عشرة جواهر، خمسة روحانيون، الأصلان والجدان والخيال، وعشرة جسديون، الأساسان والفرعان والجناح. الروحانية لا تتكرر، والجسمانية تتكرر. وهذه العشرة هي الألف واللام والحاء والميم والنون والراء والسين والياء والهاء والباء. الألف هو العقل والسابق، خط بالطول، غير ظاهرة في الكتابة. ويعنى الجد أنه قام في الاسم مقام التأييد فصار الفتح والخيال. واللام النفس والتألي خط بالعرض. والحاء الفتح. به يتهيأ للأساس فتح كل ما أغلقه الناطق في الشرائع وأبطنه في التنزيل، وبه يستفتح كل واحد ممن فوقه، وبه يفتح عليه وبه يتهيأ لأرباب الدين إقامة مفاتيح الأبواب وهي الدليل على اللواحق، والمفاتيح دليل على الدعاة. والباب هو الناطق والأساس يقيدان من دونهما. والميم الخيال وبه يتم حد من لم ينل التأييد فيرى به صورة من يأتى به عند غيبه عنه. والناطق والأساس والإمام يفيدون اللواحق الاثنى عشر ثلاث مرات. والنون الناطق الذى ينطق لأهل النجدين بالحق رمزاً يشير إلى أساسه الدال عليه كاشفاً لهم عن حقائق ما نطق به التنزيل من غير شرح، وظاهر بلا باطن، وتنزيل بلا تأويل مرة واحدة. والراء هو الأساس، غاية نيل التأويل الذى به يرى كل مسترشد رشده ومنه يستفيد الباحث الظاهر والباطن، رمزاً وسراً، تنزيلاً وتأويلاً مرتان.

والسين اللاحق، ثلاثة سنان وثلاثة أحرف، دليل على اللاحق الداعي إلى الحدود التسعة فوقه. والسنان الثلاثة دليل على الجد والفتح والخيال. والحروف الثلاثة دليل على التالى والسابق والكلمة مرة واحدة. والباء الإمام، حرف نداء وحرف النسبة أى النسبة الروحانية، متصلة بها من جميع الحدود عند الكشف، موجودة فى الرحيم معدومة فى الرحمن أى أن الأئمة من صلب الأساس وليس من صلب الناطق. لذلك ظهرت الباء فى الصامت وليس فى الناطق. والهاء الحد المنهى للنطق حتى يتهيأ لهم بواسطة معرفة الأصليين. وهى طول وعرض وعمق. والباء الجناح، به ينال المستجيب سبيل الرشاد، ويصل كل مرشد إلى البيان والثواب الأبدى مرة واحدة، فالجناح كاللاحق يفيد المستجيبين شرحاً من غير رمز (١).

وهكذا تتحول الحروف إلى علم شامل مطلق. البداية بالحروف ثم بالكلمات ثم تتجسم فى الجواهر. وتظهر الدلالات الرمزية تزجج المعانى اللفظية. ولا تتساوى الحروف كلها فى الأهمية. فأهمها الألف واللام. حتى تنقيط الحروف وأشكالها لها دلالات على الأئمة. إن ضياع كل شئ يودى إلى الحفاظ على أى شئ. ضياع المتناهى فى الكبر يودى إلى الحفاظ على المتناهى فى الصغر. والغنى الفاحش يودى إلى البخل الشديد لمعرفة قيمة المال والثروة. وقد يصل تأويل الحروف أحياناً إلى حد الأسطورة بلا برهان فالحروف العشرة خمسة منها بلا نقط تكون روحانية وهى: أ، ل، ح، م، هـ، وخمسة منها بنقط تكون جسمانية هى: ن، ز، ي، ش، ب.

(١) السابق ص ١٢٧-١٤٣.

الحرف	الشكل	الجوهر	الحرف	الشكل	الجوهر
١- أ	خط طول	العقل السابق	٦- ر	قوس	الأساس
٢- ل	خط عرض	النفس التالى	٧- س	طول وعرض وعمق	اللاحق
٣- ح	عرض وقوس	الفتح	٨- ى	عرض وقوس	الإمام
٤- م	طول وعرض	الخيال	٩- هـ	طول وعرض وعمق	الجد
٥- ن	قوس	الناطق	١٠- ب	عرض	الجناح

وفى تحليل رمزى آخر تتكون البسملة من سبعة عشر حرفاً، منها سبعة أحرف تدل على سبعة أئمة فى بسم الله. ومنها اثنا عشر حرفاً تدل على اثنى عشر حجة فى الرحمن الرحيم. وكلاهما تسعة عشر حرفاً كما هو الحال فى جملة "لا حول ولا قوة إلا بالله" تعبيراً عن المستضعفين^(١). الحول والقوة هى الناطق والأساس. والملائكة الموكلون بجهنم تسعة عشر. والأذان تسعة عشر حرفاً، سبعة فرادى واثنا عشر مثنى. ويكرر العدد سبعة فى أيام الأسبوع، والجيال، والسموات، والأرض، وأبواب جهنم، والقرآن سبعة أحرف، والنطقاء، والأسس، والأئمة. وسورة الحمد سبع آيات، والطواف حول البيت، والسعى بين الصفا والمروة، وخلق الإنسان^(٢).

وقم يتم الجمع بين حروف البسملة وحروف الشهادة. فاللام طول وعرض وتشير إلى الشمالى، هوية بسيطة بالنسبة إلى السابق. والهاء طول وعرض وعمق، تشير إلى الجد، ثالث الحدود الروحانية. وتعنى التأييد المتحد بالناطق. كما تدل على الناطق والجد والنفس والعقل. والحاء تشير إلى الفتح. وتكون هذه الحروف الناطق والأساس. والميم تشير إلى الخيال، والنون إلى الناطق، والراء إلى الأساس.

ثم يتم الانتقال من الحروف إلى الطبيعة. فالرحمن الرحيم ذكر وأنثى، حركة وسكون، حرارة وبرودة، يبوسة ورطوبة، فاعل ومنفعل. وهناك ثلاثية البارى والعقل والنفس وهى الجنة. وهناك أفلاك تسعة، وآيات تسعة، وأئمة سبعة وأساسان^(٣).

ثم يتم الانتقال من الطبيعة إلى الأئمة. فالعوالم أربعة: الوصفى، والعنصرى، والفلكى، والروحانى. الأولان كثيفان والأخريان لطيفان. الوصفى ابتداء من الناطق

(١) قيس بن منصور: رسالة الأسابيع. وهى من القرن السابع أثناء نزول هولاكو، مقدمة ص ١٨-٢٥. وتعتمد على الفكر الشيعى السابق منذ رسائل الإخوان ورسالة "الأصول والأحكام" لحاتم بن عمران مما يدل على التراكم الفلسفى الداخلى، والفكر الجماعى، وأهمية المسجستاتى باعتباره أول المبدعين.

(٢) خلق الإنسان: الطين، والنطفة، والعلقة، والمضغة، والعظام، واللحم، والخلق الآخر. مكونات الإنسان: المخ، العظم، العصب، اللحم، الدم، العروق، الجلد. مفاصل الإنسان: القدمان، الساقان، الفخذان، الكفان، الزراعان، العضدان، الرأس. وجه الإنسان سبعة خروق: الأنفان، العينان، المنخران، الفم.

(٣) قيس بن منصور: الأسابيع ص ١٦٤-١٦٦.

والقيامة. والعنصرى هو الجرمانى ابتداء من الهيولى والصورة. والفلكى ابتداء من الفلك المستقيم وفلك البروج. والروحانى ابتداء من القلم واللوح.

وتقابل هذه العوالم الأربعة الفروع أو الأئمة أربعة: المأذون، واللاحق، والدليل (الداعى) والإمام. الأولان كثيفان لا حظ لهما فى التأيد، والأخريان لطيفان. واللاحق يقبل العلم بالخيال، ويؤدى بالكلام والحروف. والفروع فى القوة لأن النفس هى العاملة بالقوة. وكلما تقدم الفكر الشيعى فى التاريخ زاد التراكم، وظهر التجميع، وقل الإبداع.

وأهم حرف هو الألف الناقص فى كلمتى "بسم"، "إله". وهو الناطق. ومن صلاة المغرب ركعة. والانتصاب دليل عليها. تدل على العقل، وتتقص النفس. تتصل الحروف بالألف فى حين أن الألف لا تتصل بها مثل العقل الذى لا يتصل بالحدود فى حين تتصل الحدود به. وباقى الحدود تتصل بالنفس والعقل. العقل أو الحدود، والثانى النفس ألف العقل، وباء النفس لأن ألف أول الحروف وثانيها الباء. العقل واحد فى العدد، ومركز الدائرة فى الهندسة والنفس المحيط. والباء أول نقطة على الخط، ابتداء كل عمل وقراءة كل شئ، فى البسملة وفى سورة ﴿براءة﴾.

والله هو العقل، أربعة أحرف. والرحمن الناطق سبعة أحرف، ستة ظاهرة وواحد خفى. فالنطقاء ستة معروفون، وواحد خفى. والرحيم الأساس ستة حروف وستة أسس. فالقائم ليس له شريعة يحتاج إلى تأويلها بالأساس. وتقابل الرحمن الرحيم مثل تقابل الرحمة والمغفرة، الايقاظ والبيان، الإعذار والهداية، الناطق والصامت، آدم وحواء^(١).

وتضم البسملة كلمات أربع هى الأصول الأربعة. بسم ثلاثة حروف، مثل إله وتقابل النفس. حروفها عشرة نصفها مشمولة بالنقط والنصف الآخر لا نقاط فيها.

وتدل الحاء على الفتح. يشاكل الحد، ويشبه الخيال لأنه الواسطة. والجدان الفتح والجد. والخيالان الخيال والفتح. الفتح واسطة بين النطقاء والأسس، شكل الخيال الذى به

(١) السابق ص ١٦٦-١٦٩.

تفتح اللواحق من الأنحاء.

وتزول صفات التجسيم فى الأئمة. فالوجه دليل على السابق، والعينان الأصلان والحدان والخيال، ظاهر وباطن، شمال ويمين. والنفس النفس الكلية، واليدان الأصلان، والسماء الناطق من السمو بالعلم والتأييد السامى، والأيدى الأصلان والفروع، والسموات النطقاء وأرباب الظواهر ودعوتهم مطوية فى التأويل وفضائلهم فيه.

الصفات والذوات هى الحدود الروحانية الدالة على وحدانية البارى لأنه أقام كل واحد منهم داعية إلى توحيده بأمره. وأضاف الصفات الواقعة عليها إلى هويته. وقد أضاف الرمى إلى هويته وإن كان الرامى غيره. ولذلك أضاف الصفات إلى هويته وإن كان الموصوف بها غيره.

ولا يُعرف له أسماء من نحو ذاته بل من ذواتنا. فكل ما نصف به الله نصفه مجازاً بعد أن نصف به ذواتنا حقيقة، قياساً للغائب على الشاهد، وإثباتاً بالخيال ما عجزنا عن تحقيقه بالفعل^(١).

والصفة ذات وفعل، واسطة بين العالم العلوى والعالم السفلى. الله أول الصفات، القلم والعلة، ثم الجوهر والإلهية ثم الهوية ثم الاسم للمعنى وهو العقل، ثم المصدر للعلم وهو النفس، ثم الذات العالم ثم الفعل مثل المتكلم الخالق المريد. وهى سبع مراتب^(٢).

(١) السابق ص ١٦٩-١٧٠.

(٢) السابق ص ١٦٢-١٦٣.



الله ثلاثة حروف. الألف العقل، واللام النفس، والهاء الأساس. الرحمن ألقان، والرحيم ألف. وهذا يدل على أن للناطق مثل ما للأساس من العلم، مرتبتان لأن للذكر مثل حظ الانثيين! والألقان فى البسملة خمسة. والحدود أربعة روحانية النفس والجد والفتح والخيال. النفس من أثر العقل، والجد خاصة الرسول، والفتح خاصة الوحي، والخيال خاصة الإمام. الجد للتأييد، والرسول رسول وحي وإمام، يجمع بين الجد والفتح والخيال. والوحي وحي وإمام يجمع بين الفتح والخيال. والإمام إمام يختص بالخيال.

الله فى البسملة أربع مراتب، الجد والفتح والخيال والتالى. وهى حدود روحانية. الألف السابق. والهاء الجد الناطق. للرمز بجوار النفس، والأسس والأئمة عند رسل أدوارهم. واللواحق عند إمام زمانهم، والأجنحة عند لاهق جزيرتهم. والياء الإمام، حرف نداء فى الأول وفى الآخر، موجودة فى الرحيم لأن الأئمة من صلب الأساس. والسين اللاهق من ثلاث سنان: الناطق والصامت والإمام، الجد والفتح والخيال، التالى والسابق والكلمة. والكلمة هى العلة المتحدة بمعلولها وهو القلم. والياء الجناح^(١).

العقل والناطق والحس والنمو من آثار العالم العقلى. وكل مجموعة فى الصور الروحانية وهو الإنسان. وهذا دليل على أن مرتبة الأساس موجودة فى الناطق، ومرتبة الناطق معدومة فى الأساس.

وهناك أسماء لم تصبح ألقاباً فى مجموعات متشابهة مثل البارئ، والأمر والعلم والكلمة والوحدة، والجد والفتح والخيال، والقلم والعرش والأول والسابق والقضاء، واللوح والثانى والثالث والقدرة، والصورة والهيولى والشمس والقمر، والأصلان العقل والنفس، والحروف العلوية السبعة^(٢).

الفتح هو البيان. والخيال هو القوة الموهبة لمن أكرم بالقوتين، الجد والفتح حتى تكتمل له الذات الروحانية. والحروف العلوية السبعة أن كل صاحب نور أسقط من العالم

(١) السابق ص ١٧٦-١٧٩.

(٢) تحفة المستجيبين ص ١٥٠-١٥١.

الروحاني ما أمكنه من تأليف شريعته وإنشاء تنزيله وسياسة أمته. وهو عالم العقل والنفس. الكلام أول دليل على إثباته. والكلام حروف. في حين أن الكلام الحقيقي جوهر العالم الروحاني يعبر عنه بالأمثال والتشايه وصور اليوم الآخر من كل رسول طبقاً لتأليفه، وحدة المعنى وتعدد الألفاظ. تغيرت الرسالة طبقاً للرسول السبعة والحروف السبعة والنطق السبعة ليكون لهم القدرة على إنشاء الشريعة وتأليف التنزيل إلى أن يستطيع الوصول إلى الكلام الحقيقي العرى عن الأمثال.

ويعنى الجد هو أن الاسم قد قام مقام التأييد فصار الفتح والخيال. الجد هو الجزء الأعلى من التأييد، والفتح الجزء الأوسط، والخيال الجزء الأسفل. الجد خاصة الوحي والناطق، والفتح خاصة الرسول، والخيال خاصة الإمام. والرسول رسول وحي وإمام إذ يجمع بين الجد والفتح والخيال. والوحي وحي وإمام لا رسول لأنه يجمع بين الفتح والخيال. والإمام إمام لا وحيّاً ولا رسولاً وله من الخيال نصيب دون الجد أو الفتح^(١). ويسبق الجد والفتح والخيال العلم والتدبير^(٢). وهذا لا يمنع من دخول هذه الألفاظ في نسق فيضى مثل الله والعقل، الأول والنفس، والجد والفتح والخيال^(٣).

والألفات والبسملة خمسة، أربعة حدود روحانية هي النفس والجد والفتح والخيال وكلها من العقل. والألفات الخمسة ألف غير ظاهرة هو الجد، واثنان ظاهران في اللفظ.

أما فعل أمر «كن» ليس فقط أمراً مطلقاً بل حساب حروف. الكاف والنون بحساب الجمل سبعون، سبعة من العشرات. وبينهما حرفان، اللام والميم وهي الأساسان، اللام للنطق والميم للأساس. وقبل الكاف من حروف الجمل الياء. وبعد النون السين وهم سبعون، وهم الأنحاء السبعة الذين بهم قوام الدعوة إلى الأصول الأربعة. ومن جهة نظم

(١) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٣٧-١٣٨.

(٢) قيس بن عمران: الأسابيع ص ١٦٥.

(٣) القاضي النعمان: الرسالة المذهبية ص ٣٧-٤٠، حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٣٥-١٣٦.

الحروف قبل الكاف والقاف مائة وبعد النون الواو وهما أيضاً سبعة إذ الواو ستة، والقاف مائة، والمائة واحدة، بعد الأنحاء السبعة يكون الخفاء السبعة^(١).

والكاف في الهجاء ثلاثة أحرف، وهي الثلاثة حدود العلوية: الكلمة والسابق والتالي. والنون في الهجاء أيضاً ثلاثة أحرف، وهي الثلاثة حدود العلوية الأخرى: الجذ والفتح والخيال. وهي مثل على الحدود السفلية: الناطق والأساس والإمام والحجة والداعى واللاحق تقابلهم الأيام الستة التي تم فيها خلق السموات والأرض وما فيها. الحدود العلوية مثل والحدود السفلية ممثل.

ولما كانت الحروف أصلاً لكل شئ ودليلاً على كل شئ، فالكاف أول الحدود، نور السموات والأرض. والنون ثانی الحدود، تالياً قائماً بالفعل. والحروف المنبعثة منها مفصلة بذلك الفعل^(٢). ومن ﴿كن﴾ تكون النور والظلمة. فقد خلق الله الظلمة قبل النور وهي أربعة حروف على عدد حروف "كوني". ولم يحدث شئ في الدنيا إلا من الظلمة. المعدن والنبات من ظلمات الأرض، والثمار من ظلمة الأخشاب، والحيوان من ظلمة الأجواب، والنطفة من ظلمة الأصلاب^(٣).

(١) السجستاني: الينابيع ص ٧٤-٧٥.

(٢) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٠٨ / ١١٠.

الحدود العلوية	الحدود السفلية	أيام الأسبوع
القلَم	الناطق	الأحد
السابق	الأساس	الاثنين
التالي	الإمام	الثلاثاء
الفتح	الحجة	الأربعاء
الجد	الداعى	الخميس
الخيال	اللاحق	الجمعة

(٣) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١١٧.

وهو مذهب مغلق من الصعب رده إلى مصادره الأولى مثل إخوان الصفا أو البيئة الثقافية التي دونت فيها الرسائل، أو الإسرائيليات وحساب الجمل، ودون إحساس بالدونية أمام الموروث أو الواقع بل اعتماداً على العقل الخالص. وينقصه البرهان النقلى أو العقلى، مجرد أبنية عقلية مغلقة، مذاهب فلسفية مصمتة^(١).

وهذا كله من إبداعات العقل. يختلط فيه الزمان بالمنطق بالحياة وبالأخلاق وبالتاريخ. فإبداعات العقل سبعة: الدهر، والحق، والسرور، والبرهان، والحياة، والكمال، والغيبة، وكأنها صفات الله السبع عند الأشاعرة. فتتبع فلسفة التاريخ من الفلسفة الاشراقية، ويخرج الواقع من صنع الخيال.

فالعقل يخاطب النفس خطابين، خطاباً علوياً وخطاباً سفلياً، علوياً فى المعارف الاشراقية، وسفلياً فى المعارف الحسية. ومع ذلك يختلط العقل بالخيال، والحقيقة بالوهم. فيتوهم العقل اتصاله بالنفس. ويتوهم الكثرة من علة واحدة وهى أمر الله. ويتوهم حركات الفلك على مرأى النفس واختيارهم مع وجود الجبر فيه. ويجعل العالم آلة فى المقصود فيخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. ويتصور الله بكل مكان وهو لا يليق بالخلق الأول فضلاً عن المبدع جل جلاله. ويتوهم ابتداء الإنسان من آدم على التوالي مع أن الله خلق البشر دفعة واحدة. والتولد أقرب إلى الشيعة وإخوان الصفا، وهو قياس الصانع على منزلة بعض الرعاة من رعاة البقر والغنم والإبل التى تتوالد بعد سنون كثيرة^(٢).

(١) وتشبه تحليلات محمد أركون فى الفكر العربى المعاصر اللسانية هذه البنى الشيعية القديمة.

(٢) الزينابيع ص ١١٥-١٢٣.



وهناك تقابل بين كل شئ وكل شئ، في عالم الهوية المطلقة، الألفاظ والمعاني والأشياء، الحروف والكلمات والأسماء والألقاب. يحكمه نسق رياضى. والحكمة هى إيجاد هذا التقابل "علم الميزان" بتعبير الكرمانى تلميذ السجستانى. الناطق والأساس مثل الذكر والأنثى. سبعة نطاقات وثلاثون نبياً وأربع وعشرون حجة ظاهرة، واثنان عشرة حجة باطنة، وست مراتب للإيمان تكون مجموعها تسعاً وتسعين، أسماء الله الحسنى، سبع عشرة ركعة وتكبيراتها تصبح أربعاً وتسعين تكبيره وخمس تسليمات فذلك تسع وتسعون أسماء الله الحسنى من جديد (١).

والنفس ثلاثة حروف وكذلك العقل، والفناء والبقاء، والقلم واللوح، زوجان من العالم العلوى جامعان لأزواج العالم السفلى مثل الناطق والصامت والجسد والروح، وآدم وحواء، والشهادة "لا إله" المضافة إلى حد الاسمين. الصامت فى دار العمل مقامه مقام النفس فى العالم العلوى ومنه يكون ابتداء الشهادة. وقد أقيم للتأويل، والكلمة الأخرى فى الشهادة مضافة إلى الاسم النهائى (٢).

الكلمة والعلة أسماء واقعة على الإبداع. والأعمال والسابق والعقل والقلم أسماء واقعة على المبدع. والآخر والتالى والنفس واللوح والقدر والنور أسماء واقعة على التالى. الكلمة للعقل والنفس. تجمع الأربعة، اثنان حيان هما العقل والنفس واثنان دونهما منفصلان حركة وسكون وهميان. العقل تام بالفعل، والنفس تام بالقوة (٣).

والأوتاد بروج، والبروج أوتاد. وكل منهما اثنا عشر (٤). فقد استقر العالم

(١) القاضى النعمان: المذهبة ص ٣٤ / ٣٧.

(٢) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٣١-١٣٢.

(٣) قيس بن منصور: الأسابيع ص ١٧٢-١٧٣.

(٤) الينابيع ص ٦٨.

٢	الوئد الأول	١٢
٣	١	١١
الوئد الثانى	البروج الاثنى عشر	الوئد الرابع
٤	٧	١٠
٥	الوئد الثالث	٩
٦		٨

الجسدانى على الأمهات الأربع، النار والهواء والماء والأرض، وعلى الكواكب السبعة، زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر، وعلى البروج الاثنى عشر: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. واستقر جسم البشر أعدل الأجسام وأقومها على الطبائع الأربع: الصفراء، والحمراء، والسوداء، والبيضاء، وعلى الأعضاء السبعة الباطنة: الدماغ، والقلب، والرئة، والكبد، والطحال، والمرارة، والكليتان، وعلى الأعضاء الاثنى عشر البارزة: الرأس، والوجه، والعنق، والصدر، والبطن، والظهر، واليدان، والفخذان، والرجلان^(١). فهناك تقابل فى الآفاق بين الجسم والجسد والبروج والكواكب والطبائع. ولا يوجد تقابل اجتماعى، الطبقات الاجتماعية أو المهنية أو السياسية أو الاقتصادية أو الأخلاقية.

ولما كانت الحروف تشير إلى العالم العلوى مثل الكلمة والعقل والنفس، وتشير إلى العالم الانسانى، النطقاء والأنحاء فإنها تميل أيضاً إلى عالم الطبيعة. فالصناعات الدينية الفلسفية والنجوم والهندسة والطب لدراسة النار والهواء والماء والتراب. النار علم الغيب التأييدى الدماغى وهو علم الأنبياء. والهواء علم الحقائق الإيمانى القلبى. والماء علم الممزج الاتقانى. والتراب علم الظاهر السمعى. ومن اعتدال الطبائع الأربع يتكون الخامس وهو المزاج، وكلها علوم أخزوية فى الباطن طبيعية فى الظاهر. وأهل الجنة من الأنس فى الأرض الروحانية مع لقائم أو فى الماء الروحانى مع النفس أو فى الهواء

(١) التناييع ص ١٢٥-١٢٦.

١٢	١١	١٠	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	لعلم لجسدى
								الأرض	الماء	الهواء	النار	الأمهات الأربع
					القمر	عطارد	الزهرة	الشمس	المريخ	المشتري	زحل	لكواكب لسبعة
الحوت	الدلو	الجدي	القوس	العقرب	الميزان	السنبلة	الأسد	السرطان	الجوزاء	الثور	الحمل	البروج الاثنى عشر
								البيضاء	الحمراء	السوداء	الصفراء	لطبائع الأربع
					الكليتان	المرارة	الطحال	الكبد	الرئة	القلب	الدماغ	الأعضاء السبعة الباطنة
الذكر		القتمان	الرجلان	الفخذان	اليدان	الظهر	البطن	الصدر	العنق	الوجه	الرأس	الأعضاء الاثنى عشر لظاهرة

الروحاني مع العقل. وعناصر الطبيعة تجمعها الهيولى، الحر والبرد واليبس والرطوبة، النفخة الأولى ثم النفخة الثانية للتأيد. والمواليد البسيطة القائمة أفضل من أهل الجنة، وأهل الجنة أفضل من الملائكة، والملائكة أحياء عاقلة^(١).

وتبلغ ذروة التأويل عند الشيعة في نظرية "المثل والممثل". فقد ظهر اللفظان عند القاضي النعمان كنظرية في تأويل الشرائع تقوم على ثنائية اللفظ والمعنى، الدال والدلالة، الماهية والواقع، الروح والبدن. لا يدخل الجنة إلا من تجاوز المثل إلى الممثل، واللفظ إلى المعنى، والظاهر إلى الباطن.

ولا ينطق المثل والممثل فقط باللغة بل أيضاً بالأشياء وبالظواهر الطبيعية وبالشرائع والمؤسسات الاجتماعية. فالظاهر محمد، والعصر القائم صاحب سيف التأويل، والمغرب والعشاء آدم. وأيام الأسبوع السبعة تقابل الأنبياء الستة والقائم^(٢).

ب- الأسماء والألقاب. وتعني الأسماء ألقاب الأئمة ودلالاتها على الدعوة ومراحلها. فالتشيع دعوة سرية. كما تدل على ذلك ألقاب دعائها. وتتراوح هذه الألقاب بين الاثني عشر والسبعة والستة في تراتب تنظيمي بين الأعلى والأدنى، الرئيس والمرؤوس. ويختلف الشيعة في هذه الألقاب. فالإمام النزاري مثلاً يجعل رتبة الشيخ بدلاً من داعي الدعوة. وهي مراتب الموجودات، ومراتب الصنعة الإلهية ومراتب الصنعة النبوية أو علماء الدين في آن واحد، لا فرق بين العالم والله والإنسان.

وقد خصص الشيعة رسائل للأسماء والألقاب كما خصص الحكماء رسائل للمصطلحات الفلسفية، الكندي، والرازي، وابن سينا، والآمدی^(٣). مثال ذلك "تحفة المستجيبين" للسجستاني (٣٣١هـ). فقد وضعت الأسماء للمعاني الجوهرية دون العرضية. فمتى دقق المرتاد المعاني الجوهرية سهل عليه حفظ الأسماء. أما إذا استبقى منها المعاني العرضية سهل على المعاند إفسادها عليه. هناك منطق محكم بين اللفظ

(١) منصور بن عامر: الأسابيع ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) القاضي النعمان: المذهب ص ٤١/١٩ / ٤٧ / ٥٤ / ٦٣ / ٨٣.

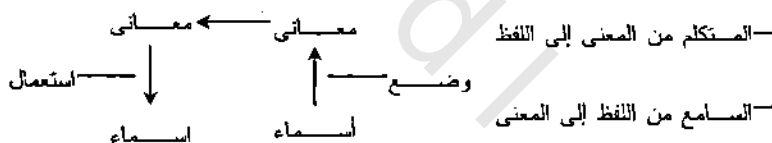
(٣) من النقل إلى الإبداع مج ١ النقل ج ٢ النص ف ص ٢ نشأة المصطلح الفلسفي.

والمعنى والمتكلم والسامع، المتكلم من المعنى إلى اللفظ، والسامع من اللفظ إلى المعنى^(١).
المتكلم يضع، والسامع يستعمل.

ومن أسباب وضع هذه الأسماء والألقاب إخفاء المعاني الحقيقية عن أهل الظاهر. فجعلوا الأسماء ألقاباً وكنيات حتى لا تقع في أيدي غير المستحقين لها وقبل دخول الباب سجداً. ولا مانع من استعمال هذه الألقاب، بمعانيها الظاهرة دون أن تدل على ما هو أبعد منها لهم^(٢). وهو مثل موقف الصوفية في رموزهم واصطلاحاتهم التي لا يفهم معانيها الباطنة إلا هم.

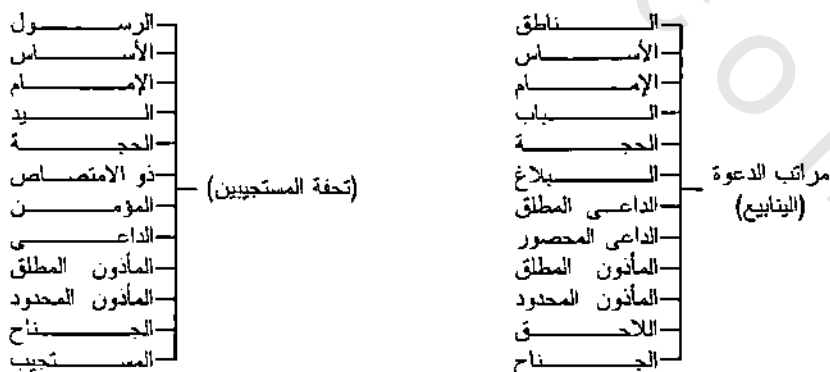
وتصل الألقاب إلى اثني عشر لقباً من أعلى إلى أدنى: الناطق، الأساس، الإمام، الباب، الحجة، البلاغ، الداعي المطلق، الداعي المحصور (المحدود)، المأذون المطلق، المأذون المحدود، اللاحق، الجناح. البعض منها لقب مفرد، والبعض الآخر مزدوج. ويأتى الأزواج مضاعفاً بين المطلق والمحدود أو المحصور. وهى الألقاب تدل على مراتب الدعوة وتنظيمها العنقودي^(٣). الناطق رتبة التنزيل، والأساس رتبة التأويل،

(١) تحفة المستجيبين: تحقيق وتقديم عارف تامر، سلبية، سوريا ١٩٥٦ ص ١٤٦.



(٢) السابق ص ١٥٤-١٥٥. ويمكن إعداد رسالة عن ألقاب الشيعة.

(٣) الينابيع ص ٢٣، تحفة المستجيبين ص ١٥٢-١٥٥.



والإمام رتبة الأمر، والباب فصل الخطاب، والحجة الحكم بين الحق والباطل، والبلاغ الاحتجاج وتعريف المعاد، والداعى المطلق تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية، والداعى المحصور تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة، والمأذون المطلق العهد والميثاق، والمأذون المحدود جذب الأنفس المستجيبة وهو المكاسر، واللاحق مؤازرة المأذون المحدود والقيام بمهمته، والجناح أثناء غيابه.

ويلاحظ أن التأويل أعلى من التنزيل ويأتى بعده، وأن مهمة الإمام تنفيذية خالصة، وأن مهمة الباب والحجة معرفية فى التمييز بين الحق والباطل، وأن البلاغ محاجة كلامية لإثبات المعاد، وأن الداعى المطلق والمحدود مهمتهما تحديد المفاهيم العلوية والسفلية، وأن مهمة المأذون المطلق والمحدود جمع الناس وربطهم بالميثاق، وتطهير أنفسهم فى حضور الإمام أو فى غيابه.

وفى اثنا عشرية أخرى: الرسول، والأساس، وهما الأساسان، ثم الإمام وهو المتمم، والحجة وهو اللاحق وهما معاً الفرعان، واليد، وذو الامتصاص، والداعى وهو الجناح، والمأذون المطلق، والمأذون المحدود، والمؤمن، والمستجيب دون الثانى عشر. فالناطق هو الرسول، والداعى والجناح مرتبتان: مرة ومرتبة واحدة. والداعى نوعان: مطلق ومحصور مرة، وداعى فقط مرة أخرى. ثم تختلف الأسماء فى الباب والبلاغ واللاحق مرة وفى اليد وذى الامتصاص والمؤمن والمستجيب مرة أخرى.

الناطق أى الاعلان وليس الجسد. والأساس هو الوحي، أساس المؤمنين والأئمة واللاحق ودور الكشف وكلاهما الأصلان أى التنزيل الرسول والوحي الأساسان، والتنزيل والتأويل للدين والدنيا. بالتنزيل عصمة الرجل وماله، وبالتأويل حياته وروحه ونجاة نفسه. والإمام هو المتمم أى بالأئمة تتم أدوار النطقاء. ويرتقى السابع من مرتبة الإمامية إلى القانمية. والحجة هو اللاحق لأن الإمام لا يقيم حجته على أهل زمانه من نفسه لعظم الأرض فقسمها طبقاً لأقسام الفلك الاثنى عشر جزيرة بازاء بروج السماء، وسبعة أقاليم بازاء السبعة أفلak وجعل فى كل منها حجة وفى كل جزيرة للاحق يدعو الخلق لدين الله.

واللاحق من اللوح لأن التأييد خاص لا يتعدى واحداً في كل زمان. ولكل لاحق خليفة وله قسط من تأييده. ويشار إلى الإمام والحجة بلفظ واحد. وهما فرعان من الأصلين. في العالم الجسداني أساسان، وفي العالم الروحاني أصلان. واليد لكل لاحق يعتمد عليه ويتق به ويقوم مقامه. وبمقدار عدد اللواحق توجد الأيادي. وذو الامتصاص صفة لبعض المختارين يمتصون بها ما يترجم باللسان وماضيه من حلاوة ودراية. والداعي أو الجناح معتمد على اللواحق في الدعوة لنشرها ظاهراً وباطناً طائرين مثل الأجنحة وتسليمها إلى المأذون المطلق أو المحدود. والمؤمن من عرف صاحب زمانه نسباً واسماً وسكناً وبيعة ووقف على مجارى الأكار والأدوار ومراتب الأسابيع وكيفية البيعة والثواب والعقاب. والمستجيب من استجاب لدعوة الحق وانقاد لمعرفة التوحيد والحدود العلوية والسفلية ومعرفة متشابهات التنزيل والشريعة التي لا يعرفها أهل الظاهر.

وصفات الفعل أشخاص وحدود مثل أسماء الله الحسنى. وهى من أعلى إلى أدنى الحكماء. وكلها من الأصلين: الله، إله: حروف علوية سبعة، وحروف ثلاثة، جنسان، وأنحاء سبعة، وساعات الليل والتهار أربع وعشرون، والأيادي، اليمين واليسار ثمانية وعشرون، ونطقاء خمسة، وأسس أربعة، وخلفاء أصحاب التأويل سبعة، والملائكة اثنا عشر، والجناح واحد، والمتمم واحد. فيكون المجموع تسعاً وتسعين، جمعاً بين الصفات والظواهر الطبيعية والملائكة والبشر^(١).

(١) قيس بن منصور: الأسابيع ص ١٦٣-١٦٤.



وصفات الفعل تعبر عن الأكوار والأدوار من أعلى إلى أدنى: الحكماء أربعة والأوصياء أربعة فى كور الإقرار. ثم أدوار أربعة فى كور الإقرار يضم ثمانية وعشرين. ثم النطقاء الأربعة، والأسس الأربعة، والأنحاء الثمانية والعشرون فى الأكوار الأربعة فى كور التعبد، ثم الناطقان والأساسان، ثم الأنحاء الأربعة عشر فى دورين، ثم صاحب الكشف، ثم الخلقاء الثمانية فى دور العلم. ويكون المجموع تسعاً وتسعين اسماً.

ويكشف لأهل الجنة عن أسماء الحق. ويمكن للعقل معرفتها وكذلك الجن. وأسماء الله الحسنى هى الحدود العلوية والسفلية للدلالة عليه، من أعلى إلى أسفل. وكل اسم علوى دليل على ما دونه. الأعلى يدل على الأدنى، والأدنى يعتصم بالأعلى، والكل يدل على الوحدانية كما يدل الاسم على المسمى. والاسم ليس مشتقاً من غيره بل الصفات محمولة عليه. والعقل مجمع الصور، اسم الله الأعظم. فانه محور العقل. والصفات ما دون النفس لما بها من تشبيه. وهى نوعان، صفات الذات وهى الحدود الروحانية، وصفات الفعل وهى الحدود الجسمانية. والمصدر واسطة بين الأسماء والصفات كما أن النفس واسطة بين العقل وسائر الحدود. وهى من أعلى إلى أدنى: الجد، والعقل، والنفس، والناطق، والأساس، والإمام، واللاحق، والداعى، والمستجيب^(١).

الاسم الذى لا مسمى له هو الجد، المرتبة الأولى. والمسمى الذى لا اسم له هو المستجيب المرتبة الأخيرة، وما بينهما اسم ومسمى، علة ومعلول. للصفة والاسم طرفان

(١) قيس بن منصور: الأسابيع ص ١٦٠.



والمصدر وسط. كما أن العقل والحدود طرفان والنفس وسط.

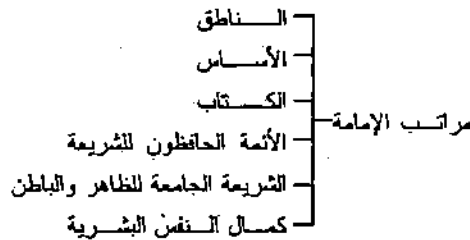
وقد يكون الترتيب سباعياً وكلهم من الأئمة ابتداء من الإمام المقيم، وأدنى من الأساس ثم المتم ثم المستقر ثم المستودع، ثم الإمام بالقوة ثم الإمام بالفعل. الإمام المقيم يقيم ناطق الدور ويمده بالروح. والإمام الأساس يرافق الناطق ومنه تسلسل الأئمة في أدوارهم الزمنية. والإمام المتم يتم الدور الذي يقوم به سبعة من الأئمة. والإمام المستقر له الحق بتوريث الإمامة لولده نصاً. والإمام المستودع له الإمامة في ظروف استثنائية ولا يورثها لولده. والإمام بالقوة كتاب الله المنزل، والإمام بالفعل هو الأساس. ويلاحظ أن كل مرحلتين على التقابل: المقيم والأساس، المستقر والمستودع، بالقوة وبالفعل (١).

وقد يكون الترتيب سداسياً: الناطق وأدنى منه الأساس ثم الكتاب ثم الأئمة القائمون بحفظ الشريعة وهم كثيرون، ثم الشريعة الجامعة للباطن والظاهر، للعلم والعمل من الكتاب، وأخيراً كمال النفس البشرية. الناطق هو أصل الدين علماً وعملاً، وأئمة يدعون إلى الكمال في العلم والعبادة الظاهرة. والأساس هو الإمام القائم بالفعل، والكتاب إمام بالقوة. وواضح أن المرتبة ليست فقط فرداً مثل الناطق والأساس بل جماعة مثل الأئمة القائمين بحفظ الشريعة أو كتاباً وهو الإمام بالقوة أو شريعة أو كمالاً للنفس البشرية (٢).

(١) الزينبيع ص ٢٤-٢٥.



(٢) الزينبيع ص ١٧.



وهناك ألقاب للمجموعات. فالنشيع دعوة للتجنيد. هناك تقسيم ثلاثي يبدأ بالرفاق المقدمين وهم القادة، ومسؤوليتهم فى الإشراف والتدريب. وأدنى منهم القذاثيون المناضلون. وأدنى منهم المستجيبون المبتدئون (١).

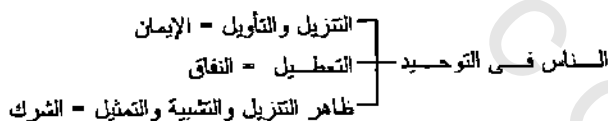
والناس فى التوحيد ثلاث مراتب: الولى ظاهر التنزيل والتشبيه والتمثيل وهو شرك. والثانية التعطيل، والثالثة التنزيل والتوحيد بالتأويل وهى رتبة المؤمنين الموحدين المنزهين (٢).

والناس فى الصفات والأسماء على أربع مراتب. الأولى المأذونون والأجنحة يرون صفات العقل وهى الحدود الجسمانية، وهم المؤيدون. والثانية الجن يرون صفات الذات وهى الملائكة. والثالثة الذين يرون الصورة التامة ولا يرون المصدر، ويتصلون بالاسم الحق وهو العقل بواسطة الملائكة والصورة التامة والنفس. والرابعة الملائكة بالفعل يرون الصور التامة وهى النفس، ولا يرون الحق وهو العقل بل يعرفونه ويتصلون به وبالجوهر الذى منه أيدع ولم يك تاماً (٣).

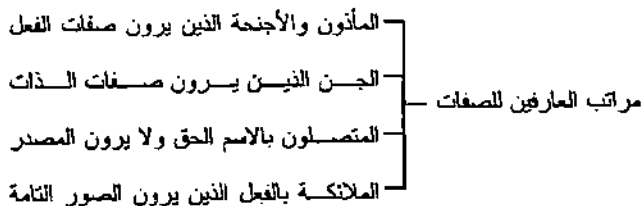
(١) الإنبايع ص ٢٤.



(٢) قيس بن منصور: الأسابيع ص ١٧.



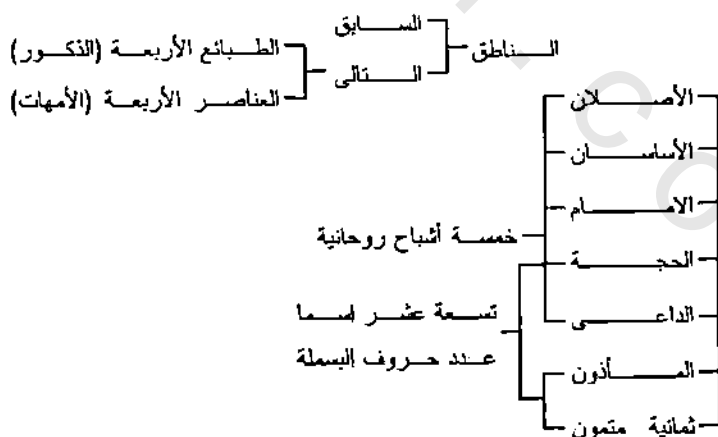
(٣) السابق ص ١٦٠-١٦١.



ويقابل التراتب الكوني التراتب الجماعي، تقابلاً بين عالم الربوبية وعالم الستر. فعالم الربوبية أربعة: العقل والنفس والهبولى والطبيعة. وهو نفسه عالم الطبيعة: الدهر والزمان والأركان والأجسام. الأوليان الكلمة والآخران الأمر. هذه العوالم الستة تقابل مجموعات الستر: عباد مكرمون، وأملاك مرسلون، وخيرة روحانيون، ورسل مصطفون، وأمناء مقربون، وأناس عالمون. وتقابل الاتجاهات الست: الأمام والوراء والجنوب والشمال وال فوق والتحت. والكل يرجع إلى ستة أعداد رياضية ثلاثة مزدوجة، نقطتان للخط، وخطان للسطح، وسطحان للجسم (١).

وتعلقت الولايم العلوية على الطبائع بالامتزاج فحدثت العناصر السفلية الكائنة فيها الأجسام، والحدود الجسمانية، والجواهر البسيطة والمركبة. وترتبت الحدود السفلية ترتيباً مستقيماً. وعلى هذا جرت أقدار الله من الأصلين الأساسين والإمام والحجة والداعى والمأذون وثمانية متمين. الأصل هو السابق، وانبعث منه التالى الذى ظهر منه الطبائع الأربعة وهى الذكور، والعناصر وهى الأمهات، فكان منها الروح الفرد. وظهرت فى العالم الحجج فى الجزائر، وتباينت الأقاليم التى يقوم فيها مقام الناطق

(١) حاتم بن عمران: الأصول والأحكام ص ١٠٢-١٠٣.



والأساس بالدلالات، وأخذ كل ربع من العالم خطة إذا كان العنصر من السابق إلى التالي إلى الناطق إلى الأساس والإمام والحجة ليقع الصلاح. هذا هو سر الله في العالم الذي لأجله أخذت العهود والمواثيق. الناطق والأساس والإمام والحجة والداعي دلالة على الخمسة أشباح الروحانية على ساق العرش وبها سأل آدم ربه التوبة فتأب عليه. وهي الأسماء التسعة عشر التي فتح الله كل سورة في كتابه بها. لذلك فرق أهل الظاهر بين دعوة الباطن لأنهم جهلوا الحدود الروحانية وتوقفوا على الحدود الجسمانية باتباعهم الشرائع الظاهرة وانحجاب الحقيقة عن عيونهم (١).

والخلائق الأربعة هم الملائكة والجن والشیاطین والإنس. الملائكة على التأييد المتصل بالنطقاء من السابق. والجن على ما يتصل بالنطقاء من فوائد التالي وقواء المستجنة عن الخلائق. والشیاطین على الذين عكفوا على ظاهر النطقاء دون الوقوف على حقائقها، فبعدوا عن الحق وضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل. والأسى على أهل الحق الذين أنسوا التأويل، ونجوا من الشكوك والشبهات وصار التأويل كهفهم وملجأهم (٢).

ومراتب المؤمن خمس: المؤمن والمحرم والمحل والمأنون والمباح (٣).

(١) السابق ص ١١٠-١١١.

(٢) الزبایع ص ١٦٩-١٧٠.

(٣) القاضی النعمان: الرسالة المذهبية ص ٨٤ - ٩٠.



خامساً : الضرورة والحرية

بعد التصورات الثلاثة للتاريخ، التاريخ الرأسى والتاريخ الأفقى والتاريخ الدائرى يمكن صياغة فلسفة التاريخ كجزء مكمل لعلوم الحكمة فى صياغة إشكالات رئيسية فيها مثل الضرورة والحرية، خصائص الشعوب، قيام الدولة وسقوطها، قوانين التاريخ، تاريخ الحضارة. ويمكن أيضاً الاستمرار فى نفس تصنيف التصورات المختلفة للتاريخ مثل التاريخ الشعبى، التاريخ السياسى أو التاريخ الحضارى، وخشية من نمطية التقسيم تم تفضيل الطريقة الأولى، وجعل باقى تصورات التاريخ متضمنة فيها.

١ - أنواع الضرورة. الضرورة والحتمية لفظان متساويان على التبادل. وهى على أنواع: أولاً الحتمية الجغرافية طبقاً للنظرية الجغرافية الشهيرة خاصة عند إخوان الصفا وابن خلدون وتفسير التاريخ البشرى طبقاً للموقع الجغرافى^(١). ثانياً الحتمية التاريخية التى تفسر كل شئ يقع فى التاريخ طبقاً للإرادة الإلهية أو قوانين الكون العامة. ومن ثم تسمى أيضاً الحتمية الكونية أو الحتمية الإلهية. ثالثاً الحتمية الشعبوية التى تفسر الظواهر الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والتاريخية طبقاً للخصائص النفسية والسمات المزاجية للشعوب طبقاً لعلم نفس الشعوب^(٢).

أ- الحتمية الجغرافية. وكما هو الحال عند إخوان الصفا وابن خلدون وجمال حمدان التاريخ ابن الجغرافيا، وأن كل ما يحدث على الأرض إنما هو محكوم بما يحدث فى السماء. عالم ما فوق القمر هو الذى يتحكم فى عالم ما تحت القمر بلغة الفلك القديم. فابن خلدون إذن صياغة كاملة لما كان معروفاً سلفاً منذ القرن الثالث حتى القرن السابع. موضوع الجغرافيا والتاريخ إذن موضوع واحد. الأرض ومن عليها أى الأرض والسكان. وبالتالي يصبح موضوع الجغرافيا البشرية أحد الموضوعات المشتركة بين

(١) وازدهرت فى الغرب الحديث عند هردر وكاتن ومونتسكيو. وهى أساس الجغرافيا السياسية كما صاغها أخيراً جمال حمدان فى فكرنا المعاصر.

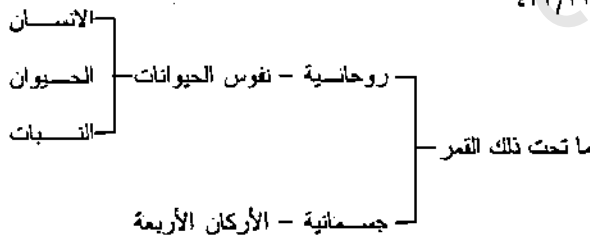
(٢) كان علم نفس الشعوب La psychologie des peuples أحد مراحل تكوين فلسفة التاريخ فى الغرب الحديث خاصة عند فوييه A. Fouillée وجويو J.M. Guyau وهو أحد مصادر العنصرية.

الجغرافيا والتاريخ. البداية بالزمان الجغرافى، النهار والليل والشهر والسنة إلى الزمان، التاريخ الأحقاب والمراحل، ومن تعاقب الليل والنهار إلى قيام الدول وسقوطها. ويتم الانتقال من الجغرافيا إلى التاريخ ومن فلسفة الطبيعة إلى فلسفة التاريخ، ومن جدل الطبيعة إلى حركة التاريخ. وما تحت فلك القمر نوعان: جسمانية، وهى الأركان الأربعة والى منها يتكون النبات والحيوان والإنسان، وروحانية وهى نفوس الحيوانات (١).

وقد تكون الأقاليم أربعة أو ستة عشر عند الفيثاغوريين مثلاً إلا أن الأكثر شيوعاً هو أن الأقاليم الجغرافية سبعة. وعلى أساسها تنشأ الجغرافيا البشرية. وبينها خطوط وهمة تم وضعها.

ففى الجغرافيا الطبيعية تتعدد أنواع الجبال وأحجارها الصلبة أو اللساء أو الخضراء طبقاً للأقاليم. وتتفاوت شهرة البلاد فى المعادن طبقاً لها. وتوزع مياه البحار والأنهار أيضاً طبقاً لها. توجد سبعة أبحر: بحر الروم، والقلزم، وفارس، والصين، والهند، وباجوج وماجوج، وجرجان. ويرى الضباب فى البلدان القريبة من سواحل البحار. وتكثر الأمطار فى الشتاء وتقل فى الصيف نظراً لصعود الأبخرة فى الأقاليم الشمالية. وتسرى الأنهار شرقاً وغرباً. وشمالاً وجنوباً مثل أنهار النيل والشام ودجلة والفرات وأذربيجان وسجستان. والأفلاك السرية تقابلها الأقاليم السبعة، والبروج تقابلها البلدان، والوجود والحدود تقابل المدن والقرى، والدرجات والدقائق فى مقابل الأسواق والمحال والقرى، والثوانى الدور والمنازل والبيوت (٢).

(١) الرسائل ط/١١/٤٣٣



(٢) الرسائل جـ ١١/٢/٤٥٧ جـ ١١/٢/٥٧ جـ ١١/٢/٧٨ جـ ١١/٢/٩٧ جـ ١١/٢/١٠٠ جـ ١١/٢/١٦٦ جـ ١١/٢/١٦٦.

الملوك الأوائل الذين كانوا بالربع المسكون من الأرض مثل أفريدون النبطي وتبع الحميري وسليمان داود والاسكندر اليوناني وأردشير بن بابك الفارسي لتعليم حدود البلدان والممالك والممالك. فالتاريخ سند للجغرافيا (١).

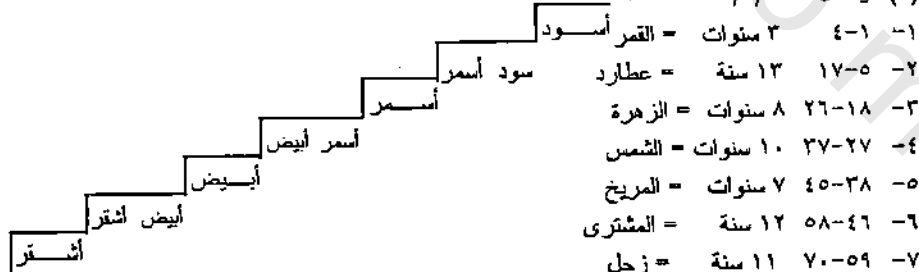
وتتحكم الكواكب في المواليد قبل الولادة من الشهر الأول حتى الشهر التاسع. ويكتب له رزقه وحرفته ورئاسته ومزاجه وآفاته وعلمه كما هو الحال عند الأشاعرة "السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقى في بطن أمه"، وتقدير الأجل والأرزاق والأسعار والفقر والغنى سلفاً من الله. فما من مولود إلا وقد قدر الله حياته ومماته ورزقه، سعادته وشفاهه، هداه وضلاله، توفيقه وخذلانه. ومقدر عليه في مراحل عمره كل شيء، كل كوكب من الكواكب السبعة يتوكل عليه بحوالى عقد من الزمان. وتتحكم الكواكب في جنس المولود ذكراً أم أنثى. وتحدد ألوان البشرة لسكان الأقاليم السبعة بين الأسود والأشقر طبقاً للقرب من الشمس، من الأسود إلى الأسود الأسمر إلى الأسمر إلى الأبيض إلى الأبيض إلى الأبيض الأشقر إلى الأشقر (٢).

(١) السابق حـ ١٣٦/٦/٢-١٣٧.



جـ ١٧٩-١٧١/٤/١

(٢) الرسائل حـ ١٤٩/٣/١-١٥٢.



وتتحكم الكواكب فى تكوين الجنين. فالتدبير فى الشهر الثانى من فعل المشترى، وهو كوكب الاعتدال، وسبب النظام والترتيب، ودليل العقل فى الإنسان والفهم والتمييز فى العلم والزوية والعفة والدين والورع والتقوى والعدل والإنصاف والعفة والزهد أى خصال الملة التى تؤدى إلى السعادة. وفى الشهر الرابع تظهر الخصال التى يحتاج إليها الملوك والرؤساء وأتباعهم وتدبير سياساتهم وقبول خصال النبوة والملك والفضائل الانسانية والأخلاق الملكية والمعارف الربانية والعلوم الالهية. وفى السادس معرفة علم الدين والكلام والأقوال فى الورع وأحكام الشرع ومواعظ الناموس ووصف العدل وبيان الخلق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وذكر المعاد ووصف أحوال الآخرة، وبعث الأنبياء وهم أطباء النفوس. ثم يصير المولود فى تدبير المشترى اثنا عشر شهراً وهو صاحب الدين والورع والانابة، والزهد والعبادة، والرجوع إلى الله بالصوم والصلاة.

وأحد الأسباب التى دعت الحكماء إلى وضع النواميس واستعمال السنن أن مرجعيات أحكام النجوم من السعادات والمناحى عند ابتداء القرائن وتحاويل السنن من الغلاء والرخص فى الجذب والخصب أو القحط والطاعون والرخاء أو تسلط الأشرار الظالمين وما شاكلها من تغيرات الزمان وحادث القيام^(١).

وفى كل إقليم من هذه الأقاليم السبعة ألوف من المدن. وفى كل منها أُمم من الناس مختلفة الأسنة والألوان والطبائع والآداب والمذاهب والأعمال والصنائع والعادات. يختلفون فيما بينهم كما يختلف الحيوانات والمعادن بسبب اختلاف أهوية البلاد وتربة البقاع وعذوبة المياه وملوحتها طبقاً للتوجه القرآنى الصريح فى اختلاف الطبيعة كمقدمة فى حق الاختلاف^(٢).

وترتبط الطبائع بالأوضاع الجغرافية للشعوب. فمزاج الأبدان من البلدان الجنوبية كالحبشة والزنج والهند والسند يغلب عليه الحرارة لمرور الشمس على سمتها مرتين

(١) السابق حـ ١١/٢ - ٤٤٠ - ٤٤٣/٤٤٨ حـ ١٨٦/٥/١.

(٢) السابق حـ ٧٩/٤/١. انظر أيضاً دراستنا: حق الاختلاف. هموم الفكر والوطن حـ ١ التراث والعصر والحداثة. ص ٢٢٩ - ٢٣٨.

فتحترق ظواهر الأبدان وتسود الجلود وتتجدد الشعور، وتبرد بواطن الأبدان، وتبيض العظام والأسنان. وتتسع العيون والمناخر والأفواه. على عكس البلدان الشمالية حيث تبعد الشمس فتبيض الجلود، وتترطب الأبدان، وتحمّر العظام والأسنان، وتكثر الشجاعة والفروسية، مع أن الفروسية لم تقل في البلاد الحارة، وتسيط الشعور، وتضيق العيون، وتجف الحرارة في بواطن الأبدان. فالطباع والأخلاق تتبع مواقع الشمس (١).

وتتحكم الكواكب في البيئة الاجتماعية مثل الدهاقين جمع دهقان وهم المكدون أو التجار أو المتسولون، وزعماء الاخلاص العجم ورؤساء الأقاليم. كما تتحكم في النظم السياسية ومناصب الناس ملوكاً ووزراء وأولياء عهد. كما تتحكم في المواهب، شعراء وخطباء.

ويتخصص كل كوكب في قطاع اجتماعي في بنيته المادية أو المعنوية، الجغرافيا الطبيعية والدين والسياسة والفن والعلم. فزحل كوكب الطبيعة والعمران، سبب حدوث الأنهار والجبال والبراري والأجسام والعنران والشوارع والطرق وحدود البقاع. والمشتري يتعلق بالدين والسياسة، سبب حدوث المساجد والهيكل والبيع ومواضع الصلوات، وبقاع القرايين، وعلة اجتماعات الناس في الجمع والأعياد وتعلم أحكام النواميس، وقرارات الكتب النبوية، والتفقه في الدين والحكومة عند القضاة والحكام. والمريخ كوكب الحرب والصناعة والسياسة سبب حدوث موافد النيران ومذابح الحيوان ومعسكر الجيوش وأماكن السباع ومواضع الحروب والخصومات، وعلة اجتماعات الناس، والنبات والجواهر المعدنية. والزهرة كوكب البساتين واللهو والجمال والفن، وسبب مواضع المتنزهات ومجالس الطعام والشراب والفرح والسرور واللذة والمناظر الحسان، واجتماعات الناس والنبات والحيوان. وعطارد كوكب الأسواق والعلوم والكتاب ومواضع الصنائع ومجالس العلماء ودواوين الكتاب وجموع القصاصيين ومناظرات العلماء، ومنازل الملوك والسادات صعوداً، ومواضع السحق والسقوط والحبوس هبوطاً.

والسؤال هو: لماذا يختص كل فلك في السماء بقطاع على الأرض، وما وجه

العلاقة؟ لماذا المشتري للدين، وتعارض الحرب والسلام بين المريخ والزهرة ولماذا وضع العلوم فى الأسواق؟ وماذا عن باقى مظاهر الحياة الإنسانية، العلاقات الأسرية، وما يحدث للفرد من سعادة وشقاوة؟^(١).

ويزيد عدد مدن الأرض وينقص بحسب موجبات أحكام القرائن وأدوار الأفلاك. فالقرائن دالة على قوة السعد واعتدال الزمان واستواء الطبيعة ومجىء الأنبياء وتولية الوصى، وكثرة العلماء، وعدل الملوك، وصلاح أحوال الناس، ونزول الغيث، وتركيب الأرض والنبات، وتوالد الحيوان، وعمران البلاد، وكثرة المدن. وبالقرائن الدالة على قوة النحوس يفسر الزمان والنطق، وينقطع الوصى، ويقل العلماء، ويموت الأخيار، ويجور الملوك، وتقسى أخلاق الناس، وتسوء الأعمال، وتختلف الآراء، ويمتنع نزول الغيث. فلا تترك الأرض، وبجف النبات، ويهلك الحيوان، وتخرب المدن فى البلاد.

وتظهر النبوة طبقاً للأقاليم السبعة. تظهر فى المناطق المعتدلة، فى الإقليم الثالث. فضيلة الاعتدال ليست فقط جغرافية بل أيضاً نبوية إلهية. فأكثر الأنبياء من السحر أى الإقليم الوسط بين الشمال والجنوب لأن الطرفين ناقصان، البيض من أسفل والزنج والحبشة من أعلى لأن أخلاقهم وحشية. ولما يعتدل مزاج أهل البلدان الجنوبية من الحبشة والزنج والنبوة وأهل السند والهند. الحرارة فى الداخل عند البيض، وفى الخارج عند السود. إذا اجتمعت الخصال فى واحد من البشر فى دور من أدوار القرائن فى وقت من الزمان يكون هو المبعوث وصاحب الزمان والإمام. فهل يظهر الأنبياء بالقرائن أم باحتياجات الأمم وقوانين التاريخ بناء على أسباب النزول؟

وكما أن هناك أقاليم سبعة استدل المنجمون على أن الكائنات سبعة أنواع من دورات التاريخ والأنظمة السياسية والكوارث والحوادث والمواليد والأمور الخاصة. فدورات التاريخ للجيل والدول كل مائة سنة مرة. ونظم الحكم من أمير إلى أمير كل مائتى وأربعين سنة مرة. والملوك، فتناً وأشخاصاً، كل عشرين سنة مرة. والكوارث من الأمراض والعلل والغلاء والرخص والجذب والخصب والوباء والموت واللقط كل سنة

(١) السابق حـ١/٤/١٨٠: ٣٠٤/٩/٢ حـ١/٦/١٢٤-١٤٤.

مرة واحدة. والحوادث والاستقبالات والاجتماعات كل شهر وكل يوم. والمواليد كل دقيقة وثانية، والأمور الخافية كل ثانية. فالزمان يتناقص تدريجياً من التاريخ إلى خفايا الأمور من الدورة التاريخية في أعمار الحضارات إلى الدورة الفردية في أعمار الأفراد^(١).

وقد وصلت الحتمية الجغرافية إلى حد أن كل ما فى العالم من خير وشر صلاح وفساد إنما هو ناتج عن قرانات الكواكب. ويحدث قران كل خمسة وعشرين عاماً، فتظهر دولة عند بعض الأقوام والأمم، ويقوى بعض السلاطين، ويخرج بعض الخوارى، وتجدد بعض الولايات. كل ذلك من أثر المريخ! وهل دورات الأفلاك هى المتحكمة فى دوران الحضارات؟ وهل تنهار الأمم بعوامل خارجية، دوران الأفلاك وقراناتها أم بعوامل ذاتية، أخلاقية واجتماعية وسياسية؟ ويبين لفظا الأكوار والأدوار بأنه لا فرق بين دورات الطبيعية والتاريخ، والقران بالحدث الذى منه تبدأ الدورة وتنتهى، لا فرق بين الحدث الطبيعى والحدث البشرى. ونشأة الدول وانهارها، وهو الموضوع الرئيسى لفلسفة التاريخ حالة مثل حالات الطبيعة لا أثر فيها لحركات الشعوب أو مبادرات الأفراد والادارات الحرة، الفردية أو الجماعية. فالدول مثل المعادن والنبات والحيوان، تتحكم فيها الكواكب خاصة المريخ الموكول له قضايا الحرب والسلام. وماذا تبقى من المسؤولية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد، والحساب والعقاب لو كان ما يقع فى الأرض بالأكوار والأدوار والقرانات؟ حتى انقطاع الوحي بقران وليس بارادة الله. قد يعنى القران فى هذه الحالة قانون التاريخ أو اكتمال الوعى الإنسانى عقلاً وإرادة. وفى هذه الحالة يصبح القران ليس

(١) السابق حـ ١/٣/١٥٤-١٥٥.

١- دوران التاريخ	الملك والدول	١٠٠ سنة
٢- نظم الحكم	من أمير إلى أمير	٢٤٠ سنة
٣- الملوك	فتن وأشخاص	٢٠ سنة
٤- الكوارث	الأمراض والعلل	سنة واحدة
٥- الحوادث	أحداث واستقبالات	كل شهر وكل يوم
٦- المواليد	المواليد	كل دقيقة وكل ثانية
٧- الأمور الخافية	خفيات الأمور	كل ثانية

قرانات الكواكب فى السماء بل جدل التاريخ والارادات البشرية على الأرض.

وليس بالضرورة أن يكون زحل والمريخ والذنب نحوسا، والزهرة والقمر والمشتري سعوداً وكما هو متبقى فى الخيال الشعبى فذلك يتوقف على حر الشمس وبرد زحل ويس المريخ ورطوبة الزهرة والقمر. فالحتمية الجغرافية تجمع بين الوصف الطبيعى والخيال الشعبى. وفى هذه الحالة يجوز الدعاء ورفع الأكف إلى السماء والشخص بالأبصار نحو الأفلاك وما يسميه إقبال "فلسفة السؤال". وهذا هو الذى دفع الناس فى الممارسات الشعبى بممارسة "الربط"، ربط فعل الإنسان بالفلك خيراً وشرأ خاصة فيما يتعلق بالفقر والغنى أو القوة والعجز الجنسى^(١).

وبالرغم مما يوحى به لفظاً الأدوار والأكوار من التصور الدائرى للتاريخ كما هو الحال عند السجستانى إلا أنهما يشيران إلى أدوار وأكوار فلكية، قرانات فى الماء وليست على الأرض أو على أقصى تقدير، قرانات فى السماء لها آثار على الأرض، وبالتالي الانتقال من الجغرافيا إلى التاريخ، ومن الفلك إلى البشر، ومن النجوم والكواكب إلى المجتمعات والدول، ومن السماء إلى الأرض، ومن الله إلى الإنسان. فتاريخ البشر جزء من تاريخ الكون، والتاريخ الإنسانى جزء من التاريخ الطبيعى.

يشير اللفظان إلى حركة الكواكب. فالفلك له دور. والدور له كور. والكواكب فى أدوارها. والأكوار هو استئناف الدور وعودته إلى موضعه مرة بعد أخرى. كما يفيد اللفظ التكرار. والأكوار لها قرانات. ومن هذه الأدوار والأكوار والقرانات تقع حوادث لا تحصى على الأرض فى عالم الكون والفساد. ولكل منها أوج وحضيض، علو وسفل^(٢).

(١) السابق حـ ٢٦٤/٥/٣-٢٦٥.

(٢) السابق حـ ٢٤٩/٥/٣-٢٥٠.

← الفلك - الكوكب
← الدور
← الكور
← القران
← الحوادث



والأدوار خمسة: الكواكب السيارة فى أفلاكها الحاملة، ومركز أفلاك التداوير فى أفلاك الحاملة، والأفلاك الحاملة فى فلك البروج، والكواكب الثابتة فى فلك البروج. والفلك المحيط بالكل حول الأركان. والقرانات هى اجتماعاتها فى درج البروج ودقائقها. وهى ستة أجناس ومائة وعشرون نوعاً^(١). فإذا ضربت فى درجة ينتج منها ٤٣,٢٠٠ قرناً شخصياً. وتختلف الأدوار والقرانات فى الزمان طويلاً وقصراً، فى السرعة والبطئ، فى الظهور والخفاء، فى العمق والسطح. والنماذج فى المعادن والنبات والحيوان، فى الحياة والموت. وأدوار الألف تبدأ من سبعة آلاف ثم اثنى عشر ألفاً ثم واحد وخمسين ألفاً ثم ثلاثمائة وستين ألفاً^(٢).

وكل ذلك مرتبط بعلم الفلك القديم ويستعصى فهمه الآن. وتقوم على حتمية كونية كما وضع فى علم الكلام الأسعري. ولماذا لا يحدث طبقاً للقرانات إلا ٣٤,٢٠٠ قرناً مع أن الحوادث أكثر من ذلك، والبشر الآن ما يزيد على ستة مليارات. ويمكن اشتراك أكثر من شخص فى قران واحد. ألا يؤدى القول بالقرانات إلى تناقض؟ فإذا كانت هناك حتمية كونية إذ لا يحدث شئ إلا وله قران إذن يمكن معرفة الحوادث والتنبؤ بها، وهو ما يتناقض مع معرفة الله المسبق بها وعلم الغيب. فإذا دخلت القرانات فى العلم الطبيعى ألا

(١) السابق ٢٥٠/٥/٣.

← ٢١ قرناً ثنائية	← الكواكب السيارة فى أفلاك الحاملة
← ٣٠ قرناً ثلاثية	← مركز أفلاك التداوير فى أفلاكها الحاملة
← ٣٥ قرناً رباعية	← الأفلاك الحاملة فى فلك البروج
← ٢١ قرناً خماسية	← الكواكب الثابتة فى فلك البروج
← ٣١ قرناً سداسية	← الفلك المحيط بالكل حول الأركان
← ١ قرن سباعي	

(٢) السابق ٢٥٨-٢٥٣/٢٥٠/٥/٣.

← ٧,٠٠٠ سنة	
← ١٢,٠٠٠ سنة	
← ٥١,٠٠٠ سنة	← أدوار الألف
← ٣٦٠,٠٠٠ سنة	

يكون ذلك توضيحية بالعلم الإنساني وبالإرادة الإنسانية؟ هل القرانات تنظير لأية ﴿ ولكل أجل كتاب ﴾ على نحو كوني؟ وقد يكون هذا شركاً بالله لأن الله يفعل من خلال الأفلاك ولا دخل للإنسان في الإرادة البشرية في كلتا الحالتين. ولماذا لا يكون ذلك دورات طبيعية بين الحياة والموت، واليقظة والنوم، وتأقلم الإنسان مع البيئة الطبيعية؟ وما دور الفلك والطبيعة والإنسان في المسؤولية عن وقع الحوادث الطبيعية والتاريخية؟ وإذا كان دوران الأفلاك أكرم الأفعال وأشرفها وغرضها أشرف الأغراض أليس هذا أنسنة للطبيعة وإسقاطاً لمقولة الشرف عليها؟ وإذا كان في الأرض صلاح وفساد، خير وشر، فما مقياس وقوع هذا أو ذلك بالقرانات مادام العقل القادر على التمييز والإرادة الحرة القادرة على الاختيار ليسا عاملين في وقوع الأفعال؟ وما الذي يجعل القرآن سعيداً أو نحساً والإرادة البشرية والقصد الإنساني غائبين؟

ولماذا حصر أنواع الحوادث في سبع؟ وما مقياس المدة؟ هل هذا فكر عقائدي استنباطي أم تبرير سياسي استقرائي لحوادث معينة؟ وماذا يعني الاستدلال على خفايا الأمور؟^(١) هل في ذلك بقايا باطنية؟ ولماذا مقياس الدور ألف سنة أو اثنتا عشرة سنة أو ستة وثلاثون؟ وما مقياس فترة الدور هل هو العدد ثلاثة مضروباً في اثنا عشر وهو ما لا ينطبق على العدد اثنتي عشرة؟ وفي أي قران نحن الآن، في هذا الزمن الرديء، عصر الردة والانكسار؟ وما هو القران القادم، هزيمة أم نصر، توسع صهيوني أم تحرير لكامل فلسطين؟

صحيح أن التاريخ عبرة وعظة. لذلك يذكر الإخوان المستجيبين بحوادث الأيام وتغيرات الزمان والخطوب والحدثان وما تدل عليه دلالات القران من تغييرات شرائع الدين والملل وتنقل الملوك والدول من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن أهل بيت إلى أهل بيت. فاجتمع رأيهم وارتفعت كلمتهم على أنه لا بد من كائن في العالم فيه صلاح الدنيا، وهو تجديد ملك في المملكة، وانتقال الدولة من أمة إلى أمة، وأن لذلك دلالات واضحة عرفت بفراغ العقول وتجارب الأمور واعتبار تصاريح الزمان فيما مضى من

(١) السابق حـ ١٨٩/٧-١٩١ حـ ٥٢٥/١/٤.

الحدثان وما يعرف منها بالزجر والفأل والكهانة والفراسة وبدلائل المتحركات من النجوم والمنامات مما تدل عليه من الكائنات قبل أن تكون. والسؤال هو: هل يعرف التاريخ بالزجر والفأل والكهانة والفراسة؟

يتدخل علم النجوم كم تدخل علم النفس من قبل في نظرية الاشراف لشد الانتباه خارج العالم بالرغم من نقد الإخوان لصناعة التنجيم في رسالة الحيوان. ومع ذلك فهناك قدر ضئيل من العوامل الإنسانية تتدخل في قيام الدول وسقوطها مثل الآثار النفسية للاعتقادات الفاسدة انتقالاتاً من التاريخ الرأسي إلى التاريخ الأفقي. فإذا فسد النظر فسد العمل. وتؤثر النجوم والكواكب في أخلاق الشعوب. فإذا اتفقت عدة مواليد في طالع واحد ووقت واحد في بلدان مختلفة وشكل الفلك يدل على أنهم يكونون شعراء وخطباء. بعضهم في بلاد العرب وبعضهم في بلاد النبط وبعضهم في بلاد الأرمن. يختلف قبولهم. فالعربي أسرع قبولاً لخاصة بلده أكثر من النبطي، والنبطي أكثر من الأرمني. ومن ثم فالعامل الفلكي هو العلة الفاعلة، واستعداد الشعوب هو العلة القابلة. ومن اجتماعهما تحدث الخصائص العامة للشعوب (١).

ب- الحتمية التاريخية. وأمور هذه الدنيا دول ونوب تدور بين أهلها قرناً بعد قرن، من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد. كل دولة لها وقت منه تبدأ وإليه تنتهي وغاية إليها ترتقي. فإذا بلغت غايتها وذروتها سارع إليها الانحطاط والنقصان، وانتاب أهلها الشؤم والخذلان. ثم دارت دورة أخرى في أناس آخرين أكثر نشاطاً وقوة وظهوراً وانبساطاً. وكلما ازدادت الدولة الأولى ضعفاً زادت الثانية قوة حتى يتلاشى الأول ويقوى الثاني. وهكذا مجرى أحكام الزمان، دولة الشر الأولى ودولة الخير الثانية. وقد بلغت دولة الشر حدها في زمن الاخوان مما يؤذن بزوالها وقيام دولة الخير. وهنا يوظف التاريخ للسياسة والسياسة للتاريخ. ينتقل الدولة والملك في كل دهر وزمان وقران من أمة إلى أمة، ومن بيت إلى بيت، ومن بلد إلى بلد أي تغير الأسر الحاكمة أو عاصمة الحكم أو الشعب، العرب أو العجم. وتبدأ دولة أهل الخير من علماء وحكماء وأخيار وفضلاء

(١) السابق ١/٩ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ١/١٤٩.

يجتمعون على رأى واحد ومذهب واحد ودين واحد. ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً دون جدال أو تقاعص عن نصرة بعضهم البعض. ويكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم، ونفس واحدة فى جميع تدبيرهم لنصرة الدين وطلبها الآخرة، طلباً لوجه الله ورضوانه (١).

دورات التاريخ إذن صراع بين الخير والشر وتحويل قيم الأخلاق إلى قوانين التاريخ. وتبدأ دولة الخير من جماعة الإخوان. فالإخوان لهم دور فى التاريخ، لهم غاية عملية ورسالة. وتقوم دولة الخير فى مقابل دولة الشر بناء على توجه قرأنى صريح أو ضمنى ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾. تنهار الدول بانهيار القيادات، وتنشأ بنشأتها. فللزعامه دور حاسم فى نشأة الدول وانهيارها.

وكما يتم الخلاص عن طريق علم النفس طهارة النفس وعلم الاجتماع فإنه يتم أيضاً عن طريق فلسفة السياسة وفلسفة التاريخ أى مراحل التاريخ المتتابعة. فتاريخ الدين هو تاريخ السياسة أى قيام الدول وسقوطها مثل القيام والسقوط فى ظواهر الطبيعة، النهار والليل والفصول الأربعة لأن الحياة نفسها تناؤل ونشأوم، صلاح وفساد، حياة وموت. وقد تبقى الدول وتتوالى الأنظمة السياسية داخل كل دولة مما يشرع للانقلابات والثورات السياسية من أجل أن يتسلم الإخوان الحكم (٢).

وتلك مجرى أحكام الزمان. فالزمان كله نصف نهار مضىء ونصف ليل مظلم. وهذا حكم أهل الزمان فى دولة الخير ودولة الشر. تارة تكون القوة والدولة فى ظهور الأفعال فى العالم لأهل الخير وتارة لأهل الشر. وإذا ما تنامت قوة أهل الشر وكثرت أفعالهم فليس بعد التنامى فى الزيادة إلا الاتحطاط والنقصان. تبدأ الدولة بأهل الخير بنوع من العقد الاجتماعى وتنتهى بخرقه وفساده. وهى قوانين واحدة تسرى على كل الشعوب، قوانين البقاء والفناء، لا فرق بين عرب وأتراك وبولدى (٣).

وعند التوحيدى لكل أمة زمان معها وزمان ضدها، لها قيامها وسقوطها مثل دول

(١) السابق حـ ١٨٠/٤/١٨٢.

(٢) السابق حـ ١٨٦/٧/١٨٨.

(٣) السابق حـ ٢٣٦/٨/٢.

يونان والإسكندر وكسرى أنوشروان ربما تعبيراً عن تصور قرآني ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾^(١). ويتداخل العامل الإلهي مع العامل الإنساني. فالإرادة الإلهية مازالت هي العامل الفعّال في التاريخ، وأن الله إذا أراد ثمراً غرس له غرساً. فغاية التاريخ الفاعلية فيه من الله. ومع ذلك تظهر الزعامة عاملاً إنسانياً محرّكاً. فالزعيم هو خليفة الله على الأرض. أثناء قيام الدول ينشأ أفراد يجسدون نهضتها. وتتجلى روح النهضة في الأفراد ثم في الشعوب. كما أن انهيار الدول يتجلى في انهيار الأفراد والتفكك الجماعي للشعوب وانهيار القيم وضياح القضية أي النخوة والحمية والعصبية. ويبقى الملك في بيت واحد وفي ملك واحد زماناً طويلاً لا ينقاد الناس إلا به وكما تشهد بذلك جميع الأمم، الفرس والروم والهند^(٢).

ويبدأ العامل الإلهي في التناقص والعامل الإنساني في التزايد عند الرازي في مقالة في أمارات الإقبال والدولة، مع التركيز على الزعامة أو الملك كبديل عن الله وكأن الدولة هو رئيسها كما هو الحال في الإمامة^(٣). وهي رسالة قصيرة، فمازالت مفاهيم التاريخ في بدايتها. وأقرب إلى فلسفة السياسة أي إقبال الدول وذهابها مما يهم الملوك لا الشعوب. ومازالت مرتبطة بعلم التنجيم على نحو خرافي. وتركز على الإمارات والعلامات لقيام الدول وسقوطها وهي عشرة:

١- حدوث تغير فجائي علمي عن سبب إلهي أو طبيعي بقوة تأتي وتذهب سريعاً أي النداء أو الصحوة. وهو أقرب إلى النبوة أو الإلهام أو الكشف العلمي بالمعنى المعاصر. فالتاريخ هو التاريخ الثقافي أو العلمي أو الحضاري بوجه عام.

٢- انساق الأمور واطرادها ومجيؤها ووقوعها على موافقة التنقل أطوال ولو في دقائق الأشياء وخسائسها فضلاً عن جلائها وعظائمها، مثل طعام شهى يقدمه الطاهي للملك

(١) موضع أسطورة الإسكندر في الغرب وكسرى أنوشروان في الشرق وإلهامهما الفكر والواقع مثل نابليون وهيجل وبيتهوفن ودافيد يمكن أن يكون موضوع رسالة جامعية.

(٢) التوحيد، الامتاع والمواصلة - ٧٥/٣٥/١ الهوامل والشوامل ص ١٩٨.

(٣) الرازي: مقالة في أمارات الإقبال والدولة، رسائل الرازي، مقدمة وتحقيق بول كراوس. رسائل ص ١٣٦ - ١٣٨.

أو الأمير دون طلبه، فصغائر الحوادث تكون سبباً في عظام الأمور.

٣- ما يحدث في أخلاق النفس الموافقة للرياسة المعينة المقوية عليها بعلو الهمه والنبل والجود وقلة مهابة الأكفاء وفضل الرأي وإجادته، في حين أن التاريخ أيضاً قد يتحرك بالأخلاق المضادة، الخداع، والحيلة، والعدوان، والغرور، والقتل والتوسع والعنصرية كما هو الحال في الاستعمار الغربي والصهيونية الغربية الحديثة^(١). ربما أراد الرازي تأليف هذا الكتاب الصغير للتقرب من بعض أفراد زمانه وبالتالي يكون النقد الموجه إليه في السيرة الذاتية صحيحاً. والعنوان من وضع ابن أبي أصيبعة. وذكره البيروني تحت عنوان "في فنون شتى" مما يدل على أن التاريخ لم يكن قد ظهر بعد كوعى بالتاريخ. وذلك مثل مقال الكندي "في ملك العرب وكميته". إنما ميزة الرازي أنه لا يشير إلى أحكام التجوم كما فعل الكندي وإخوان الصفا وهي إمارات وعلامات إيجابية في قيام الدول والإمارات، وقد تكون أيضاً علامات سلبية في انهيارها. فهي علامات متشابهة. وهي علامات للامارة والأشرف والأعظم أي للامامة الكبرى أي الدولة. ويمكن أن تكون أيضاً علامات للامارة الصغرى أي إمارة أو رئاسة مثل الامامة الصغرى.

٤- عشق الرياسة وفرط محبتها في أن الملك أو الأمر لا يرى شيئاً إلا بها، ولا يهيمه أمراً سواها. فذلك يدل على أنه مهيم لها لأن الطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً، ولا تترك قوة عاطلة. فإذا كانت الرياسة طبيعية فلم تجاوز الطبيعة بما بعد الطبيعة؟ ألا تؤدي الرئاسة وحدها إلى أشنع أنواع النظم التسلطية؟ وهل الرياسة أقرب إلى انطبع أم المشورة والاحتكام إلى الناس؟

٥- ما يحدث له من الحلم والتؤدة في الأمور التي فيها لبس وشبهة لأن ذلك يدل على أنه محروس من ركوب الخطايا والوقوع في الزلل وأنه مجرى به إلى إدراك حقائق

(١) وفي هذه عدة أمثلة مثل: أن معظم النار من مستصغر الشرر أو المثل العامي "يجعل سره في أضعف خلقه". وكثيراً ما نكر طبق المكرونة الذي كان يقدمه دلبس للخديوي إسماعيل للموافقة على إعطائه امتياز حفر قناة السويس. وهو ما سماه هيجل أيضاً "الحيلة في التاريخ".

الأمر. فالحلم سيد الأخلاق. والسيطرة على الموقف بعيداً عن الانفعالات سبيل النجاة. والسؤال هو: هل هذا سمة للنفس، ورؤية سياسية أم قوة خارجية تدفعه وتحرسه؟ وهل هذا صدق ووعى سياسى أم أنه تواضع مفتعل يخفى جنون عظمة، وهو أمر يخفى وراءه العاصفة كما هو الحال لدى كبار المعتدين؟

٦- فضل صدق ودقة حس النفس والادكار والتخمين على ما كان له. فإن ذلك يدل على أنه مسدد موفق بقوة إلهية تجرى به إلى أن يكون فاضلاً ورئيساً سائماً لشدة حاجة الرئيس والسائس إلى فضل وعلم، واستغناء المسوسين عن مثل ذلك لانتساب أمرهم إلى السائس واكتفائهم بمياسته. العلم والفطنة للرئيس واستغناء المرووسين عن ذلك اكتفاء بالرئيس الملمه الذى يفكر للناس وبدلاً عنهم.

٧- الميل إلى موافقة الخطاء والأصحاب والأعوان والمحبة لصالح أمورهم باستجلاب موداتهم وخلصهم له، وتسخيرهم وربطهم بها لنفسه. ومن ذلك ألا يتفرقوا عنه، وألا يضمروا له سوءاً، وألا يروا العيش إلا معه وبه. وينتج عن ذلك صدق مجاهدتهم الأعداء، وبذلهم أنفسهم دونه. فالحكم لا يكون إلا "شلة" أو جماعة مصلحة أو ضاغطة أو نسب أو قرابة أو زمالة. والسؤال هو: ما الضامن للشلية والعصابة من ألا تنشق على نفسها أو تتضارب مصالح أفرادها أو الانقلاب على الرئيس والتخلص منه إن أراد كبح جماحهم؟ ما الضامن لعدم نشأة مركز قوى بل وتسليمه للأعداء أو التآمر عليه إن وقف ضد مصالحهم؟

٨- إقبال الخدم والأصحاب عليه، وفضل إجلالهم ومهابتهم له من غير أن يكون حدثت له فى ذلك الوقت حالة ظاهرة توجب ذلك من مزيد فى رتبة أو زيادة فى إحسان أو إساءة. وهو تصور قديم. وخدم اليوم هم أصحاب المصالح أو المبررون السياسيون والموظفون الأيديولوجيون من المثقفين ورجال الدين. وهم فى الغالب من الانتهازيين وبطانة السوء.

٩- خلو القلب من الضغائن والأحقاد التى كانت فى نفسه على أكفائه وأجلة أصحابه وخطائهم فضلاً عليهم، وأنه ممن يجب أن يسوس ويستصلح لا ممن يستفسد، تنظيراً

غير مباشر لآية ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾. والسؤال هو ما الضامن ألا تظل الضغائن والأحقاد في نفوس البطانة والجماعة المحيطة به انتظاراً للتخلص منه؟ ألا يمكن مقابلة الأخلاق المسيحية بالأخلاق اليهودية؟

١٠- ميل النفس إلى العدل توطئة وإرساء قواعده، والبعد عن الوهن والتضعع وانعزال المناوئين والمضادين وإجلالهم إياه ومستحقهم إلى مثل حاله. فالعدل أساس الملك. وهو عدل مشوب بالقوة لمقاومة المناوئين للحكم. والخوف من منع المعارضة والمشورة والنصح.

والفارابي هو فيلسوف الإنسانية الذي غلب العامل الإنساني على العامل الإلهي على نحو مباشر، وحلل الإنسانية والأمم والمدن وأشكال التجمعات الأولى تحليلًا وصفيًا "وضعيًا" وكأنها من فعل البشر والتاريخ. وفي مقابل ذلك أعطى للملك أو الفيلسوف أو النبي أو الإمام ما أعطاه القدماء لله. فالمدينة الفاضلة لديه هي المدينة الإلهية، هي نظرية الفيض منقولة من الصلة بين الله والعالم إلى الصلة بين الإمام والمدينة.

فإذا كان الكمال لا يتم بالفرد وحده أو الفرد الاجتماعي فإنه يتم من خلال الإنسانية كلها والتاريخ البشرى كله. يجتمع البشر في المدن مثل اجتماع الأجسام في العالم. فالمدينة أو الأمة مثل العالم.

وتختلف الأمور الإرادية في الزمان والمكان، ومن أمة إلى أمة بالرغم من أن العقل واحد يمثل الإنسانية كلها مما يدل على ضرورة وجود شيء واحد خارج النفس كعنصر ثبات بالرغم من عدم وجود مفارقة في الأمور الإرادية. فالواحد العام في النفس وهو العقل، والواحد في الطبيعة، مفارق لطبيعة، وهو المبدأ الأول تنظير للموروث، الله عند المتكلمين. وتقاس الأمور الإرادية في الزمان بالساعة واليوم والشهر والسنة والحقبة والمدة الطويلة. وهو ما ينتهي إلى التاريخ. فالتاريخ امتداد للساعة، وكل الزمان امتداد لأقل الزمان.

وإذا كانت العلوم التي يتم تعليم الأمة عليها أربعة: الأولى الفضيلة النظرية، والثانية حصول المعقولات بطريقة إقناعية، والثالثة العلم الذي يحتوي على مثال

المعقولات مصدقاً بالطرق الإقناعية فإن العلم الرابع هي العلوم المنتزعة من الثلاثة الأولى طبقاً لعدد الأمم، والإنسانية كلها في حاجة إلى تعليم وتربية (١).

وتتميز كل أمة بخيالها أى بذوقها الفنى وأساليب إقناعها وتأثيرها أى بتربيتها. فبالخيال تكون خصوصيات الأمم. ومع ذلك هناك خيال مشترك بين الأمم، خيال الإنسانية كلها، مما يبرر تذوق فنون الأمم. هناك فروق بين الأمم والطوائف فى استعمال الخيال. إذ يختلف الخيال من أمة لأخرى. واختلاف الخيال بين الأمم هو السبب فى اختلاف الملل أى الأديان. فالملة من الخيال، والفلسفة من التصور. وفى نفس الوقت هناك فضائل مشتركة فى أمة وبين الأمم تتركها الفضيلة الفكرية، وهى القدرة على استنباط ما هو أنفع فى غاية فاضلة. وهذا متفق مع التصور القديم للإنسانية أى المدينة التى تمثل الأمة دون وجود روح العالم أو روح العصر أو روح التاريخ. فقد كانت للحضارات دوائر مغلقة ممثلة فى مدن (٢).

ويعلم الملك العلوم النظرية بالطرق الإقناعية أو التخيلية أى بمثالات مشتركة عند جميع الأمم. ويستعمل الأقاويل الاتفعالية لإذعان الملوك المشاغبيين والنفوس المعاندين.

ومن حق الملك أن يؤدب ملكاً تبريراً للتدخل فى شؤون الدول بلغة العصر (٣). وما مقياس التأديب وسببه وشرعيته؟ وأى ملك أرفع من ملك آخر له حق تأديب الملوك المشاغبة؟ وكيف يمكن تحقيق ذلك بالفعل إلا بالقبض عليه أو غزوه؟ بل إن الملك من حقه تأديب الأفراد والأمم. فأى سلطة للمالك على باقى الملوك وسائر الأمم؟ هل هناك سلطة أممية تمكنه من ذلك؟ ويكون التأديب للأمم أيضاً وليس فقط لملوكها مما يبرر

(١) وهذا ما يقوله لسنج أيضاً فى "تربية الجنس البشرى" بوسائل التعليم بالإكراه وهى اليهودية ثم بالإقناع وهى المسيحية ثم بالبرهان وهى فلسفة التنوير.

(٢) الفارابى: تحصيل السعادة. الفقرة التاسعة، السياسات المنفية ص ٥٩-٦١، فصول المندى ص ٩٩ فقرة ٩٥.

(٣) مثل سلطة المنظمات الدولية حالياً ورئيسها السكرتير العام للأمم المتحدة الذى يكون أحياناً أداة فى أيدى الدول الكبرى التى لها حق الفيتو بل إن المنظمة الدولية نفسها تكون أداة فى يد قوة كبرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية فى حالة حصار العراق وليبيا.

الغزو للشعوب وعقابها وأخذها بجريرة حكامها. وقد توجد أمم كثيرة فاضلة لها ملوك متعددة ورؤساؤها الفضلاء. فلا يوجد ملك واحد أو رئيس فاضل واحد^(١). هل هو النبي، خاتم النبيين ورسول العالمين؟ هل يتحدث الفارابي لاشعورياً عن القرآن والنبي ودور الخيال في الإقناع؟

٢- نشأة الحضارة الإنسانية. وتنشأ الحضارة الإنسانية، حضارة الأرض عن طريق نشأة اللغة عند إخوان الصفا ونشأة الملة أى الدين عند الفارابي. ويتم التحول من السماء إلى الأرض، ومن الفلك إلى المعمورة بتوسط اللغة. يحل الإخوان اللغة من أعلى إلى أدنى من صوت الأفلاك إلى صوت البشر، ومن نغم الكون إلى ألحان النفس، ومن أدنى إلى أعلى، من الصوت إلى الكلام، ومن اللفظ إلى المعنى، ومن المعنى إلى المنطق والشعر، ومن الخارج إلى الداخل، من الموضوع إلى الذات من خلال الإدراك الحسى، ومن الماضى إلى الحاضر على نحو تاريخى، من الوحدة إلى التعدد، ومن آدم إلى الشعوب^(٢).

أ- نشأة اللغة. ويتم الانتقال بالتاريخ من السماء إلى الأرض، ومن الأفلاك إلى البشر عن طريق اللغة عند إخوان الصفا، إذ تنشأ اللغة أولاً عن طريق الأصوات الطبيعية. والفلك طبيعة خامسة. لا يختلف عن أجسام ما دون فلك القمر. فأهل الفلك أولى بالنطق والحركة والكلام والتسبيح والتكبير والتقديس والتهليل من أهل الأرض، الإنسان أو الحيوان أو الجماد. وهم أولى بالأسماع والأبصار والأذهان والأفكار والخواطر والأذكار والعلم والعقل. بل إن أهل السموات هم المسبحون المستغفرون

(١) الفارابي: السياسات المدنية ص ٤٤-٤٥.

(٢) إخوان الصفا: الرسائل حـ ١٧/٣-٨٤-٨٥.

وعلى هذا النحو جمع الاخوان بين علم الأصوات Phonetics وعلم تركيب الجمل Syntax وعلم اجتماع اللغة Social Linguistics وعلم سياسة اللغة Political Linguistics وعلم تاريخ اللغة Historical Linguistics وعلم لغة الأخلاق Moral Linguistics كما هو الحال فى علم اللغة الحديث فى الغرب. وكتب الاخوان فيه عدة رسائل مطولة مثل الرسالة السابعة من الطبيعيات (٩٤ ص)، والرسالة الثامنة عن الحيوانات (٢٠٠ ص)، وتنهذيب الأخلاق (٩٤ ص)، والرسالة الأولى من القسم الرابع عن اختلاف الآراء (١٧٨ ص)، والأخيرة عن السحر (١٨١ ص).

لمن فى الأرض. لا يفترون عن التسبيح ولا يسكتون عن التقديس بألحان ونفحات ألد من موسيقى الآلات. من لدن فلك المحيط إلى منتهى فلك القمر تصدر أصوات مرتفعة، وألحان مطربة ونفحات ولغات مختلفة وحركات مؤتلفة ناطقة بالتسبيح والتهليل والتكبير والتمجيد. فعلى أهل الأرض التشبه بأهل السماء كما قيل فى حد الفلسفة إنها تشبه بالإله بحسب طاقة الإنسان^(١).

هذه هى موسيقى الكون، النفحات السماوية التى تذكر النفوس البسيطة بعالم الأرواح ونعيم الجنان مثل تلاوة القرآن وقراءة الإنجيل وإنشاد مزامير داود. والسماء أيضاً مسكونة عند فيثاغورس. وهو توجه قرأنى عن لغة الكون والأصوات الكونية ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾.

وينتقل الإخوان من الصوت إلى النغم. فلكل مزاج طبيعى حى أنغامه وأصواته، حيواناً أم إنساناً مثل صيادى الطيور وآلاتهم يصفرون بها حتى تجتمع الطيور حولهم فتقع فى شباكهم، ومثل حذاء الإبل، وغناء رعاة الأغنام والمواشى والخيل عند ورودها الماء وحلب البانها، وحين معايشرة الحيوانات^(٢). وكذلك لكل أمة مزاج ولكل مزاج لحن. ويختلف التذوق من مزاج لآخر، ومن فرد لآخر، بل ومن وقت لآخر فيما يعرف باسم موسيقى الشعوب وأغاني الحرفيين. وفى الذهن موسيقى الشعر وموسيقى القرآن^(٣). هناك نغم فى الكون، ونسب بين الكواكب، موسيقية أو هندسية أو عددية. لذلك تستعمل الموسيقى لشفاء الأمراض.

وأخلاق الاعتدال هى نغم النفس الداخلى ضد التطرف باعتباره نشاذاً فى اللحن. الانسجام فى الاعتدال أو الوسط بين طرفين. العلم بين علم ما لا يجب وجهل ما يجب، والفهم بين الاعتراف بما لا يمكن وإنكار ما يمكن، واللب بين الحصر عن التفهيم

(١) إخوان الصفا: الرسائل ٣/١٧-٩١-٩٣.

(٢) وهذا ما حلله أيضاً أوغسطين وبنفس الأمثلة "صائد الطيور" فى تحليله للغة فى محاوره "المعلم"، نماذج من الفلسفة المسيحية ص ٣ - ٢٢.

(٣) فصل فى الأصوات من جهة طبيعة الإنسان والحيوانات واختلافهم فيها، السابق ص ٣/١٧/١٤٠-١٣٩.

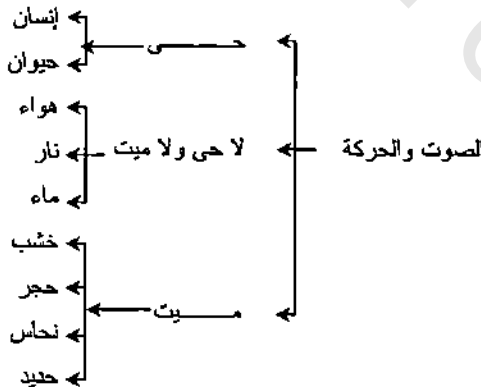
والتراخي عن التوهم، والعزم بين التهور والجبن، والجود بين التقدير والتبذير، والشجاعة بين الإقدام والإحجام. والعزم بين الفضل والشهور، والحياء بين الفتور والقحة، والعدل بين الضعف والإسراف^(١).

والصوت في علاقته بالحركة إما حي مثل الإنسان والحيوان أو ميت مثل الخشب والحجر والنحاس والحديد أو لا حياً ولا ميتاً مثل الهواء والنار والماء^(٢). وتصل الأصوات الحية أسرع إلى الإنسان من الأصوات الميتة التي تحتاج إلى فكر وروية. وقد أسس الإنسان الأصوات الحية مثل الاستوماس في الصحراء، ونباح الكلب ودلالته على قرب العمران، وهبوب الرياح، وجريان الأودية، وأمواج البحار، واهتزاز الأشجار ونوعها لاستخدامها في الحياة العملية.

(١) السابق حـ ١٣٧-١٣٦/١٧/٣ : ٢١٤/٥/١ : حـ ٢١-٢٠/١٧/٣.



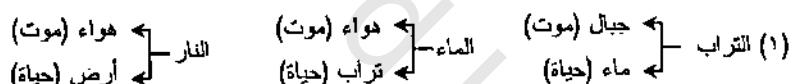
(٤) السابق حـ ١٢٧/١٧/٣ : ١٣٠.



والصوت اللاحي واللاميت له طرفان، الأول أقرب إلى الحياة والثاني أقرب إلى الموت. فالتراب إما ماء حياة وعمران أو جبال وموت. والماء إما تراب وحياة أو هواء وموت. والنار إما أرض وحياة وإما هواء وموت^(١). وتتصل العناصر الأربعة ببعضها البعض. كذلك الأصوات يقترب أعلاها من معدن وأدناها من معدن آخر. صوت الحجر أقرب إلى النبات منه إلى المعدن، وأصوات المعادن أقرب إلى أصوات الحيوان والإنسان. وهذا أحد مظاهر أئسنة الطبيعة والتحول من الطبيعيات الخالصة إلى الطبيعيات الإنسانية.

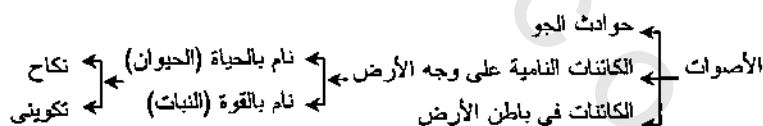
والأصوات في الطبيعة على ثلاثة مستويات. حوادث الجو، والكائنات في باطن الأرض، والكائنات النامية على وجه الأرض، وهي إما نامية بالقوة كالنبات أو نامية بالحياة كالحيوان التكويني أو نتاج نكاح. لا حيوان إلا من نكاح ولا صوت مريض إلا من جوهر^(٢).

ويمكن معرفة الأصوات غير الحيوانية الطبيعية مثل الطواهر الطبيعية، الريح، والماء، والحجر، والحديد، والخشب، والرعد، والصفير، أو الآلية مثل الآلات الموسيقية البزق والطبل والدف والمزمار، أو الحيوانية غير المنطقية أو المنطقية غير الدالة كالضحك والبكاء والأثنين أو الدالة موضوع المنطق^(٣). ومثلها قسمة الأصوات إلى غير مفهومة مثل

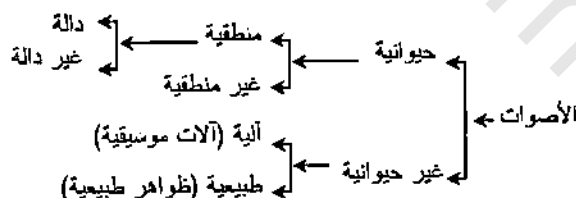


فصل في اختلاف الأصوات في الصغير والكبير. فصل في السكون والحركة، فصل في معرفة قسمة الأصوات من جهة الكمية — ١٣٢/١٧/٣ — ١٣٨.

(٢) السابق — ١١٠/١٧/٣.



(٣) السابق — ١٢٢/١٧/٣.



الجماد ومفهومه مثل الحيوان ثم قسمة الحيوان إلى غير منطقية فالحيوان غير ناطق، مجرد وصوت أو منطقية للحيوان الناطق صاحب المنطق الذى قد يكون غير دال مثل السعال أو دالاً مثل الأحكام المنطقية. وفى قسمة شاملة للأصوات الطبيعية إلى خمسة وهى من أدنى إلى أعلى أصوات المعادن والأحجار وقع وطنين ونقر، وأصوات الماء دوى وخزير، وأصوات الهواء، صفر وزمر، وأصوات الحيوان، أصوات ونغمات، وأصوات الإنسان لفظ وكلام ومنطق، كلام خطيب أو انشاد شاعر أو تلاوة قرآن. وتشرح تفصيلاً أنواع المعادن التى تخرج منها الأصوات، ومعرفة الأصوات الطبيعية عن طريق معرفة الأركان الأربعة، وشرح الأصوات فزيولوجياً ومخارج الحروف من الفم واللسان والحنجرة والرننتين والهواء، وشرح السعال والبكاء والضحك والأنين فزيولوجياً^(١).

والنشأة الثانية للغة فى التحول من الصوت إلى الكلام. فى النشأة الأولى كانت النفس سارية فى الهواء متصلة بقوة النور والضياء تدير الأمور الجسمانية، وتؤلف الطباع الأرضية، وكانت روحانيات الكواكب متصلة بعالم الهواء، فهم سكان الأرض قبل آدم. ولما انتهت هذه النشأة بالقدرة على هذا النحو ابتدأت النشأة الثانية بإبراز الصورة الإنسانية، خلق آدم وحواء من الطين. وبعد حركة الكواكب فى الأبراج بمشيئة الله بهم الله عطارده صاحب المنطق النطق، ونطقت حواء وعلم آدم الأسماء كلها، وأيده بوحيه وإلهامه لما تاب عليه بما فيه صلاحه وصلاح ذريته، توجهاً قرآنياً من آية ﴿وعلم آدم﴾



الأسماء كلها (١). فاللغة توفيق وليست إصطلاحاً. وصف كل شيء بصفته، وتسميته باسمه لتقابل الاسم مع الشيء. الله علم آدم الأسماء، وعطارد أنطق حواء. يعلم الله الرجل مباشرة، ويعلم الرجل المرأة في تصور ذكوري لتطور التاريخ.

هناك إذن فرق في النشأة الثانية بين الصوت والكلام. الصوت في العالم الكبير، والكلام في العالم الصغير. الصوت فوق فلك القمر، والكلام تحت فلك القمر. الصوت في عالم الأفلاك والكلام في عالم البشر. فالإنسان عالم صغير، والعالم إنسان كبير. في العالم هواء وفي الإنسان هواء، في الرئتين والحنجرة. في العالم معاني كونية، وفي الإنسان معاني قصدية. وكلاهما دلالة وحركة وقصد وغاية (٢).

ثم تعددت اللغات بسبب الأمزجة والطبائع وأهوية البلدان والأغذية ومواليدهم وأوضاع الكواكب في الابتداء الوضعي والمنهاج الشرعي في النشأة الأولى التي تجمع بين الوضع والشرع بالرغم مما قد يثير لفظ الشرع في هذا الموضع من تساؤلات خاصة والإنسان لم يكن قد خلق بعد. فالتعدد في الأصوات في النشأة الأولى قبل الخلق. وتعددت اللغات في النشأة الثانية بعد خلق آدم لما انتشرت ذرية آدم في أقطار الأرض، ونزلت كل طائفة إقليمياً من الربع المسكون، وعقد لكل طائفة على كوكب من الكواكب السبعة السيارة (٣).

وأصل اختلاف الناس في الكلام حسب اختلاف الأجسام. وأصل الاختلاف في اللغات هو اختلاف في نماذج الحروف، وليس من اختلاف المزاج والتركيب أى أن السبب عضوى خالص وإلا لكانت اللغة حرفاً واحداً إذ تم إصلاح المزاج والتركيب (٤).

والمسألة هو: كيف يتم كل شيء بإرادة الله وبحركة الكواكب وفي نفس الوقت بالأصوات الطبيعية التي تجعل لنشأة اللغة علتين، أولى وثانية وهو ما يعتبر شركاً؟ كما

(١) السابق حـ ١١١/١٧/٣-١١٢.

(٢) السابق حـ ١١٤/١٧/٣-١١٩.

(٣) السابق حـ ١١٤/١٧/٣-١١٨/١١٥. وهو موضوع وهو لرسالة جامعية بعنوان "فلسفة اللغة عند

إخوان الصفا، قراءة حديثة".

أن نشأة اللغة منذ خلق الله العالم في النشأة الأولى ثم خلق آدم في النشأة الثانية ثلاثة آلاف سنة في الدورة الأولى، وهي فترة وجيزة إذ أنها تقدر بملايين السنين الضوئية.

وبدأت اللغة في النشأة الأولى شفاهاً ثم في النشأة الثانية تدويناً. وفيها بدأت اللغة بنشأة النفس وخلق آدم، خليفة الله في الأرض، متكلم فصيح ناطق، روح شريفة، أفضل الأشكال وأحسن الصور، وأصفى الطباع وأعدل الأمزجة، سيد الحيوانات كلها. سجدت له الملائكة، وعلمه الله الأسماء كلها. علمه تسع علامات هي الأعداد من ١-٩. وهي تطابق حروف الهند، المنطقة التي نزل بها من الجنة.

وتشكل الفلك هو أحد الأسباب في تحول الأصوات إلى حروف، والشفاهي إلى تدوين نظراً للحاجة إلى كتابة الأخبار الماضية. فالإنسانية لها تاريخ يمكن للقصص والذكريات أن تفي به. وكلام الملائكة يكتب في النفوس. لم تكن هناك حاجة إلى التدوين في البداية نظراً لبساطة الحياة الاجتماعية وعدم حاجتها إلى اقتصاد وحساب. فلما تفرق البشر وتعددت الشعوب نشأت الحاجة إلى التدوين لمعرفة أخبار بعضهم البعض. وكلما اتسعت الحضارة وعم العمران ظهرت ضرورة الكتابة. واتسعت الحروف من تسعة إلى ثمانية وعشرين حرفاً. وهو العدد التام الذي يطابق تعدد الأشياء كما أنه يطابق عدد منازل القمر وأعضاء الإنسان مما قد يوحي ببعض التعسف في قراءة الطبيعة.

كانت السريانية هي اللغة الأولى وربما النبطية. كانت مجرد أصوات دون حروف، لغة شفاهية قبل التدوين. وكان آدم يعلم ذريته تلقيناً، كلمات وأسماء وليست أصواتاً وحروفاً، من الكل وليس من الأجزاء. لذلك يقال لمن يجهل القراءة والكتابة أمي. كان الناس يحفظون الأسماء والصفات من السلف إلى أن ظهر دور جديد، دور الكتابة في بيت عطار. وصارت الحروف أربعة وعشرين وهي الكتابة اليونانية لأنها تجمع كل البروج الاثنى عشر مضروبة في اثنين. فكل برج حرفان. وتم تدوين اللغة في ذلك العصر^(١). مهمة التدوين التقارب بين الشعوب، ومعارفها، وتبادل الأخبار، وتقارب الأزمان، واحضار الماضي في الحاضر وإعطاء المستقبل أخبار الماضي. وأصل

(١) السابق حـ ١١٢/٣-٨٨-٨٩/١١٢-١١٣.

الحروف كلها خيطان مثل أصل البشر، آدم وحواء، الرجل والمرأة، السماء والأرض، البسيط والمركب، العقل والنفس، المستقيم والقوس، الجوهر والعرض، الإنسان والحيوان، الحيوان والنبات، النبات والجماد (١).

وتطورت اللغة. واللغة العربية آخر اللغات تطوراً كما أن الإسلام آخر الديانات تطوراً، وكما أن الأمة أفضل الأمم نظاماً. تطورت اللغة من الهند إلى العرب مروراً بالسريرية ثم الرومية ثم الفارسية. وأهمية اللغة العربية قراءة كتاب الله. والسؤال هو: هل السيرية أول اللغات الشفاهية، واليونانية أول اللغات المدونة؟ هل السيرية أول الأصوات واليونانية أول الحروف؟ هل السيرية للدين، واليونانية للفلسفة، والعربية للآتين معاً؟

وتنتقل اللغات بالطبيعة أو بإلهام من الله، تتطور أو تتسخ كما تتطور وتتسخ الشرائع. وقد تنتقل الدول أى الملوك من لغة إلى لغة وبالتالي من حضارة إلى حضارة. ويأخذ كل قوم لغتهم بحسب ما اتفق لهم من مواليدهم. ويلاحظ أن العوامل الفعالة فى نشأة اللغة وتطورها بالإضافة إلى الطبيعة المستقبلية لكل العوالم، الأفلاك من أعلى، وهى أجسام إلهية شفافة. والملوك والأنبياء يوحى من الله، والحكماء بإلهام من أسفل، الإنسان المتفرد العبرى بإلهام من الله. فالله هو القاعل فى الطبيعة من الجهتين العلوية والسفلية.

وتنشأ المصطلحات فى اللغة بعد التوفيق الأول على نحو جماعى ابتداء من الأسرة ثم المجتمع، وفى الذهن آدم وسليمان. فقد نقل سليمان العلم والحكمة من باقى الشعوب إلى العبرانية، ملوك اليونان عندما غلبوا ملوك الشرق. وكذلك فعل ملك الروم لما غلب اليونان. تنتشر اللغات والثقافات بأمور فلكية وأحكام سماوية ومشينة إلهية". وهذا أقرب إلى أسطورة بابل فى تعدد اللغات وانتشارها (٢).

ثم يتم الانتقال من اللغة إلى المعرفة، من اللفظ إلى المعنى أولاً، ومن المعنى إلى الإدراك الحسى للبرهان ثانياً. المعانى فى الألفاظ كالأرواح فى الأجساد، ولا وجود

(١) فصل فى معرفة بداية الحروف، السابق ١٧/٣-١١١-١٤٧.

(٢) السابق ١٧/٣-١٤٩-١٥٠.

لأحدهما دون الآخر. اللغة علم الدلالة بالأصوات أى بالكلمات. فالحركات مثل الإشارات للعين أو الأصوات للأذن. والكلام إما غير مفيد أو مفيد وهو الإخبار فى جهة المجهول. والخبر يكون غير دال أو دال. هو كل قول قابل للتصديق عن الماضى أو الحاضر أو المستقبل. وهو خبر أم استخبار، على مستوى النظر أو أمر أو نهى على مستوى العمل. وصيغ الاستخبار والأمر والنهى ليست بها كذب وكان العمل خارج التصديق النظرى مع أنه لو كان أمراً مستحيلاً لكان بها كذب بمعنى تكليف بما لا يطاق وكذلك الاستخبار عن شئ لا وجود له. فالصدق والكذب ليسا نظريين فحسب بل أيضاً عمليان. وليس فى المدح والذم فقط بل فى الفعل والترك.

والكلام إخبار قبل أن يكون إنشاء، علم قبل أن يكون أدباء، عقل قبل أن يكون خيالاً على عكس ما هو شائع من أسبقية الإنشاء على الخبر وأنه أقل إحكاماً منه ^(١). والإنشاء نفسه تمن أو رجاء أو سؤال أو استفهام.

ثم يدخل السالب والموجب، والموضوع والمحمول فى الخبر بعد النفى والإيجاب، يتلوه الواجب والجائز والممتنع بعد دخول العقل والواقع. فهى أحكام للعقل والواقع على حد سواء. وهنا تتحول اللغة إلى منطق، تصوراً وتصديقاً. فالجائز به صدق وكذب والواجب صدق، والممتنع كذب. والصدق ليس نظرياً فحسب وليس منفعة عملية فحسب بل يجمع بين الحقيقة والمنفعة، بين اتساق الخطاب مع نفسه كما هو الحال فى الاستنباط وتطابقه مع الواقع كما هو الحال فى الاستقراء وبلغة المحدثين. العيادات كلها تأدية النفوس الجزئية عن النفس الكلية ^(٢).

ثم يتم التحول من منطق اليقين إلى منطق العلة، ومن منطق التصور والتصديق إلى منطق الخطابة والجدل والمغالطة والشعر. إذ يمكن تأدية معنى الكلام بالبرهان فى المنطق وبالعروض فى الشعر لأن العروض هو منطق الشعر. المنطق شعر الكلام. هناك إذن صلة بين المنطق والشعر. الشعر أبلغ من الكلام وأفصح وأوزنه. هدفه انتباه النفس

(١) هذا فى الوضعية المنطقية المعاصرة.

(٢) السابق حـ ١٧/٣/١١٤/١٠٩/١١٧/١١٩-١٢٣/١٢٠-١٢٤.

للمعنى. والمنطق أصدق الكلام وأدقه من أجل البرهان (١).

المعاني هي الأصول وليست الألفاظ. وهي الاعتقاد في النفس والألفاظ هيولى لها. فإذا قبلت اليهودى المعنى ظهرت أفعال النفس في الغرض والمراد. وكذلك الألفاظ إن قبلت تأدية المعانى ببلاغة دون إسهاب أو أفلاك كانت البلاغة. فالبلاغة للقول المطابق المعنى المؤثر في النفس. والقياس هو الهجاء أى الفقه والاعراب والقواعد، القصد والتركيب (٢).

والانتقال من اللغة إلى الإدراك الحسى يبدأ بتقابل بين الحواس الخمس والعناصر الخمسة طبقاً للموجهات القرآنية. الأذن للسمع للفلك ﴿ ولكن لا تفقهون تسييحهم ﴾ والعين للبصر للنار ﴿ إني أنست ناراً ﴾. والأنف للشم للهواء ﴿ إني أشم ريح يوسف ﴾. اللسان للذوق للماء ﴿ لذة للشاربين ﴾. واليد للمس للأرض ﴿ اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ﴾ (٣).

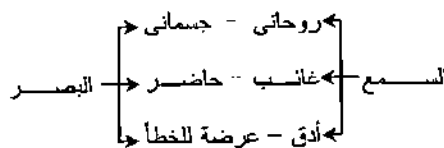
وهناك تقابل بين السمع والبصر. السمع روحانى والبصر جسمانى. السمع للغائب والبصر للحاضر. السمع أدق والبصر عرضة للخطأ فى حين أن السمع قد يتعرض أيضاً للخطأ. تتفاضل الحواس إذن فيما بينها. اللمس أكثرها (٤). والأذن تعشق قبل العين أحياناً

(١) فصل فى أن الكلام صنعة منطقية، السابق حـ ١٧/٣-١٤٧-١٥٠.

(٢) السابق حـ ١٧/٣-١٢٢.

(٣) السابق حـ ١٧/٣-١٢٦.

المعنى	الحاسة	الموضوع	الآلة
الأذن	السمع	الفلك	﴿ ولكن لا تفقهون تسييحهم ﴾
العين	البصر	النار	﴿ إني أنست ناراً ﴾
الأنف	الشم	الهواء	﴿ إني أشم ريح يوسف ﴾
اللسان	الذوق	الماء	﴿ لذة للشاربين ﴾
اليـد	اللمس	الأرض	﴿ اخلع نعليك إنك بالوادي المقدس طوى ﴾



فى حضارة سمعية. فالطبيعة تتضمن قيمة فى داخلها. والسمع مناسب لطبيعة الفلك مسكن الملائكة الذين يسبحون الله. السمع للعالم العلوى وبقى الحواس للعالم السفلى. والإدراك يتم بالمناسبة بين السامع والمسموع. والهواء شريف لحاجة الشم والبصر له. والأمور البرهانية لا تدرك بالحواس ولا تتصور بالأوهام، ولكن يضطر البرهان العقل إلى الإقرار بها لأن البرهان ميزان العقل كما أن الكيل والوزن والنزاع ميزان الحواس^(١).

المعرفة الحسية بداية المعرفة الاشرافية نهائية. فالمعرفة ارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، ومن الخارج (البصر) إلى الداخل (السمع) إلى أعلى (الحدس). لا يعنى الوحي بالضرورة معرفة نازلة من السماء إلى الأرض بل صاعدة من الأرض إلى السماء، التزليل تأويل، والنزول صعود^(٢).

والحقيقة أن الفنون السمعية أقرب إلى الوجدان العربى من الفنون البصرية ربما رغبة فى مقاومة الوثنية، وربما لأن الإنجاز القرآنى سمعى أو لأن الصوت أقرب إلى القلب من البصر. لذلك استعمل الصوفية السماع. وكانت عبقرية العرب فى الشعر. فالسمع متصل بالنفس، والبصر بالواقع، والسمع بالزمان، والبصر بالمكان، السمع أقرب إلى الله، والبصر إلى العالم. السمع تنزيه والبصر تشبيه، الله يتكلم صوتاً ولا يرى بالبصر، السمع توتر داخلى والبصر امتداد خارجى، السمع تشيد ثورى، والبصر كاتدرائية ملكية. السمع فن جماعى والبصر فن فردى^(٣).

يبدأ الإخوان بعلم الأصوات فى النشأة الثانية للغة بعد النشأة الأولى فى عالم الأفلاك. ولا يشخصون الأصوات الطبيعية كما تفعل الحشوية بالرغم مما فى النغم من

(١) السابق حـ ١٢٤/٩٠/٨٦/٨٣/١٧/٣. ١٢٥.

(٢) فى ندوة "القرآن باعتباره نصاً" The Quran as text الذى نظمه بجامعة بون ستيفان فيلد S.Wild أردت إعطاء صورة للتزليل باعتباره صعوداً وليس هبوطاً، صورة التقف إلى أعلى عندما يكون الرجل مستقيماً على ظهره فى حضارة لحياء فيها للعلم، وليس الجنس فيها من المقدسات والمحرمات. واستهجن الجميع الصورة، وخاصمونى إلى الآن.

(٣) انظر دراستنا: الفنون البصرية والفنون السمعية أيهما أقرب إلى الوجدان العربى؟ فى "حصار الزمن"، (تحت الطبع).

دلائل على حالات النفس بين الفرح والحزن. وهو إيداع مستقل خالص، جماع الوافد والموروث. ومن خلال اللغة الشفاهية والمدونة يبدأ بتاريخ الحضارات الذى يعبر عن خصائص الشعوب.

ب- نشأة الملة. الملة هو الدين عندما يتحول إلى شريعة فى مجتمع أى الدين الاجتماعى. فالملة والدين مترادفان، وكذلك الشريعة والسنة مترادفان يطلقان على جزئى الملة. وقد تكون الآراء المقدرة أى العقائد أيضاً شريعة، وبالتالي تكون الملة والشريعة والدين مترادفات. الملة آراء وأفعال، نظر وعمل، عقيدة وشريعة. الملة تحديد آراء وتقدير أفعال. الملة أساس العلم المدنى. وقد تكون الملة حقيقة بالاسم وهو الحق أو مثال محاكى له وهو مثال الحق. الأول يقين بنفسه، بعلم أول أو ببرهان. والثانى تَبْخِيل وإقناع وتأثير. وبدون هذه الوجوه الثلاثة لليقين تكون الملة ضلالة.

الملة الفاضلة شبيهة بالفلسفة. الفلسفة نظرية وعملية، والملة الفاضلة أيضاً نظرية تستمد براهينها من الفلسفة النظرية، وعملية تستمد كلياتها من الفلسفة العملية. وهى ليست فقط شبيهة بالفلسفة بل هى الفلسفة أو تقوم على الفلسفة وتأسس عليها. وهو أكبر تكريم للفلسفة باسم الملة، وللآخر باسم الأثاء، وللوافد باسم الموروث. لم يخش القدماء من لفظ الفلسفة وإيتاء الحكمة عليه بل أعطوه مضمون الحكمة. والفرق بينهما أن الملة مقيدة بشروط فى حين أن الفلسفة تحرير لها منها. الملة خاصة والفلسفة عامة. من الخيال تنشأ الملة ومن التصور تنشأ الفلسفة. الأولى للمؤمنين والثانية للحكماء. وبهذا المعنى للفلسفة الرياسة الملكية. فهى المعيار والمقياس والمحك^(١).

وقى 'رسالة فى الملة الفاضلة' التى صدر بها الفارابى "آراء أهل المندنية الفاضلة" يعرض ثنائية الفلسفة والدين، التصور والخيال، البرهان والإقناع. فكل ما تعطى فيه الفلسفة البراهين اليقينية تعطى فيه الملة الإقناعات. فالفلسفة تتقدم بالزمان على الملة، وتكون الملة لهيبارا للفلسفة. ويكون التاريخ سقوطاً. وإذا تقدمت الملة بالزمان على الفلسفة، تكون الفلسفة تقدماً بالنسبة للملة، ويكون للتاريخ نهوضاً. البرهان يقين والتخيل

(١) الفارابى: الملة من ٤٢/٤٦-٤٧/٦٦ السجلات المندنية من ٦٠-٦١.

ظن. وتصور الشئ أكثر يقيناً وبرهاناً من محاكاته بمثالاته. تنشأ الفلسفة في التصور، وتنشأ الملة في الخيال. الأولى للحكماء والثانية للمؤمنين. الجدل والخطابة أسلوب الملة في المحاجاة والتأثير. الجدل يعطى الظن القوى، والبرهان يعطى اليقين. والخطابة تقنع فيما لا ظن فيه ولا برهان. فالجدل والخطابة لا غنى عنهما في التعبير عن الملة الفاضلة عند المؤمنين والدفاع عنها وتمكينها في نفوسهم ونصرتها إذا أراد البعض المغالطة والتضليل والمعادنة. والسؤال هو: كيف يكون ذلك ممكناً والملة الفاضلة تعادل الفلسفة، والفلسفة بالضرورة برهانية وليست إقناعية جدلية مغالطية؟^(١).

ومع ذلك فإن من شروط الفيلسوف الكامل اتباع عقائد الملة دون تأويلها، والتمسك بالأفعال الفاضلة الجميلة في المشهور وكأن الفيلسوف أقرب إلى التقليد منه إلى الاجتهاد، وإلى النقل منه إلى العقل. فإذا كانت الفلسفة متقدمة على الملة عند الخواص فإن الفيلسوف ملتزم بسلوك الملة عند العامة. وإذا كانت الملة متقدمة على الفلسفة فإن الفيلسوف يسلك مثل العامة على الملة ثم يتقدمها بمفرده إلى الفلسفة^(٢).

وتختلف الملل فيما بينها في أمم ومدن فاضلة. وتتوحد كلها في الغاية، وهي السعادة أى الحكمة. فالملة بطبيعتها متكررة، والحكمة واحدة. الملة رسوم وخیالات في النفوس تختلف باختلاف الطبائع والأمزجة والعادات، في حين أن الفلسفة عقلية خالصة لا خلاف عليها بين الأمم. وبالرغم من توالى الأديان، واحداً بعد الآخر فإن روحها واحدة. والثاني يسير على نهج الأول. هناك استمرارية في تاريخ الأديان واتصال في تطور الوحى. ويجوز للاحق تغيير شريعة السابق طبقاً للأصلح ومسار التغير. فتاريخ النبوة أحد مصادر فلسفة التاريخ كما هو الحال في علم أصول الدين.

ويصف الفارابى نشأة الحضارة الإسلامية وتطورها ابتداء من النبوة والنسخ والتدوين ولبيان وحدة الحضارة الإنسانية ووحدة الأديان، ونقل الشرائع من أمة إلى

(١) الفارابى: رسالة في الملة الفاضلة. رسائل ص ٣٣-٣٧. نشرة محسن مهدي مقدمتها تاريخية لصالح الغرب اليونانى وكأنها مصدرها الأول الواقف وليس الموروث.

(٢) الفارابى: تحصيل السعادة ص ٥ - ٨ ، السياسة المدنية ص ٦٠-٦١، الملة ص ١٧-٤٨.

أخرى. وتتوالى الأمم الفاضلة في التاريخ، ورؤساؤها كلهم من نفس واحدة. ويسير الأول على سيرة الثاني اتصالاً بين الماضي والحاضر. وتتغير الشريعة من الثاني إلى الأول انقطاعاً بين الماضي والحاضر نظراً لتغير الزمان والحال. فالنسخ في الشرائع ضرورة. وسبب زيادة اللذة الاتصال بالماضي والاستمرار بين الماضي والحاضر، بين السابق واللاحق، يعقل ذاته فيعقل غيره. وهناك الوعي الحضارى التاريخى منذ الأمم الغابرة. ويلحق الغابر بالمستقبل إلى ما لانهاية. ليس الاتصال فقط اتصالاً رأسياً عن طريق العقل الفعال بل هو أيضاً اتصال أفقى عن طريق استمرار الأمم فى التاريخ أو ما يسمى بلغة العصر الإنسانية^(١).

وإذا حدثت مفارقة للمادة ارتفعت عنها الأعراض. فلا تسكن ولا تتحرك ولا تتصف بصفات الأجسام وتصبح النفوس مفارقة، جواهر ليست أجساماً ولا فى أجسام. ولا يتم ذلك فقط على مستوى الأفراد بل على مستوى الجماعات والطوائف التى تكون التاريخ الصالح، تاريخ الصفاء والعدل. وتتصل النفوس المقارفة بعضها ببعض وكأننا فى مدينة الله أوفى جماعة الأقطاب والأبدال^(٢).

ويتحول الشفاهى إلى تدوين، وينشأ الوعي التاريخى، والتراكم المعرفى، كما حدث فى تدوين القرآن، وتدوين الحديث ثم تدوين العلوم كما هو الحال عند إخوان الصفا بعد تدوين اللغة. وتبدأ الترجمات عن الأمم السابقة. فيحدث تفاعل بين الوافد والموروث فتتشأ الحضارة من مصدريها، الخارج والداخل، الآخر والأنا. فمن نشأة اللغة ونشأة الملة ينشأ التاريخ، تاريخ الحضارات طبقاً لخصائص الشعوب^(٣).

سادساً: خصائص الشعوب وتاريخ الحضارات

وقد ارتبطت فلسفة التاريخ بخصائص الشعوب وتاريخ الحضارات. فالتاريخ هو

(١) السياسات المدنية ص ٥٤-٥٧/٦٠-٦١.

(٢) وهو ما قاله هومرل فى الفلسفة المعاصرة فى الغرب فى مدينة العلماء التى تمثل الوعي الحضارى الشامل ابتداء من الوعي الفردى.

(٣) الفارابى: السياسة المدنية ص ٥٥.

تاريخ الشعوب، والشعوب هي خصائصها الموروثة أو المكتسبة. وهي التي تبعد حضاراتها بناء على هذه الخصائص. ومن الحكماء من يركز على خصائص الشعوب. كالفارابي وإخوان الصفا والتوحيدى. وآخرون فضلوا تاريخ الحضارات كما بدا فى المذاهب والملل مثل الرازى. وفريق ثالث جمع بين الاثنين مثل العامرى وابن سينا. ولا يخلو ذكر خصائص الشعوب من وصف سلبى للبعض مثل الترك والزنج ووصف إيجابى للبعض الآخر مثل اليونان والروم والفرس. ولا يخلو ذكر المذاهب والملك أيضاً من وصف إيجابى للبعض مثل اليهودية والمسيحية والإسلام عند معظم الحكماء ووصف سلبى للبعض الآخر مثل الديسانية والمحمرة والمنانية عند الرازى.

ويمكن عرض هذا المصدر المكون لفلسفة التاريخ بعدة طرق. الأولى التطور التاريخى للموضوع عند إخوان الصفا والرازى والفارابى والعامرى وابن سينا والتوحيدى وابن باجه من أجل بيان مراحل تكوينه. وفى هذه الحالة يشذ إخوان الصفا لأنهم أفضل من وصفوا خصائص الشعوب وهم من الشيعة الإسماعيلية فى أواخر القرن الثالث عندما كانت الشعوبية مكوناً رئيسياً للحضارة الإسلامية. كما أنها تخط بين خصائص الشعوب وتاريخ المذاهب والملل. والثانية تجميع خصائص الشعوب والمذاهب والملل معاً بصرف النظر عن قائلها خاصة وأنها مكررة ولا يتميز حكيم عن آخر فيها. ومن ثم تصبح فلسفة التاريخ هو حصر لتقافات الشعوب. وهى طريقة تغفل كلية الحكيم فى سبيل الحكمة. وتبرز الشعوبية وكأنها هى المكون الرئيسى لفلسفة التاريخ. كما أنها تحتاج إلى تصنيف وخطة شاملة ومعياراً مثل المركز والأطراف أو الإيجاب والسلب أو المثالية والمادية. والطريقة المثلى هى التمييز بين المحاولات الجزئية عند الرازى والفارابى والعامرى وابن سينا وابن باجه والتمييز فيها بين خصائص الشعوب، والمذاهب والملل، وبين المحاولات الكبرى عند إخوان الصفا والتوحيدى التى تركز أساساً على خصائص الشعوب طبقاً لتصورى للوحدة والتنوع عند إخوان الصفا ومركزية العرب عند التوحيدى.

١- المحاولات الجزئية. وتعنى المحاولات للجزئيات الوصف العرضى لخصائص الشعوب فى إطار الفلسفة الاجتماعية مع التركيز على شعوب بعينها دون

غيرها، وكذلك التركيز على بعض المذاهب والملل دون عرض شامل لها كما هو الحال في تاريخ الفرق في علم الكلام.

أ- خصائص الشعوب (الفارابي، العامري، ابن سينا). وأول من عرض لخصائص الشعوب من الحكماء هو الفارابي مركزاً على الترك والعرب، على قومه والقوم الذي يعيش بينهم، ربما لتعاطفه مع اليونان، وتألفه مع الوافد. وهو لا يطلق أحكامه على كل الترك والعرب بل فقط على أهل البرارى منهم أى على البدو والهمج منهم وليس على سكان المدن والحضر. وهو الذي كان يعيش في حلب العاصمة الثقافية للشام أيام بني حمدان. وكلاهما نموذج للرياسات الجاهلة التي تقوم على خدمة الأعلى للأدنى وتبعية النفس الناطقة للنفس الغضبية والشهوية، وتبعية الغضبية للشهوية، وتجند قوى النفس كلها ومحبة الغلبة وعظم النهم للمأكول والمشروب والمنكوح. فهماً نموذج الحضارة المادية بلغة العصر. ويفصل الفارابي طريقة معاملتهم للنساء. إذ يعظم عندهم أمر النساء. ويحسن عند كثير منهم الفسق. ولا يرونه سقوطاً أو عيباً يمكن تجنبه. يتجملون أمامهن ليعظم شأنهم عندهن. ويتبعونهن، ويتمثلون أحكامهن. ما تراه النساء عيباً فهو عيب، وما تراه النساء حسناً فهو حسن. نفوسهم ذليلة للشهوات، ويتبعون شهوات النساء في كل شيء. وكثير من نساكنهم متسلطات عليهم ومستويات على أمور منازلهم. ولذلك يرفهونه ولا يشركونه في الكد. ويلزمونهم الترف والراحة. ويتولون عنهن كل شيء يحتاج إلى التعب والكد واحتمال المشقة. وكان الفارابي يصف بعض أثرياء عرب الخليج اليوم أو حياة السلطان في عصر الخلافة^(١).

ثم يخصص الفارابي العرب كنموذج لمجتمع الغلبة. ولا يطلق الفارابي الحكم على كل العرب بل يخصه على قوم من العرب. وتعنى الغلبة هنا الاضرار بالغير دون نفع مثل القتل بلا سبب سوى لذة القهر أو المغالبة على أشياء خسيسة. وهي نماذج شاذة لا تمثل مجتمع الفتح، وشعب الجهاد، وأمة الرسالة. لذلك اشتد حد الحراية ضد قطع الطريق والاعتداء على الأمنين. وجعل القصاص فقط حداً لازهاق الروح. وهو مشابه لحكم ابن

(١) الفارابي: السياسات المدنية ص ٨٠-٨١.

خلدون على العرب ويقصد الأعراب، أنهم إذا دخلوا مدينة أسرع إليها الخراب^(١).

وقد تعرض أبو الحسن العامري (٣٨١هـ) إلى بعض موضوعات فلسفة التاريخ في "الأمد على الأبد" في ثلاثة فصول من عشرين، تدور كلها حول العقل والحس والمعرفة والسعادة والخير والطبيعيات والإلهيات والرياضيات والعالم العلوى ومراتب النفس الناطقة والإيمان والثواب والعقاب. وكلها تدور في إطار نظرية المعرفة الاشراقية ومراتب الوجود في نظرية العنصر طبقاً للتصور الرأسي للتاريخ.

في فصول ثلاثة، الثانى والثالث والرابع يتناول أربعة موضوعات. الأول بداية التاريخ أى الوعى التاريخى وتحقيب التاريخ. والثانى تاريخ الحضارات ابتداء من التاريخ الجغرافى أى الأقاليم بناء على الاتجاهات الأربعة الرئيسية، الشمال والجنوب والشرق والغرب بالإضافة إلى وسط الأرض تمهيداً للتصور المركزى للتاريخ، المركز والأطراف. والثالث المذاهب الفلسفية مثل إنكار المعارف والفرق الكلامية والدهريون والطبيعيون الذين ينكرون وجود الله، والملل مثل اليهود والنصارى والسامرة والمجوس. والرابع إحصاء الأمم الماضية الكبار ومواقعها الجغرافية وما تختص به كل منها من علوم وثقافات^(٢).

ويبحث العامري عن نقطة بداية للتاريخ غير النقطة الأولى خلق العالم أو خلق آدم وحواء كبداية للتاريخ الكونى. يبحث عن تاريخ إنسانى حضارى. فهناك أربعة تواريخ قديمة معروفة. التاريخ الرومى ابتداء من ذى القرنين مما يدل على إعجاب المسلمين بالإسكندر الأكبر. والثانى التاريخ الفارسى، يزجرد بن شهریان تقابلاً بين الغرب والشرق. والثالث تاريخ يختصر تاريخ الزيجات وهو التاريخ البابلى تاريخ الشمال. والرابع التاريخ العربى، تاريخ الهجرة فى الجنوب. ومن ثم تحددت التواريخ الأربعة

(١) السابق ص ٧٣.

(٢) هذه الفصول كالتى: ١- إثبات المعرفة الحسية والعقلية. ٥- العقل والنفس. ٦- العلم اليقيني. ٧- الحكيم. ٨- النفس الناطقة. ٩- السعادة. ١٠- المعرفة. ١١- الخير. ١٢- الطبيعيات. ١٣- الرياضيات. ١٤- الإلهيات. ١٥- الطبيعيات والإلهيات. ١٦- العالم العلوى. ١٧- الدهريون والطبيعيون. ١٨- مراتب النفس الناطقة. ١٩- الثواب والعقاب. ٢٠- الإيمان.

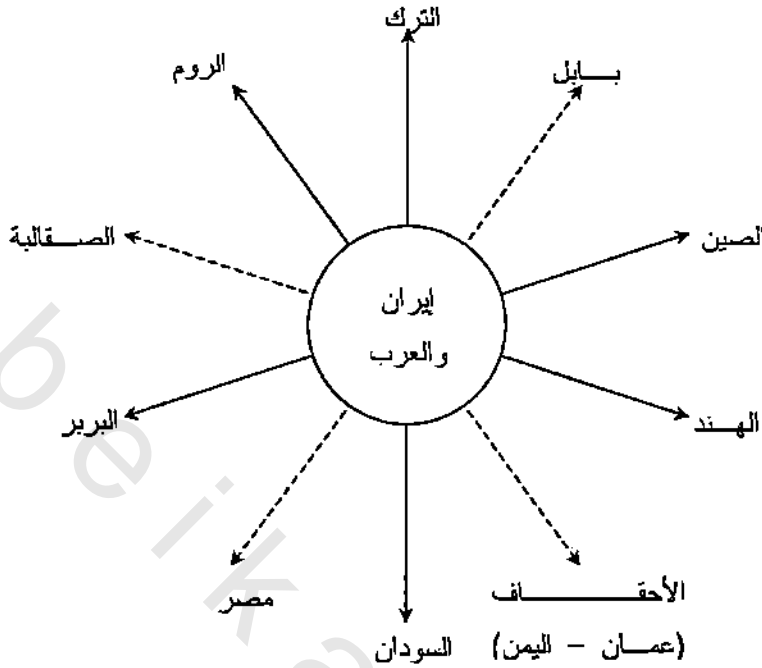
بالاتجاهات الأربعة. ثم يحدث الخطأ التاريخى فى جعل حساب السنين بينها ٤٣٦ سنة ونحو القرنين فى القرن الرابع قبل الميلاد، وبختنصر فى القرن السابع قبل الميلاد، ويزدجرد بن شهریان فى القرن والهجرة فى القرن السابع بعد الميلاد. فالمسافة بينهما ما يزيد على ١٤٠٠ سنة من القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن السابع بعد الميلاد.

وبين العامرى الأخطاء فى التواريخ الثلاثة الأولى فلا يبقى تاريخ صحيح إلا التاريخ الإسلامى. فقد أمر الإسكندر اليهود فى بيت المقدس بترك تاريخ موسى وتبنى تاريخ يونان نظراً للأخطاء فى تاريخ اليهود، والشك فى تاريخ آدم والطوفان الأعظم وتواريخ التوراة للشك فى نسخها، والمفروض وجود ستة وثلاثين نسخة. وقد نسخ النصارى تاريخ اليهود. وكان للسامرة تاريخهم الخاص. وتوجد أخطاء فى تاريخ فارس. ولا يشير إلى تاريخ بختنصر. فلا يبقى صحيحاً إلا التاريخ الإسلامى.

ثم يتخلى العامرى عن هذا التحديد التاريخى لبداية تحقيب التاريخ ويعود إلى التاريخ الأسطورى لتحديد عمر الدنيا بثلاث وعشرين ألف سنة، سبعة آلاف منها عمر المسلمين والصابئين والنصارى واليهود دون ترتيب زمانى وهى عمر الكواكب السيارة. وعمر المجوس اثنا عشر ألف سنة عدد البروج. وعمر الهند أربعة آلاف عام وهو عمر الكواكب. ولا يحدد العامرى هذه الأعمار إن كانت متتالية أم متزامنة ولكنها تعبر عن رغبة فى معرفة تاريخ العالم وليس فقط تاريخ الحضارة الإنسانية وبدائيتها^(١).

والأمم الماضية الكبار ست: الصين، والهند، والسودان، والبربر، والروم، والترك. وهى موزعة على الاتجاهات الأربعة الرئيسية. الصين جنوب مشرق الأرض والحقيقة أنها شرق الأرض. والهند وسط جنوب الأرض والحقيقة أنها جنوب شرق. والسودان أو الحبش جنوب غرب الأرض والحقيقة أنها جنوب فقط. والبربر فى الغرب. والروم فى الشمال والحقيقة أنهم فى شمال غرب الأرض. والترك فى الشمال. وفى الوسط إيران والعرب دون تفاضل أو تمايز. ويتراوح الشمال والجنوب بين البياضان والسودان أى طبقاً للون البشرة.

(١) العامرى: الأمد على الأبد ص ٦٢-٦٩.



وهناك شعوب صغار مثل بابل في الشرق الشرقي، والصقالية في الشمال الغربي، والأحقاف بين عمان واليمن في الجنوب الشرقي، ومصر في الجنوب. والعجيب اعتبار الحضارات البابلية والمصرية واليمينية القديمة من الحضارات للصغار وهي من أمهات الحضارات القديمة كالصين والهند وقبل الروم والصقالية ولها الفضل على حضارات السودان والبربر. ولا تذكر حضارة الشام خاصة الكنعانية^(١).

ولم تعرف الصين ولا الترك ولا خراسان أي فارس النبوة في حين أن القرآن يقر بأنه ﴿وما من أمة إلا خلا فيها نذير﴾، ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص﴾. والسبب في ذلك جغرافي، أنها تقع على خط عرض لم يمر عليه أحد من الكواكب السريعة! فما زالت الجغرافيا هي المتحكمة في التاريخ. في حين عرفت الحضارة البابلية التي نشأ فيها إبراهيم بالفلك والنجوم، والحضارة المصرية بالهندسة.

(١) السابق ص ٦٨-٦٩.

ويحدث تفاعل وتداخل حضارى بين الشعوب نظراً لتجاورها فى المكان. فنظراً لمجاورة اليونان لبلاد الشام ظهرت فيها عبادة الأوحد. وقد وجد بنو إسرائيل فى الشام. فظهرت النبوة فيهم بعد أن غلبوا الكنعانيين. ولكنهم لا يمثلون حضارة كبرى أو صغرى، رئيسية أو فرعية بعد أن ورثتهم الحضارة العربية. أما الأحقاف بين عمان واليمن فقد ظهر فيها عاد بن إرم بن سام بن نوح بن هود بن ثمود بين وادى القرى حتى أرض الشام. وعاش فيها نسل إرم، وهى منطقة ظهور الأنبياء. وظهر فى جبال الهند سادئ التجيم التى ترجع إلى إمامها الأول هرمس أو إدريس لا فرق بين شرق وغرب أو شمال وجنوب، بين حضارة الهند أو اليونان أو الإسلام. وهناك تفصيل بين الحضارات. فهمزما دل فى مواليد الترك والصقالبة على نيل الأدب والحكمة يكون أثره مخالفاً له إذا دل على نيلها فى مواليد الهند والروم. فثقافة الهند واليونان أكثر حضوراً من ثقافة الترك والصقالبة^(١).

وتصل الشعوبية عند ابن سينا إلى حد جواز استعباد الترك والزنج. إذ لا بد لأناس أن يخدموا أناساً جبراً فى المدينة العادلة. فالخادمون يعيدون عن تلقى الفضيلة، عبيد بالطبع. نشأوا فى غير الأقاليم الشريفة التى كان يمكن فى أحسن أحوالها أن تنشأ فيها أمم حسنة الأمزجة صحيحة القوائم والعقول. فالحضارة غير مشروطة بالأقاليم بالضرورة^(٢).

والسؤال هو: هل هناك سادة بالطبع وعبيد بالطبع بين الشعوب؟ ولماذا يكون الترك والزنج من العبيد؟ ألم يصبح الأتراك دولة الخلافة فيما بعد يستعبدون شعوب البلقان؟ وماذا عن تحرر الزنج وثقافة الزنج وفنون الزنج فى عصرنا؟ وهل يجوز للمدينة العادلة استخدام وسائل غير عادلة مثل العبودية والاسترقاق للشعوب؟ ألا يكون التمايز بينها فى التقوى والعمل الصالح، التقدم والتخلف وليس الخادم والمخدوم، الأعلى والأدنى؟ وهل من العدل استرقاق الشعوب وهو مازال سارياً حتى الآن فى دول الخليج استئجار الآسيويين من باكستان والهند والفلبين والبدون؟ أين المساواة بين الشعوب والقبائل طبقاً

(١) العامرى: التقرير لأوجه التقدير ص ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) ابن سينا: الشفاء، الإلهيات ج ٢ ص ٤٥٣.

للتوجه القرآنى «يا أيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا»^(١) وهل تأتى العبودية من الأماكن الشريفة للأماكن الأقل شرفاً؟ وما مقياس شرف الأمكنة، الجغرافياً، التاريخ، الاقتصاد، الثقافة، الاجتماع؟ وما هى المناطق فى العالم الإسلامى الأكثر شرفاً والأقل شرفاً؟ ألا يبرر ذلك الاستعمار الأوروبى لأفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وماذا يختلف ذلك عن العنصرية الأوربية الحالية واستعباد إسرائيل للشعب فلسطين؟ أليس التفوق العنصرى فى العقل والإبداع حسب الأزمنة وصحة الغرائم أشبع أنواع العنصرية البيولوجية النفسية المزاجية العقلية كما كان الحال فى القرن التاسع عشر فى الغرب؟ ألا يعطى ذلك صحة لبعض المستشرقين لاتهام الحضارة الإسلامية بالعنصرية ضد الزنج وإذا كان الصراع بين العرب والسادة فى الشمال والزنج والعبيد فى الجنوب وتجارة العرب فى الرق^(٢).

وتتحول الشعوبية من مستوى خصائص الشعوب إلى خصائص الثقافات. فيتحدث ابن سينا عن الفرق الصوفية عند الأتراك. ويعنى بالأتراك كل القبائل التركية غير العربية والفارسية المنتشرة شرق الأناضول فى أواسط آسيا. فيذهب الأتراك إلى شيخ الطريقة الذى يستعمل السماع حتى يغشى عليه وهم يردون وراءه، وهو يلفظ بأشياء غامضة يبنون عليها^(٣). أما العرب العاربة والعرائيون الأجلاف فإنهم يتسارعون إلى العقائد ويعتبرون عقائد الإيمان، التوحيد والمعاد معدومة أصلاً. لهذا ورد التوحيد تشبيهاً كله لعجزها عن تصور المجردات. والتشبيه فى القرآن أكثر مما يحصى، حقيقة ومجاز. وأمور المعاد مجاز وليست حقيقة^(٤).

ب- المذاهب والملل. ويمكن لأكثر من شعب إقتناعها ففى أوسع نطاقاً من الأقوام والشعوب. ففى السير الفاضلة من "الطب للروحاني" للرازى (٣١١هـ) نقد للسير الجائرة مثل الديصانية والمحمرة والمنانية. إذ تجوز للديصانية والمحمرة غش المخالفين لهم واغتيالهم. وتجوز المنانية منع المخالف لهم من الطعام والشراب إن كان مريضاً، وقتل

(١) وذلك مثل برنار لويس فى كتاب "العرق واللون فى الإسلام".

(٢) ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ح٤/٢٥٠.

(٣) ابن سينا: الأضحية ص٤٤-٤٥.

الأقاعى والعقارب ونحوها من الزواحف والحشرات المؤذية التى لا طمع فى الاستفادة منها فى وجه من وجوه المنافع. ويتركون التطهر بالماء وغيرها من الأمور التى تعود بضرر على فاعلها أو على غيره. وكان من المستحيل تخلص هؤلاء ولشبابهم من هذه السيرة الرديئة إلا عن طريق الجدل فى الآراء والمذاهب. تجيب المنانية النفس إذا نازعتها إلى الجماع وأضناها الجوع والعطش. وتتسخ باجتتاب الماء واستعمال البول مكانه. كذلك يقوم أهل الهند بعدة أمور يدفعها العقل من أجل التقرب إلى الله مثل إحراق الأجساد وطرحها على الحدائد المشحوزة. وأقل من هذا ما يستعمله النصارى من الذهب والتخلى فى الصوامع، وما يقوم به كثير من المسلمين من لزوم المساجد وترك المكاسب والاقتصار على اليسير من الطعام وبشعة والمؤذى من اللباس وخشنة. فإن ذلك كله ظلم منهم وإيلامهم لها. ومن ثم تخرج عن حد الفلسفة أحوال الهند والمنانية والرهبان والنسك وعن السيرة الذاتية^(١).

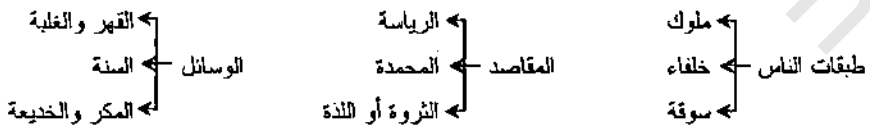
وينقد العامرى مذهب المتسمين بالفلسفة المشهورين بالحكمة الإلهية الذين ينكرون المعارف الحسية والعقلية مثل الشكاك دون الإشارة إلى فرقة بعينها فى حضارة معينة. كما ينفذ الطبيعيين والدهريين الذين ينكرون وجود الله والاقتصار على الطبيعة والدهر^(٢).

ويحور العامرى حديث الفرقة الناجية وافتراق الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة كلها فى التيار إلا واحدة إلى افتراق الأمة ثلاثاً وعشرين فرقة، ثلاث طبقات فى أربعة مقاصد فى ثلاث وسائل يكون مجموعها ستة وثلاثين مضروبة فى اثنين إذ أن لكل منها مجاهراً ومداخياً فيكون المجموع اثنين وسبعين فرقة روحية واجتماعية. فطبقات الناس إما ملوك أو خلفاء أو مسوقة. ولكل طبقة مطالب، الملوك الرياسة، والخلفاء المحمدة، والسوقة الثروة أو اللذة. والوسائل ثلاثة إما السنة أو القهر والغلبة أو المكر والخديعة^(٣).

(١) الرازى: الطب الروحانى ص ٩١-٩٢. السيرة الذاتية ص ١٠٥-١٠٧.

(٢) العامرى: الأمد على الأبد ص ٥٩-٦١/١٤١-١٤٥.

(٣) السابق ص ١٦٣.



والمجموع $٣ \times ٤ \times ٣ \times ٢ = ٧٢$ فرقة.

لم يتعامل ابن سينا مع اليونان وحدهم بل وعى تجارب الأمم كلها دون تحديد. واعتمد على كتبهم وصحفهم بما فى ذلك أنبياء بنى إسرائيل وحوارى المسيح. فالقول بالمعاد ليس فى الإسلام بدعاً بين الأمم أو الديانات أو الصحف. هذا هو الوافد بجوار القرآن كمصدر للموروث، إدخال النصارى مع المسلمين وإدخال المجوس والثنية والمانوية وأهل التناسخ ضمن الفرق بعد أن تحول الوافد إلى موروث.

يرفض ابن سينا أقوال النصارى بالمعاد للنفس والبدن معاً. وهو أيضاً رأى جمهور المسلمين. وهو قول بالتناسخ بطريقة أو بأخرى، رد النفس إلى بدن غير البدن الأول. يأخذ ابن سينا طرفاً لا وسطاً. ويقبل طرف المعاد الروحانى بعد مقابلة التناسخ ونقده. وفى نفس الوقت ينقد ابن سينا النصارى فى إنكارهم لذة البدن بالرغم من عودة البدن إلى الروح فى المعاد. خشوا من تصورهم الأمور جسدياً خشية من الضلال فيها. وقد كرم الله أمة محمد بقدرة التأمل مع أن التأويل موجود لدى كل الأمم وفى كل الملل. وهجوم ابن سينا على الثواب الروحانى والعقاب الروحانى بلا بدن يجعل هناك تمايزاً بين موقفه القائل بالمعاد الروحانى المشابه لقول النصارى ونقده لهم بإنكارهم المعاد الجسمانى.

وتتفق أكثر الأمم على أن الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان، وأنها كانت فى العالم الذى هو ثان بعد هذا العالم، وأن عودها إليه إلى الخير الأفضل منه وهو الجنة والعيون، وللشقى إلى الخير الأوحش منه وهو الجحيم والسجين. وكثير منهم يرون أن أب الإنسان وأمه وردا من ذلك العالم فأتصل معهما نسل يعود إليه. وهو مدون فى كتب الأوائل وصحف الأنبياء المتقدمين من الإسرائيليين والحواريين^(١).

وتتدهار الدول بسبب سيادة قيم الطبقة العليا عند ابن باجه، وهى القيم المستمدة من الصور الجسمانية وليست الروحانية الخاصة أو العامة. وهى قيم اللذة مثل السكر ولعب الشطرنج والصيد ومثلها. تتدهار الدول ولا تتدهار الطبقات. تتدهار الدول وتبقى الطبقات. يذهب التجمل بالمال ويؤدى إلى الإسراف، ويتوسل المال والرشوة وطلب المدح به. التجل بالمال مذمة ومذمة. وأكثر الناس فى هذه السيرة، يهواها فى سره ويهرب عنها

(١) ابن سينا: الأضحوية ص ٦١/٦٤.

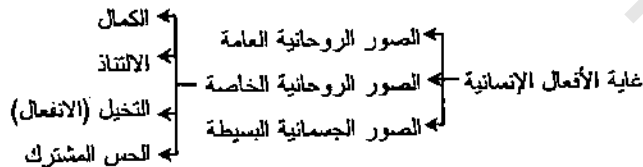
وينمها فى جهره. يصور ابن باجه أحوال ملوك الطوائف فى عصره، وأن تدبير المتوحد" مشروع نهضة أمة ورد فعل على انهيار الأندلس (١).

وتتأثر الدول عندما تسود القيم المستمدة من التخيل أى الانفعال مثل ليس السلاح والنياسين كما يفعل الملوك أمام العامة والغرباء وآخر ما يقال فى بهاء السلطان. فغاية الأفعال الإنسانية ثلاثة: الصور الجسمانية فقط أو الصور الروحانية فقط أو الصور الروحانية الخاصة الوسط بين الاثنين. وتمتد من الكمال نزولاً إلى الالتئاذ إلى التخيل إلى الحس المشترك (٢).

٢- الحضارة بين الوحدة والتنوع. ويعتمد الإخوان على المعارف العامة، كل شئ فى كل شئ، وأخذ ثقافات الشعوب من الشرق والغرب، من فارس والهند واليونان والرومان، ومن كل الملل والنحل السماوية والأرضية، اليهودية والمسيحية والإسلام، والزرادشتية والمانوية ليصب الجميع فى بؤرة واحدة، توحيد الثقافات وجمع الحضارات من أجل صيها وتوجيهها نحو غاية واحدة، التوحيد. ويستعملون أسماء جميع الآلهة، فالخلاف فى الأسماء وليس فى المسمى. لذلك كثرت الأسماء اليونانية والفارسية والمصطلحات العربية. التاريخ هو تاريخ أديان وثقافات، لا فرق بين ديانات الوحي، اليهودية والمسيحية والإسلام، والديانات التى لم يذكرها القرآن، البوذية والهندوكية فى الهند، وأبنائهم وحكامهم مثل بلوهر، والديانات الثتوية فى فارس، ونحل حكماء اليونان، سقراط وفيثاغورس وأفلاطون وكل من يمثل الحكمة البشرية المتعالية (٣).

(١) ابن باجه: تدبير المتوحد ص ٧٥/٧٧.

(٢) السابق ص ٨٨.



(٣) إخوان الصفا ج ١/١٤٩ ج ٤/٧/١٧٥.

وتتجلى الحضارة فى اللغة والدين والموسيقى والشعر والثقافة والرياضيات بناء على توجه قرأنى، خلق الناس من مختلف الألسنة والألوان والأخلاق والطبائع والأمزجة والصناعات والعلوم والمعارف. وتتفق لغات الشعوب فى الأعداد، وتفضيل المئتمات والمسيبات. فالثنوية تفضل المثنويات، والنصارى المثلثات، والطبيعيون المربعات، والخرمية الخمسات، والهنود المسدسات، والكيالية المتسعات^(١).

وهناك موسيقى تظهر فى الشعر مثل غناء الديلم والأتراك والأعراب والأرمن والزنج والفرس والروم. ويستند كل منها بالألحان ويفرح بها. وتظهر خصوصيات الشعوب فى لغاتها وكتابتها. تختلف الحروف من لغة إلى لغة كالعربية والفارسية والسريانية والقبطية والعبرانية واليونانية والهندية. وتتكون من ثمانية وعشرين حرفاً. وكلها من العربية آخر اللغات تطوراً، وأنها لا نسخ فيها^(٢). وتختلف اللغات بالأصوات. ولكل منها حروف وكتابة وصناعة وأسماء مختلفة كالسريانية والرومية واليونانية والفارسية. كانت الحروف أولاً تسعة يعرف بها أسماء الأشياء وصفاتها على ما هى عليها حتى تكاثر أولاً بنو آدم وتكلموا السريانية، وهى أكثر تطوراً من اللغات الأولى. وتكلم بعضهم النبطية. وهناك تشابه بين اللغات مثل الخمسة أيام للملقب أسماؤها بالعدد فى كل اللغات فى العربية والفارسية.

وتتعدد الشعوب لدرجة لا تحصى، حوالى سبعين شعباً بين أهل وأهل بلاد، وبلاد^(٣). ويلاحظ على هذا التقسيم للشعوب بين أهل، وبلاد، وأهل بلاد أنه يجمع بين

(١) السابق جـ ١/٥/١٩٦/٢١٩ جـ ٣/١٧/١١٣-١١٤/١٤٤/١١٧/١٤٧-١٤٩، جـ ٣/٢/٢٠٧.

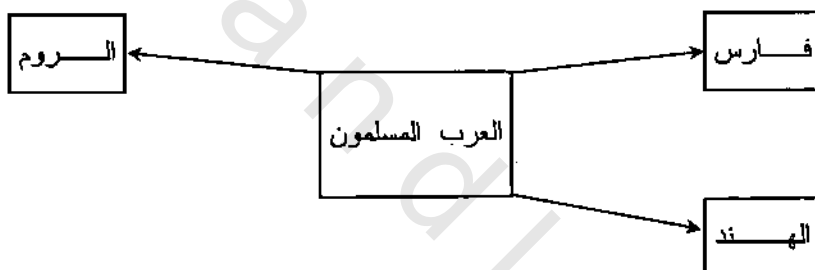
(٢) ومن ثم تسقط دعوات اليوم التى تجعل اليونانية أصل اللغات أو كتابة اللغة العربية بحروف لاتينية.

(٣) أهل مثل: الهند، الصين، السند، الشرع، اليمن، الحجاز، الحبشة، نجد، بلاد النوبة، مصر، برقة، قيروان، البربر، البوادي، طنجة، كيوان، كرمية. وأهل بلاد مثل: النوبة، الصعيد، الإسكندرية، يوان، الشام، الخالدات، مسروحات، كلة، الأندلس، الإسلام، وحاج وحاجين، والجزائر، والدادات والجبيل والفلوات والسواحل. وبلاد فقط مثل: الرومية، القسطنطينية، دجلة، مقدونية، برجان، الصقالية، الرومية، أملاج، الأبواب، أنريجان، أرمنية، جيلان وديلمان وطيرستان وجرجان، نيسابور، فارس، حكرابه، كابلستان وحولتان وكيلان، خوارزم، ياجوج وماجوج وفرغابة، صمانيات، كيمنة، خاقان=

التقسيم الجغرافى، الإقليم، الناحية، المدينة والثقافى الدينى مثل أهل الشرع أهل بلاد الإسلام، بين الواقع الجغرافى والخيال الأسطورى مثل يأجوج ومأجوج والخالدات .

أ- تعدد الثقافات. ومن الصعب تحليل المضمون لرسائل الإخوان لأنها موسوعة فلسفية أدبية اجتماعية دينية علمية ولا تنسم بوحدة الخطاب الفلسفى. ومع ذلك يمكن القول بأن تصور الإخوان لتعدد الثقافات تصور حضارى خالص لا يرتكن إلى خصائص جوهريّة أو سمات طبيعية للشعوب كما هو الحال فى الشعوبية القديمة والعنصرية الحديثة.

ولما كان إحصاء القديمة من اختصاص الحكماء فهم فلاسفة التاريخ يقسم الإخوان الحضارات إلى أربعة كبار: الهند وفارس والروم والعرب أو الإسلام، اثنان من الشرق، وواحدة من الغرب، والعرب أو المسلمون هم جماع الشرق والغرب. وحتى تكتمل الصورة قد يكون العرب أقرب إلى اليونان ومن ثم يمثل العرب والمسلمون الجنوب الغربى ويصبح الوسط، مركز الحضارة، فارغاً.



ويعنى انتقال الحضارة من الشرق إلى الغرب أثر الفلسفة الشرقية على الفلسفة اليونانية كما يلاحظ "صاحب العزيمة"، الحكيم الباطنى^(١). ويتجلى هذا المصدر الشرقى عند المصريين والعبرانيين. ولا يخصص لهم الإخوان حضارات مستقلة. وقد تفرق الحواريون غرباً وشرقاً وجنوباً وشمالاً، واحد إلى بلاد المغرب، وآخر إلى الحبشة، واثنان إلى روميا. واثنان إلى انطاكيا، وواحد إلى فارس، وواحد إلى الهند، واثنان إلى

= وسيستان، حوجير، حقيث. جـ ٢/ ٨/ ٣٦٩-٣٧٠.

(١) قال صاحب العزيمة: من أين لكم هذه العلوم والحكمة التى ذكرتها وافتخرت بها لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس، وبعضها من علماء أهل مصر أيام مسيطوس فنقلتموها إلى بلادكم ونسبتموها إلى أنفسكم؟ السابق جـ ٢/ ٨/ ٢٨٨.

إسرائيل، ومجموعهم عشرة (١).

ومروراً من الشرق إلى الغرب، من الهند إلى فارس إلى العراق يتم التوقف عند النبط، وهم قوم يجمعون بين العلم والأسطورة، بين العقل والخيال. عرفهم العرب وترجموا لهم "الفلاحة النبطية". ومنهم أفريدون النبطي. وربما منهم متوجهر الحريري ودارا التميمي (٢).

تتداخل الحضارات القديمة، الهند والروم والمسيحيون، قولوس وأروس واسطرونيتوس. ويختلط تاريخ الأديان بتاريخ الشعوب، والتاريخ الثقافي بالتاريخ السياسي. وتتغلب أحياناً النحل على الملل، وديانات الطبيعة على ديانات الوحي. واستعراض تاريخ الشعوب والحضارات على هذا النحو المتداخل يمثل بدايات الوعي التاريخي. لا فرق بين التاريخ والسياسة. فكلاهما يكشفان عن الصراع بين الخير والشر، بين بنى العباس وبنى مروان، مثل نجاة آل حمير من عذاب آل تبع. وغارات السباع على الحيوان ليست بأكثر من غارات البشر على بعضهم البعض. فظلم الإنسان لأخيه الإنسان أكثر من ظلم الحيوان للحيوان (٣). ويختلط الواقع بالخيال كما هو الحال في القصص والروايات القديمة، بأجوج ومأجوج الساكنين من وراء السد، صورة أدمية ونفوس سبعية لا تعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع ولا الشراء ولا الحرفة أو الحرث والزرع والصيد من السباع والوحوش والسمك، والنهب والغارات على بعضها البعض، ويأكل بعضها بعضاً (٤).

وتظهر الصين على استحياء. وتظهر أقوام أخرى مثل الزط ربما من أصل هندي، مختلفة في اللسان والألوان والطباع والعادات والأعمال والصنائع والآراء

(١) السابق جـ ٤١٨/١/٤ جـ ٣٠/٣/٤.

(٢) السابق جـ ٢٨٠/٨/٢.

(٣) منذ قاييل وهابيل، وأيام رستم واسفنديار، وأيام جمشيد وتبع، والضحاك وأفريدون، وأيام سيواس ومتوجهر، وأيام دارا والإسكندر، ونبختنصر وآل داود، وآل بهرام وآل عدنان، وأيام قسطنطين وأهل بلاد اليونان، وأيام عثمان ويزجرد، وأيام بنى العباس ومروان جـ ٣٣٥/٨/٣.

(٤) السابق جـ ٣٠٦/١١/٤ جـ ٢٩٦/٢٨٠/٢٣٣/٨/٢ جـ ١٥٩/٧/٤ جـ ٢٧٧/٧/٣.

والمذاهب من أهل المدن والقرى والسودان والسواحل والجزائر والبدارى، نحو ١٧,٠٠٠ مدينة، ١٠٠٠ ملك. وهناك شعوب أخرى لا يتم التركيز عليها إلا من حيث مكانتها من العلم مثل الأكراد والأعراب والزنج والترك. وهى أمم لا تتعاطى العلوم والصنائع والآداب. فى طبائعهم نكاح الغلمان وعشق الرواية^(١). وكثير من هذه الأحكام فى حاجة إلى مراجعة. فعشق الغلمان عند كل الشعوب حتى الغرب الحديث. والأتراك أهل علم وحفظ تراث وهم أهل عسكر وحرب.

أولاً، مصدر الحكايات كما هو واضح فى "كيلة ودمنة" مما يبين أهمية الأدب الرمزي من ناحية أخرى. تحتاج حكاياتها إلى تأويل الحكماء، مثل قصة تين استغلال الأخلاق عن الدين ومع ذلك تحتاج الأخلاق إلى دين ووحى وأنبياء كدعامة للأخلاق^(٢). فالهند بلد الأنبياء والحكماء لفهم البدو والبرهميين وبوذاسف وبوهرل وبرزويه الطبيب، وغيرهم من حكماء الهند وعلماهم وأقوالهم فى الضمير أى البعد الداخلى الذى تجتمع فيه الحكمة والنبوة^(٣). فلفظ الحكيم غير مقصور على اليونان. ويتم اختيار حكايات الهند الدالة على الحياة الإسلامية مثل موضوع الخلافة. فالأمة إذا تركت وصية نبيها، اختلفت من بعده، واعتمدت على رأيها، وأرادت أن تملك ملكاً وتتصب خليفة من دون معرفة من رسول أو وصية أو إرشاد منه واعتمدت على إجماعها ومشورتها خير نموذج للقرابان فى

(١) والشعوب المذكورة: الترك، الحبش، الزنج، النوبة، السند، الصين، النبط، الزط، الأكراد، يأجوج وماجوج، السياسان جـ٤/٧/١٥٩.

(٢) مثل قصة ملك من الهند حسن السيرة ومحب للعدل يعبد الأصنام ولم يعرف شيئاً عن الأنبياء وليس بالضرورة عن المعاد والغيبيات. سأل السنجمين عن وقت مولد ابنه فأخبروه أنه يعيش ويفخر وينال الملك والسلطان، ويصبح ملك السامويين وسلطان الروحانيين. فكر الابن واعتكف عن الدنيا بعد أن أحضر له الخادم حكيماً من عامة الشعب. وهى قصة شبيهة بقصة بوذا. ويهدف الإخوان منها إلى تجنيد الشباب وأبناء الملوك. وقصة أخرى لملك يعبد الأصنام ذى أخلاق حسنة ووزيره عارف بالنبوة فى حوار بين العقل والنقل، والحكمة والشرعية وكان الله قد أرسل إلى الهند أنبياء ورسلا من غير المذكورين فى القرآن ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ﴾. علماء الهند جـ٤/١١/٣٦٦.

حكماء الهند جـ٤/١١/٣٦٠-٣٦١-٣٥١ أقوالهم فى الضمير جـ٥/٣/٤٠٠.

(٣) السابق جـ٤/٧/١٤٩-١٥٠ جـ٨/٨/٢٨٢ جـ٢/٦/١٢٤.

الهند. والدرس المستفاد هو رفض تولية أقارب الملك حتى لا يصير الأمر وراثته، وتفضيل أهل الورع والدين على نقيض الحكام الأمويين، وانقياد الملك بسبب الاتجار بالدين وتمليك الأقارب وتحويل الملك إلى وراثته^(١). وكثير من القصص على لسان الحيوانات تخفياً وتعمية عن الحكام. فما من طاعة إلا وفوقها طاعة^(٢). كما ضرب حكماء الهند المثل بالإنسان لتفهيم الناس الفلك^(٣). فالهند موطن علم الفلك. ويحال إلى الفلك الهندي، ويشار إلى الزيج وهو كتاب تعرف به أحوال حركات الكواكب ويؤخذ منه التقويم.

وتظهر الهند بوضوح في رسالة اللغات والكتابة وفنون التأليف والحروف التي خرجت إليهم من الجنة بعد هبوط آدم منها. فقد استعملت الهند الحروف العربية الحسائية وهي التي علمها الله لآدم. بدأت الهند بتسعة حروف وانتهت في العربية بثمانية وعشرين حرفاً. فالعربية متطورة عن الهندية. لذلك انتسبت فرقة الهند إلى العدد تسعة في حين انتسبت فرق أخرى إلى السبعة والخمسة والأربعة والثلاثة والاثنين والواحد^(٤).

وقد لاحظ زعيم الهند في رسالة الحيوان أن بنى آدم أكثر الحيوانات عدداً وهي رؤية هندية لكثرة سكان الهند. ولها عدة فضائل، أنها بلاد الاعتدال، فضيلة اليونان والإسلام وحياة الجنان، ومتصلة ومتفاعلة مع باقى الحضارات. ذهب إليها أحد

(١) السابق جـ ٣/١٧/١٦٧-١٦٨.

(٢) مثل قصة ثعالب وجنت جملاً ميتاً وخشوا الخلاف على الرزق فأمروا عليهم ذنباً لأن أباه كان ملكاً محصناً. عدل الذئب أول يوم ثم أخذ الغنيمة. فذهبوا إلى الأسد ففك به ورد لهم الغنيمة. وللقصة دلالات كثيرة. الرزق مصادفة، جمل ميت، خلاف البشر على جيفه، الإمارة شر، دليل الإمارة ليس الأب بل الشخص، تغير سلوك الأمير من عدل إلى جور، عجز الثعالب عن التعبير بنفسها، ذهابها إلى قوة أعظم مثل الله، الحل الخارج. جـ ٣/١٧/١٧٠-١٧١ جـ ٤/٧/١٤٨/١٥٢ جـ ٤/١١/٣١٠ جـ ٤/٥/١١٣.

(٣) دوران الكواكب حول الأرض مثل ملك بنى مدينة دورها ٦٠ فرسخاً. وأمر سبعة نفر بالدوران حولها. الأول كل يوم فرسخاً، والثاني فرسخين، والثالث ثلاثة حتى السابع سبعة حتى يلتقوا أمام الباب. كانت المشكلة في السابع فاستأنفوا الدوران حتى اجتمعوا بعد ٤٦٠ يوماً. الأول سبعة أدوار، والثاني ١٤ والثالث ٢١ والرابع ٢٨ والخامس ٣٥ والسادس ٤٢ والسابع ٦٠. جـ ٢/٢/٤٠-٤٢ جـ ٣/٥/٢٥١.

(٤) السابق جـ ٣/١٧/١٤٨/١٤١ - ١٤٢ جـ ٣/٢/٦ جـ ٣/١/١٨٠.

الحواريين. وقال أفلاطون أنه أرسل نفراً من أصحابه إليها. وجزيرة سرنديب جزء منها، خلفية قديمة للصراع مع التاميل (٢).

يقولون بالتناسخ وحمل الذنوب عن الأوار السابقة، الفرد عندما يتحول إلى تاريخ دائري بين الحياة والموت، بين الزمان والخلود. ويعتمد أهل الهند وحكماء اليونان على القوة المتخيلة للإتيان بأعمال عجيبة اعتماداً على الرياضيات والميتافيزيقا. ويقتل البراهمة أنفسهم، ويحرقون أجسادهم طلباً للخلاص (٣).

والهندي أسمر نحيف الجسم طويل اللحية موجزر الشعر، متوشى بازار أحمر على وسطه. وفي رسالة "الحيوان" بعد الحمولات والبسملات يتحدث بإسم الشرق. وتظهر البيئة الجغرافية المحلية ووصف الطبيعة مستعملاً بعض الألفاظ الفلسفية المجردة مثل الفرد، الصمد، القديم، السرمد. وتتمثل فضائل الهند في أربع: أولاً ظهور الأنبياء ومن ثم لا فضل للعراق على الهند ولا فرق بين أنبياء العرب المذكورين في القرآن وأنبياء الهند الذين لم يذكرهم القرآن (وما من أمة إلا خلا فيها نذير)، «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص». ثانياً ظهور الحكماء، فلا فضل لليونان على الهند من البدر والبراهميين وبوداسف وبوهلر. فالحكمة ليست حكراً على اليونان. ثالثاً ظهور العلماء، فلا فضل للعراق على الهند أو اليونان في السحر والعزائم والكهانة، صور العلم القديم. رابعاً الشجاعة والحركة من الصفات البدنية والثب والجسارة والتقدم نحو الموت. وفي نفس الوقت ينقد صاحب العزيمة، حكيم الحكماء الذي يمثل الحكمة الخالدة، الإنسانية كلها، الهند لحرق الأجساد، وعبادة القروود والأصنام، وكثرة أولاد الزنا، واسوداد الوجه مما يوحي بأهمية اللون، وأكل التوابل الذي قد يعتبره البعض ميزة، وكانت أحد أسباب احتلال الهند في الغرب الحديث (٣).

(٢) السابق ج٢/ ٨/ ١٦٩ ج٤/ ٣/ ٣١ ج٤/ ١١/ ٤١٩ ج٢/ ٨/ ٢١٨ ج٤/ ١١/ ٣٢٣.

(٣) ج٣/ ٩/ ٣٦٥ / ٣٧٠ / ٣٦٧ / ٤٣١ ج٤/ ١/ ٤١٧ - ٤١٨ ج٢/ ٨/ ٣١٩.

(٣) السابق ج٢/ ٨/ ٢٨١ - ٢٨٢.

وصورة الهند هي الهند الأولى قبل دخول الإسلام لها ونشوب الصراع بين الإسلام والهندوكية وأهمية الإسلام في الوحدة والعلم وليس التفرق والأسطورة. فالهندوكية تقوم على تعدد الحقائق والإسلام على وحدتها. كما تقوم على الخيال والأسطورة والإسلام يقوم على العقل والعلم .

ثانياً تظهر فارس مع الهند في رؤية إسلامية واحدة، شاهنشاه مع كييناوية مع يوسف الصديق مما يجعل حضور الشرق في الرسائل أكثر من حضور الغرب ربما لأن بفارس سعادة الفقراء والطبقات الشعبية في حين أن في الغرب اليوناني سعادة الأغنياء وطبقة الأرستقراطيين. مما يوحي بأن الإخوان من أنصار حكمة فارس مثل مسكويه كما أن البيروني من أنصار حكمة الهند والفلاسفة من أنصار حكمة اليونان (٢).

وتذكر كثير من الأسماء الفارسية لما يقابل القيامة والزمهرير. فالثقافة لا تكون إلا بلغتها الأصلية. وتتداخل أسماء فارس والهند والروم. فالحضارات ليست دوائر منعزلة ومنغلقة على ذواتها. ثوية فارس من خلال بعض الطبائعين اليونان، وأسماء فارسية في حكاية هندية في بيئة إسلامية بلغة عربية بروح دينية. وتذكر قبائل الجن وأسمائها رموزاً على شرور لبنى أمية، الجنود والأعوان من قبائل الجن من بنى ساسان وبنى خاقان أولاد شيصبان. وكل مجموعة من العلماء من قبيلة فارسية: قضاة الجن من آل جرجيس، ولغتها من بنى ناهيد، وأهل الرأي من بنى بيران الحكيم، والحكماء من آل لقمان، وأهل التجارب من بنى هامان، والحكام والفلاسفة من بنى كيوان، وأهل الصرامة والعزيمة من آل بهرام. ونجا آل ساسان من عذاب اليونان. كما نجا آل عمران من عذاب أردشير (٣).

ورجل من أهل فارس عالم بحساب النجوم وله كتاب هو الذي يعرف قصة الخلق، آدم وحواء، لا فرق بين دين فارس ودين إبراهيم في التوراة والإنجيل والقرآن. فحساب النجوم ليس خاصاً بالهند وحدها. نشأ الدين في فارس والقرآن متعاطف معها وكذلك الحديث. وأردشير بابك الفارسي جمع بين الملك والنبوة مثل داود ويوسف وسليمان

(٢) السابق جـ ٣ / ٧ / ٢٩٢ جـ ٣ / ٨ / ٣٢٤ جـ ٤ / ٧ / ١٥٥ جـ ٤ / ١١ / ٤٢٤ .

(٣) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٠٩ - ٢٢٤ جـ ٢ / ٨ / ١١٣ .

ومحمد. فالملك والدين توأمان حكمة فارسية. وحكيم الغرب برزجمهر يقر على نفسه بالعجز عن فهم الأمور التي يقدرها الله كالمتكلم الأشعري. ويتم الاستشهاد بابن أردشير وزرانشت على أفضلية صناعة الأبناء على الآباء، وأولوية الجديد على القديم. وهى رؤية إسلامية يقوم عليها الاجتهاد. وملوك الفرس فى الشرق مثل الطوائف فى الغرب. ويتم حوار بين رئيس قريش وكسرى حول حاجة الضعفاء إلى الأقوياء والصغار إلى الكبار^(١). وتاريخ الفرس هو الخلفية الثقافية لطرح أسئلة المسلمين حول الحدود والرسوم^(٢).

وقد ذهب أحد الحواريين إلى فارس. فلا فرق فى الأفكار بين الحضارات فى نوع من التداخل الحضارى مثل مغادرة النفس البدن، هندية فارسية يونانية إسلامية، وأهل السموات وسكان الأفلاك، الملائكة الذين يسمعون ويصرون ويسبحون مثل داود ومزاميره وإيوان كسرى وغنائيه، لا فرق بين فارس والأندلس، بين خراسان والمغرب، بين فارس والهند شرقاً، وفارس واليونان غرباً بصرف النظر عن الحضارة الأم أو الأصل، والحضارة النهائية والمبتغى. التاريخ وحده واحدة خارج الزمان، بلا بداية ولا نهاية، فلسفة خالدة^(٣).

ويتداخل التاريخ والأسطورة، بيرات الحكيم الملك العادل القاضى بين شكوى الحيوان ضد الانسان ملك الجان فى جزيرة جيدة معتدلة بها الثمار والأزهار رمزاً للعدل، والعدل من فارسى وليست من عربى. والجن والشياطين أحد الموضوعات النظرية فى علم أصول الدين^(١). ثم يعود الواقع من جديد. فمن خصائص العجم فى جملتهم الاحتراس

(١) السابق جـ ٣ / ١٧ / ١١٢ جـ ١ / ٤ / ١٦٦ / ٤٩٦ جـ ٢ / ٦ / ١٤٥ جـ ٤ / ١ / ٥٠٨ جـ ٤ / ٨ / ٢٩٢ جـ ٢ / ٨ / ٢٠٨ جـ ٣ / ٦ / ٢٧٧ .

(٢) السابق، بحر فارس جـ ٣ / ١٠ / ٣٩١ ظلمة أهرمن ونور أرمزدا ونسخة أفريمون جـ ٤ / ٣ / ١٩. الحكيم وزير خيشوان ملك الهياطة، وفيروز ملك الفرس جـ ٤ / ٣ / ٥ - ٢٢ .. بلوهر وبوداسف جـ ٤ / ٤ / ٥٨ زرادشت وماتى جـ ٤ / ١ / ٤٦٢ جـ ٧ / ١٧٥. حكماء الفرس جـ ٤ / ٧ / ١٧٥ جـ ٤ / ١١ / ٣٤٦ - ٣٤٩. ملوك الفرس جـ ٤ / ١١ / ٣١٥ .

(٣) Philosophia Perennis.

(١) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٠٤ جـ ٢ / ٨ / ٢٢٤. أيضاً من العقيدة إلى الثورة جـ ١ المقدمات النظرية ص

من البرد بالغطاء والانتثار وأكل الحار مثل الثوم والفلفل والعسل!

ويرمز الخراساني إلى فارس، فخراسان قلب فارس. لذلك يسمى الخراساني أحياناً والفارسي أحياناً أخرى. وفي خطابه في رسالة "الحيوان" تظهر في مقدماته ثنائيات الصوفية في الأحوال. وقد تكلم مرتين. ويبدو في ألفاظه التجلي والاستبصار والتعالى والنور. وهو عظيم الجثة قوى البنية، حسن النبوة، ناظراً بيده نحو السماء، يدير بصره مع الشمس كيف دارت .

وخراسان أكثر البلاد عمراناً، مدن واسواق ومنازل وقلاع وحصون. وأكثر البلاد غنى في ثرواته الطبيعية، أنهار وأشجار وجبال ومعادن وحيوان ونبات. وأكثر البلاد غنى في ثرواته البشرية، رجال في قوة الجمال، وخيال في عظم الجبال، ونساء في قوة الرجال. مدحهم الأنبياء ضد العرب المخلفين، ووصفهم باليأس الشديد، والقوة المتينة، ومحبة الدين، واتباع المرسلين. يجمعون بين الإيمان والعمل، ويستعدون للأخرة والتزود للحصاد. يؤمنون بكل الأديان، ويقرأون الانجيل دون معرفته، ويؤمنون بالمسيح ويصدقون به. ويقرءون القرآن ويرتلونه ولا يعرفون معناه. ويؤمنون بمحمد وينصرونه. يثأرون للحسين، ويلبسون السواد بعد استشهاد. ويثأرون ضد بنى مروان، ويطردون البغاة والمعتدين على حدود الله والدين. الإمام المنتظر من عندهم بما طبقاً للخبر والأثر. ويستمر الفارسي في رصد مناقب فارس. فالعلم في فارس. ومن الفرس الملوك والأمراء والخلفاء والسلطين. ومنهم الرؤساء والوزراء والكتّاب والعمال وأصحاب الدواوين والحجاب والقواد والنقباء والخواص وخدام الملوك وأعوانهم من الجنود أى جهاز الدولة والدواوين التى استعارها عمر منهم. ومنهم التجار والصناع وأصحاب الزروع والتسل أى أرباب الحرف. ومنهم الدهاقون والأشراف والأغنياء وأرباب النعم وأصحاب المروءات أى أصحاب رؤوس الأموال. ومنهم الأدباء وأهل العلم والورع وأهل الفضل. ومنهم الخطباء والشعراء والفصحاء والمتكلمون والنحويون وأصحاب الأخبار ورواة الحديث والقراء والعلماء والفقهاء والقضاة والحكام العدول والمزكون والمذكرون

والحكماء والمهندسون والمنجمون والطبيعيون والأطباء والعراقون والمفسرون والكهنة والمعبرون والكيميائيون وأصحاب الطلسمات وأصحاب الأرصاد. هي مجموعة من العلماء متصاربة المشارب، تجمع بين علوم الفقه والكلام والحديث والقراءة والفقه والعلوم الإنسانية كالحكمة والهندسة والفلك والطبيعة والطب والكيمياء وأيضاً العلوم الخرافية مثل العرافة والكهانة.

وينقد رئيس الفلاسفة وليس صاحب العزيمة فارس والفرس في أنهم جفاء الطبع، فحش اللسان، ينكحون الغلمان ويتزوجون الأمهات. يعبدون النيران ويسجدون للشمس من دون الرحمن. وواضح أنها ديانات فارس القديمة وعاداتهم قبل الإسلام. في حين أن محاسنهم مكتسبة بعد الإسلام^(١).

ثالثاً الروم وهو اليونان وليس الرومان. وأسطورة التبعية لليونان الخلق العبقري الأصل الذي على غير منوال سابق تدحضها رسائل الإخوان التي تثبت تتلمذ اليونان على حضارات الشرق، وأن الإبداع الفلسفي والعلمي سابق على حكماء اليونان. ثم استثمرت اليونان حضارات الشرق، الهند، وفارس، والنبط قبل الوصول إليهم. ومن الشرق أخذت أصل الخط المستقيم والقوس، القوس العربي، والمستقيم الرومي. ونقل ملوك اليونان الحكمة من الشعوب المفتوحة كما نقل سليمان الحكمة من الشعوب المفتوحة مثل الكنعانيين والجبوسيين. تاريخ الحضارة إذن تاريخ ممتد من الشرق إلى الغرب، ومن الهند وفارس اليونان. الأصل السريانيون والمصريون، هرمس ولومهرس وأراطس. ومن هرمس خرج اليونانيون، صابئة وحرانية التي فيها نشأت الفيثاغورية والأرسطانية والافلاطونية والأفغوروسية. ولا يهم التحقق تاريخياً من الفرق اليونانية بقدر ما يهم أصلها الشرقي^(٢). فالإغريق لا تطلق على اليونانيون وحدهم بل هو اسم جامع لشعوب الشرق. اليونان تلاميذ الشرق وامتداد لهم، وليسوا أصحاب حضارة مستقلة. والمصادر الشرقية للفكر اليوناني منذ أيام بطليموس وإسرائيل ومسيطوس من مصر. ولحكمة الهند فضل خاص على اليونان فيما يتعلق بالقوة المتخيلة. بل إن علوم إسرائيل نفسها مستمدة

(١) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٨٨ - ٢٩٠ / ٣٣٨.

(٢) السابق جـ ٣ / ٢٧ / ١٤٨ - ١٤٩ جـ ٤ / ١١ / ٢٩٥ / ٤٤٤ جـ ٤ / ١ / ٤١٨ جـ ٨ / ٢٨٨.

من الشرق القديم. فقد أخذ سليمان علوم الشعوب الأخرى من الكلدانيين والبابليين والأشوريين والمصريين بما أوتي من قدرة على معرفة اللغات. وما فعل سليمان مع غيره فعله الروم حيث غلبوا اليونان وما فعله اليونان عندما غلبوا غيرهم. فالحضارات متواصلة بين الغالب والمغلوب. وشهور الروم والقبط في كل منزلة، في وعى تاريخي واحد بين الروم ومصر. وهى نفس التواريخ الموجودة حتى الآن، الميلادى والقبطى.

والروم أهل حرب وغلبة، قاتل أم مقتول، غاز أم مغزو طبقاً للمثل "الروم إن لم تغز غزت". وهذا سبب قتالهم الكفار وسبب حرب المسلمين لهم بالرغم من الجوار الجغرافى والأسرى المتبادلة. وهو توجه قرأنى ﴿ألم، غلبت الروم... وهم من بعد غلبهم سيفعلون﴾ دون ذكر فارس وذكر مصر فى القرآن دون تخصيص حضارة لها فى الرسائل.

وفى رسالة "الحيوان" يستعمل اليونانى فى مقدمة خطابه لغة الفلسفة، الهولوى والصورة والعقل الفعال والجوهر والنفس الكلية. اليونانى يقتصر على الفكر، والرومى يصف الشعب مما يكشف عن طبيعة اليونان العقلية، والرومان الحسية. ويتكلم الرومى مرة ثانية وعلى رأسه مشددة، قائماً فى الملعب، بين يديه آلات الرصد ليصف خصائص الشعوب رداً على مدح الحيوان للجن وتكرار اتهام الإنسان بالعنصرية، ودخول الأنس بداية بخطاب الروم.

ويقدم اليونانى نفسه ببعض السمات هى فضائل ونعم من الله، شهادة إسلامية على المحاسن اليونانية. فهم أهل البقول والنعم، أنصار الملوك الفاضلة والخصال الحميدة والسير العادلة، يتميزون برجحان العقول، ودقة التمييز، وجودة الفهم. برعوا فى العلوم والصناعات، الطب والهندسة والنجوم والأفلاك والحيوان والنبات والمعادن وآلات الرصد والطلسمات الرياضية والمنطق والطبيعات والإلهيات، وأمّنوا بالسعادة فى الدنيا والآخرة. وهى قراءة إسلامية للفلسفة اليونانية .

وينقد صاحب العزيمة الذى يمثل الحقيقة الموضوعية المطلقة اليونان بأنهم أخذوا علومهم من المصدر الشرقى من إسرائيل أيام بطليموس، ومصر أيام مسيطوس، واعترف اليونان بذلك نظراً لأن النقاء الحضارات وارد عند الكل، اليونان والفرس

والهند وإسرائيل. فقد أخذ الفرس علوم النجوم والأفلاك وآلات الرصد من الهند. وأخذت إسرائيل علم الحيل والسحر والعزائم والطلسمات واستخراج المقادير، أخذها سليمان من خزائن ملوك سائر الأمم حين غلبهم ونقلها إلى لغة العبرانيين وإلى بلاد الشام. وبعضها أخذتها إسرائيل من كتب الأنبياء عن طريق الوحي من الملائكة، سكان السموات. تكثر العلوم في أمة في وقت دون وقت، وتغلب إذا صار الملك والنبوة فيها، وتأخذ علومها من الأمم المغلوبة وتنسبها إلى نفسها. ويعترف اليونان بنقد صاحب العزيمة لهم وأخذهم من الشعوب المجاورة، إسرائيل ومصر، وبالذورات الحضارية بين الأمم^(١).

رابعاً العرب وهم أقل الأمم الأربع ذكراً وتفصيلاً مع أنهم حملة الإسلام خاتم الرسالات. اقتصر العرب بالجزر في الجاهلية والقال في الإسلام ووضعوا فيه الكتب. ولهم أيضاً أمزجتهم. فأهل الحجاز يكشفون الأبدان. وأسرع قبولاً لما جاريه الرسول. وهم أصحاب سفر وصناعة وحضارة. يستخرجون اللائى من قعور البحار. ولهم آثار ومدن وقرى ومنازة الإسكندرية والاهرام.

دورت الإسلام الحضارات القديمة، من الهند إلى فارس إلى اليونان، من الشرق إلى الغرب إلى العرب. ولم تفقد خصوصيتها العقلية العلمية وسط هذا التراث الشرقي الاشرافى القديم أو لصالح الشعوبية.

وفى رسالة "الحيوان" يسمى الإخوان العربى "القرشى" زيد العرب. وتمثلئ مقدماته الايمانية بصور فنية حرة من القرآن. كما أن الخطاب متجه إلى رشد العيش قحب الدنيا، وهى صورة العربى الآن فى شبه الجزيرة العربية. رد عليه زعيم الطيور، الهزار واستان (العندليب) بأنه يتصور أنه الرب وأن الحيوان عبيد له. وهو أسمر شديد السمرة نحيف الجسم، عليه توبان، ازار ورداء، شبه المحرم، راكعاً ساجداً يتلوا القرآن، ويناجى الرحمن.

(١) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٨٦ - ٢٨٨ / ٣٠٩ . وهذا ما أكده أيضاً مارتن برنال فى كتابه "أثينا السوداء" المصادر الأفريقية الآسيوية للحضارة اليونانية. انظر عرضنا للجزئين الأولين أثينا السوداء، وأثينا المصرية، مجلة، القاهرة نوفمبر، ديسمبر ١٩٩٥.

وبين العربي فضائله التي كرمه الله بها وهي الإسلام خير الأديان وأمه صاحب الفرقان، وتلاوة القرآن، وشهر رمضان، والطواف حول بيت الله الحرام والركن والمقام وعرفة، وليلة القدر، والزكاة، والطهارة، وصلاة الجماعة والاعياد، والمنابر والخطب، وحقة الدين، وسنن النبيين، وسيرة الربانيين، وأخبار وأحوال الأولين والآخرين، وحساب يوم الدين، والوعد بثواب التبيين وشهداء الصالحين في دار النعيم^(١).

ينقد صاحب العزيمة العربي بالردة بعد وفاة النبي، وبالشك والنفاق، ويقتل الأئمة الخيرين الفاضلين طلباً للدنيا والدين^(٢).

ب- وحدة الحضارة الإنسانية. وبالرغم من تعدد الثقافات إلا أن الحضارة الإنسانية واحدة. تختلف في نقطة البداية، أمزجة الشعوب وطبائعها وتتفق في النهاية، عالم الخير والفضيلة. والرسالة الثانية من الجزء الثاني من الرسائل " الجسمانيات والطبيعيات " عن خصائص الشعوب ابتداء من شكل البدن. وهي جزء من رسالة في كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها. وبعد وصف جسد كل شعب ممثلاً في الفرد يتم رصد الرذائل والفضائل فيه. والسؤال هو: هل يمكن التعميم على الشعب من خصائص الفرد؟ وتذكر خصائص الشعوب في رسالة " الحيوان ". فالكل فضائل.

ويكمل الإخوان باقى الشعوب لعدم الاكتفاء بالأربعة الرئيسية الهند والفرس والروم والعرب بثلاثة أخرى: العراق، والعبرانيون، والسريانيون. والعراق يتأرجح بين العراق القديم والعراق الجديد بين الآشوريين والبابليين القدماء والعراق العربي الحديث.

فالعراقى معتدل القامة، مستوى البنية، حسن الصورة، مليح البزة، لطيف الجملة، صافى البنية، حلو المنظر، خفيف الروح. وتسمى العراق بلاد إيرانشهى وهو الاسم الفارسي للعراق، وتوصيف العراق من خلال إيران ربما من آثار التضاد بين الشيعة والسنة أو لوجود آثار الشيعة في العراق. فهي الموطن الديني لفارس في كربلاء والنجف^(٣).

(١) السابق جـ ٤ / ١١ / ٢٤٣ جـ ٥ / ٣٨ . ٢٩ / ٤٣ جـ ٥ / ٥٣٦ جـ ٢ / ٨ / ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٨٥ - ٢٨٦ / ٣١٥ . ٣١٦ .

(٣) السابق جـ ٤ / ٨ / ٢٧٨ جـ ٢ / ٨ / ٢٧٩ - ٢٨١ / ٣٢٩ - ٣٣٠ .

ويبدأ خطاب العراقي أيضاً بالحمدلات والبسملات. فالدين هو الجامع بينهم. فكل الطوائف تتذرع بالأديان، الملك والقضاء والاتهام والدفاع. الحضارة دينية بطوائفها وطبقاتها، جلاديها ومسجونيتها. الكل يستدعي الدين لاستمداد الشرعية. وكلها تشبيهات إنسانية تدل على عجز الإنسان على السيطرة على العالم في حين أن الله هو الجامع بين الاضداد^(١). والكثير منها تعبيرات قرآنية، وكأنه تركى يتكلم في العصر المملوكي، وكان الفارابي لم يستطع التخلي عن تركيبته. وتبدو البيئة المحلية الزراعية مع المقدمات الدينية. وتركز ثقافة العراق على الأرض والزراعة والهواء والتربة والأشجار والثمار أي البيئة الطبيعية في موقع جغرافي وسطي. وتقوم على صفاء الذهن ورجحان العقل وذكاء النفس أي الثروة البشرية. وتبدع في العلوم والصناعات أي النهضة العلمية وما يتبعها من عمران. وفي العراق نشأت الدول والنظم السياسية، وظهرت النبوة والرسالة مثل نوح النبي، وإدريس الرفيع، وإبراهيم الخليل، وموسى الكليم، وعيسى المسيح، ومحمد المصطفى. فكل نبي لقب مميز لرسالته. وفيه ظهر الملوك، أفريدون النبطي، وسليمان بن داود، ومتوجهر الحريري، ودارا التيمي، وأردشير الفارسي، وبهرام، وأنوشروان، وبرزجمهر. العراقي قمة البشر، والبشر ذروة الحيوان، والحيوان كمال النبات، والنبات جوهر المعادن، والمعادن حصيلة الأركان^(٢). ولما رد عليه الأسد اثبت العراقي الاصطفاء والاختيار والمناقب والمواهب والكرامات مثل حسن اللباس في مقابل خشونة لباس الحيوان وكشف عوراتها.

ومع ذلك للعراق عيوبه: الطوفان الذي أغرق الأرض من نبات وحيوان، اختلاف الألسن، تبديل العقول وتغيير الأبواب، نمرود الحبار وطرح إبراهيم في النار، ونخبتمصر الذي ضرب إيليا، وحرقت التوراة، وقاتل أولاد سليمان وآل إسرائيل، وطرد آل عدنان من

(١) وهي وظيفة مركب الموضوع عند هيجل.

(٢)



شط الفرات إلى بلاد الحجاز، والمتمرد والجبار والفتاك السفاك للدماء. وقد يرى البعض امتداد ذلك إلى عراق اليوم.

والسؤال هو عن خصوصية العراق. فالعراقى هو الذى يبدأ بالخطاب وهو المصطفى، فالاصطفاء ليس خاصية لبنى إسرائيل. ويتداخل العراق مع فارس وفيها ظهور ملوك من العرب والفرس والنبط والعبرانيين والحميريين. فقد كانت العراق فى فارس بوابة العرب الشرقية كما يقال اليوم. فيها التقى شرق الجزيرة فى فارس مع جنوبها النبط وحمير، مع غربها، سليمان، وشمالها، إبراهيم .

ولا تكتمل الصورة دون العبرانى والسريانى أى دون اليهود والنصارى. فالعبرانى صاحب كتاب، يقرأ ويهتز. استقر فى الشام. وهو عبرانى من أهل العراق ربما منذ زمان الأسر البابلى. فليس العبرانى فقط من الشام مما يدل على اختلاط الملة مع الإقليم. وهو طويل مرتد برداء اصفر، بيده مدرجة، ينظر فيها ويزمزم ويترجح قدماً وخلفاً. ويركز فى مقدمته الايمانية فى رسالة " الحيوان " على أهمية الخلق، واصطفاء الأنبياء، وأن الخالق رب والاخرين عبيد له. وقد رد عليه زعيم الطيور.

ويتسم العبرانى بصفات أربعة: الأولى اصطفاء آدم وذريته نوح وابراهيم واسرائيل وموسى والتوراة، وتكليم الله موسى وتأنيده بالمعجزات، والثانية اغراق الأعداء، والثالثة إرسال المن والسلوى، والرابعة الملك. وكلها أقرب إلى المعجزات. وينقد صاحب العزيمة العبرانيين فى أربع. أولاً لعنة إسرائيل وتحويلهم إلى قردة وخنازير. ثانياً عبادة الطاغوت وعبوديتهم له. ثالثاً ضرب الذلة والمسكنة عليهم والبقاء بغضب الله، رابعاً الخزى فى الدنيا وعذاب الآخرة جزاء أعمالهم^(١).

والسريانى القس يمثل آل المسيح، طويل عليه ثياب من صوف، وعلى وسطه منطقة من السيور، وبيده بيرم عود بطرحه، ويختر فيه النار، رافعاً صوته، يقرأ كلماته ويبلحنها. وفى مقدماته الايمانية فى خطابه فى رسالة "الحيوان" يجمع بين التوحيد والتثليث عن طريق الصيرورة. ويتسم السريانى بصفات ثمان. التجسيد فى مريم العذراء، تجسد

(١) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٨٢ - ٢٨٣ .

اللاهوت فى الناسوت، روح القدس، المعجزات والعجائب، إحياء بنى إسرائيل من موت الخطية، الحواريون أشياح المسيح وانصاره، الرهبنة والقس، التواضع وعدم الاستكبار فى الأرض، الرحمة فى القلوب. وينقدهم صاحب العزيمة لعدم رعاية الأمانة حق رعايتها، والكذب على الله وقول الزور والبهتان، والكفر، والتثليث، القول بأن الله ثالث ثلاثة، وعبادة الصليب، وأكل لحم الخنزير فى القربان^(١).

وتتأكد وحدة الحضارة الإنسانية بالرغم من خصوصية الثقافات. فكل ثقافة لها خصوصيتها فى اللباس والعادات والتقاليد والأمزجة والطباع والألسنة بل والخصائص الفزيولوجية مثل لون البشر وبنية البدن. وتتجاوز صفات البدن إلى الملابس مثل الهندى الأحمر، وإلى الطريقة فى العلم مثل اهتزاز العبرانى وهو يقرأ، وإلى اليدين مثل الهندى البرهمى والعربى المسلم، وإلى اللطائف أو الفرقة مثل السريانى القس، أو إلى السمة الذهنية مثل اليونانى الرياضى العالم.

وواضح من هذه الصفات التراوح بين الدين والفلسفة، وأولوية الفلسفة على الدين، وبالتالي أولوية اليونانى الرياضى العالم على الهندى البرهمى. والعبرانى اليهودى، والقس المسيحى، والعربى المسلم. وتنتهى كل خطابات الشعوب فى رسالة "الحيوان" بالبسملات والحمدلات والشكر والتناء والاستغفار، لا فرق بين هندى وفارسى، بين عبرانى وسريانى، بين يونانى وعراقى. فالدين مقدمة وخاتمة، بداية ونهاية عند الكل. والعدد سبعة عدد رمزى عند الكل. نظر الملك إلى جماعة من الانس، حوالى سبعين رجلاً من مختلفى الهينات واللباس واللغات والأشكال والألوان^(٢).

وتظل العلاقة بين الشعوب هى تعدد الثقافات الخاصة ووحدة الحضارة الإنسانية العامة ربما توجهها لا شعورياً من آية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾. تختص كل أمة باتجاه رئيس غالب على ثقافتها وعلمها. وأحياناً يكون الوصف للعلم وليس للشعب. فالفرس التريية، والسيرة صوفية. والعرب الدين، والأخلاق

(١) السابق جـ ٢/ ٨/ ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٢) السابق جـ ٢/ ٨/ ٢٧٨ - ٢٩٠.

ملكية. والعراق الأنثى، والرأى ربانى. والعبرانى المخبر، والعرف إلهى. والشامى النسك، والمذهب حنفى. والمسيحى المنهج، واليونانى العلوم، والهندي البصيرة. والفاضل العالم الخبير النكى هو الذى يجمع بين هذه الصفات كلها^(١).

وكل تعميم يجانبه الصواب. وغلبة محور لا يعنى غياب المحاور الأخرى. فالعرب ليسوا أهل دين فحسب بل أهل لغة وأدب وشعر وبلاغة وفصاحة. والفرس ليسوا أهل تربية أى السياسة بوجه عام كتربية للمجتمع ولكنهم أيضاً أهل أدب وعلم. ولماذا ينفرد الشامى بالنسك وقد بدأت حركة الزهاد والنسك والعباد فى العراق. والنسك والرهبة معروفان فى الهند والمسيحية ؟ واليونان عرفوا بالفلسفة والعلوم أحد أقسامها. والعراق عرف بالأدب كما عرف بالفكر والنحو إلى آخر ما هو معروف فى مدارس الكوفة والبصرة وبغداد. وقد عرفت الرياضيات أيضاً فى الهند، الحساب والهندسة. وعند الحديث عن المذاهب لماذا جعل المذهب الحنفى هو الفقه ؟ وحين الحديث عن الملل لماذا كان يختص المسيحى بالمنهج، والمنهج عام وشائع بين كل الملل ؟ ولماذا يختص العبرانى بالمخبر وهو شائع عند كل الشعوب قديماً وحديثاً إذا كان المقصود هو التاريخ أو حتى المظهر ؟ قد يكون المذهب حنفياً لأن القرن الرابع قرن العقل قبل ردة الغزالي فى القرن الخامس، ولكنه أيضاً قرن ردة الاشعرى عن العقل إلى النقل. ولماذا تكون السيرة صوفية بالضرورة إذا كان المقصود بالتصدق الأخلاق ؟ ولماذا تكون الأخلاق ملكية بالضرورة إلا إذا المقصود الملائكية ؟ وماذا عن أخلاق الواقع والضرورة والموقف ؟ ولماذا يكون الرأى ربانياً ؟ وهل يوجد تعارض بين الرب والمربوب ؟ ولماذا تكون المعارف إلهية ؟ وهل هناك تعارض بين المعارف الإلهية والمعارف الانسانية بدليل اسباب النزول والناسخ والمنسوخ ؟

وتتوحد الثقافات بقراءة إسلامية لها. عبرانى من أصل عراقى، العراقى لليهودى. الاختلاف بين ثقافات الشعوب فى رواية الحدث وتفسيره وقراءته كل طبقاً لهواه وثقافته وتكوينه النفسى. فعندما رأى الملك حيواناً يحمل الطين ليس له رجلان ولا جناحان أجاب

(١) السابق جـ ٢ / ٨ / ٣٧٥ - ٣٧٦.

العبراني متهماً الجن بحمل الطين مكافأة لها على أكل عصا سليمان فمات وهرب الجن طبقاً للتصور الأسطوري. وتعاطف اليوناني مع الحيوان الطريف الخلفة العجيب الطبيعة. فالليونان عالم طبيعي وصاحب تفسير طبيعي. ووافق الصرصور وصف اليوناني مكتشفاً الحكمة في الخلق والعناية ومكماً علم اليونان بالحكمة الحيوانية الإلهية، وهو التصور الاسلامي على لسان الحيوان مع تعادل الصفات الجسمية مع الصفات النفسية في الخلق. فالقيل عظيم الجنة ذليل النفس، والجرادة الأرضية ودودة القر ودودة البحر والنحل والنمل صغيرة الجنة قوية النفس. وجعل الله في الجبل حب الحرير والديباج شكراً لله على نعمائه. ومع ذلك فهم غافلون ساهون لاهون طاغون باغون كافرون جاحدون منكرون مفتخرون متعدون جائرون ظالمون^(١).

وقد كرم الله الإنسانية كلها، بنى آدم بأهم الفضائل، التكريم بالوحي والنبوات والكتب المنزلة والآيات المحكمة، وما فيها من حلال وحرام وحدود وأحكام وأوامر ونواهي وترغيب وترهيب ووعد وعيد ومدح ونشأ وتذكار وأخبار وأمثال واعتبار وقصص الأولين والآخرين وصفات يوم الدين والوعد بالجنة والنعيم والكرام بالغسل والطهارة والصوم والصدقة والزكاة والأعياد والجمعات والذهاب إلى بيوت العبادات والمساجد والبيع والصلوات. ولهم المقابر والخطب والأذان والمواقيت والافاضات والاحرام والتلبيات والمناسك^(٢).

ويمثل القاضي الذي لا ينحاز وحدة الشعوب ووحدة الحضارة الإنسانية القائمة على العدل ويعتمد على صاحب العزيمة الذي يذكر الشعوب بنقائصها وهي مشغولة بمحامدها. وهو القادر على المعارضة والمواجهة. وهو أحد أفراد الجن لأن البشر لا يمدحون إلا أنفسهم. وقد ذكر البيغاء الفارسي بأنه نسي نقائصه وأفاض في ذكر مناقبه. فقد كان الفارسي أكثر الأقوام شعوبية. وهو في نفس الوقت المدافع عن التوحيد وليس العربي أو القرشي أو الحجازي أو العراقي. فعندما يقدم الانس حجة الكيف ضد الجن، وحدانية الصورة في الانس وكثرة الحيوان في الصور والأشكال مما يبرر رئاسة الانس

(١) السابق جـ ٢ / ٨ / ٣٦٢ - ٣٦٦.

(٢) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٨٣.

على الحيوان، فالرياسة والربوبية بالوحدة والعبودية بالكثرة يرد الحيوان مثلاً في الهزارستان بأن تكثر الصور واختلافها صحيح إلا أن النفوس واحدة في حين أن الانس صورتهم واحدة ولكن نفوسهم كثيرة نظراً لكثرة آرائهم واختلاف مذاهبهم وفنون دياناتهم. كل منها يكفر الآخر ويلعنه ويقتله ويحل دمه. يتشتت الإنسان في الديانات، هذا يهودى، وذاك نصرانى، وثالث صابئى، ومجوسى ومشرك وعابد أصنام وميزان وشمس وقمر ونجوم وكواكب. كما يختلف أنصار الدين الواحد إلى مذاهب، فى اليهودية بين سامرى وغيابى وجالوقى. وفى المسيحية بين نسطورى ويعقوبى وملكانى، وفى الديانات الفارسية بين مانوى وخرمانى ومزدكى وديصانى وبهرمى، وفى الإسلام بين خارجى ورافضى وقدرى وجهمى ومعتزلى وسنى وجبرى.

والفارسى هو الذى يدافع عن الإنسان، إله واحد ورب واحد لا شريك له، إله خالق ورزاق، يحيى ويميت. والاختلاف فى المذاهب لأنها طرق ومسالك ومحاريب ووسائل، ولكن الغاية والمقصد واحد ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾. أما القتل فليس من الدين لأن لا إكراه فيه. إنما السبب الملك أو السياسة. فالدين والملك توأمان لا يفترقان ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر. الدين هو الأخ المقدم، والملك هو الأخ المؤخر. لابد للملك من دين يدين به الناس، ولابد للدين من ملك يأمر الناس بإقامة سنته طوعاً أو كرهاً. كل ملك يريد انقياد الناس أجمع لسنة دينه وأحكام شريعته. قتل الأنفس سنة فى جميع الديانات والملل والدول. إلا أن قتل النفس فى سنة الدين هو قتل طالب الدين نفسه، المنتبى أو الشهادة. وفى سنة الملك أن يقتل طالب الملك غيره. قتل الملوك غيرها طلباً للملك ظاهر، وقتل طالب الدين نفسه فى سائر الديانات وفى الإسلام. وهى كلها أحكام فى حاجة إلى مراجعة مثل إقامة الملك سنة الدين طوعاً أو كرهاً مع أنه ﴿لا إكراه فى الدين﴾، وقتل النفس فى الدين شهادة أو قصاصاً ليس مثل تقتيل الهنذى والمائوى والثوى نفسه زهداً. فالقتل له معنى حقيقى وليس معناه مجازياً^(١).

والخطيب الحجازى المكى المدنى يقدم حجة الإيمان بالمعاد وكأنه وحده هو وريث الدين لاثبات أفضلية الإنسان على الحيوان. وهو خطيب وليس حكيماً، بضاعته اللغة

(١) جـ ٢٦٠ / ٢٨٢ - ٢٨٤ / ٢٨٦ / ٢٨٨ / ٢٩٠ / ٣٠٠ / ٣٠٥ / ٣٧٠ / ٣٧٤ جـ ٢ / ٨ / ٣٦٦ - ٣٦٩

وليس البرهان. لقد وعدهم الله بالبعث والنشور والخروج من القبور وحساب يوم الدين والجواز على الصراط ودخول الجنان، جنات عدن، والفردوس والنعيم والخلد والمآوى ودور السلام والمقام والمتقين، وشجرة طوبى، وعين السلسيل، وأنهار الخمر للشاربين، والعسل المصفى، واللبن، والماء العين، ودرجات القصور، وترويح الحور العين، ومجاورة الرحمن ذى الجلال والاکرام، والتتسم بالروح والريحان. وتدعيم هذه الصور كلها بحوالى سبعمائة آية قرآنية مباشرة. ويرد الهزاردستان بأن الانس أيضاً قد وعدوا بعذاب القبر، وسؤال نكر ونكير، وأحوال القيامة، وشدة الحساب، والوعيد ودخول الناس عذاب جهنم، والجحيم والسعير واللظى وسقر والحطمة والهواية وسرايل من قطران وشرب الصديد وأكل شجرة الزقوم ومجاورة مائك الغضبان وحوار الشياطين مع جنود إبليس. وبالتالي تكافأت الأدلة بين الثواب والعقاب والوعد والوعيد. فلا مقياس للتفضيل بعد تساوى الأقدار بين الإنسان والحيوان. ويرفض الحجازى تساوى الأقدار لأن الإنسان له الخلود دون الحيوان، بطاعة الأنبياء والأولياء والأئمة والأوصياء والحكماء والأخيار والفضلاء والأبدال والزهاد والصالحين والعباد العارفين المستبصرين وأولى الأبواب وأولى الأبصار وأولى النهى المصطفين الأخيار، وللإنسان الشفاعة. ولا يوجد رأى للعراقى والسريانى. وهل الجنة الحسية أو الدين الغيبى سبباً للتفضيل؟ وواضح أن الخطيب أشعرى يقول بالشفاعة (١).

ويقدم زعيم الهند حجة الكم من الانس ضد الحيوان نظراً لكثرة عدد الهنود. فبنو آدم أكثر الحيوانات عدداً وأمماً وأجناساً وأفراداً وأشخاصاً، وأعرف بفنون تصاريق أحوال الزمان ومآربه وعجائبه. فالربع المسكون من الأرض يضم حوالى ١٧,٠٠٠ مدينة مختلفة الأمم كثيرة العدد، مختلفة الألوان والألسنة والأخلاق والطباع والآراء والمذاهب والصناعات، والسير والديانات، لا يصلحها إلا الله الذى يعلم سرهم ونجواهم، مستقرهم ومستودعهم. وذلك يدل على أنه أفضل من غيرهم وأكرم من سواهم من الأجناس فى الأرض، وأنهم أرباب الحيوانات وهى لهم عبيد ممالك. ويرد عليه الضفدع أن السبب فى ذلك لا يعلمه إلا الله وليس تفضيل الإنسان على الحيوان وربوبيته له. كما أن أجناس الحيوانات من ماء

(١) السابق جـ ٢/ ٨ / ٣٧٤ - ٣٧٦.

وأجسام وأجام وأنهار لا تحصى ولا تعد، ولا يعلمها إلا الله، وكلها عبيد له وحده. وخفت من الحيوان الخلاق الروحانية والصور النورانية والأرواح الخفية والاشباح اللطيفة والنفوس البسيطة والصور المفارقة فى عالم الأفلاك من اصناف الملائكة الروحانيين. وفى رأى الحكيم لا تدل الكثرة على ربوبية أحد على أحد. ولا يغنى الكم عن الكيف. وماذا عن يوم حنين إذا أعجبت الكثرة ؟ وماذا عن نقد الكثرة فى القرآن ومدح الأقلية ؟ (١).

والحكم النهائى هو أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح. وهو قرار من حكماء الحيوانات وحكماء الجن أجمعين على الإنسان المتهم. فإن خصائص الشعوب والأديان والعلوم كلها تشترك فى إنسانية واحدة عامة هو الإنسان الكامل. والأرباب هى الأوصاف والأفعال وليست طائفة بعينها. والسؤال للناس عن الأوصاف الحقيقية من الإنسان. وفى هذه الأوصاف فليتنافس المتنافسون. وهذا الإنسان هو: العالم الخبير، والفاضل الذكى المستبصر. فالأولوية للعلم والخبرة على الفضل والذكاء والاستبصار أى العلم والأخلاق. وهو الفارسى النسبة، العربى الدين، الحنفى المذهب، العراقى الأدبى، العبرانى المخبر، المسيحى المنهج، الشامى النسك، اليونانى العلوم، الهندى البصيرة، الصوفى السيرة، الملكى الأخلاق، الربانى رأى، الإلهى المعارف الصمدانى. فالشعوب السبعة لكل منها صفة، النسب للفارسى، والدين للعربى، والآداب للعراقى، والمخبر للعبرانى، والمنهج للمسيحى، والعلم لليونانى، والبصيرة للهندي. وتظهر مناطق جغرافية مثل نسك الشام، والمذاهب الفقهية مثل المذهب الحنفى السائد فى بلاد الترك. كما تظهر باقى العلوم الإسلامية مثل التصوف للسيرة، والملكية للأخلاق. هؤلاء الذين يجمعون بين هذه الصفات هم أولياء الله وصفوته من خلقه، أوصاف حميدة، وأعمال زكية، وعلوم مقننة، وصفات جميلة، ومعارف ربانية، وأخلاق ملكية، وسير عادلة قدسية، وأحوال عجيبة. الحيوانات خاضعة لأوامرهم ونواهيهم، مأمورون لهم حتى يستأنف الدور. فالتاريخ له دورات. وهذه دورة الإنسان. وقبلت الحيوانات الحكم، آمين ! (٢).

(١) السابق جـ ٢ / ٨ / ٣٧٠ - ٣٧٤.

(٢) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٧٦ - ٢٧٧.

والسؤال هو: هل الإنسان الكامل أو هذه الإنسانية الشاملة لها وجود فعلى أم أنها مجرد تمن؟ أليست هي مجرد تمنى للكل، من كل بستان زهرة؟ وهل الحكم عادل أم ظالم، عبودية الحيوان لبنى الإنسان؟ وهل دافع القاضى أى الجن عن الحيوان أم نصر الإنسان؟ هل تغير واقع العلاقة بين سيادة الإنسان وعبودية الحيوان أم أن الأمر بقى كما هو عليه؟ ولماذا لم يصدر القاضى حكماً بتحرير الحيوان من عبودية الإنسان؟ هل هذا تأويل جديد لمفهوم التشخير؟ هل ينتظر الحيوان دوراً تاريخياً آخر يتخلص فيها من ربوبية الإنسان وعبودية الحيوان، ويبدأ دور ربوبية الحيوان وعبودية الإنسان طبقاً لجدل السيد والعبد؟ هل هو رضا بالأمر الواقع وانتظار الخلاص فى المستقبل كما هو الحال فى عقائد الشيعة؟

٣- مركزية الثقافة العربية. وهو اختيار أبى حيان. والصعوبة فيه هو مدى نسبة الأفكار إليه أم إلى أبى يعقوب السجستانى، وأن أبا حيان ما هو إلا مجرد عارض لها. وقد يعنى العرض التأليف غير المباشر والحديث على لسان الآخرين، وتبنى نفس الأفكار وإعادة صياغتها بأسلوب أدبى يتجاوز التحليل الفلسفى المجرد .

ويتضمن فكر أبى حيان فى فلسفة التاريخ نوعين. الأول التصور التاريخ الدائرى للتاريخ عرضاً لأبى حيان فى إطار الفلسفة الاشراقية، الدور بعد الدور، والكور بعد الكور. فى هذا العالم اشتياق إلى الكمال والجمال، فى الغاية والنهاية. وتغير العالم كل ساعة ووقت إلى حال آخر بما يفيض عليه من الحق الأول والوسائط الأولى بالجود لأن العالم متوجه نحو الكمال والجمال، نحو الوحدة.

ويظهر تطبيق ذلك فى تحول الملك من فارس إلى العرب ثم ذهابه من العرب مرة أخرى دون أن يقال صراحة عودته إلى الفرس. ويظهر ذلك فى الليلة الثالثة والثلاثين من الممالحة وكيف دارت الدائرة على العرب، من لا شئ إلى كل شئ إلى لا شئ وكما عبر عن ذلك ابن خلدون بعد أربعة قرون فى وصف دورات حياة الأفراد والقبائل. تجول الملك من العجم إلى العرب، وتم القضاء على نمرود الفرس. وقد تنبأ حكماؤهم بانهيار دولتهم وعرف العرب ذلك. فقد رأى رستم فى المنام أن النبى أخذ سلاح الفارس وختم

عليه ودفعه إلى عمر فارتاع رستم وأيقن أنه هالك. كما تكشف الخطابات السياسية المتبادلة عن قانون التاريخ في عصر الفتوح. فقد كتب سعد ابن أبي وقاص إلى رستم "إسلامكم أحب إلينا من غنائمكم، وقتالكم أحب إلينا من صلحكم ... قد علمتم أن الله يريد أن يحول الملك عنكم إلى غيركم. وقد أخبركم بذلك حكامؤكم وعلماءؤكم. ونقرر ذلك عندكم. وأنتم إنما تدفعون القضاء بنحوركم وتتلقون عقابه بصنورك ... والآن لما صار الله معنا صارت ريحنا عليكم ". وهو تصور شعبي لعصر الفتوحات الإسلامية التي لم تقم على أسس شعبية بل على تحرير الشعوب جميعاً تحت راية " لا إله إلا الله " (١).

والثاني خصائص الشعوب وإبداعاتها الحضارية التي تعتمد على العقل الذي يعنى اشتقاقاً للعقل. وهو كذلك بالرومية والهندية (٢). فالعقل الخالص والبحث النظري المجرد هو مقياس التصنيف بين الشعوب (٣).

ويصعب التمييز هنا بين آراء أبي حيان وآراء من يعرضهم مثل الجاحظ ومسكويه وابن المقفع والسجستاني. هل يعرض أم يستعمل الآخر كتعبير عن الذات ؟ وهل يستدعي الموضوع هذه الآليات من التخفي أم أنه كان متطرقاً إليه فقد كانت الشعبية والتفاضل بين الشعوب في الفكر والممارسة ؟ كما تتمثل صعوبة أبي حيان في عدم وجود موضوع نسق في ذلك فلسفة التاريخ إذ ينتقل من موضوع إلى آخر كمقاييس للامتاع والمؤانسة عبر الليالي أو كهوامل تحتاج إلى شوامل مثل النثر والنظم، النحو والمنطق، العلم والعمل، وهي موضوعات موجهة وإشكالات نظرية يتم حولها نسج الأفكار كما يفعل كل فيلسوف (٤). ويذكر أبو حيان أن أبا زيد له كتاب في "أخلاق الأمم" أفاد منه وهو على طريقة الحكماء، يتوخون من الأمور لبابها فله سبق التقدم. فهل هو

(١) أبو حيان: المقامبات ص ٢٩٤ - ٢٩٥. الامتاع والمؤانسة ج٣ / ٦٧ / ١٠٢ / ١٠٤. ولأبي سليمان رسالة عن الأدوار والاكوار .

(٢) أبو حيان: المقامبات ص ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٣) وذلك مثل ماكس فيبر وهوسرل في الغرب الحديث .

(٤) الامتاع والمؤانسة: النيلة السادسة ج١ / ٧٠ - ٩٦. الهوامل والشوامل: مسألة خاصة رقم ٨٦ / ٢٠٨ - ٢١٠ والمسألة ٨٧ ص ٢١٠ - ٢١٢ .

مسكويه فى "تجارب الأمم" بالرغم من العداء الذى يكنه له أبو حيان كما وضح فى "الهوامل والشوامل" ؟

ولست اللغة هى العامل الحاسم فى شخصية الشعوب إذ يمكن للعربى النطق بالرومية أو الهندية دون أن ينال ذلك من معنى العقل بمعنى العقل. وبالتالى يمكن الوصول إلى لغة واحدة على جهة واحدة وإيجاد المعنى المضاد أى الإطلاق والسرّح وليس العقل^(١). إنما المقياس هو البحث عن الفضائل السارية فى الأجناس. وتقوم خصائص الشعوب على فلسفة القصد والغاية. فالغاية لا تبلغ إلا بالقصد. ومن نشأ على الراحة الجسمية فاتته الراحة العقلية. العاجلة تنصرم والأجلة تدوم .

والغرض من رصد سمات الشعوب وخصائصها هو التفاضل بينها فى بيئة سياسية تقوم على المنافسة والتفاخر بين الشعوب. وتتفاضل الشعوب فى موضوعين. الأول خصائصها من حيث نشأتها أى أخلاق الشعوب بالاقتيار الجيد والردئ والرأى الصائب والقتال والنظر فى الأول والآخر. فلكل أمة فضائل وذرائل، محاسن ومساوئ. ولكل طائفة من الناس فى صناعاتها وحلها وعندها كمال وتقصير. الكل تعمه الخيرات والفضائل والثروة والنقائص. والثانى قيام الدول وانهيارها فى التاريخ. لذلك ارتبط موضوع خصائص الشعوب بفلسفة التاريخ^(٢). وبهذا المقياس لا فضل "موضوعياً" لأمة على أخرى إذ أن لكل أمة خصائصها ودورها فى التاريخ. كل الخصائص متساوية موضوعياً مما يؤدى أيضاً إلى تساوى موضوعى بين الشعوب بالرغم من التفضيل. ولا يدخل البعد الدينى مثل الاختيار الإلهى المسبق فى تحديد خصائص الشعوب^(٣). إذ تنشأ الشعوب نشأة طبيعية، وتقيم دولها فى التاريخ طبقاً لقوانين التاريخ. لذلك يستعمل فعل "خص" مبنياً للمجهول لعدم الإشارة إلى فاعل من خارج الطبيعة^(٤). فالصراع بينها هو صراع باضطراب الفطرة.

(١) أبو حيان: المقاييس ص ٣٧١ . الامتاع ج١/ ٧٣ .

(٢) كما هو عند فوييه A.Fouillée فى الفكر الفرنسى فى القرن للتاسع عشر .

(٣) كما هو الحال فى المسيحية المعاصرة فى الغرب .

(٤) أبو حيان: الامتاع والمؤانسة ج١/ ٧٣ . وكما هو الحال عند دارون ونيشه فى الغرب المعاصر .

وقد كان تفاضل الشعوب موضوعاً شائعاً يتفق مع تفاضل الأئمة والطبقات والصحابة والعلماء دون الوصول إلى اتفاق فيه. هو شئ في طبائع الشعوب. فالفارسي بطبيعته ونشأته لا يعترف بفضل العربي. والعربي بجبلته ودينه يقر بفضل الفارسي وكذلك الهندي والرومي والتركي والدلمي.

وقد توجد خصال مشتركة بين الشعوب، فيكون الخلاف بينهما في الدرجة وليس في النوع. وبالتالي يتعاون أهل الفضل والكمال ويتلاقى أهل الخسة والرذيلة من كل شعب. تتجاوز الإنسانية إذن قسمة الشعوب إلى الأخيار والإشرار من كل الشعوب وهي قسمة أخلاقية تتفق مع التفاضل الاسلامي "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح". هناك إذن امكانية لإقامة أخلاق شاملة لكل الشعوب في مقابل الأخلاق الخاصة بكل الشعوب^(١).

ليست خصائص الشعوب سمات جوهرية ثابتة بل تتغير وتتبدل. هناك الفطرة والاكْتِسَاب، هناك النشأة الطبيعية وهناك التكوين والتربية الاجتماعية. وتختلف الشعوب فيما بينها في سرعة التغير من الفضيلة إلى الرذيلة أو من الرذيلة إلى الفضيلة طبقاً للمزاج. فإن تحول العربي من البخل إلى الكرم أسهل من تحول الرومي. كما أن تحول التركي من الجبن إلى الشجاعة أسهل من تحول الكردي^(٢). وهي أحكام مطلقة تنقضيها شجاعة صلاح الدين الكردي وقتال الترك العراقيين. ويدرك أبو حيان خطورة اطلاق الأحكام وتعميمها على كل الأفراد داخل الشعب الواحد .

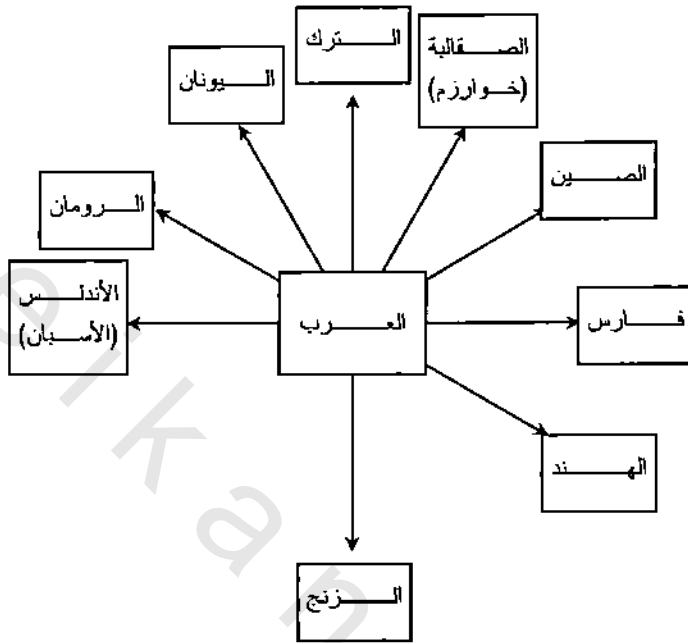
ويظهر موضوع خصائص الشعوب عند أبي حيان خاصة العرب والعجم كأحد موضوعات فلسفة التاريخ، وهو موضوع الشعبوية الأثير الذي كان مسيطرأ على حياة العرب والمسلمين منذ القرن الثاني الهجري واتجاه الأمويين نحو العرب، والعباسيين نحو الفرس. وقد تعرض له أيضا النظام.

ويصور أبو حيان الشعوب، العرب في المركز وباقي الشعوب في الأطراف، وهو

(١) السابق جـ ١/ ٧٤ - ٧٥ . وهو ما يسمى في الغرب Global Ethics.

(٢) السابق جـ ٣/ ١٢٩ .

ما يعادل الآن العرب بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، العرب بين روسيا وأمريكا وأوروبا وأفريقيا.



ويركز على أربع أمم، اثنان في الشرق، فارس والهند، واثنان في الغرب، اليونان والروم كما هو الحال عند إخوان الصفا. وهو ليس إحصاء كاملاً إذ لم يذكر السودان والحرمان. وأحياناً يكون شرقاً وغرباً مثل قسمة اليونان الشعوب إلى يونان الشعوب إلى يونان وبرابرة^(١).

وأساس هذه القسمة الرباعية تصور شعب كامل جمع بين خصال أربع ويمثل

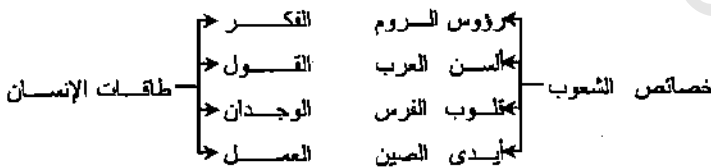
(١) وأيضاً قسمة الأوربيين باقي الشعوب إلى أوربية وغير أوربية، بيضاء وملونة، متقدمة ومتخلفة، عقلية وسحرية، علمية وخرافية، مبدعة ومستهلكة، وقسمة اليابانيين الشعوب إلى يابانية وغير يابانية، والصينيين إلى صينية وغير صينية، والأمريكيين إلى أمريكيين وغير أمريكيين، واليهود إلى يهود وغير يهود، والنازيين إلى ألمان وغير ألمان. ويذكر أبو حيان أن رجلاً من العرب قال لرجل من العجم: رأيت في النوم كائن دخلت الجنة فلم أر فيها ثوبية. فقال له الثوبى: أصعدت إلى الغرف؟ فقال العربى لا. قال الثوبى: فمن ثم لم ترهم. هم في الغرف! أبو حيان: الامتاع والمؤانسة جـ ٣/ ١٧٦.

الإنسانية جمعاء. إذ ينزل الحكم على أربعة طرق: رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، وأيدي الصين. فرؤوس الروم الذين يضمنون اليونان الفكر. وألسن العرب الخطابة. وقلوب الفرس الوجدان، وأيدي الصين ويقصد الهنود العمل. وهو ما يعادل قسمة مصادر الطاقة إلى الفكر والقول والوجدان والعمل^(١).

أ- الثقافة العربية. وتقوم أخلاق العرب على ثنائيات كلاهما صحيح حسب الظرف والموقف. فالجانبان في الإنسان. وهو ما استمر حتى العصر الحاضر بلغته في الجمع بين القديم والجديد، الأصالة والمعاصرة، التراث والحداثة. لذلك أعجبوا بثنائيات اليونان وجمعوا بينها مثل الصورة والمادة، ما بعد الطبيعة والطبيعة، الكيف والكم، النفس والبدن، الحركة والسكون، الجوهر والعرض، الزمان والمكان^(٢). ويضرب أبو حيان المثل بالحلم والتأثر، الشجاعة والاحتياط، الكرم والبخل، الصبر والغضب. وهو ما سمح بتحديد الفضيلة بأنها وسط بين طرفين .

وفصل أبو حيان نقلاً عن أبي سليمان خصائص العرب بالحرف (بكسر الحاء) أي الصنعة أو بالحرف (فتح الحاء) وتعني التكسب بالأدب لضيق الرزق في الصحراء، يتاجرون بكل شئ لأن أرضهم جدياء، وخصبها عارض. لا يعرفون الشبع. لذلك كان العرب أصحاب فقر وضر مما دفعهم إلى الترابط الاجتماعي، والالتكفاء على القبيلة. وهم أهل شجاعة لا يعرفون الرعب. وهذا هو الفرق بين البدو والحضر. زانتهم شبه الجزيرة شراً، ولكنهم عوضوا عن ذلك بالفتنة والبيان والسلوك المفيد والاقتدار الظاهر لخلو أجسادهم من الفضول. وبالرغم من أنهم مخفقون في الفهم إلا أنهم وصلوا بحدة الذهن والقرينة إلى كل معنى معقول، وصفاء المنطق، مغروراً في النفوس دون صنعة. لذلك

(١) من العقيدة إلى الثورة جـ الإيمان والعمل - الإمامة ص ٥-١٣.



(٢) وكما أحاول الجمع في علاقة الفكر الإسلامي بالغربي الحديث بين المثال والواقع، العقل والحس، التصور والتجربة، الاستنباط والاستقراء، الأنا والآخر، الليبرالية والاشتراكية، الشرق والغرب... إلخ.

انتشرت فيهم النبوة والوحى لسرعة الذهن وجودة القريحة واعتمادهم على الحس والادراك المباشر^(١).

ما زالت النظرية الجغرافية هي السائدة مع تنوع عليها بالتحليل الاجتماعى الجغرافيا هي التى تفرض وسائل الكسب والمعاش كما يقول ابن خلدون. الحرف والترابط الاجتماعى تعبير عن الجذب، واللانهاى فى العقيدة تعبير عن اللانهاى فى الصحراء، والوحى والنبوة تعبير عن سرعة الذهن، والبديهة والحس. وكثير من الأحكام فى حاجة إلى مراجعة مثل بخل العرب الناتج عن فقر الأرض الذى قد يودى أيضا إلى الكرم وإيثار الغير على النفس كما هو معروف عند العرب. وقد يكون التقابل بين البخل والكرم معكوساً، ليس بين البادية والحضر بل بين الحضر والبادية. كما أن سمات النجدة والكرم والوفاء واللبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان قد لا توجد بالضرورة عند فرد، بل هى الخصال الشائعة عند أكثرهم، قد يخلو البعض منها كلية، وقد يتسم البعض الآخر بأضدادها. وهى سمات قد لا تستمر عبر التاريخ، وتتغير بتغير العصور والأزمان. إذ يضرب المثل اليوم فى عصر النفط بغنى الغرب وحياة البذخ والاسراف وليس الفقر والجذب.

ويروى أبو حيان عن ابن المقفع خصائص خمس أخرى إيجابية فى العرب. أولاً ليس للعرب أول تّومعه، ولا كتاباً يدلها. هم أهل بلد وفقر ووحشة من الإنسان. احتاج كل واحد منهم إلى فكره ونظره وعقله. معاشهم من نبات الأرض. وصفوا كل شئ بصفته، ونسبوه إلى جنسه، وعرفوا منفعت، رطبه ويابسه، وقته وزمنه، وما يصلح منه للإنسان والحيوان^(٢). عرفوا للفصول الأربعة، ووضعوا الأنوار لارتباطها بالسماء، وعرفوا منازل القمر، وانتشروا فى الأرض، واهتدوا بنجوم السماء. فالعرب أمة على الفطرة^(٣). وهو ما يحض عليه القرآن بالتوجه بالفطرة نحو الطبيعة. فالوحى تعبير عن الفطرة العربية. وأنها الكتاب بعد ذلك، والرسول والقائد تأكيداً للفطرة. وهذا هو شرط الإبداع، لمية الطبيعة. الفقر

(١) أبو حيان: الامتاع والموانسة جـ ٣/ ١٠٢ - ١٠٣، المقابسات ص ٢٦١.

(٢) قال عمر: العرب لا تصلح ببلاد لا تصلح بها، الامتاع والموانسة جـ ٢/ ٦٦.

(٣) أبو حيان: الامتاع والموانسة جأ ١/ ٧٢ - ٧٣.

والصحراء يساعدان على الطبيعة وليساً ضدها والتوجه نحو الطبيعة يساعد على اكتشاف عللها، ووضع الأسماء للأشياء^(١). الفطرة من الله. لذلك اعطاها دين الفطرة^(٢). فأخلاق العرب هي أخلاق الطبيعة والفطرة، أخلاق البدو كما يصفهم ابن خلدون .

ثانياً، وقد دفعهم ذلك إلى وضع قواعد ينتهون بها إلى الفكر، وترغبهم في الجميل، وينجنيون بها الدناءة، وتحضهم على المكارم حتى منحوا المكارم كلها، وذنموا المساوئ كلها. ووضعوا ذلك في جوامع الكلم، في اصطناع المعروف والنهي عن المنكر وكأن الشريعة كانت تلبية للفطرة. ووضعوا القواعد الاجتماعية للتعويض والديات قبل أن يصبحوا لجزء من الشريعة. فالعزلة أساس الحياة الاجتماعية^(٣).

ثالثاً، الحرص على الجماعة وحفظ الجار وبذل المال وإبتغاء المحامد، ما يقوى العلاقات الاجتماعية. لذلك أتى الدين للكامن في الثقافة الجامع بين التوحيد والأسباب ليكمل وحدة العرب في الصحراء بما لديهم من صفاء الفكر والفطنة. ويتسم العرب بجودة البنية واعتدال الهيئة، وصحة الفطرة، وخلاء الزرع، وانتقاد الطبع^(٤). كما يتصفون بالشجاعة والنجدة، والضيافة والكرم، والبذل والسخاء، والحفظ والوفاء، والخطابة والحمية والأنفة، وحب الثناء والبعد عن الهجاء والذم بالرغم من أن الهجاء من فنون الشعر^(٥).

رابعاً، وصل العرب إلى ذلك بفطنتهم وفكرهم. لا يتعلمون ولا يتأدبون بل بالفطرة والبدئية. فهم أعقل الأمم لصحة الفطرة واعتدال البنية وصواب الفكر، واذكاء الفهم. فالعقل الطبيعي هو وسيلة المعرفة. لذلك أتى الوحي والعقل والطبيعة نسقاً واحداً. الجمال والأخلاق والعلم أساس الدين الجديد. وهي سمات العرب العاربة التي إذا طلبت شيئاً فإنها تتأله إما عن طريق وضع الأسماء للأشياء لتحديدتها أو وصف الأشياء بالافتتاع

(١) مثل ما قاله أوستين في كتابه الشهير How to do things with words.

(٢) العرب تقول بالالهام لصفاء القريحة والذهن الوقاد والمعانية الحرة والأعراف الكريمة والمعادات السليمة. الامتاع والموانسة جـ ١ / ٩٤ .

(٣) وذلك مثل حالة الفطرة والطبيعة التي يصفها جان جاك روسو .

(٤) السابق جـ ١ / ٧٢ - ٧٣ .

(٥) المقابسات ص ١٢٣ .

دون جدل واتهام أو بالبرهان القائم على الحجة أو بالتقليد الجارى على السنة والعادة^(١).

خامساً، ويحدث من ذلك جوامع الكلم والأمثال العربية. فقد وضع العرب حكمهم فى الشعر العربى، على الطبيعة دون صنعة وتكلف. تتكلم العربية أولاً ثم بعد ذلك تضع النحو. تقرر الشعر أولاً ثم بعد ذلك تضع العروض. ينشد الأعرابى الشعر على السليقة، من وحى الموقف. يفرق بين الأصيل والغريب، بين العربى والأعجمى الذى يضم كلام الزنج والروم. اللغة طبيعية مثل الدين الطبيعى، دين الفطرة دون بيع وصلوات. العرب لغة وإن ذهب التاريخ. واللغة العربية أولى اللغات نشأة وآخرها تطوراً. لذلك عرفت بالايجاز. وقيل: خير الكلام ما لم يحتج معه إلى كلام^(٢).

واللغة العربية تزخر بامكانيات أكبر بكثير من باقى اللغات. فهى قادرة على أن تنقل إليها باقى اللغات، سريانية أو يونانية، اختراعاً أو تعريباً. لها منطقها الخاص الذى يغنى عن منطق أرسطو^(٣). وهى لغة اشتقاقية ولو من حرف واحد. ويمكن أن تعبر اللغات الأخرى كلماتها. فالمعانى لا تكون فى اللغات بل فى العقل، مع أن اللغة العربية تستعير أيضاً من باقى اللغات كالفارسية والحشية واليونانية والرومية. وهى تشارك

(١) الامتاع والمؤانسة جـ ١/ ٧٢ - ٧٣ جـ ٣/ ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) السابق جـ ٢/ ١٣٩ - ١٤٠ . استهجن عربى كلاماً فقال: أراكم تتكلمون بكلامنا فى كلامنا بما ليس من كلامنا. وقال آخر:

ما زال أخذهم فى النحو يعجبني . حتى سمعت كلام الزنج والروم
وأنشد آخر: فإذا لقيت من المستعربين ومن . تأسيس نحوهم هزرا الذى ابتدعوا
إنى نشأت بأرض لا تشب بها . نار المجوس ولا تبنى بها البيع
كم بين قوم قد احتالوا لنطقهم . وآخرين على إعرابهم طبعوا

وأمثلة أخرى فى الامتاع جـ ١/ ٢٤ - ٢٥ / ٧١ - ٧٤ / ٧٩ - ٨٠ / ٨٢ - ٨٣ / ٨٧ - ٨٩ / ٩١ -
٩٦ جـ ٢/ ١٣٩ / ١٤٦ / ١٨٥ / ١٩١ - ١٩٣ / ١٩٧ - ١٩٨ جـ ٣/ ١١ - ١٤ / ٢٦ / ٢٨ / ٣٠ / ٣٢ -
٣٦ / ٤٨ / ٥٦ / ٦٠ / ٦٧ / ٨٢ / ٨٥ / ١٠٥ / ٣٤٧ .

(٣) الامتاع والمؤانسة جـ ١/ ٣٠ - ١٠٩ / ١١١ / ١١٤ / ١٢٢ / ١٧٤ / ٢١٢ / ٢٢١ جـ ٢/ ٦٧ / ٩٤ / ١١٣ / ١٣٩ / ١٤٦ .

العبرية فى الاشتقاق (١).

والنحو العربى فطرى وعقل الفرس فطنة. والكمال فى اجتماع الفطرة والفطنة. النحو منطق عربى، والمنطق نحو عقلى، فوائد النحو مقصورة على العرب بالقصد الأول، قاصرة على عادة غيرهم بالقصد الثانى. النحو يتبع ما فى طباع العرب. الأولى بموجب للسان العربى والثانية بقضية الاعتبار النظرى. والنحو واللغة العربية والمنطق مترجم بها ومفهوم عنها. ومن ثم فالعرب أهل منطق أكثر من باقى الشعوب. فالنحو العربى منطق العرب، ولغة النطق آله وسبب مستعارة بلغة العرب. فى حين تأتى الأخطار من اللغات الأخرى (٢).

وتقافة العرب فى لغتها، فى نثرها ونظمها. إذا كانت تفرق بين النفس والروح لغة فهى كذلك معنى. ومسائل القرآن باعتباره ثقافة العرب، لا تفهم إلا بلغة العرب. لذلك كان العلم باللغة العربية أحد شروط الاجتهاد (٣). والعجيب من قدرة أبى سليمان الأعجمى على فهم اللغة العربية، فالعروبة فى اللسان، والعربية قادرة على تقريب الأعاجم. العرب أفضل من الفرس. وأحيانا يشارك العجم العرب فى صفات واحدة هى الشجاعة فى الحروب، وأيام الهياج والاعتزاز، والانتساب إلى الآباء والأجداد، وأيام مشهورة، وأفعال مذكورة (٤).

ويستفيض أبو حيان فى شرح خصائص اللغة العربية، بلاغتها وسحرها وتجليها فى الأدب. فهى أعلى وأفضل من باقى لغات الشعوب. وتكشف عن خصائص العرب. فالشعوب وثقافتها وحضاراتها ودياناتها وعاداتها وأعرافها وتاريخها فى لغاتها. ويفصلها كأصوات وحروف، وألفاظ ومعانى، وتركيب، ونحو وصرف، وبيان وبديع، وبلاغة

(١) يقول أبو سليمان: أترى هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها ولا يجوز أن يعقل هذا بعقول الهند والترك والعرب، السابق جـ ١/ ١١٧.

(٢) عند أبى سليمان نحو العرب فطرة ونحونا فطنة. فلو كان للكمال سبيل لكانت فطرتهم مع فطرتنا أو كانت فطنتنا مع فطرتهم، الامتاع جـ ٢/ ١٣٩، المقابسات ص ١٣٧/١٦٩/١٧١/١٧٧، الامتاع جـ ١/ ١١٠/ ١٢٢.

(٣) الامتاع والمؤانسة جـ ١/ ١٧٤/ ٢١٢/ ٢٢١ جـ ٢/ ١١٣ جـ ١/ ٣٠.

(٤) السابق جـ ١/ ٧٠ - ٧٢. الهوامل ص ٢٥٥.

وعروض. فالحروف العربية ثمانية وعشرون حرفاً، تتركب ثنائياً وثلاثياً ورباعياً. وكلها متناهية محصاة لأن أصولها كذلك.

استطاعت اللغة العربية أن تنقل كلام الحكيم الشافي لقدرتها على التمييز بين المعاني، وإيجاد الألفاظ لكل معنى مثل الجود والسرف والتبذير. وما لا يتفق مع المعاني العربية لا ألفاظ له مثل البخت لأنه ليس من كلام العرب بل من كلام اليونان، تسميه المصادقة في مقابل الضرورة. كل لغة تكشف عن عالم من المعاني والذي يكشف بدوره عن خصائص للشعوب. فالعرب تختص بالعرفاء وزجر الطير أكثر مما تختص به الأمم الأخرى بالرغم من وجود صفات لغوية مشتركة بين سائر الشعوب^(١).

واللغة العربية لها أساليبها وطرقها، تنكيرها وتأنيتها، اللفظ والاستعارة والإيجاز والاتساع والتصريف والسحر باللسان^(٢). ومن جحد بلاغة العرب في الخطابة وجولاتها في كل مجال وتميزها باللسان فقد كابر. ويعرف العرب جوامع الكلم والأمثال والحكم والمواعظ والنوادر حتى لقد تحول ذلك إلى نوع أدبي. ويمتلي كتاب "الصدقة والصديق" بهذه الأمثال دون بنية ودون تعريفات نظرية أو تصورات فلسفية، أقرب إلى الأدب منه إلى الفلسفة، تجميعاً لأقوال متفرقة في جمل قصيرة كأمثال وحكم^(٣). في حين يجمع

(١) أبو حيان: الهوامل والشوامل ص ٧ / ٣٠ - ٣١ / ٥١ / ٧٢ / ٩٥ / ٣٣٩ / ٣٤١.

(٢) السابق ص ٢٠٤ / ٢٦٧-٢٦٨. الامتاع ج١ / ٢١١ - ٢١٢.

(٣) مثال ذلك: قلت لأعرابي كيف أنت ؟ قال كما يسرك إن كنت صديقاً وكما يسوذك إن كنت عدواً، الصدقة ج٢٧٩. وقال أعرابي: خير الجلماء من إذا أعجبتك عجب، وإذا فكته طرب، وإذا أمسكت تحدث، وإذا فكرت لم يكلمك، السابق ص ٣٨١. وقال أعرابي لصاحبه: لا تتكرني لك فأعرف نفسي بك، ودع سرح قلبي محمياً، وثمر الفؤاد مجنباً فيوشك أن تبعد الطوية على غير أهبة ولا ألبة، السابق ص ٣٩٨. وقال أعرابي ولفصاً آخر: لسانه سلم موادع، وقلبه حرب منازع، السابق ص ٤٦٦. وقال أعرابي: أخ منيعاً يكن عدوك صريعاً، السابق ص ٤٦٩. وقيل: من لم يدار عيشه ضل، السابق ص ٧٦. السؤال عن الصديق أحد القربيتين، السابق ص ١٥٤. المودة قرابة مستفاد، السابق ص ٣٤٦. ورفيق كسلان وجليس وسنان، ووكيل ضعيف، ومركوب قطوف، وزوجة منبذة، ودار ضيقة، السابق ص ٣٤٦ - ٣٤٧. وصول معوم خير من جلف مكنز. اللهم أعوذ بك من حاكم جائر، وتديم فاجر، وصديق غادر، وغريم مكر، وقريب نافر، وشريك خائن، وصريف مائن، وخدم هاف، وخامد محلقه، وجار ملاحظ. وأمثلة أخرى كثيرة في الصدقة ص ١٤١-١٤٣ / ١٦٦ / ١٧٩ - ١٨٠ / ٢٢١ =

"الامتناع والموانسة" بين الأدب والفلسفة. وتزيد الفلسفة في "المقاييسات" وفي "الهوامل والشوامل". ويعم التصوف "الإشارات الإلهية". وكذلك أوزان الشعر تتفق مع كلام العرب. والشعر العربي يعتمد على الذوق العربي^(١).

ومع ذلك للعرب مثالب ثلاثة. أولاً قد يقع العرب في تناقض بين الصفات، فيجمعون بين النقيضين، الحلم مرة والصبر والكظم مرة أخرى. فقد اقتضت الظروف المتناقضة الصفات المتناقضة، العداوة والصداقة، المحبة والكراهية^(٢). ثانياً، في نفس الوقت الذي يتجه فيه العربي نحو الجماعة فإنه يخلب المصلحة الخاصة على المصلحة العامة. إذ سئل أعرابي: أترى أن تصلب في مصلحة الأمة؟ فقال: لا ولكني أحب أن تصلب الأمة في مصلحتي؟ وهو تعميم لحكم من واقعة جزئية. ثالثاً، العربي حسي، نهم على الطعام والشراب والنكاح واللباس كما لاحظ الفارابي من قبل. إذ سئل أعرابي: هل تخمت قط؟ فقال: أما من طعامك وطعام أبيك فلا! وفي الأعرابي غلظة وخشنة من طبيعة الصحراء وهو ما لا يتفق مع الذوق الشعري^(٣).

ب- الثقافات غير العربية. وهي عدة ثقافات طبقاً لأهميتها، الفرس، والهند والصين، واليونان والروم، والترك والزنج طبقاً للشعبوية. فقد كانت المنافسة بين العرب والفرس أحد من المنافسة بين العرب من ناحية والهند والصين من ناحية أخرى. أما اليونان والرومان ثقافتهم قد تم اصلاحها حتى بدت متفقة مع الثقافة العربية. أما الترك والزنج فلا ثقافة لهم إلا الحرب للترك والرقص للزنج^(٤).

ف فارس أعقل الأمم. تتطلب مصادقتها والتقارب معها مع أنها علمت فتعلمت، ومثل لها فمثلت واقتدت وأطاعوا. ليس لهم استتباط أو استخراج علم. قدراتهم عملية وليست

- ٢٢٨ / ٢٢٦ / ٢٥٨ / ٢٦٢ / ٢٢٢ / ٢٢٥ / ٢٤٤ - ٢٤٧ / ٢٧٦ - ٢٧٠ / ٢٧٦ / ٤٠٠.

(١) الهوامل والشوامل ص ١٠٣ / ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٢) وهو ما يسمى أخلاق المواقف Situational Ethics.

(٣) الامتناع والموانسة ج ٣ / ٩٨ - ٩٩ / ١٠١. الصداقة والصديق ص ٣٨١. أمثلة كثيرة من الشعر في

الهوامل ص ٥٨ / ١٢٥ / ١٧٦ / ١٧٨ / ٢٠٤ - ٢٠٥ / ٢٢٣.

(٤) أبو حيان: الامتناع والموانسة ج ١ / ٧٠ - ٧٢ / ٧٤ - ٧٥ / ٢١١ - ٢١٢.

نظرية. تعلمت العجم. اقتنيت وقلدت دون استتباط. ويتميز الفرس بالسياسة والآداب والحدود والرسوم ولا تعنى الحدود والرسوم المنطق بل تعنى القوانين والدواوين والنظم الاجتماعية التى استعار منها عمر الكثير. ومن دفع ميزة الفرس فى سياستها وتدابيراتها وترتيب الخاصة والعامة بحق مالها وما عليها فقد عاند. وهم أيضا شعب الحكم والامثال بالرغم من نقد أبى سليمان أسلوب المثل. وإداعات العجم فى الرياضيات والعلوم مشهود لها. وقد تم تعريب بعض المصادر الفارسية وتحولت إلى ثقافة عربية مثل قول أرنشير: إحدروا صولة الكريم إذا جاع، واللثيم إذا شبع^(١). وإذا كان العرب قد غزوا الفرس دينياً فإن الفرس قد غزوا العرب ثقافياً فى رأى عيسى بن فرخان. لذلك تعاطف ابن المقفع مع ثقافة فارس^(٢).

وينقد العرب الفرس لإيمانهم السابق بالمجوسية. ويحاور العامرى مانى فى موضوع النظر الحال فى النفس بعد الموت على الظن والوهم مع أن مانى عاش قبل العامرى بقرون. فالحوار يتم خارج الزمان بين حكيمين إشراقيين. ومانى لا يؤمن بخلود النفس على عكس العامرى.

واللغة الفارسية ينقصها الحياء. فلفظ دابة بالفارسية درياست وهو حيوان إذا طلبه القانص استلقى على ظهره وأراه أنه لا خصية له كأنه قد علم ما يطلب منه. وهو إسقاط جنسى من الإنسان على الحيوان^(٣).

وقد عدد الجميهانى مثالب العرب فى أربعة أخرى وهو فى معرض مدحه للفرس، وقد كان منتسباً للثقافة الفارسية القديمة ومذهب الاثنينية. ويرد على أبو حيان ويعيب على العرب أربعة أشياء قبل مدح الفرس، فخير وسيلة للدفاع الهجوم. أولاً أكل اليرابيع

(١) السابق جـ ٢/ ٤٠ والنماذج كثيرة من أقوال برزجمهر عن الصداقة، الصداقة والصديق من ٤١/ ٥٦-٥٧/ ٦٤. الهوامل ص ٢٠٦. ونماذج أخرى عن الرؤية والأدب والسلمة والأمن والترتيب والرسوم والعبودية والربوبية، الامتاع والموانسة جـ ١/ ٢١١-٢١٢.

(٢) الصداقة والصديق ص ٤١٢.

(٣) الامتاع والموانسة ص ١٨٠.

والضباب والجرذان والحيات. ويتعاورون ويتهاجون ويتعاشون كأنهم تحولوا إلى وحوش وخنازير. وقد كان كسرى يسمى ملك العرب سكان شاه أى ملك الكلاب.

ثانياً لم يمتح الله العرب أياً من النعم بل أشقاهم وعذبهم فى حين أنه شرف الفرس، وأعز ملوكهم، وأفاض عليهم من النعم، ووسع عليهم القسم، وبوأهم الجنان. والحقيقة أن الله إذا كان قتر عليهم فى العقل فقد وسع عليهم فى النبوة. ونعم الله على العباد نوعان: عام غامر بلا استحقاق، وهو العدل المغفور بالاحسان، وخاص يستحق بالعمل والاجتهاد والسعى والارتياح، ويكون له الجزاء. ويرى أبو سليمان أن العرب أذهب مع صفو العقل. فالأمم كلها شرع واحد فى عدم الكمال إلا أنها متفاضلة بعد هذه فيما نالوه بالخلة الأولى وبالاختيار الثانى.

ثالثاً ليس لدى العرب علم، لا كتاب اقلينس ولا المجسطى ولا بطليموس، ولا كتاب فلاحة ولا طب ولا علاج ولا ما يدخل فى مصالح الأبدان وخواص الانفس. والحقيقة أن العرب لديهم هذا العلم بنوع إلهى، وباقى الشعوب الأخرى بنوع بشرى. والالهى يتفق مع الطبيعى، والبشرى يعنى الصناعى. وليس لدى الفرس ذلك وهم عجم ولا عند اليونان وهم عجم أيضاً، توجيهاً للنقد إلى الخصم. والخلاف بينها فى القدر والاولوية بين الإلهى والبشرى. فالعرب لم يرفضوا علوم العجم بل عرفوها ترجمة وشرحاً وتلخيصاً واحتراماً وتقديراً. تمثلوها وشرحوها واكملوها حتى يتفق مع علوم الشرع. طوروها وأبدعوا فيها وزادوا عليها. واستكمالاً للقضاء ثم أعطوه للغرب فبنى عليه علومه الحديثة^(١).

ولم يفرض زرادشت تعاليمه بالنبوة بل بقوة الملك كراهية لا طوعاً، وترهيباً لا ترغيباً. وكيف يرسل الله نبياً يدعو إلى إلهين؟ ولم يعرف ذلك أهل الكتاب ولا الصابئة وهم أعرف الناس بالديانات وتاريخها. وكيف يحلل الله الخبائث من المنكوحات؟ ولم يذكر زرادشت الأنبياء السابقين عليه. ولو كان دينه حقاً لأبده العقل. وقد قبل الفرس

(١) الامتاع والمراعاة جـ ١/ ٧٩ / ٨٦-٨٩ / ٩١-٩٢ .

مزدك ثم رفضوه فلماذا لا يرفضون زرادشت بالعقل أيضاً؟ حكموا العقل في مزدك وأيدوا ملك زرادشت. فكل شئ خارج الحكمة الإلهية والعقلية والطبيعية مردود وساقط .

ويمكن الرد على أبى حيان ليس دفاعاً عن فارس ولكن لبيان ضعف حججه. فالهجوم لديه على ديانات الشرق كلها أكثر من الهجوم على ديانات فارس. وهناك ديانات أسيوية لم يذكرها العرب، وعربية لم يذكرها الأسويون. ولقد أخبر القرآن أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير. وقد يكون أنبياء فارس والهند والصين أنبياء من عند الله لم يذكرهم القصص القرآني لأنهم لم يكونوا معروفين في شبه الجزيرة العربية. خص القرآن فقط أنبياء بنى إسرائيل والديانات السامية خاصة دين إبراهيم. والعقل سلاح ذو حدين. فما يخالف العقل عند قوم قد يتفق مع آخرين. ويرى كل شعب أن ميزاته من الله. فهو دعاء مشترك بين الجميع. والشرائع متغيرة فيما يتعلق بالحلال والحرام. قاتلتهن والتحرير ليسا مقياساً للنسبة فلا ضير أن يغير زرادشت شريعة مزدك ولا ضير أن يغير ماني شريعة زرادشت. ومقياس النبوة هو التوحيد لا الشرك ومعظم ديانات الشرق تشارك في التوحيد والعدل. وفي النهاية، كل ذلك جدل مع الخصوم، وتحويل الهجوم على الفرس إلى هجوم على العرب أو الهجوم على العرب إلى دفاع عن الفرس.

رابعاً العرب أكثر الناس هياجاً على النساء والغلمان. يختصون بالشبق الشديد كما يبدو في شبيبهم وأشعارهم. وكان وأد البنات سنة متبعة. وهو أقبح مما كان عند زرادشت ومن قبله من الفرس. وهو ما قاله الفارابي من قبل على العرب من ولعهم بالمأكول والمشروب والملبوس والمنكوح. والحقيقة أن العرب أيضاً عرفوا الغزل والحب العذرى. وقد كان وأد البنات في الجاهلية وأدانه القرآن. وليس أسوأ مما جعله زرادشت من القبياح. وقد كان أيضاً سائداً في الهند. وأن مجموع الخطأين لا يكون صواباً. فإن وأد البنات في الهند لا يقلل من جرمه عند العرب. والهجوم على الفرس من العرب يساوى الهجوم من الفرس على العرب، حجة بحجة، ونقداً بنقد. الآلة واحدة، والموقف واحد، الشعوبية. ولتاهم العرب بنقص الذهن والعقل والطباع الأرضية جهل من الفرس بأثار الطبيعة وأسرار الشريعة. لذلك أزلهم الله وسلبهم الملك وضرب عليهم الذلة والمسكنة. وفي الجدل يدخل كل فريق الله إلى جانبه تقوية لموقفه في الاتهامات المتبادلة بين الفريقين.

وتزعم المجوس أن الشريعة معرجة من الملك. فما تأتى به لا يتوجه إلى الملك بل يوكل الملك إلى من يقوم به على أحكام الدين. لذلك قال حكماء فارس: جربنا الملوك. فإذا ملكنا السمع الجواد أجادت علينا السماء والأرض. وإذا ملكنا البخل بخلت وكان الملك هو الأساس وليس الدين^(١).

والهند أصحاب وهم ومخرقة وشعبذة وحيلة. وتتميز بالفكر والرؤية والخفة والسحر والأناء، والوهم والحدث والظن. تقدم البنات قرية في بيوت الأصنام كعادة وأدهم عند العرب. وهم إلى الافك أميل، وفي أبوابه أدخل. ولغة الهند غير لغة الروم، وكذلك الصناعة والعقيدة.

وتظهر ثقافة الهند في الليلة العاشرة في الامتاع والمؤانسة عن طباع الحيوان. فلا يوجد في الهند خنزير. وتتولد الكلاب الهندية من كلب وسبع شبيه بالكلب. والتمساح لا يوجد إلا في النيل وفي نهر الرسيس في الهند. ويبيض كبيض الأوز. ويجامع ستين مرة في حركة واحدة ومحل واحد^(٢). والدودة الهندية هي دودة القز. وإذا حملت زوجة مضى بها إلى الهند فاخذ من هناك حجر كهينة الجوزة إذا حرك سمع بصوت حجر آخر يتحرك في وسطه كصوت الجرس يوضع تحت الزوجة في حال عسر الولادة .

والبقل الرطب في الهند. وتعريف الهندي للشيع أنه محال لأن الشيع من الأرز النقى الأبيض الكبار الحب المطبوخ باللبن الحليب المعروف على ألجام البلوريات بالسكر الفائق مخالف للشيع من السمك المملوح وخبز الذرة. وعلى هذا يختلف الأمر في الشيع. ويستمر الهندي في الطعام إلى أن يقع له أنه إن أراد لقمة زهقت نفسه إلى النار. ومن دفع ما للهند فليس من شخص^(٣).

(١) السابق ج ١/٩٢-٩٤ ج ٣/٢٢-٢٣. وهو ما يقال بلغة العصر: لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة.

(٢) حتى الآن يباع في السودان بكرة من قضيب التمساح للقوة الجنسية.

(٣) السابق ج ١/٧٠-٧٢/٧٤-٧٥/٩٤/١٦٥/١٦٩/١٧٤/١٨٩/١٩٣/٢١١-٢١٢ ج ٢/٦٣ ج ٣/٢٢-٢٣.

وواضح أن هذا الوصف أقرب إلى العادات الشعبية لحضارة الهند منه إلى الوصف العلمى التاريخى مثل البيرونى. فلهند رياضياتها وهندستها ومنطقها وأخلاقها وحكمتها السياسية وأدبها الرمزى كما هو واضح فى "كثيلة ودمنة".

أما الصين فأصحاب أثاث وصنعة لا فكر وروية. ومن كان فى بلاد الصين فإنه يسمى الإنسان والفرس والحمار والبقر بها بتعاليم أهلها بينهم^(١). وواضح قلة العلم بالصين وعمومية الأحكام عليها. صحيح أنهم أصحاب أثاث وصنعة ولكنهم أصحاب فكر وروية كما تبدو فى دياناتها وأخلاقها وعلومها. والإشارة إلى اللغة الصينية المرنية دقيقة، التسمية عن طريق الرسم.

ومع الصين تذكر أقاليم وسط آسيا مثل سمرقند وفرغانة. فقد عرف السمرقندى الشيع بأنه إذا جحظت عيناك وبكم اللسان ونقلت الحركة. وتذكر فرغانة وتاهرت فى السؤال عن سبب تصافى شخصين لا تشابه بينهما فى الصورة^(٢). وواضح انتباه أبى حيان لكل ما هو غريب لأديب .

كما يذكر أهل الشام والعراق امتداداً لآسيا. فإذا أراد أهل الشام صيد السمك ألغوه فى سفينة ولا يستطيعون قطعه بفأس أو كسره بحجر. ويذكر العراق كمثال للمعارف الضرورية، صورة بغداد وخرسان والبلاد التى تشاهد مرة ثم منازلنا بها وصور اصدقائنا فيها^(٣).

أما اليونان فهم أهل أبدان دقيقة وأصحاب بناء وهندسة إشارة إلى كمال الأجسام والعمارة اليونانية. فقد تقاسمت الشعوب الفضائل بين الفطرة والتنبية وبين الاختيار والتقدمة فصار الاستنباط والغوص والتفكير والبحث والاستكشاف والاستقصاء والفكر ليونان. ومن أنكر تقدم يونان فى المعانى من أماكنها والصناعات بأسرها وبحثها عن

(١) السابق جـ ١ / ٧٠-٧٢ جـ ٣ / ١٢٤.

(٢) السابق جـ ٣ / ٢٢-٢٣، الهوامل ص ١٢٩ .

(٣) الامتاع جـ ١ / ١٩٤، الهوامل ص ١٢٧.

العالم الأعلى والأوسط والأسفل فقد بهت إشارة إلى الفلسفة والعلم عند اليونان. وهى إشارات دقيقة وجوهرية تخلو من السخرية والثقافة الشعبية. وفى نفس الوقت عامة تخلو من التفاصيل عن الفلسفة والطب والشعر والقانون والسياسة^(١).

والرومى وصف آلة موسيقية هو الأرغن لم يسمع عنه أبو حيان إلا خبراً دون رؤيته مما يدل على أهمية المعرفة التجريبية. ويروى عن الروم قولهم إن السنور يتولد من جامعة الفهد لبعض السباع إشارة إلى بعض الأساطير^(٢).

ثم تأتى الشعوب المضادة للعلم الأقرب إلى الحيوان منها إلى الإنسان مثل الترك والزنج. قالت ترك سباع للهراش أى قوة عضلية مثل اسبرطة يمتازون بالشجاعة والاقدام. والعرب تشاركها فى الشجاعة إما بالزيادة أو بالمساواة. وينبغى للقائد العظيم أن تكون له خصال عشر من ضروب الحيوان: سخاء الديك، تمن النجاجة بنجدة الأسد، حملة الخنزير، روغان الثعلب، صبر الكلب، حراسة الكركى، حذر الغراب، غارة النتب. ويعرف التركى الشبع بأنه الأكل حتى الموت. وليس للتركى بعد هذا خط ولا دراية إلا بقسط من الظل من الشخص. فى حين أن العرب لها منطقها البارع المزية المعروفة على الترك فى السياسة وإن كانت قاصرة. ولا يذكر أبو حيان الترك فى "الهوامل والشوامل" إسقاطاً لهم من الحساب. ولا يذكر للترك فضيلة حفظ التراث وجمعه كإطار مرجعى لباقى الشعوب، اتفاقاً واختلافاً، زيادة أم نقصاناً^(٣).

أما الزنج فهم بهائم هاملة غلبت عليهم الغسولة وشاكلت البهائم الضعيفة كما شاكلت الترك السباع القوية. وأحياناً يسمون السودان فى مقابل الحمران. السودان أطرب وأجهل، والحمران أعضل وأكثر فكراً وأشد اهتماماً. والفرح من الدم. والحمران أكثر دماً وأعدل مزاجاً، وأوجد لأسباب الفرح وآلات الطرب وأقدر على الدنيا بكل وجه. والزنوج أيضاً لهم الفرح والنشاط وسببه اعتدال الدم فيهم. وهى دماء رقيقة أبداً صافية. لذلك نقل

(١) الامتاع جـ ١/ ٧٠-٧٢ / ٢١١-٢١٢.

(٢) الامتاع جـ ١/ ١٧٣. الهوامل ص ١٦٣.

(٣) الامتاع والمؤانسة جـ ١/ ٧٠-٧٢ / ٧٤-٧٥ / ١٤٤ / ٢١١-٢١٢ جـ ٣/ ٢٢-٢٣، للهوامل ص ٢٠٨.

الشجاعة فيهم. فأما الحمران وأكثرهم من ناحية الشمال والبلدان الباردة فعلى العكس. ويتميز الزنج بالصبر والكد والجهد والعمل كما يتضح ذلك في تفوقهم الرياضي في هذا الزمان^(١). والحبشي مثل السوداني يتدلل بالماء والغسل. لا يستفيد بياضاً بل يستفيد نقاراً شبيهاً بالبياض^(٢).

وواضح التحليل الفزيولوجي لشخصيات الشعوب كما هو الحال في النظريات العنصرية النازية والفاشية والصهيونية في الغرب الحديث، خصائص الشعوب بالدم والجسم والمزاج والطباع الثابتة. والتقابل بين السودان والحمران مثل التقابل بين السود والبيض في الغرب الحديث دون ذكر "الأسود الجميل"^(٣).

وهذا الموضوع كله التفاضل بين الشعوب قد يكون خارجاً عن نطاق روح الإسلام الجديد الذى ساوى بينها وجعل التقوى والعمل الصالح فقط هما أساس التفاضل "لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح"، ويضع الشعوب كلها داخل الأمة الواحدة. وفضلها ليس في خصائصها الثابتة بل في ممارستها العملية، فهي خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

سابعاً: تاريخ العمران

ربما تبلغ ذروة فلسفة التاريخ في تاريخ العمران السياسى والاجتماعى وذروة الذروة في قيام الدول وسقوطها وهى التى تحدد مراحل التاريخ. ولا يوجد وصف مباشر لدورات التاريخ بين القيام والسقوط بل بطريق غير مباشر عن طريق التاريخ السياسى، وصف الدولة وخصال السلطان كما فعل مسكويه أو عن طريق التاريخ الاجتماعى وصف تطور المجتمع ثم انهياره كما فعل ابن خلدون .

١- التاريخ السياسى. لما ارتبط قيام الدول وسقوطها بطبيعة نظمها السياسية أصبح التاريخ السياسى هو مسار التاريخ. ويتجلى التاريخ السياسى فى الوعى التاريخى

(١) الامتاع والمؤانسة ج١/ ٧٠-٧٢ / ٧٥-٧٦ / ٢١١-٢١٢، الهوامل ص ٢١٠ / ٢١٢ .

(٢) الامتاع والمؤانسة ج١/ ١٤٨-١٤٩ .

(٣) هو شعار الافارقة الأميركيين Black is beautiful .

العام قبل أن يتحول إلى وعى سياسى خاص كما هو الحال عند الكندى. وكان يمكن لهذا التاريخ السياسى أن يدخل فى فصل الاجتماع والسياسة، ولكنه كان أفضل فى فلسفة التاريخ لأن السياسة هنا ليست مقصودة لذاتها بل لأنها أحد أسباب قيام الدول وسقوطها أى "الحراك السياسى" وليست السياسة كنظم للحكم أى "الثبات السياسى".

أ- الوعى بحركة التاريخ. فى رسالة الكندى "فى ملك العرب وكميته" هناك وعى بالتاريخ، وقيام الملك العربى ومقداره^(١). فالكندى فيلسوف العرب دون وعى سياسى لأسباب قيام الملك وانهياره. ربما حاول الكندى فيها تنظير حوادث بمصر^(٢). ثم تحول الوعى التاريخى إلى وعى سياسى عند إخوان الصفا فى رسالة "الحيوان" عن شكوى الحيوان من بنى الإنسان. ثم عاد أبو حيان التوحيدى للتركيز على الجانب الاقتصادى للدولة مثل الحظوظ والأرزاق، وهو أقرب إلى موضوعات العدل فى علم الكلام فى الأجل والأرزاق والأسعار والفقر والغنى. وفى نفس الوقت ربط قيام الدول وسقوطها بخصائص الشعوب أكثر من ربطها بشخصية الحاكم وطبيعة النظام السياسى. فالسياسة الصريحة قليلة عند أبى حيان مثل الآيات القرآنية. كما يوجد بعض النقد لأحوال العصر والسؤال عن وجوب التسليم والانقياد لها وعن عيوب البشر هل هى لغاية لا يعلمها إلا الله^(٣). وتثور الدائرة على العرب إذا خرجوا عن فطرتهم، من البداوة إلى الحضارة، ومن الصحراء إلى العمران كما هو الحال عند ابن خلدون^(٤).

ب- الوعى السياسى بالظلم. ثم تحول الوعى التاريخى الخالص عند الكندى إلى وعى تاريخى سياسى عند إخوان الصفا إما صراحة أو فى رسائل رمزية مثل رسالة "الحيوان". وهى من الطبيعيات إلا أنها رسالة سياسية بالأصالة عن شكوى الحيوان من

(١) الكندى : رسالة فى ملك العرب وكميته.

(٢) تكل الرسالة على أن الكندى شهد عهد الخليفة المستعين بالله وشهد الفتنة التى قتل فى أعقابها فى آخر رمضان ٢٥٢ هـ.

(٣) فى الحظوظ والأرزاق ، أبو حيان : المقابسات ص ٢٤١-٢٤٢ / ١١٧.

(٤) كتب حذيفة إلى عمر بن الخطاب : إن العرب قد تغيرت ألوانها وشحومها. فكتب عمر إلى سعد: ارتد العرب منزلاً مراجاً فارتاد لهم الكوفة. وقال عمر: كانت العرب أسداً فى جزيرتها يأكل بعضها بعضاً فلما جمعهم الله بمحمد لم يبق لهم شئ. أبو حيان: الامتاع والموانسة، الليلة الثالثة والثلاثون جـ ٣ / ١٠٢ - ٧٦ / ١٠٣ - ٨٥.

طغيان بنى الإنسان، من الظلم والقهر والطغيان الذى يعانيه الحيوان من الإنسان. فسيب انهيار الدول هو الظلم والجور، وسبب الثورة وقيام الدول الجديدة هو العدل والمساواة.

وإذا كان طغيان بنى الإنسان مع بعضه البعض فالأولى طغيان الإنسان على الحيوان، ما فعله فارس فى الروم، وما فعلته الروم فى فارس، وما فعلته الهند بالسند، والسند بالهند، والحبشة بالنوبة، والنوبة بالحبشة، وما يفعله العرب والأكراد والأثراك بعضهم ببعض، لا فرق بين مولى وعبد، سيد ومسود. ومن ثم تسقط حجة تكريم الله للإنسان بالخلافة على الأرض وتسخير الطبيعة له بما فى ذلك الحيوان للركوب والطعام والسكن والزينة والدفع.

ويشكو الخزير أى الطبقة الدنيا، من الإقلال من شأنه، واعتباره من السباع وليس من الأنعام لأن له أنياب، ويأكل الجيف مما يكشف عن وضع الخنازير فى الثقافات الشعبية وفى الشرائع والديانات. فهو حرام عند المسلمين واليهود، حلال عند الروم والنصارى، مما يكشف عن التحيز ضد الخزير فى بعض الثقافات. وقد يكون السبب فى التحليل والتحريم العداوة بين اليهود والنصارى، أى عامل بشرى وليس تشريعاً إلهياً. ويستفتح المسلمون صورة الخنازير ويطنونها، ويستقلون أرواحها، ويستقذرون لحومها، ويتشائمون من ذكرها. واليهود يشتمونها ويلعنونها من غير ذنب ولا جناية. والروم والأرمن يتنافسون فى أكل لحومها، وقرابين يتبركون بها إلى الله مثل باقى الأنعام، واليونانيون يتداون بشحومها فى أدويتهم^(١).

وتبين رسالة "الحيوان" الاستعباد المتبادل بين البشر على لسان الحيوان باسم الشعوبية بالرغم من اختلاط بعض الدلالات وضرورة تأويلها. فالعراقى له اسم إيرانى مما يكشف عن خلفية الصراع بين العرب والفرس حتى الآن فى حرب الخليج الأولى. والشامى عبرانى من آل إسرائيل مما قد يكشف عن الصراع العربى الاسرائيلى. والسريان ليس لهم منطقة جغرافية بل مجرد لغة ودين وثقافة. والقرشى من تهامة وليس من الحجاز إقليلاً لسلطة قريش. والانسى عراقى أو عربى، والزعيم فارسى^(٢).

(١) الرسائل جـ ٢ / ٨ / ٢١٤ / ٢١٨ .

(٢) السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٧٨ - ٢٨٤ / ٢٨٥ / ٣١٥ - ٣٢٩ / ٣٣٠ - ٣٣٧ .

إن حكم السلطان الجائر قصير العمر. فاشق قاصم الجبارين كما هو الحال في شعار الثورة الإسلامية المعاصرة في إيران. الله قاصم كل جبار عنيد ومهلك كل مارد، ومنصف كل مظلوم كما تدل على ذلك الكتب المنزلة^(١).

ويعتمد الاخوان على الحكايات عن ملك وابنائه والرياسة والسياسة والدولة أي الحكاية السياسية حيث تظهر فيها العلاقة بين الدين والدولة^(٢). وتدخل حكاية داخل حكاية كما يقال في النقد الأدبي المعاصر "التناص" واسترجاع الذكريات^(٣). هي أشبه "بألف ليلة وليلة" الدينية كما أن "الامتع والموانسة" لأبي حيان "ألف ليلة وليلة" الفلسفية، مملوءة بالدين الجنس والسياسة، المحرمات الثلاثة في الوجدان العربي المعاصر حتى الآن^(٤). كما يعتمد الاخوان على اللغة والأسلوب. وأحياناً تبدو بعض الألفاظ الإنشائية الاصطلاحية مثل "بحر الهوى"، "أسر الطبيعة" لسلب اللب وإثارة الخيال للمبتدئين. كما تستعمل بعض الأمثال للدلالة بها على الآخرة بأمور الدنيا. ويُطعم ذلك في كل الآيات على أهمية الشباب مثل ﴿انهم فتية آمنوا بربهم﴾ مما يكشف عن أهمية الأقلية المؤمنة أو "جيل قرأني فريد" وكأننا أمام أجهزة الإعلام للترار لمزيد من الإقناع^(٥).

وتدل الحكاية باستمرار على النظرة التطهيرية، الخطيئة والخلاص، آدم والمسيح، آدم والاخوان. تتدخل قصة آدم لتفسير الخطيئة وضرورة الخلاص. ميزتها التناؤم في الماضي والتفاؤل في المستقبل. فهي ليست سرّاً خفياً. فطريق الاخوان هو طريق

(١) السابق جـ ٣ / ١٧ / ١٧٢.

(٢) كان الملك واسع الحكمة حسن السيرة محباً للعدل ولكنه متدين بعبادة الأصنام ولم يعرف شيئاً عن أخبار الأنبياء وملوك السموات والوحي والتنزيل والسنن والتأويل والمبدأ والمعاد والبعث والقيامة والحشر والحساب والميزان والصراط والنجاة. وكان الابن صافى الذهن، حي القلب، كثير التفكير في ملكوت السماء وكيفية المبدأ والمعاد وأحوال القرون التي مضت أو انقضت. فهل يمكن أن يكون الإنسان أخلاقياً سياسياً دون الجانب النخبوي؟ السابق جـ ٤ / ٧ / ١٤٨ - ١٤٩.

(٣) وهو ما يسمى في النقد الأدبي والسينمائي Flash back.

(٤) انظر مقالنا "المقدسات الثلاثة" للدين والثورة في مصر ١٩٥٢ - ١٩٨١ جـ ١ الدين والثقافة الوطنية ص ١٦٧-٢٦٩.

(٥) وهو تعبير سيد قطب في "معالم في الطريق" ص ١٤-٢٣، السابق جـ ٢ / ٨ / ٢٩٥، جـ ٤ / ٧ / ١٦٤-١٤٨.

الخلاص الجديد، كراهية الدنيا المسلوقة مسبقاً وليست بالإرادة واكتشاف فنائها. إلى هذا الحد بلغ خداع الدنيا، جماع جثة لرائحتها الطيبة^(١). والسؤال هو: هل التطهر طبيعة أم وهم؟ وهل الخلاص من الدنيا أو بالعودة إليها؟ وتمثل النبوة، وهى الطريق الأعم للخلاص الاخبار عن الماضى وخلق العالم والبعث والمعاد أى المستقبل، واختلاف الأوامر والنواهي فى الحاضر طريقاً لعادات الشعوب. فالنبوة تتضمن عناصر مكونة لفلسفة فى التاريخ، الماضى فى مراحل الوحي السابقة وقصص الأنبياء، والمستقبل فى المعاد، والحاضر فى الأوامر والنواهي والإيمان والعمل والدولة. الأول التاريخ العام، والثانى التاريخ المتعين. وهناك إشارات ورموز ليست فى الأحكام حتى تصحح الأفعال. التشابه فى الغيبيات، والاحكام فى العمليات^(٢).

وتتكرر الحكاية مرة ثانية داخل الحكاية الأولى للدلالة على عدم ارتباط الأخلاق بالدين. إذ يمكن أن توجد أخلاق حسنة مع عبادة الأصنام. فالإلحاد لا يعنى بالضرورة فساد الأخلاق. وهناك شخصيتان باستمرار فى كل حكاية كما هو الحال فى "حى بن يقظان" يدلان على صلة الحكمة بالشرعية. فالوزير عارف بالنبوة، والملك يرفض سماع نصيحة وزيره لطول عادته فى عبادة الأصنام مما يدل على أهمية العادة فى رفض التغير العقائدى وإن استمرت الأخلاق^(٣).

ونظراً لأن الملك عادل محب للخير دون إيمان بأمور المعاد فإنه وقع فى عيوب الملوك وهى: سكرات السلطان، وسكر الشباب والتفاخر والخيلاء، وحب الشهوات، والجهالات. ويحمل الملك هموم الملك وهى: محاربة الخوارج، وشغب الجند وطلب الأرزاق، وتظلم الرعية، ومحاسبة الكتاب، والتعازى والتهانى، والخاصة والعامّة، والقصص والتوقيعات، والكتب والأخبار. أما الحكماء فإنهم يذمون الدنيا لأنها تصغر فى أعينهم بالمقارنة بملكوّات السموات. فهم الحكماء المؤمنون فلماذا لا يجتمع الدين والدنيا ؟ ووجد الملك والوزير فقيراً وفقيرة سعداء فعلم الملك أن السعادة ليست فى حطام الدنيا

(١) حال النفس بعد مفارقتها الجسد مثل حكاية العريس الذى ذهب إلى عروسه فى الظلام وفى الصباح وجدها جثة خربة، السابق جـ ٤ / ٧ / ١٥٨ - ١٦١ .

(٢) من العقيدة إلى الثورة جـ النبوة - المعاد جـ الإيمان والعمل - الإمامة .

(٣) وهذه أهمية كائط والبروتستانتية الليبرالية فى جعل الأخلاق أساس الدين .

حتى بالنسبة للملوك. فالملك محاصر بين الدنيا والآخرة . ويتم الهداية على أيدي النساك وليست على أيدي الثوار. النساك هم البقية الصالحة التي بها يتم خلاص العالم. ويستمر الإيمان في التاريخ. تعتمد عليها اليهودية في الخلاص الجماعي حتى ولو أذنب الكل وبقي واحد فقط صالحاً فيهم، مما يناقض المسؤولية الفردية. هذه البقية الصالحة هم الصوفية والأنبياء الذين ترثهم الأخوان^(١).

وقد أوصى أحد ملوك الهند المسلمين أبناءه الملوك بوصايا عشر للحفاظ على الملك وقيام الدولة: الإقرار بالتوحيد مع الابتغال إلى الله، الإقرار بالرسول وتصديقهم، التصديق بالكتب المنزل، حفظ الناموس وسياسة الناس، التواضع لله وترك الفخر، ترك الظلم والجور فالظالم خصيم الله، وخصيم الله مخذول بالضرورة، ترك مخالطة النساء لأنهن مفسدة لعقول الرجال، ترك شرب الخمر لأنه ضد العقل، والعقل خليفة الله، الكرم والسخاء وسماحة النفس والتفضل على سائر الناس عدواً أم صديقاً، وصديق القول وأداء الأمانة إلى البر والفاجر. فالإيمان بالله والإقرار بالنبوة والتصديق بالكتب المنزل هي الوسيلة لتطبيق الشريعة، ومراعاة العدل وترك الغرور، وإكمال الأخلاق بالبعد عن أهواء النفس^(٢).

فإذا كان الدين أساس الأخلاق فإن الأخلاق أساسها السياسة. ويتضح الأساس الأخلاقي الخالص قبل أن تتشقق الأخلاق عن الدين وتتحول إلى سياسة في الخصال العشر الأخرى التي تؤدي إلى نفع الدنيا، وتزويد الخير والرزق والبركة مثل: حسن الخلق، حسن الأدب، صدق الوعد والوفاء بالعهد، العفو عند المقدرة، واصطناع الرجال وترك الحسد، وعدم معاداة أحد والإحسان بالعدو عقوبة له حتى يكفيه الله، وترك التفريط في وديعة الله وفعل كل ما يؤدي إلى التقرب إليه، وغلبة المروءة على الشهوات، وعدم تأثير الدنيا على الآخرة وإلا سلب الله الدنيا على الإنسان يستخدمها فتستخدمه، وعدم النظر فيما لا يعنى الإنسان وعدم الانشغال عن الله^(٣). وهي أخلاق تظل مرتبطة بالدين في أربعة من عشرة خصال.

(١) السابق جـ ٤ / ٧ / ١٥٢ - ١٥٧ جـ ١ / ٢ / ١٠٠ .

(٢) السابق جـ ٣ / ١٧ / ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) السابق جـ ٣ / ١٧ / ١٧٣ - ١٧٤ .

والسؤال هو: هل السياسة أخلاق أم مصالح وتوازن أو صراع قوى؟ هل هي وصف ما ينبغي أن يكون أم تحليل ما هو كائن كما يفعل أنصار الجغرافيا السياسية أو دعاة السياسة الواقعية؟^(١) هناك فرق بين الأخلاق السياسية وعلم السياسة. بل انه لا يمكن تناول السياسة كأخلاق دون تحليل البنية الاجتماعية والقوى السياسية والاقتصادية في المجتمع. وإن رد كل شئ إلى الأخلاق هو تحول من الموضوعية إلى الذاتية، ومن الجماعة إلى الفرد، ومن الواقع إلى المثال^(٢).

وهل السياسة وصايا مثل وصايا الملك لولى عهده مثل وصايا لقمان لابنه؟ وهل النصائح تجدى أم تغيير الواقع السياسى والاجتماعى والاقتصادى للسلوك البشرى. فالأفراد فى بيئة اجتماعية، والسلوك نتيجة التوتر بين متطلبات الواقع ومقتضيات المعيار. وهى نصائح عامة للناس جميعاً وليست للسلطان وحده، ومن ثم لا توجد خصوصية فى التعامل مع السلطة السياسية.

وإذا كانت الخصال العشر الأولى دينية وشرعية، والخصال العشر الثانية أخلاقية اجتماعية فإن الخصال العشر الثالثة سياسية صرفة وهى تفقد المملكة والعلم بكل شئ فيها. وهى قضية الوعي بمشاكل الجماهير وعدم الانعزال عنها، مجازاة كل فرد طبقاً لعمله. فالحمل أساس القيمة وليس التفاف أو الانتهازية والوصولية، وشمول العدل بين الناس، وعدم الجور عليهم وهى نفس قضية العدل سلباً نظراً لأهميتها وتأكيداً مرة إيجاباً مرة وسلباً، وعدم المساواة بين العلماء والجهال فى العطاء وفى الأثر، فى الإعلام وفى الإدارة، وتولية الأخيار والأحرار وليس العبيد والسوقة نظراً لنسبة أفعال الولاة إلى السلطان عدلاً أو جوراً، وعدم استشارة المخالف فى الدين فإنه لا ينصح وإن نصح غش كما هو الحال فى الاعتماد على الدول الغربية الآن، وتعيين أرفع الناس قدراً وليس أصغرهم حتى لا يكون عبداً للمنصب، وإنصاف المظلوم من الظالم والضعيف من القوى وتأكيد صفة العدل مرة ثالثة، ورد الحق إلى أهله والانتصار لهم استمراراً لتأكيد صفة

(١) السياسة الواقعية Real Politique .

(٢) وتأسيس السياسة على الأخلاق هو ما حاوله كانط فى "مشروع السلام الدائم". وقشته فى "نظرية الدولة".

العدل. ومن ثم تكتمل الخصال الثلاثون التي تؤدي إلى كمال الدين والدنيا، ورفع المالك والسلطان وقيام الدولة (١).

بالإضافة إلى ذلك يؤكد الاخوان على دور العلماء، أهل الحل والعقد في النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل: تقوى الله أى الأولوية للأخلاق الدينية، وطاعة الولاة دون تحديد هل هي طاعة مطلقة أم مشروطة بطاعة الله، والوحدة دون الخلاف إلا فى الحق، وعدم طمع العدو فيهم بل وعدم التحالف معه أو تبرير صلح السلطة معه (٢)، وعدم نقض عهد السلطان، والحرص على مثل الوحي مجتمعة أو متفرقة. وهي سياسة أقرب إلى عهد الإمام عند الشيعة منها إلى البيعة عند أهل السنة (٣).

وفى الدولة طوائف عدة. لكل منها طريقة خاصة لدعوتها من الاخوان، الدعوة المناسبة فى الزمان المناسب وفى المكان المناسب. ففى المجتمع أربع طبقات سياسية. أولاد الملوك والأمراء والوزراء والعمال والكتاب وهى النخبة الحاكمة، وأولاد الأشراف والدهاقين وهم حكام الأقاليم ورؤساء الفلاحين، وأولاد العلماء والأدباء والفقهاء فى الدين وهى النخبة المثقفة، وأولاد الصنائع والمتصرفون وأمناء الناس (٤). والهدف من الدعوة لتبنيه من الغفلة والجهالة، وتوصية السلطان عليهم بحسن معاملتهم. وجميع الطرق سلمية مثل: التعاون مع الأغنياء ومواساة الفقراء، قضاء حوائج الناس قبل الدعوة الفكرية سواء عن حكمة أو انتهازية، عدم كتم الأسرار خوفاً من السلطان ضد الدعوة السرية، عدم حسد أحد أو مقاومته كنوع من المقاومة السلبية المعروفة فى عصرنا والمخالفة لروح المقاومة الفعلية، التعاون بالعلوم والمعارف لا بقوة الأجسام، وأخيراً عدم معاداة أحد والقدرة على

(١) السابق جـ ٣ / ١٧ / ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) وذلك مثل قصيدة أمل دنقل الشهيرة " لا تصالح " .

(٣) السابق جـ ٣ / ١٧ / ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) السابق جـ ٤ / ٧ / ١٦٤ - ١٦٨ .



تجميع الكل فى حوار وطنى شامل بلغة العصر^(١). ويتم الاعتماد على كتب الأنبياء وكتب الاخوان الطبيعية العامة والإلهية النفسية الخاصة. وهى كلها طرق يتساعل هذا العصر عن جدواها وفعاليتها مثل مهانة الأغنياء ومواساة الفقراء.

يبدو عند الاخوان أنه لا فرق بين السياسة الإلهية والسياسة البشرية. فالثانية ما هى إلا انعكاس للأولى، والأولى ما هى إلا انعكاس للثانية، البشرية تطبق على مستوى البشر للسياسة الإلهية، والإلهية ما هى إلا تطبيق للسياسة البشرية على مستوى الله. الفرق فى المستوى، السياسة الإلهية "علوية"، والسياسة البشرية "سفلية". وتتسم السياسة، إلهية أم بشرية، بطابع ثنائى، طابع ومطبوع، ومخدوم وخادم، صورة ومادة، قالب ومقنن^(٢).

وما زالت الإرادة الإلهية هى الفاعل الأول فى السياسة والتاريخ. والسلطان ما هو أى خليفة الله فى الأرض. يقارب عدله. لولا العناية الربانية والسياسة الربانية ما تم شئ فى الكون ولا فى المجتمع والتاريخ، ذهاب السلف وبقاء الخلف، وتفرقهم فى الأقاليم. ويتم التدخل الإلهى إلهاماً للحكيم ومشينته فى انتشار اللغات أو وحياً للأنبياء^(٣).

٢- الدين والسلطة والجنس. وفى الحكمة الخالدة لمسكويه وهى مستخلصة من حكم الشعوب تحليل للسلطة الدينية والسلطة السياسية، الله والسلطان كأساس لقيام الدول وسقوطها. تقوم الدولة إذا كان الله سلطاناً، والسلطان إلهاً. وتتهار الدولة إذا كان الله إلهاً والسلطان سلطاناً، توحيداً بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. ولا فرق بين الملك والسلطان إذ يستعملان على التبادل كرمز للسلطة السياسية^(٤).

(١) وهو ما ينادى به "اليسار الإسلامى".

(٢) السابق جـ ٣/ ١١٤ - ١١٥ / ١٥٠.

(٣) العناية الإلهية والسياسة الربانية ورحمة الله بخلقه ورافته بعباده، السابق جـ ٣/ ١٧/ ٩٧. تقدير الله جـ ٣/ ١٧/ ١١٥.

(٤) وذلك مثل لردشير وأنوشروان من فارس وبهمن من الهند، حكم بهمنى الملك ص ٦١، ٦٤، من سيرة نعماء العرب ص ٦٤ لما جلس جمشيد على سرير ملكه ص ٦٥، ٦٦ قال هرمز الملك لخرشيد ص ٦٦، ٧٦. من كلام حكيم آخر فارسى ص ٦٧، ٧٤. وصية أوشهنج لولده والملوك من خلفه ص ٥.

فإذا وجبت الطاعة لله فإنها تجب أيضاً للسلطان. لله التعظيم والشكر وللسلطان الطاعة والنصيحة. خير الملوك أشكرهم الله وأقضاهم بالحق وأرأفهم بالرعية وأحسنهم نظراً فيما يصلح البلاد ويعمرها. ولا يتم ذلك إلا بالعقل. وأحق ما يفرح به الملك الخير الذى يصاب منه وما احتاط فيه للرعية بسبب ما يستوجب به منهم الشكر ومن الله الأجر والمثوبة. فشكر الله وشكر السلطان واجب. الله قاهر عادل وكذلك السلطان المستبد العادل. القاهر العادل فى الدين، والمستبد العادل فى السياسة. قامت السموات والأرض على العدل، والعدل أساس الملك. وأجفى وأصعب الأنبياء السلطان الصائب ذو القلب القاسى. وتجرى الأمور بمشيئة الله إذا كان الفيلسوف ملكاً أو كان الملك فيلسوفاً. فالإرادة الإلهية واجبة فى حال الملك والنبوة.

ويستمد الإنسان قيمته من الله وشرفه من السلطان. والانقطاع إلى الله خير من الانقطاع إلى الملوك. والبنية واحدة. واتجاه الإنسان نحو الله ونحو السلطان اتجاه واحد، ما ينبغي لله الحمد والشكر، وللنفس الاجتهاد علماً وعلاً واجتتاب المأثم، وللسلطان الطاعة والنصيحة، وللأقربين المحبة والصلة، وللأصحاب اللين والمساواة. فالبنية واحدة^(١).

والإيمان بالله والإيمان بالسلطان واحد. والثقة بالله والثقة بالسلطان ثقة واحدة. إذ لا ينبغي لأحد أن يشك فى أربع خصال، واحدة فى التسليم له والثانية العمل بالخير، والثالثة ألا يستقيم ملك إلا بشريعة، والرابعة قضاء الملوك. وتقوى الله وتقوى السلطان شئ واحد. إذ ما ظفر الناس ملوكهم وسوقتهم بشئ أعظم وأسعد وأزین وأجمل من تقوى الله وتعظيمه وتصغير النفس والإقرار له بالعزة ولأنفسهم بالذلة. فمن حسنت نيته وخلصت سريره ودامت طلبته ظفر بمعرفة ما يحق عليه الله ولزم التقوى إذ اتبع سنة الله فى عدله وحكمته. البنية النفسية واحدة، العزة لله وللسلطان، والدلة للنفس. ويعرف الوالى رضى الرب عنه ما رضى الله عنه ما لا يدع لذاته وهواه ولا يترك لشهوته فى إصلاح رعيته وبسط العدل فيهم ورفع الظلم عنهم. وإن أعظم ما أنعم الله على خلقه فى ابتدائهم بالخلق نعمتان: الرسول الهادى الذى لا يصاب الدين إلا من قبله. والثانى الوالى العادل

(١) مسكويه: الحكمة الخالدة ص ١٤ / ٢٨ / ٢٩-٣٢ / ٤٣ / ٤٦، كتاب برزجمهر إلى كسرى ص ٤٥-

٤٨ حكم توشع عن اشروان ص ٤٩-٦١ / ١٧١ / ٢١٥.

الذى لا تصلح الدنيا إلا عليه، فعدل الوالى من عدل الرسول من عدل الإله فى الخلق. والسرور الذى يغتبط به الملك ما كان معه رجاء لحسن معاداه، وما سوى ذلك مطروح من ذوى الألباب. ونور الدين يجعل لذوى السياسة مركباً، ونور التنزيل يجعل للحكماء مركباً، ونور الإلهام يجعل لذوى التدبير مركباً، ونور التوفيق يجعل لذوى الاجتهاد مركباً، ونور الحرية يجعل لذوى الجود مركباً. فالدين مقدمة والسياسة نتيجة.

أ- ولجبات السلطان تجاه الرعية. وأفضل السلاطين الأحق أن يغبط الملك الصالح المظفر. وهو نموذج للأمة وخادمها. آخر من يأكل وآخر من يلبس وآخر من يسكن حتى يطمئن على كفاية الناس. يثق به البريء ولا يأمنه المريب. فان ثقة البريء تزيد اجتهاداً أو مناصحة، وخوف المريب يزيده رعباً وهيبه. ومع الاجتهاد بالمناصحة العافية والسلامة، ومع الخوف والرهبة والاستقامة والطاعة. وأفضل الملوك سعادة من كثر علمه ووفق للعمل به. وأكثر ما ينتفع به السلطان صحبه العلماء والاستكثار من العلم فإن من فضيلة العلم أن صاحبه كلما استكثر منه أحب أن يزداد منه، وهذا هو الحرص الممدوح. وأحسن أخلاق الملوك أقرهم عند الغضب وأكثرهم حلماً ودعة وأحسن ما عوشر به الملوك البشاشة وتخفيف المؤونة ^(١). ومن عدم العقل قلن يزيد السلطان عزاً. وإذا قيل: هل السعادة أنفع للملوك أم العقل ؟ قيل السعادة مقرونة بالعقل، وإنما تتبين آثاره بالدلائل. السلطان هو من كان على نفسه سلطاناً أولاً قبل أن يكون على غيره.

ولا يجب على السلطان قبول الهدايا. فالهدية إما من صغير لكبير نطلب ميزة أو من كبير لصغير لطلب طاعته. وإن كانت فهى بين الأكفاء للتحاب، والملوك ليسوا فى حاجة إليها. وإذا كان الملك قد أمن الفقر يكون غناه اقتناء الحمد وابتغاء المجد. وأزین ما يوسم به الملوك التعفف عن المحرمات وعما فى أيدي الرعية، وألا يعرف بالحرص حتى ينسب إليه ولا الجشع حتى لا تذهب عنه بهجة الوقار. ويجمع الملوك والحمد وهو أنهم إذا هموا بالخير أنصفوه. وما يجمع لهم الحزم هو الاستظهار فى الأمور. وما يجمع لهم الذم إذا اغضبوا أقدموا.

(١) كان عمر بن الخطاب يشرط على عماله ألا يركبوا البراذين ولا يلبسوا السابري ولا ينخلوا الدقيق، السابق ص ١٥٧.

يحتاج الملوك إلى هذه الخصال. فهم الساسة والرؤساء وسائر الناس تابعون لهم. تصلح الرعية بصلاحهم وتفسد بفسادهم. فلا قوام للرعية إلا بالراعى، ولا قوام للبدن إلا بالرأس، ولا قوام للملك إلا بالهبة، ولا هبة للملوك إلا بالعدل. ومن ظلم من الملوك فقد خرج على كرم الملك والحرية وصار إلى دناءة الشره والنقيصة والتشبه بالرعية والعبيد. والظالم نادم وإن مدحه قومه، والمظلوم سالم وإن ذمه قومه. ويسمع الله دعوة المظلوم على باب الولاية والحكام. والحاكم العادل يتقى الظلم. الجور مهانة والجود مهابة. ومن بالغ فى الخصومة ظلم، ومن قصر فيها ظلم. فالعدل والظلم ليسا فقط من سلوك الحكام بل أيضاً من سلوك البشر. الحق هو العدل لأنه علة كل حسن، وكذلك الجور هو القبح لأنه علة كل قبح. فالقبح هو ما خرج عن ميزان الاعتدال. بالعدل ركب كل العالم، فجزيئاته لا تقوم بالجور. العدل ميزان الله فى أرضه، به يؤخذ للضعيف من القوى وللمحق من المبطل. فمن أزال ميزان الله عما وضع له بين عباده جهل أعظم الجهالة وأعمر أشد الأعوار. وقد اختار الله العدل لنفسه وأمر بالقيام عليه واستعماله فى خلقه. العدل لازم لذوى العقل، والجور لاحق بالجهال^(١).

وأسوأ السلاطين السفه الغشوم. وأحق الناس بالانتقاء السلطان الغشوم والعدو القوى والصديق المخادع. والمال لا يحفظ من سرقة ومن خيانة ومن جور السلطان. وأحق الناس أن يحذر منه السلطان الجائر. الجور مفسد للعدل. وجمع المال لمصائب الزمان وجور السلطان. وأدوم تعب صحبة السلطان السيئ الخليفة. ولا يوجد شئ أسرع من تقلب قلب الملوك. ومن خمسة أشياء تقبح بأهلها ضيق نزع الملك. وأقبح أخلاق الملوك الحدة وضيق الذرع وقلة الفهم والقطاظة وغلبة البخل والقسوة وقلة الاهتمام بأمر العامة. ويتطير الملوك من ذكر الموت فى حين ينكر الحكماء من ذكره لأنهم ينظرون فى بقاء ملكهم وتبديره، والحكماء ينظرون فى فراق ملكهم وتبديره ما بعده^(٢).

(١) السابق ٨ / ١٢ / ٥٩ - ٦٠ / ٦٢ / ٧٢ / ١٧٣ / ١٨٧ / ٢٠٨ / ٢١٣ / ٢١٦ / ٢٢٤ - ٢٢٥ / ٢٦١.

(٢) السابق ص ١٢ / ٣٤ - ٣٦ / ٤٣ / ٤٦ / ٦٠ - ٦١ / ٩٩ / ١٧٨. ومن خطب الحاج: من أعياء دواؤه فعندى دواؤه. ومن استعجل أجله فعلى أن أعجله. إن العزم والجد قد استلبا منى سوطى، وجعلا سوطى سيفى، فنجاده فى عنقى، وقائمة بيدي وذباية قلادة لمن اغتر بى، السابق ص ١١٤.

وأشد شيء تهجيناً للملوك صغر الخطر. ولا يجب التودد إلى السلطان بالدالة وإن كان أحمأ ولا بالحجة إن كانت للإنسان ولا بالنصيحة إن كانت له. فالسلطان له القدرة دون الكرم، والحمية دون النصفة، واللجاج دون الحظ. ومن ثلاثة أشياء لا يستصلح فسادهن بشيء من الميل الركاكفة فى الملوك، واستعمال الملك الهزل. فالهزل آفة الجد، يذهب الهيبة ولا يعتبر الملك الكنوب ملكاً^(١).

والسلطة الملكية وراثية. يرث السلطان ولاية الأمور من بعده. ومع ذلك هناك عشرة مؤسسات يحكم من خلالها. وعلى كل منها رئيس أو صاحب، وعلى كل منهم واجبات. الأول كاتب الرسائل وهو ما يعادل رئيس الوزراء فالكاكتب هو لسان السلطان والمخبر عن غائب أمره. عليه اختصار الطريق إلى القفنة والإحاطة بمرور الأمور، والبداية بالأولى فالأولى. والثانى صاحب الخراج أو ما يعادل وزير الاقتصاد والمالية. واجبه العدل بين السلطان والرعية، وإجراء الأمور على مواردها وعدم التقصير فى إتقانها وعدم الاتكال على الغير فيما يحيط به نظره ويبلغه علمه. والثالث صاحب الجيش، وزير الدفاع، وهو الحصن من العدو، والمؤتمن على عدة الملك. وعليه استدعاء المناصفة بالرغبة والطاعة بالرهبة، والاحتراس بالتقبط والإسراع فى مواضع الفرس. والرابع صاحب الحرس، قائد الحرس الجمهورى أو مدير المخابرات العامة. وهو جنة السلطان وعينه. واجبه التحفظ والاستعداد والأهبة وعدم استبطان المريب والأخذ بالشبهات مثل زوار الفجر. والخامس صاحب الشرطة، وزير الداخلية. وهو ظل السلطان فى رعيته والقائم بسوط الأدب. عليه إلباسهم البراءة أو إشعارهم المخافة بالرعية وعدم الخوف فى إثثار الحق لومة لائم. والسادس الحاجب، رئيس الديوان، وهو العدل على مراتب الخاصة والمحافظ على مكانتهم من السلطان. يجب عليه النظر بعين السلطان، وجعلهم على قدر منازلهم من اللوم والإبطاء على باب السلطان وزرع محبته فى قلوب الجميع. والسابع الخادم، والسكرتير الخاص، مدير مكتب المعلومات. وهو الأمين على ما به حياة الرعية، بصلاحه صلاح الملك والأجناد. عليه حفظ الوارد واستبطاء الغائب، وتعجيل الجارى اللازم وتأخير غير اللازم. والثامن صاحب الخاتم، وزير العدل، فالتدبير

(١) السابق ص ١٢ / ٣٧ / ١٠٠ / ٢٦٩ .

يصدر منه، والأمر ينفذ به. يقتصر على أوامر السلطان وتنفيذها. والتاسع صاحب ديوان النفقات، وزير التموين. وهو والى خاصة كل ما يعنى السلطان، والقائم بما يعود نقصه وضره. عليه الاحتياط بما تدعو الحاجة إليه فى النفقة، واستبعاد ما تنوق إليه الشهوة. والعاشر صاحب الإمام وهو المستشار، مستودع سر السلطان ومالك زمام أمره، ومكانة رأيه وكتمان سره، وتحمل نقل مخالفته، وعليه ألا تأخذه رافة فى حظوظ السلطان^(١).

وما ينبغى للملك أن يصنعه حتى يعم صلاحه أهل مملكته تولية خيارهم وولاية الناس بلاء عظيم. وعلى الوالى أربعة خصال هى أعمدة السلطان وأركانه، والاجتهاد فى التخير للعمال والوزراء، فقد يكون رجل بألف، والمبالغة فى التقدم إلى الوصية، والتأكيد على العمل، وكسب كل لبيب يعرف وجوه الأمور والأعمال، والتعهد الشديد حتى يكون الوالى سميعاً بصيراً، والعامل متحصناً حريزاً، والجزاء العتيد، إثابة المحسن ومعاقبة المسى.

والهيبة التى تنفع السلطان فى سلطانه وتكون أعم نفعاً فى رعيته هيبة العدل والنزاهة وحسم بوائق الأشرار وأهل الريب.

والناس أربعة أصناف، فارس يذب عن البيضة، وزارع يسعى فى العمارة، وعالم يشتغل بالديانة، ورجرجة بين ذلك تكدر الماء وتغلى السعر. فالمهن أربعة: الجندى والفلاح والعامل والتاجر أسوأها. فضيلة الفلاحين التعاون بالأعمال. وفضيلة التجار التعاون بالأموال. وفضيلة الملوك التعاون بالآراء والسياسة. وفضيلة الالهيين التعاون بالحكم الحقيقية. ويتعاون الجميع على عمارة المدن بالخيرات والفضائل. وكما أن اللواء لا يأخذه إلا القوى، والغذاء لا يأخذه إلا من يهضم كذلك لا ينصب للرياسة إلا الناهضة بأعبائها وهو الأكمل فى الفضائل الخمس وهى العفة والنجدة والحرية والعدالة والحكمة. والناس على مراتب أعلاها من الناس العلماء، ومن الملوك الزهاد، ومن الأشراف المتقون، ومن الغوغاء للقصاص، ومن السفلة الظلمة^(٢).

(١) السابق ص ٢٩ / ٦٥ - ٦٦.

(٢) السابق ص ٤٢ / ٤٩ - ٧٣ / ٧٤ / ١٦٠ / ١٧٦ / ٣٦٤.

والسلطان لا يعمل بمفرده بل بمؤسسات الدولة وأهمها العلماء والفقهاء وأهل الحل والعقد الذين يقومون بدور الاستشارة والنصح. وهم السلطة الفعلية التشريعية، وما السلطان إلا السلطة التنفيذية لا يتم إحكام أمر أو تدبيره إلا بالمشورة بالوزراء والناصحين المستحقين لرتبتهم. والمستشير متحصن عن السقوط، والمستبد متهور في الغلط. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استحقاق الثناء، والمجاهد على الحق. ويستغنى الناصح عن النصيحة لمن لا يقبلها والإشارة على المعجب برأيه والمجادلة لكف حرص الحريص. ومن عشرة يعنون بأنفسهم وغيرهم المستغنى برأيه عن المشاورة ثم يطالب الرأي فلا يجده، ومن يصحب الملوك بالغش والخيانة. شرائط صحبة السلطان للنصيحة وحفظ السر، ومجانبة الغش له وليس تزيين أمره أو إثارة هواه وتقدير الأمور على موافقته في الكره والرضا. لا يرغب بنفسه عن شيء يوافقه ولا يتسخط من قليل عطيته، ولا ينظر كرامته، ولا يستعمل الدالة عليه. ولا يكتب إذا سأل، ولا يستقل حملة، ولا يسأله إذا جفاه، ولا يأمنه إذا أرضاه، ولا يغدر له من لأم، ولا يلوم له من يغدر. وإذا استبد الملك برأيه عميت عليه المرشد. وسلطان العلم أقوى من سلطان الملوك ^(١). لذلك كان أشد شيء تهجيناً للمروءة العالم الصلف، واللفقيه اتباع الهوى وقد خير سليمان بين الملك والمال والعلم فاختر العلم فأعطى المال والملك.

والسلطان لا يستطيع إلا بالأمناء والنصحاء. وهم لا يوجدون إلا مع المودة. والمودة لا تتم إلا بالمشاركة وليس بالاستئثار. ولما كانت أعمال السلطان كثيرة فإنه لا يمكن استرجاع الخصال المحموده في واحد. فعلى السلطان أن يكون عالماً بأمور الدنيا عن طريق من يستعين بهم ونخب لكل عمل من يعرفه بالنفاذ والأمانة والرأي والرقابة عليهم ومراجعتهم، وإحسان المحسن وعقاب المسيء. ولا يحارب ملكاً ملكاً يعتمد على المشاورة ولا يتبع هواه.

وأحق الناس بصحبة السلطان من صرفه عن عيوبه واحتمل ثقل نصائحه في حظوظه وليس من ساعده على أهوائه، وألهاه عن ذكر عاقبته. ولا يعيب مدح الملوك

(١) السابق ص ٩ / ١٤ / ١٧ / ٣٧ / ٥٧ / ٥٩ - ٦١ / ٧٤ / ٩٨ - ١٠٠ / ١٢١ / ١٦٩ / ١١٣.

لكثرة الممدوحية الذى هم أولى بالذم منهم للمدح. والمعارضة جزء من الدولة. فقد كلم رجل بعض السلاطين بغليظ الكلام. فلما أخبره السلطان أنه تجراً عليه قال له: لأنى كلمتك بعز اليأس بذل الطمع. ومن ذا الذى لم يصاحب السلطان ودامت سلامته؟ ولا ترد سطوة الملوك بمثل الذل والخضوع. وطاعة الملك فيما يوافق الحق، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. ثلاثة يلقون الجواب سريعاً. منهم الملك يأمر وينهى ويعطى ويقسم من خزانته. ومن أربعة أشياء تعمل فى حينها ويتقدم فيها الرجل المكابد لعدوه فى الذنب عن الملك قبل حضور الناس. ومن أربعة المال أحب إليهم من أنفسهم من يقترض مع الأمير الخارج للحرب (١).

وخليفة السلطان تطبيق الشريعة وتنفيذ القانون. فأكره شئ للملوك اللجوء إلى ترك السنة وألا تستج لهم الأمور إلا ببسط العقوبة. وعلى الملك أن يعمل بثلاث خصال: تأخير العقوبة عند سلطان الغضب، وتعجيل مكافآت المحسن، والأناة فيما يحدث. وفى تأخير العقوبة إمكان العفو، وفى تعجيل المكافأة بالإحسان المسارعة بالطاعة من الرعية والجند، وفى الأناة إفصاح الرأى وإيضاح الصواب. ولذة العقوبة يلحقها حميد العاقبة ولذة التشفى يلحقها ألم الذم والندامة. ومن خمسة أشياء تقبح بأهلها كذب القضاة. ومن ستة تشدد عشرتهم على معاشريهم، الملك القظ والقاضى المرتضى.

وعلى الملوك تأديب الرعية بعد التمييز والترتيب دون إماتة القلوب والإلحاح، وإقامة الرؤساء على الرؤساء، ألوف ومئات وعشرات، ولا يقل أعدار الخيانة والكتب. وإذا ما التزم السلاسل نفسه للتمسك بالشريعة وجعل رعيته لصنقاء له يملأ مدينته بالخبرلات العامة. وإذا جعل نفسه عبد للشهوة وجعل رعيته غولاً يملأ مدينته بالشرور. فإذا ما روعيت للثروة وللرياسة على موجب الشريعة رقت النفس إلى الكرامة الحقيقية وهما الحكمة والعدالة وليس البدن هو المكرم أو للصحيح أو القوى بل للمستعمل لجمالته وصحته وقوته على ما يفيد الأمن والسلامة طبقاً لمقتضى الشريعة. وكما يكبح العنان

(١) السابق ص ٥٢ / ٥٧ / ٧٢-٧٤ / ٩٥ / ١١٦ / ١٣٠ / ١٥٦ / ١٦٧ / ١٨٧ .

جماع الفرس كذلك تكبح الشريعة جماع النفس بتدبرها الحكمة. وكمال الملك وكمال العالم لا يرضيان بالاتحطاط^(١).

وسلطان ملوك الدنيا إنما هو على الأبدان لما ملكوا وعلى ما يبدو ومن ظواهر أمورهم. فأما نياتهم وما يغيب عنهم من أمورهم فلا سبيل لهم عليه لأنه غيب محجوب عنهم. فلا ينبغي للملوك أن يأخذوا الرعية إلا بما يظهر لهم منهم ويتزكون التظنى فإن التظنى يدعو إلى التهمة، والتهمة تدعو إلى البلايا. وعلى حسن كثرة الرعية يعلو شأن السلطان. السلطان لا يغلق بابيه في مواجهة الرعية. فلا يحتجب الوالى إلا لثلاث خصال: إما رجل عيبى يكره أن يطلع الناس على عيبه، وإما رجل مشتمل على سوءة يكره أن يرى الناس منه ذلك، وإما بخيل يكره أن يسأل.

والسياسة صنفان، وأغراضها اثنان، ولوازمها حالتان. أحد صنفى السياسة الإمامة من أجل تكميل الخليفة ولازمها نيل السعادة. والآخر التغلب من أجل استعباد الخليفة ولازمه الشقاء والمذمة^(٢).

والسلطان هو الذى يحقق مصالح الناس. فأفضل الملوك هو الذى يسوس بالخير ويقرر فى زمان ملكه العافية الشاملة. وأحق الناس بالملك أشدهم محبة لإصلاح الناس وأعلمهم بالتدبير ثم أشدهم سلطاناً على هواه وأقهرهم له. فالإفساد اتباع هوى النفس. وأنفع الملوك للرعية من عمل بالسنة المعروفة فيهم واستعمل خيارهم وحقق نماءهم ونفى العدو عن أرضه. وأسعدهم من ساس الناس فى الزمان الذى قدر لهم بالرخاء والخير المشاع. وإنما يصلح الملك إذا حسنت سياسته لرعيته، وكان ما يعلمهم أثر عنده من بلوغ هوى نفسه وطلب النفع للخاصة والعامة. وقد كان يوسف كثير الصوم وهو على خزائن

(١) السابق ص ١٣ / ٢٧ / ١٠٠ / ١٣٨ / ٣٥٧ - ٣٥٨ / ٣٦٤ - ٣٦٥.

(٢) السابق ص ٦٦ - ٤٧ / ٨٢ / ١٦٨ - ١٩٦ / ٣٦٠.

السياسة	الصنف	الغرض	اللازم
	الإمامة	تكميل الخليفة	نيل السعادة
	التغلب	استعباد الخليفة	نيل الشقاء

الأرض خشية أن يشيع وينسى الجائع. والكسب لا يكون إلا الكسب الطيب. وأفضل الملوك أرفهم بالرعية، وأعظمهم عفواً وأحرصهم على المعروف. وكان أحد الملوك إذا أراد محاربة ملك يبحث عن أخباره وأخبار رعيته ليعرف ثلاث خصال: ما يرد عليه من أمور رعيته هل هي على حقائقتها. وما ينبغي للملوك في رعيته أربع خصال: حسن ملاك سلطانهم، الحيلة من ورائهم، والقيام بسنتهم فيهم، والإحسان إلى عامتهم وإصلاحهم، وكف الظلم عنهم. ويجب على الملوك للرعية أن ينصفوهم وينصتوا لهم، ويؤمنوا سربهم، ويحرسوا ثغورهم، وعلى الرعية للملوك النصيحة والشكر^(١).

ويحق على الملوك أن يأخذوا للضعيف من القوى، وللغنى من الغنى بحصصهما من الحق، ونصيبهما من العدل، وأن يكونوا للضعيف والفقير أشد نظراً وبهم أشد لطفاً، وعن أمرهم أكثر حرصاً لأن القوى والغنى يمتنعان من أجل الظلم والغنى. أما الفقير والضعيف فإنما يكون امتناعهما بضر سلطانهما وقرتتهما بمعونته إياهما. وصلاح العباد وأمن البلاد بصلاح الإمام. فالتناس على دين ملوكهم. ولا يستصلح الملك رعيته وهو فاسد، ويرشدهم وهو غاو، ويهديهم وهو ضال. فصالح الغير بصلاح النفس. ولا تصلح الرعية إذا فسد أولوا الأمر. فالوالى من الرعية كالروح من الجسد. يصلح الأئمة المؤمنين بفضل قوتهم ولا يصلح المؤمنون الأئمة. وللسلطان العادل حق لا يصلح لخاصة ولا لعامة أمر إلا بأدائه. فالعادل حقيق بأن يخلص لهم النية والنصيحة ويبذل لهم الطاعة والمحبة، ويكنم سرهم، ويزين سيرتهم، ويذب باللسان واليد، ويتوخى مرضاتهم، والمواتاة لهم، وينار رأيهم وهواهم على رأيه وهواه. فإذا وجد الرئيس ذو الخصال الحسنة فلا ضير أن توضع في أيديه أموال الرعية وأملكها ليديرها لهم. وينبغي لذوى السلطان أن يعلموا أنهم لا يقدر أن تتلق العامة بغيرهم وألا يبصر الناس ما فيهم. وليكن اجتهدهم في ألا يكون لهم عيب ولا سبيل للقاله عليهم^(٢).

وعبرة الملوك لأنفسهم. وليس للسوقة التفكير في سرعة انقضاء دولتهم وقصر أعمارهم أو إفراط رغبتهم في الأوزار. والتمتع والتلذذ بالملوك أقيح للملوك من السوقة

(١) السابق ص ٣٥ / ٤٢ / ٤٦ / ٤٩ / ٥٦ / ١٦٣ - ١٦٤ / ١٨٧.

(٢) السابق ٤٦ - ٤٧ / ١٦٦ / ١٩١ / ٢٢٠.

نظراً لقصر العمر. وقد يؤيد الله بالملك الغشوم والأهواء المختلفة أركان دولته حتى تتم وتتقضى حداثتها مثل دول التتار والمغول والترك .

تقوم الدولة إذا قام الملك بإثارة القلوب المظلمة في الصدور الخربة، وكنز فيها الحكمة، وألمات فيها الجهالة. وتتهار الدولة إذا ما استل الجهل سيفه وأفلت من أسره، وعز بعد ذله، وفقر الحرص فاه متوقداً متضرماً مستولياً غالباً فتغلب خساءة الناس ودهماؤهم على الحكماء والعلماء الصالحين فأذلّوهم وهجروهم. وانقطعت مواد العقول وضمرت النفوس ودخل الحزن عليها فتتبدد الدولة ويعيش الناس في كدر .

والدولة فانية يجرى عليها قانون الحياة والموت مثل كل الظواهر الإنسانية فقد نظر بعض الملوك إلى ملكه فأعجبه فقال: انه لملك لولا أنه بعده لهلك، وأنه لسرور لولا أنه غرور، وأنه ليوم لو كان يوثق له بغداد. وقال رجل لوزير: لئن أصبحت الدنيا بك مشغولة لتمسين منك فارغة. ولا تمييز بين عظام الملوك وعظام العبيد. الملك في الدنيا والآخرة، بالزهد في الدنيا الفانية، والتمسك بالآخرة الباقية. والمفتون في الدنيا لا يسمع صيحة الآخرة. والملك الأعظم هو أن يغلب الإنسان شهواته. والمرء حقيق أن يطلب الحكمة وينبتها في نفسه أولاً ولا يغيره الغنى والسلطان^(١). ويزول السلطان بطول العداوة. وتتهار الدولة إذا كان الغنى في أنذال القوم وليس في أشرافهم^(٢).

ب- واجبات الرعية تجاه السلطان. إذا كان مسكويه قد ركز على واجبات السلطان فإن ابن المقفع والفارابي قد أبرزوا واجبات الرعية تجاه السلطان في خمس وعشرين وصية للأمان من السلطان واتقاء شره وليس للسلطان كي يكون سلطاناً عادلاً. ففي مقابل الواجبات هناك الحقوق. واجبات السلطان عليه تجاه الرعية، وحقوق السلطان له من الرعية. وإذا كانت واجبات السلطان قد جمعها مسكويه من حكماء فارس وملوكهم فإن كيفية معاملة السلطان من آداب ابن المقفع ووصاياه وكلها لاتقاء شره وعدم التعرض للهلاك لمعارضته. فهي نصائح تعايشية وظيفية ليس فيها مقاومة السلطان الجائر.

(١) السابق ص ٦٠ / ١١٩ / ١٣٢ / ١٥٧ / ١٦٢ / ١٧٠ / ٢١١ / ٢١٤ / ٢٦٥ / ٢٧٩ / ٢٨١.

(٢) السابق ص ١٨٧ / ٢٠٧.

وتحتاج الولاية إلى ثلاث خصال، رضا الرب فوق الجميع ورضا السلطان فوق الرعية، ورضا الصالحين تحته. ويحرص السلطان على معرفة أخبار عماله فإن المسئء يستمد خبرته منه قبل أن توقع العقوبة عليه، والمحسن يستبشر بصلحه قبل أن يأتيه معروفة. والملوك ثلاثة أنواع: ملك دين، وملك حزم، وملك هوى. ملك الدين يقيم الحق فى أهله ويستسلم الناس لحكمه. وملك الحزم يقوم بالأمر دون أن يسلم من الطعن والسخط. أما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر^(١). وعلى السلطان فتح أبوابه لرعيته حتى تحصل على خيراتها وتأمين من خوفها .

ومن أخطر الأمور على السلطان الرجل الثانى فى الحكم، وزير السلطان أو واليه أو أحد عماله استناداً إلى ألعيب الحاشية ومؤمرات البلاط وأهواء البشر وفى مقدمتها الحسد والغيرة والطمع كما حدث فى نكبة البرامكة. والطريق إلى مواجهة ذلك ليس بالغضب أو الانتقام بل بالوقار والحلم والحجة. والحلم أفضل من الغلبة والقوة. ولا يجوز شتم الوالى أو الاغلاظ له.

ومن النصائح أيضاً عدم مخالفة السلطان، واتباعه على هواه وقهر النفس إذا أرادت المخالفة، فالسلطان هو السلطان وهو ما يتعارض مع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن أعظم شهادة قوله حق فى وجه سلطان جائر. ولا يزيد الود إذا صار الأخ سلطاناً، فأخلاق السلاطين تتغير بعد الولاية. وتستمر النصائح على هذا النحو كنوع من العلاقات العامة ليس على السلطان وحده بل مع كل الناس مثل الاحتراز من الغضب، وضرورة الجهاد، والصبر، والسخاء، وحب العلم، ومعرفة العدو. كما يستحيل إخفاء شئ على السلطان إذ يبدو كل شئ على الوجه كما هو معروف فى علم الفراسة^(٢).

ولا يجوز للوالى مدح السلطان حتى لا يعرفه الناس كمداخ للسلطان ويغتبنونه. وإن قابل المدح كالمداخ نفسه. والممدوح الحقيقى هو الراد للمدح والرافض له. كما أنه يحب قبول مدح الآخرين للإنسان حتى ولو كان على حق، إظهار المحاسن اتقاء لحسد

(١) السابق من ٢٩٥-٢٩٨.

(٢) السابق من ٢٩٦/٣٠٤-٣٠٥/٣٠٨-٣٠٩/٣١٢ .

الوالى وعدم إبعاد الأنظار عنه. فالكرامة الحقيقية ليست من علائق المدح. كما يجب مجانية المسخوط عليه والظنين عند السلطان، وعدم الاجتماع به فى منزل واحد أو الثناء عليه حتى لا يبلغ ذلك السلطان وحتى يسكن غضبه. بل يجب الرفق بنظرء الإنسان من وزراء السلطان وأخلائه واتخاذهم خلاناً أفضل من أن يظهر الإنسان بفضل أكثر منهم فيحسدونه ويحقدون عليه أو بفضل أقل منهم فيحتقرونه ويستصغرونه أو مثلهم فينافسونه. ولا يجوز الهمس فى أذن أحد عند السلطان حتى لا يظن سوءاً فالأسرار معلنة. وإذا سئل الوالى أحداً فلا يجوز للإنسان أن يجيب بدلاً عنه استخفافاً بالمسؤول والسائل. وإذا سئل الإنسان فلا تواتب فى الإجابة ولا تكلف ولا صنعة إنما التؤدة والعلم والمعرفة بأقوال الآخرين، الأصدقاء والخصوم. ومن الأفضل عدم التعبير عن الخلاف فى الراى مع الآخرين فى حضرة الوالى والبروز عليهم حتى لا تثار كراهيتهم وحسدهم علناً لم سراً. ولا تجب المنافسة على القرب من السلطان ولا المنافسة مع المقربين إليه للإحلال محلهم لفضل فى النفس ونقص فى الغير^(١).

وفى نفس الوقت لا تجوز معاتبة السلطان إن ابتلى أحد بصحبته دون أن يحدث الاستئناس أية غفلة أو تهاون. إذا جعل السلطان صاحبه أخاً فيجعله الأخ سيداً، زيادة بزيادة. وإذا كان الصاحب من الإنسان بمنزلة ثقة من الوالى فالعدل معه دون ملق أو كثرة الدعاء له. أما إذا كان الوالى لا يبغي الرعية ولا يريد صلاحها فإما أن يميل الصاحب مع الوالى ضد الرعية وهو هلاك للدين وللمروءة وإما الميل إلى الرعية ضد الوالى وهذا هلاك للنفس. ولا حيلة حينئذ للصاحب إلا الموت أو الهرب. وإن كان للوالى سيئ الخلق والسيره فلا سبيل إلا الفراق الجميل. وإن صابر الصاحب فعليه أن يعرف محاسن الوالى ومساوئه وإبراز المحاسن وتجنب المساوئ بحذر شديد، حتى تقوى المحاسن وتكثر وتضعف المساوئ وتقل. والأفضل البقاء مع الوالى على الطيبة والقطرة لأن الناس تلقاه على التصنع ويتقرب إليه الأسرار دون الأخيار، فيعتبر الخونة أمناء أو الغدرة أوفياء ويجهل أهل الفضل الذين يبعدون أنفسهم عن أهل التصنع والتجهل. ومن الأفضل عدم تذكير الوالى بحقوق الأصحاب عنده دون التنازل عنها. وتجديد النصيحة له

(١) السابق من ٢٩٥ / ٣٠٤ - ٣٠٧ / ٣٦٠ .

أفضل وسيلة للتذكير بها فيتذكر الوالى الغائب بالشاهد. ولا داعى لعبت الوالى حتى لا يتعنّت ويقسو قلبه وينكر حسنات الصاحب الماضية (١).

وإذا ابتلت الرعية بالسلطان فعليها التعوذ بالعلماء. وإذا تقلد أحد أمراً من أمور السلطان فيما أن ينقذها تبريراً أو يعارضها نقداً وهو مسخر لخدمة الله وخدمة السلطان. والأولى عدم الهلاك. وأهل الدين والفضل هم الإخوان والأعوان والبطانة وأهل الثقة. واستشارة الآخرين ليس للفخر بل للانتفاع. فصاحب الفضل والذكى لا ينفرد برأيه. ولا بد من الصبر على من خالف السلطان من ذوى النصيحة وتحمل مرارة قولهم وعزلهم. ولا يقوم بذلك إلا ذوى العقل والسن حتى لا يجترئ على السلطان سفيه. ولا يجب الاعتراض بسلطان عند "جدة دولة" قد استقام أمره بغير رأى، وأعوان اجتروا بغير فضيلة، وعمل نجح بغير حزم. فالأمر الجديد له حلاوة فى النفس ويستتب أمره بلا عناء، ويتم الأمور على أصولها وقواعدها. وإن لم تتم قام الوالى بتحقيقها بجمع السفلة مع الحذر من الكريم الجائع واللئيم الشبعان. فإنما يصول الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع (٢).

ولا يستطيع أحد إرضاء جميع الناس، والأولى إرضاء المخالفين، وإرضاء أهل الجور والضلالة والجهالة. يكفى رضا الأخيار وذوى العقل. ويمكن تعهد الصلحاء بالمصافاة، والأكفاء بالمكارمة، وذوى التتصل بالمغفرة، وذوى الاعتراف بالرافة، والجيران بالزقة، والأقرباء بالمواساة، والمصاحبين بالمساعدة، والرؤساء بالتفريط، والملوك بالطاعة، والمعيشة بالإصلاح (٣).

ولا يجوز أن يشغل الإنسان نفسه إلا بعظائم الأمور حتى لا يصغر شأنه ويضيع الكبير. فالوقت لا يتسع لكل شئ. لذلك يحسن تفرغه للمهم. والمال لا يتسع لكل شئ فيصرف فى الأهم. والكرامة يحافظ عليها فى الأمور الجسيمة. ولا يجوز الغضب حتى لا يعبس وجه الإنسان فى وجه الناس وتخرج منه الألفاظ السيئة لمن لا ذنب له. ثم

(١) السابق من ٢٩٩.

(٢) السابق من ٢٩٤ - ٢٩٩.

(٣) السابق من ٢٩٦ / ٣٦٠ - ٣٦١.

يرضى على من ليس أهلاً للرضا، ويعطى من لا يستحق. ولا يحسد الوالى من دونه لأنه أقل عزاً من السوقة الذين يحسدون من فوقهم. والناس على دين الوالى إلا من نافقه الوالى بالبر والمروءة حتى لا يقع الفجور والدناءة فى مملكته. والإنسان الكامل لا يجب أن يكون قريباً من السلطان بل من الملك الذى يهب الملك. وحيث يوجد الملك يوجد الملك. ولا ينعكس الأمر وهى كلها وسائل تربوية أخلاقية للسياسة عن الطريق الدخول إلى نفس الوالى أو السلطان وتقوية الفضائل على الرذائل دون قوانين أو مؤسسات. وهى أقرب إلى العلاقات العامة منها إلى الحقوق والواجبات الموضوعية بصيغ قانونية ودستورية. هى أقرب إلى "لغات الشخصية وكيفية التعامل مع الآخرين طبقاً للكياسة والظننة والنوق".

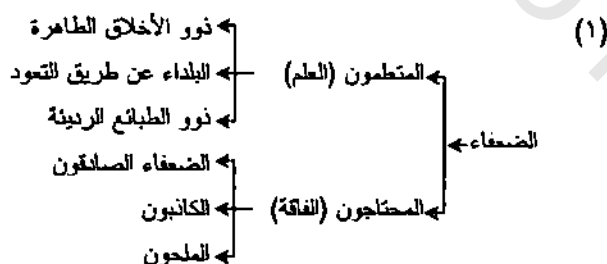
ويذكر مسكر^٤ الفارابى ويعرض آراءه فى السياسة طبقاً لتقسيم الناس إلى طبقات ثلاث، العليا والوسطى والدنيا، وكيفية تعامل الإنسان مع الرؤساء ومع الأكفاء ومع المسؤولين، وطبقاً لطول الخدمة وقصرها، طول الوقت أو بعض الوقت أو بعيداً عنه كلية. وتبدو فيه أيضاً أخلاق الطاعة طاعة المرؤوسين للرؤساء، وتبعية الرعية للرعى. الرئيس كالمسئول المنحدر، قوة غاشمة لا يمكن إيقافها. فالتعامل معها بالتكيف والملاطفة. فكل شئ فى العالم له وجهان، جميل وقبيح. فالمسئول المنحدر يفيد ويدمر، والناصح للسلطان كيف يجعل مفيداً وليس مدمراً. وإن اعترض على شئ فلا يظهر ذلك عليه. فالسلططين لا يحبون الاعتراض عليهم، بل الموافقة والتأييد وطبقاً لطباع كل الناس. ويمكن أن يخبر الرئيس بشئ دون الأمر به، فشتان بين الخبر والإقرار. وإذا ظهر القبيح ينسبه الناصح إلى نفسه وليس إلى الرئيس. كما يجب على الرعية التلطف فى نيل المنافع من الرؤساء وليس منعها منعاً باتاً. ولا يجب السؤال والإلحاح فالشره يؤدى إلى الرقص. ويمكن طلب أسباب المنافع وليس المنافع حتى تكون المنافع مستمرة ودائمة. واستدراج الرئيس لتحقيق المنافع العامة نوع من الذكاء. ولا يجب مزاحمة الرئيس فى ممتلكاته وفى نفس الوقت الحذر من امتلاك كل شئ. فإذا مل الرئيس من الفصحاء فلا تجب الشكاية أو إظهار الضيق منه، ووضع اللوم على النفس وليس عليه^(١).

(١) السابق ص ٣٣٢ - ٢٣٥.

والسؤال هو: أين النصيحة في هذا كله إذا كان المقصود هو تحسين كل ما يفعله السلطان ويقول؟ وهل النصيحة تبرير أفعال السلطان وقراراته وحسن العلاقة معه على حساب المصالح العامة؟ هل هناك خاصة للرؤساء دون غيرهم أم أن التعامل مع الناس بالحق سلطاناً كان أم من الرعية؟ وكيف يكون ذلك مع استهجان مدح السلاطين والتقرب إليهم؟ إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يقتضى الوقوف في مواجهة السلطان، وأعظم شهادة كلمة حق في وجه إمام جائر. وواضح أن الأمر كله مزاج شخصي، علاقات عامة بين الرعية والسلطان والنصحاء دون ما حاجة إلى مؤسسات قضائية ودستورية ونيابية وإعلامية تقوم بهذا الدور. واضح أن الفكر السياسي عند الفقهاء أفضل بكثير من الفكر السياسي عند الحكماء. فالأول يقوم على القانون والثاني على المزاج. الأول موضوعي والثاني شخصي. الأول دستوري والثاني علاقات عامة. الأول فيه ثورة وغضب والثاني به تبرير ورضا.

أما التعامل مع الأكفاء فإن الأكفاء ثلاثة مستويات: الأصنفاء والأعداء والوسط بين الاثنين. فالأصنفاء المخلصون تجب ملاقتهم مثل السلطان. والأصنفاء في الظاهر فحسب تجب مجاملتهم ومراعاتهم عند الحاجة. أما الأعداء فإنه يجب الاحتراس من نوى الأضغان والأحقاد، وعدم إغاطة الحساد وإثارتهم. أما الوسط بين الاثنين فالنصحاء منهم يجب الاستماع إليهم، والصالحاء يجب منحهم، والفقهاء الحلم معهم، وأهل الكبر معاملتهم بالمثل.

أما التعامل مع من دونه من الناس فهم الضعفاء. وهم إما المتعلمون المشتغلون بالعلم، نوى الأخلاق الطاهرة أو البداء النقلة للعلم أو نوى الطبائع الرديئة، وإما المحتاجون أصفاء الفاقة، ومنهم للضعفاء الصادقون أو الكاذبون أو الملحون^(١).



وأفضل تعامل هو التعامل مع النفس، رجوع المرأ. إلى خاصة أحواله قبل التعامل مع الآخر. ويتم إصلاح النفس من حب المال عن طريق فضيلة السخاء، ومن الجاه بدافع اللذات. والمال والجاه قرينان ولكن لذة الجاه أولى من لذة المال. ويأتى المال من عطايا السلطان أكثر مما يأتى من الكسب والعمل اليدوى، مال الهبات والعطايا وليس مال الاستحقاق. وطريقه ليس الدباغة والكناسة والتجارات الخسيسة والقمار. وهى وجوه لا يقرب منها ذو المروءة^(١).

وهناك طريقه لتحصيل الأسرار وتحسينها من كل من هذه الطوائف الثلاث. تحصل الأسرار من الرؤساء بالثقة والاستدراج، ومن الأكفاء بالحوار والجدال، ومن المرؤسين بالترغيب والترهيب. ثم تحصن الأسرار من كتمانها وعدم إذاعتها من أجل سلامة الدولة وتخزينها مع أخبار السابقين من أجل الاستفادة بها ضمن أحاديث السياسة أى بداية تكون الوعي التاريخى. وتعرف الأسرار من الأمور الظاهرة الباطنة، الظاهرة ما يبدو على الرئيس من العزم والإعداد والأهمية فى الأمور التى كان فيها من قبل مقصراً، وتقريب المجتمعات وتجميع المفترقات والإمساك عن أمور سابقة، وإدناء القاصى وإقصاء الدانى، والتطلع إلى الأخبار وسماع الأحاديث. والأمور الباطنة مثل استطلاع أحوال البطانة والخدم وإمساكهم عن الأمور واستعجال ما كانوا ممسكين عنه. فهم أقرب إلى الرئيس وأعوانه، وسماع حديث العجم والصبيان والجهال والنساء وهم قليلو التمييز والعقول. وليس لديهم حصافة ولا عندهم رزانة. وإذا كثرت الثروة فإنها تخرج ما فى الضمائر^(٢). فهذا هو علم الفراسة السياسية. الغاية منه جمع المعلومات كما هو الحال فى مراكز الاستخبارات الدولية وإدارات المخابرات العامة^(٣).

ويمكن الظفر على الأعداء عن طريق العلو على العدو فى كل فضيلة تخصه إن كان من أهل الفضل، وعلم العدو بذلك يضعفه، وإحصاء عيوبه ومثالبه ونشرها على الناس بصديق، ومعرفة أخلاق العدو وطباعه لمقابلة كل واحد منها بما يناقضه، ومعرفة

(١) السابق ص ٣٣٥ - ٢٣٩.

(٢) السابق ص ٣٤١ - ٣٤٢.

(٣) Political Physiognomy.

ما يقلقه ويضجره وأسباب ذلك. والدافع على ذلك طلب السلامة منه ومن مكانه مع طلب النكاية فيه. والأرب هو معرفة العورات وطلب العثرات والتطلع إلى ما عند الناس، والتباعد عن الناس حتى لا يعرفوا ما عند المرأ، والقصد بغير المقصود، والبداية بالعتاء من الأدنى فالأدنى إلى الأعلى فالأعلى، وتحصيل الأصعب ثم الأخف، وعدم إظهار الغضب ولا الرضا بإفراط، والمطل إذا تعقبه الإنجاح، والصبر حتى الظفر بالفرصة، والتقديم للأمور، والحديث بلسان الغير. فهي أقرب إلى الحملات الإعلامية ضد العدو والتوجيه المعنوى فى الدخلى، مثل الحرب النفسية والدعائية^(١).

جـ- واجبات المرأة الجميلة. ومن الصعب معرفة هل المرأة جميلة أو بلغة العصر سيدة المجتمع أو السيدة الأولى أحد أسباب قيام الدول وسقوطها، وهل هى خير أم شر، وهل هى قريبة السلطان أم بعيدة عنه؟ المرأة رمز للجنس فى الثلاث المقتس/المحرم، الدين والسلطة والجنس كأبعاد للوعى الإنسانى أو مشخصة فى الله والسلطان والمرأة. وتجتمع على ذلك حكم الهند وفارس والعرب واليونان. وهى إلى حجم الهند أقرب. فقد شغلت المرأة الذهن الهندى لدرجة عبادة المرأة ممثلة فى الفرج طبقاً لعبادة مصادر الحياة، البقرة للحيوان، والمرأة للإنسان. ولا حياة فى الدين. لذلك كانت حكم النساء أقرب إلى الأدب المكشوف. ولا تذكر المرأة بمفردها فى مثل سائر أو حكمة شائعة إلا نادراً وإنما تذكر مع الله أو السلطان، كأحد الأطراف فى العلاقات الإنسانية.

تبدو المرأة كموضوع جنسى قبل أن تكون فرداً فى علاقات اجتماعية خيره أو شريرة. وفى طب الهند مثلاً لا يجمع الرجل وهو مشدود الوسط، ولا مربوط العضو، ولا مهموم، ولا مشغول الفكر بشيء من الأمور، ولا سكران ولا غضبان. فالجماع فى حاجة إلى حرية بدنية وتركيز ذهنى. والمرأة هى التى تطلب الرجل أكثر مما يطلب الرجل المرأة. حاجتها إلى الجنس أكثر من حاجته. فمن ثلاثة يلقون الجواب سريعاً المرأة الجميلة التى تدل على من يهواها من ذوى الثروة. ومن النادر أن يوجد رجل جاور النساء ولم يفتن. ومن علامات الرقاعة مداومة عشرة النساء. ومن ثلاثة ينبغى أن يحزنوا

(١) السابق ص ٢٤٢ .

من يتزوج المرأة الحسناء ذات الحسب ولا يستطيع أن يكون معها كما ينبغي فلا تزال تفحش عليه. فالجنس عند المرأة مقدم على الفضيلة. ومن ثلاثة يضيعون ما آتاهم الله الرجل التاجر الذي يتزوج المرأة الحسناء الشابة ثم يغترب عنها في أسفاره وتجارته. ومن ثلاثة يجنون على أنفسهم ويؤلمون أبدانهم الشيخ الكبير الفاني ينكح المرأة الجميلة فلا تزال تسبه وتتمتع بكل شاب أجمل من الآخر وربما سعت في هلاكه. ومن أربعة ينبغي أن يسخر منهم ويهزأ بهم المرأة التي تزعم أنها بكر عذراء وهى ثيبة غير طاهرة ولا ممتعة على الرجال فتوهم أنها بكر وتعلم كيف هى (١).

ومن أربعة أشياء لا يكاد أحد يقدر عليها المرأة التي قد ذاقَت الأزواج وتمتعت وتطعمت الرجال أن ترضى برجل واحد. ومن سبعة لا ينامون صاحب الزوجة الفاسدة. ومن عشرة لا يزالون فى سخط الناس البخيل بالجماع. وما دامت المرأة موضوعاً جنسياً فإن مهمة الرجل إشباعها. وإن لم تشغل المرأة فإن الدواهى فى الفراغ. ولم يكن هذا التصور عيباً عند القدماء، فالنساء عورات عند عمر بن الخطاب يجب سترهن بالبيوت، ومدواة ضعفن بالسكوت، وتخويفن بالضرب، وإبعادهن عن الرجال، وعدم إسكانهن بالغرف أو تعليمهن الكتابة، وتعويدهم العرى حتى لا يخرجن ويلزمن بيوتهن، ورفض طلباتهن فإن الاستجابة لهن تخريهن بالأسئلة.

ويجب حجاب المرأة وحجبهن حتى تكف أبصارهن. فالحجاب خير من الارتياح. وليس خروجهن أشد من دخول من لا يوثق به عليهن. ومن الأفضل ألا يعرفن أحداً. ولا يجب تملك المرأة من أمر يجاوز نفسها فإن ذلك أنعم لبالها وأدوم لحالها. المرأة ريحانة وليست قهرمانة. فلا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تجز لها الشفاعة. ولا يجب إطالة الخلوة عندهن حتى لا يمتلكن أحداً والغيرة فى غير موضعها تجعل الصحيحة سقيمة.

ومن ضمن أربعين ألف نصيحة يتم اختيار أربع فقط "لا تتقن بامرأة" مع عدم تحميل المعدة فوق طاقتها، وحفظ اللسان، وأخذ ما يكفى. عدم الثقة بالنساء وعدم إفشاء السر إليهن من حكم ازرباد. ولا يجوز مشاوره النساء فرأيهن أفن، وعزمهن وهن. ومن

(١) السابق من ٥٧ / ٩١ / ٩٣ / ٩٥ / ٩٧ / ١٣٠ / ١٥٨ / ١٧٤ / ١٧٧.

علاقات الرقاعة مداومة عشرة النساء مع الدالة على السلطان والقصص على الكراسى. ومن خصال الملوك والأشراف مجالسة الأحداث والنساء ومشاورتهن مع التعظيم وترك ما يحتاج إليه من الأمور فيما يعمل باليد ويحضر بالنفس. ومن أرفع الأمور في الدين وأنهكها للجسد أنفها للمال وأخسرهما للعقل وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء والتوق إلى ما ليس عندهن عند غيرهن حتى ولو كن دميمات. وهذا هو الحق والشقاء. ومن ثم يجب ضبط النفس وحمايتها من الهوى. والنساء خدعة، ظاهر فارغ وباطن قبيح.

ومن أشد الأشياء تهجيناً للمروءة قلة الحياء للنساء، مع البغى للشجاع والكنب لعامة النساء. ومن خمسة أشياء قبيحة بذاعة للنساء (١).

ومن ألزم الأذى الزوجة غير الموافقة مع الولد السوى. والمرأة السوء تشبه الربة والعدو والسارق. والمرأة التي تتزين لتذهب لترى المدينة فإنها في الحقيقة تريد المدينة أن تنظر إليها كما لاحظ سقراط. المرأة ميدان العذاب والغم والحسرة والألم والوجع كما هو الحال في لوح قايس. فالمرأة التي بيدها سوط تدل على العقوبة وسوط العذاب. والمرأة التي دلت رأسها بين ركبتيها تدل على الغم والحسرة. والمرأة الواشية التي تنتف شعرها تدل على الألم والحسرة وشدة الوجع. والمرأتان الواقفتان بالقرب من المتسلتين الفقيرتين إحداهما تدل على الحزن والويل والعويل، والأخرى تدل على الحزن الطويل. والمرأة الواقفة عليها سيماء الجلالة والبيئة الجميلة تسمى عند الجمهور الأندب، وهي ليست أدباً مقابل أدب زورا (٢).

ومع ذلك، هناك صورة إيجابية للمرأة. فالمرأة الخيرة هي التي لا يدل ظاهرها على باطنها. فقد تتزين المرأة لكنها معلقة بما تمتاز به من الشرف الأبدى وهي الحكمة والعدالة. وعق المرأة ضرورى في الدنيا. ومن يعق المرأة حين يأتيه الموت يعصى الله مرتين للبلخل بالشئ وهو في يده، والإسراف فيه إذا كان في يد غيره. وقد تبلغ المرأة

(١) السابق ١٣ / ٢٦ / ٣٧ / ١٥٨ / ١٧١ / ١٧٧ / ٣١٨ - ٣١٩.

(٢) السابق ص ٣٤ / ٤٠ / ٢١٢ / ٢٣٩ - ٢٤١.

درجة عالية من الزهد والعبادة والتصوف مثل رابعة العدوية ومُعَاذَةُ العدوية، يقمن بالليل، وسعيدة بنت زيد التي ترى أن من فكر في أنعم الله ثم فكر في تقصيره في الشكر استحيا من السؤال. ولم كلثوم العابدة تشغلها رؤية القادر عن رؤية القدرة^(١).

وأقرب الأشياء للعبد الزوجة الموافقة مع الولد النجيب. ومن أربعة يحسنون أعمالهم وحكمتهم المرأة التي تصنع الخير بولد السوء. ومما يكرم به النساء على بعولهن الكفاية والعفة والهيبة لأزواجهن وحسن التبعل وقلة المعاتبة والإحجام في الغيرة. وخير القرناء عند المسكنة المرأة الصالحة. تشبه الوالدة والأخت والصديق والأمة وتقبل سوء خلق. فأسوأ منه من جعله كذلك. وزواج الجميلة بالميم يؤدي بهما إلى الجنة لأنه شكر عندما أعطى وهي صبرت، والشاكر والصابر في الجنة. ومن أربعة أشياء ينبغي للكريم أن ينذر فيها النذور حتى لا تزول عنهم المرأة العاقلة المستجيبة لزوجها الموافقة له. وفي النحو يقال تزوجت امرأة وليس تزوجت بامرأة فالزواج اقتران وازدواج وليس مجروراً بحرف جر ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ وقد اكتفى الرجل بزوجة واحد ولا يمد عينه إلى حرمة أخرى عاملاً بالسنة رافضاً سيرة الفساق. ومن خمسة مفرطين في خمسة أشياء فهم أبدأ نادمون، المفارق للزوجة الصالحة إذا ابتلى بالطالحة. والعجلة محمودة في الكريمة إذا خطبها كفؤها وزفها^(٢).

٢- التاريخ الاجتماعي. والعجيب أن الذي عُرف بأنه مؤسس فلسفة التاريخ في الحضارة الإسلامية ليس حكيماً بل مؤرخاً في مقنمة نظرية في علم التاريخ الذي هو علم العمران أي التاريخ البشري^(٣). فقد تأسست فلسفة التاريخ الانساني خارج علوم الحكمة. فإذا كان التاريخ كما هو الحال عند البيروفي في "الآثار الباقية من القرون الخالية" والجغرافيا كما هو الحال في بعض رسائل اخوان الصفا أي العلوم الإنسانية جزءاً من

(١) السابق ص ١٣٧ - ١٣٨ / ١٤٥ - ٣٦٠ - ٣٦١.

(٢) السابق ص ٣٤ / ٣٩ - ٤٠ / ٩٤ - ١١٨ / ١٣١ / ١٣٦ / ١٣٩ - ١٤٠ / ١٧٩.

(٣) المقنمة بعنوان "في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط ونكر شيء من أسبابها"، المقنمة ص ١ - ٣٤.

علوم الحكمة فإن ابن خلدون بتأسيسه علم التاريخ إنما قد ساهم في أضعف جزء في علوم الحكمة وهو ليس حكيماً.

بل إن ابن خلدون له موقف معاد للحكمة كما هو الحال عند الفقهاء المتأخرين مثل ابن الصلاح، في فتاويه الشهيرة ضد الفلسفة. فقد كتب ابن خلدون فصلاً في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها^(١). ولا يختلف عن الغزالي في شيء. وإذا كان المعتز هم أقرب الفرق إلى الحكماء لقولهم بالتأويل وإعمالهم العقل فإن ابن خلدون أشعرى حتى النخاع، معاد للعقل وإن لم يكن معادياً للتجربة والملاحظة.

وقد حدد ابن خلدون طبقاً لعنوان المقدمة أهدافاً أربعة لها هي:

أ- في فضل علم التاريخ دفاعاً عنه ضد ذمه، وكما هو معروف من كتاب "التوبيخ لمن ذم التاريخ" للسخاوي باعتبار أنه علم رواية وليس علم دراية، علم الأمم الماضية والأقرب إلى القصص منه إلى العلم.

ب- تحقيق مذاهبه لأن هناك عدة تصورات للتاريخ، التاريخ الجغرافي، والتاريخ البشري، والتاريخ البدوي، والتاريخ الحضري، وتاريخ العمران.

ج- مغالط المؤرخين في المناهج والروايات الموضوعية والصراع بين الرواية والملاحظة، بين السمع والبصر، بين الخبر والرؤية، بين المعرفة والتحقق.

د- معرفة أسباب هذه الأخطاء من أجل وضع مناهج عملية دقيقة لكتابة التاريخ^(٢).

(١) المقدمة ص ٥١٤ - ٥١٩ .

(٢) بالرغم من أهمية "تجارب الأمم" لمسكويه إلا أنه لا يحتوى على فلسفة في التاريخ كما هو الحال في المقدمة وأقرب إلى الحوليات بالرغم من أن مسكويه من الحكماء وابن خلدون مجرد مؤرخ. لذلك اكتفينا بتحليل المقدمة كنموذج لفلسفات التاريخ وأحد عناصرها. انظر أيضاً دراستنا: من الاجتماع والتاريخ إلى السياسة والأخلاق، دراسة مقارنة بين "مقدمة" ابن خلدون "وبدائع السلك" في طبائع الملك لابن الأزرقي، هموم الفكر والوطن ج١ التراث والعصر والحداثة ص ٢٣٦ - ٣٤٠.

أ- فلسفة التاريخ. وموضوع الكتاب الأول هو موضوع المقدمة كلها نظراً لأن الكتب التالية هي في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر وعنوانها "فى طبيعة العمران فى الخليفة، وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب" (١). فهى تضم ستة موضوعات لكل منها باب على النحو التالى:

أ- فى طبيعة العمران فى الخليفة وتتضمن النظرية الجغرافية الشهيرة طبقاً لأقاليم الأرض السبعة وأثارها على حياة البشر (الباب الأول).

ب- ما يعرض للعمران من حياة البدو (الباب الثانى) والحضر (الباب الرابع)، والتغلب (الباب الثالث)، والكسب والمعاش والصنائع (الباب الخامس)، والعلوم (الباب السادس). وذروتها الدولة، الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية. فالدولة نزوة العمران قبلها البدو وبعدها الحضر. وفى الدولة تبدأ الحياة الاجتماعية والعلمية (٢). والغاية من ذلك كله الاعتبار كما هو واضح فى العنوان "العبر" وهو التوجه القرأنى فى قصص الأنبياء "إن فى ذلك لعبرة" (٣).

ولا توجد فلسفة مباشرة فى التاريخ إلا على نحو غير مباشر. ويمكن تجميع عناصرها المباشرة التى يذكر فيها لفظ التاريخ مضافاً إلى علم أو فن. فالتعنوان الأول "فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط وذكر شئ من أسبابها"، وهو عنوان مقدمة الكتاب الأول أى مقدمة المقدمة. وهى المرة الوحيدة التى ظهر فيها لفظ التاريخ مضاف إلى علم وليس إلى فلسفة. ويسميه أيضاً "فن التاريخ".

(١) الكتاب الثانى فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدأ الخليفة إلى هذا العهد وفيه من الاماع ببعض من عاصرهم من الأمم والمشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبنى إسرائيل والقيط واليونان والروم والترك والإفرنجة. والكتاب الثالث فى أخبار البربر ومواليهم من زفانة وذكر أوليتهم وأحبالهم وما كان بديار المغرب خاصة من الملك والدول، المقدمة ص ٦.

(٢) لذلك كان التقاسب الكمى بين الأبواب الستة كآلاتى: الدولة (١٩٠ ص)، العلم (١٥٠)، الجغرافيا البشرية (٨٠)، المعاش (٥٠)، الحضر (٤٠)، البدو (٣٥).

(٣) كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر.

وعيب المؤرخين القدماء هو جمع الأخبار وخلطها بالسائس والروايات الكاذبة والأخبار المبتدعة. واتبعه المؤرخون اللاحقون فوقعوا فى الغلط والوهم. لذلك وجب التحقق من صدق الرواية قبل استعمالها كمصادر للمعرفة التاريخية. ويتم ذلك عن طريق معرفة طبائع العمران وقوانين التاريخ أى التحقق من صدق الرواية بالتجربة والمشاهدة. ومن ثم يتحول التاريخ من فن إلى علم، ومن هواية إلى فهم دقيق. كما يمكن ذلك عن طريق معرفة العلل والأسباب، فعلم التاريخ يدرس الظواهر الاجتماعية المترابطة عبر الزمان لمعرفة قوانين تطورها كما يدرس علم الطبيعة الظاهر الطبيعية لمعرفة أسبابها. فالتاريخ، وموضوعه العمران، علم طبيعى لا فرق إذن بين التاريخ كعلم إنسانى والطبيعة كعلم طبيعى. العلم واحد من حيث المنهج وإن اختلف الموضوع .

ويبغى ابن خلدون الاختصار والتركيز باحثاً عن الأسباب العامة وراء الأخبار الخاصة. ويحذر من الإسرائيليات، ويرفض المغالاة فى الأحكام حتى ولو كانت فى الروايات لخضوعها لمنطق القصص والخيال الشعبى. وغاية ذلك نقد التفسير التاريخى للقرآن الذى يقوم على هذه الروايات الخيالية. ويعتمد فى تحليل التجارب البشرية على الشعر. وقد كان أحد أسباب أخطاء الروايات خضوعها لأهواء السياسة ومدح الحكام وتجريح الخصوم. يفرق ابن خلدون بين القطعى والظنى فى الرواية كما هو الحال فى الأحكام عند الأصوليين، وهو الفقيه. كما ينشأ الخطأ من الذهول عند تبدل الأحوال والأمم والأجيال بتبدل الأمصار ومرور الأيام أى بإغفال التصور الحيوى للتاريخ.

ويتكلم ابن خلدون عن الحضارة فى الأمصار من قبل الدولة وأنها ترسخ باتصال الدولة ورسوخها. فالدولة هى حاملة العمران. والحضارة زائدة عن الضرورة من أحوال العمران طبقاً لأحوال الأمم على مدى الأيام. والدولة هى التى تجمع أموال الرعية وتنقها فى مظاهر الجاه وتعظم الحضارة فى وسط الدولة ومركزها وتقل فى الأطراف. والأمثلة على ذلك كثيرة من حضارات اليهود والقيط والروم واليونان والعرب فى الأطراف والعراق والنبط والفرس والكلدانيين.

وفى نفس الوقت الذى تكون فيه الحضارة غاية العمران تؤذن بفساده، طبقاً لجدل

الإيجاب والسلب. فكل حضارة تحتوى على عناصر قسدها ^(١). فالملك والدولة غاية العصبية، والحضارة غاية البداوة، والعمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس. والجيل أربعون سنة. وكلما كان العمران أكثر كانت الحضارة أكمل. غاية العمران الحضارة والترف. والحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة ^(٢). رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو رسوخ الحضارة وطول أمده لأنها عوائد للعمران. والأمثلة من الأندلس وملوك الطوائف، وسابقاً الدولة الأموية، وفي الغرب دولة القوط، وحضارة صنهاجة في تونس.

وأخطاء المؤرخين القدماء في عدم التحقق من صدق الروايات امتدّت إلى المفسرين، فقد كان أوائل المفسرين هم المؤرخون مثل الطبرى. فقد أخطأوا في تفسير ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد﴾ يجعل لفظ "إرم" اسماً لمدينة ذات عماد ^(٣).

وقد أسس المحدثون علم الجرح والتعديل لضبط الرواة خاصة في خبر الواحد مثل استحالة مدلول اللفظ وضرورة تأويله إذا لم يطابق العقل حتى يمكن استنباط أحكام شرعية عملية يقينية منها حتى ولو كانت ظنية على مستوى النظر، بالإضافة إلى أحكام العدالة والضبط. العدالة في الصدق والإسلام والإيمان والضبط بحسن السماع والحفظ والتبليغ من خلال سلامة الحواس الظاهرة مثل السمع واللسان، والباطنة مثل الحفظ والتذكر.

أما الأخبار أى الروايات التاريخية فهي علم الوقائع والأحداث ويكون صدقها في المطابقة، مطابقة الرواية مع وقوع الحدث التاريخي وإمكان وقوعها. وهو ما يتجاوز صدق الروايات في علم الحديث عن طريق الجرح والتعديل للرواة من أجل استنباط الأحكام على نحو إنشائي لغوي. في حين أن صدق الروايات التاريخية من حيث الإمكان والاستحالة على نحو خبري وإصدار الأحكام بالصدق والكذب .

ومن هنا لزم العمران البشرى لمعرفة طبائع العمران، وهو الواقع التاريخي الذى

(١) وذلك مثل جان جاك روسو في الحضارة الغربية في القرن الثامن عشر .

(٢) السابق ٣٦٨ - ٣٧٤ / ٤٠٣ .

(٣) السابق ص ١٤ .

تتم مطابقة الروايات التاريخية عليه. وهو علم مستقل بنفسه ذو موضوع هو العمران البشرى والاجتماع الانسانى. وهو علم جديد يتجاوز علم الخطابة وعلم السياسة المدنية. فالخطابة تحليل للرواية والخطاب. والسياسة المدنية تدبير المنزل والمدينة بمقتضى الأخلاق والحكمة من أجل حفظ النوع والبقاء كما هو الحال عند الفارابى^(١).

ولا تتفصل فلسفة التاريخ عن باقى العلوم الإسلامية لأنها أحد مكوناتها. لا تتفصل عن علم الكلام والفرق الإسلامية ليس فقط النبوة فى قصص الأنبياء بل أيضاً حكاية الخلق والبعث والإيمان والعمل والإمامة، وموقف الفرق الإسلامية منها. فشرط الإيمان الصحيح العمل الصالح كما قال القرآن لنوح بصدد ابنه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾. وكما قال الرسول لفاطمة "يا فاطمة اعملى فلن أغنى عنك من الله شيئاً"^(٢). وهو ما أثبتته أيضاً علم أصول الفقه فى إثبات اللغات وحاجة البشر إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع، وتحليل الأحكام بالمقاصد مثل الزنا وخطب الأنساب وإفساد النوع مثل القتل، وإيدان الظلم بخراب الديار. فالمقاصد الشرعية بدايات علم العمران.

ويحيل ابن خلدون إلى المتكلمين، معتزلة وأشاعرة. فالمعتزلة ينكرون الكرامات لأنها ليست من أفعال العباد وينكرها الأشاعرة كدليل على صدق النبوة لأنها إن صدقت تتطلب التصديق والهداية واختلطت بالمعجزة. وينكرون الإمامة مثل الأصم وبعض الخوارج إذ لا مستند لها من العقل والشرع، وكفى تطبيق الشرع ومبادئ العدل. فى حين تجعل الشيعة الإمامة بالتعيين. وهى ركن الدين وقاعدة الإسلام^(٣).

ويؤيد ابن خلدون موقف الصوفية من الجوع الذى لا يؤدى إلى التهلكة ويرفض رأى الأطباء من أن الجوع مهلك^(٤). ويفرق المتصوفة بين خوارق الأنبياء العظمى وكرامات الأولياء الصغرى التى تقتصر على الاخبار بالمستقبل. ومن الصوفية قوم بلا

(١) السابق ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) السابق ص ٣٩ / ٢٢ - ٤٠.

(٣) السابق ص ٩٤ / ١٩٢ ويميل ابن خلدون إلى كتاب المال والنحل للشهرستانى. السابق ص ٢٠١ - ٢٠٢.

(٤) السابق ص ٩٠ / ٩٥ - ١١٠ - ١١١.

ليل معتوهين أشبه بالمجانين منهم إلى العقلاء، صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين. وأهل الذوق منهم غير مكلفين، يخبرون عن المغيبات، ويطلقون كلامهم في شطحات ولا يتقيدون بشيء. ويقولون بسقوط التكاليف عنهم. وهو غلط لأن الولاية لا تصلح إلا بالعبادة.

وبالرغم من معاداة ابن خلدون للفلسفة إلا أنه يعتمد على آراء الحكماء في السياسة المدنية، وأن الإنسان مدنى بالطبع، يجتمع في مدينة. وهو معنى العمران ^(١). وما عناه ابن خلدون بالعمران البشرى الذى لا بد له من سياسة لينتظم بها أمره بوازع من حاكم يرجع الناس إليه ومستنداً إلى شئ أو إلى سياسة عقلية تعرف المصالح العامة ثواباً فى الدنيا والآخرة أو نفعا فى الدنيا فقط. هو ما عناه الحكماء باسم السياسة المدنية وهى قوانين مراعاة المدينة الفاضلة ^(٢). وقد أخطأ ابن رشد عندما اعتبر نزول قوم بمدينة كاف فى تكوين مجتمع لأنه تربى فى بلد لم تعرف العصبية وذلك فى تلخيص الخطابة فى ذكره الحسب. ومن الحكماء يستشهد بابن سينا الطبيب فى أرجوزته فى الطب على أن اللون تابع لمزاج الهواء. وينقد الكندى فى تفسيره خفة السودان وطيشهم وكثرة الطلب فيهم لضعف أدمغتهم وما ينتج عنه من ضعف عقولهم. وقد نقله المسعودى أيضاً. وهو كلام لا محصل ودون برهان.

كما لاحظ الحكماء وجود حاسة طبيعية فى الحيوان والحشرات مثل النمل والجراد وهو الانقياد والاتباع لرئيس متميز عنها فى الخلقة، بالفطرة والخلقة وليس بالرؤية والسياسة. كما يعتمد على الحكماء فى تقسيم أقاليم الأرض ونسبة العمران فى كل منها وفى أن الربع الشمالى أكثر عمراناً من الربع الجنوبى لإقراط الحر وقلة ميل الشمس. ويعتمد على الفلاسفة فى أن الطبيعة جبلة فى الأجسام. لما خلق الله العالم كانت فى تمام الكرة ونهاية القوة (الكمال)، وكانت الأعمار أطول، والأجسام أقوى. وهو رأى يقوم على التحكم وليس على علة طبيعية. وليس المطلوب الإمكان العقلى بل الإمكان المادى.

(١) السابق ص ٤١ / ٤٣ - ٤٤ / ٤٩ / ٥٢ / ١٠١.

(٢) السابق ص ١٧٨ / ٣٠٣ / ٨٤ / ٨٧ / ١٣٥.

بل اعتمد الفلاسفة على ذلك لإثبات النبوة بالدليل العقلي، والاعتماد على حاجة البشر للحكم الوازع، وهو لا يكون إلا بشرع من الله مبلغ إلى واحد متميز عنهم. وهى قضية غير برهانية فى رأى ابن خلدون. فقد يتم ذلك بما يفرضه الحاكم أو بالعصية أى بالملك والعصب. ومن ثم يغلط الحكماء فى محاولة إيجاد دليل عقلى على النبوة لأن مدركها الشرع كما هو مذهب أهل السلف من الأمة. ويذكر رأى الحكماء فى الخوارق. فالخارق من فعل النبى خارج فعل القدرة بناء على مذهبهم فى الإيجاب الذاتى ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب والشروط الحادثة مستندة إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار. كما ذهب بعض الحكماء إلى أن النور الأعظم مع النبوة ينقطع لأن كل نبوة تقتضى وضماً فلكياً معيناً.

لم يعتمد ابن خلدون على اليونان. فالكتاب المنسوب إلى أرسطو فى السياسة المتداول بين الناس فيه جزء صالح والباقى غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين، ومختلط بغيره. استفاد من حكماء الفرس، الموبدان وأنوشروان مثل: " العالم بستان سياجه الدولة، والدولة سلطان تحيا به السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك، والملك نظام يعضده الجند، والجند أعوان يكفلهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، والرعية عبيد يكتفهم العدل، والعدل مألوف وبه قوام العالم، فهى ثمان قواعد ^(١).

ومع ذلك فقد كان لدى ابن خلدون إحساس بالجدة فى تأسيسه للعلم الجديد بالرغم من كثرة مصادره وإحالاته. فقد نشأت فلسفة التاريخ عنده " من غير تعليم أرسطو ولا إفادة الموبدان ". وفقد الشيء لا يعطيه. اعتمد ابن خلدون على مصادر داخلية خالصة مثل ابن المقفع وآرائه السياسية، والطرطوشى فى سراج الملوك الذى اتبع ابن خلدون ترتيبه مع أنه " لم يصادف فيه الرعية ولا أصحاب المشاكل، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة ". ويستكثر من الأحاديث والآثار. وينقل كلمات متفرقة عن حكماء الفرس مثل برزجمهر والموبدان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس. ولا يكشف عن التحقيق ولا يعتمد على البراهين، نقل وركب المواعظ. حوم عن الغرض ولم يصادفه أو

(١) السابق ص ٤٠.

يتحقق من قصده إذا استوفى مسألة. وقد ألهم الله ابن خلدون مقدمته إلهاماً. فالعلم إما النقل أو الإلهام وكأنه لا يوجد تراكم تاريخي طبيعي أدى في النهاية إلى تأسيس فلسفة في التاريخ في نهاية المرحلة الأولى للحضارة الإسلامية في القرون السبعة الأولى.

ويتحليل مضمون عناوين الأبواب والفصول لمعرفة أهم الألفاظ المكونة لفلسفة التاريخ عند ابن خلدون تنصدر الدولة فرداً وجمعاً. فلسفة التاريخ هي حياة الدولة، قيامها وانتهيارها. ثم بعد ذلك يأتي لفظ الملك فالدولة هو نظامها السياسي، ثم الأمصار أى البقاع والأماكن والمناطق والبلدان والأقاليم، ثم العمران خاصة العمران البشرى أى مظاهر الحياة الانسانية من وجود الكسب والصناعات والعلوم والبنيان والهياكل، ثم العصبية محرك التاريخ وتماسك المجتمع، ثم البدو مع البادية والبوداى والبدواة مع الحضارة والحضرى والحواضر. ثم تظهر ألفاظ الأمة والأمم، والقبيل والقبائل، والأوطان، والبشر والأقطار تبين حجم التجمع البشرى، ثم المدن والاجتماع عن التجمعات البشرية وأنواعها وأحجامها. وأخيراً تظهر ألفاظ السلطان والخلافة والإمامة والرئاسة والحسب والنسب والسياسة مع الجيل والأجيال لتبين قمة النظام السياسى وبؤرته كما هو الحال عند الفارابى. ومن الشعوب يتكلم عن العرب واللسان العربى ولغة العرب وأشعار العرب والعربية فى مقابل باقى الشعوب مثل العجم والبربر ومن عاصرهم من النبط والسريان والفرس وبنى إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجية. وتعرف بعد رحلته إلى الشرق على أخبار العجم مقارناً المشرق بالمغرب^(١).

وذلك كله أقرب إلى الضرورة منه إلى الحرية لا فرق بين الضرورة الدينية والضرورة الطبيعية. فإرادة الله هي سنن الكون. فمن الغلط الخفى فى التاريخ الدهول عن تبدل الأحوال فى الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام. فالعالم لا يستقر على

(١) الدولة (٢٦)، الدول (١٠)، الملك (٢٤)، الممالك، والملوك (١)، الأمصار (٢١)، المصر (١)، العمران (١٨)، العصبية (١٢)، العصائب (٢)، البدو، الحضر (٧)، البادية، البدواة، البوداى (١)، الحضارة (٥)، الحضرى، الحواضر (١)، الأمم، الأمة (٤)، القبيل (٤)، القبائل (٣)، الأوطان (٣)، البشر (٤)، الأقطار، الاجتماع (١)، المدن (٦). السلطان (٧)، السلطانية (١)، الخلافة (٤)، الخلافة (١)، الإمامة (١٢)، الرئاسة، الرؤساء (١)، السياسة (١)، النسب، الأنساب (٢)، الموالى (٢)، جيل، أحيال (١).

وتيرة واحدة بل يتغير ويتبدل فى الأشخاص والأوقات والأمصار وهى السنن الكونية ﴿ سنة الله التى خلت فى عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾. ومن الأغاليط الغفلة عن طبائع الأكوان وتبدل الأعقاب مثل استيلاء الدول المستجدة على الدول المستقرة بالمطاوله لا بالمناجزة، وقوانين الطب والمجتمع والبدو والحضر والكسب والمعاش.

وهى سنن مطردة فى التاريخ تنطبق على كل الأمم والدول مثل قيام الدولة وانهيارها "سنة الله فى الذين خلوا من قبل" وهى نفس السنن فى الدنيا والآخرة، فالآخرة استمرار لقوانين وتحصيل نتائجها ﴿ سنة الله فى الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾. وفى شرح انهيار دولة بنى إسرائيل يستشهد بآية ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾.

فالله هو محرك التاريخ، ومقيم الدول ومسقطها ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز ﴾، وذلك من خلال عقد العصبية أو حلها، البقاء فى البدو أو التحول إلى الحضر. وكما يقدر الله الليل والنهار ﴿ والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له ﴾ يقدر أعمار الدول قياماً وقعوداً، نهضة وسقوطاً (١).

وهو الذى يقدر أفعال البشر ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ كما هو الحال عند الأشعرية المتاخمة للجبرية. وهو الذى يقبض ويبسط، يخلق ما يشاء ويختار، وهو العليم القدير. خلق كل شئ ثم هدى. وهو الذى خلق السموات والأرض وسخر البحر والفلك والأنعام واختلاف الألسنة والألوان، وهو الخلاق العليم. وهو الذى يخلق من الطين كهينة بإذنه، وينفخ فيه فتكون طيراً. فانه وراء المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وكل ما يفعله البشر فى العالم. والله هو الغنى والناس هم الفقراء (٢).

ما يحدث فى التاريخ من حياة أو موت للأفراد والشعوب يقع بإرادة الله ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾. ومع ذلك فالإنسان يأكل من عمل يده كما قال الرسول "إنما لك من مالك ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت لم ينتفع به فى شئ"

(١) السابق ص ٢٨ / ٨٥ / ١٤٤ / ١٨٩ / ١٩٠ / ١٣٧ / ١٤٥ - ١٤٦ / ٣٠١ / ٤١٧ .

(٢) السابق ص ٤٣ / ٨٣ / ٢٦٦ / ٣٤٧ / ٣٧٧ / ٣٨٠ / ٣٨١ / ٣٩٩ / ٤١٢ / ٥١٦ / ٥٣٠ / ٥٦٦ / ٥٦٩ .

وقيام الدولة وسقوطها موضوع علم الجغروالحدثان. وهو علم يقوم على أساس نفسى. فمن خواص النفوس البشرية التشوق إلى معرفة عواقب أمورهم من حياة وموت وخير وشر والحوادث العامة مثل بقاء الدنيا وعمر الدول. حاول ذلك الكهان فى أخبارهم والراؤون فى أحلامهم بناء على طلب السوق والملوك. وقد أصبح ذلك صفة فى المدن وممارسات شعبية مثل ضرب الودع والخط على الرمل وضرب الحصى والحبوب وقراءة الفنجان والنظر فى المرايا والمياه وهو ضرب المنذل. وبطلبه خاصة من النسوان والصبيان وضعاف العقول. وقد نمته الشريعة لأن الغيب لا يعلمه إلا الله أو ما اطلع عليه الأنبياء والأولياء. ويتطلع إليه الملوك والأمراء لمعرفة مستقبل دولهم ويسمى حينئذ الحدثان. وقد كان فى العرب كهان وعرافون يخبرون بأعمار الدول. وفى الحديث "إن فيكم محدثين". وترجمت كتب مماثلة تحتوى على كلام المنجمين والقرئات والطوالع وعلم التنجيم. واعتمد المؤرخون على ذلك للتنبؤ بأعمار الدول اعتماداً على المنقول مثل القول بأن بقاء الدنيا خمسمائة سنة وهو كذب دون تأويل ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾. وفى الأحاديث "أجلكم فى أجل من كان قبلكم من صلاة العصر إلى غروب الشمس"، ربطاً بين أعمار الأفراد وأعمار الأجيال. وأيضاً "بعثت أنا والساعة كهاتين"، وأشار بالسبابة والوسطى. وأيضاً "لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم" لمزيد من التوبة، إشارة إلى قصر مدة الدنيا من أجل الحث على العمل. وقد ساهم حساب الجمل لأوائل حروف السور على ذلك وهى من المتشابهات ﴿ منه آيات محكمات وأخر متشابهات ﴾. ويروى أن الرسول قام خطيباً وما ترك شيئاً يقع حتى قيام الساعة إلا وأخبر أصحابه به مما يدل على الهداية وليس على وقائع التاريخ^(١).

ويتم الاعتماد أيضاً على كتاب "الجفر" الذى دون فيه كل شئ عن طريق الآثار والنجوم، ويروى أنه كان مع الزيدية ومنسوب إلى جعفر الصادق ويتضمن علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص على الخصوص عن طريق الكرامة والكشف. وسمى الجفر باسم الجدل لأن الجفر فى اللغة هو الصغير. وكان يتضمن تأويلاً باطنياً للقرآن. ومنها أحاديث المهديّة وآخر الزمان فى مجتمعات الاضطهاد. وقد ساهم الكندى

(١) فى ابتداء الدول والأمم وفى الكلام على الملاحم والكشف على مسمى الجفر، السابق ص ٣٣٠ - ٣٤٢.

منحهم الرشيد في ذلك حتى في ملك العرب وكميته وسمى "الجفر الصغير"، ويسمى أيضاً "الملاحم". وبطلقة العامة على الحاضر والمستقبل. ويصاغ ذلك نثراً وشعراً لأنه جزء من الثقافة الشعبية وسير الأبطال .

ب- طبائع العرب. ولا تتفصل فلسفة التاريخ عند ابن خلدون عن طبائع الشعوب خاصة العرب والعجم والبربر.

فجبل العرب في الخلقة طبيعي لا بد منه في العمران. فالعرب جزء من تطور التاريخ البشري وأحد مراحل أي سكان البادية. يقتصرون على الضروري من إشباع الحاجات الأساسية دون التحسينات والكماليات. والعرب أشد الشعوب بداوة ومختصون بالقيام على الإبل في حين تقوم باقي الشعوب على الشاه والبقر مثل البربر والأعاجم والترك والتركمان والصقالبة والأكراد بالشرق.

والصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معانهم. فالأنساب والتوحش والقفر مقرون ذلك كله بالعرب. وهو أحد مظاهر التجمعات البشرية الأولى. وهو مازال قائماً حتى الآن في الكنية والتسمية بأسماء الأسر وذلك لما اختصوا به من نكد العيش ومشقة الأحوال وسوء المواطن ورعاية للإبل. أما باقي العرب في الشام فاختلفت الأنساب بالتلول والمراعى لاتساع الرزق وتنوع المراعى (١).

والعرب لا يتغلبون إلا على البسائط لأنهم بطبيعة التوحش أهل انتهاز وعبث من غير مغالبة أو ركوب أخطار يفرون إلى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون إلى المزامعة والمحاربة إلا دفاعاً عن معقلهم وعن أنفسهم. ويغيرونه إذا كان صعباً في الدفاع عنه. والقبائل في بطون الجبال بمنأى عنهم. أما على البسائط فهم أقدر بفقدان الحامية وضعف الدولة. هي نهب لهم وطعمة، يغارون عليها لسهولة إلى أن يتغلبون على أهلها. ويتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة إلى أن يقرض عمرانهم.

والعرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش حتى صار لهم خلقة وجيلة بعد أن كان ملذوداً لما فيه من الخروج على

(١) السابق ص ١٢١ - ١٢٢ / ١٢٩ - ١٣٠.

الحكام وعدم الانقياد للسياسة. وهى طبيعة منافية لل عمران. غايةهم الرحلة والتغلب وهو ينافى السكون. والاستقرار شرط العمران. ينقلون الأحجار من المبانى والأخشاب من السقوف، والبناء أصل العمران. وفى طبيعهم انتهاب ما بين أيدي الناس دون حد. رزقهم فى أسنة رماحهم. فبطلت سياسة حفظ أموال الناس وخرب العمران. ولا يعطوا للصنائع أى قيمة، وهى أصل المكاسب والمعاش. ولا يعتنون بالأحكام وزجر الناس عن المفاصد، ويفرضون الغرامات والأموال دفاعاً عن أموالهم وحباً فى الجباية. وهم أقرب إلى الفوضى منهم إلى الحكم. والفوضى المهلكة للبشر المفسدة للعمران وهم متناقسون فى الرئاسة ولو كان الآباء والأخوة أو رؤساء العاشر إلا فى حالات نادرة يغلب عليها الحياء. فتكثر الأحكام وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام ويفسد العمران. والأمثلة على ذلك فى اليمن والعراق والشام وأفريقية والمغرب والسودان. ولم يضرب المثل بمصر بدولتها المستقرة عبر التاريخ^(١).

والعرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة، وذلك لأن توحشهم جعلهم أصعب الشعوب انقياداً ولما فيهم من غلظة وأنفة وبعد الهمة والمنافسة على الرئاسة وتضارب أهوائهم. فالدين وازع قوى ليسهل انقيادهم وجمع كلمتهم، وأن يتم ذلك بأمر الله ليذهب عنهم الخلق الذميم ويتحلون بالخلق الكريم، وتحولهم من قبائل متباغضة إلى دولة وملك. وهم أسرع قبولاً للحق لسلامة الطبع وبراءة الزمة والفطرة الأولى وكل مولود يولد على الفطرة.

والعرب أبعد الأمم عن سياسة الملك لأنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد فى الفقر وأغنى عن حاجات الوديان والتلال فاستغنوا عن غيرهم، وصعب انقياد بعضهم لبعض. ولم يجدوا أمامهم إلا العصبية لايلافهم للدفاع بها عن النفس. وتقضى سياسة الملك وازع القهر حتى لا يأخذوا ما فى أيدي الناس. فإذا ملكوا أمة انتقموا منها وأخذوا ما فى أيديها وأكثروا من الجبايات وتحصيل الفوائد. فتنمو المفاصد وينشأ الخراب ونعم الفوضى فى الأمة. لذلك بعدت طباع العرب عن سياسة الملك. ولزم تغيير طباعهم

(١) فى أن العرب لا يتغلبون إلا على البسلط، السابق ص ١٤٩ - ١٥١ / ٣٥٩.

بسياسة دينية وتحويل دولتهم إلى ملة وارتباطها بالشريعة المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً. فلما نبذوا الدين نسوا السياسة، ورجعوا إلى قفرهم، وجعلوا عصبيتهم، وبعثوا عن الانقياد والنصفة، وعادوا إلى التوحش الأول. ولم يبق لهم من الملك إلا ذكريات الماضي وأتهم من جنس الخلفاء. ولما انتهت الخلافة ضاع الأمر كله، وغلبهم العجم. ولما نسوا الدين رجعوا إلى أصلهم من البداوة. وقد يحصل لهم أحياناً غلبة الدول المستضعفة في المغرب فيخربون ما يستولون عليه من العمران. والأمثلة على ذلك كثيرة من تاريخهم، دول عاد وثمود والعمالة وحمير والتبابعة، ومضر في الإسلام وبنى أمية وبنى العباس^(١).

والعرب أبعد الناس عن الصنائع لأنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعو إليه من الصنائع في حين أن العجم في المشرق وأمم النصرانية وراء البحر الرومي أقدر الناس عليها لأنها أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البداوة، ليس لديهم إيل أو مراعى أو رمال. لذلك استورد العرب الصنائع من الأمم الأخرى، العجم والصين والهند والترك. والبربر مثل العرب لرسوخهم في البداوة وقلة الأمصار في قطرهم باستثناء صناعة الصوف والجلود. وفي حين رسخت الصنائع في فارس وعند النبط والقبط وبنى إسرائيل واليونان والروم. أما شعوب شبه الجزيرة العربية إذا ملكتهم شعوب الحضارة أصبحوا مثلها. وإذا ملكهم العرب قلت فيهم الصنائع.

ومع ذلك فللعرب لغتهم وشعرهم. لغة العرب مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير. فالدلالة والتركيب مختلفان في اللسانين، وكذلك القدرة على الاختصار والتركيز. لذلك قال الرسول "أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً". وقد دس التشيع مقالة نهاية بلاغة العرب في حين قد حفظها القرآن والحديث.

واللسان المضري غير صناعة العربية ومستغنية عنها لأن صناعة العربية في معرفة قوانينها ومقاليصها. وهى قوانين الأعراب التى وضعها سيويه فى كتابه مع الشواهد

(١) السابق ص ١٥١ - ١٥٣.

العربية. وحصول ملكة اللسان بكثرة حفظ الشواهد حتى يرسم في ذهنه القانون^(١).

وكما أن العرب أهل لغة فإنهم أيضاً أهل شعر مثل باقي الأمم الأعجمية، فارس واليونان، لا فرق بين عرب عاربة ومستعربة. وقد أبدع أهل الأندلس الموشحات والأزجال نظراً لاختلاف الأسنة والألوان ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف السننكم وألوانكم آيات﴾.

والنبوة تحتاج إلى عصبية أو ثروة طبقاً لحديث " ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه " وفي رواية أخرى "في ثروة من قومه". والعصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه. وقد يقع اختلاط في الأسباب عن طريق القرابة أو الحلف أو لولاء أو لقرار من قومه لجناية ارتكبتها.

والغاية من العصبية الملك. والملك والدولة العامة يحصلان بالقبيل والعصبية. أما إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغنى عن العصبية. وقد ظن الطرطوشي أن الجند هم حماة الدولة باطلاق بما فيهم المرتزقة. ولم يقطن إلى كيفية الأمر منذ أول الدولة وأنه لا يتم إلا لأهل العصبية. وقد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغنى عن العصبية. والدعوة الدينية تزيد في أصلها قوة على قوة العصبية. فالدولة أساسها الدين أو العصبية. والدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم. والدولة العامة الاستيلاء العظيم الملك أصلها الدين، نبوة أو دعوة حق^(٢).

ولا تكون الرئاسة إلا في أهل العصبية، ولا تكون في غير نسبها. وشرف الموالى وأصل الاصطناع بمواليهم لا بأنسابهم. ويستظهر صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالى والمصطنعين وهو أشبه بالمرتزقة اليوم أو الطائفة أو القبيلة أو العشيرة أو الأسرة أو جماعات الضغط أو رجال الأعمال أو شركات توظيف الأموال التي تضحي بالوطن في سبيل "الشلة"، وتضحي بالجماعة الكبيرة في سبيل الجماعة الصغيرة. ويتفاوت الموالى في الالتحام بالدولة وصاحبها. فالولاية والرق تقوم بدور العصبية. وعادة ما

(١) السابق ص ٤٠٤ - ٤٠٥ / ٥٥٥ - ٥٦٠ / ٥٦٢ - ٥٨٢ - ٥٨٣ / ٥٤٩ .

(٢) السابق ص ٩٣ / ١٢٨ - ١٣٩ / ١٤٠ - ١٥٤ / ١٥٦ - ١٥٩ - ١٦١ .

يكون ذلك فى آخر الزمان عندما تضعف العصبية ^(١). ويستعين الملك بالوزير كما هو الحال فى آية ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى، هارون أخى، اشد به أزرى، وأشركه فى امرى ﴾. وقد يقع السلطان فى يد البلاط، جماعة أو فرداً. وبدلاً من أن يستبد السلطان بهم يستبدون هم بالسلطان كما حدث فى ثورة البرامكة. ومع ذلك فالمتغلبون على السلطان لا يشاركون فى اللقب الخاص بالملك بل يسلبون وظائفه وسلطاته. يأخذون المضمون منه ويستبقون الصورة والأشكال والرسوم والألقاب له ^(٢).

والعصبية لفظ قرأتى ﴿ لنن لكه الذنب ونحن عصبه إنا إذا لخاسرون ﴾. وتنص عليها السنة. فالبيت بالشرف والأصالة والحقيقة لأهل العصبية. ويكون لغيرهم بالمجاز والتشبيه اعتماداً على حديث "الناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا"، فى الجاهلية بلا شرط، وفى الإسلام بشرط الفقه أى العلم. وأيضاً "ما بعث الله نبياً إلا فى منعة من قومه". فالعصبية حامل الدين. وتتم العصبية بتدخل للهِ ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألقت بين قلوبهم ﴾ ^(٣).

وفى نفس الوقت يبين ابن خلدون موقف الشرع من رفض العصبية ونمها طبقاً لحديث الرسول "إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء. أنتم بنو آدم، وآدم من تراب" ^(٤). كما يبين القرآن أنه لا نفع فى الأرحام ﴿ لن ترفعكم أرحامكم ولا أولانكم ﴾، وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾.

وينكلم عن العرب ولغة العرب وأشعار العرب واللسان العربى. كما يتحدث عن الملة الإسلامية والأمصار الإسلامية وحمة العلم فى الإسلام. وأحياناً يذكر الأمصار والدول والمدن والأقاليم نون صفة عربية أو إسلامية. ويخصص آخر جزء من المقدمة فى علوم اللسان العربى، علم النحو، وعلم اللغة وعلم البيان وعلم الأدب. واللغة ملكة صناعية. ثم يصف لهجات العرب ولغاتهم، لغة مضر وحميز، وأن لغة أهل الحضر

(١) السابق ص ١٨٣ - ١٨٥.

(٢) السابق ص ٢٣٥ / ١٨٥ - ١٨٧.

(٣) السابق ص ١٣٤ - ١٣٥.

(٤) السابق ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

والأمصار قائمة بذلتها، وكيفية تعليم اللسان المغربى وهى غير صناعة العربية ومستغنية عنها فى التعليم. ولا يحصل المستعربون من العجم الذوق ولا يتحققوا من معناه كما يفهم أهل البيان. ويقصر أهل الأمصار عن تحصيل هذه الملكة اللسانية التى تستفاد بالتعليم. ومن كان منهم أبعد عن اللسان العربى كان حصولها أصعب وأيسر. وينتقل الكلام العربى إلى فن النظم والنثر. ولا يمكن الجمع بين الاتقان فى كليهما إلا للأقل ويصف ابن خلون صناعة الشعر ووجه تعلمه. وصناعة النظم والشعر فى الألفاظ لا فى المعانى. وتحسن الملكة بجودة الحفظ. ويقبح فيها الانتحال^(١).

ويوجد العرب فى الإقليم المعتدل. فهم أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً. ظهرت النبوة فيهم. فالنبوات لا تظهر إلا فى الأقاليم المعتدلة. وهذا هو معنى آية ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾^(٢).

ولا يشير ابن خلدون إلى شعوب أخرى بالرغم من أن العنوان يتضمن العرب والبربر، ولكن فى تحليلاته يقارن العرب بشعوب المغرب العربى والمشرق العربى والشمال عند القوط والفرنجة فى إطار مقارن^(٣). وتتعدد الشعوب والألوان والألسنة دون وقوع فى خصائص ثابتة للشعوب وميزات للكباء. فهذه من الأغاليط الناتجة عن الغفلة عن طبائع الألوان والجهات، وأنها كلها تتبدل فى الأعقاب ولا تستمر^(٤). ويشير ابن خلدون إلى العجم وهو المغربى القادم إلى الشرق. فالذوق العربى لا يحدث للمستعربين من العجم^(٥). ويتقدم أهل الفرس فقد كان أكثر حملة العلم منهم وطبقاً لحديث " لو تعلق العلم بأكتاف السماء لناله قوم من أهل فارس " ^(٦).

(١) السابق ص ٥٤٥ - ٤٨٨ .

(٢) السابق ص ٨٢ / ٨٩ .

(٣) ويستشهد ابن خلدون بآية ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف لمتنكم ولوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين﴾، السابق ٥٨٨ / ٢٦٠ .

(٤) السابق ص ٨٥ .

(٥) السابق ص ٥٦٢ - ٥٦٤ .

(٦) السابق ص ٥٤٣ - ٥٤٥ .

ج- قيام الدول. والملك مطلب طبيعي للإنسان لأنه يمثل نشأة السلطة نشأة طبيعية في المجتمع لمنع التنازع بين الأفراد وتحقيق المصالح العام وهو ما أكدته الشرع^(١). ومن طبيعته الانفراد بالمجد والتسلط^(٢).

وتقوم الدولة بالوحشية. فإذا كانت الأمة وحشية فإن ملكها أوسع وهو قانون تاريخي للإظهار والانتصار ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾^(٣). فالأمم الوحشية أقرب على التغلب عن سواها^(٤). ومع ذلك كل دولة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها طبقاً لامتدادها الطبيعي وما تستطيع أن تسيطر عليه. لذلك قل أن تستحكم دولة في الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب^(٥). كما أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمرها على نسبة القائمين بها في القوة والكثرة. فأتساع الدولة ليس فقط مشروطاً بالمساحة بل أيضاً بالسلطة وقدرتها على الاستيعاب، مرة من الرعاية ومرة من الراعي. وأثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها. الحضارة في الأمصار من قبل الدولة وترسخ باتصال الدولة ورسومها^(٦).

ومن دعائم الملك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فليسهن فإن لم يستطع فليقلبه "، ومن علاماته أيضاً التناقص في الخلال الحميدة. فالملك طبيعي في الإنسان، والإنسان أقرب إلى الخير منه إلى الشر لقوته الناطقة^(٧).

وتقوم الدولة بالملك، الخلافة والإمامة أي بالسلطة المركزية. لذلك أقرها الشرع من ضمن سننه. بل إن الخلافة هي الغاية من الخلق ﴿أفحسبتم إنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ ولفظ الخليفة لفظ قرآني "إني جاعل في الأرض خليفة". وهذا هو لب

(١) السابق ص ١٨٧ - ١٨٨. وهو ما يتفق مع رأى هوبز في نشأة العقد الاجتماعي ومخالف لرأى روسو.

(٢) السابق ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٣) السابق ص ١٤٥ / ١٣٨ - ١٣٩.

(٤) السابق ص ١٦١ / ١٦٣ - ١٦٦.

(٥) في أن أثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها ، السابق ص ١٧٧ - ١٨٢ / ٣٦٨ - ٣٧١.

(٦) السابق ص ١٥٩ / ١٤٢ - ١٤٤.

القصيد في المقدمة ومركزها (١).

وإقامة السلطة من الشرع وبمقتضى سنته ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ وقد طلب سليمان من الله الملك ﴿ رب هب لي ملكاً ﴾.

ويجازى الناس على أعمالهم، الراعى والرعية "إنما هي أعمالكم ترد عليكم" فالغاية من الدنيا هي الآخرة ﴿ يعلمون ظاهراً من حياة الدنيا ﴾ (٢). ومن مقتضيات الملك الطاعة لأولى الأمر ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾.

وبالإمامة، تتحقق مصالح الأمة المفوضة إلى نظر الخلق. الإمامة في قریش عند البعض استناداً إلى حديث " الأئمة من قریش ". وينكر البعض الآخر شرط القرشية " اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة ". بينما الإمامة عند الشيعة بالنص والتعيين وهو معنى ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ وهو على ابن أبي طالب (٣).

وإذا كانت حقيقة الخلافة نياية عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الأمرين، في الدين بمقتضى التكليف الشرعية، وفي الدنيا برعاية المصالح في العمران البشري. والخطط الدينية الشرعية هي الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة. وكلها مدرجة تحت الإمامة الكبرى وهي الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية. والعدالة وظيفة دينية تابعة للقضاء، والسكة النظر في النقود المتعامل بها بين الناس. أما وظائف الإمارة والوزارة والحرب والخراج فصارت وظائف سلطانية. ويلاحظ ابن خلدون أن وظيفة الجهاد بطلت ولا تمارسها إلا بعض الدول القليلة!

ولقب أمير المؤمنين من سمات الخلافة وهو محدث في عهد الخلفاء. ومن أجل

(١) الباب الثالث : في الدول العامة والخلافة والمراتب السلطانية ... السابق ص ١٥٤ - ٣٤٢.

(٢) السابق ص ١٩٠ - ١٩١ / ١٩٣ / ٢٠٣ / ١٩١ - ٢٠٣ / ٢١٠ / ٢١٣ / ٣٠٩ / ٢١٠ - ٢١٨.

(٣) وتروى أحاديث أخرى مثل " من كنت مولاه فعلى مولاه " ، " أقضاكم على " ، " من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الأمر من بعدي " ، السابق ص ١٩٤ / ١٩٧ .

المقارنة يشرح ابن خلدون اسم البابا والبطرك فى الملة النصرانية واسم الكوهن عند اليهود ثم يعود إلى مراتب الملك والسلطان وألقابها: الوزارة والحجابه، وديوان الأعمال والجبايات، وديوان الرسائل والكتابة، وقيادة الأساطيل. وتتفاوت مراتب السيف والحكم فى الدول. وللملك والسلطان شارات خاصة مثل الآلة ونشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ فى الأبواق والقرون والسرير والمشير والتخت والكرسى، والسكة والخاتم والطرز والفسطاط والسياج والمقصورة للصلاة والدعاء فى الخطبة^(١).

والحروب طبيعة فى البشر واقعة فى دولة الخلافة، غيرة أو منافسة أو عدواناً أو غضباً لله والدين أو غضباً للملك وسعياً لقمهده^(٢). فالحروب أربعة أنواع: الأول ما يجرى بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والثانى العدوان بين الأمم الوحشية الساكنة فى القفر. والثالث المسمى فى الشريعة الجهاد. والرابع حروب الدول مع الخارجة عليها والعاصية لها. الأولان حروب بغى وفتنة. والأخيران حروب جهاد وعدل. والحروب ضربان إما الزحف أو الكر والفر. وقد تقل الجباية وتكثر. وفى أواخر الدولة تزداد المكوس وتكون إيدانها بنهايتها. والتجارة من السلطان مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية لأنه فى مركز سلطة ولا تجمع السلطان السياسية والاقتصادية. وتكون ثروة السلطان وحاشيته فى وسط الدولة وهى فى ذروتها. وينشأ نقص العطاء من السلطان بسبب نقص الجباية.

وتوجد الدول من المدن والأمصار ثمانية عن الملك. فالملك يدعو إلى نزول الأمصار. ويشبه الملك الكبير المدن العظيمة والهيكل المرتفعة. ولا تستقيم دولة واحدة ببناء الهيكل العظيمة. وتجب مراعاة أوضاع المدن حتى لا يذهب البنيان. وهناك مساجد وبيوت عظيمة فى العالم مثل البيت الحرام بمكة والقدس الشريف. والمدن والأمصار بأفريقيا والمغرب قليلة. كما أن المباني والمصانع فى الملة الإسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى كل من قبلها من الدول. وتتفاضل الأمصار والمدن فى كثرة الرزق لأهلها ونفاق الأسواق وهو تفاضل عمرانها فى الكثرة والقلّة. لذلك يحتاج المتمولون من أهل

(١) السابق ص ٢١٠ - ٢١٨ .

(٢) فى الحروب ومذاهب الأمم وترتيبها ص ٢٧٠ - ٢٨٦ .

الأمصار إلى الجاه والمدافعة لما يتطلب العقار والضيايع، بناء وحفظاً، من مال وفير^(١). يتأثل العقار والضيايع في الأمصار وحال فوائدها ومستغلاتها. ولا يكون التأثل دفعة واحدة ولا في عصر واحد.

وفي المدن تتحدد أسعار البضائع في الأسواق. والأقطار في اختلاف أموالها بالرفقة والفقر في الأمصار. وتختص بعض الأمصار ببعض الصنائع دون بعض^(٢). والتجارة محاولة للكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالأجل. وقد تقوم على الغش والتطفيف المجحف بالبضائع والمضلل في الأثمان، والجحود والإنكار لرأس المال وعدم التقيد بالكتابة والشهادة. أهل النصفة من التجار قليل. لذلك كانت خلق التجار نازلة عن خلق الأشراف والملوك، بعيدة عن المروءة. وتنقسم بها أخلاق الطبقة السفلى مثل المناكة والغش والخلاية وتعاهد الأيمان الكاذبة على الأثمان رداً وقبولاً. والتاجر البصير لا ينقل من السلع إلا ما يحتاج إليه، والاحتكار مشؤوم، ويعود على المحتكر بالتلف والخسران. ورخص الأسعار مضر بالمحترفين في حين أنه نافع للمستهلكين^(٣).

والفلاحة من أخط الأعمال طبقاً لحديث "ما دخلت هذه دار قوم إلا دخله الذل" إشارة إلى المحراث. بل إن الغناء له حكم شرعى في حديث "لقد أوتى زمراً من مزامير داود"، ويعنى حسن الصوت وليس شرعية الغناء^(٤).

والصنائع لا بد لها من العلم. فالصناعة ملكة وكمالها بالعلم. وتكمل بكمال العمران الحضري وكثرته. وقد تحصل ملكة الصناعة لصاحبها، وقل أن يجيد صناعة أخرى. وأمهات الصنائع الضرورية في العمران الفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياسة. والشريفة بالموضع التوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب. والصناعة تكسب صاحبها عقلاً خصوصاً الكتابة والحساب^(٥). ورسوم الصنائع في الأمصار يكون برسوخ

(١) السابق ص ٣٤٢ - ٣٦٨.

(٢) السابق ص ٣٦٧ - ٣٦٨ / ٣٦٢ - ٣٦٤ / ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٣) السابق ٣٩٤ - ٣٩٩.

(٤) السابق ص ٣٩٤ / ٤٢٣ - ٤٢٨.

(٥) السابق ص ٣٩٩ - ٤٢٨.

الحضارة وطول أمدّه. وتستجد وتكثر إذا كثر طالبيها. ويتكون المجتمع من طبقات مهنية، العامل وصاحب العمل، الرئيس والمرؤوس ﴿ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾. وقد يكون ذلك دون أخلاق الخضوع والتملق ^(١). والكسب قيمة الأعمال البشرية، فالعمل مصدر القيمة بلغة المعاصرين ^(٢). ويكون السعى في الاقتناء والقصد إلى التحصيل والمعاش هو ابتغاء الرزق والسعى في تحصيله ويكون إما مغرماً وجبياً أو اصطياًداً أو فلاحاً أو صناعة أو تجارة. فالمعاش إمارة وتجارة وفلاحة وصناعة. والإمارة ليست مذهباً طبيعياً للمعاش والفلاحة متقدمة على باقى وجوهه. وهى فى معاش المتصدعين وأهل العاقبة من البدو.

والخدمة ليست معاشاً طبيعياً مثل الجندى والشرطى والكتائب. يترفع عنها المشرفون. والخادم قد يكون مطلعاً موثقاً به أو مطلعاً غير موثق به، أو غير مطلع موثق به أو غير مطلع وغير موثق به. والأفضل الأول على الإطلاق ولكنه مستثنى عن الخدمة لأنه حينئذ يكون صاحب رئاسة. والمطلع غير الموثوق أرجح لأن من الحكمة إصلاح خيانتة. وهو مثل النقاش الدائر فى التفاضل بين أهل الحكم وأهل الخبرة. كما أن ابتغاء الأموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعى أو هو ما يعادل الميراث والنقط ^(٣).

والجاء مفيد للمال جمعاً بين السلطة والثروة. كما تحصل السعادة والكسب لأهل الخضوع والتملق. فالثروة إما من أعلى أو من أسفل. والعلماء والأدباء وأرباب القلم أقل الناس ثروة فى الغالب باستثناء فقهاء السلطان أو المكتسبين بالعلم من عامة الناس ^(٤).

والعلم والتعليم طبيعى فى العمران البشرى. وهو من جملة الصنائع. وتكثر العلوم حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة. ويصف ابن خلدون العلوم المترامية فى عصره وهى عقلية طبيعية فى الإنسان أو نقلية. الأولى يهتدى بها الإنسان بفكره مثل علوم الحكمة. والثانية نقلية وضعية مستندة إلى الخبر والرواية إلا فى فروعها حيث يمكن

(١) السابق ص ٣٩٠ - ٣٩٣ .

(٢) السابق ص ٣٨٠ - ٣٨٤ / ٣٩٤ .

(٣) السابق ص ٣٨٢ - ٣٨٩ .

(٤) السابق ص ٣٨٩ - ٣٩٤ .

استعمال القياس المستند إلى الخبر. والعلوم النقلية مثل علوم اللغة والقرآن والقراءة والحديث والتفسير والسيرة والفقه وهو علم القرائن. وعلم أصول الفقه هو الذى يجمع بين النقل والعقل، الاستدلال على الأحكام الشرعية من أدلتها اليقينية وكذلك علم الكلام. ويعتبر ابن خلدون التصوف من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة، أقرب إلى علم الأخلاق، وكذلك علم تعبير الرؤيا^(١).

أما العلوم العقلية فهى علوم الحكمة، المنطق والطبيعات والإلهيات والتعاليم والهندسة والحساب والفلك والموسيقى. وتشتمل أيضاً العلوم الطبيعية مثل الطب والفلاحة والكيمياء. وكما يبطل الفلسفة ويثبت فساد منتحليها، يبطل صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها. وينكر ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاصد عن انتحالها^(٢). والعجيب وضع علوم السحر والطلسمات من ضمن العلوم وهى علوم للتأثيرات فى عالم العناصر بمعين من الأمور السماوية^(٣).

ويبين ابن خلدون مناهج التربية والتعليم وطرق تحصيل العلوم. ويجد أن كثرة التأليف فى العلوم عائقة عن التحصيل، وأن كثرة الاختصارات فى العلوم مخلة بالتعليم. ووجه الصواب فى التعليم وتحقيق الفائدة منه أن يكون على التدرج، وألا يتم توسع الأنظار أو تفريع المسائل فى العلوم الإلهية. ويتعلم الولدان القرآن فى الصغر دون شدة لأن الشدة على المتعلمين مضرة بهم. وحين الكبر تكون الرحلة فى طلب العلوم ولقاء المشايخ حتى يكمل العلم. والعجيب أن يجعل ابن خلدون أكثر العلماء من البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها وهو غير مطابق للواقع مع العياد من علم لا ينفع^(٤).

د- سقوط الدول. ولا تقوم الدول إلا لى تسقط، ولا تتقدم إلا لى تنهار طبقاً للتصور المنهار للتاريخ الذى تؤيده أحاديث مثل "خير القرون قرنى والذى يلونه" أو "الخلافة ثلاثون سنة ثم تعود ملكاً عضوداً". فالملك غاية طبيعية للعصبية ليس عن اختيار

(١) السابق ص ٤٢٩ - ٤٧٨.

(٢) السابق ص ٤٧٨ - ٥٣٩.

(٣) السابق ص ٤٩٦ - ٥٠٣.

(٤) السابق ص ٥٣١ - ٥٤٢.

بل عن ضرورة الوجود وترتيبه. وكل شريعة أو ديانة تحال إلى الجمهور تقوم على العصبية كضرورة للملة^(١).

والندافع سنة الكون، صراع الممالك التي تجسد صرع العصبيات ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ توجد العصبية في الأمصار ويتقلب بعضها على بعض. وتنهار المجتمعات إذا انتهى الصراع وأثر قوم التخاذل والتخلف والارتهاق إلى الأرض. لذلك نقد القرآن الخوالب والقاعدين والتثاقل كما فعل بنو إسرائيل قائلين لموسى ﴿ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن نخشعها حتى يخرجوا منها ﴾، وقولهم ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ فالمذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم من عوائق الملك، مثل حرث الأرض وترك الفتح والجهاد في سبيل الله كما قال الرسول لما رأى سكة المحراث في دور بعض الأنصار "ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل".

وقد انعكس هذا التصور الحركي للتاريخ على التصور النظري لله. فإذا كان التاريخ هو سنن الوقوف على عمر الحضارة والدولة فإن الله يدرك هذا التغير ويتابعه "كل يوم هو في شأن"^(٢).

وتقوم الدول وتنهار، وتنهض الممالك وتسقط، وتتصارع القبائل وتتزاحم ويبقى الله، يرث الأرض ومن عليها "والله وارث الأرض ومن عليها"، والله خير الوارثين. وهو الذي يؤتى ملكه من يشاء ﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾^(٣).

ويبدأ التقدم والانحيار معاً في التحول من حالة البداوة إلى حالة الحضارة. أجيال البدو والحضر طبيعية. والبدو أقدم من الحاضر وسابق عليه. والبادية أصل العمران، والأمصار مدد لها. والبدو أقرب إلى الخير والشجاعة من أهل الحضر. ولا يسكن البادية إلا القبائل أهل العصبية في حين أن الملوك في الأمصار والمدن هم مركز السلطة. وانتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة انتقال طبيعي. هي أطوار طبيعية للدول، ويقصر

(١) السابق ص ٣١٨ / ٣٦٨ / ٢٠٢ - ٢٠٩ .

(٢) السابق ص ٣٧٧ - ٣٧٨ / ٣٩٩ / ٣٩٥ / ١٤٠ - ١٤٢ / ٣٧١ - ٣٧٤ .

(٣) السابق ص ١٣٠ / ١٤١ / ١٥٦ / ١٧٤ / ١٨٦ / ١٨٧ .

أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران^(١).

ومعاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم تذللًا للأحكام أو تجنبًا للرؤساء فتتكسر شوكتهم^(٢). ويتعود الناس على هذه الأحكام منذ الصبا ويتربون عليها. فهي أحكام سلطانية تعليمية.

ومن عوائق الملك المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم أي بلغة العصر الاستعمار والغزو والسيطرة والأحلاف والتبعية السياسية والاقتصادية. وإذا غلبت الأمة وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء. ومن علامات الشعوب المغلوبة الاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده إحساساً منه بالنقص ورغبة في التفوق عليه. ومع ذلك البوادى من القبائل مغلوبون لأهل الأمصار لأن عمران البادية ناقص عن عمران الأمصار.

وإرهاق الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر. فمن مصلحة الملك القوة والسيطرة والشكيمة، والإضافة إليها وليس النقص منها حفاظاً على هيبتها. ولا يكون ذلك بالقهر والعقوبة حتى لا تتحول الرعية إلى نفاق في الظاهر وغداء في الباطن فتقلب عليه وتخلله في أوقات الشدة. قلة الإفراط في الذكاء أحد شروط الملك، والذكاء المفرط ضار به. لذلك قال الرسول "سيروا على سير أضعفكم". فالكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة لأنه إفراط في الفكر كما أن البلادة إفراط في الجحود. والطرفان مذمومان، والتوسط محمود^(٣).

ويقع الخلل في الدولة لعدة أسباب. فإذا كان الملك يقوم على الشوكة والعصية أى الجند والمال فإن الخلل قد يعرض فيهما معاً. ويقع الخلل في العصية عندما يجدع الملك أنوف عشيرته فيحيط بها القهر والترف. وقد يتحول القهر إلى القتل والتشريد والإهانة وسلب النعمة والترف فتشتد العصية. فالعصية تشتد بالقربية والرحم والأمثلة على ذلك

(١) السابق ص ١٣٠ - ١٣٨ ٣٦٤-٣٦٥/١٧٢ - ٣٧٤.

(٢) السابق ص ١٢٥ - ١٢٧/١٤١ - ١٤٢/١٤٧ - ١٤٨/١٥٣.

(٣) السابق ص ١٨٨ - ١٨٩. لذلك لم يستمر ظالبيون ومحمد طلي وعبد الناصر وأحمد بن بلا ولوموميا.

كثيرة من تاريخ العرب في الإسلام من الهند إلى الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً. أما خلل المال فإن الدولة تكون في بدايتها بدوية ترفق بالرعايا وتقتصد في النفقات وتتعفف في الأموال وتقلل الجباية. فإذا ما عظم الاستيلاء واستعجل الملك أدى إلى الترف وكثرة الإنفاق لتعاظم نفقات السلطان. فيخلف الوهن بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواصي فتتحل وتنتهي إلى الهلاك. والترف قد يزيد الدولة في أولها قوة، قوة التسهيلات المادية. وتوجد وفرة في العمران آخر الدولة وتقع فيها كثرة الموتان والمجاعات^(١).

وإذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والبدعة أقبلت الدولة على الهرم كالأشخاص. فالدولة تقتضى الانفراد بالمجد، فيتكاسل باقى العصبية، ويرثون المذلة والاستعباد. ثم يربى الجيل الثانى على الهبة والعتاء وتهن الدولة، وتضعف الشوكة. ويهلك الفقير والمترف، ويقل الغزو، وتبدأ الانقلابات حتى بأنن الله بالفناء. وهو نتيجة طبيعية للترف. وينتج أيضاً عنها الراحة والدعة التى تساعد على نهاية الدولة. والأمثلة كثيرة من الترك والمماليك والموحدين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ويقع الخراب فى الأمصار. إذ يبدأ العمران بمساكن قليلة وبناء من الحجر والجير قبل الزليج والرخام والزجاج والصدف والفسيفساء. ثم يعود العمران كما كان أولاً بدوياً بدائياً حتى تخرب القصور.

والأمصار التى تكون كراسى للملك تخرب بخراب الدولة وانقراضها. إذ فتشهد الصنائع بعظم الحاجة إليها وكثرة الطلب عليها. فإذا ما تناقص الطلب وقلة الحاجة وتم الاقتصار على الضرورى تذهب الصنائع، ويختفى الصناع النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ، وكما انقضت دمشق عاصمة الأمويين، وبغداد عاصمة العباسيين، والقاهرة عاصمة الفاطميين والأيوبيين والمماليك. وإذا ما قاربت الأمصار الخراب انقضت منها الصنائع. فالعلوم لا تكون إلا فى وقت قيام الدول وأسباب نهضتها^(٢).

وتنهيار المجتمعات إذا ما فسدت أخلاق الطبقة التجارية التى اغتنت عن طريق

(١) السابق ص ٢٩٤ - ٢٩٨ / ١٤٠ - ١٤١ / ١٦٧ - ١٦٨ / ١٧٤ - ١٧٥ / ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢) السابق ص ٣٥٩ - ٣٦٠ / ٤٠٣ - ٤٠٤ / ٣٧٤ - ٣٧٦.

التجارة والتحايل على المكوس ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ ^(١). وبالرغم من أن فلسفة التاريخ عند ابن خلدون قائمة على الاستقراء والملاحظة ووصف أحوال الأمم وإعمال العقل لاستخراج العلل والأسباب المطردة إلا أنها أيضاً تقوم على المنقول وكأنه ما هو إلا تصديق للآية كنوع جديد من التفسير التاريخي العلمي الذي يقوم على التصديق والتحقق.

فقوانين التاريخ هي قوانين الأخلاق أي الممارسات الفردية والاجتماعية مثل آية ﴿ إن أكرمكم عند الله اتقاكم ﴾. إذا ذهبت الأخلاق ذهب الملك "وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له". فمن علامات الملك التناقض في الخلال الحميدة ^(٢).

وأسباب انهيار الدول كثيرة منها الظلم المؤذن بخراب العمران فالعدوان على أموال الناس يذهب بالأمال في التحصيل والاكْتساب فيتوقفون عن السعي. وبقدر العدوان يكون انسحاب الرعايا من الكسب. وفي نصائح القرس أن الملك لا يتم إلا بالشرعية وطاعة الله، ولا قوام للشرعية إلا بالملك، ولا عز للملك إلا بالرجال، ولا قوام للرجال إلا بالمال، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل، والعدل هو الميزان بين الرب والخلق. والملك هو القيم على هذا الميزان. فإذا ظلم الملك انهار النظام السياسي الكوني الاجتماعي كله، وضاعت مقاصد الشرع الضرورية الخمسة حفظ النفس والعقل والدين والنسل والمال. وهو معنى آية ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾. ومن أوجه الظلم تسخير الرعايا بغير حق لأن العمل مصدر للرزق، وشراء ما في أيدي الناس بأبخس الأثمان ^(٣).

وفي مقابل هذا التصور المنهار للتاريخ هناك التصور الارتقائي له وأن المستقبل أفضل من الماضي. في المستقبل يتحقق العدل كما وقع الظلم في الماضي. ويمثل ذلك ما يقارب نصف الأحاديث المذكورة في المقدمة في أمر " الفاطمي ". وهي ليست فقط نصوصاً بل تراثاً شعبياً وإيماناً للعوام بظهور المخلص إذا ما اشتد الضيق وعظم البلاء.

(١) السابق ص ١٤٤ / ٣٧٣.

(٢) السابق ص ١٣٦ / ١٤٤.

(٣) السابق ص ٢٨٦ - ٢٩٠.

وهو الذى سيحقق العدل والرخاء (١).

هـ- مراحل التاريخ. وتبدو فكرة المراحل عند ابن خلدون مثل الأدوار والأكوار عند الشيعة فنهاية الحصب فى العقب الواحد أربعة آباء. فالكانتات الطبيعية ذاتها كانتة وفسادة بالمعابنة. كل شئ مثل العلوم والصنائع تنشأ وتدرس، رئاسة وشرف ثم قحة وابتدال. ومن الأجيال الأربعة اثنان مبدعان واثنان مقلدان، اثنان للقيام واثنان للسقوط. وتلك سنة الكون، توالى الأمم والشعوب ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز﴾. وهو متفق أيضاً مع ما قال الرسول "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم". وهو متفق مع التوراة بأن الله مطالب بذنوب الآباء للبنين على التوالى والروابع. فالأربعة أعقاب فى النسب والحصب. والشرف يأتى من كان له ثلاثة آباء متتالية واتصالهم بكمال الرابع (٢).

والدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص. حوالى مائة وعشرين سنة، وهى مدة قرانات الأقال. وهو عمر نوح. فالدولة ثلاثة أجيال والجيل أربعون عاماً كما قال القرآن ﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾ وهو معنى آية ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، ﴿ولكل أجل كتاب﴾.

وتختلف أحوال الدولة باختلاف الأطوار وهى خمسة: الأول طور الظفر بالبغية والاستيلاء على الملك واكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة. والثانى دور الاستبداد والانفراد بالملك واصطناع الرجال والموالى. والثالث دور الفراغ والدعة للتمتع بثمرات الملك وتخليد الآثار وتشيد المبانى والهيكل. وهو آخر أطوار الاستبداد. والرابع طور القنوع والمسالمة والتقليد والسكون. والخامس طور الإسراف والتبذير والإنفاق فى سبيل الشهوات والذات حتى يرث الله الأرض ومن عليها والله خير الوارثين (٣).

(١) يذكر فى المقدمة ٩٢ حديثاً منها ٤٣ حديثاً فى أمر الفاطمى. فى أمر الفاطمى وما يذهب إليه الناس فى شأنه وكشف الغطاء عن ذلك، السابق ص ٣١١ - ٣٣٠.

(٢) فى أن نهاية الحصب فى العقب الواحد أربعة آباء، السابق ص ١٣٦ - ١٣٨.

(٣) السابق ص ١٦٨ - ١٧٦ / ٢٩٣ - ١٩٦.

وانهيار الدولة قانون طبيعى. فإذا نزل الهرم بالدولة لا يرتفع كما هو الحال فى الكائنات الحية. وقد لا تنفع حركات الإصلاح أو التجديد والنهضة. فالدعة والترف لا يتحولان إلى جهاد ونضال. والعصية التى لا تذهب لا تعود. ويغيب التأييد الإلهى والنصر السماوى (١).

ويعظم الحجاب فى الدولة عند الهرم. فالبداءة شعار العصبية والدولة فى البداية. ويغيب عنها التنازع فى الملك إن كان قيامها بالدين. وإن كان قيامها بالغلبة تتغلب البداءة. فإذا بدأ الانفراد بالملك زاد الحجاب وظهرت البطانة، وتكرر الحجاب وتكاثر.

قد تقوم الدولة بعد انهيارها وتتجدد. إذ تنهار الدولة وتقوم من جديد بطريقتين. الأولى استبداد ولاية الأعمال فى الدولة القاصية عندما تنقلص السلطة المركزية فيكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه، ويغلب من له القوة. والأمثلة من دولة بنى العباس. والثانى الخروج على الدولة ممن يجاورها من الأمم والقبائل بدعوة جديدة أو بشوكة وعصبية. لذلك كان أول مظهر من مظاهر الهرم انقسام الدولة الواحدة إلى دولتين. وتسولى الدولة المستجدة على الدولة المسقرة بالمطالبة لا بالمناجزة. فإذا ذهب الملك عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته إلى شعب آخر منها مادامت له العصبية، وليس بالضرورة نفس الشعب (٢).

قد يبدو ابن خلدون متشائماً فى فلسفته للتاريخ. فالبداءة خشونة وفضاظة وتغلب وتفرد بالملك، ونهب وسلب واستيلاء على أموال الناس. والحضارة ترف ودعة وترهل وحرص على الدنيا وإيذان بالنهاية والتحول من البداءة إلى الحضارة بنبوة وولاية أو ملك أى بسلطة دينية أو سياسية وليس تحولاً طبيعياً عن طريق نمو طبيعى بالتفاعل الحضارى والتعليم والتنقيف. والتاريخ لا يقوم إلا لينهار فى أربعة أجيال أى فى قرن ونصف، ولا يوجد تراكم تاريخى يظهر من خلاله مفهوم التقدم وكأن التطور دائرى، عود على بدأ، وليس مستقيماً مطرداً أو حتى حلزونياً لأن البدو لا يتعلمون ولا الحضرة، ولا يوجد تراكم تاريخى كاف للموعظة والعبرة من دروس التاريخ.

(١) السابق ص ٢٩٠ - ٢٩٤ .

(٢) السابق ص ١٤٥ - ١٤٧ / ٢٩٢ - ٢٩٨ / ٢٩٣ - ٣٠١ .

ويشير ابن خلدون إلى الإفرنج. فقد عرف المسلمون شمال البحر المتوسط من خلال أسبانيا وصقلية. وألف الإدريسي "تزهة المشتاق" لملك صقلية من الإفرنج، بعد خروجها من إمارة مالقة (١). وقد بلغ ابن خلدون أن سفائن من الإفرنج مرت بجزر الإقليم الأول فقاتلهم المسلمون وغنموا منهم وسبوا وباعوا بعض أسراهم بسواحل المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان. فلما تعلموا اللسان العربى أخبروا عن حال جزائريهم فى الزراعة والبناء والرعى وفنون القتال ودياناتهم وأدوات ملاحهم مثل "الكومباس". وقد كان لدولة الإسلام اتصال بالقوط. وملكت الفرنجة سواحل المغرب قبل الإسلام. عرف ابن خلدون أسبانيا ويتحدث عن برسلونة وسرقوسة وجزر البحر الأبيض المتوسط مثل مالطة والساحل الجنوبى لأوربا إلى الشمالى للبحر الأبيض المتوسط، وبلاد غشكونية من أمم الفرنج. كما عرف دول البلقان وأوربا الشرقية. وشمال أوربا حتى أيسلندا. ومن ثم يكون ابن خلدون قد وصف أوربا وآسيا وأفريقيا، العالم القديم كله، والعالم الإسلامى فى مركزه .

كما عرف المسلمون بلاد الشرق، فارس والهند والصين. وعرفوا بلاد الجنوب، بلاد الزنج. وعرفوا بلاد الوسط، اليهود فى مصر والشام. فالعرب وسط العالم، شرقهم شعوب آسيا، وغربهم أسبانيا. وشمالهم أقوام أوربا. وجنوبهم أفريقيا، الأحباش والزنج (٢).

فإذا كان ابن خلدون قد وصف تحول العرب من الوحشية إلى الملك بفضل الإسلام ثم عودتهم إلى التوحش من جديد فى القرون السبعة الأولى فإن بداية المرحلة الثانية للحضارة العربية الإسلامية فى القرون السبعة التالية لابن خلدون منذ ابن تيمية قبله بقرن حتى القرن الرابع عشر تحول العرب من الملك الأول إلى الملك الثانى فى عصر الخلافة العثمانى التى ضمت الأمصار فى آسيا فى المشرق وأوربا فى المغرب. ومنذ القرن الماضى وقد بدأت حركة إصلاحية جديدة خرجت منها حركات التحرر الوطنى بالرغم من تعثرها. وقد بدت مرحلة ثالثة للحضارة العربية الإسلامية ترنو إلى قرون سبعة تالفة من القرن الخامس عشر الهجرى حتى القرن الواحد والعشرين الهجرى وليس الميلادى

(١) السابق ص ٥٣ / ٦٧ / ٧٢ / ٧٨ / ٨٠ / ٣٧٠ .

(٢) السابق ص ٥٦ / ٥٩ / ٦٥ / ٨٢ / ٨٥ .

وبداية الألفية الثالثة.

تحتاج الحضارة العربية الإسلامية إلى ابن خلدون جديد قادر على ضم القرون السبعة التالية له في منظور أوسع واستبصار القرون السبعة القادمة في رؤية عامة وشاملة للتاريخ. وبدلاً من وصف قيام الدول وسقوطها في الماضي يصف قيام الدول وتعرُّها في الحاضر. وبدلاً من أن يحلل أسباب الانهيار يضع شروط النهضة. وهو ما تنبأ به ابن خلدون نفسه في آخر المقدمة كما تنبأ به ابن سينا من قبل في آخر كتاب الشعر^(١).

و - خاتمة: من اليونان القديم إلى الغرب الحديث. إذا كانت علوم الحكمة القديمة قد نشأت وتطورات واكتملت في عصر الحضارات القديمة، اليونان والرومان غرباً، وفارس والهند شرقاً مع صدارة اليونان فإن علوم الحكمة في طورها الجديد تتعامل مع أوروبا وأمريكا غرباً والهند والصين شرقاً. وكما ورث اليونان الرومان قديماً، ورثت أمريكا أوروبا حديثاً. ومن ثم تستأنف علوم الحكمة طورها الثاني في تعاملها مع الغرب الحديث في مراحل النقل، تدويناً وترجمة وشرحاً، ومرحلة التحول عرضاً وتأليفاً وتراكماً حتى مرحلة الإبداع في الحكمة النظرية والحكمة العملية. وما زلنا نمر بمرحلتى النقل والعرض منذ أكثر من مائتي عام ولم نصل بعد إلى مرحلة الإبداع. الفلسفة الغربية جزء من الفلسفة الإسلامية في طورها جديد. فليست الفلسفة الإسلامية مرحلة واحدة في التاريخ ثابتة ساكنة هي اللحظة اليونانية. بل هي لحظات متجددة مع دورات التاريخ. وقد عرف الباحثون لحظة العصر الوسيط الأوروبي حيث بدأت الترجمة العكسية من العربية إلى اللاتينية أو العبرية، وبدأ النقل العكسي من الإسلام إلى الغرب حتى عصر النهضة وقبل أن يبدأ الغرب مساره الخاص، من النقل إلى الإبداع. وعرف رواد النهضة العربية المعاصرة منذ قرنين لحظة العصور الحديثة ولكنها لم تتحول بعد من فكر إلى فلسفة، ومن الترجمة إلى التأليف، ومن الشرح والملخصات إلى الإبداع.

(١) "ولعل من يأتي بعدنا ممن يزيد الله بفكر صحيح وعلم بين يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا. فليس على مستبطل الفن إحصاء مسائله وإنما عليه تعيين موضع العلم وتوزيع فصوله وما ينكلم فيه والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل، والله يعلم وأنتم لا تعلمون"، المقدمة ص ٥٨٨.

فالحكيم اليوم هو الذى يعرف تجربة القدماء ويساهم فى تجربة المحدثين. هو الذى يعلم اللحظة الماضية، لحظة اليونان القديم، ويستأنفها فى لحظة الغرب الحديث. الحكيم اليوم ليس متفجعاً ولا مؤرخاً ولا متكسباً بالكتاب المقرر ولا مؤلفاً فى ظروف المعيشة وأحوالها، الترقيات الداخلية أو الاعارات الخارجية، ولا مستشرقاً يقلد مناهج المستشرقين بل هو خليفة الحكماء القدماء ووارثهم. يستأنف أدوارهم، ويوحد ثقافة الأمة بين الموروث والوافد بدلاً من الصراع بينهما الذى يصل إلى حد التحزب والتعصب وسفك الدماء، صراعاً على السلطة السياسية. فالحق فى جانب واحد. والصواب فى مصدر واحد. هو صاحب الدار الذى يحمى ثقافة الأمة من ازدواجيتها وتبعيتها إلى الموروث القديم أو الوافد الحديث. من ثم يتم تجاوز التخصصات المعاصرة التى تقوم على صراع المصالح أكثر من تحقيق الأهداف المشتركة. فلو كان ابن رشد حياً بيننا وأستاذاً معنا لصعب تحديد تخصص له، إسلامية أو يونانية. وإذا فرق القدماء بين علوم العرب وعلوم العجم، بين علوم الوسائل وعلوم الغايات فإن الفلسفة الغربية اليوم هى علوم العجم المحدثين وعلوم العرب هى علوم الغايات. فماذا ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة: ديكارت، هيكل أرسطو العصر؟ ولو بعث ابن سينا الآن فكيف ييوب الحكمة الجديدة، منطق وطبيعيات وإلهيات؟ ولو بعث الفارابى الآن فأى حكيمين يوفق بينهما، هيكل وماركس؟ ومن ثم فالجبهة الثانية فى مشروع "التراث والتجديد" الموقف من التراث الغربى هو استئناف للجبهة الأولى "الموقف من التراث القديم. ويكون "علم الاستغراب" أقرب إلى العرض والتأليف والتراكم أى فى مرحلة تحول من النقل إلى الإبداع فى علاقتنا بالغرب الحديث حتى تستطيع الأجيال القادمة أن تنتقل إلى الإبداع الخالص الذى سماه ابن سينا "الشعر المطلق".

المصادر والمراجع

أولاً: النصوص القديمة

١- أبرقلس: أ- كتاب الإيضاح في الخير المحض (منسوب إلى أرسطو طاليس) عبدالرحمن بدوى: الأفلاطونية المحدثه عند العرب. أبرقلس الخير المحض، في قدم العالم، في المسائل الطبيعية، هرمس: معاذلة النفس، أفلاطون: الروابع. نصوص حقها وقدم لها، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٧، ويتضمن أيضاً:

ب- حجج أبرقلس في قدم العالم ترجمة إسحق بن حنين.

ج- مسائل فرقليس في الأشياء الطبيعية نقل إسحق بن حنين.

د- من كتاب اسطوخوسيس الصغرى.

٢- ابن باجه: (أبو بكر الصائغ): شروحات السماع الطبيعي. تحقيق وتقديم د. معنى زيادة. دار الكندي، دار الفكر، بيروت.

٣- ابن باجه: كتاب الكون والفساد. د. محمد صغير حسن المعصومي.

٤- ابن باجه: كتاب النفس. د. محمد صغير حسن المعصومي.

٥- ابن باجه: تعليقات على كتاب ايساغوجي للفارابي (د. ماجد فخري).

٦- ابن باجه: تعليقات على كتاب المقولات للفارابي (د. ماجد فخري).

٧- ابن باجه: تعليقات في كتاب باري ارمينياس ومن كتاب العبارة لأبي نصر الفارابي، تحقيق د. محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.

٨- ابن باجه: تعليقات على البرهان للفارابي د. ماجد فخري: المنطق عند الفارابي، تحقيق وتقديم وتعليق، دار المشرق، بيروت ١٩٨٧.

٩- ابن باجه: تدبير المتوحد تحقيق وتقديم د. معنى زيادة. دار الفكر الإسلامي، دار الفكر، بيروت. ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

١٠- ابن باجه: رسائل فلسفية، نصوص فلسفية غير منشورة (جزءان)، تحقيق وتقديم وتعليق جمال الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت، دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٨٣.

١١- ابن باجه: الرسائل الإلهية (ماجد فخري). وتتضمن:

أ- رسالة الوداع.

ب- قول يثلو رسالة الوداع.

ج- الوقوف على العقل الفعال.

د- اتصال العقل بالإنسان.

هـ- ملحق.

و- فى الغاية الإنسانية.

١٢- ابن باجه: رسائل فلسفية للكندى والفارابى وابن باجه وابن عدى (حقها وقدم لها)

د. عبدالرحمن بدوى، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٠، وتتضمن:

أ- رسالة فى المتحرك.

ب- رسالة فى الوحدة والواحد.

ج- مقالة فى الفحص عن القوة النزوعية.

د- رسالة فى القوة النزوعية.

١٣- ابن بختيشوع (أبوسعيد): رسالة فى الطب والأحداث النفسانية، حقها وقدم لها فيليكس كلاين

فرانكه، دار المشرق، بيروت ١٩٧٧.

١٤- ابن البيطار (ضياء الدين عبدالله ابن أحمد الأندلسى الملقب بالشاب): الجامع لمفردات

الأدوية والأغذية (مجلدان)، المشى، بغداد ١٢٩١هـ .

١٥- ابن الجزار (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن أبى خالد): طب الفقراء والمساكين، تحقيق

د.وجهة كاظم ال طعمة، قدم له بالفارسية والإنجليزية د. مهدى محقق، مؤسسة مطالعات

إسلامى، طهران ١٣٧٥هـ ش/ ١٩٩٦م.

١٦- ابن رشد (أبو الوليد): شرح البرهان لأرسطو وتلخيص البرهان، حققه وشرحه وقدم له

د.عبدالرحمن بدوى، ط١ الكويت ١٩٨٤.

١٧- ابن رشد : الشرح الكبير لكتاب النفس لأرسطو (جزءان)، النص اللاتينى كما حققه الأستاذ

كروفورد من جامعة بوسطن ونشره المجمع المتوسطى الأمريكى، ونقله من اللاتينية إلى

العربية إبراهيم الغربى، بيت الحكمة، قرطاج ١٩٩٧.

١٨- ابن رشد : تفسير ما بعد الطبيعة، (ثلاثة أجزاء)، مورييس بويج، المشرق، بيروت ١٩٦٧.

١٩- ابن رشد : تلخيص كتاب المقولات، حققه المرحوم د. محمود قاسم، راجعه وأكماله وقدم له

وعلق عليه د. تشارلس بتروث، د. أحمد عبد المجيد هريدى، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، القاهرة ١٩٨٠.

٢٠- ابن رشد : تلخيص كتاب العبارة، حققه المرحوم د. محمود قاسم، راجعه وأكماله وقدم له

وعلق عليه د. تشارلس بتروث، د. أحمد عبدالمجيد هريدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

القاهرة ١٩٨١.

٢١- ابن رشد : تلخيص كتاب القياس، حققه المرحوم د. محمود قاسم، راجعه وأكماله وقدم له

وعلق عليه د. تشارلس بتزورث، د. أحمد عبدالرحمن هريدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣.

٢٢- ابن رشد: تلخيص كتاب البرهان، حققه المرحوم د. محمود قاسم، راجعه وأكمّله وقدم له وعلق عليه د. تشارلس بتزورث، د. أحمد عبدالرحمن هريدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٢٣- ابن رشد : تلخيص كتاب الجدل، راجعه وأكمّله وقدم له وعلق عليه د. تشارلس بتزورث، د. أحمد عبدالرحمن هريدى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩.

٢٤- ابن رشد: تلخيص السفسطة، تحقيق محمد سليم سالم، دار الكتب، القاهرة ١٩٧٣.

٢٥- ابن رشد: تلخيص الخطابة، حققه وقدم له عبدالرحمن بدوى، للنهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠.

٢٦- ابن رشد: تلخيص كتاب أرسطوطاليس فى الشعر (ومعه جوامع الشعر للفارابى)، تحقيق وتعليق، د. محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشنون الإسلامية، القاهرة، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١.

٢٧- ابن رشد: تلخيص السماء والعالم، تقديم وتحقيق جمال الدين العلوى، كلية الآداب، فلس ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

٢٨- ابن رشد : تلخيص الكون والفساد، تحقيق جمال الدين العلوى، تصدير محمد مصباحى، دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٩٥.

٢٩- ابن رشد : تلخيص الآثار العلوية، تقديم وتحقيق جمال الدين العلوى، تصدير محمد علا سيناصر، دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٩٤.

٣٠- ابن رشد : تلخيص كتاب الحاس والمحسوس لأرسطو، شرّحه وحقّقه وقدم له عبدالرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٨٠.

٣١- ابن رشد : تلخيص ما بعد الطبيعة، حققه وقدم له د. عثمان أمين، مصطفى البابى الحنبى وشركاه، القاهرة ١٩٥٨ (وهو فى الحقيقة من الجوامع).

٣٢- ابن رشد : تلخيص السياسة، ترجمة عن الإنجليزى د. حسن العبيدى (روزنتال) أو الطليعة، بيروت Averroes: On Plato's Republic. Trans. With an intro. and notes by

Ralph Lerner, Cornell Uni. Press, Ithaca, London, 1974. وقد صدرت ترجمة

عن العبرية مباشرة بعنوان "الضرورى فى السياسة" مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، نقله من العبرية إلى العربية د. أحمد شحلان مع مدخل ومقدمة تحليلية وشرح للجابرى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨.

٣٣- ابن رشد : الضرورى فى أصول الفقه أو مختصر المستصفى، تقديم وتحقيق جمال الدين

العلوى، تصدير علال سيناصر، دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٩٩٤.

٣٤- ابن رشد: جوامع لكتب أرسطوطاليس في الجدل والخطابة والشعر حققه وقدم له وعلق عليها وترجمها إلى الإنجليزية تشارلس بتروث، Albany, State University of New York Press, 1997 35. (الجوامع).

٣٥- ابن رشد: رسائل دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد - الدكن ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م، ويتضمن:

أ- السماع الطبيعي.

ب- السماء والعالم.

ج- الكون والفساد.

د- الآثار العلوية.

هـ- كتاب النفس.

و- ما بعد الطبيعة.

٣٦- ابن رشد: جوامع الكون والفساد، تحقيق د. أبو الوفا التفتازاني وسعيد زايد، تصدير ومراجعة د. إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤١١ هـ - ١٩٩١م.

٣٧- ابن رشد: مقالات في المنطق والعلم الطبيعي، تحقيق جمال الدين العلوى، دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٨٣. وقد نشر منها عبدالمجيد الغنوشي مقالة في البنور الزرور بعنوان "مقالة في قوى النفس" وقدم لها، مجلة الجامعة التونسية، العدد الثامن ١٩٧١.

٣٨- ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، نسخه وراجع وضبط أصوله مصطفى عبد الجواد عمران، المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م. وقد أعاد نشره الجابري بعنوان "فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال أو وجوب النظر العقلي وحدود التأويل (الدين والمجتمع) مع مدخل ومقدمة تحليلية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٧، وله نشرة أخرى مع ترجمة إيطالية وتقديم وتعليق قامت بها فرانيسكا لوشيتا Francesca Lucchetta, Marietti, 1994.

٣٩- ابن رشد: الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، نسخه وراجع وضبط أصوله مصطفى عبد الجواد عمران، المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م. وقد حققه وقدم له أيضاً د. محمود قاسم، الاثولوجيا المصرية ط٢، القاهرة ١٩٦٤. وقد صدرت نشرة حديثة بنفس العنوان وإضافة "أو نقد علم الكلام ضداً على الترسيم الايديولوجي للعقيدة ودفاعاً عن العلم وحرية الاختيار في الفكر والعقل" مع مدخل ومقدمة تحليلية وشروح للجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨.

- ٤٠- ابن رشد: تهافت التهافت، ومعه تهافت الفلاسفة للغزالي، وعلى هامشه تهافت الفلاسفة للعلامة خوجة زاده أو أحد علماء الروم مصطفى البابي الحلبي وأخويه، القاهرة ١٣٢١هـ. ونشره حديثاً محمد عابد الجابري بعنوان "تهافت التهافت"، انتصاراً للروح العلمية وتأسيساً لأخلاقيات الحوار، مع مدخل ومقدمة تحليلية وشرح له، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٨م.
- ٤١- ابن رشد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد (جزءان) مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩م.
- ٤٢- ابن رشد: الكليات في الطب، تحقيق وتعليق د. سعيد شيبان، د. عمار الطالبي، راجعه د. أبو شاذي الروبي، تصدير د. إبراهيم بيومي مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م.
- ٤٣- ابن رشد: رسائل الطبية، تحقيق د. جورج شخانة فتواتي، سعيد زايد، تصدير د. إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- ٤٤- ابن حزم (أبو هـ - بن أحمد بن سعيد): التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة للفقهية، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).
- ٤٥- ابن حزم: طرق الحمامة، في الألفة والآلاف، حققه وصوبه وفهرس له حسن كامل الصيرفي، قدم له إبراهيم الإياري، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د.ت).
- ٤٦- ابن زهر (أبو مروان عبدالملك): التيسير في المداواة والتدبير، تحقيق المرحوم الدكتور ميشيل الخوري، تقديم د. محي الدين صابر، دار الفكر، دمشق ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- ٤٧- ابن سليمان (محمد بن ناصر): الأزرق، وكتبه سيف بن حنظل بن أحمد البوسعيدى، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ط٢ ١٤٠٦هـ- ١٩٦٨م.
- ٤٨- ابن سهل (أبو سعد العلاء) في: رشدي راشد: علم الهندسة والمناظر في القرن الرابع الهجري (ابن سهل، القوهي، ابن الهيثم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٦)، ويتضمن:
- أ- كتاب الحركات.
- ب- البرهان على أن الفلك ليس هو غاية الصفاء.
- ج- في خواص القطوع الثلاثة.
- د - شرح كتاب صحة (أبى سهل القوهي).
- هـ- كتاب تركيب المسائل.
- ٤٩- ابن سنان: رسائل، حققها د. أحمد سليم سعيدان ط١، الكويت ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- ٥٠- ابن سينا (أبو علي) الشفاء. المنطق ٣- العبارة، تحقيق محمود الخضيرى، تصدير ومراجعة د. إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.

- ٥١- ابن سينا : الشفاء، المنطق ٤- القياس، تحقيق سعيد زايد، راجعه وقدم له د. إبراهيم منكور، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- ٥٢- ابن سينا (أبو علي) الشفاء: ٥- البرهان، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٤.
- ٥٣- ابن سينا : الشفاء، للمنطق ٦- الجدل، حقق النص وقومه وقدم له د. أحمد فؤاد الأهواني، راجعه وقدم له د. إبراهيم منكور، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- ٥٤- ابن سينا: الشفاء. المنطق ٨- الخطابة. تصدير ومراجعة د. إبراهيم منكور، حققه د. محمد سليم سالم. نشر وزارة المعارف العمومية، الإدارة العامة للثقافة بمناسبة الذكرى الألفية للشيخ الرئيس، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- ٥٥- ابن سينا : الشفاء، المنطق ٩- الشعر، حققه وقدم له د. عبد الرحمن بدوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- ٥٦- ابن سينا : الشفاء، الفن الأول من جملة العلم الرياضي، أصول الهندسة، تحقيق د. عبد الحميد صبرة، عبد الحميد لطفى مظهر، مراجعة وتصدير د. إبراهيم بيومي منكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.
- ٥٧- ابن سينا : الشفاء، الفن الثاني في الرياضيات ٢- الحساب، تحقيق عبد الحميد لطفى مظهر، راجعة وقدم له د. إبراهيم بيومي منكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.
- ٥٨- ابن سينا : لشفاء، الرياضيات ٤- علم الهيئة، تحقيق د. محمد رضا منور، د. إمام إبراهيم أحمد، مراجعة وتصدير د. إبراهيم بيومي منكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠.
- ٥٩- ابن سينا : الشفاء، الطبيعيات ١- السماع الطبيعي، تحقيق سعيد زايد، تصدير ومراجعة د. إبراهيم منكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣.
- ٦٠- ابن سينا : الشفاء، الطبيعيات ٢- السماء والعالم ٣- الكون والفساد ٤- الأفعال والانفعالات، تحقيق د. محمود قاسم، راجعه وقدم له د. إبراهيم منكور، دار للكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ٦١- ابن سينا : الشفاء، الطبيعيات ٥- المعادن والآثار العلوية، بتحقيق د. عبد الحليم منتصر، سعيد زايد، عبدالله إسماعيل، راجعه وقدم له د. إبراهيم منكور، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.
- ٦٢- ابن سينا : الشفاء، الطبيعيات ٦- النفس، بتحقيق أ.د. جورج قناتى، سعيد زايد، تصدير ومراجعة د. إبراهيم منكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٦٣- ابن سينا : الشفاء، الطبيعيات ٨- الحيوان، بتحقيق د. عبدالحليم منتصر، سعيد زايد، عبدالله إسماعيل، راجعه وقدم له د. إبراهيم منكور، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

٦٤- ابن سينا : الشفاء، الإلهيات (٢) تحقيق الاستاذين الأب قنوتى، سعيد زايد، راجعه وقدمه د. إبراهيم منكور، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

٦٥- ابن سينا : الشفاء، الإلهيات (٢) تحقيق الأستاذة، محمد يوسف موسى، سليمان دنيا، سعيد زايد، راجعه وقدم له د. إبراهيم منكور، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

٦٦- ابن سينا : النجاة، فى الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية، محى الدين صبرى الكردى ط٢ القاهرة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م.

٦٧- ابن سينا : الإشارات والتنبيهات، صححه وعلق عليه وقدم له سليمان دنيا (ثلاثة أجزاء) دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي وشركاه، القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٧م.

٦٨- ابن سينا: عيون الحكمة، حققه وقدم له د. عبدالحميد بنوى، منشورات المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٤. وأيضاً للطبيعيات من عيون الحكمة، تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات، أمين هندية، مصر ١٩٠٨م - ١٣٢٦هـ.

٦٩- ابن سينا: منطق المشرقيين والقصيدة المزروجة فى المنطق، غنيت بتصحيحه ونشره المكتبة السلفية، القاهرة ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م.

٧٠- ابن سينا: كتاب المجموع أو الحكمة العروضية فى كتاب معانى الشعر، تحقيق وشرح د. محمد سليم سالم، دار الكتب، القاهرة ١٩٦٩.

٧١- ابن سينا: التعليقات. حققه وقدم له د. عبدالرحمن بدوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.

٧٢- ابن سينا: تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات، وفى آخرها قصة سلامان وأبال، ترجمها من اليونانى حنين بن إسحق، مطبعة هندية، مصر ١٩٠٨م - ١٣٢٦هـ وتشمل:

أ- فى الطبيعيات من عيون الحكمة.

ب- فى الأجرام العلوية.

ج- فى القوى الإنسانية وإدراكاتها.

د- فى الحدود.

هـ- فى أقسام العلوم العقلية.

- و- فى إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم.
- ز- الرسالة النيروزية (فى معانى الحروف الهجائية).
- ح- فى العهد.
- ط- فى علم الأخلاق.
- ٧٢- ابن سينا : مقالات: أرسطو عند العرب، دراسة نصوص غير منشورة لعبد الرحمن بدوى ط٢ وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨م، وتتضمن:
- أ- شرح حرف اللام.
- ب- شرح كتاب أثولوجيا المنسوب إلى أرسطو.
- ج- التعليقات على حواشى كتاب علم النفس لأرسطو.
- د- كتاب المباحثات.
- هـ- رسائل خاصة.
- و- نسخة عهد عهد لنفسه.
- ٧٤- ابن سينا: رسالة فى ذكر أسباب الرعد، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٥٣هـ.
- ٧٥- ابن سينا : القصيدة العينية مع دراسة للدكتور فتح الله خليف. دار الأحد، بيروت ١٩٧٤.
- ٧٦- ابن سينا : رسالة فى الموسيقى، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٣هـ .
- ٧٧- ابن سينا : النفس: حققها وقدم إليها د. أحمد فؤاد الأهدانى ط١ دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي وشركاه، القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، وتتضمن:
- أ- أحوال النفس.
- ب- مبحث عن القوى النفسانية.
- ج- فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها.
- د- فى الكلام على النفس الناطقة.
- ٧٨- ابن سينا: كتاب السياسة، لويس شيخو اليسوعى: مقالات فلسفية لمشاهير فلاسفة عرب مسلمين ونصارى أدار العرب، البستانى ط ٣ القاهرة ١٩٨٥.
- ٧٩- ابن سينا: رسائل: جامع البدائع، محى الدين صبرى الكردى ط١ مطبعة الثقافة، مصر ٣٣٠ هـ - ١٩١٧م وتتضمن:
- أ- ماهية الصلاة.
- ب- فى تفسير الصمدية.
- ج- فى تفسير المعودة الأولى.

- د- في سبب إجابة الدعاء وكيفية الزيارة وحقيقتها وتأثيرها.
- هـ- في القضاء والقدر (وأيضاً في دائرة المعارف العثمانية).
- و- في العشق.
- ز- رسالة حي بن يقظان مع شرح مختار.
- ح- سر القدر (وأيضاً في دائرة المعارف العثمانية).
- ط- أجوبة الشيخ الرئيس عن مسائل أبي الريحان البيروني.
- ك- أجوبة الشيخ الرئيس عن سؤال أبي حسين أحمد السهلي: يباه عن علة قيام الأرض وسط السماء.
- ٨٠- ابن سينا: رسائل: وهي الرسائل السادسة والسابعة والتاسعة والثانية عشرة من مجموع الرسائل، محي الدين صبري الكردي، كروستان العلمية، وتتضمن:
- أ- علم الأخلاق.
- ب- رسالة العهد.
- ج- أقسام العلوم العقلية.
- د- بيان الجوهر النفيس.
- ٨١- ابن سينا: رسالة أضحوية في أمر المعاد، ضبطها وحققها د. سليمان دنيا، دار الفكر العربي، القاهرة (د.ت.).
- ٨٢- ابن سينا: حي بن يقظان، النصوص الأربعة وميدوها د. يوسف زيدان بإضافة فاضل بن ناطق لابن النفيس ط ٢، دار الأمين، القاهرة ١٩٩٨. وطبعة أخرى حي بن يقظان (لابن سينا وابن طفيل والسهورودي)، تحقيق وتوليف أحمد أمين ط ٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٦.
- ٨٣- ابن سينا: الرسالة العرشية، في توحيده تعالى وصفاته، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٣هـ.
- ٨٤- ابن سينا: رسالة في سر القدر، دائرة المعارف الإسلامية، حيدر آباد الدكن ١٣٥٣هـ. وأيضاً طبعة للشيخ محي الدين صبري الكردي، مطبعة كردستان العلمية، وأيضاً في "جامع اليدائع".
- ٨٥- ابن سينا: رسالة في الفعل والانفعال وأقسامهما، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٥٣هـ.
- ٨٦- ابن سينا: رسائل، طبعة بالأفست، مكتبة المثنى، بغداد، اعتنى بتصحيحه العبد الفقير إلى رحمة ربه ميكائيل بن يحيى المهرني بريل، ليند ١٨٨٩م. وتحتوى على:
- أ- حي بن يقظان.
- ب- رسالة الطير.

ج- رسالة في العشق.

د- رسالة في ماهية الصلاة.

هـ- رسالة أبي سعيد في معنى الزيارة.

و- رسالة في دفع الغم من الموت.

ز- رسالة القدر وجواب ابن سينا.

٨٧- ابن سينا: رسالة الطير، لويس شيخو: مقالات فلسفية.

٨٨- ابن سينا: المبدأ والمعاد، باهتمام عبدالله نورتي، مؤسسة مطالعات إسلامي، طهران ١٣٦٣هـ.ش.

٨٩- ابن سينا: الحكومة في حجج المثبتين للماضي مبدأ زمانيا، اهتم بنشرها د. مهدي محقق، مؤسسة مطالعات إسلامي، طهران ١٣٧٧هـ.ش.

٩٠- ابن سينا: القانون في الطب (ثلاثة أجزاء) طبعة جديدة بالأوفست من طبعة بولاق، دار صادر بيروت (د.ت).

٩١- ابن سينا: القانون في الطب (كتاب الأدوية المفردة والنباتات)، طبعة رومية إيطاليا ١٥٩٣م شرح وترتيب زهران جيور. قدم له د. خليل أبو خليل، تعليق أحمد شوكت المشطى، مكتبة الطلاب، بيروت ١٩٧٢. طبعة أخرى قام بها د. مهند عبد الأمير الأعسم، الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦.

٩٢- ابن شقرون (عبدالقادر): الأرجوزة الشقرونية، تحقيق وتعليق د. بدر التنازي، تعريب وتقديم د. عبدالهادي التنازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٩٣- ابن طفيل: حي بن يقظان، نظرية ومنهج وتطبيق مدني صالح، بغداد ١٩٨٨.

٩٤- ابن الطيب (أبو الفرج): تفسير كتاب إيساغوجي لفرغوريوس، تحقيق د. كواي جيكي، دار المشرق، بيروت ١٩٧٥.

٩٥- ابن العبري (العلامة غريغوريوس أبو الفرج بن أهرن الطبيب الملطى): مقالة مختصرة في النفس البشرية. تولى نشرها وعلق حواشيها الأب لويس شيخواليوسعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، وأيضاً مقالات فلسفية.

٩٦- ابن عرفة: المختصر في المنطق، تحقيق وتقديم سعد غراب، الجامعة التونسية، تونس (د.ت).

٩٧- ابن العسال (أسعد أبو الفرج هبة الله): مقالة في المنطق. عني بنشرها وتعليق حواشيها الأب خليل إده اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩١١، وأيضاً لويس شيخو: مقالات فلسفية.

٩٨- ابن غيلان (عمر بن علي): حدوث العالم، اهتم بنشرها د. مهدي محقق، مؤسسة مطالعات إسلامي، طهران ١٣٧٧هـ.ش.

- ٩٩- ابن قرة (سنان بن ثابت بن قرة الحراني): سياسة النفوس، تحقيق وتعليق د. عبدالفتاح القادى، ط١ القاهرة ١٩٩٢.
- ١٠٠- ابن ماسويه (يحيى): كتاب الجواهر وصفاتها وفي أى بلد هي، وصفة الغواصين والتجار، حققه وعلق عليه د. عماد عبدالسلام رؤوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧.
- ١٠١- ابن المنجم: رسالة في الموسيقى وكشف رموز كتاب الأغاني، تحقيق وشرح وتعليق د. يوسف شوقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.
- ١٠٢- ابن النفيس: (على بن أبي الحزم القرشي الرشتي): تفسير كتاب ديسقوريدس في الأدوية المفردة، تحقيق إبراهيم بن مراد، دار الغرب الاسلامي، بيروت ١٩٨٩.
- ١٠٣- ابن النفيس: شرح فصول ابقراط، دراسة وتحقيق د. يوسف زيدان، د. ماهر عبدالقادر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٠.
- ١٠٤- ابن النفيس: رسالة الأعضاء، مع دراسة حول ابن النفيس ومنهجه وإبداعاته، دراسة وتحقيق د. يوسف زيدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ١٠٥- ابن النفيس: المختار من الأغذية، دراسة وتحقيق د. يوسف زيدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٢م.
- ١٠٦- ابن النفيس: المذهب في الكحل المجرب، تحقيق د. محمد ظافر الوفاني، محمد رواش قلعة جى، منشورات الايسسكو، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٠٧- ابن هندو: مفتاح الطب ومناهج الطلاب، باتمام مهدي محقق، محمد فقي دانشي ثروه، طهران ١٣٦٨.
- ١٠٨- ابن الهيثم (أبو علي الحسن): كتاب المناظر (المقالات ١-٣)، حققها وراجعها على الترجمة اللاتينية، عبدالحميد صبرة، الكويت ١٩٨٢.
- ١٠٩- ابن الهيثم: الشكوك على بطليموس، تحقيق د. عبدالحميد صبرة، د. نبيل الشهابي، تصدير د. إبراهيم منكور، دار الكتب، القاهرة ١٩٧١.
- ١١٠- ابن الهيثم: مقالة عن ثمره الحكمة، تحقيق وتقديم محمد عبدالهادي أبو ريدة، القاهرة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ١١١- الرسائل: تحقيق رشدي راشد: علم الهندسة والمناظر في القرن الرابع الهجري (ابن سهل، القوهي، ابن الهيثم)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٦، ويتضمن:
أ- كتاب المناظر (المقالة السابعة الكاسر الكرى العدسو الكرية).
ب- رسالة في الكرة المحرقة.

ج- رسالة في الكرة المحرقة تمرير كمال الدين الفارسي.

١١٢- ابن وحشية (أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني): الفلاحة النبطية (ترجمة منحولة إليه).

تحقيق توفيق فهد (جزءان). للمعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٩٣/١٩٩٥.

١١٣- أبو الفرج بن الطيب: تفسير كتاب إيساغوجي لفرغوريوس، تحقيق د. كواي جيكي، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.

١١٤- إخوان الصفا:

أ- رسائل إخوان الصفا وعلان الوفا (٤ أجزاء)، دار صادر، بيروت ١٩٥٧.

ب- الرسالة الجامعة، تاج رسائل إخوان وعلان الوفا تأليف الإمام المستور أحمد بن عبدالله بن

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. تحقيق مصطفى غالب، دار صادر، بيروت ١٩٧٤.

١١٥- أرسطو: منطق أرسطو، حقق وقدم له عبدالرحمن بدوي (ثلاثة أجزاء)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٩/١٩٥٢.

١١٦- أرسطو: الخطابة، الترجمة العربية القديمة، حققه وعلق عليه عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٩.

١١٧- أرسطو: فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد. ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبدالرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٣.

١١٨- أرسطو: في الشعر نقل أبي بشرمى بن يوسف القنائي من السرياني إلى العربي، حققه مع ترجمة حديثه ودراسة لتأثيره في البلاغة العربية، د. شكرى محمد عياد، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧.

١١٩- أرسطو: الطبيعة ترجمة إسحق بن حنين مع شروح ابن السمع ومتي بن يونس وابن عدى وأبى الفرج ابن الطيب (جزءان)، حققه وقدم له عبدالرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ج١ ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ج٢ ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

١٢٠- أرسطو: فى السماء والآثار العلوية، حققها وقدم لها عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٤.

١٢١- أرسطو: فى النبات تفسير نيقولاوس، ترجمة إسحق بن حنين بإصلاح ثابت بن قرّة راجعها على أصولها اليونانية وشرحها وحققها وقدم لها عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٨٠.

١٢٢- أرسطو: أجزاء الحيوان، ترجمة يوحنا بن البطريق، حققه وشرحه وقدم له د. عبدالرحمن

بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨.

١٢٣- أرسطو: المقالة الرابعة عشرة من كتاب طبائع الحيوان البحرى والبرى، تحقيق وتعليق د.

عزة محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥.

١٢٤- أرسطو: فى النفس، ترجمة إسحق بن حنين، راجعها على أصولها اليونانية وشرحها

وحققها وقدم لها عبدالرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٨٠.

١٢٥- أرسطو: مقالة اللام من كتاب ما بعد الطبيعة، عبدالرحمن بدوى، أرسطو عند العرب،

دراسة ونصوص غير منشورة ط٢ وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨.

١٢٦- أرسطو: الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة حنين بن إسحق، حققه وقدم له د. عبدالرحمن

بدوى، القاهرة ١٩٧٩.

127- Grignaschi, Mario: Les Rasa'il Aristatalisa ila l-Iskandar, de Salim Abu-l-Ala'et l'activité culturelle à l'epoque Omayyade, Bulletin d'Etudes Orientales, Institut Francais de Damas, T.XIX, 1967.

١٢٨- أرسطو: رسائل: وتتضمن :

أ- مواعظ الاسكندر، حيدر آباد.

ب- وصية أرسطاطاليس للاسكندر، حيدر آباد، وأيضاً لويس شيخو، مقالات فلسفية لمشاهير

فلاسفة عرب مسلمين ونصارى، دار الغرب البستانى ط٢، القاهرة ١٩٨٥.

ج- مقالة أرسطاطاليس فى التدبير نقلها عيسى بن زرعة. لويس شيخو، مقالات فلسفية

لمشاهير فلاسفة عرب مسلمين ونصارى، دار الغرب البستانى ط٢، القاهرة ١٩٨٥.

١٢٩- أرسطو: السياسة فى تدبير الرياسة المعروف بسر الأسرار ألفه أرسطاطاليس لتلميذه الملك

الاسكندر وترجمة يوحنا بن البطريق، الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام ج١

حققه وقدم له عبدالرحمن بدوى، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٤.

١٣٠- كتاب الطلسمات وهو الموسوم بكتاب الأسرار ترجمة إسحق بن حنين د. عبدالرحمن

بدوى: شروح على أرسطو مفقودة فى العربية ورسائل أخرى، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.

١٣١- أرسطاميدروس الاقسى: كتاب تعبير الرؤيا نقله من اليونانية إلى العربية حنين بن إسحق،

قابله بالأصل اليونانى وحققه وقدم له توفيق فهد، دمشق ١٩٦٤.

١٣٢- الأرموى البغدادي (صفى الدين عبد المؤمن بن أبى المفاخر): كتاب الأدوار فى

الموسيقى، تحقيق وشرح غطاس عبدالملك خشبة، مراجعة وتصدير د. محمود أحمد الحفنى،

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦.

- ١٣٣- الأزرق (إبراهيم بن عبدالرحمن بن أبي بكر): تسهيل المنافع في الطب والحكمة المشتغل على شفاء الأجسام وكتاب الرحمة، مكتبة الجمهورية العربية (د.ت).
- ١٣٤- الاسكندر الأفروديسي: رسالة في الرد على جالينوس فيما طعن به على أرسطو في أن كل ما يتحرك فإنما يتحرك عن محرك، نقل أبي عثمان الدمشقي، نشر، نيقولا ريشير، ميكائيل مارامورا، اسلام آباد، باكستان.
- ١٣٥- الاسكندر الأفروديسي : مقالات : وكلها في أرسطو عند العرب، دراسة ونصوص غير منشورة، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، ط٢ الكويت ١٩٧٨، وتشمل :
- أ- القول في مبادئ الكل بحسب رأى أرسطاطاليس الفيلسوف.
- ب- كلام الاسكندر الأفروديسي.
- ج- مقالة في الرد على كسنوقراطيس في أن الصورة قبل الجنس أول له أولوية طبيعية.
- د- في أنه قد يمكن أن يلتذ الملتذ ويحزن معاً على رأى أرسطو.
- هـ- في أن القوة الواحدة يمكن أن تكون قابلة للأضداد جميعاً على رأى أرسطاطاليس.
- و- مقالة في أن المكون إذا (استحال) استحال من ضده أيضاً على رأى أرسطاطاليس.
- ز- مقالة في الصورة وأنها تمام الحركة وكمالها على رأى أرسطو.
- ح- مقالة في إثبات الصور الروحانية التي لاهيولي لها.
- ط- مقالة في أن الفعل أعم من الحركة على رأى أرسطو.
- ك- مقالة في "الفصول" وفي حواشيها، تعليقات لأبي عمر والطبري عن أبي بشرمى بن يونس.
- ١٣٦- الاسكندر الأفروديسي : رسائل، شروح على أرسطو مفعودة في ليونانية ورسائل أخرى، حققها وقدم لها د. عبدالرحمن بدوي، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦، وتتضمن :
- أ- في الزمان ترجمة حنين بن إسحق.
- ب- في تثبيت العلة الأولى.
- ج- في الرد على من يقول أن الإبصار يكون بالشعاعات الخارجة عند خروجها من البصر.
- د- في الصوت.
- هـ- في العقل على رأى أرسطوطاليس ترجمة إسحق بن حنين.
- و- في لاهيولي وأنها مفعولة.
- ز- في المادة والعدم والكون وحل مسألة أناس من القدماء بها الكون من كتاب أرسطو في "سمع الكيان".
- ح- في الأضداد وأنها أوائل الأشياء على رأى أرسطو.

- ط- في أن النشوء والنماء إنما يكونان في الصورة لا في الهيولى، إخراج أبي عثمان الدمشقي.
- ى- في أن الهيولى غير الجنس وفيما يشتركان ويفترقان، نقل إسحق بن حنين.
- ك- في انعكاس المقدمات، ترجمة أبي عثمان الدمشقي.
- ل- في الاستطاعة.
- ١٣٧- أطفيش (محمد بن يوسف): تحفة الجب في أصل الطب، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١٣٨- أفلاطون: كتاب العهود اليونانية المستخرجة من رموز كتاب السياسة لأفلاطون وما انضاف إليه، تأليف أحمد يوسف بن إبراهيم، الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام. ج١- حققه وقدم له عبدالرحمن بدوي، النهضة المصرية، للقاهرة ١٩٥٤.
- ١٣٩- أفلاطون: كتاب الروايع شرح أحمد بن الحسين بن جهار بختار لثابت بن قره (منحول)، الأفلاطونية المحدثه عند العرب. أبرقلس: الخير المحض، في قدم العالم، في المسائل الطبيعية. هرمس: معادلة النفس، أفلاطون: الروايع، نصوص حققها وقدم لها عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٧.
- ١٤٠- أفلاطون: وصية في تأديب الأحداث، ترجمة إسحق بن حنين، لويس شيخو، مقالات فلسفية.
- ١٤١- أفلاطون: رسالة لأفلاطون الإلهي في الرد على من قال إن الإنسان ثلاثى وفنى بعد موته، نشر مباهات تركر، انقرة ١٩٦٨. وأيضاً: عبد الرحمن بدوي: أفلاطون في الإسلام، الأندلس، بيروت ١٩٨٢.
- ١٤٢- أفلاطون (المنحول): أفلاطون في الإسلام، نصوص حققها وعلق عليها عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٢ وتشمل:
- أ- فقر التقطت وجمعت من أفلاطون في تقويم السياسة الملوكية والأخلاقية الاختيارية.
- ب- كتاب النواميس.
- ج- رسالة أفلاطون إلى فرغوريوس في حقيقة نفى لهم وإثبات الرؤيا، جواباً إليه عن سؤال سابق.
- د - وصية أفلاطون الحكيم.
- هـ- كلمات أفلاطون.
- و - ملقطات أفلاطون الإلهي.
- ز - من رسالة في آراء الحكماء اليونانيين.
- ح - ثمرة لطيفة من مقاييس أفلاطون في أن النفس ى تنسد.
- ط - منحول لأفلاطون في الكيمياء.

(وباقى النصوص الصحيحة أو المنحولة مذكورة بأسماء مؤلفيها).

١٤٣- الآمدى (أبو الحسن على بن على بن محمد): المبين فى شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين، تحقيق د. عمار طالبى بعنوان "اصطلاحات الفلاسفة"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٣.

١٤٤- أمين (عثمان): نصوص فلسفية مهداة إلى د. إبراهيم مذكور (إشراف وتصدير)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.

١٤٥- الأنطاكى (داود الضرير): النزهة المبهجة فى تشحيز الأذهان وتعديل الأمزجة، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٢٨٢هـ .

١٤٦- الأنطاكى: تنكرة أولى الأبواب والجامع للعجب للعجاب، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٢٨٢هـ.

١٤٧- أورويسوس: تاريخ العالم، الترجمة العربية القديمة، حققها وقم لها عبدالرحمن بدوى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢.

١٤٨- إيرن: فى رفع الأشياء الثقيلة. أخرجه من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية قسطا بن لوقا البعلبكي وقد اعتنى بتصحيحه العبد الفقير إلى رحمة الله البرونق قرة: دوى، باريس ١٨٩٤.

١٤٩- أفلوطين: أثولوجيا أفلوطين عند العرب (حققه وقم له) عبد الرحمن بدوى دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٦.

١٥٠- برسيس: فى تدبير الرجل لمنزله نشره الأب لويس شيخو، مجلة المشرق، السنة ١٩، العدد ٣، آذار بيروت ١٩٢١.

١٥١- البغدادى (أبو الخير الحسن بن سوار): مقالة فى أن دليل يحيى النحوى على حدث العالم أولى بالقبول من دليل المتكلمين أصلاً. الأفلاطونية المحدثة عند العرب. أيرقلس: الخير المحض، فى قدم العالم، فى المسائل الطبيعية، هرمس: معادلة النفس، أفلاطون: الروايع. نصوص حققها وقم لها عبدالرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٧.

١٥٢- البغدادى (أبو البركات): المعتبر فى أصول الحكمة. الجامعة العثمانية، حيدر آباد الدكن.

١٥٣- البغدادى (عبد اللطيف): الفصول الأخيرة من ما بعد الطبيعة فى أثولوجيا. أفلوطين عند العرب، حققه وقم له عبدالرحمن البدوى، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٦.

١٥٤- البغدادى: من كتاب ما بعد الطبيعة (الفصل العشرون فى تلخيص كتاب إيضاح الخير. الأفلاطونية المحدثة عند العرب. أيرقلس: الخير المحض، فى قدم العالم، فى المسائل الطبيعية، هرمس: معادلة النفس، أفلاطون: الروايع. نصوص حققها وقم لها عبدالرحمن البدوى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٧.

١٥٥- بهمنيار بن المرزبان: رسائل:

أ- ما بعد الطبعة.

ب- مراتب الموجودات.

اعتنى بنشرها وتصحيحها الأفوكاتو عبدالجليل سعد سكرتير وكيل مصلحة السكك الحديدية، مطبعة كردستان العلمية لصاحبها فرج الله زكى الكردى بترب المسط بجمالية مصر سنة ١٣٢٩ هجرية، وأيضاً محمد على الجندى، الزهراء، القاهرة ١٩٩٠.

١٥٦- البيرونى (أبو الريحان): استخراج الأوتار فى الدائرة بخواص الخط المنحنى فيها، تحقيق أحمد سعيد للمرداش، مراجعة عبدالحميد لطفى، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٥.

١٥٧- البيرونى: الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق ادوار زاخلو مكتبة المثنى، بغداد لبيزج ١٩٢٣.

١٥٨- البيرونى: للجواهر فى الجواهر، تحقيق يوسف الهادى، طهران ١٩٩٥.

١٥٩- البيرونى: كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، نشرة مصورة ومترجمة من رامزى رايت، لوزاك، لندن ١٩٣٤.

١٦٠- البيرونى: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة، دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد-الدين ١٣٧٧هـ- ١٩٥٨م، عالم الكتب، بيروت وله ترجمة.

١٦١- التيريزى (أبو بكر يحيى بن عامى الخطيب): تهذيب إصلاح المنطق (جزءان) تحقيق د. فوزى عبدالعزيز مسعود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

١٦٢- تراقى (ملا مهدي بن أبى نر): شرح الإلهيات من كتاب الشفاء، باهتمام د. مهدي محقق، مؤسسة مطالعات إسلامي، تهران ١٣٦٥هـ.

١٦٣- التوحيدى (أبو حيان): الإشارات الإلهية حققه وقدم له عبدالرحمن بدوى ج١، مطبعة جامعة فواد الأول، القاهرة ١٩٥٠.

١٦٤- التوحيدى: الامتاع والموانسة، صححه وضبطه وشرح أحمد أمين، أحمد الزين، مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).

١٦٥- للتوحيدى: الصدقة والصديق شرح وتوليف على متولى صلاح، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٧٢.

١٦٦- التوحيدى: المقابسات، محقق ومشروح بقلم حسن السندوبى ط١، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٣٤٧هـ- ١٩٢٩م.

١٦٧- التوحيدى: الهوامل والشوامل نشره أحمد أمين صقر، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠هـ- ١٩٥١م.

١٦٨- للتوحيدى (مختارات): إعداد وتقديم جمال الغيطانى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٥.

١٦٩- التيفاشي (أحمد بن يوسف): كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، حققه وعلق عليه وشرحه محمد يوسف الحسن، محمود بسيوني خفاجي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٧.

١٧٠- ثابت بن قرة: مقالة في تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطو، حققها وقدم لها بدراسة نقدية وتحليلية عزى طه السيد أحمد، دار الشباب للنشر والتوزيع والترجمة، قبرص ١٩٩٣.

171- S.M.Stern & R. Walzer: An Arabic Translation of Themistius on the De Anima of Aristoteles, edited by M.C.Lyons, Oriental studies II, Lowe and Brydone Ltd., Thetford, Norfolk, Great Britain, 1973.

١٧٢- ثامسطيوس: جوامع كتاب أرسطوطاليس في معرفة طبائع الحيوان، ترجمة حنين بن إسحق، شروح على أرسطو مفقودة في العربية ورسائل أخرى، عبدالرحمن بدوي، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.

١٧٣- ثامسطيوس: رسالة إلى يولييان الملك في السياسة وتدبير المملكة، تحقيق وشرح، محمد سليم سالم، مركز تحقيق التراث، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة ١٩٧٠.

١٧٤- ثامسطيوس:

أ- مقالة في الرد على مقسيموس في تحليل الشكل الثاني والثالث إلى الأول شرح ثامسطيوس على مقالة اللام (الفصل الأول وشرط من الثاني).

ب- من شرح ثامسطيوس لحرف اللام، أرسطو عند العرب، دراسة ونصوص غير منشورة، حققها عبدالرحمن بدوي، ط٢ وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٨.

١٧٥- جالينوس: جوامع كتاب طيماوس في العلم الطبيعى، أفلاطون في الإسلام، نصوص حققها وعلق عليها عبدالرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٢.

١٧٦- جالينوس: كتاب جالينوس في فرق الطب للمتعلمين، نقل أبى زيد حنين بن إسحق العبادى المتطبب، تحقيق وتعليق د. محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨.

١٧٧- جالينوس: كتاب إلى طوثرن في النبض للمتعلمين، نقل أبى زيد حنين بن إسحق العبادى المتطبب، تحقيق وتعليق محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.

١٧٨- جالينوس: كتاب في الأسطقات على رأى أبقراط، نقل أبى زيد حنين بن إسحق العبادى المتطبب، تحقيق وتعليق محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

١٧٩- جالينوس: كتاب إلى غلوقن في التأنى لشفاء الأمراض مقالتان، شرح وتلخيص حنين بن إسحق المتطبب، تحقيق وتعليق محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

١٨٠- جالينوس: كتاب جالينوس إلى فيس في الترياق ترجمة حنين بن إسحق، نشره لوتر ريشتر برنبرج، جوتجن ١٩٦٩.

١٨١- جالينوس: كتاب الأخلاق، صححه ونشره بول كراوس (مختصر كتاب الأخلاق لجالينوس ربما لأبي عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي).

١٨٢- جالينوس: في الترجمة الطبية، نقل حنين من اليوناني إلى السرياني، وترجمة حبش من السرياني إلى العربي، نشره ريتشارد فالترز، لندن.

١٨٣- جالينوس: من جوامع كتاب النواميس، ترجمة حنين بن إسحق، نشره ريتشارد فالترز، بول كراوس، لندن ١٩٥١.

١٨٤- جالينوس:

أ- من مقالة جالينوس في أن قوى النفس توابع لمزاج البدن.

ب- مختصر مقال جالينوس في الحث على تعلم العلوم والصناعات.

ج- مختصر كتاب الأخلاق لجالينوس، دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.

١٨٣- جالينوس: من جوامع كتاب النواميس، ترجمة حنين بن إسحق، نشره ريتشارد فالترز، بول كراوس، لندن ١٩٥١.

١٨٤- جالينوس: أ- من مقالة جالينوس في أن قوى النفس توابع لمزاج البدن.

ب- مختصر مقال جالينوس في الحث على تعلم العلوم والصناعات.

ج- مختصر كتاب الأخلاق لجالينوس دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، عبدالرحمن بدوي: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.

١٨٥- الجيلاني (علي بن فضل الله): توفيق التطبيق في إثبات أن الشيخ الرئيس من الامامية الاثني عشرية، تقديم وتحقيق وتعليق محمد مصطفى حلمي ط ١ دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

١٨٦- جعفر بن منصور: كتاب العالم والعلام، أربع كتب تقديم وتحقيق مصطفى غالب المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٨٧.

١٨٧- حاتم بن عمران: الأصول والأحكام خمس رسائل اسماعيلية، تحقيق وتقديم عارف تامر.

١٨٨- حسن المعدل: أ- معرفة النفس الناطقة والعلوم الغامضة.

ب - رسالة مبتدأ العوالم ومبتدأ دور الستر والتقنية، أربع كتب حقانية، تحقيق وتقديم مصطفى

غالب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧.

١٨٩- حنين بن إسحق: رسالة إلى علي بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس وبعض ما لم يترجم، دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، عبدالرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.

١٩٠- حنين بن إسحق: الفرق بين الروح والنفس، نشرها الأب لويس شيخو اليسوعي، دار العرب للبستاني، القاهرة ١٩٨٥.

١٩١- حنين بن إسحق: في الضوء وحقيقته نقلاً عن كتب أرسطوطاليس، سعى بنشرها وتحقيق حواشيتها الأب لويس شيخو اليسوعي، مجلة المشرق، للسنة الثانية، العدد ٢٤ بيروت ١٨٩٩.

١٩٢- حنين بن إسحق: كتاب العشر مقالات في العين (للمنسوبة إليه ١٩٤-٢٦٤هـ)، أقدم كتاب في طب العيون ألفه على الطريقة العلمية. طبع النص العربي من النسختين الوحيدتين المعروفتين، وترجمه إلى الإنجليزية مع بيان شرح المصطلحات، ومعجم الأسماء الطبية، ماكس مايرهوف، طبيب العيون بالقاهرة، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢٨.

١٩٣- حنين بن إسحق: كتاب المولدين، تحقيق د. يوسف حبي، بغداد ١٩٧٨.

١٩٤- حنين بن إسحق: المسائل في الطب، تحقيق وتعليق محمد علي أبو ريان، جلال محمد موسى، مرسى محمد عرب، دار الجامعات المصرية، الإسكندرية ١٩٧٨.

١٩٥- الخوارزمي (محمد بن موسى): الجبر والمقابلة، تقديم وتعليق على مصطفى مشرفة، محمد مرسى أحمد، دار الكتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨.

١٩٦- خوجة زاده: تهاقت الفلاسفة، وهو أوحد علماء الروم في عصره المتوفى سنة ٨٩٣، ألفه في التحكيم بين الامامين المشار إليهما فيما اختلفا فيه بإشارة من السلطان محمد الفاتح، وشهد له بالتبريز العلامة الدواني وسائر معاصريه حتى استحق بذلك التقديم من السلطان الموصى إليه كما هو مبسوط في "كشف الظنون" وفي "الشفائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية" مصطفى الليالي الحلبي وأخواه، القاهرة ١٣٢١هـ.

١٩٧- الخونجي (أفضل الدين): الجمل، تحقيق وتقديم سعد غرب، الجامعة التونسية، تونس (د.ت).

١٩٨- الخيام (عمر بن إبراهيم): جامع البدائع، محي الدين صبري الكردي، القاهرة ١٣٣٥هـ. -أحكمة الخالق في خلق العالم خصوصاً الإنسان وتكليف الناس بالعبادات. جامع البدائع (الرسالة الثالثة عشرة).

ب- الجواب على ثلاث مسائل، تصف الخير والشر، الجبر والاختيار، البقاء صفة معنى أم زائدة ؟ (الرابعة عشرة).

ج- الضياء العقلي في موضوع العلم للكلّي وتحقيق جملة من مباحثه وأحكامه (الرسالة

الخامسة عشرة).

١٩٩- الخير أبادى (المولوى محمد فضل الحق العمرى الحنفى الماترينى): الهداية السعيدية فى الحكمة الطبيعية، قام بطبعه وتصحيحه حضرة الفاضل الشيخ عبدالرحمن البرقوقى، مجلة المنار، القاهرة ١٣٢٢هـ .

٢٠٠- للميرى (الشيخ كمال الدين): حياة الحيول الكبرى، دار لقاموس الحديث، بيروت (د.ت).

٢٠١- ديسفوريدس: مقدمة لكتاب الحشائش والأدوية، بترجمة مهرا بن منصور بن مهرا، نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٦٥.

٢٠٢- ديوفنطس: صناعة الجبر، ترجمة قسطا بن لوقا، حققه وقدم له رشدى راشد الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥.

٢٠٣- الذهبى (أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان): الطب النبوى، مكتبة الجمهورية العربية، القاهرة (د.ت).

٢٠٤- للرازى (أبو بكر محمد بن زكريا): رسائل فلسفية مضافاً إليها قطعاً من كتبه المفقودة، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط ٢ ١٩٧٧.

٢٠٥- للرازى: الشكوك على بطليموس حققه وقدم له بالفارسية والعربية والإنجليزية مهدى محقق، طهران، إيران ١٣٧٢هـ ش - ١٤١٣هـ ق/ ١٩٩٣م.

٢٠٦- للرازى: كتاب المرشد أو الفصول مع نصوص طبية مختارة. تقديم وتحقيق البير زكى اسكندر، تليه دراسة تحليلية لطب الرازى للدكتور محمد كامل حسين، مدير جامعة عين شمس السابق.

٢٠٧- الرازى (أبو حاتم أحمد بن حمدان): كتاب الإصلاح، باهتمام حسن مينوهجر، مهدى محقق، مؤسسة مطالعات إسلامى، تهران ١٣٧٧ هجرى شمسى ١٩٦٩م.

٢٠٨- الرازى (خضر بن محمد بن على): شرح الغرة فى المنطق، حققه وقدم له وأعدّه البير نصرى نادر، دار المشرق، بيروت ١٩٨٣ (الغرة للجرجانى).

٢٠٩- الرازى (فخر الدين): شرح الإشارات، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٢٥هـ .

٢١٠- الرازى: الفراسة عند العرب وكتاب الفراسة تأليف د. يوسف مراد، ترجمة وتقديم د.مراد وهبة، مراجعة د. إبراهيم بيومى منكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.

٢١١- كتاب النفس والروح وشرح قواعدها، تحقيق د. محمد صفيير حسن المعصومى، إسلام آباد، باكستان (د.ت).

٢١٢- للرازى: المباحثات المشرقية مكتبة الأسد، طهران ١٩٦٦.

- ٢١٣- الساوى (عمر بن سهلان): البصائر النصيرية فى علم المنطق، تحقيق العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده، صبيح، القاهرة (د.ت).
- ٢١٤- السجستانى (أبو سليمان المنطقى): فى أن الأجرام السماوية ذوات أنفس ناطقة.
- ٢١٥- السجستانى (أبو سليمان): فى المحرك الأول.
- ٢١٦- السجستانى (أبو سليمان): فى الكمال الخاص بنوع الإنسان، صوان الحكمة حققه وقدم لها عبد الرحمن بدوى، طهران ١٩٧٤.
- ٢١٧- السجستانى (الفيلسوف الاسماعيلى أبو يعقوب إسحق): كتاب إثبات النبوات، حققه وقدم له عارف تامر، ط٢، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦
- ٢١٨- السجستانى (أبو يعقوب): الزيناييم، تقديم وتحقيق د. مصطفى غالب، المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت ١٩٦٥.
- ٢١٩- السجستانى (أبو يعقوب): تحفة المستجيبين، خمس رسائل إسماعيلية، تحقيق وتقديم عارف تامر، دار الانصاف، سليمة سوريا ١٣٨٥هـ-١٩٥٦م.
- ٢٢٠- السنوسى (أبو عبدالله محمد بن يوسف): شرح على مختصره فى فن المنطق، القاهرة ١٢٢٥هـ (ط ١٢٩٢هـ).
- ٢٢١- الشعرانى (أبو المواهب عبدالوهاب بن أحمد بن على الأنصارى الشافعى المصرى): مختصر تذكرة الإمام السويدي فى الطب، مكتبة القاهرة، القاهرة (د.ت).
- ٢٢٢- الشهرستانى (الشيخ الإمام جمال الإسلام طراز الشريعة محمد بن عبدالكريم): مصارعة الفلاسفة، تحقيق وتقديم وتعليق سهير محمد مختار، القاهرة ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.
- ٢٢٣- شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبدالله أبو طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى): نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٢٣.
- ٢٢٤- الشيرازى (صدر الدين): مجموعة رسائل فلسفى. تحقيق وتصحيح حامد ناجى أصفهانى، انتشارات حكمت، تهران ١٣٧٨هـ.
- ٢٢٥- الشيرازى: الحكمة المتعالية فى الأسفار العقلية الأربعة، (٩ أجزاء) ط٣ دار لحياء التراث العربى، بيروت ١٩٨١.
- ٢٢٦- الشيرازى: أ- رسالة فى القطب والمنطقة، تصحيح وتحقيق آية الله حسن حسن زاده آملى.
ب- أجوبة المسائل، تحقيق وتصحيح عبد الله بكيا، طهران ١٣٧٨ ش.
- ٢٢٧- الشيرازى: رسالة فى الحدوث (حدوث العالم) تصحيح وتحقيق سيد حسين موسيان، طهران ١٣٧٨ ش.

٢٢٨- الصبيري (المهدي بن إبراهيم): مختصر كتاب الرحمة في الطب والحكمة، مكتبة القاهرة، القاهرة (د.ت.).

٢٢٩- صدقة بن علي: جامع البدائع (الرسالتان السادسة عشر والثامنة عشر) محي الدين صبري الكردى، القاهرة ١٣٣٥هـ ويشمل:

أ- فى إثبات الصانع القدير.

ب- فى صفوة الكلام على صفة العلم الإلهي.

٢٣٠- الصفوى (عيسى بن محمد بن عبدالله الأيجي): شرح الغرة فى المنطق، حققه وقدم له وأعدّه د. البير نصرى نادر، دار المشرق، بيروت ١٩٨٣ (الفرقة للجرجاني).

٢٣١- الطبطبائى (السيد محمد الأمين): نهاية الحكمة، صححه وعلق عليه الشيخ عباس على الزراعى السبزواري، مؤسسة النشر الاسلامي رقم ١٤١٧هـ.

٢٣٢- الطغراني (مؤيد الدين أبو إسماعيل الحسيني بن علي): حقائق الاستشهاد، رسالة فى إثبات الكيمياء والرد على ابن سينا، تحقيق د. رزوق فرج رزوق، بغداد ١٩٨٢.

٢٣٣- الطوسى (شرف الدين): الجبر والهندسة فى القرن الثانى عشر، ترجمة د. نقولا فارس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨، تحقيق رشدى راشد. ويشمل:

أ- رسالة حول المعادلات (٢٠-١).

ب- رسالة حول المعادلات (٢١-٢٥).

ج- رسالة فى الخطين الذين يقرآن ولا يلتقيان.

٢٣٤- الطوسى (الخواجه نصير الدين): شرح الإشارات المطبوعة الخيرية، القاهرة ١٣٢٥هـ.

٢٣٥- الطوسى: شرح مسألة العلم، حققه وقدم له: عبدالله نورانى، جامعة دمشق ٣٨٥ ق- ١٣٤٥ ش.

٢٣٦- الطوسى: رسالة بقاء النفس بعد فناء الجسد وشرحها العلامة الكبير والمصلح النحرير الأستاذ الشيخ أبى عبدالله الزنجاني. مطبعة رعييس، الفجالة، القاهرة، مصر (د.ت.).

٢٣٧- الطوسى: مصارع المصارع حققه وقدم له فيصل بدير عون، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٦.

٢٣٨- العامرى (أبو الحسن محمد بن يوسف): الإعلام بمناقب الإسلام، تحقيق ودراسة بقلم أحمد عبد الحميد غراب، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

٢٣٩- العامرى: الأمد على الأبد بتصحيح ومقدمة أدت ك. روسن، مؤسسة مطالعات إسلامي، دار الكندي، بيروت.

- ٢٤٠- العامري: إنقاذ البشر من الجبر والقدر، نشر د. قاسم طورخان، ايقان، استانبول ١٩٩٦.
- ٢٤١- العامري: رسائل رشدرته الفلسفية دراسة ونصوص د. سحبان خليفات، عمان ١٩٨٨، ويشمل:
- أ- إنقاذ البشر من القضاء والقدر.
 - ب- التقرير لأوجه التقدير.
 - ج- الفصول في المعالم الإلهية.
 - د- القول في الابصار والمبصر.
 - هـ- شذرات.
- ١- شرح كتاب المقولات لأرسطو.
 - ٢- مختارات مسكويه والتوحيدى من كتاب الشك العقلى والتصوف الملى.
 - ٣- مختارات مختصر صوان الحكمة.
 - ٤- شذرات فى الفلسفة الخلقية.
- ٢٤٢- العاملى (بهاء الدين): الأعمال الرياضية، تحقيق وشرح وتحليل د. جلال شوقى، دار الشروق، القاهرة ١٩٨١.
- ٢٤٣- العرضى (مؤيد الدين): كتاب الهيئة، تحقيق وتقديم د. جورج صليبا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠.
- ٢٤٤- العطاس (سيد محمد نقيب): مراتب ودرجات وجود، ترجمة د. سيد جلال الدين مجتبوى، مؤسسة مطالعات إسلامى، تهران ١٣٧٥ هـ ش - ١٣١٧ هـ ق.
- ٢٤٥- على بن حنظلة: رسالة ضياء العلوم، ومصباح العلوم، أربع كتب حقانية.
- ٢٤٦- عيسى بن على (أبو القاسم) الفيلسوف البغدادي: إبطال أحكام النجوم، دراسة وتحقيق د. سحبان خليفات، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى العدد ٣٢ السنة الحادية عشرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٤٧- الغزالى (أبو حامد محمد): تهافت الفلاسفة (مع تهافت التهافت لابن رشد فى صلب الصفحة وتهافت الفلاسفة للعلامة خوجه زادة أوجد علماء الروم فى عصره فى الهامش)، مصطفى البابى الحلبي وأخواه، القاهرة ١٣٢١ هـ .
- ٢٤٨- الغزالى: معيار العلم فى فن المنطق، مطبعة كردستان العلمية، القاهرة ١٣٢٩ هـ .
- ٢٤٩- الغزالى: مقاصد الفلاسفة، فى المنطق والحكمة الإلهية والحكمة الطبيعية، مطبعة كردستان العلمية، القاهرة (د.ت).
- ٢٥٠- الغزالى: القسطاس المستقيم، صححه والتزم طبعه الشيخ مصطفى القبانى النمشفى ط١ القاهرة ١٣١٨ هـ - ١٩٠٠م.

- ٢٥١- الغزالي: محك النظر، دار النهضة الحديثة، بيروت ١٩٦٦.
- ٢٥٢- الغيلاني (فريد الدين): المناظرة بين فخر الدين الرازي وفريد الدين الغيلاني، اهتم بنشرها مهدي محقق، مؤسسة مطالعات إسلامي، طهران ١٣٧٧هـ-ش.
- ٢٥٣- الفارابي (أبو نصر): كتاب المقولات، نشر مباحات تركر، أنقرة ١٩٦٧، وإيضاً رفیق العجم.
- ٢٥٤- الفارابي: كتاب باری ارمنیاس آی العبارة. نشر مباحات تركر، أنقرة ١٩٦٨، وإيضاً رفیق العجم بعنوان "كتاب العبارة".
- ٢٥٥- الفارابي: شرح كتاب أرسطوطاليس في العبارة. عنى بنشره وقدم له ولهم كوتش اليسوعي، وستانلي مارو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٠.
- ٢٥٦- الفارابي: كتاب البرهان. د. ماجد فخري: المنطق عند الفارابي، تحقيق وتقديم وتعليق، دار المشرق، بيروت ١٩٨٧ وإيضاً مباحات تركر، أنقرة ١٩٥٩.
- ٢٥٧- الفارابي: شرائط اليقين د. ماجد فخري: المنطق عند الفارابي، تحقيق وتقديم وتعليق، دار المشرق، بيروت ١٩٨٧ وإيضاً مباحات تركر، أنقرة ١٩٥٩.
- ٢٥٨- الفارابي: جوامع الشعر، تحقيق وتعليق د. محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشتون الإسلامية، القاهرة ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.
- ٢٥٩- الفارابي: كتاب في المنطق (الخطابة) تحقيق وتعليق د. محمد سليم سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.
- ٢٦٠- الفارابي: كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق. حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة شيكاغو، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.
- ٢٦١- الفارابي: كتاب الحروف، محسن مهدي، بيروت ١٩٧٠.
- ٢٦٢- الفارابي: المنطق (ثلاثة أجزاء) عند الفارابي تحقيق وتقديم وتعليق، تحقيق رفیق العجم ويشمل:
- ج١ أ- نص التوطئة.
- ب- الفصول الخمسة.
- ج- إيساغوحى.
- د- كتاب المقولات.
- هـ- كتاب العبارة.
- ج٢ أ- كتاب القياس.
- ب- كتاب القياس الصغير على طريقة المتكلمين.
- ج- كتاب التحليل.

د- كتاب الأمكنة المخلطة.

ج- ٣ كتاب الجدل. دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.

٢٦٣- الفارابي: أ- فلسفة أفلاطون وأجزاءها ومراتب أجزائها من أولها إلى آخرها.

ب- الفارابي: تلخيص نواميس أفلاطون. وكلاهما في "أفلاطون في الإسلام" نصوص حققها وعلق عليها عبدالرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٢.

٢٦٤- الفارابي: فلسفة أرسطوطاليس (أجزاء فلسفته، ومراتب أجزائها، والموضع الذي منه ابتداء وإليه انتهى)، حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي، مجلة الشعر، بيروت ١٩٦١.

٢٦٥- الفارابي: إحصاء العلوم، حققه وقدم له وعلق عليه د. عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٩ ط ٢ الانجلومصرية ١٩٦٨.

٢٦٦- الفارابي: التنبيه على سبيل السعادة دراسة وتحقيق د. سبحان خليفات ط ١ عمان ١٩٨٧.

٢٦٧- الفارابي: رسالة في العلم الإلهي (منسوبة إليه). أفلوطين عند العرب، حققه وقدم له في عبد الرحمن بدوي، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٦.

٢٦٨- الفارابي: فصول مفترعة، حققه وقدم له وعلق عليه د. فوزي مري نجار، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.

٢٦٩- الفارابي: كتاب الواحد والوحدة حققه وقدم له وعلق عليه محسن مهدي، توبقال، الدار البيضاء ١٩٨٩.

٢٧٠- الفارابي (المجموع): ط ١ الخانجي، القاهرة ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م ويشمل:

أ- الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطوطاليس.

ب- الابانة عن غرض أرسطو في كتاب ما بعد الطبيعية.

ج- معاني العقل.

د- ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلاسفة.

هـ- عيون المسائل.

و- التكت فيما يصح وما لا يصح في أحكام النجوم.

ز- المسائل الفلسفية والأجوبة عليها.

ح- فصوص الحكم مع شرحه "فصوص الكلم" للسيد محمد بدر الدين الحلبي.

٢٧١- رسائل الفارابي: حيدر أباد النكن، وتشمل:

أ- الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطوطاليس.

ب- فيما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة.

- ج- تحقيق غرض أرسطو في كتاب ما بعد الطبيعية.
- د- مقالة في معاني العقل.
- هـ- تجريد رسالة الدعاوى القلبية.
- و- شرح رسالة زينون الكبير اليونانى.
- ز- تحصيل السعادة.
- ح- عيون المسائل.
- ط- رسالة في إثبات المفارقات.
- ى- فصوص الحكم.
- ك- المسائل الفلسفية والأجوبة عليها (المسائل المتفرقة).
- ل- النكت فيما يصح وما لا يصح فى أحكام النجوم.
- م- التنبيه على السعادة.
- ن- التعليقات.
- ق- السياسة المدنية. (الرسائل أ / ب / جـ / د / ح / ك / ل) مطبوعة أيضاً فى المجموع.
- ٢٧٢- الفارابى: مقالة فى الجهة التى يصح عليها القول فى أحكام النجوم.
- ٢٧٣- الفارابى: مقتطفات من كتاب إحصاء الإيقاع.
- ٢٧٤- الفارابى: كلام أبى نصر الفارابى فى تفسير كتاب المدخل، تحقيق وتقديم د. عمار الطالبي، د. عثمان أمين (إشراف وتصدير): نصوص فلسفية مهداة إلى د. إبراهيم مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.
- ٢٧٥- الفارابى: الموسيقى الكبير، تحقيق وشرح غطاس عبدالمك حشبة، مراجعة وتصدير محمود أحمد الحفنى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٧.
- ٢٧٦- الفارابى: آراء أهل المدينة الفاضلة، صبيح، القاهرة (د.ت).
- ٢٧٧- الفارابى: رسالة فى السياسة. تولى نشرها الأب لويس شيخواليسوعى: مقالات فلسفية لمشاهير فلاسفة عرب مسلمين ونصارى، دار العرب ط ٣ القاهرة ١٩٨٥.
- ٢٧٨- الفارابى: كتاب الملة ونصوص أخرى حققها وقدم لها وعلق عليها محسن مهدى أستاذ الدراسات العربية والإسلامية بجامعة شيكاغو، دار المشرق، بيروت ١٩٦٨.
- ٢٧٩- الفارابى: أ- رسالة فى الملة الفاضلة.
- ٢٨٠- رسالة فى الرد على جالينوس فيما ناقض فيه أرسطوطاليس لأعضاء الإنسان.
- ٢٨١- الفارابى: رسالة فى الرد على يحيى النحوى فى الرد على أرسطوطاليس فى رسائل فلسفية للكندى

- والفيلسوف وابن باجه وابن عدى (حققها وقدم لها) عبد الرحمن بدوى، دار الأنتلس، بيروت ١٩٨٠.
- ٢٨٢- الفارسي (كمال الدين أبو الحسن): أساس القواعد فى أصول الفوائد، تحقيق مصطفى موالدى، مهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٩٤.
- ٢٨٣- الفارسي: كتاب تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر ج١- تحقيق وتقديم مصطفى حجازى، مراجعة محمود مختار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- ٢٨٤- فلوطرخس: الآراء الطبيعية التى ترضى بها الفلاسفة المنسوب إلى فلوطرخس، ترجمة قسطا بن لوقا، راجعها على أصولها اليونانية، وشرحها وحققها وقدم لها عبد الرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٨٠.
- ٢٨٥- فيثاغورس: الوصية الذهبية، لويس شيخو، مقالات فلسفية.
- ٢٨٦- فيلون (البيزنطى): الحيل الروحانية ومخانيقا الماء.
- ٢٨٧- القرشى (الداعى إدريس عماد الدين): كتاب زهر المعانى، تقديم وتحقيق د. مصطفى غالب، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٢٨٨- القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود): عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، دار القاموس الحديث، بيروت (د.ت.).
- ٢٨٩- قسطا بن لوقا: رسالة فى الفرق بين الروح والنفس، لويس شيخو: مقالات فلسفية.
- ٢٩٠- قصاب باش زاده (بيوك زاده): المثل العقلية الأفلاطونية، حققه وعلق عليه عبد الرحمن بدوى، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم بيروت.
- ٢٩١- القليوبى الشافعى (شهاب الدين أحمد بن أحمد سلاقة): تذكرة (على هامش مختصر تذكرة الإمام السويدي فى الطب)، مكتبة القاهرة، القاهرة (د.ت.). وله طبعة أخرى فى مكتبة القاهرة، القاهرة (د.ت.).
- ٢٩٢- القوهى (ابن سهل): أ- مسألة هندسية.
- ب- كتاب صناعة الاصطراب بالبرهان، د. رشدى راشد: علم الهندسة والمناظر فى القرن الرابع الهجرى (ابن سهل، القوهى، ابن هيثم) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٦.
- ٢٩٣- الكاتب (الحسن بن أحمد بن على): كتاب كمال أدب الغناء، تحقيق غطاس عبدالملك خشبة، مراجعة د. محمود أحمد الحفنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥.
- ٢٩٤- الكاتبى: الرسالة الشمسية مع شرح الرازى (قطب الدين بن محمد) تحرير القواعد المنطقية مع حاشية الجرجانى (السيد الشريف على بن محمد) "حاشية على تحري القواعد المنطقية"، مصطفى البابى الحلبي، القاهرة ط ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.

- ٢٩٥- لكثاني (جمشيد غوث الدين): مفتاح الصواب، تحقيق وشرح أحمد سعيد النمردش، محمد حمدي الحضي الشيخ، مراجعة عبد الحميد لطفى، دار لكتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت).
- ٢٩٦- الكرمانى (الداعى أحمد حميد الدين): راحة العقل تقديم وتحقيق مصطفى غالب، دار الأنتلس، بيروت ١٩٦٧.
- ٢٩٧- الكرمانى: مجموعة رسائل، تقديم وتحقيق د. مصطفى غالب، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت ١٩٨٢.
- ٢٩٨- الكندى: رسائل الكندى الفلسفية (جزءان) تحقيق ونشر محمد عبد الهادى أبو ريده ج١- الرسائل الفلسفية. ج٢ الرسائل الطبيعية، دار الفكر العربى، القاهرة ١٣٧٢هـ- ١٩٥٣م.
- ٢٩٩- رسالة فى خبر صناعة التأليف، تحقيق يوسف شوقى، دار الكتب، القاهرة ١٩٦٩.
- ٣٠٠- أ- رسالة فى العقل.
- ب- رسالة فى الحيل إلى دفع الأضرار فى رسائل فلسفية للكندى والفارلى وابن باجه وابن عدى حققها وقدم لها د. عبدالرحمن بدوى، دار الأنتلس، بيروت ١٩٨٠.
- ٣٠١- الكندى: السيوف وأجناسها. أخرجاها قام عبدالرحمن زكى.
- ٣٠٢- الكندى: فيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تتنظم ولا تكل.
- ٣٠٣- الكندى: فى عمل الساعات.
- ٣٠٤- الكندى: فيما نقله الكندى من ألفاظ سقراط. دراسة وتحقيق د. السيد محمد سيد، الزهراء، القاهرة ١٩٩٥.
- ٣٠٥- الكندى: فى تحرير وقت يرجى فيه إجابة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى من جهة التتجيم إلى سائل مسألة عن ذلك، تحقيق وتقديم د. محسن مهدى، عثمان أمين (إشراف وتصدير): نصوص فلسفية مهداه إلى د. إبراهيم منكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.
- ٣٠٦- الكندى: كُتُب الكندى إلى المختص بالله فى الفلسفة الأولى، حققه وقدمه وعلق عليه د. أحمد فؤاد الأهدلى، دار لحياء الكتب العربيه، عيسى البلى الحلبى وشركاه، القاهرة ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨م.
- ٣٠٧- اللوكري (أبو العباس فضل بن محمد اللوكري): بيان الحق بضمان الصدق، العلم الإلهى. حققه وقدم له د. السيد إبراهيم ديباجى، طهران ١٣٧٣هـ ش، ١٤١٤هـ ق.
- ٣٠٨- محمد بن سعد بن داود (الرفقة): الرسالة الكافية فى: خمس رسائل اسماعيلية.
- ٣٠٩- المراكشى (ابن البناء): تلخيص أعمال الحساب، حققه وترجمه وعلق عليه محمد سويسى، منشورات الجامعة التونسية، تونس ١٩٦٩.
- ٣١٠- مسكويه (أبو على أحمد بن محمد): تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ملتزم الطبع

- عبدالعليم صالح المحامى، القاهرة ١٣١٧هـ .
- ٣١١- مسكويه: الحكمة الخالدة (جاويدان خرد)، حققه وقدم له عبدالرحمن بدوى، النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٢.
- ٣١٢- مسكويه: فى اللذات والآلام.
- ٣١٣- مسكويه: فى النفس والعقل، تحقيق محمد اركون، مجلة الدراسات الشرقية المهد الفرنسى، دمشق ج١٧ / ١٩٦١-١٩٦٢.
- ٣١٤- مسكويه: الفوز الأصغر، مكتبة الحياة، بيروت (د.ت).
- ٣١٥- مسكويه: أ- مقالة فى النفس والعقل.
- ٣١٦- من رسالة فى اللذات والآلام، دراسات ونصوص فى الفلسفة والعلوم عند العرب، عبد الرحمن بدوى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.
- ٣١٧- مسكويه: رسالة فى الخوف من الموت، لويس شيخو: مقالات فلسفية.
- ٣١٨- مسكويه: مقالة فى علاج الحزن، لويس شيخو: مقالات فلسفية.
- ٣١٩- المغربى (أحمد بن عوض): كطف الأزهار فى خصائص المعادن والأحجار ونتائج المعارف والأسرار، تحقيق يردى توفيق، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٠.
- ٣٢٠- المفيدورس: تفسير كتاب أرسطاطاليس فى الآثار العلوية نقل حنين بن إسحق وإصلاح إسحق بن حنين، د. عبدالرحمن بدوى: شروح على أرسطو مفقودة فى اليونانية ورسائل أخرى، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.
- ٣٢١- المقرئ العلوى (محمد يبيب بن سيد أحمد): جمع المنافع فى الطب القديم، قدم له وحققه ولده فضيلة الشيخ محمد الأمين بن محمد يبيب، دار الحاوى، الامارات العربية المتحدة ١٩٩٧.
- ٣٢٢- المنزرى (عمر بن مسعود بن ساعد): كشف الأسرار المخفية فى علم الأجرام السماوية والرقوم الحرفية (ثلاثة مجلدات) وزارة التراث القومى والثقافة، سلطنة عمان ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٣٢٣- مؤلف مجهول: كتاب الشجرة ذات الأكماء الحاوية لأصول الأنغام، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة، إيزيس فتح الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣.
- ٣٢٤- الموقى (فضل الله): آيات الصدقة فى الكشف عن مطالب الهبة سبقه جامع البدائع (الرسالة الثامنة عشرة)، محى الدين صبرى الكردى، القاهرة ١٣٣٥هـ .
- ٣٢٥- ميرداماد (محمد بن محمد يدعى والحسينى): تقويم الإيمان، وشرحه كشف الحقائق للسيد أحمد العلوى العاملى مع تعليقات الحكيم الإلهى الملاعلى النورى، حققه وقدم له على أوجبى، تهران ١٣٧٦هـ ش.

- ٣٢٦- ميرداماد: كتاب القيسات، باهتمام د. مهدي محقق، مع مقدمة بالغة الإنجليزية من ت. ايزوتسو، جامعة طهران، طهران ١٩٤٦. وأيضاً شرح القيسات للحكيم العلامة السيد أحمد العلوي العاملي، تحقيق حامد ناجي اصفهاني، تهران ١٣٧٦هـ .
- ٣٢٧- ميرداماد: نبراس الضياء وتسواء السواء في شرح باب البداء وإثبات جدوى الدعاء مع تعليقات الحكيم الإلهي الملاعلي النوري، تصحيح وتحقيق حامد ناجي اصفهاني، مؤسسة انتشارات هجرت، طهران ١٣٧٣هـ .
- ٣٢٨- ناصر خسرو (أبو معين القبادياني المروزي): جامع الحكمتين، ترجمه وقدم له وعلق عليه د. إبراهيم التسوقي شتا، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٤.
- ٣٢٩- النعمان بن محمد (القاضي): الرسالة المذهبية في "خمس رسائل اسماعيلية". تحقيق وتقديم عارف تامر.
- ٣٣٠- هرمس: كتاب معادلة النفس (منحول)، عبدالرحمن بدوي: الأفلاطونية المحدثة لمحدثة عند العرب. أيرقلس: الخير المحصن، في قدم العالم، في المسائل لطبيعية، هرمس: معادلة النفس، أفلاطون: الروايع. نصوص حققها وقدم لها، وكالة المطبوعات، الكويت ١٩٧٧.
- ٣٣١- الوداعي (الداعي الأجل على بن حنظلة المحفوظي): رسالة ضياء العلوم ومصباح العلوم في "أربع كتب حقانية" تقديم وتحقيق د. مصطفى غالب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٣٣٢- يامسيئوس: كتاب الصلاة، تحقيق وتقديم الأب جوميه، عثمان أمين (إشراف وتصدير): نصوص فلسفية مهداه إلى د. إبراهيم بيومي مذكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦.
- ٣٣٣- يحيى بن سعيد بن داود: الرسالة الكافية، خمس رسائل اسماعيلية.
- ٣٣٤- يحيى بن عدي: تفسير المقالة الأولى من كتاب "ما بعد الطبيعة" لأرسطوطاليس الموسومة بألف الصغرى، د. عبدالرحمن بدوي: رسائل فلسفية للكندي والفارابي وابن باجه وابن عدي (حققها وقدم لها)، دار الأندلس، بيروت ١٩٨٠.
- ٣٣٥- يحيى بن عدي (أبو الحسن بن الهيثم): مقالة في الأخلاق، عبدالرحمن بدوي: دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١.
- ٣٣٦- يحيى بن عدي: مقالات، دراسة وتحقيق د. سحبان خليفات، عمان ١٩٨٨. ويشمل:
- ١- مقالة في غير المتناهي.
 - ٢- مقالة تبين أن كل متصل إنما ينقسم إلى منفصل وغير ممكن أن ينقسم إلى ما لا ينقسم.
 - ٣- مقالة في أن العرض ليس هو جنسا للثمنع المقولات العرضية.

٤- مقالة تبين وجود الأمور العامية والنحو الذى عليه تكون محمولة، والنحو الذى تخرج به من أن تكون محمولة.

٥- مقالة فى تزييف قول القائلين بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ.

٦- مناقضة فى أن الجسم جوهر وعرض.

٧- تعاليق عدة فى معانى كثيرة.

٨- قول فيه تفسير أشياء ذكرها عند ذكره فضل صناعة المنطق.

٩- رؤيا فى تعريف النفس.

١٠- مقالة فى تبين أن الشخص اسم مشترك.

١١- مقالة فى الكل والأجزاء.

١٢- تفسير المقالة الأولى من كتاب أرسطوطاليس.

١٣- كتاب فى الحاجة إلى معرفة ماهيات الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض، فى معرفة البرهان.

١٤- مقالة فى الموجودات.

١٥- القول فى أن كل متصل فإنما ينقسم إلى أشياء تنقسم دائماً بغير نهاية.

١٦- شرح بعض مقالات الاسكندر الافروديسى فى الفرق بين الجنس والمادة.

١٧- جواب عن كتاب أبى الجيش النحوى فى أن العدد غير متناه.

١٨- كتاب نقض حجج القائلين بأن الأفعال خلق الله واكتساب للعباد.

١٩- أجوبة بشر اليهودى عن مسائله.

٢٠- كتاب فى إثبات طبيعة الممكن ونقضه حجج المخالفين لذلك.

٢١- مقالة فى القصد.

٢٢- مقالة فى استخراج تعدد المضمر من غير أن يسئل المضمر عن شئ.

٢٣- نبين الفصل بين صناعتى المنطق الفلسفى والنحو العربى.

٢٤- فى البحوث الثلاثة من غير المتناهى.

ثانياً: مصادر تاريخية قديمة

١- ابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى): عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رحنا، مكتبة الحياة، بيروت (د.ت.).

٢- ابن جليل (أبو داود سليمان بن حيان الاندلسى): طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد،

مؤسسة الرسالة، بيروت (د. ت).

٣- ابن خلدون (عبد الرحمن): المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د. ت).

٤- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه د. إحسان عباس (ثمانية مجلدات)، دار الثقافة، بيروت (د. ت).

٥- ابن عبد الرسول (القاضي عبد النبي الأحمد فكري): جامع العلوم في اصطلاحات الفنون الملقب بدستور العلماء (أربعة أجزاء)، مؤسسة الأعلمي، بيروت ط ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٦- ابن الفرصى (أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ): تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦.

٧- ابن النديم: الفهرست، دار المعرفة، بيروت (د. ت).

٨- أبو البقاء (أيوب بن موسى الحسيني الكفوي): الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (خمس أجزاء)، طبعة ثانية منقحة د. عدنان درويش، محمد المصري وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨١.

٩- إسحق بن حنين: تاريخ الأطباء والفلاسفة تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠- الأعمش (عبد الأمير): المصطلح الفلسفي عند العرب، دراسة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩. ويضم:

أ- الحدود لجابر بن حيان.

ب- الحدود والرسوم للكندي.

ج- الحدود الفلسفية للخوارزمي الكاتب.

د - الحدود لابن سينا.

هـ- الحدود للغزالي.

و- كتاب المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين لسيف الدين الأمدى.

١١- البغدادي (إسماعيل باشا): هدية العارفين أسماء المؤلفين وأثار المصنفين (جزءان)، المثنى، بغداد، استانبول ١٩٥١.

١٢- البيهقي (ظهير الدين): تنمة صوان الحكمة أو تاريخ حكماء الإسلام، عنى بشره وتحقيقه، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

١٣- التهانوي (محمد علي الفاروقي): كشف اصطلاحات الفنون (أربعة أجزاء)، د. لطفى عبد البديع، ترجم النصوص الفارسية د. عبد النعيم محمد حسنين، راجعه أمين الخولي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٩.

- ١٤- الجرجاني (السيد الشريف على بن محمد بن علي السيد الزين أبي الحسن الحسيني الحنفي):
التعريفات، معجم يشرح الألفاظ المصطلح عليها بين الفقهاء والمتكلمين. ويليه رسالة في بيان
اصطلاحات رئيس الصوفية سيدي محي الدين ابن العربي الواردة في كتابه "الفتوحات
المكية"، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة ١٣٥٠هـ - ١٩٣٨م.
- ١٥- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون (أربعة
أجزاء)، المثني، بغداد استانبول ١٩٤١.
- ١٦- حنين بن إسحق: آداب الفلاسفة اختصره محمد بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن محمد
الانصاري: حققه وقدم له وعلق عليه عبدالرحمن بدوي، معهد المخطوطات العربية، الكويت
١٩٨٥.
- ١٧- الخوارزمي (أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف): عنى بتصحيحه ونشره للمرة الأولى
سنة ١٣٤٢هـ إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.
- ١٨- الخوارزمي (جمال الدين أبو بكر): مفيد العلوم ومبيد الهجوم، مطبعة السعادة، القاهرة
١٣٣٠هـ.
- ١٩- الزركلي (خير الدين): الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب
والمستعربين والمستشرقين (أحد عشر جزءاً) ط٣، جميع الحقوق محفوظة للمؤلف (د.ت.).
- ٢٠- الزوزني: تاريخ الحكماء وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب
أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق يوليوس
ليبرت Julius Lippert، مكتبة المثني، بغداد، مؤسسة الخانجي بمصر، ليبزج ١٩٠٣. طبعة
أخرى: مكتبة المثني، القاهرة (د.ت.).
- ٢١- السجستاني (أبو سليمان المنطقي): صوان الحكمة وثلاث رسائل، حققه وقدم له د.
عبدالرحمن بدوي، طهران ١٩٧٤.
- ٢٢- سزكين (فؤاد): تاريخ التراث العربي (مجلدان)، نقله إلى العربية د. فهمي أبو الفضل، راجعه
د. محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٨/١٩٧١.
- ٢٣- السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن علي): مفتاح العلوم ط١ مصطفى البابي الحلبي
وأولاده بمصر، القاهرة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م.
- ٢٤- الشهرزوري (شمس الدين محمد بن محمود): نزهة الأرواح وروضة الأفراح تواريخ
الحكماء راجعه وأشرف على تحقيقه وقدم له بدراسة مستفيضة د. محمد علي أبو ريان،
تصدير د. عمر عبدالعزيز، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م. وله

- طبعة أخرى في دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- ٢٥- صاعد الاندلسي (القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد): طبقات الأمم، نشره وفيه بالحواشي وأرفقه بالروايات والفتاوى الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت ١٩١٢. وله طبعة أخرى بعنوان "لتعريف بطبقات الأمم" تأليف قاضي صاعد اندلسي، مقدمة وتصحيح وتحقيق د. غلام حنا جشيد ترادولن مؤسسة لتشارات هجرة، تهران ١٣٧٦هـ.
- ٢٦- طاش كبرى زاده (أحمد بن مصطفى): مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم (ثلاثة أجزاء وكشاف)، مراجعة وتحقيق كامل بكري، عبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٦٨.
- ٢٧- عفيفي (أبو العلا)، محمود (زكي نجيب)، بدوي (عبد الرحمن)، القندي (محمد ثابت): مصطلحات الفلسفة باللغات الفرنسية والإنجليزية والعربية، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦٤.
- ٢٨- القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف): أخبار العلماء بأخبار الحكماء. تحقيق إحسان عباس، صادر الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.
- ٢٩- الكتبي (محمد بن شاكر): فوات الوفيات والذين عليها (أربعة مجلدات) تحقيق إحسان عباس، صادر الثقافة، بيروت ١٩٧٣.
- ٣٠- كرم (يوسف)، وهبة (مراد)، شلالة (يوسف): المعجم الفلسفي، مكتبة يوليو، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة (د.ت.).
- ٣١- المبشر بن فاتك (أبو الوفا): مختار الحكم ومحاسن الكلم، حققه وقدم له وعلق عليه عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط ٢/ ١٩٨٠.
- ٣٢- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية: مصطلحات الفلسفة وعلم الاجتماع، القاهرة ١٩٧١.
- ٣٣- مجمع اللغة العربية: مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرها المجمع، المجلد الثاني، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
- ٣٤- مجمع اللغة العربية: المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٣٥- وهبة (مراد): المعجم الفلسفي، معجم المصطلحات الفلسفية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٨.

ثالثاً: مراجع تاريخية حديثة

- ١- بدوى (عبدالرحمن): التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية.
 - ٢- العلوى (جمال الدين): مؤلفات ابن باجه (جزءان)، دار الثقافة، بيروت. دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٨٣.
 - ٣- الجابرى (محمد عابد): ابن رشد، سيرة وفكر، دراسة ونصوص، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٨.
 - ٤- قنواتى (جورج شحاتة): مؤلفات ابن رشد، تقديم د. محى الدين صابر، تصدير د. إبراهيم بيومى مذكور، مهرجان ابن رشد، الجزائر ١٩٧٨، القاهرة ١٩٧٨.
- (هذه هى المصادر والمراجع التى تم استعمالها بالفعل فى هوامش الصفحات دون المراجع العامة للموضوع كقراءات عامة).

المحتويات
الباب الثالث
الحكمة العملية
الفصل الأول
الأخلاق

الموضوع	الصفحة
أولاً: الأخلاق النفسية (الكندى)	١١
١ - من الحكمة النظرية إلى الحكمة العملية	١١
٢ - تطهير النفس	١٢
٣ - دفع الأحزان	١٢
ثانياً: اللذة والطب الروحاني (الرازي)	١٦
١ - اللذة	١٦
٢ - الطب الروحاني	١٨
ثالثاً: الأخلاق العملية والنظرية (الفارابي)	٢٤
١ - طب الأبدان وطب النفوس	٢٤
٢ - أخلاق الفطرة والاعتدال	٢٨
٣ - تحصيل السعادة	٣٥
٤ - العقل النظري والعقل العملي	٤٢
٥ - الخير والشر	٤٩
رابعاً: الأخلاق الطبيعية والدينية (إخوان الصفا)	٥٢
١ - الأخلاق الطبيعية (الجغرافية)	٥٣
٢ - الأخلاق الفردية والاجتماعية	٥٦
٣ - الأخلاق العقائدية	٦٣
٤ - ماهية القيم الدينية	٦٨
أ - ماهية الإيمان	٦٨
ب - ماهية التوكل والاخلاص	٧٢

٧٤	ج- ماهية الصبر والرضا والقضاء والقدر
٧٦	د- ماهية الطاعة
٧٨	٥ - الأخلاق الصوفية
٧٩	أ- الخلاص والزهد
٨١	ب - العشق
٨٦	ج- الطريق إلى الله
٩٥	خامساً: الأخلاق الإنسانية (أبو حيان)
٩٦	١ - الإنسانية أفي
١٠٠	٢ - أخلاق البدن
١٠٥	٣ - أخلاق الروح
١١٠	سادساً: الأخلاق الإشرافية (ابن سينا)
١١٠	١ - أخلاق الطبيعية والفطرة
١١٨	٢ - الأخلاق النفسية
١٢٤	٣ - الأخلاق الباطنية
١٢٩	٤ - الأخلاق العقلية
١٣١	سابعاً: الإنسان موجود أخلاقي (مسكويه)
١٣٣	١ - اللذة والخير والسعادة
١٣٦	٢ - معرفة النفس
١٤٣	أ- العدالة وسط بين الطرفين
١٤٦	ب - التربة وتهذيب النفس
١٥٠	٣ - الأخلاق الالهية
١٥٢	أ- أخلاق الملائكة
١٥٥	ب - العبادة
١٥٧	ج - المحبة
١٥٩	د - الصداقة والقناعة
١٦٢	٤ - الأخلاق الشرعية

الفصل الثاى

الاجتماع والسياسة

الموضوع	الصفحة
أولاً: من الأخلاق إلى الاجتماع	١٦٧
١ - الأخلاق الاجتماعية	١٦٨
أ- أخلاق السحر	١٦٨
ب- الأخلاق الطبقية	١٦٩
ج- الفضائل المهنية	١٧٣
د- الأخلاق الاقتصادية والتشريعية	١٧٥
٢ - التكوين والبنية الاجتماعية	١٧٩
أ- الدين ظاهرة اجتماعية	١٧٩
ب- الطبقات الاجتماعية	١٨٢
ج- الترابط الاجتماعي	١٨٨
د- الدوائر الاجتماعية	١٩٣
ثانياً: أنواع المدن	١٩٦
١ - المدينة الفاضلة	٢٠٠
٢ - المدينة الجاهلة	٢٠٧
أ- المدينة الجاهلية	٢١١
ب- المدينة الفاسقة	٢١٨
ج- المدينة المبدلة	٢١٨
د- المدينة الضالة	٢١٩

٢١٩	٣ - آراء أهل المدن الجاهلة والضالة
٢١٩	أ- الصراع والتآلف
٢٢٢	ب- العدل والخشوع
٢٢٤	ج- الآراء والأفعال
٢٢٧	د- وسائل حفظ الثروة
٢٢٨	٤ - تدبير المتوحد
٢٢٩	أ- معنى التدبير
٢٣١	ب- أنواع البشر والتجمعات
٢٣٥	ج- المدينة الفاضلة ونوابتها
٢٣٧	د- الرئاسة والكمال
٢٣٩	ثالثا : من الاجتماع إلى السياسة
٢٤٠	١ - الأخلاق والسياسة والتربية
٢٤٠	أ- السياسة الأخلاقية
٢٤٤	ب- الأخلاق السياسية
٢٤٧	ج- التربية السياسية
٢٥٥	٢ - الدين والبلد والكون
٢٥٥	أ- السياسة الدينية والاجتماعية
٢٥٩	ب- السياسة البدنية
٢٦٦	ج- السياسة الكونية

الموضوع	الصفحة
رابعاً: المصلحة السياسية.....	٢٧٢
١ - الأخلاق الرئاسية	٢٧٤
٢ - الرئاسة الأخلاقية	٢٨٤
٣ - الرئيس الفيلسوف	٢٩٣
٤ - خصال الرئيس	٣٠٠
خامساً: الخلافة والامامة والنبوة.....	٣١٥
١ - الخلافة في الأرض	٣١٧
أ- الخلافة والإمامة	٣١٧
ب- وظائف الإمام والداعية	٣١٩
٢ - الملك والسلطان	٣٢٧
أ- الملك النبي	٣٢٧
ب - سلطان العصر	٣٣٣
٣ - النبوة والتشريع	٣٣٨
أ - الناموس الرباني	٣٣٨
ب - القانون الطبيعي	٣٤١
ج - القانون الاجتماعي	٣٥٠

الفصل الثالث

التاريخ

الصفحة

الموضوع

- أولاً: هل هناك فلسفة فى التاريخ؟ ٣٦٥
- ١ - لماذا غابت فلسفة التاريخ؟ ٣٦٦
- ٢ - هل يمكن إقامة فلسفة للتاريخ؟ ٣٦٩
- ثانياً: التاريخ للرأسى ٣٧٥
- ١ - التاريخ النازل (نظرية الفيض) ٣٧٥
- أ- فيض الوجود (مراتب الموجودات) ٣٧٥
- ب- فيض المعرفة (نظرية النبوة) ٣٨٧
- ٢ - التاريخ الصاعد (نظرية الاشراق) ٣٨٩
- أ- الادعية الأخروية (الفارابى) ٣٩١
- ب- الحكمة الخالدة (مسكويه) ٣٩٤
- ثالثاً: التاريخ الأفقى ٤٠٩
- ١ - قصص الأنبياء ودورات التاريخ ٤١٠
- أ- الأنبياء والرسل ٤١٢
- ب- الملائكة والرسل والأصحاب والأقوام ٤١٩
- ٢ - النبوة وتاريخ الكون ٤٢٣
- أ- التفاوت فى الوجود ٤٢٧
- ب- إثبات النبوة الطبيعية ٤٣٢
- ج- إثبات النبوة النفسية ٤٣٦

الموضوع	الصفحة
رابعاً: التاريخ الدائري	٤٤٨
١ - زمان النبوة	٤٥٠
أ- نسخ الشرائع	٤٥٢
ب- النبوة والملوك	٤٥٧
٢ - الأكوار والأدوار	٤٦٠
أ- جدل التاريخ	٤٦١
ب- الأدوار السبعة	٤٧١
٣ - حساب الجمل	٤٧٧
أ- الحروف والكلمات	٤٧٨
ب- الأسماء والألقاب	٥٠٠
خامساً: الضرورة والحرية	٥٠٩
١ - أنواع الضرورة	٥٠٩
أ- الحتمية الجغرافية	٥٠٩
ب - الحتمية التاريخية	٥١٩
٢ - نشأة الحضارة الإنسانية	٥٢٦
أ- نشأة اللغة	٥٢٦
ب- نشأة الملة	٥٣٧
سادساً: خصائص الشعوب وتاريخ الحضارات	٥٣٩
١ - المحاولات الجزئية	٥٤٠
أ- خصائص الشعوب	٥٤١
ب - المذاهب والملل	٥٤٦
٢ - الحضارة بين الوحدة والتنوع	٥٤٩
أ- تعدد الثقافات	٥٥١
ب- وحدة الحضارة الإنسانية	٥٦٢

٥٧١	٣ - مركبة الثقافة العربية
٥٧٦	أ- الثقافة العربية
٥٨٢	ب- الثقافات غير العربية
٥٨٩	سابعاً: تاريخ العمران
٥٨٩	١ - التاريخ السياسي
٥٩٠	أ- الوعي بحركة التاريخ
٥٩٠	ب - الوعي السياسي بالظلم
٥٩٧	٢ - الدين والسلطة والجنس
٥٩٩	أ- واجبات السلطان تجاه الرعية
٦٠٧	ب- واجبات الرعية تجاه السلطان
٦١٤	ج- واجبات المرأة الجميلة
٦١٧	٣ - التاريخ الاجتماعي
٦١٩	أ- فلسفة التاريخ
٦٢٨	ب- طبائع العرب
٦٣٤	ج- قيام الدول
٦٣٩	د - سقوط الدول
٦٤٤	هـ- مراحل التاريخ
٦٤٧	و - خاتمة: من اليونان القديم إلى الغرب الحديث
٦٤٩	المصادر والمراجع
٦٤٩	أولاً: النصوص القديمة
٦٨٠	ثانياً: مصادر تاريخية قديمة
٦٨٤	ثالثاً: مراجع تاريخية حديثة

obeikandi.com

* لنفس المؤلف *

أولاً: تحقيق وتقديم وتعليق:

١- أبو الحسين البصرى: المعتمد فى أصول الفقه، جزءان، المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٣-١٩٦٥.

٢- الحكومة الاسلامية للامام الخمينى، القاهرة ١٩٧٩.

٣- جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للامام الخمينى، القاهرة ١٩٨٠.

ثانياً: إعداد وإشراف ونشر:

١- اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسلامية، العدد الأول، المركز العربى للبحث النشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثاً: ترجمة وتقديم وتعليق:

١- نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط (المعلم لأوغسطين، الإيمان باحثاً عن العقل لأنسليم، الوجود والماهية لتوما الاكوينى)، الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢- اسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثانية الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١.

٣- لسنج: تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٤- جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

رابعاً: مؤلفات بالعربية:

- ١- قضايا معاصرة، الجزء الأول، فى فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٧.
- ٢- قضايا معاصرة، الجزء الثانى، فى الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٨.
- ٣- التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٧.
- ٤- دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.
- ٥- من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين، (خمسة مجلدات) الطبعة الأولى، مديولى، القاهرة ١٩٨٨.
- ٦- دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨.
- ٧- الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢ - ١٩٨١)، (ثمانية أجزاء)، مديولى، القاهرة ١٩٨٩.
- ٨- حوار المشرق والمغرب، توبقال، الدار البيضاء ١٩٩٠ (بالاشتراك مع محمد عابد الجابرى).
- ٩- مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١، مجد، بيروت ١٩٩٥.
- ١٠- هموم الفكر والوطن (جزءان)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، ح١ التراث والعصر والحداثة، ح٢ الفكر العربى المعاصر.
- ١١- الدين والثقافة والسياسة فى الوطن العربى، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.
- ١٢- جمال الدين الأفغانى، المائوية الأولى (١٨٩٧ - ١٩٩٧)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.
- ١٣- حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

خامساً: مؤلفات بالفرنسية والانجليزية:

- 1- Les Méthodes d'Exégèse, essai sur La science des Fondements de la Compréhension, ilm usul al – Fiqh, le Caire, 1965.
- 2- L'exégèse de la phénoménologie, l'état actuel de la méthode phénoménologique et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980.
- 3- La phénoménologie de L'Exégèse, essai d'une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966), Le Caire, 1988.
- 4- Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianity and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.
- 5- Islam in the modern world, 2 vols, Anglo-Egyptian Bookshop Cairo, 1995, Dar Keba', 2000.